#### جمعنية الدراسات الاسلامية

## معاضرات في المنابعة ا

عَلِيْعَ الْمُعَالِينَ الْمُعَالِينِ الْمُعَالِينَ الْمُعِلِينَ الْمُعَالِينَ الْمُعَالِينَ الْمُعَالِينَ الْمُعَالِينَ الْمُعَالِينَ الْمُعَالِينَ الْمُعَالِينَ الْمُعَالِينَ الْمُعَالِينَ الْمُعَلِينَ الْمُعَالِينَ الْمُعَالِينَ الْمُعَالِينَ الْمُعِلِينَ الْمُعَلِينَ الْمُعَلِّينَ الْمُعَلِينِ الْمُعَلِينِ الْمُعَلِينِ الْمُعَلِينِ الْمُعَلِينِ الْمُعَلِينِ الْمُعِلِينِ الْعُلِينِينِ الْمُعِلِينِ الْمُعِلِينِ الْمُعِلِينِ الْمُعِلِينِ الْمُعِينِ الْمُعِلِينِ الْمُعِلِينِ الْمُعِلِينِ الْمُعِلِينِ الْمُعِلِينِ الْمُعِلِينِ الْمُعِلِينِ الْمُعِلِينِ الْمُعِلِينِ الْمُعِينِ الْمُعِلِينِ الْمُعِلِينِ الْمُعِلِينِ الْمُعِلِينِ الْمُعِلِينِ الْمُعِلِينِ الْمُعِلِينِ الْمُعِلِينِ الْمُعِلِينِ الْمُعِيلِينِ الْمُعِلِينِ الْمُعِلِينِ الْمُعِلِينِ الْمُعِلِينِ الْمُعِلَيْعِلِي الْمُعِلِينِ الْمُعِلِي الْمُعِلِي الْمُعِلِي الْمُعِلِي الْمُعِلِي الْمُعِلِي الْمُعِلِي الْمُعِلِي الْمُعِلِي الْمُ



### جمعية الدراسات الاسلامة

# معاضرات فنائع المناه المعالمة المنابعة المنابعة

ألعت ها الأستاذ الشيخ محت البوزهرة الأستاذ الشيخ محت البوزهرة بمعهد الدراسات الإسلامية على المنادع الأخشيد بالرومة





## بب مانيالهم الرحيم

لك الحمد والشكر على ما أنعمت ، ولك الفضل على ماوفقت، فإليك نضرع ويحلك نسعى وتحفد ، وماكان منا من خير فبتوفيقك وفضلك، وماكان منا غير وذلك فمن أنفسنا وسيئات أعمالنا ،وإنك في كلتا حالينا الرحيم بنا ، وأنت العفو المفور ، ونصلى و نسلم على نبيك نبى الرحمة الذي لا يضل من اتبعه ، وعلى آله سوأصحابه الهداة الأعلام . ومن اتبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

أما بعد فقد وفقنى الله لأن أكتب مجلدات فى أثمة ثمانية من أثمة الإسلام الذين نشروا العلم الإسلامى، واستنبطوا واجتهدوا فيه ، وكان ممن يتبع طريقهم جموع متكاثرة من المسلمين فى بقاع الديار الإسلامية قاصيها ودانيها ، وهؤلاء الأثمة الثمانية نذكرهم على حسب سبقهم فى الزمان ، الإمام زيد بن على زين العابدين، والإمام أبو عبد الله جعفر الصادق بن محمد الباقر ، والإمام أبو حنيفة النمان ابن ثابت ، والإمام مالك بن أنس، والإمام محمد بن إدريس الشافعى ، والإمام ابن حنبل ، والإمام ابن حزم الأندلسى ، والإمام تتى الدين ابن تيمية .

و إن هذه السكتب الثمانية كان الفقه فيها يعلوعلى كثيرين من غير المتخصصين الذين عكفوا على الفقه يتدارسونه ، ولذلك طلب إلى السكثيرون أن أسهل صعب مهذه السكتب ، وأقرب بعيدها ، وأوطىء أكنافها ، لينتفع منها طلاب الثقافة عامة ، ويجد مع ذلك طلاب التخصص فيها فائدة ، وإن لم تكن غاية ما يطلبون ، موأن تكون بعبارة يقل فيها الاصطلاح الفقهى ، بحيث لا تعلو على العامة ، مولا تنبو عنها أذواق الخاصة ، لا يستصغرها السكبير، ولا يعسر فهمها على الصغير ...ولا تنبو عنها أذواق الخاصة ، لا يستصغرها السكبير، ولا يعسر فهمها على الصغير ... وأن توافرت له ثقافة إسلامية وإن كانت محدودة .

ولم يكن لى بد من الاستجابة ، حتى تعم الفائدة ، ويعرف غير المتخصصين

فضل أسلافهم ، ومقدار خوضهم فى مجارالفقه ، لاعدة لهم إلاما كان من الكتار والسنة وفقه الصحابة رضى الله عنهم أجمعين ، ولاسلاح معهم إلا فهم أو توه وإخلاص استناروا به ، وورع وتتى كانا درعهما التى يدرعون بها من الضلال وجُنتُهم التى يقون بها أنفسهم من شر الهوى ووساوس الشيطان ، فاجتمعت فيهم عناصر الإنتاج الفقهى الصحيح ، وهى الترام مصادر الإسلام الأولى مو الكتاب والسنة وفقه الصحابة ، و بَعَر نافذ إلى لب الحقائق الإسلامية لاينجرفون فى طلبها ، ولا يتجهون إلى غير غايتها ، وإخلاص أنار بصائر افأدركوا ، فإن الإخلاص نور القلوب ، وهَدْى العقول .

ولقد قمنا بذلك ، وقد نشرت بعض المجلات موجزات سهلة كتبناها عر بعض هؤلاء الأعلام ، ونشرت أخرى بحوثا فوق المختصرات ، ودون الموسوعاد التى كتبناها فى المجلدات ، وقد كان كلاها بقلمنا ، وبحن فى هذا الكتاب نكتد ماهو دون الموسوعة ، وقوق المختصر ، وهو يجمع الكتابة عنهم جميعا ، ولا يخص بعضهم ، ويترك الآخرين .

وإن من هؤلاء الأعلام الإمامين زيدا والصادق ، وهما من أئمة الشيعة لأنهما من عترة النبى صلى الله عليه وسلم ، وفضلهما مذكور مشهور معروف فلا يغضمن مقامهما ، أن بالغف تقديسهما بعض إخواننا ، فكان لابد أن نترج لها ، لتأليف القلوب وتنقية سيرة هذين الإمامين مما علق بها من أوهام .

و إن من أراد الاستفاضة فى فقه الأثمة فبين يديه الكتب الثمانية ، ومن أر الإلمام فأمامه هذا الكتاب ، و نضرع إليه أن يتى نفوسنا من شر غرورها ، وأيو فقنا فى كل مانكتب وما نقول ومانفعل ، وأن يهدينا إلى سواء الصراط

## شهيد ("

المسدر الأوللفقه الإسلامي النصوص ، من كتاب الله تعالى وسنة بررسولاصلى الله عليه وسلم، فالقرآن هو كلي هذه الشريعة الذي يتضمن كل قواعدها وأصولها ، وإن كان لا يشتمل على أكثر فروعها ، والسنة هي التي فصلت هذه الفروع وأثمت بيان الكثير منها ، ووضعت الأعلام ليبني على هذه النصوص المايجد للناس من أحداث، ولم يكن لأحد أن يفصل الشريعة عن هذين الأصلين، ولأنهما عمودها ، والمرجع الذي يرجع إليه .

وذلك لأن هذه الشريعة دين يجب اتباعه ، وليست قائمة على العقل المجرد، أو التجربة الإنسانية وحدها ، إنما هي شريعة السماء الخالدة إلى أهل الأرض ما بقيت ، وما بتى الغاس حتى يوم الدين.

والدين دائمًا مرجعه الأول إلى النقل ، وإن كان الإسلام موافقًا في كل وهضاياه للمقل، حتى يقول أعرابى إنى مارأيت محمدًا يقول فى أمرا فعل . والعقل . يقول لاتفعل ، والعقل يقول افعل .

و إذا كان الأصل في كل دين هو النقل، والشريعة الإسلامية دين، فلابد أن يكون أساسها النقل.

حلا شكأن للعقل عملا في استنباط الأحكام النقلية ، ولكنه يقوم عنى ميدانين من ميادين الفكر :

أولها -- تعرف المرامى والمقاصد من جملة النصوص الشرعية . بأن تتعرف

<sup>(</sup>١) هذا تمهيد نقدمه لبيان تطور الاجتهاد الفقهى بإنجاز، ومن أراد المبحث مطولا فأمامه كتب الأئمة التي وفقنا الله تعالى لكتابتها .

الحكمة فى كل نص شرعى جاء بحكم . ويستخرج الضابط الذى يصح أن يطبق... مقتضاه الحكم فى كل موضع يشبهه ، ثم تتعرف مقاصد الشريعة جملة من مجموع... ما استنبط من ضوابط الأحكام المختلفة ، وكل هذا للفكر الإنساني مجاله فى العمل فيه .

وثانيهما — فى الاستنباط مما وراء النصوص فيما لم يوجد فيه نص لأن . الحوادث لاتتناهى ، والنصوص تتناهى ، فكان لابد من استخراج أحكام . مالانص فيه فى ضوء ماورد النص فيه ، وبذلك يتلاقى المجالان .

وإن المفاهج الفقهية قد تختلف ، والـكل مستظل براية النصوص. لايخرج. عن سلطانها ، ولا يتجاوز نطاقها ، فمن الفقهاء من اقتصر على المقايسة بين أحكام النصوص ، والحوادث التي جدت ولا يشملها النص ، والضوابط التي يستنبطها الفقيه من المصوص و تسمى العلل ينظر في تطبيقها على الحوادث التي لم ينص على حكمها ، فتمرف علة النص ويفظر في صلاحية الحادثة التي لا نص على حكمها لأن تعطبق عليها هذه العلة ، وهذه الطريقة تسمى طريقة القياس .

ومن الفقهاء من أخذ بهذا القياس ، وأخذ معه بالمقاصد العامة الشريعة . وهى مصلحة الإنسان ، فأخذ بالمصلحة التى تكون مناسبة لمقاصد الشرع،وغير منافية لأحكامه ، وفيها دفع حرج خاص .

ومنهم من حكم العقل حيث لانص . والعقل ينتهى فى ذاته إلى المصلحة ٣ — كان لابد إذن من الاجتهاد لتعرف أحكام الشريعة ، ومكان الاجتهاد .. هذان الميدانان اللذان أشر نا إليهما ، وكان للاجتهاد مجال ثالث فوق هذين . وهو تعرف معانى النصوص من ألفاظها ، واستخراج الأحكام منها ، لأنه ليس . كل مسلم قادراً على استخراج الأحكام من النصوص ، فإن لذلك قواعد ثابتة يدركها أو لئك الذين تلقوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بفطرهم . إذا كانوا قد لازموا الرسول ، ولهم مدارك عالية فى العلم كعمر وعلى وأبي بكر ، وزيد .

ابن ثابت وعبد الله بن مسعود وعبد الله بن عمر وعبد الله بن عباس. وغيرهم من علماء الصحابة رضى الله عنهم أجمعين .

وفوق كل ذلك ليس كل مسلم على علم بالنصوص القرآنية والأحاديث النبوية حتى يمكنه أن يفتى على علم وبحجة ، ولذلك كان في عهد الصحابة ، وهو المصر الذي كان فيه الاجتهاد غضاً ، والحاجة إليه شديدة أحكثرة الحوادث ، ولا تساع الرقعة الإسلامية - مجتهدون ومتبعون . كان فيهم من يفتى ، وفيهم من يستفتى وفيهم من يسأل ، وفيهم من يجيب . ثم كان من بعدهم تابعوهم ثم كل المجتهدين .

وإن الاجتهاد الفقهى قد أخذ أدواراً أربعة :

#### ١ ــ الاجتهاد في عصر النبي صلى الله عليه وسلم

وقد كان عليه السلام يجتهد ، فقد كان هو المرجع للناس فى شئون دينهم يستفتونه ويفتيهم ، ويسألونه في يعرض لهم من شئون الحياة ، ومايلابسهم من أمور تتعلق بأسرهم ، أو اجتماعهم أو معاملاتهم فيفتيهم النبى صلى الله عليه وسلم بوحى من الله بقرآن ينزل ، أو بوحى يوحى إليه ، أو باجتهاده عليه الصلاة السلام .

و إذا كان باجتهاد من النبى صلى الله عليه وسلم ، فإن كان خطأ لا يقره الله عليه وسلم ، فإن كان خطأ لا يقره الله علما مادام يبين أصلا شرعيا ، بل يبين له سبحانه وتعالى الحق فيه ، كما كان الشأن فى أسرى بدر ، فقد تشاور النبى صلى الله عليه وسلم فمنهم من أشار بالقتل الذريع . واختار النبى صلى الله عليه وسلم رأياً

من الرأيين لا هو بالعفو المطلق ، ولا هو بالقتل ، وذلك أن يخرج الأسير إلى أهله بفدية يقدمونها ، وقد بين الله تعالى الحسم بالنسبة للأسرى ، وهو ألا يفتدوا مادامت المعركة لم تنته بصلح دائم أو مؤقت ، فإن المعركة بعد بدر كانت تعتبر مستمرة بين المشركين في مكة والمؤمنين ، ولم تنته إلا بالفتح المبين في العام الثامن من الهجرة المحمدية ، وقدا قال تعالى : [ ما كان لنبي (١) أن يكون له أسرى حتى يشخن في الأرض ، تريدون عرض الدنيا ، والله يريد الآخرة ، والله عزيز حكيم . لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيا أخذتم عذاب عظيم ، والله عزيز حكيم . لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيا أخذتم عذاب عظيم ، في أيم الله في أيديكم من الأسرى إن يعلم الله في قلوبكم خيراً يؤتكم خيراً مما أخذ عفور رحيم ، يا أيم الله ي قل لمن في أيديكم من الأسرى إن يعلم الله في قلوبكم خيراً يؤتكم خيراً مما أخذ . من كم ويغفر لكم ، والله غفور رحيم ] (١).

فعلماً الله على الله عليه وسلم لا يُمكن أن يترك إذا كان فى التشريع أو بعبارة أخرى إذا كان يتعلق بمبدأ شرعى ، كمبدأ الأسرى .

٣ — وقد أنحرف بعض الذين يكتبون فى الشريعة فقال: إن ما يكون باجتهاد من النبى لا يتبع، ونقول: [كبرت كلة تخرج (٢) من أفواههم، إن يقولون إلا كذبا] ذلك أن تقرير المبادىء الشرعية من الرسول، لا يمكن أن يجرى فيها الخطأ، لأنه هو المبلغ عن ربه، والمبادىء الشرعية قد جاء بتبليغها، فكيف يبلغ الناس خطأ، سواء أكان باجتهاد، أم كان بوحى من السماء، لأنه إذا كان اجتهادا واخطأ فيه لا يمكن أن يترك من غير تصويب.

<sup>(</sup>١) قد يسأل سائل ، لماذا لم يوح الله إلى النبي صلى الله عليه وسلم بالحق ابتداء بدل أن ينبهه إلى الحطأ انتهاء ؟ والجواب عن ذلك هو تعليم الله للناس ألا يغتروا بآرائهم ويفرضوا فيها الحق الذي لايقبل شكا ، وأن يلزموا الناس بتفكيرهم معتقدين فيها الصواب المطلق فالله سبحانه يبين لهم بهذه النخطئة أنه لاأحد فوق الحطأ ، فهذا محمد المصطنى خير البشرية قد يخطىء ، وأين يكونون هم بجواره عليه السلام .

 <sup>(</sup>١) سورة الأنفال الآيات : ٧٧ - ٧٠ . (٢) سورة الحكمف الآية ٥ .

وقد يكون للنبى خطأ فى غير تقرير المبادىء ، والأحكام الشرعية فقد قرر هو عليه السلام أنه قد يخطىء فى شئون الدنيا ، وقد يخطىء فى غير المبادىء .

فقد ثبت أنه وهو يستعد لفزوة بدر قد نزل في منزل غير حسن ، فنبهه بعض الحجاهدين إلى المنزل الحسن ، وذلك بلا ريب ليس في تقرير مبدأ ، بل في تخير معازل القتال ، والأمر فيها للرأى والمشورة ، وقد كان هو يستشير الصحابة فيها .

وقد استشاره بعض الصحابة فى تأبير النخل ، فأشار بعدم تأبيره فلم يثمر النخل ، فراجع الرجل النبى فى ذلك ، فقال عليه السلام أنتم أدرى بشئون دنياكم .

وقد حمل بعض المنحرفين ذلك الحديث على مالا يحيمل، فاتخذ منه سبيلا لتعطيل أحكام الشريعة جملة ، إذ فهم أن كل أوامر القرآن وأوامر النبي صلى الله عليه وسلم والمبادىء الشرعية المقررة كتأبير النخل، أى أن الناس فيا يتعلق بشئونهم الدنيوية من تشريع وصناعات وزراعات ونظم حكم ، ونظم, اقتصادية واجتماعية وأسرية هم أدرى بها ، وأن لهم أن يشترعوا ماشاءوا من شرائم مع مخالفة لنصوص القرآن والسنة ، وأن لهم أن يحلوا و يحرموا .

وذلك افتراء على الله وعلى رسوله صلى الله عليه وسلم، إذ نسوا قوله تعالى:

[ ولاتقولوا لما تصف (۱) السفتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون ] وأن الحديث يتعلق بالصناعات وفنون الزراعة ، وتثمير الأشجار ، فهل يتصور هؤلاء أن النبي . يمكن أن يكون حجة وذا خبرة في فنون الزراعة والتجارة ، وصناعة الزجاج . والجلود ، ونسيج الأقطان والحرير ، وغير ذلك بما يتعلق بالمن المختلفة ؟!

<sup>(</sup>١) سورة النحل الآية ١١٦

إن كانوا يتصورون ذلك ، فقد خلطوا خلطاً كبيراً ، ولن يميزوا بين رسول. جاء بشرع من السماء وصانع ذى خبرة فنية ، وتاجر عالم بالأسواق .

ولا خلاص لهم من تفكيرهم السقيم إلا إذا اعترفوا بأن الحديث وارد. فى مثل موضوعه ، وهو تأبير النخل وغيره من الصناعات والزراعات ونحوها ، فماكان الرسول مبموثاً لمثل هذا ، والتشريع فوق هذا وهو الذى جاء به النبى.

٨ - وقد فرض أن النبي صلى الله عليه وسلم قد يخطىء في القضاء إذا حكم خصمين . فقد قال عليه السلام : « إنسكم تختصمون إلى ، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من الآخر ، فمن قطعت له من أخيه ، فإنما اقتطع له قطعة من النار » .

وهذا الفرض ليس من التشريع لأن القضاء ليس تشريعاً ، ولكنه تطبيق. المبادىء المقررة التي جاءت بها الشريعة الإسلامية ، وفرق بين التطبيق ، والتشريع النبي فى التطبيق يعمل عمل البشر من الاستماع للبينات ، وفى الشريعة المطبقة يتلتى من السماء ، ويبلغ أهل الأرض ، وفرق ما بين الأمرين عظيم .

وقد يمترض بعض الذين يطبقون القوانين الأوربية ، ولها منطق غير منطق. الشربعة قائلاً إن مبادىء القضاء قد تكون قانونا متبعاً ، كبادىء محكمة النقض ، فهى حجة وتكاد تكون قانونا متبعاً ، ونجيبهم عن ذلك بأن هذا الوضع البشر ، ونظامكم يسير على أن أحكام محكمة النقض تفسير للقانون يتبعه من دونها رتبة مقلدين لها ، لتستقر الأحكام المتعلقة بالآحاد ، على أنه من المتفق عليه أنها ليست تشريعاً ، وفيها احتمال الخطأ حتى في تطبيق هذه القوانين ، ومن. الحاكم من يخطئها ، ويرفض الأخذ بأحكامها ، وإن أحكامها تختلف أحيانك باختلاف دوا ترها ، وهي في كل حال لاتعد تشريعاً ، بل تعد تطبيقاً ، ولاتجافي. الخطأ ، بل قد تقم فيه .

وإن النبى صلى الله عليه وسلم لا نعلم أنه وقع فى خطأ فى حكم حَكم به ، الله قد اتصف بصفات القاضى العادل عدلا كاملا ، فهو أعلم الناس بالشرع الذي يبلغه ، وآتاه الله بصيرة نيرة نافذة ، والخصوم لا يستطيعون أن يموهوا عليه ، ولكنه فرض الخطأ فى نفسه ليحترس القضاة من بعده ، وليعلم الناس أنهم إن نجوا من حكم القضاء فى الدنيا بقوة الاستدلال الباطل ، فلن ينجوا من عقوبة الله فى الآخرة ، وليتقوا الله فى الخصومة ، ولا يعلموا أنها مغالبة بالبيان عقوبة الله فى الاستدلال ، ولكنها طلب الحق ، فن ابتنى غير حقه فقد أكل عمال الناس بالباطل ، ولو زين بحكم القضاء .

وخلاصة القول في هذا المقام ، إن الخطأ لا يتطرق إلى اجتهاد النبي فيما يقرر ... من أحكام ولم ينبهه الله سبحانه بموضع الخطأ في قوله ، أما شئون الدنيا ، من الصناعات والزراعات والمتجارة وغيرها ، فليس الخطأ ببعيد عليه فيها ، 'الأنه ما كانت رسالته لمثل هذا ، بل هي لتبليغ الشرع ، وفرض أنه قد يخطيء . وفرض أنه قد يخطيء . وفي المناء وهو فرض ، ليس بين أيدينا ما يدل على أنه وقع منه وإن كان ... غير مستحيل .

#### ٢ - الاجتهاد في عصر الصحابة

٨ ـ انتقل النبي صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى رب العالمين ، وقد بلغ رسالة ربه وأداها على أكمل وجوهها . وقال الله تعالى [ اليوم أكملت لكر دينكم و أتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا ] وكان صلى الله عليه وسلم يوجه الجيوش الإسلامية نحو الشام بعد أن قتل الروم من أسلم من أهلها ، فكان لا بد من حماية أهل هذا الدين الجديد ، ومنعهم من أن يفتنوا في دينهم .

ولما أرسل النبي صلى الله عليه وسلم إلى كسرى يبلغه الدعوة الإسلامية المجاب بأن أرسل إلى النبي من يقتله ، ولكنه أهلك الله تعالى قبل أن يمي ما أراد فكان لا بد من رد الاعتداء بمثله ، وأن يواجه النبي الناس بدعوة الحق يدعوهم إليها ، ويزيل المحاجزات التي تحول دونها .

لذلك انساب المسلمون في ملك كسرى وقيصر بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم فاتحين داءين إلى الحق وإلى صراط في الحياة مستقيم ، لا يستعبدهم عاكم ، ولا يذلهم كبير ، وقد وقف الملوك ممانعين في دخول الإسلام ديارهم ك يقيمون الحصون لكيلابصل إلى الرعية ، فكان لابد لنشر الدعوة الإسلامية وهى فرض لازم واجب الأداء على الأمة -- من أن تهدم تلك الأسوار المانمة، فكانت الحرب أمرا واجبا ، لأن ما يوصل إلى الواجب واجب .

ولا يتوهمن متوهم أن الحربكانت للإكراه على الدين ، فإن ذلك باطل ، إنما الحربكانت للإكراه على الدين ، فإن ذلك باطل ، إنما الحربكانت لأن للماوك كانو المجمع من أن يستمعوا لدعوة تجىء إليهم ، وخصوصاً إذا كانت الدعوة لا تتلاءم مع ما يفرضونه على الناس من تقديس لأشخاصهم ، واتباع لهم في الحق وفي الباطل ، بينا هذه الشريعة الجديدة .

تقول: (لا طاعة لمحلوق في معصية الحالق) وهي تدعو إلى المساواة ، وتقرر أن المناس كلهم لآدم وآدم من تراب ، فما كانت الحرب الإسلامية للإكراء على الدين ، وإنما كانت لتحرير الأنفس من ربقة الملوك الظالمين ، وتحرير المعقول من الأوهام المضلة بالنسبة المملوك وقدسيتهم ، فإن شئت أن تقول: إن هذه على الحرب كانت لحماية الحرية الدينية ، ولم تمكن لهدم هذه الحرية فقل .

وإن الدليل على أن الحرب ماكانت للإكراه هو وجود غير المسلمين فى ظل الدولة الإسلامية تؤدى لهم حقوقهم كاملة لا يظلمون ، ولا تمس حربتهم . فى المة يدة وما يتصل بها ، حتى لقد قال الفقهاء فى قاعدة مقررة موجبة لحسن . مماملتهم : « أمرنا بتركهم وما يدينون » وسماهم المسلمون ذميين لأن لهم ذمة . رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وحث النبى صلى الله عليه وسلم على منع أذاهم . فقد قال صلى الله تعالى عليه وسلم ( من آذى ذمياً ، فأنا خصمه يوم القيامة ، ومن خاصمته قصمته ) .

ولقد كان الفتح الإسلامى ، وكان من ورائه الاندماج لهؤلاء مالشعوب فى صفوف العرب ، إما بالدخول فى الإسلام طائدين مختارين غير كارهين ، فإن الله تعالى يقول : [لا إكراه (۱) فى الدين قد تبين الرشد من الني] . ويقول تعالى : [أفأنت تكره العاس حتى بكونوا (۱) مؤمنين ] وإما بعقد الذمة يعقدونه بينهم وبين المسلمين ، على أن يكون لهم ما للمسلمين ، وعليهم ما على المسلمين .

ولقد فتحت في عهد الصحابة فارس والشام ومصر وشمال أفريةية ، وبذلك صارت تحت حكم المسلمين أمم ذوات حضارات يمتد عرقها إلى أددم العصور ، وماجت المدن الإسلامية بأمشاج من الأمم ، ومرج فيها عناصر مختلفة الأقوام والأجناس، فكان لابدأن تجد في شئون المجتمع أحداث لم تكن في عهد الرسول

<sup>(</sup>١) سورة البقرة من الآية ٢٥٦ (٢) سورة يونس من الآية ٩٩

صلوات الله وسلامه عليه ، ولا بدأن تتشعب مناهج الحياة في كل نواحيها ، ومختلف ضروبها ، وكان لا بدأن العلماء يتجهون إلى الفحص والدراسة والاجتهاد والتفكير فيما يصلح وينفع .

لذلك كان لا بد من أن يجتهد كبار الصحابة ، والذين اختصوا بدراسة علم الرسول والتلقى عنه ، وملازمته فى العمل ، فاجتهدوا فى تعرف أحكام تلك الأمور التى جدت ، وعرضت لهم ، ليتبينوا حكم الله تعالى فيها ، إذأن شرعالله شامل عام ، يشمل العصور كلها ؛ ولهد قال الله سبحانه : [أيحسب(١) الإنسان أن يترك سدى ]أى من غير أحكام يتقيد بها ، وينتفع بهذه الحياة فى ظلها .

وقد رسموا المنهاج فى الاجتهاد ، فكانوا إذا عرضت لهم حادثة أنجموا إلى كتاب الله تعالى لا يبغون عنه بديلا إذا وجدوا النص فيه ، وإذا اختلفت آراؤهم ، وتباينت اتجاهاتهم فى أمر من الأمور ، فإذا عثروا على النص القرآنى عادوا جميعاً إليه .

10 — ولنضرب الذلك مثلا عند ما فتح الله تعالى المسلمين أرض سواد الله وقارس اختلف الصحابة في توزيع الأرض على الفاتحين ، فعمر رضى الله عنه ، وهو أمير المؤمنين ورئيس الدراة امتنع عن تقسيمها على الفاتحين ، لأنه رأى أنها لاتدخل في عموم قوله تعالى : [واعلموا أنما غنمتم من شيء فأن الله خسه والمرسول والذي القربي واليتامي والمساكين وابن السبيل] لأن ذلك في الأموال المنقولة ، والأرض تفتح ولا تفنم ، لأنها لا تنقل ، ولأنه يحشى إذا قسم كل أرض أن تجيء ذراري لا تملك شيئاً من الأرض ، ولأنه إيحتاج إلى ما يسد التفور ويحيى البلاد ، وذلك يكون من الجزية تفرض على هذه الأرض . ولكن المقاتلين لم يوافقوا عررضى الله عنه في رأيه ، وأخذوا يتجادلون في الأمر ثلاث ايال ،

<sup>(</sup>١) سورة القيامة الآية ٣٦ (١) سورة الأنفال من الآية ٤١

وفى اليوم الثالث جاء وذكر لهم أنه عثر على النص القرآنى الذى يؤيد قوله. وهو قول الله تعالى: [ ما أفاء الله على رسوله (١) من أهل القرى فلله وللرسول. ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كيلا يكون دولة بين الأغنياء منكم، وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا، وانقوا الله، إن الله شديد العقاب ] .

فعندما تلا عليهم الفاروق ذلك النص السكريم نزلوا عند رأيه ، ووافقوا · عليه أجمين .

وإذا لم يجدوا نصا في كتاب الله تعالى المجهوا إلى السنة يتعرفون منها المحكم الشرعى ، وعرض أمير المؤمنين الأمر على جماعتهم يسالهم عن يحفظ حديثاً في هذا الأمر ، فإذا ذكر الحديث أفتوا بمقتضاه ، ومن ذلك مثلا أن أم الأم جاءت إلى أبي بكر تطلب ميراتها من ابن بنتها ، وكانت قد ماتت أمه ، فقال لها لا أعلم لك في كتاب الله تعالى من شيء ، ثم انجه إلى الصحابة يسألهم قائلا : هل منكم من يعلم أن رسول الله قضى لها بالسدس ، فقال المغيرة بن شعبة يذكر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قضى لها بالسدس ، فقال ومن يشهد من بعد ذلك تطلب نصيبها في عهد عمر ، فقال : لاأعلم لك في كتاب الله تعالى من بعد ذلك تطلب نصيبها في عهد عمر ، فقال : لاأعلم لك في كتاب الله تعالى من شيء ، ثم قال : (هذا السدس بينكما) .

وإذا لم يجدوا نصاً في كتاب الله ولا سنة رسوله اجتهدوا آراءهم .

وذلك الذى سلمكوه هو الذى أقر النبى صلى الله عليه وسلم معاذ بن جبل. عليه عندما أرسله قاضياً بالبمن ، فقد قال له بم تقضى ، قال : بكتاب الله ، قال. رسول الله : فإن لم تجد : قال : فبسنة رسول الله ، قال : فإن لم تجد : قال .

<sup>(</sup>١) سورة الحشرات الآية ٧

أجتهد رأيي ولا آلو ، فقال صلى الله عليه وسلم : ( الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله لما يرضى الله ) .

11 — والرأى قد فهم كثيرون من علماء الأصول أنه القياس ، والقياس معناه إلحاق أمر غير منصوص على حكمه لأشتراكهما في علة الحسكم . أو القياس تبوت الحسكم في غير المنصوص على حكمه لاشتراكه في علة الحسكم مع المنصوص على حكمه ، وهذا يقتضى أن يكون الرأى مقصوراً على ذلك النوع من الاجتهاد ، وهذا النوع يقتضى أن يتعرف المجتهد النص المعين الذى يشترك فيه الفرع غير المنصوص على حكمه معه فى العلة ، وذلك مثل الذى يشترك فيه الفرع غير المنصوص على حكمه معه فى العلة ، وذلك مثل قياس (كل مسكر على خمر وكل خر حرام) فى الحمر فإن علة تحريمها هو الأسكار، فيثبت التحريم فى كل مسكر .

ولسكن الحقيقة أن الرأى الذى كان معروفا عند الصحابة يشمل هذا ، ويشمل الاجتهاد بالمصلحة فيما لانص فيه ، فقد كان كلا النوعين ثابتاً فى عصر الصحابة ، وقد عرف ابن القيم اجتهاد الصحابة بقوله : « خصوه بما يراه القلب بعد فكر وتأمل وطلب لعرفة وجه الصواب مما تتعارض فيه الأمارات » .

وإن هذا التمريف ليس جامعا مانعاً ، لأنه يكون عندما تتعارض وجوه الأقيسة ، فلا يدرى إلى أى أصل منصوص عليه يتجه إليه الفقيه الذى يقيس، والحق أن الاجتهاد بالرأى تأمل وتفكير في تعرف ماهو الأقرب إلى كتاب الله تعالى ، وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، سواء أ كان يتعرف ذلك الأقرب من نص معين ، وذلك هو الفياس ، أم الأفرب المقاصد العامة للشريعة وذلك هو المصلحة . :

ومن هؤلاء عبد الله بن مسعود، وعلى بن أبى طالب رضى الله عنهما مع الأخذ ومن هؤلاء عبد الله بن مسعود، وعلى بن أبى طالب رضى الله عنهما مع الأخذ أحياناً بالمصلحة، ولذلك ورثا فقهاء الكوفة من التابعين ومن جاءوا بعدهم (٧ ـ تاريخ المذاهب)

من الأئمة المجتهدين . ذلك المنهاج من الاجتهاد بالرأى .

ووجد من الصحابة من اجتهد عن طريق المصلحة ، وعلى رأس هؤلاء عمر بن الخطاب ، وقد أفتى وأفتى معه كثير من الصحابة بالمصلحة في ذاتها ، فقتل الجماعة بالواحد لاحظوا فيه المصلحة ، وتضمين الصناع لاحظوا فيه المصلحة ، وقال على رضى الله عنه في شأن تضمين الصناع : (لا يصلح الناس إلا ذاك ) . ١٢ — وقد لوحظ أن عمر رضى الله عنه في إدارة شئون الدولة كان يجتهذ عن طريق المصلحة فيا لانص فيه ، ولكن كان يأمم القضاء ، بأن يتجه إلى النياس فيا لانص فيه من كتاب أو سنة ، فهوية ول في آخر كتابه إلى أبي موسى الأسرى : ( الفهم الفهم فيا تلجلج في صدرك مما ليس في كتاب ولا سنة ، اعرف الأشباه والأمثال وقس الأمور عند ذلك ) فإن هذا النص صريح في أنه عندما لا يجد القاضى نصا شرعياً يمرف شبيه الموضوع ممايكون فيه نص شرعى، ويقيس عليه .

وهنا يجول بخاطر القارى، سؤال لماذاكان يأخذ بالمصلحة في غير موضع النص إذاكان موضوع الاجتهاد يتعلق بإرادة الدولة وتسيير أمورها ، ويأمر القضاة بأن يأخذوا بالقياس، ولا يتجاوزوه، كا هوصريح كتاب القضاء؟ والجواب عن ذلك أن إدارة شئون الدولة تقوم على المصلحة ودفع الفساد وإطاعة أوامر الشرع ، وفرق مابين الوالى الصالح وغير الصالح ، هو دفع الفساد وإقامة المصلحة في الأول ، ومخالفة ذلك في الثاني ، ولذا قال سبحانه وتعالى في شأن الوالى الفاسد : [ومن الفاس من بعجبك (١) فوله في الحياة الدنيا ، ويشهد الله على ما في قليه ، وهو ألد الخصام ، وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ، ويهلك الحرث والنسل ، والله لا يحب الفساد ، وإذا قيل له اتن الله أخذته العزة بالإثم ، فحسبه جهم ولبئس المهاد].

<sup>(</sup>١) سورة البقرة الآيات من ٢٠٣ إلى ٢٠٦

وأماالقضاء فإنه تحقيق للمدالة بين الخصوم ، و الانتصاف من الظالم المظاهم ، ورد الحقوق من الغاصب المفصوب منه ، فلا بد أن يتقيد بنظام ثابت ، والقضاء في كل الدنيا تسن له القوانين و ترسم الحدود ، فكان لابد في الإسلام من أن يكون مقيداً بالكتاب والسنة غير منطلق عنهما قط ، فإن لم يجد الحمكم صريحاً فيهما ويسعفه من تعرف من الأشباه مايشارك المنصوص عليه في بعض الأوصاف فيهما ويسعفه من الأشباه مايشارك المنصوص عليه في بعض الأوصاف حتى يحكم بأنه مثله ، ويكون قضاؤه بنص قائم ، أو بالحل على نص قائم ، كا يسير القضاة في كل زمن ، حتى لا يكون أمر القضاء فرطاً لاضابط له ، ولذلك صدر عمر رضى الله عنه كتابه رضى الله عنه بقوله : (الفضاء سنة متبعة ) فكان لابد من تقييد القضاء بالنصوص ، والقياس طريقة من طرق فهم النصوص ،

۱۳ - وإنهم مع أخذهم بالرأى لم يكونوا سواء في مقدار الأخذ به ، فالذين كانوا يضطرون إلى الاجتهاد اضطراراً ، لا يمكنهم أن يتوقفوا إذا لم يجدوا نصاً من القرآن أو الحديث، فعمر رضى الله عنه وهو يدير شئون الدولة، ويعالج الأمور في إبانها لا يمكنه أن يتوقف و يمتنع عن الرأى ، حتى لا يقف دولاب العمل في الدولة ، وعلاج ما يجد من أحداث ، وهو مطالب بعلاجها من غير تأجيل .

ومن الصحابة من كان يتوقف فى التحديث ، ولا يتوقف فى إبداء الرأى من عنده ، لأنه إن كان صادق الفهم ، فقد بين الدين ، وإن كان مخطئاً فى فهمه ، فالحطأ منه ومغبته عائدة عليه ، ولا شىء يمس جوهر الدين، وتوقفه فى التحديث سببه خشيته من أن ينسب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم مالم يقله ، وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم ( من كذب على متعمداً ، فليتبوأ مقده من النار ) ويروى أن عران بن حصين كان يقول : (والله إن كنت لأرى أنى لو شئت الحدثت عن رسول الله عليه وسلم يومين متتابعين ولكن أبطأنى عن ذلك

أن رجالا من أصحاب رسول ألله صلى الله عليه وسلم سمعوا كما سمعت ، وشهدوا كما شهدت ، ويتحدثون أحاديث ماهى كما يقولون ، وأخشى أن يشبه لى كما شبه لهم ) .

وقال أبو عمرو الشيبانى: «كنت أجلس إلى ابن مسعود حولا لايقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإذا قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإذا قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم، استقلته رعدة ، وقال هكذا أو نحو ذا» .

والحق أن الصحابة كانوا بين حرجين ،كلاها فيه ضيق شديد في نظرهم ، لأنهم يخشون التهجم على هذا الدين : أحد الحرجين أن يكثروا من التحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لكى يعرفوا أحكام أكثر الواقعات من أقواله سلى الله عليه وسلم، وهم في هذه الحال يخشون الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وثانى الحرجين ، أن يفتوا بآرائهم فيا لم يعرف فيه أثر عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وفي ذلك تهجم على التحليل والتحريم بآرائهم، والمنع والإباحة بأقوالهم .

ومن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من اختار أن ينسب القول إلى نقسه ، مالم يكن حديث واضح يعلمه به اثنان فأكثر ، فقد كان أبو بكر لايقهل الحديث إلا مناثنين ، وكان على بن أبى طالب لايقهل الحديث إلا بعد استحلاف قائله .

وبذلك كثر إفتاء هؤلاء بآرائهم ، أو بالأحرى كانوا ينسبون القول إلى أنفسهم ، ولقد قال فى ذلك عبد الله بن مسمود فى إحدى فتاويه : (أقول هذا رأبي ، فإن يكن صوابًا فمن الله ، وإن يكن خطأ فنى ومن الشيطان ، والله ورسوله منه بريئان ) وقد أفتى عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى مسألة .

فَسَكَتَبَ كَاتَبَهُ عَقَبِ الفَتِيا : (هَذَا مَا رَأَى اللهُ ، ورأَى عَمَرَ ) فَقَالَ عَمَرَ ( بَئْسِمَا قَالَتَ ، هَذَا رأَى عَمْرَ فَإِنْ يَكَ صَوَابًا فَمْنَ اللهُ ، وإِنْ يَكَ خَطَأَ فَمْنَ عَمْرٍ ) .

12 - وإن آراء الصحابة لايمكن أن نعتبرها آراء عقلية خالصة ، بل يجب أن نقرر أن آراءهم مقتبسة من فقه الرسول صلى الله عليه وسلم . ذلك أن الذين اشتهروا بكثرة الإفتاء بالرأى كانوا بمن طالت صحبتهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كأبى بكر، وعمر ، وعمان ، وعلى ، وعبد الله بن مسمود ، وزيد بن ثابت وغيرهم من فقهاء الصحابة .

و إنه يلاحظ أن هؤلاء كانت روايتهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم الله عليه وسلم لا تتناسب مع طول صحبتهم وملازمتهم للرسول صلى الله عليه وسلم ، فلا بد أن تكون آراؤهم أو أكثرها بالنقل عن النبي صلى الله عليه وسلم ، ولسكنهم لم ينسبوا إليه صلى الله عليه وسلم مايقولون ، خشية أن يكون فى نقلهم تحريف فى العبارة ، أو الفكرة ، وسنبين ذلك بقليل من البيان عند السكلام عن الاجتهاد فى عصر التابعين ، والذى نقرره هنا أن رأيهم ليس كله رأياً ، بل فيه النقل الكثير ولكن لم ينسبوه إليه صلى الله عليه وسلم ، خشية أن بقتولوا عليه مالم يقل ، أو أن يشبه عليهم فى نسبة القول إليه .

#### ١٥ – ولا بد هنا من أن نصحح خطأين :

أولما —أن بعض العاس فهم أن الصحابة كانوا يتركون الحديث الذى عبيت صحته، ويفتون بآرائهم، وقد ادعوا ذلك على عمر، بل ادعوا عليه أنه كان يترك بعض نصوص القرآن معتمداً فى ذلك على رأيه، أو أخذاً بالمصلحة وذلك خطأ وقع فيه من لم يمحصوا الحقائق، فما ترك أحد من الصحابة بناماً لآرائهم، أو لمصلحة يرونها، وإن المصالح التي كان يفتى الصحابة بالأخذ بها لم

يكن فيها قط مايمارض نصاً ، بل كانت تطبيقاً حسماً للنصوص ، وفهماً سليماً لمقاصد الشريعة من غير انحراف ، ولا مخالفة لأى نص من نصوصها ، وارجع إلى الأمثلة التي يسوقونها، فإنك بلا ريب واجد أنها ترجع إلى أصل من الأصول المقررة من غير مخالفة لأى نص جزئى من نصوصها ، وقد ذكر نا لك مسألة أراضى سواد العراق ، وهي من المسائل التي ادعوا فيها أن عمر رضى الله عنه خااف النص للمصلحة ، فقد رأينا أنه فهم صائب للنص الكريم : [ وأعلموا أنما غنمتم من شيء فأن لله خسه وللرسول ولذى القربي واليتامي والمساكين وابن السبيل ] .... » فقد فهم أن النص وارد في المنقولات التي تغنم ولا يشمل ذلك النص الأرض التي تفتح ، وثبت رأيه بنص صريح في القرآن : [ ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذى القربي واليتامي والمساكين وابن السبيل ] .

وثانى الخطأين أن بمضالقانونيين قال : إن الذين تمسكوا بالأثر، ولم يفتوا إلا به محافظون من أهل التمسك بالتقاليد ، وإن أهل الرأى مجددون وغير متمسكين بالتقاليد ، وذلك قول بعيد عن التحقيق العلمى ، لأن كلا الفريقين متمسك بالدين وبالنصوص الإسلامية ، بيد أن فريقاً منهم توقفوا عن أن يفتوا بغير ماورد به نص من الشارع تنزيها لأنفسهم عن أن ينسبوا إلى الشارع ماهو من آرائهم ، وهذا الفريق ممن لم يختبروا بالحكم وشئون الدولة مما يضطرهم إلى البت في الأمور ، ولو لم يجدوا نصاً ، ولم يكن ثمة ضرر في توقفهم عن الإفتاء ، وامتناعهم عن الخوض في الرأى وتعرف وجوهه .

وأما الفريق الآخر فقد ابتلى أكثره بالحسكم ، فكان لا بد أن يجتهد برأيه ويبت في الأمور ، وليسمن المعقول أن يهمل الخليفة أمراً يتعلق بإصلاح الناس إذا لم يجد نصاً، فإن سير الأمور يقف، ويؤدى ذلك إلى الفساد ، والحسكم أساسه الإصلاح ، وهو في النصوص ، فإن لم توجد كان الاتجاه إلى المقاصد الشرعية العامة ، التي تتضافر على تقريرها مجموعة النصوص .

والذين لم يبتلوا بالحسكم من أهل الرأى كانوا يخشون علي أنفسهم من أن يكذبوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا اتجهوا إلى النقل فقط ، فسكانوا يفتون غير خارجين على ما فهموه من الرسول من غير أن ينسبوا إليه ، بل ينسبون إلى أنفسهم، فإن كان خطأ فمنهم، وإن كان صوابا فمن توفيق الله تعالى .

17 — وإنه يجب أن نقرر هذا أن الصحابة الذين اجتهدوا بآرائهم كانوا حريصين على أن تسكون آراؤهم سنناً متبعة ، تتبع لذائها من غير أن يرجعوا إلى أصلها ، وألا تسكون تلك الآراء دينا يعتنق ، بل لقد صرح بذلك الإمام عر رضى الله عنه ، فقد قال رضى الله عنه وجزاه عن الإسلام خيراً : « يأيها الناس إن الرأى كان من رسول الله صلى الله عليه وسلم مصيباً ، لأن الله تمسالى كان يريه ، وإنما هو منا الظن والتكلف » ويقول رضى الله عنه : « السنة ماسنه الله ورسوله ، لا تجعلوا خطأ الرأى سنة للأمة » .

فهؤلاء الذين كانوا يجتهدون بآرائهم كانوا ينظرون إليها على أنهسا ظن رجح عندهم وهي تقبل الخطأ والصواب فلا يصحأن تتبع لذاتها ، ولسكن سنجد بمد ذلك أن أكثر الفقهاء قدروها ، ولم يخالفوها ، و إن خالفوا بمضها ، وافتوا بعضها الآخر، فلا يخرجون عن أقوال الصحابة في مجموعهم ، و إن خالفوا بعضهم فباتباع لبعض آخر .

#### المسادر الفقهية في عهد الصحابة ؛

۱۷ - يتبين مما سبق أن المصادر كانت عند الصحابة ثلاثة : الكتاب ، والسنة ، والرأى بشعبه .

ولم تسكن السنة قد دونت وجمعت في جملتها ، وإذا كان بعض صفار الصحابة قد أخذ يكتبها في عهد الذي صلى الله عليه وسلم ، كمبد الله بن عرو بن العاص،

فقد ثبت أن النبي صلى الله عليه وسلم قد أذن له بالسكتابة في آخر عصر النبوة عندما أمن اللبس بينها وبين القرآن الكريم .

ولكن ماكتبه عبد الله بن عمرو وغيره ،كان مذكرات عندهم لم تعلن كمدون يقرأ على الناس ، وماكان الإمام عمر رضى الله عنه ليسمح بذلك ،على أن ذلك المكتوب ، لم يبلغ درجة أن يكون مدوناً .

ولعدم وجود مدون للسنة مجموع كانوا يعتمدون فى روايتها على ماوعته عقول الرجال وحفظته صدورهم، وكانوا يتحرون الصدق عندما ينقل إليهم حديث، فكانوا يتثبتون بما يرون من طرق التثبت، وقد كانوا جميعا عدولا فيا بينهم وكانت طريقة الشيخين أبى بكر وعمر رضى الله عنهما ألا يقبلا الحديث إلا إذا شهد بسماعه عن الرسول صلى الله عليه وسلم اثنان، وكان على رضى الله عنه محلف من يروى الحديث، لسكى يطمئن إلى صدقه .

#### طرق اجتهادهم :

۱۸ — وقد اختلفت طرق اجتهادهم، فمنهم كما يينا من كان يجتهد في حدود الكتاب والسنة لا يعدوها ، ومنهم من كان يجتهد بالرأى إن لم يجد نصا، وأوجه الرأى مختلفة ، فمنهم من كان يجتهد بالقياس كعبد الله بن مسعود ، ومنهم من كان يجتهد بالنص .

هذا بالنسبة لتفكيرهم. أما بالنسبة لوقائع الإفتاء ،فإن آراءهم أحيانا تكون آحادية ، لأن موضوع الرأى جزئى، يسأل أحدهم عن حكم حادثة جزئية ، فيجيب صاحبها ، ورأيه في هذا آحادى جزئى ، لأنه لم يشاركه غيره في الإجابة ، ولأن موضوع السؤال جزئى ، وقد يكون شخصيًا من كل الوجوه .

وأحيانا يكون الاجتهاد في موضوع غير شخصي ، بل في موضوع يتملق بالسكافة ، أو يكون فيه تقرير قاعدة عامة ، ويكون في اجتماع عام ، أو اجتماع

خاص بفقهاء الصحابة ، وذلك لأن الخلفاء الراشدين رضوان الله تبارك وتعالى عنهم كانواكلا جد أمر من أمور الدولة له أثر فى نظام الأمة جمعوا الصحابة واستشاروهم فيه ، فيتبادلون الرأى ، ثم ينتهون إلى أمر تقره جماعتهم .

ولقد كان لعمر رضى الله عنه نوعان من الشورى: الشورى الخاصة ، والشورى العامة . وشوراه الخاصة تسكون لذوى الرأى من علية الصحابة من المهاجرين والأنصار السابقين ، وهؤلاء يستشيرهم فى أمور الدولة التى تحتاج إلى وجوه النظر المختلفة ، سواءاً كانت من صغرى أمور الدولة أم كانت من كبراها .

وأما الشورى العامة فإنها تكون لأهل المدينة أجمين ، وفي الأمور الخطيرة من أمور الدولة ، أو التي تقرر قاعدة عامة نسير في مستقبل الأمة ، على أنها من المقررات الثابتة .

فإذا جد أمر من هذا النوع يجمع أهل المدينة في المسجد الجامع، وإذا ضاق بهم جمعهم خارج المدينة، وعرض عليهم الأمر الخطير وتناقشوا فيه، ومن ذلك استشارتهم في أرض سوادالعراق، فقد كان من رأى الغزاة قسمتها بينهم، ومن رأى عمر عدم قسمتها، وأن تترك في أيدى أهلها الذين كانت أيديهم عليها، وقد أشرنا إلى ذلك من قبل، وقد تناقشوا يومين أو ثلاثة، وانتهى الأمر إلى موافقة عمر عندما ساق لهم قوله تعالى: [ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذى القربي واليتامي والمساكين وابن السبيل]...

وقد كان سكان المدينة في هذا يشبهون سكان أثينا في عهد بركليس ، إذ كان كل شخص من أهل هذه المدينة له رأى في شئون الدولة .

و إن الرأى الذى يكون فى اجتماع ويوافق عليه المجتمعون يكون أقوى من الرأى الآحادى ، لأنه يكون نتيجة دراسة للموضوع من كل نواحيه ، وتبادل

أوجه النظر المختلفة ، ولذلك كان هذا الرأى الجماعي هو الذي تسير على مقتضاه شئون الدولة .

والله جاء الذين خلفوا الصحابة والتابسين من المجتهدين وسموا ذلك الرأى الجاعى ـ إجماعا ، وعدوه مصدرا رابعاً ، وصارت به المصادر عندهم أربسة : المكتاب ، والسنة ، والإجماع ، والرأى .

١٩ -- وقد تبين مما سبقأن الصحابة كانوا يختلفون في اجتهادهم وآرائهم
 وقد ينتهون بعد المناقشة إلى رأى يستقرون عليه ، فيكون ذلك إجماعاً ،
 وذلك أكثر ما يكون في المسائل العامة .

وقد يستمر اختلافهم .

ويصح أن نقسم اسباب اختلافهم إلى قسمين :

أحدهما \_ اختلاف حول النصوص ، كاختلافهم فى فهم النص بسبب احتماله معنيين أو أكثر ، كما اختلفوا فى مدلول لفظ القرء فى قوله تعالى : [ والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء ] فإن لفظ القرء يطلق على معنيين .

أحدم الله أنه قد يراد به الطهر الذي يكون بين الحيضتين عند المرأة .

وثانيهما – أنه قد يراد به الحيضة نفسها ، وقد فهم عبد الله بن مسمود وعمر رضى الله عنهما أنه يراد به الحيضة ، ولذلك كانت عدة المطلقة عند هؤلاء ومن اتبعهم من الأئمة ثلاث حيضات . وفهم زيد بن ثابت أنه يراد في هذا النص ، الطهر الذي يكون بين الحيضة والحيضة ، وعلى ذلك تكون عدة المطلقة ثلاثة أطهار .

وقد یکون سبب اختلافهم حول النصوص هو تعارض ظو اهرها کاختلافهم
فی عدة الحامل المتوفی عنها زوجها ، فقد ورد فیها نصان قد یبدو بادی الرأی أن
بینهما تعارضا ، والنصان هما قوله تعالی : [ وأولات الأحمال أجلمين أن يضعن

حملهن] وقوله تمالى [ والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشرا ] فالآية الأولى بعموم المظلها يستفاد منها أنها تشمل الحامل المتوفى عنها زوجها ، والمطلقة ، والآية الثانية يستفاد من عموم نصها أنها تشمل المتوفى عنها زوجها ، سواءاً كانت حاملا أم كانت غير حامل ، فكانت الحامل المتوفى عنها زوجها يتعاورها نصان يبدو التعارض بينهما ، ولذلك اختلف المستحابة ، فقال عبد الله بن مسمود إن قوله تعالى : [وأولات الأحال أجلهن] أخرج من قوله تعالى : [ والذين يتوفون منكم ] الحامل ، فتكون عدة الحامل المتوفى عنها زوجها وضع الحل بمقتضى النص الأول ، والإمام على كرم الله وجهه أعمل المتوفى عنها زوجها هو وضع الحل يشرط ألا تقل المدة عن أربعة أشهر وعشرة أيام ، أى أنها تمتد بأبعد الأجلين ، وضع الحل أو أربعة أشهر وعشرة أيام ،

ومن اختلافهم حول النصوص ما يكون بسبب الرواية بأن يفتى واحد منهم برأيه ، لأنه لم يصح عنده فى الموضوع حديث ، ويفتى الآخر بالحديث ، لأنه صح عنده (١) .

والقسم الثانى – من أسباب الاختلاف اختلافهم بسبب الرأى ، فإنه باب واسع ، ولكل مجتهد نظره ، وأنجاه فكره ، وقد يرى مايرى الآخر ، ويظهر أن كثيرة الاختلافات كان منشؤها ذلك .

وقد رويت مسائل كشيرة قد اختلفت فيها أنظارهم . ومن ذلك اختلافهم في ميراث الجد ، أبى الأب مع الأخوة والأخوات الأشقاء أو لأب ، فقد كان رأى أبى بكر أن الجد يحجبهم من الميراث ، فلا يرثون مع وجوده شيئًا ، (۱) راجع هذا في كتاب إعلام الموقعين لابن القيم ج ١ ص ١٨٤ ، وكتاب تاريخ النشريع الإسلامي لأستاذنا المرحوم الشيخ محمد الحضري .

كا لا يرتون مع الأب شيئًا وبهذا الرأى أخذ أبو حنيفة رضى الله عنه ، وقد توقف عمر حتى سأل الصبحابة ، فأفتى زيد بن ثابت بأنه يعطى نصيب أخ ولا يحجب الإخوة ، حتى يصير ثالث ثلاثة ، أى أنه يأخذ نصيب أخ فى الميراث بشرط ألا يقل عن الثلث ، ولدلك تفصيل مبين فى موضعه من كتاب الفرائض ، وقال على بن أبى طالب إنه يأخذ كأخ بشرط ألا يقل نصيبه عن السدس .

وقد أخذ جمهور الفقهاء برأى زيد بن ثابت ، ويظهر من السياق التاريخي أن عمر رضي الله عنه قد اختاره .

ولقد كان اجتهاد الصحابة في الفروع رائده الإخلاص، لأن فقهاء الصحابة كانوا صفوة المؤمنين ، فسكانوا يطلبون الحقيقة الدينية فيا يفتون ، ويطلبون الصواب أنى يكون .

و إنهم بهذا الاجتهاد والاختلاف في الفهم قد أفادوا الأجيال من بعدهم في ناحيتين :

أولاها – أنهم سنوا للناس الطريق القويم للاجتهاد ، وبينوا أن الاختلاف في طلب الحقيقة مادام رائده الإخلاص لايؤثر في الوحدة ، ولسكه يشحذ المقول والأفهام ، ويوصل إلى الحق المبين لمن يدرس الأمر من كل وجوهه .

ثانيهما — أنهم تركوا تركة مثرية فى الفقه تحرض على البحث وتنهى عن الجود، وتفتح باب التيسير، وإنهم فى وفاقهم واختلافهم قد أفادوا الاجتهاد من بعدهم فوائد جليلة .

بل إن الإمام الشاطبي يروى في كتابه « الاعتصام» أن اختلافهم كانرحمة بالأمة، فقدجاء فيه « روى عن القاسم بن محمد أنه قال : « لقد نفع الله باختلاف أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في العمل ، لا يعمل العامل بعلم رجل ممهم، إلا لأنه رأى أنه في سعة » وعن ضمرة بن رجاء قال: اجتمع عمر بن عبد العزيز والقاسم من محمد ، فجعلا يتذاكران الحديث ، فجعل عمر يجيء بالشيء يخالف فيه القاسم ، والقاسم يشق عليه ذلك ، حتى يتبين فيه ، فقال عمر لاتفعل ، فما يسرنى باختلافهم حر النعم » وروى ابن وهب عن القاسم أيضاً فقال: لقد أعجبني قول عمر بن عبد العزيز: « ما أحب أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يختلفون ، لأنه لو كان قولا واحداً لكان الهاس في ضيق ، و إنهم أثمة يقتدى بهم ، فلو أخذ رجل بقول أحدهم لكان سنة » ومعنى هذا أنهم فتحوا للباس باب الاجتهاد ، وجواز الاختلاف فيه ، لأنهم لو لم يفتحوه لكان المجتهدون في ضيق ، فوسع الله تعالى على الأمة بوجود الخلاف الفروعي فيهم ، فكان قد فتح الأمة للدخول في هذه الرحة » (1).

حب ولقد أثر عن الصحابة مجموعة فقهية أضيفت إلى المأثور عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان مجموعها يسمى السنة ، وما كان ينسب لرسول الله صلى الله عليه وسلم يسمى الحديث، وعلى ذلك تكون كلة الحديث أخص فى معناها من السنة ، وكان لأقوال الصحابة اعتبار فى تاريخ التشريع الإسلامى من بعد ، فإن عمر بن عبد العزيز كان يعتبرها حجة ، وأراد أن يجمعها فتكون للناس قانوناً متبعا ، يرسله إلى الأقاليم الإسلامية ، ليحمل الناس على اتباعه .

ولقد تضمنت رسالة عبد الله بن المقفع هذا ، عندما اقترس على أبى جمةر المنصور أن يجعل للدولة قانونا يحكم به ، ويكون ذلك مختاراً من أقوال الصحابة ، ما اتفقوا عليه يؤخذ به، وما اختلفوا فيه يختار من أقوالهم ما يكون أصلح للناس .

<sup>(</sup>۱) راجع الاعتصام للشاطبي ج ٤ ص ١١.

ولقد نهج ذلك المنهاج أبو جعفر نفسه عندما طلب من الإمام مالك أن يدون المأمور من السنة ليتخذ منه قانونا متبعا ، واستجاب إمام دار الهجرة لما طلب ، ولما تم في عهد المهدى رغب الإمام عن أن يتنخذ قانونا، لأنه جعمرويات المدينة ، وقد سبق للناسسنن أخرى عندما تقرق الصحابة في الأقاليم الإسلامية، وإن كان من بالمدينة أوفر عدداً.

ومهما يكن من الأمروفقد اعتبرت أقوال الصحابة حجة يجب اتباعها والاجتهاد في نطاقها ، على ماسنبين إن شاء الله تعالى .

#### ٣ ـ الفقه في عصر التابعين

٣١ - تخرج على الصحابة تلاميذه . وسموا التابعين بتسمية القرآن لهم ، إذ قال سبحانه : [ والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبموهم بإحسان ] فهى تسمية الله تعالى لهم ، وذلك شرف ليس فوقه شرف .

ولقد جاء التابعون فوجدوا ثروةمن الرواية ، وثروة من الاجتهاد الفقهى، فكان لهم عملان :

أولها — جمع هاتين الثروتين ، فجمعوا المروى من أحاديث رسول الله عليه وسلم ، وجمع هاتين الثروتين ، فجمعوا أقوال الصحابة واجتهادهم ، وقد سهل هذا أن كل تابعي كان تلميذا لصحابي أو أكثر ينقل علمه إلى من بعدهم ، ومن الصحابة من كان له تلاميذ ، فعبدالله بن عمر تخرج عليه كثيرون ، منهم سعيد بن المسيب ونافع مولاه ، وسالم ابنه وغيرهم ، وكان لسكل صحابي من يختص بنقل علمه ، وأكثر هؤلاء التلاميذكانوا من الموالى ، ولم يكونوا من العرب ، وقد كان التابعون بمقتضى هذه التلمذة ومقام الصحابة في التلقي عن الرسول يعتبرون أقوالهم حجة .

وثانی العملین — أن يجتهدوا فيما لم يعرف عن الصحابة رأى فيه ، وليس فيه نص من قرآن أو سنة . فكان لهم اجتهاد وراء ما ينقلون من أحاديث وفتاوى ولا يخرج عن منهاج الصحابة الذى رسموه لهم ، ولمن جاءوا بعدهم.

ولم تسكن المهمة بين أيديهم فى جمع أحاديث رسول الله صلى الله عايه وسلم سهلة ، فقد تفرق الصحابة فى الأقاليم الإسلامية ، فمنهم من أتخذ العراق مقاما، ومنهم من دهب إلى ماوراء ذلك ، ولكن سهل الأمر عليهم أن كل تابعى اقتصر فى الرواية عن الصحابة الذين التق بهم، وأنه

فى أول المصر الأموى عاد أكثر الصحابة الذين انتقلوا من المدينة إليها ، وعادت المدينة مشرق النور ، كما ابتدأت ، فمنها انبثق علم الصحابة وأكثر . التنابعين .

وفى الحقيقة إنه حتى قبل العصر الأموى لم يكن الذين خرجوا من المدينة هم أكثر عدداً ، بلكانوا الأقل ، ذلك أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه احتجز كبار الصحابة فى المدينة ، ولم يخرجهم منها لينتفع برأيهم أولا ، ولأسباب تتعلق بحسن السياسة وتدبير الأمور على أكمل وجه ثانياً ــ

ولكن لما آلت الخلافة إلى ذى النورين عثمان بن عفان أذن لهم بالخروج، فخرج بعضهم ولم يكن أكثر الذين خرجوا من الفقهاء، ولامن كبار الصحابة إلا من يكون قد خرج فى عهد الإمام عمر رضى الله عنه بإذن منه، كعبد الله ابن مسمود، وأبى موسى الأشعرى وغيرها.

و إنه قد اشتهر جمع من الصحابة بكثرة التلاميذ الذين نشروا علمهم كمبد الله بن مسمود بالمراق، وعبد الله بن عمر، وأبيه الفاروق، وزيد بن ثابت وغيرهم بالمدينة، ولقد قال ابن القيم في هذا المقام:

« والدين والفقه انتشرا في الأمة عن أصحاب ابن مسعود ، وأسحاب زيد ابن ثابت ، وأصحاب عبد الله بن عبر ، وأصحاب عبد الله بن عبر ، فأما أهل المدينة فعلمهم عن أصحاب زيد بن ثابت وعبد الله بن عمر ، وأما أهل العراق فعلمهم عن أصحاب عبد الله بن مسعود » .

وينقل ابن القيم عن ابن جرير أنه قال : « قد قيل إن ابن عمر وجماعة من عاش بعده بالمدينة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما كانوا يفتون بمذهب زيد بن ثابت ، وما كانوا أخذوا عنه بما لم يكونوا حفظوا فيه عن

رسول الله صلى الله عليه وسلم (١).

ولاشك أن الإمام ابن القيم إنما يعد بعضا من الذين تخصصوا للفتوى والفقه من الصحابة ، وإلا فمن الصحابة كثيرون غيرهم ، لآرائهم المقام الأول كعلى ابن أبى طالب كرم الله وجهه ، وعائشة أم المؤمنين رضى الله عنها ، وناهيك بأمير المؤمنين عربن الخطاب رضى الله عنه . وإن بعض هؤلاء الأربعة كان ينزع عن فقه عر ، فعبد الله ابنه كان يروى فقهه ، وإن زيد بن ثابت ، وابن مسعود . وغيرها كانوا ينزعون عن قوس عمر . ويشاركونه في كثير من أقضيته وآرائه .

٧٢ — وإن التابعين في اجتهادهم ، منهم من كان يفتى برأيه غير متوقف إذا لم يجد نصاً ولا فتوى صحابى . ومنهم من لاينطلق في الاجتهاد إن لم يجد مايعتمد عليه من السنة ، أو القرآن الكريم ، وقد كان ذلك النوعان من الاجتهاد في عصر الصحابة رضى الله عنهم، ولكن لم يتضح الفارق بين المنهاجين وضوحاً كاملا ، لمعرفة الكثيرين من الصحابة بالسنن بالتاقي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

أما فى عصر التابه بين فإن الفرق بين المنهاجين قد انضح ، وانسعت الفرجة بينهما، وذلك لأن ربح الخلاف كانت قد اشتدت بين المسلمين ، فسكان بأسهم بينهم شديداً، وسهل عليهمأن يتراموا بألغاظ الكفر والفسوق والعصيان ، وأن يتراشقوا بنبال الموت ، وأن تشجر السيوف .

لقد انقسم المسلمون إلى خوارج وشيعة ، والجماعة ، ثم كَان فيهم الساكنون. الذين رضوا بالبلاء الذي نزل بالناس ، وبعدوا عن الفتن ، فلم يخوضوا فيها ،

<sup>(</sup>١) أعلام الموقعين حـ ١ ص ١٦ ، ١٧

وكان الخوارج فرقا متباينة . وظهر منهم أزارقة (١) ، وإباضية ، ونجدات ، وأسماء أخرى ، والشيعة كانوا بحلامتباينة ومنهم من خرج بآرائه عن الإسلام ، إن كان قد دخل فيه ، إذ منهم من كانوا دخلاء فى الإسلام ، أظهروا الدخول فيه لإفساد أهله ، فلا يهمهم أن يقوم عمود الدين ، إنما مهمتهم أن ينقضوا أساسه ، لتستميد ملتهم القديمة قوتها أو سلطانها أو على الأقل يثأرون بمن أزال شوكتها ، أو يميش المسلمون فى ظلمة طخياء فينطنيء نور الله فى نفوسهم .

ولقد صاحب هذا على أنه نتيجة له أن قلت الحريجة الدينية عند بعض الناس فكثر التحدث الحكاذب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى لقد أفزع هذا كبار المؤمنين ، وأخذوا الأهبة للقضاء على هذه الموضوعات وكشفها ، بتدوين المصحيح الثابت المعروف ، فقكر عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه فى تدوين السنة الصحيحة لهذا السبب ، ولغيره من الأسباب التى تتعلق بتطبيق الأحكام الشرعية تطبيقا صحيحا .

الزاوية وساركل فريق فى مدى أوسع مما سار فيه السابقون من الصحابة رضوان الله عليهم، فرأينا الذين يؤثرون الرواية يزيدون فى الاستمساك بطريقتهم، ويرون فيها عصمة من الفتن التى ادلهمت واشتدت، فإنهم لم يجدوا العصمة إلا فى الأخذ بالسنة، والآخرون يرون كثرة الكذب على الرسول صلى الله عليه وأسباب بالكذب، ثم يرون بسبب ما يجد من الأحداث أنه يجب البت ببيان الأحكام الشرعية فيها.

<sup>(</sup>١) الأزارقة أتباع نافع ابن الأزرق ، والإباضية أتباع عبد الله بن إباض ، والنجدات أتباع نجدة ابن عوبمر .

وبذلك وجد نوعان من الفقه ، فقه الرأى وفقه الأثر ، واشتهر فريق من الفقهاء بآنهم فقهاء رأى ، وآخرون اشتهروا بأنهم فقهاء أثر .

و نكرر هذا ما أشرنا إليه من قبل من أنه ليس أساس الاختلاف في أصل الاحتجاج بالسنة أو قبولها ولزوم الأخذ بها إن ثبتت ، بل الأساس في مقدار الأخذ بالرأى و تفريع الأحكام تحت سلطانه أحيانا ، فقد كان أهل الأثرلا بأخذون بالرأى إلا اضطراراً وفي حال الضرورة فقط ، يترخصون في الأخذ به ، كا يترخص المضطر في أكل لحم الخنزير ، ولا يفرعون في المسائل ، أما أهل الرأى . يترخص المضطر في أكل لحم الخنزير ، ولا يفرعون في المسائل ، أما أهل الرأى ما أما ملاون من الإفتاء في المسائل بالرأى ، ما دام لم يصح لديهم حديث في الموضوع الذي يجتهدون فيه ، وكان بعضهم لا يكتفى في در استه باستخراج . في الموضوع الذي يجتهدون فيه ، وكان بعضهم لا يكتفى في در استه باستخراج . أحكام الواقعات التي تقع ، بل يفرضون مسائل غير واقعية ، ويضعون لها أحكام الواقعات التي تقع ، بل يفرضون مسائل غير واقعية ، ويضعون لها . أحكاما بآرائهم ، ويسمى هذا الفقه التقديري .

ولقد جرى على أقلام بعض العلماء أن أهل الحديث أكثرهم بالحجاز .. وأكثر أهل الرأى كان بالعراق ، وأساس ذلك أن فقهاء المدينة كانوا يرمون هقهاء العراق ببعدهم عن السنة ، وأنهم يفتون في الدين بآرائهم ، وفقهاء العراق . ينكرون ذلك .

والحقيقة أن الرأى كان بالعراق والحديث أيضًا كان به ، وكان بالمدينة . رأى ، بجوار الحديث ، بيد أنهما يفترقان في أمرين .

أحدها: في أن مقدار الرأى عند أهل العراق أكثر منه عند أهل الحجاز.
وثانيهما: في نوع الاجتهاد بالرأى ، فأكثر الاجتهاد بالرأى عند أهل
العراق كانوايسيرون فيه على منهاج القياس، وأما الرأى عند أهل الحجاز فكان يسير
على منهاج المصلحة، وقد تبع ذلك أن كثرت التفريعات الفقهية في العراق
على منهاج المجلحة، لاختبار الأقيسة، وذلك ما يسمى بالفقه التقديري كا ذكرنا

ولم يوجد ذلك النوع من الفقه بالمدينة ، لأن الأساس كان المصلحة ، وهي... لاتتحقق إلا في الوقائم ، فلا يجيء فيها الفرض والتقدير .

و إنه كان من فقهاء العراق المحدثين الشعبي وغيرد ، وكان كثيرون من . فقهاء الرأى كعلقمة ، و إبراهيم النخعي ، وحماد بن أبي سليان شيخ أبي حنيفة ، وغيرهم كثير ، وكانوايكثرون من القياس، و إمامهم من الصحابة عبدالله بن مسعود .. رضى الله عنه ، فأكثر روايتهم عنه ، وعن على بن أبي طالب وغيرها من . كبار الصحابة الذين أقاموا في العراق أمدا طويلا .

والذين أخذوا بالرأى عدد كثير أكبر من عدد العراق ، وتكونت بالمدينة والذين أخذوا بالحديث أوالسنة والذين أخذوا بالرأى عدد كثير أكبر من عدد العراق ، وتكونت بالمدينة مدرسة فقهية أيضا لهاخواصها مدرسة فقهية لما خواصها، كما تكونت بالعراق أوقر ببة منها ، بل إنه قد تكونت مدارس فقهية بكل قطر من الأقطار، وبذلك اتسم الفقه وتشعبت مناهجه ، وقد قال الدهاوى في اختلاف المدارس الفقهية :

صار لكل عالم منعلماء التابعين مذهب على حياله ، فانتصب في كل بلد إمام، مثل سعيد بن المسيب وسالم بن عبد الله بن عمر بالمدينة ، وبعدها الزهرى، والقاضى يحيى بن سعيد ، وربيعة بن أبى عبد الرحن فيها ، وعطاء بن أبى رباح بمكة ، وإبراهيم النخمى والشعبى بالكوفة ، والحسن البصرى بالبصرة ، وطاووس بن كيسان باليمن ، فأظمأ الله أكباداً إلى علومهم ، فرغبوا فيها ، وأخذوا عنهم الحديث ، وفتاوى الصحابة وأقاويلهم ، ومذاهب العلماء ، وتحقيقاتهم من عند الحديث ، واستفتى فيها المستفتون ، ودارت المسائل بينهم ، ورفعت إليهم الأقضية ، وكان سعيد بن المسيب وإبراهيم ، وأضرابهما جمعوا أبواب الفقه ، وكان لهم في كل بابأصول تلقوها من السلف ، وكان سعيد وأصحابه يذهبون .

إلى أن أهل الحرمين أثبت الناس في الفقه ، وأصل مذهبهم فتاوى عبدالله بن عبر وعائشة ، وابن عباس وقضا باقضاة المدينة ، فجمعوا من ذلك ما بسر لهم ، ثم نظروا نظرة اعتبار و تفتيش ، و كان إبراهيم وأصحابه يرون أن عبدالله بن مسعود "ثيت الناس في الفقه ، كما قال علقمة « وهل أحد أثبت من عبد الله » وقول أب عنيفة للأوزاعي : « إبراهيم أفقه من سالم ، ولولا فضل الصحبة لقلت علقمة أفقه من عبد الله بن عر ، وعبد الله هو عبد الله . وأصل مذهبه فتوى عبد الله ابن مسعود ، وقضايا على رضى الله عنه وفتاواه ، وقضايا شريح وغيره من قضاة السكوفة ، فجمع مع ذلك ما يسره الله ، ثم صنع في آثارهم كاصنع أهل المدينة في آثار أهل المدينة وخرج كما خرجوا ، نفلص له مسائل في الفقه في كل في آثار أهل المدينة وخرج كما خرجوا ، نفلص له مسائل في الفقه في كل مولديث أبي هريرة ، وإبراهيم لسان فقهاء المدينة ، وكان أحفظهم لقضايا عمر، ولم ينسباه إلى أحد ، فإنه في الأكثر منسوب إلى أحد من السلف صريحا وخرجوه » (أو إيماء ، ونحو ذلك ، فاجتمع عليهما فقهاء بلدها وأخد ذوا عنهما. وعقاده وخرجوه » (١) .

ومن هذا الـكلام القيم يستفاد أمران :

أحدها -- أن أهل العراق كانوا فى أقضيتهم وفتاويهم ، تابعين لعبد الله ، ابن مسعود ، فى فتاويه ، ولعلى بن أبى طالب رضى الله عنه فى أقضيته ، وغيرها . ممن أقاموا بالعراق ، وأن أهل المدينة من التابعين كانوا حريصين على نقل فقه . فقهاء الصحابة الذين أقاموا بالمدينة ، وهم أكثر بمن كانوا بالعراق .

ثانيهما — أن فقيهين من فقهاء التابعين كانا أبرز الفقهاء مظهراً ، وكلاها يمثل فقه بلده ، وهمل الحجموعة الفقهية التي امتاز بها بلده ، وهما سعيد بن المسيب في المدينة ، فإليه آوى علم كثيرين من الصحابة الذين كانت المدينة موضع اجتهادهم ،

<sup>(</sup>١) كتاب حجة الله البالغة لولى الله الدهاوى ص ١٤٣ ج ١ .

وثانيهما إبراهيم النخمى ، فإليه آوى علم عبد الله بن مسعود ، وأقضية على >- وغيرها من الصحابة القليلين الذين أقاموا بالعراق .

## الإجماع وحجية قول الصحابى :

٢٥ — كان عمل الصحابة وقولهم حجة عندالتابعين ، لأنهم تلاميذهم الذين. تأثروا خطواتهم ، وصار عمل الصحابة وحده حجة عند من جاء بعد التابعين ، إلا طوائف من الناس لم تأخذ بعمل الصحابة ، منهم الشيعة الإمامية ، والخوارج، والظاهرية ، وإن عمل الصحابة كان على قسمين :

أحدها — ما يتفقون عليه ، ولوكان الاتفاق بعدمناقشة وينتهى إلى رأى . تلتقى عنده الأفكاركلما ، وهذا يكون إجماعا ، وهو حجة فى ذاته ، وبهذا قال . جمهور الفقهاء ، والسكل على اعتبار إجماع الصحابة حجة إلا الخوارج والشيعة » . أما الظاهرية فقد اتفقوا مع الجمهور على حجيته .

و إذا لم يجمعوا فإن التابعين كانوا لا يخرجون عن أقوال الصحابة، و إنكان. كل تابعي يختار رأى شيخه غالباً ، أو يختار رأى غيره من الصحابة نادراً.

وإن القابمين كانوا يأخذون رأى الصحابي سواء أكان مجمعاً عليه أم كان. غير مجمع عليه ـ على أنه سنة ، لا على أنه مجرد رأى ، فأقوال الصحابة سنة عندهم، مجب اتباعها ، ولوكان أساسها الظاهر الاستنباط الحجرد ، وكذلك جاءهن بعدهم، الفقهاء المجتهدون، فاعتبر أكثر هم رأى الضحابي حجة يجب الأخذبها، وذلك لأنهم، الذين تلقوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما نقلوه عنه قد نقلوه بالعمل ، وإن الما مقتبسة من الهدى النبوى ، وهم الذين تلقوا العلم النبوى ، فهم أقدر الناس على فهم ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم ، واجتهادهم أقرب الى التلقى منه إلى الاستنباط العقلى المجرد ، وقدقال ابن القيم في بيان قوة رأى الصحابي : إلى التلقى منه إلى الاستنباط العقلى المجرد ، وقدقال ابن القيم في بيان قوة رأى الصحابي : إلى التلقى منه إلى الاستنباط العقلى المجرد ، وقدقال ابن القيم في بيان قوة رأى الصحابي :

بها عنا ، ومدارك نشاركه فيها ، فأما ما يختص به فيجوز أن يكون سمه من النبي صلى الله عليه وسلم شفاها ، أو من صحابي آخر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم و إن ما انفردوا به من العلم عنا أكثر من أن يحاطبه ، فلم يروكل منهم ماسم ، وأين ما سمعه الصديق رضى الله عنه والفاروق ، وغيرها من كبار الصحابة رضى الله عنهم إلى ما رووه ، فلم يرو عن صديق الأمة مائة حديث ، وهو لم يغب عن النبي صلى الله عليه وسلم في من البعث إلى أن توفى ، وكان أعلم الأمة به صلى الله عليه وسلم ، وبقوله وفعله وهديه وسيرته ، وكذلك أجلة الصحابة روايتهم قليلة جدا بالنسبة إلى ماسموه من نبيهم وشاهدوه وفر روواكل ما سمعوه وشاهدوه ، لزاد على رواية أبي هريرة أضمافا مضاعفة فإنما صحبه نحو أربع سنين ، وقد روى عنه الكثير ، فقول القائل لوكان عند المسحابي في هذه الواقعة شيء — قول من لم يعرف سيرة القوم وأحوالهم ، فإنهم كانوا يهابون الرواية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ويمظمونهاخوف الزيادة والنقص ، و يحدثون بالشيء الذي سمعوه من النبي صلى الله عليه وسلم مراراً ، ولا يصرحون بالسماع ، ولا يقولون قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من النبي صلى الله عليه وسلم فتلك الفتوى التي يفتى أحدهم بها لا تخرج عن ستة وجوه :

أحدها — أن يكون سممها من النبي صلى الله عليه وسلم .

والثانى – أن يكون سمعها نمن سمها من النبي صلى الله عليه وسلم .

والثالث — أن يكون فهمها من كتاب الله فهما خني علينا .

والرابع - أن يكون قد اتفق عليه ماؤهم ، ولم ينقل إلينا إلا قول المفتى بها وحده .

والخامس -- أن يكون لسكمال علمه باللغة ودلالة اللفظ على الوجه الذى انفرد به عنا، أو لقرائن حالية اقترنت بالخطاب ، أو لمجموع أمور فهمها على

طول الزمن من رؤية النبي صلى الله عليه وسلم ، ومشاهدة أفعاله وأحواله وسيرته وسماع كلامه ، والعلم بمقاصده ، وشهود تنزيل الوحى ، ومشاهدة تأويله بالفعل فيكون قد فهم مالا نفهمه نحن ، وعلى هذه التقارير الخمسة نكون فتواه حجة علينا يجب اتباعها .

السادس — أن يكون فهم ما لم يروه عن النبى صلى الله عليه وسلم و أخطأ فى فهمه .
وهذا الفرض السادس وجه من ستة وجوه ، واحتمال وقوعه بعيد ،
وهو كخطأ النقل من الثقة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم يحتمل الوقوع ،
وإن لم يكن الاحتمال قريباً ، وإنه على فرض وقوعه ، فهو احتمال من ستة وجوه ،
ولا شك أنه إذا كان احتمال الخطأ فرضاً من ستة فروض فإن احتمال من يجىء
من بعدهم للخطأ فرض من فرضين ، والأول أولى بالانباع ، والآخر أولى عالتأخير ، لذلك كانت أقوالهم لها المقام من السنة » .

٣٦ — ويجب أن نقرر هنا أن من أقوال الصحابة ما يقبله الأكثرون على أنه سنة أو حديث نبوى ، وذلك إذا أفتوا بفتيا من الأمور التعبدية التي لا يكون للمقل فيها مجال ، فإن هذه تكون سنة نبوية قطعاً يراجح بينها وبين ما نقل عن النبى صلى الله عليه وسلم ، لأن الصحابى ماكان ليفتى فى أمر ليس للرأى فيه مجال إلا إذاكان قد سمع من النبى صلى الله عليه وسلم .

ولذلك قرر العلماء أن أقوال النبى صلى الله عليه وسلم وما ينسب إليه من أحكام أو فتاوى يؤخذ به ، ويرد قول الصحابى الذى يخالفه ، لأنه لا يصح أن نأخذ بقول الصحابى لاحتمال نسبته إلى النبى ، ونترك به قول النبى صلى الله عليه وسلم الثابت عنه من غير احتمال ـ ولم يخالف أحد فى هذه القاعدة إلا إذا كان ما روى عن الصحابى من فتوى لا يمكن أن تكون برأ يه ، إذ ليس للرأى

<sup>(</sup>١) إعلام الموقعين ج ٤ ص ١٢٨ طبع متير الدمشق .

خيها مجال ، فإن ذلك يكونسنة ، وقد كان الإمام مالك يعتبره حديثا عن النبي حملى الله عليه وسلم ، ولذلك حملى الله عليه وسلم ، ولذلك كان مالك رضى الله عنه يكره الفيام بالعمرة والإحرام لها معا — فى أشهر الحج ، اتباعا لرأى عمر رضى الله عنه ، فقد روى أن عمر رضى الله عنه نهى عنها . وخالف فى ذلك ما روى عن سعد بن أبى وقاص أن النبي صلى الله عليه وسلم خضل الجمع بين العمرة والحج فى أشهر الحج ، وقال سعد رضى الله عنه قد صنعها . رسول الله صلى الله عليه وسلم واعتبر قوله سنة ، وقال : عمر أعلم برسول الله صلى الله عليه وسلم من سعد ().

فهو قد اعتبر ما قاله عمر نقلاعن النبي صلى الله عليه وسلم، وإن لم يصرح بالنقل، ويقابل ما قاله سعد بن أبي وقاص وصرح فيه بالنقل.

<sup>(</sup>١) الأم كتاب اختلاف مالك الجزء السابع ص ١٩٨٠

# ع ــ الفقه في عصر الأثمة المجتهدين

٧٧ — جاء بعد التابعين تلاميذهم ، وهم تابعو التابعين ، وقد انصل تاريخهم بتكوين المذاهب الفقهية ، فقد كان أكبر الأثمة سنا ـ شيوخه من التابعين ، فيعتبر من تابعى التابعين أو من تلاميذ التابعين ، وهو أبو حديفة كان شيوخه من التابعين ، كإبراهيم المنخعى والشعبى ، وحماد بن أبى سليمان ، وعطاء بن أبى رباح وغيرهم من التابعين كباراً وصفاراً ، فبعض هؤلاء مع أمه تابعى التقى بكثير من الصحابة بحكم الولادة والزمان ، ولكنه كان أكثر علمه من التابعين. كاد ، ومثل أبى حنيفة ، مالك رضى الله عنه ، فقد تلقى عن تلاميذ ابن عمر ، فتلق عن ابنه سالم ، وتلقى عن نافع ، وتلقى عن الغقهاء السبعة الذين كانوا بالمدينة أو عن تلاميذه .

والفقهاء السبعة هم سعيد بن المسيب وهو قرشى ولد فى خلافة أمير المؤمنين الإمام عمر بن الخطاب رضى الله عنه وتوفى سنة ٩٣ ، فمالك لم يدركه ولكنه أخذ عن تلميذه ابن شهاب .

وثانيهم - عروة بن الزبير ، وهر ابن أخت أم المؤمنين عائشة ، قد نقل علمها إلى الأخلاف من بعدها ، وقد توفى سنة ٩٤ ه .

وثالثهم — أبو بكر بن عبيد بن الحارث وقد أخذ عن أم المؤمنين عائشة وقد توفى سنة ٩٤ .

ورابهم - هو القاسم بن محمد بن أبى بكر الصديق رضى الله عنه ، وهو ابن أخى آم المؤمنين عائشة ، وقد نقل علمها ، إذ قد احتضنيه بعد مقتل أبيه محمد بن أبى بكر الصديق ، وقد كان فقيها وناقلا للحديث ، وكان فيه همة. وكياسة ، وقد توفى سنة ١٠٨ه.

وخامس هؤلاء ، عبيد الله بن عبدالله بن عتبة بن مسعود ، وقد روى عن... عائشة و ابن عباس وغيرهما ، وكان أستاذا لممر بن عبد العزيز ، وله أثر شديد. في تفكيره و أتجاهه وقد توفى سنة ٩٩هـ.

وسادسهم -- سليمان بن يسار ، وكان مولى للسيدة أم للؤمنين ميمونة . بنت الحارث زوج النبى صلى الله عليه وسلم ، ثم أعتقته بعقد مكاتبة (بأن يؤدى . لها مقداراً معلوماً من المال يسعى فى تحصيله ، ويعتق إذا أداه ) وقد روى عن. زيد بن ثابت وعبد الله بن عمر ، وأبى هريرة ، وأمهات المؤمنين ميمونة ، وعائشة ، وأم سلمة وقد توفى سنة ١٠٠ه.

وسابعهم — خارجة بن زيد بن ثابت فقيه الصحابة في الفرائض ، وقد . تلقى علم أبيه ، واشتهر بالرأى كما اشتهر أبوه ، وكان على علم كامل بالفرائض.. كأبيه ، وكان يقسم بين الناس مواريثهم على كتاب الله وسنة رسوله ، قال . مصعب بن عبد الله : «كان خارجة وطلحة بن عبد الرحمن بن عوف في زمنهما . يستفتيان وينتهى الناس إلى قولها ، ويقسمان المواريث بين أهلها من الدور . والمنخل والأموال ، ويكتبان الوثائق » .

ويلاحظ أن هؤلاء الفقهاء السبعة كان أكثرهم ممن يجمع بين دقة الرواية وصدقها ، والتخريج والإفتاء بالرأى ، مع أنهم جميعاً كانوا في المدينة ، وعن علمها يصدرون ، فسعيد بن السيب كان يكثر من التخريج ، والإفتاء على مقتضاه ، وقد قال بعض معاصريه : كنت أرى الرجل في ذلك الزمان ، وإنه ليدخل يسأل عن الشيء ، فيدفعه الناس عن مجلس إلى مجلس ، حتى يدفع ، إلى مجلس سعيد بن المسيب — كراهية للفتيا ، وكانوا يدعونه سعيد بن المسيب الجرىء » (1)

<sup>(</sup>١) أعلام الموقعين ج ١ ص ١٨ .

وكذلك كان يكثر من التخريج والإفتاء بالرأى، القاسم بن محمد ، وعبيد الله ينا بن عتبة بن مسعود ، وسلمان بن يسار ، وخارجة ، وحيث كثر التخريج . وكثر معه فقه الرأى .

ولذا نقرر أن فقه الرأى كان لهموضع فى المدينة ، و إذا كان أو لئك الفقهاء السبعة يمثلون الفقه المدنى ، فإن فقههم يبين بوضوح مقدار الفقه المبنى على الرأى والتخريج فى المدينة ، وإن لم يكن بمقداره فى العراق ، ولم يكن على . منهاجه وطريقه .

ولقد نقل علم هؤلاء السبعة وغيرهم اثنان هما ابن شهاب الزهرى الذى كان يعد من صفار التابعين ، وربيعة الرأى ، وكلاها تقلمذ له الإمام مالك , رضى الله عنهم أجمعين .

٢٨ -- من هذا السياق التاريخي يتبين الاتصال الفقهي بين عصر التابعين ،
 وعصر الأئمة المجتهدين ، واندماج عصر التابعين مع ابتداء عصر تسكوين .
 للذاهب النقهية ، بعد أن تكونت المدارس الفقهية في عصر التابعين .

و إن السكذب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد كثر في عهد التابعين السبب تكون الفرق الإسلامية ، وبسبب أنه دخل في الإسلام من لا يرجو له وقارا ، ولا لأهله استقرارا عند حقائقه ، وقد أشرنا إلى ذلك من قبل ، ولكن لم يؤثر ذلك في عصر التابعين لوجود أئمة منهم يرجع إليهم ، ويؤخذ عنهم ، قد عرفت مصادر علمهم وموارده ، فكان المورد عذباً لم يعتكر ، والمصدر نقياً لم يدنس .

ولكن فى عصر تابعى النابعين ، ومن جاء بعدهم كان سيل الكذب على الرسول قد طم ، وكثرت أسبابه ، وقد ذكر القاضى عياض بعض أسباب الله عليه وسلم فقال :

« هم أنواع ، منهم من يضع عليه ما لم يقله أصلا ، إما ترافعاً واستخفافا ، ... كانزنادقة وأشباههم ، و إما حسبة ( بزعهم ) وتدينا ، كملة المتعبدين الذيق . وضعوا الأحاديث في الفضائل والرغائب ، و إما إغراباً وسمعة كفسقة الحدثين ، وإما تعصباً واحتجاجاً كدعاة المبتدعة ، ومتعصبي المذاهب ، و إما اتباعا ، لموى أهل الدنيا فيا أرادوه ، وطلب العذر لهم فيا أتوه . وقد تعين جماعة من كل طبقة من الطبقات عند أهل الصفة وعلم الرجال ، ومنهم من لا يضع متن . الحديث ، ولحكن ربما وضع للمتن انضعيف إسناداً صبيحاً مشهوراً ، ومنهم من يقلب الأسانيد أو يزيد فيها ، ويتعمد ذلك إما للإعراب عن غيره ، و إما لرفع يقلب الأسانيد أو يزيد فيها ، ويتعمد ذلك إما للإعراب عن غيره ، و إما لرفع وعدث بأحاد يثهم الصحيحة عنهم ، ومنهم من يعمد إلى كلام الصحابة وغيره ، وحكم العرب والحكما ، لينسمها إلى النبي صلى الله عليه وسلم هذا

ولا يمكننا أن نقول: إن كل هذه الأسباب قد وجدت في عصر تابعي، التابعين، وعصر تسكون المذاهب الفقهية، فإن منها ماوجد من بعد، ولكن من المؤكد أن كثيراً منها وجد في عصر تابعي التابعين، والأثمة الجتهدين، ومن هذه الأسباب التي وجدت في عصر التابعين الزندقة، فقد كثرت في النصف الأول من القرن الثاني، وكذلك الابتداع الذي مثلته الفرق المختلفة كالخوارج وغلاة الشيمة وغيرهم، حتى أن بعض الخوارج عمن قد تاب عن هذه النحلة قال المحتوا أحاديث نبيكم، فإنا كما أردنا نشر أمر ذكرنا له حديثاً، وكذلك المحتوا أحاديث نبيكم، فإنا كما أردنا نشر أمر ذكرنا له حديثاً، وكذلك كان هوى أهل الدنيا قائماً في المصر الأموى، فإن من حكام الأمويين من كانوا يقربون إليهم من ليس للدين مقام في قلبه، ولا يمتنع عن الكذب لأجلهم،

<sup>(</sup>١) راجع كتاب تاريخ التشريع الإسلامى لأستاذنا المرحوم الشيخ محمدالخضرى. صفحة ٧٧.

. ولا يكون حاجزاً لمن يبيع آخرته لدنياه ولدنياه .

وعلى الدين الحكيم ، وعلى التراث الإسلامي المنير الباق إلى يوم القيامة \_ قد كانت المناية بتنقيقه، وتخليصه من الشوائب ، ولذلك اتجه العلماء منذ ابتدأت هذه الظاهرة إلى الدراسة والفحص ، وحماية الفقه الذي هو تراث المسلمين من ذلك ، وقد اتجه العلماء التجاهين ، كلاها لحماية التراث الإسلامي ، وتنقيقه ، وتخليصه للأجيال مسلما نيراً .

أحدها \_ اتجاه العلماء إلى تمحيص الرواية الصادقة واستخراجها من بين الدخيل ليتميز الخبيث من الطيب ، فدرسوا رواة الأحاديث ، وتعرفوا الأحين الضابط للرواية الفاهم من غيره ، وجعلوهم في الصدق عمرانب ، ثم درسوا الأحاديث ووزنوها بالمعروف من هذا الدين بالضرورة والأحاديث المشهورة المستفيضة التي لا يشك في صدقها ، فإن وجدوها متنافرة معها ردوها ، ثم اتجه الأعلام من الأئمة إلى تدوين الصحيح من الأحاديث ، معها ردوها ، ثم اتجه الأعلام من الأئمة إلى تدوين الصحيح من الأحاديث ، فدون مالك للوطأ ، وجمع سفيان بن عيينة كتاب الجوامع في السنن والآداب ، وألف سفيان الثورى الجامع السكبير في الفقه والأحاديث ، وجمع الإمام ، أبو يوسف صاحب أبى حنيفة كتاب الآثار رواه عن أبي حنيفة .

وأخذ العلماء يسندون الأحاديث ليعرف الرواة واشتهارهم بالصدق . والعدالة ، وعدم الوقوع في البدع التي انتشرت في ذلك الإبان . وقد أخذ الإسناد دورين مختلفين :

أولها — ألا يذكر السند متصلا، وذلك كان فى عصر أثمة الاجتهاد الذين التقوا بالتابعين، كأبى حنيفة، ومالك رضى الله عنهما، فإنهم تلقوا عن الله عنهما، فإنهم تلقوا عن التابعين، وإنكان أخذهم في كثير من الأحوال عن صفار التابعين ، لاعن كبارهم ، فهؤلاء الأئمة كانوا لا يشترطون أن يتصل السند بالنبى ، ولذلك كانوا يقبلون من التابعى أن يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإن لم يذكر التابعى الصحابى لثقتهم به ، ولاطمئنانهم إلى أنه لا يرسل ، أى لا يترك اسم الصحابى إلا إذا كان مستوثقاً من صدق النقل ، فهم يعتمدون على ثقة من ينقل إليهم ، ولأن أولئك الثقات من التابعين كانوا يصرحون بأنهم يرسلون اسم الصحابى إذا كانوا قد رووا الحديث عن عسدة من الصحابة ، فقد روى أن الحسن البصرى ، وهو من التابعين كان يقول : إذا اجتمع أربعة من الصحابة على حديث أرسلته إرسالا ، وعنه أنه قال : متى قلت لكم حدثنى فلان فهو حديثه لاغير ، وإذا قلت ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أكون قد سمعته من سبعين أو أكثر .

وقد روى الأعمش أنه قال قلت : « لإبراهيم إذا رويت لى حديثًا عن عبد الله فأسنده ، فقال إذا قلت حدثنى فلانءن عبد الله فهو الذى روى ذلك وإذا قلت قال عبد الله ، فقد رواه لى غير واحد » .

ولهذا كثر الإرسال عند أبى حنيفة ، وكان مالك رضى الله عنه يعنى بمن يأخذ عنه ، ولا يطلب منه الإسناد ، فكان يقول : « لا يؤخذ العلم من أربعة ، ويؤخذ من سواهم ، لا يؤخذ من سفيه ، ولا يؤخذ من صاحب هوى يدعو إلى بدعته ، ولا من كذاب يكذب في أحاديث الناس ، و إن كان لا يتهم على حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا من شيخ له فضل صلاح وعبادة ، إذا كان لا يعرف ما يحمل و يحدث الناس » .

فإذا اطمأن مالك إلى راوية ولم يكن من هذه الأصناف الأربعة قبل النقل عنه ، واعتمد عليه .

ولما ذهب عصر المجتهدين الأولين كان الكذب يفشو بين الناس بمقدار

تباعد عهدهم ، ولأن الذين تلقوا الحديث من بعد لم يتلقوه من التابعين ، ولا من تابعي التابعين ، كانوا يشترطون لقبول الرواية اتصال السند في الحديث عن فسكان الشافعي الذي جاء بعد الشيخين أبي حنيفة ومالك لايقبل الرسل الذي لايذكر فيه الصحابي ، أو ينقطع السند في أي طبقة من طبقاته باطلاق ، بل. كان يشترط لقبول المرسل شرطين :

أولها — أن يكون التابعي الذي لم يذكر اسم الصحابي وأرسله ، من كبار التابعين الذين شاهدو اكثيرين من الصحابة ، كسعيد بن المسيب .

وثانيهما — أن يوجدله معاضد بعاضده ، ومن هذه المعاضدات :

- (١) أن يكون قد أسند معناه إلى النبي صلى الله عليه وسلم بطريق آخر ..
- (ب) أو أن يكون هناك مرسل آخر غيره قد قبله أهل العلم وقد روى. بطريق آخر ، فإنه يقبل ، ولكنه يكون أضعف من الأول . إذ الأول مسند-في معناه ، وإن كان مرسلا في لفظه .
- (ج) أو أن يعاضد بقبول الصحابى . فإن ذلك القول يدل على أن. للمرسل هذا أصلاكان مأخوذاً به عند بعض الصحابة . وهذه المرتبة دون. السابقة .
- ٤ -- أو أن توجد جماعات من أهل العلم يتلقونه بالقبول . ويفتون به ..
   كديث : « لا وصية لوارث » فإنه مرسل تلقاه العلماء بالقبول .

فإذا لم يوجد هذان الشرطان لايقبل المرسل. وفى حال استيفائه لهذين. الشرطين يكون فى مرتبة دون المتصل السند. فإذا عارضه مسند. فإنه يرد. ولوكان معه هذه المعاضدات. هذا في عصر الشافعي ، فلما جاء بعد ذلك عصر الإمام أحمد ، وعصر الجموعات الكبرى للأحاديث ، ضعف شأن المرسل أكثر ، فالإمام أحمد قد اعتبره من الأحاديث الضعيفة ، فلا يأخذ به إلا إذا لم يوجد أى حديث متصل الإسناد ، وكذلك كان شأن المحدثين أصحاب الصحاب والسنن ، حتى قال النووى في التقريب إنه رأى جمهور الفقهاء والححدثين وأصحاب الأصول وقال في سبب رده واعتباره ضعيفاً إنه قد جهل من روى عنه إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ، وإذا كانت الرواية عن المسمى المجهول مردودة ، فأولى أن ترد عمن لايسمى قط .

وإن هذه السلسلة بالنسبة للمرسل ترينا كيف عالج العلماء أمر السنة لتنقيتها بتمرف الإسناد ، وتمرف أحوال الرجال لمكل سند رجلا ، رجلا ، حتى لاتقبل رواية إلا من يكون عدلا معروفاً بالصدق والأمانة والإدراك ، والضبط بين أهل عصره ، وقد كان العلاج ناجعاً قاطعاً السبيل على الذين دسوا بين الأحاديث ما لم يقله صلى الله عليه وسلم .

٣٠ -- هذا هو الاتجاه الأول الذي ترتب على انحراف بعض الذين تسموا بأسماء إسلامية. أو أعلنوا أنهم دخلوا في الإسلام وهم لا يريدون للإسلام إلا الضياع. فكذبوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد رأيت كيف وضع العلماء المقاييس الضابطة لمعرفة الزيف من الجياد.

أما الآنجاه الثانى ، فهو الإفتاء بالرأى ، وإنه لضرورة يوجبها العلم الإسلامى ؛ ولذلك قال الشهرستانى ، فى كتابه الملل والنحل: « إن الحوادث والوقائع فى العبادات والنصرفات مما لا يقبل الحصر . ونعلم قطعاً أنه لم يرد فى كل حادثة نص ، ولا يتصور ذلك أيضاً ، والنصوص إذا كانت متعاهية ، وما لا يقناهى لا يضبطه ما يتناهى — علم قطعاً أن الاجتهاد والقياس و اجب الاعتبار حتى يكون بصدد كل حادثة اجتهاد » .

ولذلك كان للرأى مجال فى عهد الصحابة ، ثم فى عهد التابعين ، وتميزت فى عهد التابعين ، وتميزت فى عهد التابعين المدارس الفقهية المختلفة ، وكانت كل مدرسة فيها الرأى ، وإن اختلفت المقادير ، وتباينت المناهج .

وقد جاء عصر الأثمة أصحاب المذاهب الذي كان متصلا بعصر تابعي التابعين فكشر الاجتهاد بالرأى ، وكان لا بد من هذه الكثرة لكثرة الحوادث ، وضرورة تنقية الرواية مما عساه يكون قد علق بها من كذب الكذابين ، وكان في المدينة رأى ، وفي المراق رأى ، وهما الميدانان اللذان برز فيهما الفقه بروزا واضحاً ، وإن كان الفقه في غيرها ، ولكن بقدر دونهما . وقد كثر الرأى في المراق عما هو في المدينة لما ذكر نا من قبل ، ونجمل الآن الاختلاف بين الفقه المدنى والعراقي في الأمور الأربعة الآتية :

أولها — أن المدنيين عندهم أقضية أبى بكر وعمر وعثمان، وفتاويهم وفتاوى زيد بن ثابت، وأم المؤمنين عائشة ، وروايات أبى هريرة وأبى سعيد الخدرى وغيرها — والعراقيون عندهم أحاديث عبد الله بن مسعود وفتاويه، وأقضية عبد الله بن أبى طالب وفتاويه، وأقضية أبى موسى الأشعرى وفتاويه، وأقضية شريح، وغير هؤلاء من الصحابة والتابعين الذين أقاموا بالعراق.

ثانيها — أن الثروةعند المدنيين من الآثار أكثر، ويكون حينئذالاعتماد عليها أكثر، وتكون مادة الفقه الأثرى الذى يتكون من أقضية الصحابة ومسائلهم أخصب، والآراء المبنيه على الآثار أوثق وأحكم.

ثالثها — أن التابعين كانت فتاويهم ذات منزلة عند المجتهدين في المدينة وكان لها احترامها ، وكانت متبعة في كثير من الأحيان ، وإذا لم يكن على سبيل الإلزام ، فهو على سبيل الاستحسان . أما آراء التابعين في فقه العراق ،

حَفَانِهَا لَمْ تَكُنَ لِمَا هَذَهُ المُنزَلَةُ ، و إِن تُوافقت في كثير من الأحيان معما فللاتفاق . الفكرى الذي أوجدته المدارس الفقهية لا لمجرد الاتباع .

رابعها — ما أشرنا إليه من قبل، وهو أن الاعتماد في الرأى كان بالعراق ...على القياس، أما الرأى في الحجاز فأكثره يبنى على المصلحة اتباعاً لعمر يرضى الله عنه فيما يجتهد فيه بالنسبة لأمور الدولة .

## فقه الشيعة والخوارج

٣٩ — كان كلامنا كله في فقه الجماعة ، وهو ما يسمى في عرف القاريخ. الإسلامي بفقه السنة ، و إن تلك الفرق الأخرى قد ظهر فيها فقه ، وله مدونات تقرأ ، وأقضية يعمل بها ، وفعاوى تقبع ، ولا بد أن نخوض في هذه الفرق . بكلمات موجزات . و إننا في هذه الإلمامة العاجلة لا نخص الفرق التي لها فقه . بل نتكلم عن الفرق جلة ، سواء أكانت تعملق أصولها بالخلافة أم كانت تعملق بالعقيدة ، لأن الفرق التي لما فقه ، أثور متصلة بالفرق التي ليس لها فقه ، ولا يمكن . بأن نقتلع الفصن من شجرته ، بل لا بد من أن يكون متصلا بهذه الشجرة ، فندر سهوهو يتغذى منها ، ولنقسمها إلى قسمين ، فرق سياسية وأخرى اعتقادية ، وإن كانت الفرق السياسية لها صلة بالاعتقادية . من حيث أن كل فرقة ظهرت في السياسة ، لها آراء في المقيدة .

# الفرق السياسية

٣٢ ـ ظهر في السياسة فرق سياسية حملت ثلاثة عناوين :

أولهــا -- فرق الشيعة .

وثانيها — فرق الخوارج.

وثالثها — الجماعة . ولا نتكلم هنا عن الجماعة فأمرها معروف مشهور .. وهى الأصل فى الآراء السياسية ، وغيرها لا بعد السكثرة الكاثرة من جماعات. المسلمين فى كل بقاع العالم الإسلامى .

والشيعة بعدون أقدم الفرق الإسلامية . ظهروا بمذهبهم في آخر عصر . ذي النورين عثمان رضي الله عنه . ثم اشتد أمرهم في عصر على كرم الله وجهه . ويدعى الشيعة أنهم أقدم من ذلك . ويقولون إن نحلتهم ظهرت عقب وفاة النبى صلى الله عليه وسلم . فكان من الصحابة من يدعو إلى على كرم الله وجهه . ويرونه أحق بالخلافة من أبى بكرصديق هذه الأمة ، ولكن على أى حال فإنه من المقرر أن التشيع ابتدأ كظاهرة تتجه إلى تسيير دفة الدول الإسلامية في عصر ذى النورين عمان الشهيد ، والتفسير دائما يؤخذ من الظواهر ، وإن كان يحاول تقصى ابتداء نشومها .

والشيعة في جملتهم يرون أن علياً أحق المسلمين بخلافة النبي صلى الله عليه . وسلم ، وأنه كان الخليفة المختار من النبي صلى الله عليه وسلم ، ويعتقدون معذلك « أن الإمامة ليست من مصالح العامة التي تقوض إلى نظر الأمة ، ويتعين القائم . بها بتعيينهم ، بل هي ركن الدين وقاعدة الإسلام ، ولا يجوز لنبي إغفالها . وتقويضها إلى الأمة ، بل يجب عليه تعيين الإمام لهم » .

وقد حل اسم الشيعة فرق مختلفة بعضها خرج عن الإسلام ، في تقديس على كرم الله وجهه ، ومن هؤلاء من يسمون السبئية أتباع عبد الله بن سبأ الذين ألمَّوا علياً ، ومنهم الفرابيَّة الذين زعموا أن النبوة كانت لعلى ، ولكن جبريل أخطأ ، و نزل على النبي صلى الله عليه وسلم لما بينه وبين النبي صلى الله عليه . وسلم من مشاجة ، كشاجة الفراب للغراب .

وقد ظهرت هاتان الفرقتان في عهد على رضى الله عنه . فكفرها لأنهما تهجا على مقام النبوة ، وأشركت الأولى منهما .

وقد ظهر انحراف وكفر من بعض الذين يزعمون التشيع لآل البيت على على على على الفرقتين وكان ظهور هؤلاء بعد مقتل الإمام الحسين بن على رضى الله عنهما ، وكان ظهور هؤلاء في آخر القرن الأول وأول القرن الثانى ، يوأوضح هؤلاء فرقتان :

إحداها -- البيانية ، وهم أتباع رجل اسمه بيان بن سممان التميمي ، وكان .. يدعى أنه الإمام بمد محمد بن الحنفية أحد أولاد على بن أبى طالب من غير السيدة .. فاطمة الزهراء ، وقد ادمى ألوهية على بن أبى طالب، وكان يعتقد أن إله الأرض . غير إله السماء .

وكان يعاصره رجل اسمه المفيرة بن سعيد ، وأنشأ فرقة اسمها المفيرية ، وكان يدعى الانتاء إلى محمد الباقر بن على زين العابدبن بن الحسين ، وقد كان يدعى ألوهية على بن أبى طالب ، والأثمة من. أولاد الحسين من بعده .

وهناك فرقة ثالثة اسمها الخطابية ،وداعيتها رجل يكنى بأبى الخطاب الأسدى. واسمه محمد بن زينب الأسدى ، وقد كان أبو الخطاب هذا في عصر الإمام جعفر الصادق ومن دعاته ، فأصابه ما أصاب المغيرة ، فكفر وادعى النبوة ، وزعم، أن جعفر بن محمد الصادق إله ، تعالى الله عن قوله ، واستحل المحارم ، ورخص فيها ، وكان أصحابه كلما ثفل عليهم أداء فريضة أتوه ، وقالوا يا أبا الخطاب : خفف علينا ، فيأمرهم بتركما حتى تركوا جميع الفرائض، واستحلوا جميع المحارم، وارتكبوا المحفلورات ، وأباح لهم أن يشهد بعضهم ابعض بالزور وقال : من عرف الإمام فقد حل له كل شيء كان حرم عليه (١)

قد أشرنا إلى الفرق التي فكت عرا الدين وتحلت من أحكامه عنه واستباحت حرماته ، لأنها عاصرت نشأة مذهبين من المذاهب الفقهية الشيعية وهما المذهب الإمامي والزيدي ، ولأنها إن لم تخرج أصحاب هذبن المذهبين عن الإسلام قد كان لهمض مارأته ممالا يكفرني الجملة وفيه شذوذ مكان فوتاك المذاهب الإسلامية ، فالقول بالجفرالذي سنذكر ، في تاريخ للذهب الجمفري قد كان نبعه في أوساط الخطابية .

<sup>(</sup>١) دعائم الإسلام ص ٢٧ ، ٣٣ .

٣٣ - والفرق التي لم تخرج بأقوالها عن الإسلام منها القريب من أهل السنة والجاعة ، ومنها البعيد عنها ، وإن لم يخرج ببعده عن دائرة الإسلام كان يعيش في أقصى خطوط الدائرة ، أى منهم المعتدلون ، ومنهم المتطرفون . ومن المعتدلين الزيدية ، وهم الذين ينتسبون الإمام زيد بن على زبن العابدين ابن الحسين ، وهي ترى أن الخلافة في أولاد على من فاطمة رضى الله عنها ، لا فرق بين أن يكونوا من ذرية الحسين، وإن ذلك شرط للأفضلية ، وليس بشرط للصلاحية ، فإذا ولى الخلافة أحد من غيرهم وقام بالمعدل والحق فإنه تجب طاعته ، ولذلك أجازوا ولاية الشيخين أبي بكر وهر رضى الله عنهما ، ويرون أن علياً لم يمين من قبل النبي صلى الله عليه وسلم بالذات ، بل عين بالوصف الذي يشبه التعيين بالامم ، وكذلك كان الأثمة من ذريته ، هم جميماً عرفوا بالوصف ، لا بالاسم ، وقرروا أنه يجب أن يخرج الإمام داعيا لفضه ، وإن كانت في دائرة قبيل معين ، ولكن من غير تقيد به في الجلة .

ومن الفرق الشيعية الأخرى ، ثلاث فرق برزت فى التاريخ الإسلامى . ولا يزال أتباع اثنتين منها قائمين فى البلاد الإسلامية . وهذه الفرق الثلاث هى الكيسانية ، والاثنا عشرية ، والإسماعيلية .

٣٤ - والكيسانية : هم أتباع المختار بن عبيد الثقنى . وقد كان خارجيا مم صار من شيعة على رضى الله عنه . وكان يدعو لمحمد بن الحنفية . وظهر بعد مقتل الإمام الحسين رضى الله عنه .

- (١) وكان يدعو إلىمذهب أساسه أن النبي عهد إلى على بالإمامة من بعده. ومن بعده للحسن ، ثم للتحسين ، ثم لحمد بن الحنفية .
- (٢) وكانوا يدينون برجعة الإمام عمد بن الحنفية ، ويزعمون أنه المهدى المنتظر ، وأنه حي .

(٣) وكمانوا يقولون بالبداء ، وهو أن تتفير إرادة الله تعالى تبعاً لتغير علمه ، وقد قال الشهرستانى فى ذلك : « إنما صار المخنار إلى القول بالبداء ، لأنه كان يدعى علم ما يحدث من الأحوال ، إما بوحى يوحى إليه ، وإما برسالة من قبل الإمام ، فكان إذا وعد أصحابه بكون شىء ، وحدوث حادثة ، فإن وافق كونه قوله جعله دليلا على دعواه . وإن لم يوافق قال قد عدا لربكم » (١) .

وه- والاثنا عشرية : يرون أن الإمامة تكون فى ذرية فاطمة الزهراء من الحسين بعد مقتل الحسين رضى الله عنه . والإمامة عندهم محصورة فى اثنى عشر . ويسمون الأوصياء ؛ لأن كل واحد تولى الإمامة بالوصاية عمن قبله . وأن هؤلاء الأوصياء منصوص عليهم من النبى صلى الله عليه وسلم .

وأثمة الاثنا عشرية هم :(١) على بن طالب (٢) الحسن بن على (٣) الحسين ابن على (٤) على زين العابدين بن الحسين (٥) محمد الباقر (٦) جعفر الصادق ابن محمد الباقر (٧) موسى الكاظم بن جعفر (٨) على الرضا (٩) محمد الجواد (١٠) على المادى (١١) الحسن العسكرى (١٢) محمد بن الحسن العسكرى .

ويقولون: إن هذا الإمام الثانى عشر دخل سردابًا فى دار أبيه بسر من. رأى ، وأمه تنظر إليه ، ولم يعد ، وإنه ينتظر إلى اليوم .

و إن الاثنا عشربة فرقة كبيرة العدد يكثرون فى إيران والعراق.ولها أتباع فى الهند وباكستان وأفريقية . وإمامهم فى الفقه جعفر الصادق ، وسنتكلم عنه وعنها ببعض التفصيل إن شاء الله تعالى عند الـكلام فى المذهب الجعفرى .

٣٦ — والإسماعيلية: طائفة من الإمامية انتسبت إلى إسماعيل بن جعفر الصادق، وتوافق هذه الطائفة الاثنا عشرية في سياق الإمامة من أولها إلى أن

<sup>(</sup>١) الملل والنحل .

تصل إلى الإمام جعفر الصادق، ثم تنفرج عنها بعد ذلك، وهي تقول إن الإمام جعد الصادق هو ابنه إسماعيل، لأنه قد نصعلي إمامته من بعده، ولكنه مات قبل أبيه، فقالوا إن ثمرة الوصية تظهر في أن تكون الإمامة من بعد إسماعيل هذا لابنه، وهو مجمد بن المكتوم، وهو أول الأئمة المستورين، وبعد محمد المكتوم ابنه جعفر المصدق، وبعده ابنه محمد الحبيب، وهو آخر المستورين، وبعده ابنه عبد الله المهدى الذي ملك المغرب، وملك بعده ينوه مصر، وهم الفاطميون (1).

وتسمى هذه الفرقة الباطنية . وقد تشعبت منها فرق مختلفة ، وبعضها خرج عَلَماتُه عن الإسلام ، كالحاكمية الذين يعتقدون حلول الإله فى الإمام، ولاتزال تطلع على بقايا من هذه الفحل الخارجة عن الإسلام فى أفريقية ، وبعض بلاد باكستان والهند .

# الخوارج

٣٧ -- هذه إشارات موجزة إلى فرق الشيعة . وفى الجانب الآخر من الفكر الإسلامى طائفة الخوارج ، وهم فرق مختلفة ، وقد كان أول ظهورهم فى جيش على كرم الله وجهد عقب قبوله فكرة التحكيم فيا بينه رضى الله عنه ، وبين معاوية ، وهم الذين حلوا عليا رضى الله عنه على قبوله التحكيم ابتداء . وبعد أن قبله و نفذ الفحكيم ، وانتهى إلى ماانتهى إليه من أنه كان خداعاًمن الفئة الباغية - ثاروا على الإمام على رضى الله عنه ، لأنه أخطأ وكفر ، كما أخطئوا وكفروا بالتحكيم ولكنهم تابوا وأنابوا ، وعليه أن يتوب مثلهم ، وكانوا يصيحون فى وجهه رضى الله عنه : كما حطب : لا حكم إلا لله .

وقد بغوا عليه وقاتلوه . وكفروا جماهير المسلمين في عهده ، ومن بعد

<sup>(</sup>١) مقدمة ابن خلدون .

عهده، إذ أنه لما جاءت الدولة الأموية كانوا شوكة فى جنبها أقضت. مضاجم حكامها، وتوالى خروجهم عليهما .

وجملة آرائهم أنهم يرون أنه لا يوجدبيت أولى من بيت ، أو قبيل أولى من قبيل بالخلافة ، وأن الخليفة يختار اختيارا حراً من المسلمين ، وأنه يجب خلع الإمام أو قتله إذا سار بغير العدل، ولوكان اختياره ابتداء وهو عدل. ولذلك يرون أن الأولى ألا يكون له عصبية تحميه ، لكي يمكن خلعه أو قتله .

وهم يكفرون مرتكب الكبيرة ، ويعتبرون كلمن يخالفونهم من مرتكبي. الكبيرة ، وهم كافرون بهذا ، وبسكوتهم عن الخروج على السلطان الظالم .

وهم فرق مختلفة يتفاوتون مغالاة واعتدالا ، وإن كان اعتدالهم نسبياً ، وأشدهم غلوا الأزارقة أتباع نافع بن الأزرق من بنى حنيفة . وكان يسقبيح. دماء المخالفين ، حتى الأطفال والنساء والشيوخ الذين لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا .

ويقاربهم في هذه الشدة الصفرية أتباع زياد بن الأصفر . ودونهم في الشدة أتباع نجدة بن عويمر الذين يسمون النجدات .

وأقرب هذه الفرق إلى الجماعة الإسلامية أتباع عبد الله بن إباض وهمو تابعى ، وهم يرون أن مخالفيهم كفار نعمة ، وليسوا كفار عقيدة ، وأن دماء مخالفيهم حرام ، وأنه تجوز شهادتهم .

ولهذا الاعتدال بقيت منهم بقايا فى الديار الإسلامية ، فمنهم من يقيمون. بالزنجبار ، ومنهم من يقيمون فى بعض الواحات فى الصحراء الغربية .

#### فرق لهــا مذاهب فقهية :

۳۸ -- هذه الفرق السياسية منها ما له مذهب فقهى قائم بذاته ، ومنهم من ليس له مذهب فقهى ، ويتبع مذهب طائفة أخرى قريبة منه في الاعتقاد .

وإن الفرق التي لها مذاهب فقهية معتبرة ثلاثة هي : الاثنا عشرية فلها مذهب فقهي مقرر ، وله منطق فكرى وديني ، وينسبون مذهبهم إلى الإمام جعفر الصادق رضى الله عنه ، وسيكون له بعض البيان عندما نتكلم عن. الإمام الصادق .

والثانية - فرقة الزيدية ، ولها مذهب فقهى يقرب فى منطقه من مذهب أهل السنة والجماعة ، وإمامها هو الإمام الجليل زيد بن على زين العابدين. رضى الله عنهما .

والثالثة - الإباضية أتباع عبدالله بن إباض ٬ وله فقه مدون ، وللإباضية - جهود في تحرير مذهبهم .

## الفرق الاعتقادية

٣٩ - هذه إرشارات إلى الفرق السياسية ، وهناك في التاريخ الإسلامي . فرق اعتقادية ، وهي الفرق التي أثارت مسائل تتعلق بالاعتقاد، وفي كل فرقة . سياسية تجد مكاناً لهذه الفرق الاعتقادية ، فمن الشيعة من هو معتزلي ، ومن . أهل السنة والجماعة من هو مرجئي .

وهذه الفرق الاعتقادية منها المرجئة ، وهي فرقة كانت تخلط السياسة بأصول الدين ، وهي تقابل في اعتقادها — الخوارج ، فالخوارج بكفرون مرتكب الكبيرة ، ويعدونه مخلداً في الغار ، أما هؤلاء المرجئة فإنهم قالوا إنه لا تضرمع الإيمان معصية ، كا لاينفع مع الكفرطاعة . ولقد كان المعتزلة يطلقون . على كل من لا يحكم بأن مرتكب الكبيرة مخلد في النار مرجئي ، ولذا قيل عن . أبي حنيفة إنه مرجئي ، ولقد قال الشهرستاني إن المرجئة قسمان :

مرجئة السنة ، وهم الذين يقررون أن المعاصى تستحق المقاب، وأن الله تعالى -قد قررفى كتابه وعلى لسان نبيه أنه سبحانه معاقبهم يوم القيامة ، ولسكن قد يغفر لهم ويتوب عليهم .

والقسم الثانى مرجئة البدعة ، وهم الذين يصرحون بأنه لاعقاب على ذلك . مادام قدصح الاعتقاد ، كما أنه لامثوبة على خير إذا لم يصح الاعتقاد .

ومن الفرق الاعتقادية الجبرية أو الجهمية ، وهم الذين قالوا إن الإنسان ليست له إرادة فيما يفعل ، والله سبحانه وتعالى هو الفاعل لكل ما يجرى على يدى العبد ، خيراً كان أو شراً ، وإنه في أفعاله كالريشة في مهب الريح ، وأول من جهر بالجبر الجهم بن صفوان ، ولذا يقال عنها الفرقة الجهمية .

ومن هذه الفرق القدرية ، وهم يقولون بأن الإنسان يخلق أفعال الشر بغير إرادة الله تعالى ، وهو يفعل الخير بإرادة الله تعالى . ومن هؤلاءالأخير ين المعتزلة ، وقد كان لهم شأن كبير في الفكر الإسلامي . إذ هم الذين كانوا يتولون الرد على الزنادقة ، وأهم مبادئهم خمسة هي :

- ( ۱ ) التوحيد ، وفسروه بأن اللهسبحانه وتعالى واحد فى ذاته وفى صفاته · فلا يشاركه أحد من المخلوقات فى أى صفة ، ولذا نفوا رؤية الله .
- ( ٢ ) العدل من الله تعالى ، ولذا اقتضت حكمته سبحانه بأن يخلقالإنسان . أفعال نفسه ليكون التكليف ، والثواب والعقاب .
- (٣) الوعد والوعيد من الله سبحانه وتعالى ، بأن يجازى المحسن على . إحسانه ، ومن أساء يجزيه ، فلا غفران لمرتكب الكبيرة إذا لم يتب .
- (٤) أن مرتكب الكبيرة في منزلة بين المؤمن والكافر ، وقد يسمي. مسلما فاسقاً ، ولكن لا يسمى مؤمناً ، وهو مخلد في النار .
- (ه) وجوب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ــ نشراً للإسلام وهداية · للضالين ، وكل امرىء بما يستطيع .

## الاختلاف بين المذاهب وسببه ومداه

13 - وإن اختلاف الآراء في الفروع الفقهية لا يدل على انحراف في الدين ما دام لم يخرج عن المقررات الشرعية المجمع عليها من السابقين ، ومن جاء بعدهم ، بل إن الاختلاف ما دام أساسه طلب الحق ، يفتح للناس باب التوسعة على الناس فيما يختارون ، ويفتح للمقول الطريق للاختيار الصحيح ، فإنه من وسط اختلاف الآراء ، وتعرف أوجه النظر فيها ، ينبلج نور الحق ساطماً بيناً وانحاً .

ولقد كان كل إمام من أئمة الاجتهاد حريصاعلىأن يمرف أقوال المختلفين

وكان الإمام أبو حنيفة يقول: أعلم الناس هو أعلمهم باختلاف الناس، فإن العلم بأقوال العلماء في قضية تتنازعها الأنظار يكشف الحق لمن يكون قادراً على النظر وفحص أساليب الاستدلال ومناحيه، وتعرف ضعيف الدليل وقويه، وهو نظر للأمر من كل وجوهه يكون أقدر على الحسكم فيه بالصواب أو الخطأ.

### مدار الخلاف :

معررات الإسلام الثابتة التي لا يجوز الاختلاف فيها، إنماكان الاختلاف المذهبي معررات الإسلام الثابتة التي لا يجوز الاختلاف فيها، إنماكان الاختلاف المذهبي في الفروع فيها وراء هذه المقررات، وهي ماعلم من الدين بالضرورة، كسكون فرائمض الصلوات خمسا، وكون الاستقبال في الصلاة إلى الهيت الحرام، وأركان الصلاة ، وفرضية الصوم والزكاة والحج ، ومقادير الزكوات . وغير ذلك من الأمور التي تعتبر إطار الإسلام الذي لا يعد مسلما من لم يكن في داخله، ومن هذا المحرمات في الهكاح، والمقادير في المواريث، وغيرها مما هو ثابت بالقرآن عبوتاً لا مجال للريب فيه، ولقد قرر العلماء أن هذه الأمور ثابتة بالإجماع الذي يخرج من الدين من ينكرها .

وإذا كان الاختلاف فى غير هذه فما موضوعه ؟ وما سببه ؟ فنقول : إن الاختلاف فى الأمور الجزئية التى تتجاذبها الأنظار ، ولم يثبت بدليل قطعى الحمه فيها ، وكان ذلك فى موضوعات مختلفة ، وفى نواح من الاستدلال متباينة ، والاجتهاد فى كلما ثواب ، ولو أدى إلى خطأ ، وقد ورد أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ( للمجتهد إذا أصاب أجران ، وإن أخطأ فله أجر واحد) وقد علمنا النبي صلى الله عليه وسلم أن المجتهد بتعرض للخطأ ، وهوغير ملام إذا استفرغ الجمهد ، ولم يدخر وسعاً ، فقد كان عليه السلام يجتهد ، وقد كان إذا أخطأ نبهه الله

سبحانه وتعالى إلى الصواب، لأن كلامه عليه السلام شرع، فلا يمكن أن يقر على خطأ وقد أشرنا إلى ذلك من قبل.

#### الاختلاف حول الكتاب:

سع - أصل الاستدلال بالسكتاب ثابت لا مجال للشك فيه ، وهو عماد. الشريمة ومعجزة الذي صلى الله عليه وسلم ، وحبل الله الممدود إلى يوم القيامة ، وليس فيا اشتمل عليه من أحكام خلاف فى أنها أصل الإسلام ، وركعه الذي قام عليه ، وإنما جرى اختلاف حول قوة الدلالات فى بعض ألفاظ القرآن ، إذ أن بعض ألفاظه الكريمة عجل ، ترك فهمه للاجتهاد الفقهي ، فمثلا كلمة «قرء» فى قوله تعالى ، [ والمطلقات يتربصن بأنفسين ثلاثة قروء (١) ، ولا يحل لهن أن يكتمن ماخلق الله فى أرحامهن ] فإن الأكثرين من الفقهاء قد فسرها بمعنى . الحيض ، والشافعي فسرها بمعنى الطهر ، والكلمة تحتمل الاثنين، ولم يرد عن . النبي ماصح عند الجميع أنه تفسير للكلمة ، نعم قد جاء على لسان الرسول صلى الله عليه وسلم قوله : ( دعى الصلاة أيام إقرائك ) ولاشك أن المراد هنا الحيض ، عليه وسلم قوله : ( دعى الصلاة أيام إقرائك ) ولاشك أن المراد هنا الحيض ، لأن الصلاة لا تترك في وقت الحيض ، وقد ورد أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ( عدة الأمة حيضتان ) ولكن لم يصح هذا النبي علم الله عليه وسلم قال : ( عدة الأمة حيضتان ) ولكن لم يصح هذا الخديث عقد الشافعي . . وهكذا نجد الاختلاف قد جرى حول تفسير لفظ القرآن الكريم .

ويجرى الاختلاف حول دلالة بعض العبارات مع وجود نص من السنة فى. موضوعها ، مثل كون السنة تخصص عموم القرآن أولا ، هنا يجرى الاختلاف بين . الفقهاء ، فنجد الشافعي وأحمد بن حنبل وكثيرين يرون حمل القرآن على كل. ما يجيء في السنة من بيان في موضوعه ، لأن السنة مبينة للقرآن ، ومفسرة له . ومفصلة لجمله . لأن الله تعالى يقول : (وأنزانا إليك الذكر لتبين للمناس مانزل.

<sup>(</sup>١) سورة البقرة من الآية ٢٢٨

إليهم » فَـكل لفظ عام فى القرآن إذا جاء فى السنة مايخالف ظاهره خصص عموم القرآن بالسنة .

وقال أبو حنيفة وبعض الفقهاء إن عموم القرآن يسير على مقتضى العموم » وإذا كانت السنة التى تسكون مخالفة له مخالفة جزئية متواترة أو مشهورة ، فإنها تخصص القرآن ، وإذا كانت غير متواترة ، فإن القرآن يسير على مقتضى عمومه ، لأنه قطعى فى تواتره ، ولا يمكن أن تكون أخبار الآحاد فى مقام القرآن السكريم الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وتعد أخبار الآحاد التى تخالفه غير صحيحة النسبة إلى النبى صلى الله عليه وسلم .

وهذا تجرى عبارتان بين الفقهاء ، فالذين يخصصون ظواهر القرآن بالسنة يقولون : السنة حاكمة على القرآن بمعنى أنها مفسرة له ، مبينة لمدلوله ومقاصده ، وهى المفتاح الحقيق لفهمه ، وتعرف أحكامه ، ولا يمكن أن يستفنى المجتهد في فهمه للقرآن عنها ، والذين يقررون أن السنة لا تكون صحيحة إذا عارضت ظواهر القرآن ، وكانت من أخبار الآحاد ، يقولون : القرآن حاكم على السنة بالصبحة أو بالرد .

وهكذا نجد الفقهاء يختلفون حول جزئيات فى الاستدلال بالقرآن الكريم ولو وسعنا الأفق ، واتجهنا إلى الشيعة الإمامية لوجدناهم يختلفون مع السنيين في مقدار آراء الرجال فى فهم القرآن الكريم ، فأهل السنة يرون أن القرآن يفسر بالسنة ، وإذا لم يرد فى الباب الذى يجتهدون فيه سنة اجتهدوا فى فهم القرآن بما أو توه من علم بالبيان العربى ، وعلم بالشريعة فى مقاصدها وغاياتها ومراميها . أما الإمامية ، فإنهم يرون أن الأئمة الاثنى عشر هم مفاتيح علم أما الإمامية ، فإنهم يرون أن الأئمة الاثنى عشر هم مفاتيح علم

اما الإمامية ، فإنهم يرون ان الانمه الاننى عشر هم معانيخ علم الكتاب الكامل ولا يمكن أن يدخل الناس أبوابه كاملة إلا بهذه المفاتيح ، ويروى الكافى عن أبى عبد الله جعفر الصادق رضى الله عنه أنه قال : « ما من ( • \_ تاريخ المذاهب )

لأمر يختلف فيه اثنان إلا وله أصل في كتاب الله ، والكن لاتبلغه غقول الرجال » (١).

وإذا كانت عقول الرجال لا تبلغه عندهم فعقول الأوصياء الا ثنى عشرهى التي تبلغه ، وتعلمه الناس ، فهم مفاتيح القرآن ، وفهمهم له هو فهم من لدن الله عمله ، فهم ملهمون في كلمايقولون ، وما يحكمون به ، بل إنهم معصومون عن الخطأ ، وإن كان جبريل لا ينزل عليهم .

#### الاختلاف حول السنة:

على الاستدلال بها ثابت قائم عند المسلمين ، ولم يشذ إلا ناس بالبصرة ، أصل الاستدلال بها ثابت قائم عند المسلمين ، ولم يشذ إلا ناس بالبصرة ، كانوا لا يعتمدون في الاستدلال إلا على الكتاب ، ولكنهم قوم بور ، قد غرهم التاريخ في لججه ، ولولا أن الشاقعي ذكرهم في الأم ماعرفهم أحد ، وإن منكر الاحتجاج بالسنة لا يمكن أن يكون من المسلمين ، لأن السنة تبليغ النبي صلى الله عليه وسلم ، وهي مفسرة القرآن الكريم ، وهي بابه النوراني الذي تدخل منه ، فن فصلها عن القرآن ، فقد فصل القرآن عن نبيه ، ولكن كان الاختلاف الحقيق حول السنة في الشتراط كال الإسناد وعدم اشتراطه ، فقد رأ بنا المنقدمين زمناً من الأئمة يختلفون مع المتأخرين في قبول المرسل .

كاكان الاختلاف فى الاستدل بالسنة من حيث وجود مرويات عند بعضهم للم يعلم بها الآخرون ، فكان لابد أن يفتى الذين لم يعلموا بالرأى إذ لم يجدوا سنة ، ويفتى الذين علموها بمقتضاها .

ثم كان الاختلاف أيضاً في السنة ، من حيث مخالفتها في ظاهرها لعموم

<sup>(</sup>١) مسند الإمام جعفر عند الإمامية ج ١ ص ١٥ طبع لبنان .

ثم يجىء من وراء كل هذا اختلاف الشيعة عن أهل السنة في معانى السنة ، فإن الشيمة الإمامية يذكرون أن أقوال أئمتهم سنة متبعة ، ويذكرون أن السنة الاتروى إلا عن إمامى ، ولا تقبل أحاديث السنى إلا بقيود معينة .

ولا مع الله عنه على وفتاويه وأقضيته لم ترد في السنة بالقدر رضى الله عنه ، ويذكرون أن فقه على وفتاويه وأقضيته لم ترد في السنة بالقدر الذي يتفق مع حياته ، فهو من وقت وفاة النبي صلى الله عليه وسلم إلى وفاته الذي يتفق مع بالدراسة والإفتاء ، وهو باب مدينة العلم ، وفوق ذلك قد مكث خس سنوات في الخلافة كثرت فيها الأحداث وتنوعت فيها الوقائع ، فكانت حياته كامها بعد النبي صلى الله عليه وسلم للفقه وعلم الدين ، وكان أكثر الناس اتصالا برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد رافقه عليه السلام وهوصبي الله أن قبضه الله تعالى إليه ، فكان يجب أن يذكر أن له في كتب السنة من الروايات عن الرسول ومن الفتاوي والأقضية أضعاف ماهو مذكور فيها .

و إنه لابد أن يكون للحكم الأموى أثر فى اختفاء كثير مما أثر عن على رضى الله عنه ، لأنه ليس من المعقول أن يلمنوه على المنابر، وأن يتركوا العلماء . يتحدثون بعلمه ، وينقلون له فتاويه وأقواله للناس، وخصوصاً ما يتصل منها . . بأساس الحكم .

والعراق الذي عاش فيه على كرم الله وجهه — كأن يحكمه حكام غلاظ مداد لا يمكن أن يتركوا آراءه تسرى في وسط الجماهير الإسلامية . وهم الذين كانوا يخلقون الريب والشكوك حوله حتى كانوا يتخذون من تكنية النبي عملى الله عليه وسلم له بأبي تراب — ذريعة لتنقيصه . وهو رضى الله عنه كان

يعتزكل الاعتزاز بهذه الكنية ، لأن النبي صلى الله عليه وسلم قالها في مقام.. محمة كمحبة الوالد لولده .

ولكن هل كان اختفاء أكثر مرويات على وأقواله و فتاويه سبيلا لا ند ثارها». و ذهابها فى لجة التاريخ إلى حيث لا يعلم بها أحد ؟ يقول الشيعة الزيدية و الإمامية: إن عليا كرم الله وجهة قد ترك من ورائه ذرية طاهرة كانوا أثمة الإسلام، وكنانوا ممن يقتدى بهم ، ترك و لديه الحسن و الحسين، و ترك رواد الفكر محمد بن الحنفية فأو دعهم رضى الله عنه علمه ، ولقد قال ابن عباس: إنه ما انتفع بكلام بعد كلام، رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كما انتفع بكلام على رضى الله عنه .

ويقول الشيعة: لقد قام أولئك الأبناء الأبرار بالمحافظة على تراث أبيهم...
الفكرى، وهو إمام الهدى فحفظوه من الضياع، وإذا كانت إقامتهم بالمدينة، وقد استقر معهم بالمدينة، وكان سلفهم ينقله إلى خلفهم بالرواية، فكان البيت...
العلوى فيه علم الرواية عن على رضى الله عنه، رووا عنه مارواه عن الرسول...
كاملا. ورووا عنه فقهه وفتاويه كاملة، ويقولون إن ذلك كله كان في كنّ ذلك البيت النبوى المكريم.

وإذا قال قائل إنه قد يكون فى الاستناد مجال للتزيد والتكثير ، أجابوا قد يكون التزيد من الذين تشيعوا للبيت الكريم من غير بينة وقوة دين ، ولكن لا يمكن أن يكون ذلك من رجال البيت العلوى نفسه الذين ينتمون إلى الإمام أبى عبدالله جعفر الصادق نفسه ، فليس من هؤلاء الأئمة إلا من يقتدى بهم فى علم الدين والتقى والورع والمحافظة على التراث الإسلامى نقيا غير مشوب بأى شائبة .

ولذلك يقولون إنه لم يكن غريباً أن تكون ثمة مجموعة عند آل البيت حملها . أولاد الإمام على كرم الله وجهه ، ثم حملها من بمدهم أولادهم. ثم أولاد أولادهم . وقد كانت إقامتهم جميعاً بالمدينة . وكانوا يستخفون بها أحياناً . ويعلنونها ﴿ أَحِياناً، ومهما يكن، فإنهم يقررون أن علم آل البيت فيه علم على رضى الله عنه. ﴿ آلَ إِلَيْهِم مِن تُركِته المُثرية .

#### الاختلاف حول الرأى:

27 — كان الاختلاف حول الرأى فى أصله ، وفى منهاجه ، فمن الفقهاء من عقال إنه لا يصح أخذ الأحكام الإسلامية إلا من النصوص ، وعلى رأس هؤلاء ..داوود الظاهرى ، وجاء من بعده ابن حزم الأندلسى الذى يعد الإمام الثانى ، للظاهرية فدون فقه هذا المذهب ، وشدد وغالى أكثر من شيخ المذهب داوود.

والذين قرروا الأخذ بالرأى هم الأكثرون من الفقهاء ، بل يكاد ينعقد الإجماع على الاجتهاد بالرأى عند عدم وجود نص ظاهر يرجع إليه الحكم ، ولذلك قال السكثيرون من الفقهاء : إن نفاة الرأى لا يعتد بخلافهم ، بل ينعقد الإجماع من غير اعتبارهم ؛ لأنهم لا يعدونهم في زمرة الفقهاء ، وفي ذلك ، السكلام نظر .

والذين أخذوا بالرأى اختلفوا فى منهاجه ، فمنهم من لم يعتبر القياس طريقاً للاجتهاد بالرأى ، والقياس كما قلمنا حكم فى أمر غير منصوص عليه بإلحاقه فى الحكم ، بأمر منصوص عليه لعلة مشتركة بينهما هى المؤثرة فى وجود الحكم .

والذين نفوا القياس هم الشيعة الإمامية ، ولكنهم قصروا الرأى على حكم المعقل المجرد في غير حال النص ، والنص عندهم يشمل أقوال النبي صلى الله عليه وسلم وأقوال الأئمة ، والقرآن الكريم ، وهم إذ يحكمون بالعقل المجرد في غير موضع النص ينتهون إلى الحكم بمقتضى ما يراه العقل مصلحة ، لأن العقل لا يمكن أن يسوغ ما يراه مضرة أو مفسدة ، ولا يسوغ إلا ماهو مصلحة مؤكدة لامجال المريب فيها ، فالحكم بالعقل هو في الحقيقة حكم بالمصلحة التي يراها العقل مصلحة . وفي مقابل هؤلاء الذين نفوا القياس ، كأصل من أصول الإفتاء بالرأى —

كان الشافعية الذين قرروا أنه لا يوجد منهاج من مناهج الرآى يجوز الإفتاء على مقتضاه إلا القياس ، لأن الحكم الشرعى إما أن يكون نصاً ، وإما أن يكون حملا على نص ، فالشافعي يربط فقهه بالنصوص ربطا وثيقاً ، لأن الحكم. عنده إما أن يؤخذ كاقال من عين قائمة،أو بالحل على عين قائمة ، فإذا لم يكن نص. بين يدى الفقيه يحكم بمقتضاه ، بحث عن نص في أمر له شبه بالموضوع الذي. لا يجد نصا فيه ، ثم يحكم بالحكم الثابت بالنص .

والحنفية سلكوا مسلك الشافعي، ولكنهم فتحوا الباب أوسع منه ، فقتحوا باب الاستحسان، وهو مخالفة القواعد القياسية لأمر اقتضى المخالفة . كالعرف، أو المصلحة التي يمكن ربطها بنص ثابت.

وقد توسع المالكية والزيدية وبعض الحنابلة في معنى الرأى فأخذوا بالقياس وأخذوا بالاستحسان ، وأخذوا بالمصالح المرسلة ، وهي المصالح التي تتفق مع مقاصد الشارع الإسلامي ، ولكن لا يشهد لها نص خاص بالإثبات أو الإالفاء فهم يفتون بالمصالح ، ولكن لا ينطلقون عن أحكام القصوص ، بل هم مقيدون بها ، ولا يخرجون عنها ، ولا يتقيدون بنص معين كالذين تمسكوا بالقياس دون غيره ، بل إنهم يبحثون عن المصالح التي تضافرت عدة نصوص في إثباتها ، فإذا وجدوا مصلحة كذلك أفتوا بمقتضاها ، وحكموا بها ، وهم في ذلك يقتدون بطائفة كبيرة من الصحابة منهم عمر ، وعلى ، وعثمان ، وغيرهم من علية الصحابة وفقهائهم .

٤٧ – وهناك أمر اختلفت فيه الأنظار ، وهو الرأى في موضع النصوص.
 وقد اتفقت الآراء على أنه لا رأى في موضع النص إذا كان النص متواتراً ٤٠٠
 ودلاته قطمية ، ولكن إذا كان النص ظنياً ، كأخبار الآحاد ، أيقدم النص أم.
 القياس ؟ وقد اتفقوا على أنه إذا كان الرأى قياساً ، وعلة القياس منصوصاً عليها ٠٠٠

فإنه بوازن بين القياس والحديث ، وقد يرجح الفياس إذاكان الحديث لا يتفق مع أى وجه من وجوه القياس ، وإذاكانت العلة غير منصوص عليها ، وقد جاء خبر الآحاد مخالفاً كل قياس ، فقد اختلفت الأنظار فى ذلك ، فبعضهم قرر أن الحديث يقدم على أية حال ، لأنه لا اجتهاد فى موضع النص ، ولأن الأخذ بالرأى إنما يكون الضرورة لعدم وجود نص يسعف بالحكم ، وقد روى ذلك الزأى عن أبى حديفة شيخ فقهاء القياس ، والشافى وأحمد .

وقال بعض الحنفية إذا كان راوى الحديث من الصحابة فقيها كعبد الله ابن عباس ، وعبد الله بن مسعود ، وزيد بن ثابت ، فإن الحديث يقدم ، وإذا كان راويه غير فقيه كأبى هريرة . فإنه يقدم القياس إذا انسد فى الحديث باب القياس ، أما إذا كان يوافق بعض الأقيسة ، ويخالف بعضها ، فإنه يقدم الحديث لأنه لا يعد مخالفاً للقياس . وقد نسب ذلك الرأى إلى أبى حنيفة . ولكن الصحيح أن رأيه هو ما ذكرناه أولا .

وقال به من العلماء إذا كان مقتضى القياس قطعياً بأن كان متفقاً مع كل القواعد الفقهية التي لا ريب فيه ، وتضافرت عدة أحكام على تثبيته ، فإنه يقدم القياس . وعندى أنذلك النوع من القياس لابد أن توجد نصوص تدل عليه وفرض أنه يوجد حكم ثبت بالرأى أو القياس يكون قطعياً من غير نص فرض لا يمكن أن يثبت لمن يعرف مصادر الشريعة ومواردها . ومقاصدها . وغاياتها ، وإذا وجد فإن الفقهاء جميعاً يأخذون بالرأى إلا الظاهرية .

وقال المالكية إذا تأيد الرأى بعمل أهل المدينة فإن الحديث يرد، ولاتصح نسبته إلى النبى صلى الله عليه وسلم، وإذا كان لا يخالف عمل أهل المدينة ولكنه يخالف الرأى، فإنه ينظر إذا كان لا يتفق مع أى قاعدة فقهية مستمدة من الكتاب أو السنة الثابتة فإنه يؤخذ بالحديث، وإلا أخذ بمقتضى الرأى -

ونحب أن نقرر هذا أنه في حال الأخذ بالرأى عند من يأخذون به في مقابل الحديث لا يعد الحديث صحيح النسبة إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، بل إنهم ينكرون هذه النسبة ، ويعتبرون الخبر المروى شاذا في متنه ، إذ أنه يخالف القواعد المقررة الثابتة المأخوذة من مقاصد الشريعة العامة ونصوصها الخاصة ، ولا يصح أن نفرض بأى صورة من صور الفروض أنهم يصدقون بنسبة الحديث ويقدمون فهمهم في الإسلام على قول صحيح النسبة إلى النبي صلى الله عليه وسلم فإن ذلك كلام قوم بور ظهروا في هذه الأيام ، وظهر أمثالهم من قبل في أهل الأهواء والبدع والمتحرفين ، ومحال أن يكون ذلك من أثمة الإسلام الأعلام الأعلام الذين فتحوا عيون الفقه وعبدوا مشاربه .

### الخلاف حول الإجماع :

4.3 — هناك إجماع لا يساغ لمسلم أن ينكره ، وهو الإجماع على أصول الإسلام كمدد ركمات الصلاة ، وأركانها ، وعدد الفرائض ، وكصوم رمضان وفرصية الزكاة ، وغير ذلك من الأمور المقررة التي تمد إطار الإسلام ، بحيث يخرج عن الإسلام من لم يؤمن بها . وهذا يعبر عنه العلماء بما علم من الدين بالضرورة فإن من لم يأخذ لا يعد مسلماً .

وهذه الأمور التي كان الإجماع عليها ، تضافرت النصوص وأقوال النبي صلى الله عليه وسلم فعلها . وتواتر عن النبي صلى الله عليه وسلم فعلها . والأقوال المثبتة لها ، وتعددت النصوص القرآنية لإثباتها ، فكان الإجماع عليها معتمداً على أقوى النصوص سندا ، ودلالة ، ولذلك قدم هذا الإجماع على النصوص الجزئية التي تثبت أحكاما تخالفه ، وإن وجود نصوص جزئية تثبت ما يخالف ذلك الإجماع أمر فرضى ، ولا يوجد ما يحققه .

وقال كل المحققين من العلماء: إنه يجب على العلماء ألا يجعلوا هذه المقررات

التى تثبت بهذا النوع من الإجماع موضع اجتهاد، لأنه فوق الأمور التى تحتاج إلى علاج ودراسة ، وقد قال الإمام الشافى فى هذا المقام : « إن العلم بهذه الأمور علم العامة (أى العلم الذى لا يسع مسلماً أن يجهله) ، إذ أنه رضى الله عنه يقسم العلم إلى قسمين : علم عامة لا يسع مسلماً الجهل به ، وهو هذا النوع من العلم . والقسم الثانى علم الخاصة ، وهو العلم بالمسائل التى تسكون موضع اجتهاد ، ويسع العامة من المسلمين أن يجهلوها ، ويستفتوا الخاصة فيها .

وقد فهم بعض الذين لا يمحصون الحقائق أن تقديم هذا النوع من الإجماع على النصوص ، وهذا خطأ في الفهم ، ولا النصام ، حتى ساغ لبعض الكتاب من غير المسلمين أن بقولوا إن الإجماع يجعل الأحكام الإسلامية مقطورة يسوغ لجماعة المسلمين أن يغيروها إذا أرادوا، ولكنهم لم يفعلوا ، وذلك أمر غريب كل الغرابة في فهم المعانى الإسلامية . ولكنهم لم يفعلوا ، وذلك أمر غريب كل الغرابة في فهم المعانى الإسلامية . ولكنه فهو تقديم لنصوص مجمع عليها ومجمع على معانيها على ما هو دونها ، وقلنا إن ذلك الفرض لا وجود له في الحقيقة الواقعة ، ولكنه صورة تقدر في العقل ، ولا تثبت في العمل .

٤٩ - والإجماع فيها وراء هذه المقررات التي عامت من الدين بالضرورة قد اختلف العلماء فيه اختلافا كبيراً ، ويكثر الاختلاف في مسائله ، ويقل حسب المذاهب في قربها أو بعدها من حيث المنهج.

وقد اتفق جمهور الفقهاء \_ إذا استثنينا الخوارج والشيمة وبعض المعتزلة \_ على أن إجماع الصحابة حجة بجب الأخذ به وقد وقع ، ولا دليل على أنه لا يمكن وقوعه ، ولم يخالف ذلك إلا الشيعة والخوارج كانوهنا ، والأنمة الأربعة والزيدية متفقون على وقوع الإجماع .

وقد قرر النظام من المعتزلة أن الإجماع فى غير المقررات التى نوهنا عنها غير عمل الوقوع ، لأن الإجماع هو إجماع المجتهدين ، ولا يمكن الاتفاق على معنى الاجتهاد ، ثم لا يمكن أن يتفق العلماء فى كل الأقاليم الإسلامية المتنائية على رأى واحد .

وقد رد قوله بأن الإجماع على ذلك النحو قد وقع فى عصر الصحابة فلا سبيل لإنكار الوقوع ، و إذا ثبت الوقوع فقد تحقق الإمكان .

وإذاكان إجماع الصحابة متحققاً ثابتاً ، فالجمهور من الفقهاء قد اختلفوا فى الجماع من بعدهم ، فيروى أن الإمام أحمد قد أنكر إمكانه فى بعض كلام، يروى عنه ، ولكنه على أى حال كان لا يدعى الإجماع فى غير ماسبق ، وكان. ينصح تلاميذه بأن يقولوا : لا نعلم فيها خلافاً ، بدل أن يقولوا أجمع العلماء ، وذلك احتياط حسن .

والشافعي رضى الله عنه كان لا ينكر إمكان الإجماع بعد عصر الصحابة، ولكنه كان إذا احتج عليه بالإجماع أنكر الإجماع في الواقعة التي احتج عليه فيها به مناظره، وإن هذا في الحقيقة إنكار للوقوع في حادثة معينة، وليس إنكاراً لإمكان الوقوع.

وغير الشافعي وأحمد ادعوا الإجماع في مسائل كشيرة ، وإن كان غيرهم. يخالفهم في تحققه .

م هداك أنواع من الاتفاق قد اختلف فى كونها تعد إجماعاً يكون.
 حجة ملزمة ، ومن ذلك ما يأتى :

(١) الإجماع السكوتى ، وهو أن يملن بين المجتهدين رأى فى أمرممين ، ويسكت الجميع بعد إعلان الرأى ، ومضى مدة تكفى للنظر والفحص والدراسة — أيمد ذلك إجماعا ؟ القد اختلف الفقهاء أصحاب المذاهب فى ذلك اختلافاً

كبيراً ، فنهم من عده إجماعا يثبت الحسكم قطعا ، ومنهم من اعتبره مثبتاً اللحكم ظنا لا قطعاً ، ومنهم من قال إنه يعد دليلا ، ولكن لا يعد من الإجماع ، ومنهم من لم يعتبره ، إنمسا نظر في الدليل الذي قام عليه ، كا ينظر إلى الدليل في أي حكم من الأحكام .

(ب) وإذا اختلف العلماء في عصر من العصور في حكم من الأحكام على. رأيين أو ثلاثة مثلا ، أيعد ذلك إجماعا على هذين الرأبين لا يجوزلمن جاء بعدهما إحداث قول ثالث ، أم إنه لا يعد إجماعا ؟ وقد اختلف العلماء في ذلك .

۱ — فمنهم من أنكر أن يكون ذلك إجماعا ، لأنه لم يوجد رأى واحد.
 جمع المجتهدين ، إنما آراء مختلفة .

ح ومنهم من قال إنه إجماع ، لأن إحداث رأى غير ما ارتأوا بكون.
 خروجا عليهم وعلى جماعتهم .

٣ — ومنهم من قال: إذا كانوا مختلفين في الرأى ، ولكن يجمعون على. جزء معين مع اختلافهم في الرأى الجلى ، كاختلافهم في ميراث الجد مع الأخوة الأشقاء أو لأب ، فأبو بكر الصديق ورثه كأب ، وحجب الأشقاء أو لأب ، وعلى رضى الله عنه ورثهم معه، واعتبره كأخ بينهم بشرط ألا يقل عن السدس ، وزيد بن ثابت ، ورثه معهم بشرط ألا يقل نصيبه عن الثلث ، كما أشرنا من. قبل ، فالآراء قد أجمت على توريثه ، ولكن اختلفت في مقدار التوريث . فلا يصح لفقيه من بعد ذلك أى يمنع توريثه ، لأنه قد خالف الإجماع » فلا يلتفت إلى قوله .

(ح) إذا وافق على الرأى أكثر المجتهدين ، وخالفه الأقل أيعد ذلك . إجاءا ؟ فقد اختلف الفقهاء في ذلك .

١ - فن العلماء من قال إن ذلك لا يعد إجماعا ، لأن الإجماع معناه أن..

بيتفق كل الحجتهدين على حكم من الأحكام ، وما وجد المخالف ، فإنه لم يوجد إجاع قط .

حومن الملماء من قال إن مخالفة واحد أو اثنين لا ينقض الإجماع ،
 وهؤلاء بعض الزيدية ، وحجتهم أن منع المخالف بإطلاق غير ممكن ، فلاينقض
 الإجماع مخالفة واحد أو اثنين .

٣ - ومن العلماء من قال إذا كان رأى المخالف شاذاً مناقضاً لأحاديث واردة عن الذي صلى الله عليه وسلم كمخالفة ابن عباس فى المتعة ، إذ أباحها ، وأنسكر عليه الصحابة ذلك ، فإن مخالفته لا تعد ناقضة للإجماع ، ومثل ذلك مخالفته للصحابة فى ربا البيوع ، فقد جوز أن يبيع البر بالبر متفاضلا بالنسيئة ، وذلك مخالف للنصوص ، وأما إذا كانت المخالفة لا تقوم على رأى شاذ ولا تناقض النصوص ، كرأى ابن عباس أيضاً فى عول المواريث ، فإن عمر رضى الله عنه الم رأى الفرائض زادت أعالها ، فمثلا إذا كان الورثة زوجاً وأختاً شقيقة وأما ، والأم تستحق الثلث ، والزوج النصف ، والأخت النصف ، فإن المسألة تزيد على الواحد الصحيح ، فعمر جعل التركة تقسم على ثمانية أسهم بدل أن تقسم على الواحد الصحيح ، فعمر جعل التركة تقسم على ثمانية أسهم بدل أن تقسم على الوحد الما المسألة ، و لكن ينقص من كان ينقص نصيبه بوجود عاصب فقد قال لا تعال المسألة ، و لكن ينقص من كان ينقص نصيبه بوجود عاصب في في فرة و تعطى السدس ، في فرة و تعطى السدس ،

فهذا الرأى الذى قاله ابن عباس ينقض الإجماع ، وقد قال فيهالزهرى إنه . يُلو لم يسبق العمل بقول إمام عادل رأى ابن عباس ماعدل الناس برأيه غيره .

(د) رمن الإجماع التي اختلفوا فيها الإجماع على الدليل، فإذا أجمع العلماء على أن الدليل في حكم هو نص قرآني ، أو حديث نبوى معين ، أيجوز

الاستدلال بغيره أم لا يجوز ، فقليلون قالوا إن الإجاع على الدليل معتبر على ولكن دلك قول متهافت عند العلماء لا يعول عليه ، ولا يلتفت إليه .

وهنا اختلف الفقهاء فيمن هم الذين يتكون منهم الإجماع ، وهنا التشعب المذاهب ، فالجمهور من الفقهاء قرروا أنه لاينقض الإجماع نفاة الرأى. أو القياس، كا لاينقضه مخالفة الشيعة ، لأنهم يعدونهم من أهل الابتداع ، وأهل الابتداع لاتعد مخالفتهم ناقضة للإجماع ، وبالتالى لايدخلون فى ضمن عناصره المكونة له .

والإمامية لايعدون الإجماع إلا إجماع مجتهديهم، ولا يلتفتون إلى إجماع. الصحابة أو إجماع مخالفيهم، ويقررون أن الإجماع حجة عندهم، لأنه كاشف لرأى. الإمام المغيب عنهم، ويقولون إن إجماع المجتهدين في المذهب عندهم على حكم. يثبت صحته، لأنه لو كان باطلا ماسكت الإمام المغيب، بل لظهر وأعلن الحق.

ولو أعلن بعضهم رأيا، وسكت الآخرون ، فلابد أن يكون الرأى سحيحا، و إلالظهر الإمام ، وأعلن الرأى الصحيح الواجب الاتباع ، وكذلك إذا اختلف علماؤهم في حكم على رأيين ، فلا بد أن يكون كلاها صحيحا ، وإلا ظهر الإمام ، وأعلن الصحيح ، وفي الجلة إن الإجماع بكل هذه الضروب يكشف عن رأى . الإمام في الفضية . ورأى الإمام سنة واجبة الانباع .

٥٢ — ومع هذا الاختلاف الواسع في المدى بالنسبة للإجماع ، تجد الذين. يتفقون على رأى من الآراء فيه يختلفون في المسائل التي انعقد إجماع فيها، فنجد الحنفية يدعون الإجماع في بعض الأحكام ، ويخالفهم الشافعيون في انعقاد الإجماع في به فيها . ونجد الأوزاعي مثلا يدعى الإجماع في بعض مسائل السهام في الغنيمة ، فيها . ونجد المورد عليه أبو يوسف من أصحاب أبى حنيفة ، مخالفا في ذلك مبينا أنه لا إجماع في هذه المسألة .

وهكذا نجد باب الإجاع كان متسع الرحاب للاختلافات المذهبية التى الاضرر من الاختلاف فيها ، لأنها فى أمور لاتمس جوهر الدين ، ولاتمس أمرا ...مقررا ثابتا فيه ، لامجال للاختلاف حوله .

#### إجماع أهل المدينة:

٥٣ — انفرد مالك من بين الفقهاء بقوله: إن إجاع أهل المدينة بازم كل الأمصار ، وقد صرح بذلك في رسالته التي أرسلها إلى الليث بن سعد ، وقد خالفه جمهور الفقهاء في ذلك ، وانفرد هوبهذا ، وكان الشافعي يتابعه ابتداء في ذلك ، مم عدل عنه ، و ناقضه وقاومه في كتاب « اختلاف مالك » .

ومن العلماء من قال إن الإمام مالكاكان يعتبر عمل أهل المدينة حجة عنده ، ولم يفرضه على غيرها من الأمصار ، وقد قال في ذلك ابن القيم .

« ومالك نفسه منع الرشيد من ذلك ( أى حمل الناس على العمل بمذهبه المأخوذ من عمل أهل المدينة وقد عزم علىذلك ، وقال: قد تفرق أصحاب رسول الله عليه وسلم في البلاد ، وصار عند كل طائفة منهم علم ليس عندغيره) سوهذا يدل على أن عمل أهل المدينة ليس عنده حجة ملزمة لجميع الأمة ، وإنما سهو اختيار منه لما رأى عليه العمل ، ولم يقل قط في موطئه ولا غيره : لا يجوز العمل بغيره ، بل هو يخبر إخبارا مجردا أن هذا عمل أهل المدينة ، فإنه رضى الله عنه وجزاه عن الإسلام خيرا ادعى إجماع أهل المدينة في نيف وأربعين مسألة ، عنه وجزاه عن الإسلام خيرا ادعى إجماع أهل المدينة في نيف وأربعين مسألة ،

أحدها -- لا يعلم أن أهل المدينة خالفهم فيه غيرهم ، والثانى ماخالف فيه الحديدة غيرهم ، وإن لم يعلم اختلافهم فيه ، والثالث ما فيه الخلاف بين أهل المدينة أنفسهم ، ومن ورعه رضى الله عنه لم يقل هذا إجاع الأمة الذى الله يحل خلافه (١)

<sup>(</sup>١) إعلام الموفقين ح ٢ ص ٢٩٧ .

وفى الحق إن الإمام مالكا قد قرر أن إجاع أهل المدينة حجة على غيرهم، وقد ناقش ذلك الشافعي في كتابه « اختلاف مالك » ، وفي كتاب « جماع العلم » ، وقرر أنه بالاستقراء الذي قام به لا يجد أهل المدينة يجمعون إلا وعلماء الأمصار جميعاً يوافقونهم فيما أجمعوا عليه ، فيكون إجماعاً عاماً ، وذلك في أصول الفرائض ، كا عبر الشافعي رضي الله عنه .

ولذلك لم يذكر الفرض الثانى الذى قاله ابن القيم ، وهو أن يجمع أهل المدينة على أمر ، ويختلف فيه فقهاء الأمصار عليهم ، وأما إذا اختلفوا ، فتفق بين الجميع على أن عملهم لا يكون حجة في كل الأحوال .

والمذكور فى كتب المالكية أن عمل أهل المدينة يكون حجة عند مالك إذا كان أساسه النقل لا الرأى ، وروى عن مالك أنه يكون حجة مطلقاً .

ولقد كان الشافعي في صدر حيانه الفقهية على رأى مالك في هذا ، ولقدروى عنه البيهقي أنه قال لمناظر له «والله ما أقول لك إلا نصحاً ، إذا وجدت أهل المدينة على شيء فلا يدخلن قلبك شك أنه أحمق ، وكل ما جاءك وقوى كل القوة ، لكنك لم تجد له أصلا و إن ضعف ، فلا نعباً به ، ولا تلتفت إليه » .

وإن هذا السكلام يدل على أن الشافعي كان في دور من أدوار اجتهاده الفقهي يرى حجية عمل أهل المدينة أو إعطاء عملهم قدراً من الاحترام ، ولكن الدى استقر عليه في كتابه القديم ، وكتابه الجديد من بعد ، أن عمل أهل المدينة لا يصل إلى مرتبة حديث الآحاد .

وفقهاء الأمصار جميعاً لا يوافقون الإمام مالكا في منهاجه، وإن كان بمض تلاميذ أبي حنيفة كأبي يوسف، ومحمد رضى الله عنهما، قد أخذا ببمض ما تبين من آثار الصحابة بالمدينة، مثل قولهم يلزوم الوقف الذي كان شيخهم يمنعه، وقد قرروا مخالفة إمامهم، لما رأوا أوقاف الصحابة التي كانت باقية في زمنهم، ووجه أنظارهم مالك إليها.

#### فتوى الصحابى والتابعي

30 — اتفق الفقهاء أصحاب المذاهب الأربعة على الأخذ بفتوى الصحابة وأقو الهم، وقد ذكرنا أن القابعين قدنهجوا ذلك المنهاج اقتداء بأساتذتهم الذين. أخذوا عنهم، وكان من التابعين من يستبيح الخروج على أقوال بعض الصحابة الذين لم يأخذوا عنهم، ولكنهم لا يستبيحون قط مخالفة أساتذتهم.

وقد كان أبو حنيفة يصرح بذلك ، ويقول إذا كان للصحابة رأى واحد. أخذت به ، فإن اختلفوا اخترت من آرائهم ، ولا أخرج عنها إلى آراء غيرهم

وكان مالك رضى الله عنه يعتبر قول الصحابة سنة تتبع ؛ لأنهم الذين. شاهدوا وعاينوا وتلقواعلم الرسول صلى الله عليه وسلم ، وأحمد بن حنبل كذلك . بل إنه كان يأخذ بقول التابعي إذ لم يجد للصحابة قولا ، وماكان يتخير من أقوال الصحابة ويراجح بينهما ، بل إن اختلفوا في حكم نقل الاختلاف ، واعتبر أقوال المحابة أقوالا في مذهبه ولا يجد أن في طاقته أن يوازن بين أقوال . الصحابة ، إذ أن ذلك مقام فوق مقامه ، ومجاوزة لقدره .

وأما الشافعي ، فإننا نجد كتاب الأصول من الشافعية يقولون إن الشافعي كان في مذهبه القديم يأخذ بقول الصحابي ، وفي مذهبه الجديد كان لا يعتبر قول الصحابي حجة . ولكنا رجعنا إلى الرسالة برواية الربيع بن سليان المرادى وهي التي كتبها أو أملاها في مصر ، أي في كتابه الجديد ، أو مذهبه الجديد كما يعبرون \_ يقرر أن رأى الصحابي حجة يؤخذ بها إن كان قولا واحداً للصحابة ويتخير من أقو الهم إن كانت لهم أقوال ، وكذلك جاء في الأم في كتاب جماع العلم فقد قال في ذلك المقام :

« ماكان السكتاب والسنة موجودين فالعذر عمن سمعهما مقطوع إلاباتباعهما؛ فإن لم يكن ذلك صرتا إلى أقاويل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أو واحد

منهم ثم كان قول أبي بكر أو عر أو عنمان إذا صرنا فيه إلى التقليد أحب إلينا، وذلك إذا لم بجد دلالة في الاختلاف تدل على أقرب الاختلاف من الكتاب والسنة، فيتبع القول الذي معه الدلالة، لأن قول الإمام مشهور بأنه يلزمه الناس، ومن لزم قوله العاسكان أشهر من أن يفتي الرجل أوالنفر، وقد يأخذ بقتياه أو يدعها، وأكثر المفتين يفتون الخاصة في بيوتهم ومجالسهم ولا تعنى العامة بما قالوا عنايتهم بما قال الإمام، وقد وجدنا الأثمة ببتدئون، فيسألون عن الملم من السكتاب والسنة فيا أر ادوا أن يقولوا فيه، ويقولون فيخيرون بخلاف قولهم، فيقبلون من الخبر، ولا يستنسكفون أن يرجعوا لتقواهم الله وفضلهم في حالاتهم، فإن لم يوجد عن الأثمة فأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في موضع الأمانة، أخذنا بقولهم، وكان اتباعهم أولى بنا من اتباع غيرهم» (١٠).

وجاء فى الرسالة ، قال لى قائل : « فهمت ، ذهبك فى أحكام الله ، ثم أحكام رسوله ، فما حجتك فى أن تتبع ما اجتمع الناس عليه بما ليس فيه نص حكم الله ، ولم يحكموه عن النبى ٠٠٠٠ فقات أما ما اجتمعوا فذكروا أنه حكاية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكا قالوا إن شاء الله ، وأما مالم يحكوه فاحتمل أن يكون حكاية له ، لأنه لا يجوز إلا أن يحكى مسموعا ، ولا يجوز أن يحكى شيئًا يتوهم ، يمكن فيه غير ما قال » (٢) . . ويقول عند اختلافهم وتخير ما يكون أقرب دلالة من الكتاب والسنة «قلما اختلفوا فيه إلا وجدنا فيه دلالة من كتاب الله ، أو سنة رسول الله ، أوقياسًا عليهما ، ويضرب أمثلة دلالة من كتاب الله ، أو سنة رسول الله ، أوقياسًا عليهما ، ويضرب أمثلة كثيرة يتخير فيها من أقوال الصحابة .

وقد وجدنا ابن القبم يخالف بحق ما نقله علماء الأصول عن الشافعي، فيقول:

﴿ إِنْهُ لَا يَحِفْظُ مِنَ الْجِدَيْدَ حَرْفُ وَاحِدَ يَفَيْدُ أَنْ قُولُ الصّحابي ليس بحجة ،

﴿ إِنْهُ لَا يَحِفْظُ مِنَ الْجِدِيْدَ حَرْفُ وَاحِدَ يَفَيْدُ أَنْ قُولُ الصّحابي ليس بحجة ،

﴿ إِنْهُ لَا يَحِفْظُ مِنَ الْجُدِيْدَ حَرْفُ وَاحِدَ يَفَيْدُ أَنْ قُولُ الصّحابي ليس بحجة ،

<sup>(</sup>٧) الرسالة ص ٤٧١ طبع الحابي إخراج الأستاذ المرحوم الشيخ أحمد شاكر . ( ١ ــ المذاهب الاسلامية )

وغاية ما يتعلق به من نقل ذلك أنه يحكى أقو الاللصحابة ويخالفها . وهذا تعلق واه جداً ، فإن مخالفة المجتهد الدليل المدين لما هو أقوى منه فى نظره لا يدل على أنه لا يراه دليلا من حيث الجملة ، بل خالف دليلا لدليل أرجح عنده منه ، وقد تعلق بعضهم بأنه يراه فى الجديد إذا ذكر أقو ال الصحابة موافقا لا يعتمد عليه وحده كما يفعل فى النصوص ، بل يعضدها بضروب من الأقيسة ، فهو تارة يذكرها، ويصرح بخلافها ، وتارة يوافقها ، ولا يعتمد عليها ، بل يعضدها بدليل آخر ، وهذا أيضا تعلق أضعف من الذى قبله ، فإن تظاهر الأدلة وتعاضدها وتناصرها من عادة أهل العلم قديماً وحديثاً ، ولا يدل ذكرهم دليلا وثانياً وثالثاً على أن ما ذكروه قبله ليس الدليل » (١) .

وفى الحق إن الذين كتبوا فى الأصول ، قد رأوا الشافعى يرد أقو ال بعض الصحابة لنص قرآنى فهمه ، أو لحديث صح عنده ، فظنوه يهمل أقو ال الصحابة ، ولا يعتبرها حجة ، ونسوا أنه يرتب الاستدلال ، ولا يضع أقو ال الرجال مهما تمكن مرتبتهم بجوار الحديث ، حتى لقد روى أنه قال : « كيف أدع حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم لقول رجل لو عاصرته لحاججته » ، ولا يمنع هذا القول من أنه يأخذ بقول الصحابى إن لم يجد بين يديه كتاباً ولا سنة .

وقد خالف الشيمة والخوارج ، فلم يعتبروا أفوال الصحابة حجة ، وجاء الظاهرية من بمدهم فقالوا ذلك أيضاً ، إلا أن يكونوا قد أجموا ، فيكون الإجاء حجة .

وإن الأخذ بأقوال الصحابة كان سبباً من أسباب اختلاف المذاهب
 من نواح ثلاث:

الأولى أن بمض الفقهاء كان إذا رأى قول صابى استغنى بقوله عن الاجتهاد

<sup>﴿ (</sup>١) إعلام الوقعين .

بريدض الفقهاء اعتبره حجة أمام الحديث المروى عن النبى صلى الله عليه وسلم إذا كان لا يتصور إلا أنه يكون نقلا، والشافعي وكثيرون لا يرون ذلك مقدما سعلى الحديث المنسوب إلى النبى صراحة، ولوكانت النقيجة أن كليهما منسوب إلى النبى صلى الله عليه وسلم.

الثانية : أن الفقهاء يختلفون في الصحابي الذي يتبع ، فأبو حنيفة مثلا يرجع أقوال ابن مسمود على أقوال غيره ، والشافعي في كثير من المسائل يرجح أقوال زيدبن ثابت ، و بمقدار اختلاف الصحابة فيابينهم يكون اختلاف الذين يتبعونهم ، الثالثة : أن بمض الفقهاء قرروا أن الصحابة أقوالهم ليست بحجة .

#### قول التابعي:

٣٥ – هذا كلام الفقهاء في قول الصحابي ، ولا شك أن الذين رفضوا قول الصحابي على أساس أنه حجة ، لا يأخذون بالأولى بقول التابعي ، فالشيعة والخوارج والظاهرية لا يرون قول التابعي حجة كالا يرون قول الصحابي .

وأبو حنيفة والشافى ، مع أنهما أخذا بأقوال الصحابة ، وإذا اختلفوا لا يخرجان عن أقوالهم ــ لم يأخذا بقول التابعين ، وأبو حنيفة يصرح بذلك . فيقول : « إذا جاء الأمر إلى إبراهيم والحسن فهم رجال ونحن رجال » .

والشافى رضى الله عنه لم يعرف أنه اعتبر أى نوع من الحجية فى قول التابعى ، ويقول ابن القيم : إنه كان يأخذ أحياناً بقول التابعى ، فيقول فى ذلك: وقد صرح الشافعى فى موضع بأنه قاله تقليداً لعطاء ، وهذا من كال علمه وفقهه رضى الله عنه ، فإنه لم يجد فى المسألة عير قول عطاء ، فكان قوله عنده أقوى ما وجد فى المسألة . وقال فى موضع آخر « وهذا يخرج على قول عطاء » .

و عندى أن هذه العبارة لا تدل على أن الشافعي يرى تقليد التابعي ، لأنه يجوز أن يكون قد نسب رأيه لعطاء ، لأنه وافتى قياسه ، أو لأنه تنبه إلى وجه

القياس فى القضية ، مسترشدا فى ذلك بسبق عطاء إلى هذا الرأى ، وايس لنا إلا أن نتجه إلى ذلك الاتجاه ، لأنه لم يذكر قول التابهين فى مصادره الفقهية ، وقد حصر طرق الاستدلال فى أكثر من موضع من كتبه ، ولم نعثر فى موضع منها على إشارة أو عبارة تفيد أنه يرى قول التابعى حجة .

هذا أبو حنيفة والشافعي ، أما مالك فإنه لم يصرح باتباع قول التابعي على. أنه سجة ، ولكن رأيناه في الموطأ كثيراً مايروي عن التابه ين أقوالا ، ويأخذ بها ، وخصوصاً كبار التابه ين كسعيد بن المسيب ، وسالم بن عبد الله بن عمر ، ونافع مولاه .

وأما أحمد فيأخذ بقول التابعي كما يأخذ بقول الصحابي إذا لم يكن هناك قول لصحابى، وإذا اختلف التابعون لم يوازن بين أقوالهم، ويتخير منها، بل... يكون قول كل تابعي قولا عنده، ويكون الاختلاف بينهم اختلافا في مذهبه ...

# الاختلاف المذهبي وأثره

و اختلفت الآراء الفقهية ، و تكونت من هذا الاختلاف مدارس فقهية ، و يجب أن نشير هنا إلى فقهية ، و يجب أن نشير هنا إلى فأن الاختلاف لم يكن في ذات الدين ، ولا في لب الشريعة ، ولكنه اختلاف بن في م بعض نصوصها ، وفي تطبيق كلياتهاعلى الفروع ، وكل المختلفين على تقديس أنصوص القرآن والسنة ، بل كانوا من فرط اتباعهم للإسلام لا يسمح أكثرهم بمخالفة أقوال الصحابة ، لأنهم الذين شاهدوا وعاينوا منازل الوحى ، ومدارك بخلسالة ، وتلقوا علم النبوة من النبي صلى الله عليه وسلم ، ونقلوه إلى الأخلاف منهو اختلاف لا يتناول الأصل ولكنه اختلاف في الفروع ، حيث لا يكون منول قطعى حاسم للخلاف ، ومثل أقوالهم بالنسبة للشريعة كمثل أعصاب الشجرة ، تتشعب وتتفرع والأصل الذي انبعث عنه واحد ، يعذى جميع الشجرة ، تتشعب وتتفرع والأصل الذي انبعث عنه واحد ، يعذى جميع الأغصان للتفرعة .

ولم يفهم الناس في ماضيهم وحاضرهم أن أقوالهم دين يتبع من غير نظر ، يوما دعوا الناس إلى اتباعهم ، بل دعوهم إلى اتباع الدليل الذى يوصل إلى الحق ، ولو خالف أقوالهم ، فكبيرهم أبو حنيفة يقول : « هذا أحسن ماوصلنا إليه ، فن رأى خيراً منه فليتبعه » وقد سأله بمض الفقهاء ، أهذا الذى انتهيت إليه هو الحق الذى لا شك فيه ؟ فقال الإمام المخلص : « لا أدرى لعله الباطل الذي لا شك فيه » .

والشافعي رضى الله عنه كان يحث أصحابه على مخالفة قوله الذي يكون مصدره القياس إذا وجدوا حديثاً يخالفه ، ويقول في ذلك رضى الله عنه :

ه إذا صح الحديث فهو مذهبي » ويقول في قوة إيمان : « أي أرض تقلني ،

وأى سماء تظلني إذا جاء حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وخالفته » .

و إنه قد روى عن مالك مثل ذلك ، وكان ينهى أصحابه عن أن يكتبوا ا فتاويه ، كاكان ينهى أبو حنيفة عن ذلك ، إذ رأى تلميذه أبو يوسف يكتب ما يقول ، فقال له : « ويحك يا يعقوب أتكتب كل ما أقول ، إنى قد أرى، رأيًا اليوم ، وأخالفه غداً ، وقد أرى الرأى غداً ، وأخالفه بعد غد » .

و إن الإمام أحمد بن حنبل يقرر أن لكل إنسان أن يجتهد، وإن الاجتهاد. لم يغلق في المذهب الحنبلي، ولم يتهجم أحد فيغلقه كما فعل بعض المتأخرين من. الشافعيين والحنفية.

وإن هذا الاختلاف قد فتح القرأم ، فاتجهت إلى تدوين علم الإسلام مجتهدة متبعة من غير جود ، وتركت من بعد ذلك تركة مثرية من الدراسات الفقهية ، لا نكون مغالين ، ولا متجاوزين المعقول إذا قلنا إنها أعظم ثروة فقهية في العالم الإنساني ، ولعل أعظم ثروة يدعيها الأوربيون هو القانون الروماني ، ولو وزن ما جاء عن الرومان ما عدل عشر معشار ما تركه الفقها من عيون الله ومسائله وإنها لتشمل من الحلول الجزئية والقواعد الكلية ما ينفعها ، ويعلو بها .

٥٨ - ولقد راع الناس ذلك العمل الفقهي الجليل بعدعصر الأئمة، وكان. لكل إمام تلاميذه اتبعوه، ونهجوا منهاجه، تم جاء من بعدهم من درسوا تلك الآراء، المروية، وهكذا أخذ الاتباع يسود التفكير الفقهي، ومن وراس الاتباع كان التقليد، فائتقليد سار من القرن الرابع الهجري، ولكنه كان تقليد التجري، ولكنه كان تقليد التباع بنا ابتداء، ثم أخذ نطاقه يقسع، حتى صار تقليداً كليا في آخر العصور.

و نضافرت أسباب أدت إلى التقليد :

أول هذه الأسباب - اتباع التلاميذ لشيوخهم ، ثم اتباع من جاء بعدهم ٥٠٠

وتسلسل الاتباع جيلا بعد جيل ، وكلا جاء جيل قوى اتباع ماقبله ، وكان القدم. يضنى على أقوال السابقين قدراً من التقدير أكثر مماكان في الجيل الذي سبقه.

وثانى هذه الأسباب القضاء ، فإن القضاء يستلزم منهاجا يتبع ، لا أن يكون الأمر فرطاً من غير ضابط ، وإذا كان عصر الصحابة والتابعين والجيل الذى وليهم لم يكن ثمة تقييد للقضاء ، فقد كان ذلك لقوة الدينوالتق ، وعلوالمدارك ، على أنه في هذه العصور كان التقييد قد انبعثت فكرته ، وإن لم تتحقق ، فلماجاء عهد المهدى والرشيد اختص القضاء بفقه العراقيين ، ثم صار الذهب الحنى مذهب الدولة عصورا طويلة ، وكان المذهب المالكي مذهب الدولة في الأندلس والمغرب والمذهب الشافى مذهب الدولة وقتاً مافي الشام .

وثالث هذه الأسباب -- وجود ثروة فقهية أنتجتها القرون الثلاثة الأولى. مما جملت أكثر المسائل قد وجدت لها حاول فقهية .

ورابع هذه الأسباب — التعصب المذهبي الذي ساد القرون التي وليت القرن الثالث ، فقد احتدمت الحجادلات بين المذاهب الفقهية ، وخصوصاً في المذاهب التي تتجاور في الأقاليم ، كالمذهب الحنفي والمذهب الشافعي، فإن الجدل. بين أهل هذين المذهبين كان شديداً .

لهذه الأسباب مجتمعة وغيرها اقتصر العلماء على مراجعة أقوال السابقين مراجعة أقوال السابقين مراجعة أقوال السابقين مراجعة والمتهاد الأثمة والمتهاد مكتفياً باجتهاد الأثمة السابقين ، وصار العصر عصر تقليد ، واختيارا من كتب السابقين .

وإن المذاهب المختلفة لم تستقبل فكرة غلق باب الاجتهاد بقدرواحد، فإذا كانت الفكرة قد لاقت فى المذهبين الحنفى والشافعى رواجا ، فإنها لم يكن لهما متل هذا الرواج فى المذهب المالكي ، وإن كان للفكرة أثر فيه ، أما المذهب الحنبلى فقد قرر فقهاؤه وجوب ألا يخلو عصر من العصور من مجتهد ، ليستطيع الحنبلى فقد قرر فقهاؤه وجوب ألا يخلو عصر من العصور من مجتهد ، ليستطيع الن يستنبط أحكام ما يجد من أحداث .

والشيعة الزيدية والإماميةوالخوارجأوجبوا اجتهاد العلماء عندهم، وكذلك الفظاهرية « وقد تطرف هؤلاء فأوجبوا الاجتهاد حتى على العامة ، واجتهادهم بقدار طاقتهم ، وهو أن يعرفوا ممن يفتيهم من أين فال مايفتيهم به » .

والذين أوجبوا الاجتهاد من غير الظاهرية جعلوا الاجتهاد مقصورا على العلماء ، والعامة يقلدون من يستفتون .

و إنه قد أنجمت الأذهان الآن إلى إعادة فتح الاجتهاد، أوبالأحرى الدخول في ميدان الاجتهاد، فما كان لأحد أن يغلقه، وما يسوغ لفقيه كائناً ما كانت منزلته أن يحجر على العقول من أن تفكر م

ولكن إذا كان إغلاق الاجتهاد أمراً غير مستحسن ، فالاجتهاد من غير أن يكون المجتهد أهلا للاجتهاد ضار بالإسلام كل الضرر ، ولذلك كان لابد من أن يكون المجتهد قد تأهل بمؤهلات الاجتهاد ، وأن يكون عالما بالمقاصد الإسلامية العامة ، ولهذا وجب علينا أن نتكلم بإيجاز في هذين الموضوعين ، مقاصد الإسلام ، والاجتهاد ومراتبه .

## ١ \_ مقاصد الأحكام

وه - جاءت الشريعة الإسلامية رحمة بالناس ، وقد قال سبحانه مخاطباً نبيه : « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين». وقال تعالى: « يا أيها الناس قدجاء تكم موعظة من ربكم وشفاء لما فى الصدور ، وهدى ورحمة للمؤمنين » ولذلك اتجه الإسلام فى أحكامه إلى إقامة مجتمع فاضل تسوده الحجبة والمودة والعدالة ، وذلك من نواح ثلاث ، كل ناحية تتجه نحو تلك الفاية السامية .

الناحية الأولى تهذيب الفرد ، ليكون مصدر خير لجماعته ، وذلك بالعبادات التي شرعها الله سبحانه ، ومرماها كلها تهذيب النفوس أولا ، وتوثيق العلاقات الاجتماعية ثانياً ، فهى تشفى النفوس من أدران الحقد والحسد ، وتربى روح الاثتلاف بين المؤمن وغيره ، ولا يكون ظلم ولا فحشاء ، ولذا قال سبحانه فى الصلاة التي هي رأس العبادات: « إن الصلاة تنهي عن الفحشاء والمنكر، ولذكر الله أكبر » وهي بهيئاتها واجتماع الناس لها تهذيب فردى واجتماعي ، وكذلك الله أكبر » وهي بهيئاتها واجتماع الناس لها تهذيب فردى واجتماعي ، وكذلك الحج، وهوأوضح منهما في إقامة مجتمع متلاق بالحبة والمساواة ، مع اختلاف الألسنة والألوان والأقاليم ، ثم الزكاة ليست في معناها إلا تعاونا اجتماعياً بين الغني والفقير ، ولذلك كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول عند احتماعياً بين الغني والفقير ، ولذلك كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول عند تكليف الولاة جمعها : « خذها من أغنيائهم وردها على فقرائهم » .

الناحية الثانية -- إقامة العدل فى الجماعة الإسلامية ، وهو يشمل العدل فيما بينها ، والعدل مع غيرها ، ولذا قال تعالى « ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى » .

والعدل في الإسلام مقصد أسمى ، وهو يتجه في اتجاهات ذات شعب مختلفة ، يتجه إلى العدل في الأحكام والأفضية والشهادة ، وإلى العدل في معاملة

المؤمن مع غيره ، بأن يفرض أن للناس حقوقا مثل حقوقه ، وقد بين ذلك النبي.. صلى الله تعالى عليه وسلم أحكم بيان ، فقال عليه السلام : « عامل الناس بما تحب أن يعاملوك به » وقال « أحب لغيرك ما تحب لنفسك » .

واتجه الإسلام إلى العدالة القانونية والاجتماعية ، فجعل الناس سواء أمام ، القانون، لافرق بين غنى وفقير ، فليس فيه طبقات بحيث تقميز طبقة عن طبقة ، يل القوى ضعيف حتى ينتصف له ، والناس جميعاً من طبقة واحدة ، لافرق بين لون ولون ، وجنس وجنس ، ولذا يقول النبى صلى الله عليه وسلم : «كلم لآدم ، وآدم من تراب ، لافضل لعربى على أعجمى إلا بالتقوى » ويقول سبحانه وتعالى : « يا أيها الناس إنا خلقنا كم من ذكر وأنى وجعلنا كم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند . الله أتقاكم » .

٣ — وأنه في سبيل تحقيق العدالة الاجتماعية على أكمل وجه من وجوم التماون الاجتماعي ، أوجب الإسلام تكريم الإنسان لذات الإنسان ، فنهي. عن المثلة ولو في الحرب ، وإن مثل العدو بقتلانا ، وصرح الله سبحانه وتعالى بالكرامة الإنسانية ، فقال تعالى : « ولقد كرمنا بني آدم ، وحملناهم في البر والبحر ، ورزقناهم من الطيبات ، وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا » .

وفى سبيل تحقيق العدالة الاجتماعية ، مكن الإسلام كل إنسان يستظل بالراية الإسلامية من فرصة العمل ، وقد أوجب في هــذا تربية كل آحاد الأمة الإسلامية العاملين ، ليتمكنوا من العمل بمقدار مواهبهم وكفاياتهم .

وقد قال بعض الفقهاء من المالكية في هذا ، ولم يخالفه غيره ، إنه يجبأن. يكون التعليم على ثلاث مراحل ، في المرحلة الأولى يتعلم كل شباب الأمة ، فمن كان يستطيع بكفايته الفكرية التي كشفتها تلك المرحلة أن يدخل الثانية دخلها ومن وقفت كفايته المقلية عن الدخول فيها ، وقف عند فرض كفائى تحتاج. إليه الجماعة ، إذ الأمة في حاجة إلى عمال يدويين ، وزراع يفلحون الأرض ، ويقومون على الحرث ، وإلى من يمهرون في الصناعات المختلفة التي لا تحتاج إلى. تفكير كبير ، ولكن تحتاج إلى أيد ماهرة ، كسبت مهارتها بالتمرين والعمل.

والذين اجتازوا المرحلة الثانية بنبوغ يدخلون المرحلة العليا، وهي الثالثة، ومن وقف دون الدخول في هذه الأخيرة وقف عند فرض كفائي، فإن الجماعة محتاجة إلى ذوى ثقافات متوسطة ليشرفوا على الأعمال، ويديروا نظامها، ومن اجتازوا المرحلة العليا كان منهم قادة الفكر، والمخترعون، وبمقدار قواهي الفكرية لابمقدار عددهم تكون قوة الأمة، وعظمتها المادية والروحية، فالاعتبار في هؤلاء بقواهم، لا بالأعداد الكثيرة.

وإنه لكيلا يبخس أحد حظه جمل الإسلام نتأمج الأعمال متكافئة مع ذات الأعمال ، فمن يعمل خيراً يحصد نتأمجه ، وبمقدار مجهود الشخص وإنتاجه يكون جزاؤه .

وقد حقق الشرع الإسلاى العدالة على أكل وجوهما مع المرأة ، فعلمها من الواجبات بمقدار مالها من حقوق ، كما قال تعالى: « و لهن مثل الذى عليهن. بالمعروف ، وللرجال عليهن درجة » .

وهكذاكان في الإسلام كل حق في نظيره واجب ، فكان التلازم بين الحق والواجب أمراً ثابتا محققا ، ولذلك جعلت الشريعة الفراء عقوبة العبد على النصف من عقوبة الحر في العقوبات التي تقبل التفصيف ، فقد قال تعالى في الإماء « فإذا أحصن فإن أتين بقاحشة فعليهن نصف ما على المحصدات من العذاب » وإن السبب في ذلك واضح ، لأن الجريمة مهانة ، وهي أقرب إلى الوقوع ممن ينظر إليهم الناس نظرة مهانة لا نظرة تقدير ، فكانت الجريمة منهم أخف من ينظر إليهم الناس نظرة مهانة لا نظرة تقدير ، فكانت الجريمة منهم أخف من

المجريمة إذا وقعت من إنسان له مكانة ، فكانت العقوبة أخف ، والعقوبة على هذا تسير مع أقدار الناس سيرا مطردا ، ولا تسير سيرا معكساً ، فن كُبر كُبرت جريمته ، فكبرت جريمته فصغر عقابه ، ومن صغرت صغرت جريمته فصغر عقابه ، وذلك على عكس قانون الرومان ، فقد كان يصغر العقوبة على الأشراف ، ويعظمها إلى درجة الموت على الضعفاء ولوكان الفعل المادى في الجريمة واحدا .

ولقد قرر الإسلام أنه لاسبيل إلى تحقيق العدالة الاجتماعية إلا إذا سادت الفضيلة والمحبة والعدالة ، واعتبرت مصلحة المؤمن يدخل فى دائرتها مصلحة أخيه ، ولذلك قال العلماء : إن أجم آبة لمعانى القرآن ﴿ إِن الله بأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى ، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى ، يعظم العلم تذكرون » .

والناحية الثالثة من نواحي الأحكام الإسلامية — هي الصلحة ودفع النفساد، وتلك غاية محققة ثابتة في كل الأحكام الإسلامية، فما من أمر شرعه الإسلام بالكتاب والسنة إلاكانت فيه مصلحة حقيقية، وإن اختفت تلك المصلحة على بعض الأنظار التي غشاها الهوى، والمصلحة التي أراد الإسلام تحقيقها ليست الهوى، وإنما هي المصلحة الحقيقية، التي تعمولا تخص. ولمكان معذا الموضوع من الشرع الإسلامي نشير إليه ببعض التفصيل مع الإيجاز.

## المصلحة المطلوبة في الإسلام

وإننا نفرر هنا أن المسلحة الحقيقية التي طلبها الإسلام هي الثابقة في الأحكام الإسلامية التي ورد فيها النصوص من القرآن السكريم ، والسنة الشريفة ومايكون مشابها للمصالح التي اشتملت عليها النصوص ، وما يكون من جنسها وليس لفقيه أو لغير فقيه أن يدعى أن مصلحة يضفي عليها الإسلام السم المصلحة تكون مصادمة للنصوص ، فإن تلك هي الموى الذي نهى القرآن. والحديث عن اتباعه .

والمصلحة التي تضافرت النصوص كلما على إعتبارهم ، هي المحافظة على خسة . أمور: وهي الدين ، والنفس ، وللمال ، والعقل، والنسل ، وذلك لأن الدنيا التي يعيش فيها الإنسان تقوم على هذه الأمور الخمسة ، ولا تتوافر الحياة الإنسانية . الرفيعة إلا بها ، وتكريم الإنسان هو في المحافظة عليها .

(۱) فالدين لابد منه للإنسان الذي يسمو في معانيه المشخصة له عن دركة الحيوانية ، إذ التدين خاصة من خواص الإنسان ، ولا بد أن يسلم له دينه من كل اعتداء ، وقد حمى الإسلام بأحكامه حرية التدين ، فقال تعالى : «لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الني » ونهى عن أن يفتن الناس في دينهم ، واعتبر الفتنة التي تنزل بالمؤمن في دينه أشد من القتل ، ولذا قال سبحانه : « والفتنة أشد من الفتل » .

و إنه منأجل الحافظة على التدين وحمايته ، وتحصين النفس بالمعانى الدينية. شرعت العبادات كلها .

(٢) والمحافظة على النفس هي المحافظة على حق الحياة العزيزة الكريمة ،... والححافظة على النفس تقتضى حمايتها من اعتداء عليها بالقتل أو قطع الأطراف...

أو الجروح الجسيمة ، كما أنه من المحافظة على النفس المحافظة على السكر امة الإنسانية ، يمنع السب والقذف ، وغير ذلك من كل أمر يمس كرامة الإنسان ، ومن المحافظة على النفس منع كل ما يحد من نشاط الإنسان من غير مبرر . ولذلك حمى حرية العمل ، وحرية الفسكر والرأى ، وحرية الإقامة ، وغير ذلك مما تعد الحريات فيه من مقومات الحياة الإنسانية السكريمة الحرة ، التي تزاول نشاطها . في دائرة المجتمع الفاضل من غير أى اعتداء .

(٣) والمحافظة على العقل ، حفظه من أن تناله آفة تجمل صاحبها عبثًا على المجتمع ومصدر شر وأذى للناس ، وهي تتجه إلى أنواع ثلاثة :

أولها — أن يكون كل عضو من أعضاء المجتمع الإسلامي سليا يمدّ المجتمع بمناصر الخير والنفع ، فإن عقل كل عضو من أعضاء المجتمع ليس حقا خالصا الله ، بل للمجتمع حتى فيه ، باعتبار أن كل شخص لبئة من بئائه ، إذ يتولى بعمله سداد خلل فيه ، فمن حق المجتمع أن يلاحظ سلامته .

الناحية الثانية — أن من يعرض عقله للآفات يكون عبثًا على الجماعة، كما أشرنا وإذاكان عبؤه عليها عند آفته، فعليه أن يخصع للأحكام الإسلامية الرادعة التي تمنعه من أن يعرض عقلة للآفات.

الثالثة — أن من يصاب عقله بآفة من الآفات ، يكون شرا على المجتمع ، يبناله بالأذى والاعتداء ، فكان من حق الشارع أن يحافظ على المقل بالمقاب الرادع على تناول ما يفسده ليكون ذلك وقاية من الشرور والآثام ، والشرائم تعمل على الوقاية كما تعمل على العلاج ، ولذلك عاقبت الشريعة الإسلامية من يشرب الخور ، أو يتناول أى مخدر يصيب العقل .

(٤) والمحافظة على النسل هي المحافظة على النوع الانساني ، وتنشئة

آجياله على المحبة والعطف ليأتلف الناس، وذلك بأن يتربى كل ولد بين أبويه، ويكون للولد حافظ يحميه، وقد اقتضى ذلك تنظيم الزواج، واقتضى منسع الاعتداء على الأعراض، سواء الاعتداء على الأعراض، سواء أكان بفعل الفاحشة أم كان بالقذف، وذلك كله لمنع الاعتداء على الأمانة الإنسانية التي أودعها الله تعالى جسم الرجل والمرأة، ليكون منهما الفسل والتوالد الذي يجعل حياة الإنسان باقية في هذه الآرض، على أن تكون مراكبة قوية تعيش عيشة طيبة عالية، فيكثر النسل، ويكون قوياً في جسمه وخلقه وعقله، ويكون صالحاً للامتزاج والائتلاف بالمجتمع الذي يعيش فيه.

ومن أجل المحافظة على النسل كانت عقوبة الزنى ، وعقوبة القذف ، وغير ذلك من المقوبات التمزيرية التي وضمت لحماية النسل .

(٥) والمحافظة على المال تكون بمنع الاعتداء عليه بالسرقة ، أو النصب ، أو الرشوة ، أو الربا ، وغير ذلك من الآفات التي تتعلق بالمال ، كما تكون المحافظة على المال بتلظيم التعامل بين الناس على أساس من العدل والتراضى . وبالعمل على تنعيته ووضعه فى الأيدى التي تصونه وتحفظه ، وتقوم على رعايته ، فالمال فى أيدى الآحاد قوة للأمة كلها ، فوجبت المحافظة عليه ، بتوزيعه بالقسطاس ، وبالمحافظة على إنتاج المنتجين ، وتنعية الموارد العامة ، ومنع أن يؤكل بين الناس بالباطل ، وبغير الحق الذي أحل به الأمو ال لعباده ، ومنعهم حق امتلاكها .

وعلى ذلك بدخل فى المحافظة على المال كل ما شرع للتمامل بين الناس من بيوع و إجارات ، و إحياء الموات من الأرضين ، و استخراج لمعادن الأرض وكنوزها ، وما أودعه باطنها وبحارها من أحجار كريمة .

وإن هذه الأمور الخمسة هي التي نزلت من أجل المحافظة عليها الشرائع، السماوية كلها ، وتحاول الشرائع الوضعية تحقيقها ، وقد قال الغزالي في ذلك :

« إن جلب المنفعة ودفع المضرة مقاصد الحق ، وصلاح الخلق في تحصيل مقاصدهم ، لكنا نعنى بالمصلحة المحافظة على مقصود الشرع ، ومقصود الشرع من الخلق خسة ، وهو أن يحفظ علمهم دينهم ، وأنفسهم ، وعقلهم ، ونسلهم ومالهم ، فكل ما يتضمن حفظ هذه الأصول الخسة فهو مصلحة ، وكل ما يفوت ، هذه الأصول الخسة ، وهو مفسدة ودفعها مصلحة » (1) .

<sup>(</sup>١) الستصفي للغزالي ح ١ ص ٢٨٧ ..

## مراتب المصالح

٦٢ - نرى من هذا أن المصلحة التي تجب المحافظة عليها منضبطة في هذه الأصول الخسة ، وقد تضافرت الأحكام الشرعية على المحافظة عليها .

ونقرر هذا أن هذه المصالح ليست مرتبة واحدة ، بل هي على مراتب ثلاث، المرتبة الأولى — مرتبة الضروريات ، وهي التي لا يتحقق شيء من وجوه هذه المصلحة الثابتة إلا بها . فالضروري بالنسبة للنفس ، المحافظة على الحياة وعلى الأطراف ، وكل مالا يمكن أن تقوم الحياة إلا به ، والضروري بالنسبة المال مالا يمكن المحافظة عليه إلا به ، وكذا بالنسبة للنسل ، والدين ، وقد قال الغزالي في ذلك «هذه المصالح الخمس ، حفظها واقع في رتبة الضروريات ، فهي أقوى المراتب في المصالح ، ومثاله قتل الكافر المضل ، وعقوبة المبتدع الداعي إلى بدعته ، فإن هذا يفوت على الخلق دينهم ، وقضاؤه بإنجاب القصاص ، إذ به حفظ النفوس ، و إنجاب حد الشرب، إذ به حفظ العقول التي هي ملاك التكايف و إنجاب حد الزني إذ به حفظ النسب ، و إنجاب زجر النصاب والسارق ، إذ به يحصل حفظ الأموال التي هي معايش الناس ، وهم مضطرون إليها » (1) .

وخلاصة ما يتضمنه كلام ذلك الإمام دفع كل ما يترتب عليه فوات أصل من الأصول الخمسة يعد ضرورياً ، وقد شدد الشارع فى حماية الضروريات ، وقرر الإسلام أنه إذا توقف حفظ الحياة على الوقوع فى أمر محظور — وجب تفاوله إذا لم يكن فيه اعتداء على نفس أحد ، ولذا أوجب على المضطر الذى يخاف الموت جوعاً أو عطشاً أن يا كل الميتة ولحم الخنزير ، وأن يشرب الخر . المرتبة المانية — مرتبة الحاحى ، وهو الذى لا يكون الحكم الشرعى فيه

<sup>(</sup>١) المستصفى للغزالى = ١ ص ٢٨٨ .

لحماية أصل من الأصول الخمسة ، بل يقصد به دفع المشقة والحرج ، أو الاحتياط لحماد ألاصول الخمسة ، كتحريم بيع الخر لكيلا يسهل على الناس تناولها، وتحريم بيع الخر لكيلا يسهل على الناس تناولها، وتحريم تلتى السلع عند مداخل الأمصار ، لكيلا يؤدى إلى غلاء الأسعار على الناس ، وتحريم الانتكار ، وغير ذلك مما لا يتجه مباشرة إلى حماية أصل المصلحة ، بل قصد به سد الذرائع التى تؤدى إلى المضرة ، وكما يحرم ماقد يؤدى إلى الإضرار ، كذلك يباح ما يؤدى منعه إلى الضيق ، ومن ذلك إباحة كثير من العقود التى يحتاج إليها الناس ، كإباحة المزارعة ، والمساقاة ، والسلم ، والمرابحة ، والتولية (١) .

ونقرر هنا أن من الحاجيات المحافظة على الحرية الشخصية فإن الحياة قد تثبت بفقد هذا النوع من الحرية في الجلة ، ولكن يكون الشخص في ضيق . ومن الحاجيات بالنسبة المحافظة على النسل منع المعانقة ، ومن المحافظة على المال منع المعانقة ، ومن المحافظة على المال المائنين على سداد ديونهم إذا كانوا قادرين ، وعقابهم على ذلك ، ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم : (مطل الغني ظلم يحل عقابه ) ، ومن المحافظة على العقل تحريم شرب القليل عما يسكر منه الكثير .

المرتبة الثالثة — مرتبة النحسينات، والكاليات، وهي الأمور التي لا تحقق أصل المصالح، ولا الاحتياط لها، ولكنها تحفظ الكرامة، وتمنع المهانة، ومن ذلك بالنسبة للنفس حمايتها من الدعاوى الباطلة، والسب، وغيرذلك عما لايمس أصل الحياة، ولاحاجيامن حاجياتها. ولكن يشينها ويمس كرامتها.

<sup>(</sup>۱) المزارعة ، دفع الأرض لمن يزرعها على أن تكون له حصة فبها ، والمساقاة دفع الشجر لمن يصلحه على أن يكون له حصة فى التمر ، والمرابحة البيع بزيادة عما اشترى بنسبة مقدرة . والنولبة البيع بمثل ما اشترى . والسلم بيع ماليس بموجود ، في يد البائع على أن يسلمه فى موعد معين .

ومن ذلك النسبة للأموال ، تحريم التغرير والغشوالنصب ، فإنه لايمس المال ذاته ، ولكن يمس كالياً ، إذ هو يمس إرادة التصرف في المال عن بينة ومعرفة ، وإدراك صحيح لوجوم الكسب والخسارة ، فلا اعتداء فيه على أصل المال ، ولكن الاعتداء فيه على إرادة المتصرف ، ويمكن الاحتياط له .

ومن ذلك بالنسبة للمحافظة على النسل ، تحريم خروج المرأة في الطرقات بزينتها ، ومن ذلك قوله تعالى : [ وقل للمؤمنات يغضض من أبصارهن ، ويحفظن فروجهن ، ولا يبدين زينتهن إلا ماظهر منها ، وليضربن بخمرهن على جيوبهن ، ولايبدين زينتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن ، أو آباء بعولتهن ، أو أبناء بمولتهن أو إخوانهن أو بني إخوانهن أو بني أخواتهن أو نسائهن ، أو أبناء بمولتهن أو إخوانهن أو التابعين غير أولى الإربة من الرجال أو نسائهن ، أو ماملكت أيمانهن ، أو التابعين غير أولى الإربة من الرجال أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء ، ولا يضربن بأرجابهن ليعلم ما خفين من زينتهن ، وتوبوا إلى الله جميما أيها المؤمنون لعلكم تفلحون ] فإن هذه من قبيل حفظ الكال ، وفيه شرف وكال ، وكرامة ، ومنع للمانة ، والتبذل الذي تقع فيه النساء اليوم .

ومن التحسينيات بالنسبة لحماية الدين ، منع الدعوات المنحرفة التي لا تمس أصل الاعتقاد ، ولكن بتكاثرها توجد شكا في المقررات الدينية ، ومن ذلك منع الاطلاع على كتب الأديان الأخرى لمن لا يستطيع الموازنة الدقيقة بين الحقائق الدينية ، ومن ذلك أيضاً تجنب النجاسة ، وأخذ الزينة عند الذهاب إلى المساجد ، و بعض هذه الأمور من الواجبات ، و بعضها نوافل ، ولا مانع من أن يكون التحسيني واجباً في كثير من الأحوال .

ومن التحسينيات بالنسبة لحماية العقل ، منع الذميين من إعلان الشرب المحرمات ، وبيعها في أوساط المسلمين ، ولو كان المشترون منهم .

### تفاوت المصالح فى التـكليفات

على غيره ، والحاجى ، وهو يليه ، والتحسينى ، وهو آخرها ، فإذا تعارض.. الحاجى مع التحسينى قدم .

وقد تصدى بعض العلماء لبيان التفاوت فى المصالح فى الأحكام التكليفية ، وتغير أوصاف الأحكام من حيث طلبها تبعاً اذلك التفاوت ، فقرروا أن كل ما طلبه الشارع ، أو خير فيه ـ ماكان إلا لمصلحة متحققة فيه ، وأن المصلحة فيه متفاوتة بمقدار الطلب ، أو الطلب يتفاوت بمقدار تفاوت المصلحة والمؤدى. واحد ، وهو أن ما حرمه إنما حرمه لدفع الفساد ، والفساد فيه يتفاوت بمقدار تفاوت النهى ، وبالأحرى النهى يتفاوت بمقدار تفاوت الفساد .

ولذلك قسم عز الدين بن عبد السلام المصالح إلى ثلاثة أضرب :

أولها — مصلحة أوجبها الله لعباده ، وهى متفاوتة الرتب منقسمة إلى.. الفاضل ، والأفضل ، والمتوسط بينهما ، فأفضل المصالح ما كان شريفاً فى نفسه ، رافعاً لأقبح المفاسد ، جالباً لأرجح المصالح ، وهذا القسم واجب الفعل .

وإن الواجبات تتفاوت المصلحة فيها فما تسكون المصلحة فيه أكثر وأقوى. يكون الوجوب بمقدارها ، ويكون أسبق ، فترى مثلا أن الشارع في كفارة الصيام قدم عتق الرقبة على غيرها ، لأن المنفعة أقوى ، وجعل صيام شهرين متتابعين بعدها لأنه أكثر ردعاً ، فهو أنفع ، ثم جعل إطعام ستين مسكيناً لمن لا يستطيع الصيام ، وكان إطعام المسكين توبة عن صوم اليوم في رمضان ، ويعتبر الأصل هو الصوم .

ولقد ذكر عز الدين بن عبد السلام أمثلة لتقديم واجب على واجب ،

التفاوت المصلحة فيهما ، فقال : « تقديم إنقاذ الفرق على أداء الصاوات ثابت ، الأن إنقاذ الغرق المعصومين عند الله أفضل ، والجمع بين المصلحتين بمكن ، بأن ينقذ الغريق ثم يقضى ، ومعلوم أن مافاته من أداء الصلاة لايقارب إنقاذ نفس مسلمة من الهلاك ، وكذلك لورأى في رمضان غريقاً لا يمكن تخليصة إلا بالفطر ، فإنه يقطر وينقذه ، وهذا أيضا من باب الجمع بين المصالح ، لأن في النفوس حقاً على ، وحقاً لصاحب النفس ، فقدم ذلك على أداء الصوم دون أصله (١) أى دون أصل الصيام ، لأنه يمكن القضاء .

والضرب الثانى - ماندب الشارع عباده إصلاحا لهم ، وأعلى رتب الندب دون أعلى رتب الواجب ، وتتفاوت فى النزول إلى أن تنتهى إلى مصلحة يسيرة تقترب من مصالح المباح .

والضرب الثالث — مصالح المباحات ، وذلك أن المباح لا يخلو من مصلحة أو دفع مفسدة ، ويقول فى ذلك عز الدن « مصالح المباح عاجلة ، بعضها أنفع وأكبر من بعض ، ولا أجر عليها ، فن أكل شق تمرة كان محسنا لنفسه بمصلحة عاجلة » .

و إنه بلا شك ، المباح فيه مصلحة ، ولكنها مصلحة جزئية شخصية لذات المتناول ، كالأكل والشرب ، وغير ذلك من الأفعال التي فيها بلاشك مصلحة ، وترك تقديرها للشخص ، كاترك له الاختيار في أنواعها ، والاختيار في إيقاعها ، والدلك لا يقدر الله تعالى لها جزاء من ثواب أو عقاب .

أما المصلحة فى الواجب أو المندوب ، فإنها مصالح ليست شخصية ، إذ تعود على صاحبها وعلى الناس ، فمن تصدق بصدقة غير واجبة ، أو واجبة ، فصدقته خير للناس ، ومن أماط الأذى من الطريق ، فنى عمله مصلحة للناس ، وكان

<sup>(</sup>١) قواعد الأحكام في مصالح الأنام ج ١ ص ٩٣ .

على مقداره الثواب فى الآخرة ، وكان العقاب على الترك إذا كان المتروك واجباً ، فن ترك الزكاة المفروضة أجبره ولى الأمر على دفعها ؛ ولا يسلم من عقاب الله تعالى يوم القيامة .

٥٠ — وسهذا تنبين مراتب المصالح فى التكايفات المطلوبة أو الحير منها > والمصلحة تتحقق فى المنهيات ، والوجه فيها أن دفع الفساد يعد من المصلحة > ولو أنها سلبية ، بل إن دفع الفساد يقدم على المصلحة الإيجابية ، ولذلك كانت. قاعدة الفقهاء « درء الفساد مقدم على جلب المصالح » .

ويتفاوت النهى بمقدار قوة الفساد وذبوعه ، فالفساد فى الحرام أشد من الفساد فى المحروه ، وهو متفاوت فى كل واحد منهما تفاوتاً كبيراً بمقدار الفساد ، فالقحريم فى الزنى لا يقاربه تحريم المعابقة والتقبيل ، وإن كان كلاهما حراما ، والتحريم فى شرب الحمر ليس مثله تحريم بيعها ، وتحريم النصب ليس فى قوة تحريم السرقة ، وتحريم قطع العضو ليس فى قوة تحريم قتل النفس ، وتحريم الزنى بالمتزوجة ، وكل ذلك وتحريم الزنى بغير المتزوجة ، وكل ذلك تأبت بدليل قطعى لا شبهة فيه ، ويقول فى ذلك عز الدين :

« تنقسم المفاسد إلى ضربين : ضرب حرم الله تعالى قربانه ، وضرب كرم الله تعالى إتيانه » ثم يذكر رضى الله عنه رتب كل ضرب من هذين. الضربين ، فيقول :

« والمفاسد مما حرم الله قربانه رتبتان ؛ إحداها رتبة الكبائر ، وهي منقسمة إلى الكبير ، والأكبر ، والمتوسط بينهما ، فالأكبر أعظم الكبائر مفسدة ، وكذلك الأنقص فالأنقص ، ولا تزال مفاسد الكبائر تصغر إلى أن تنتهى إلى مفسدة لو نقصت لوقعت في أعظم رتب الصغائر وهي الرتبة الثانية (من المفاسد ) ثم لا تزال مفاسد الصغائر تتناقص إلى أن تنتهى إلى مفسدة ...

لو نقصت لانتهت إلى أقل مفاسد المكروهات ، ولاتزال تتناقص مفاسد هذه المكروهات ، حتى تنتهى إلى حد لو زال لكان المباح<sup>(۱)</sup> » .

وترى من هذا التقرير وسابقه كيف ربط ذلك الإمام الجليل بين المطلوب فعله و بين المصالح، وبين أنه مرتب في الطلب على مقدار قوة مافيه من مصلحة، وكيف ربط بين المحرمات في الشرع والمفاسد ربطا محكما دقيقا لا مجال للريب فيه، وبين مقدار التحريم بمقدار قوة المفسدة، وبين أن المفاسد مقدرجة في المتحريم ترولا وصمودا، فأعظم الأشياء مفسدة أكبر الكبائر، ثم ينزل مقدار الإثم بمقدار ترول الفساد، حتى يصل إلى درجة المباح حيث لا يكون فساد في الفعل أو الترك.

و يلاحظ أن المباح كما ذكر ما يتعلق بالشخص واختياره ، حيث تكون المصلحة غير متحققة في أمر معين ، بل يترك للشخص تعرف المصلحة التي يبتغيها للفسه ، ولكن من المباحات ما يكون مباحا بالجزء غير مباح بالكل ، فيباح للشخص أن بأكل لحماً أو خبزاً بأى مقدار ، ولكن لايباح له أن يمتنع عن الطعام ، باعتبار أن الطعام مباح ، وترك المباحات جملة قد يؤدى إلى ضعف الأمة ، وقد يكون الأمم مباحا بالجزء ، ولكن لا يكون مباحا بالكل ، بل يكون منهيا كاللهو البرىء أحيانا فإنه مباح ، ولكن لا يصح للشخص أن يجمل كل وقته لهذا ، ولا يصح لجماعة أن تجمل كل حياتها لهوا فإن ذلك حرام . ولكل و إن كان في أصله مباحا بالجزء .

<sup>(</sup>١) قواعد الأحكام ح ١ ص ٦٣ وعز الدين بن عبد السلام فقية شافعى توفى سنة ١٦٠ هـ .

# رفع الحرج

97 — وإذا كانت المصالح هي مقصد الأحكام التكليفية للارتباط الوثيق مينها ، فإن الأحكام الشرعية كلها يلاحظ فيها اعتبار مصلحة الشخص ، ولا تترك هذه المصلحة ، إلا إذا كانت معارضة لمصلحة أكبر ، أو كان اعتداء على غيره ، كن يأكل مال غيره ، فإن تلك مصلحة لايقرها الشارع ، بل هي من الفساد المنهى عنه ، لأن ضرر غيره أشد من نفع نفسه ، وضرر الأخذ أشد من مصلحة التعاول بالنسبة للمتناول .

وإذا كانت المصلحة الشخصية لها اعتبارها ، فإن من المسلحة رفع الحرج ورفع الحرج يكون إذا تعارضت المصلحة الشخصية مع بعض المنهيات ، فإنه فى هذه الحال يوازن بين ضرر الشخص الذى ينزل به بسبب الترك ، والضرر الذى ينزل به بسبب الفعل ، فأى الضررين كان أكبر رفع ، وكان ذلك رفعا للحرج ، ومنعا للتضييق .

ومن أجل ذلك قرر الإسلام أنه عندما تسكون ضرورة ، أى عندما يكون الشخص في حال تهدد مصلحة ضرورية له ، ولا تدفع إلا بتناول محظور لا يمس حق غيره ، فإنه يجب عليه أن يتناول ذلك المحظور ، ولذا قرروا أن الضرورات تبيح المحظورات ، وأنها في بعض الأحوال توجب فعل المحظور ، وتجب إذا لم يكن فيها اعتداء على حق أحد كما أشرنا ، أو لم يكن في أس قرر الإسلام ثواب الصبر فيه ، ولذا قال تعالى : [حرمت عليكم لليتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لذير الله به ، فن اضطر غير باغ ولا عاد فلا إنم عليه ] فليتة والخزير والدم حرمت لما فيها من ضرر ، ولكن ضرر الموت أشد من ضرر المخبير يدفع بالضرر الكبير يدفع بالضرر

الصغير، وإن ضرر أكل هذه الأشياء يخف بل يذهب إذا أكلهوهو جائع، فإن الجوع يجمل جهاز هضمه قوياً، ولذا لم يبتح الإسلام، إلا بمقدار مايدفع الجوع، إذ لو زاد لكان الضرر.

وقد تكون الضرورة غير موجبة المحظور ، وذلك إذا كانت في النطق بكلمة الكفر مثلا ، فإن العلماء قرروا أنه إذا أكره شخص على النطق بكلمة الكفر ، فليس بواجب عليه أن ينطق بها ، ولو كان سيقتل إن لم ينطق ، ولكن برخص له في أن بنطق من غير إلزام ، بل إن الثواب في ألا ينطق ، لأن عدم نطقه إعلاء لمكلمة الإسلام ، وكذلك الأمر بالنسبة لكلمة الحق ، فإنه إذا أكره الشخص على السكوت عن النطق بالحق ، يرخص له في ألا ينطق ، ولكن يثاب إذا نطق بالحق ، ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم « إن سيد ولكن يثاب إذا نطق بالحق ، ورجل قال كلمة حق أمام سلطان جائر فقتله » .

وليس الضيق والحرج في حال الضرورات فقط ، بل إنه يكون في حال المحاجيات ، فمن كان في حال ضيق فإنه يباح له تناول بعض المحظورات أو الإقدام عليها للحاجة ، لاللضرورة فقط ، فمثلارؤية عورة المرأة حرام محظور ، ولكن تباح للحاجة ، كأن يكون ذلك للتطبيب ، فيباح للطبيب أن يرى عورة المرأة عند الكشف عليها لتعرف مرضها

وقد قسم العلماء المحظورات إلى قسمين بالنسبة للترخيص فى تناولها \_ أحدها ما يكون محرما لذاته كأكل لليقة والخنزير والدم ، وهذه لاتباح إلا للضرورة ، لأن هذه محرمة لذاتها ، وكذلك أكل مال الغير محرم لذاته ، لا يباح إلا للضرورة ، كأن يكون اثنان فى بادية وأحدها معه زاد يكفيه ويزيد والآخر لازاد معه ، فإنه يباح للجائع أن يأخذ من زاد أخيه ولو بالقوة ، ولو تقاتلا على ذلك فقتل الجائع صاحب الزاد فإنه لادية للمقتول ، ولا إثم على القاتل ، ولقد أفتى ابن حزم الأندلسى أنه لاتباح الميتة أو الخنزير ، إذا كان معه صاحب. له زاد يستطيع أن يأخذه منه بالقوة .

وثانى القسمين مالا يكون محرما لذاته ، بل يكون محرما لغيره ، كرؤية عورة المرأة فإنه حرام ، لأنه قد يؤدى إلى الزنى ، والحرم لغيره يباح للحاجة ، ولا يشترط لإباحته أن يكون ثمة حال ضرورة .

#### لا تكليف إلا ما يستطاع :

٧٠ - وقد لاحظ الإسلام لمصلحة الناس في دينهم ألا يكافهم إلا مايستطيعون، ولذا قال الله سبحانه وتعالى: [لا يكلف الله نفساً إلاوسعها] فلا يكلف إلا مايستطاع، ويمكن الاستمرار على أدائه، فالتكليفات الشرعية في جملتها يمكن أداؤها، ويمكن الاستمرار على ما يكون فيها من مشقة، لأن المصلحة التي تتحقق في الشكليفات الشرعية لا تكون إلا بالاستمرار عليها، ولذلك كانت المشقة فيها مما يعتاد تحمله، وإذا كانت هنالك تكليفات فوق المشقة المعتادة، كالجهاد في سبيل الله فهي ليست على كل الناس، وليست مما يطالبون به باستمرار، والشكليف فيها درجات متفاوتة.

أما التكليفات الدائمة ففضيلتها فى المداومة عليها ، ولذلك رفع الله تعالى. الحرج بإباحة بعض المحظورات أحياناً ، ليمكن الاستمرار على القيام بالتكليفات فقال تعالى : [ وما جعل عليكم فى الدين من حرج ] وقال تعالى : [ يريد الله بكم اليسر ، ولا يريد بكم العسر ] .

وكان الاستمرار على التكليفات التى تكون مشقتها معتادة محتملة ، مقصدا من مقاصد الشرع ، لأن فى ذلك الاستمرار مداومة على الطاعة ، والطاعة لله تعالى رياضة روحية تربى الوجدان ، وتجعله قويا باستمرار من غير أن تتمرد على دواعى الهوى . وإن الاستمرار على اليسير السهل يؤدى إلى القدرة على .

السكبير ، فمن تمود أن يتصدق بقليل من المال كل يوم ، أو كل شهر ، أو كل عام ، وأو كل عام ، فإنه إذا وجد داعياً لبذل السكثير أقدم عليه ، إذ تعود البذل وسار في طريقه .

ولهذا جاءت النصوص الدينية الكثيرة تدعو إلى طلب السهل الميسر ، وتحب الشاق المتمب ، وقد وصفت أم المؤمنين عائشة النبي صلى الله عليه وسلم ، فقالت : (ماخير بين أمرين إلا اختار أيسرها مالم يكن إنما) وقال صلى الله عليه وسلم : (أحب الأعمال إلى الله أدومها و إن قل) وقال عليه السلام : ( إن الله يحب الديمة من الأعمال ) ،

7. — ولقد ذهب فرط التعبد ببعض الصحابة أن أخذوا أنفسهم بأشق. العبادات ، فمنهم من أدام صيام النهار وقيام الليل ، ومنهم من ترك النساء ، فقال. لمم النبي صلى الله عليه وسلم : (إنى أخشاكم الله ، ولكنى أصوم وأفطر ، وأصلى وأنام ، وأتزوج النساء) ولقد أقر النبي قول سلمان الفارسي لأبى الدرداء أخيه في إخاء الإسلام ، وقد أفرط في التعبد على ذلك العجو : (إن لبدنك عليك حقاً ، رلنفسك عليك حقاً ، ولأهلك عليك حقاً ، فأعط كل ذى حق حقه ).

ولقد بين عليه السلام أن إرهاق النفس ولو في طلب العبادة ــ لا يطلبه الإسلام ولا يرضاه ، لأن مافيه مشقة فوق المعادة ، لا تمـكن المداومة عليه ، وقد ينقطع به الجهد عنه ، ولقد روى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (إن هذا الدين متين ، فأو غلوا فيه برفق ، ولا تبغضوا إلى أنفسكم عبادة الله ، فإن المنبت لا أرضا قطع ، ولا ظهراً أبقى ) وقال عليه السلام : ( لهن يشاد أحد هذا الدين إلا غلبه ، ولكن سددوا وقار بوا ) .

٦٩ — والنتيجة التي تستنبط من هذا السياق . أن الأحكام الإسلامية تتجه

إلى تحقيق المصلحة الحقيقية ، ولا تتجه إلى سواها ، وتيسر على الناس أسباب الطاعة ، والمداومة عليها ، ليكون المؤمن في تهذيب ديني مستمر .

وعلى هذا قرر الفقهاء قواعد فقهية مستمدة من نصوص الشارع ، وتحدد مقاصده ، فقرروا فى ذلك أن الضرر يزال ، وأنه يدفع أشد الضررين بأقلهما ، وأن الضرر الخاص يحتمل فى سبيل دفع الضرر العام ، وأن درء المفاسد مقدم . على جلب المصالح .

وهكذا بما يتبين منه أنهم أخذوا من النصوص القرآ نيةوالنبوية الدعوة إلى المصالح ودفع المضار ، وذلك بالبناء على النصوص من غير افتئات عليها .

وإنه مامن أمر جاء به النص الصريح الثابت إلا كانت المصلحة مؤكدة فيه ، وما من أمر نهبي عنه النص نهيا صريحاً إلا كان فيه الضرر ، فليس لأحد أن يدعى أن نصوص الشارع الإسلامي لا تحقق المصلحة في عصر من العصور ، إذ أن ما يدعى من المصالح التي تعارض النصوص معارضة صريحة ادعاء باطل ، وليست من المصالح إنما هي من قبيل الأهواء النفسية ، والانحرافات الفكرية ، ومن أخذ بها فإنما يحكم الأهواء المردية في النصوص الدينية و يجعلها حاكمة . ومن أخذ بها فإنما يحكم الإهواء المردية في النصوص الدينية و يجعلها حاكمة . . وتعالى أعلم .

#### ٧ \_ الاجتهاد

٧٠ - كان لابد لنا في هذا التمهيد من الكلام في الاجتهاد ، ومؤهلاته ، لأن تكوين المذاهب الفقهية كان به ، ولكيلا يدعيه في عصر نا من لايحسنه ، وقد وجدنا ناسا يحسبون الأمن فرطا من غير ضابط يضبطه ، ولأن الاجتهاد هو الذي تفرعت به الفروع في المذاهب ، وكان به التخريج ، وهو الذي السع به الاستنباط فيها ، ثم تنوع إلى مراتب في العصور المختلفة ، وكان لكل عصر دور م الذي سار فيه ، وقد أخذ بتناقص حتى انتهى إلى تعرف ماتدل عليه الكتب ، ولا بد من بيان ذلك بإجمال .

والاجتهاد معناه بذل غاية الجهد للوصول إلى أمر من الأمور ، أو لبلوغ . السكمال في فعل من الأفعال .

وهو فى اصطلاح علماء الأصول ، بذل الفقيه وسعه فى استنباط الأحكام. العملية من أدلتها التفصيلية ، ويعرف بعض علماء الأصول الاجتهاد في اصطلاحهم بأنه استفراغ الجهد وبذل غاية الوسع ، إما فى استنباط الأحكام ، وإما فى تطبيقها .

وعلى هذا يكون الاجتهاد له شعبتان - إحداها - خاصة باستنباط الأحكام وبيانها ، والثانية خاصة بتطبيق ما استنبط من الأحكام ، وتخريجه الأحكام على مقتضى حوادث الزمان .

والشعبة الأولى هي الاجتهاد الكامل ، وهو الخاص بطائفة العلماء الذين اتجهوا إلى تعرف الأحكام من مصادرها الشرعية ، وقد قال بعض العلماء إن ذلك النوع من الاجتهاد قد ينقطع في زمن من الأزمان ، وهو قول الجمهور ، أو على الأقل طائفة كبيرة من العلماء ، وقال الحقابلة إن هذا النوع لا يصح أن . يخلو عصر منه ، فلا بد من مجتهد يبلغ هذه الرتبة .

والشعبة الثانية من المجتهدين ، اتفق العلماء على أنه لايصح أن يخلو منه عصر من العصور ، وهؤلاء هم علماء التخريج ، وتطبيق قواعد الأحكام على الأفعال الجزئية ، وبهذا التطبيق تتبين أحكام المسائل التي لم يعرف للسابقين المحاب الاجتهاد الكامل رأى فيها .

#### الاجتهاد الكامل

١٧ - نتكلم هذا في شروط المجتهد الذي يستأهل وصف المجتهد اجتهاداً
 كاملا ، وإنه يشترط في هذا المجتهد شروط كثيرة .

أولها -- الدلم بالمربية فقد انفق علماء الأصول ، على ضرورة أن يكون المجتهد على علم بهذه اللغة ، لأن القرآن نزل بها ، ولأن السنة التي هي بيانه جاءت بهذا اللسان العربي ، وقد حدد الغزالي القدر الذي تجب معرفته من العربية ، فقال : « إنه القدر الذي يفهم به خطاب العرب ، وعادتهم في الاستعال ، حتى يميز بين صريح الكلام ، وظاهره ومجمله ، وحقيقته ومجازه . . وعامه وخاصه ، ومحكمه ومتشابهه ، ومطلقه ومقيده ، ونصه وفواه ، ولحنه . ومفهومه ، وهذا لا يحصل إلا لمن بلغ في اللغة درجة الاجتهاد » .

ومن هذا يفهم أن الفزالى يشترط العلم الدقيق والتبحّر فى اللغة حتى يصل المجتهد فى علمه إلى درجة الاجتهاد فيها، وإلى درجة أن يضاهى فى فهمها العربى الأصيل، وليس من شأن العربى أن يعرف جميع اللغة، ولا أن يستعمل كل دقائقها، وكذلك المجتهد فى الأحكام الفقهية، فليس علمه علم استيعاب لحكل مفرداتها، واستعالات قبائلها المختلفة، فإن ذلك ليس فى مقدور أحد، إنما علم المجتهد يجب ألا يتقاصر عن معرفة أسرارها، وذلك لأن الأحكام إنما علم الجتهد يجب ألا يتقاصر عن معرفة أسرارها، وذلك لأن الأحكام التي يتصدى لبيانها \_ وعلؤها الأول القرآن الكربم، وهو أدق كلام الله يتصدى لبيانها \_ وعلؤها الأول القرآن الكربم، وهو أدق كلام

فى العربية وأبلغه ، ولابد لن يستخرج الأحكام منه أن يكون عليها بأسرار البلاغة ليتسامى إلى إدراك مااشتمل عليه من أحكام .

و إنه على قدر فهم الباحث فى الشريعة لأسرار البيان العربى ودقائق مراميه تسكون قدرته على الاستنباط، وإن الشاطبي ليرتب الباحثين فى الشريعة بمقدار مرتبتهم فى فهم السكلام فيقول:

« إذا فرضنا مبتدئا فى فهم الدربية ، فهو مبتدى ، فى الشريعة ، أو متوسطا فهو متوسط فى فهم الشريعة ، والمتوسط لم يبلغ درجة النهاية ، فإذا انتهى إلى الناية فى العربية ، كان كذلك فى الشريعة ، فسكان فهمه فيها حجة ، كاكان فهم الصحاية وغيرهم من الفصحاء الذين فهموا القرآن حجة ، فمن لم يبلغ شأوه فقد نقصه من فهم الشريعة ، مقدار التقصير عنهم ، وكل من قصر فهمه لم يكن حجة ، ولا كان قوله مقبولا() » .

وإن ذلك الكلام معقول فى ذاته ، لأن المجتهد حجة ، يأخذ بقوله غير المجتهد ، ولا يبلغ هذه الرتبة إلا من يكون قد بلغ مرتبة قريبة بمن يكون فهمهم حجة ، وهم الصحابة الأعلام ، والأثمة المجتهدون الذين تلقوا عنهم وتوارثوا علمهم ، وكان كلهم عالما بالعربية بقدر إمامته فى الفقه ، ولقد كذب وافترى حمن ادعى جهل بعضهم بالعربية .

٧٧ - وثانيها - العلم بالقرآن : وهذا شرط اشترطه الشافعي في الرسالة الأصولية التي دون بها علم أصول الفقه ، وذلك لأن القرآن هو عمود هذه الشريعة ، وحبل الله للمدود إلى يوم القيامة ، ومصدر هذه الشريعة ، غير أن علم القرآن واسع ، فهو علم النبوة ، ومن جمعه فقد جمع النبوة بين جنبيه ، كما

<sup>(</sup>١) الموافقات ح ٤ ص ١١٤ طبع التجارية .

قال عبد الله بن عمر رضى الله عنهما ، ولذلك قال العلماء إنه يجب أن يكون عالما بدقائق آيات الأحكام فى القرآن ، وهى نحو خسمائة آية ، وعلمه بها يوجب أن يكون محصلا لمعانيها ، عارفا للخاص والعام فيها ، وبيان السنة لها ، وأن يكون عالما بما نسخت أحكامه منها ، على فرض أن فيه ناسخا ومنسوخا ، وأنه مع علمه الخاص بآيات الأحكام يجب أن يكون عالما علما إجماليا بما عدا ذلك مما اشتمل عليه القرآن الكريم ، فإن القرآن غير منفصل بعضه من بعض ، وقد قال الأسنوى « إن تمييز آيات الأحكام من غيرها تتوقف على معرفة الجميع بالضرورة (١) » .

ولكن هل يشترط حفظ القرآن كله ؟ قال بعض العلماء لايشترطحفظه ، بل يكفى أن يكون عارفا بمواقع آيات الأحكام حتى يرجع إليها فى وقت الحاجة وروى عن الإمام الشافعى أنه اشترط حفظ القرآن كله .

ولا شك أن أقصى درجات العلم بالقرآن ، أن يكون حافظا للقرآن ، حفظاً كاملا ، فاها لمعانيه في الجلة ، دارسا ما اشتمل عليه من أحكام دراسة تفصيلية عالما بآيات الأحكام علما دقيقا ، ملماً بأقوال الصحابة في تفسيرها ، مطلما على أسباب النزول ، يعرف المقاصد والغايات . وقد تصدى بعض العلماء لدراسة آيات الأحكام ، كأبي بكر الرازى الشهير بالجصاص المتوفى سنة ٣٧٠ه ، وكأبي عبد الله القرطبي في كتابه أحكام القرآن ، وغيرها .

٧٧ — وثالثها العلم بالسنة : وهذا شرط قد اتفق عليه العلماء أيضًا ، ويجبأن بكون المجتهد اجتهادًا كاملا على علم بالسنة القولية والفعلية والتقريرية في كل الموضوعات التي يتصدى لدراستها ، وقال بعضهم يجب أن يكون عالمًا بكل السنة التي تشمل على الأحكام التكليفية ، بحيث يكون قارئًا لها وفاهما

<sup>(</sup>١) شرح الأسنوى لمنهاج الأصول ص ٣٠٨ - ٣ على هامش شرح التحرير ب

ومدركا لمراميها ، ويجب أن يكون عالماً بالناسخ والمنسوخ منها ، كا لابد أن يمرف طرق الرواية وقوة الرواة ، يحيث يكون عالماً بأحوال الذين رووا الأحاديث ، ودرجاتهم في العدالة والضبط .

و إن الجمود التي بذلها العلماء في هذه السبيل كبيرة وجليلة ، فقد كتبت الكتب في أخبار الرجال الذين رووا الحديث ودرجاتهم في العدالة والضبط .

وجاءت صحاح السئة فجمعت الصحيح الثابت الذي يرجح صدق نسبته للرسول صلى الله عليه وسلم ، وجاء الشراح فخرجوا الأحاديث واختلاف الفقهاء حولها، وقد رتبت هذه الصحاح بترتيب كتب الفقه ، فأحاديث العبادات في حيز قائم بذاته ، وكل قسم منها له كتاب مستقل ، وكذلك المقود ، والسير ، لكل موضوع منها كتاب مستقل .

وبهذا الجمع يسهل على المجتهد أن يرجع إلى السنة ، وأن يستخرج الأحكام منها . والكن لابد أن يدرس السنة بشكل عام ، وأن يدرس أحاديت الأحكام دراسة عيقة ، بحيث يعرف ناسخها ومنسوخها إلى آخر ما تقتضيه معرفة أحكامها .

ولا يشترط أن يكون حافظًا للسنة المتعلقة بالأحكام ، بل الشرط أن يعرفها ، ويعرف مواضعها ، وطرق الوصول إليها ، وأن يكون عليه الرجال الحديث .

٧٤ - ورابعها - معرفة مواضع الإجماع: ومواضع الخلاف، و إن ذلك شرط بالاتفاق، و إن مواضع الإجماع التي لاشك فيها هي أصول الفرائض كالصلاة، وعدد ركعاتها، وأوقاتها ، والزكاة وأصل فرضيتها ومقاديرها ، والحجم ومناسكه ، والصوم ووقته ، وأصول المواريث ، والحجرمات من النساء وغير ذلك من الأحكام التي تواتر الأخبار بالإجماع عليها ، وهكذا غير ذلك من ذلك من الأحكام التي تواتر الأخبار بالإجماع عليها ، وهكذا غير ذلك من

المقررات الإسلامية التي أجم عليها العلماء من عصر الصحابة إلى عصر الأثمة المجتهدين ومن جاء بمدهم .

وليس المراد أن يحفظ كل مواضع الإجماع حفظا يستظهره في كل أحواله، بل المراد أن يمرف موضع الإجماع في كل مسألة يتصدى لدراستها .

ومع العلم بمواضع الإجماع التى أجمع عليها السلف الصالح ، يجب أن يكون على علم باختلاف الصحابة والتابعين ، ومن جاء بعدهم من الأثمة المجتهدين ، فيعرف منهاج الفقه المدنى ، ومنهاج الفقه العراقى ، ويكون له عقل مدرك حسن التقدير يستطيع أن يوازن بين الصحيح وغير الصحيح ، والقريب من النصوص ، ولقد أوجب ذلك الإمام الشافعى فى الرسالة ، وقال رضى الله عنه : « لا يمتنع عن الاستماع لمن خالفه ، لأنه قد يتنبه بالاستماع لترك الففلة ، ويزداد تثبيتاً فيا اعتقد من الصواب ، وعليه فى ذلك بلوغ غاية جهده ، وإلا لتصاف من نفسه حتى يعرف من أين قال ما يقول ، وترك ما يترك ، ولا يكون بما قال أعنى مما خالف ، حتى يمرف فضل ما يصير إليه على ما يترك . ولا يكون بما قال أعنى مما خالف ، حتى يمرف فضل ما يصير إليه على ما يترك .

وكان أبو حنيفة يقول: أعلم الناس هو أعلمهم باختلاف الناس (أى الفقهاء) فإن دراسة الآراء المتنازعة تجمل نور الحق يلمع من بينها، وكان الإمام مالك إذا التقى بتلاميذ أبى حنيفة سألهم عما كان يقول أبو حنيفة في المسائل التي تعرض له.

وقد وجدت بحمد الله كتب جمعت اختلاف الصحابة ، واختلاف فقهاء الأمصار، وفقهاء المذاهب من أمثال المهذب للشير ازى وشرحه للنووى ،والمغنى لابن عزم ، وبداية المجتهد ونهاية المقتصد لابن رشد ،

<sup>(</sup>١) الرسالة ص ١٥٥.

. وفتاوى ابن تيمية ، وشرح أحاديث الأحكام ، وتفسير آيات الأحكام ، وغير «ذلك ، وبذلك ، وبذلك ، وبذلك ،

خامسها : معرفة القياس :

٧٧ - لابد أن يمرف مريد الاجتهاد بعدد أن تقرر القياس أصلا من أصول الاستنباط ، أن يعرف منهاج القياس السليم ، ويكون عنده علم بالأصول الستنبطة من النصوص التي وردت مبينة الأحكام بقدر يمكنه من أنه يختار من سهذه الأحكام أقربها للموضوع الذي يجتهد فيه ، ويتعرف حكمه ، وإن الملم بالقياس يقتضي العلم بثلاثة أمور :

أولها ، العلم بالأصول من النصوص التي يمكن أن تبنى عليها أحكام غيرها ، والعلل التي لها التأثير في أحكام هذه النصوص، والتي يمكن تطبيقها على الفروع . غير المنصوص على حكمها .

ثانيها — العلم بقوانين القياس وضوابطه .كألايقاس على مايثبت أندخاص محال معينة لايقاس عليها ، وكعرفة أوصاف العلة التي يبنى عليها القياس، ويلتحق بالبناء عليها الفرع بالأصل .

وثالثها -- أن يعرف المناهج التي سلكها السلف الصالح من العلماء في تعرف علل الأحكام، والأوصاف التي اعتبروها أسساً لبناء الأحكام عليها، واستخرجوا بها طائفة من الأحكام الفقهية .

ويقول الأسنوى في معرفة القياس بالنسبة للمجتهد : « لابد أن يعرفه ... ويعرف شرائطه المعتبرة ، لأنه قاعدة الاجتهاد ، والموصل إلى تفاصيل الأحكام اللتي لاحصر لها » (١٠).

## سادسها معرفة مقاصد الأحكام:

٣٨ - يجب أن يعرف المتصدى لاستخراج الأحكام الفقهية مقاصد الشريعة

<sup>(</sup>١) الجزاء الثالث شرح المهاج للأسنوى ص ٣١٠ على هامش شرح التحرير.

الإسلامية ، والفاية التي بعث من أجلها الرسول الأمين محمد صلى الله عليه وسلم المحيلا ينحرف في فهمه عن غايتها فلا يستطيع أن يعرف أوجه القياس ، والأوصاف المناسبة للأحكام الشرعية ، ولا بد أن يعرف المصلحة الإنسانية التي يعدها الشارع الإسلامي مصلحة ، فإن معرفة الصالح الإنسانية أصل من الأصول المقررة الثابتة . لكي يفرق بين المصلحة الوهمية والمصلحة الحقيقية ، وما يقره الإسلام من أمور تنفع الناس ، المصلحة الوهمية والمصلحة الحقيقية ، وما يقره الإسلام من أمور تنفع الناس ، وما يحاربه من أوهام ، وأهوا ، وشهوات ، وكذلك يجب أن يعرف مايكون في الفعل من مصلحة ومضرة ، ويوازن بينهما ، فيقدم دفع المضار على جلب المصالح، وما ينفع الناس على ما ينفع الآحاد ، وإن ذلك أساس من أسس الاجتهاد.

ولقد قرر الشاطبي في كتابه الموافقات ، أن الاجتهاد يرجع إلى أصلين. - أحدها - فهم مقاصد الشريعة . والثانى التمسكين من فهم العربية ، وقال في . الأصل الأول : « إذا بلغ الإنسان مبلغاً فهم فيه عن الشارع قصده في كل مسألة ... من مسائل الشريعة ، وفي كل باب من أبوابها ، فقد حصل له وصف هو السبب . في بلوغه منزلة الخليفة للنبي صلى الله عليه وسلم في التعليم والفتيا والحسكم بما أراه . الله تعالى » .

ويقول: إن العلم بالمربية خادم للأصل الأول وهوالعلم بمقاصد الشريمة، ويتول في ذلك رمى الله عنه: « إن الأصل الأول هو الأساس، والثانى خادم. له ، لأن فهم مقاصد الشارع هو العلم الذى بنى عليه الاجتهاد، والمعارف الأخرى. من لنة ومعرفة لأحكام القرآن تكون تحصيلات عامية »، فلا تنتج استنباطاً عديداً، إن لم يكن على علم كامل بمقصد الشارع ومراميه وغاياته.

ونحن نقول · الأساسان منهلا زمان ، فإن معرفة مقاصد الشارع لايمكن .. أن تحكون من غير النصوص ، والنصوص لايمكن أن تحكون بنيرعلم العربية، فهى متلازمات لا ينفصل بعضها عن بعض ، ولا يصح أن يقال إن مقاصدااشارع...

تنفهم من غير نصرصه ، وإلا يكن ذلك تعطيلا للنصوص ، ويصح أن يقال فى التوجيه كلام الشاطبى إن مقاصد الشارع تفهم من مجرع نصوصه لامن نصواحد البينه ، وذلك حق ، ولمكن فهم الفرض فى جزئى يتوقف عليه فهم النصوص التى تمكون المكليات .

#### سابمها صحة الفهم وحسن البتقدير :

٧٩ - وإن ذلك هو الأداة التي بكون بها استخدام كل الأمور السابقة وتوجيهها ، وتمييز زبف الآراء من جيدها ، وغها من ثمينها ، ويقرر ذلك الشرط الإسنوى فيقول: « يشترطأن بعرف شرائط الحدود والبراهين، وكيفية "ترتيب مقدماتها ، واستنباط المطلوب منها ليأمن الخطأ في نظره » .

وكأنه بهدنا يشترط علم المنطق ، لأنه العلم الذي به يعرف الحد والرسم ، .. ويعرف به البرهان ومقدماته ، وغيرذلك ، فمن العلماء من لم يشترط ذلك العلم .. بالمنطق ، لأنهم نظروا فوجدوا أن فقهاء الصحابة والمتابدين والأثمة المجتهدين .. وصلوا ما وصلوا إليه من الاجتهاد الفقهي، ولم يكن ذلك العلم قد شاعف العربية ، .. ومن المؤكد أنهم لم يكونوا على علم به .

ومن العلماء من قال إنه مكروه ، وقد بغض إليهم ، ومن هؤلاء شيخ الإسلام ابن تيمية ، فقد كتب كتابًا الإسلام ابن تيمية ، فقد كتب كتابًا السماه نقض المنطق ، وألف بعض علماء السنة كتبًا في بيان كراهية ذلك العلم .

و إما قد نوافق على أن العلم بالمنطق ليس بشرط ، ولكنا لانرى أنه مكروه ، بل نراه ثقافة عقلية مميّازة ، وميزاناً ضابطاً يفيد عند المناظرة ، روالدفاع عن الحقائق أمام المنحرفين ، وإن لم يكن ذا فائدة واضحة في استنباط الحقائق الشرعية .

ومع أننا لا نشترط المنطق ، نؤكد ما اشترطه الإمام الشافعي من حسن. الفهم ونفاذ العظر ، ليصل الفقيه إلى إدراك الحقائق.

#### تأمنها صحة النية وسلامة الاعتقاد :

٨٨ -- فإن النية المخلصة تجمل المملب يستنير بنور الله تعالى ، فينفذ إلى البه هذا الدين الحسكيم ، ويتجه إلى الحق لا يبغى سواه ، ولا يقصد غيره ، وإن الله تعالى يلقى فى قلب المخلص بالحسكمة فيهديه ، والشريعة نور لايدركه إلامن أشرق. قلبه بالإخلاص .

وأما فاسد الاعتقاد بأن يكون ذا بدعة أوهوى ، أو لا يتجه إلى النصوص. بقلب سليم ، فإنه قد يسيطر على تفكيره ما يمنعه من الاستنباط الصحيح مهما تمكن قوة عقله ، لأن النية المعوجة تجمل الفكر معوجا ، ولذلك نجد الأئمة . الأعلام الذين ورثوا الأجيال من بعدهم ذلك الفقه العميق ، كانوا بمن اشتهروا بالورع قبل أن يشتهروا بالفقه .

وإن الإخلاص في طلب الحقائق الإسلامية يقربها لطالبها ، فيأخذها أنى. وجدها ، ولا يتعصب ، ولا يفرض أن قوله صواب بإطلاق ، وقول غيره خطأ بإطلاق ، بل يفرض الخطأ في اجتهاده ، كما يفرض الصواب في اجتهاد غيره ، والأثمة الأعلام يقولون : « قولنا صواب يحتمل الخطأ ، وقول غيرنا خطأ يحتمل الصواب » .

وقد نقلنا من قبل أن الشافعي كان يأمر أصحابه بأن يأخذوا بالحديث إذا وجدوه، ولو خالف مذهبه، بل يقول لهم إنه يكون حينئذ مذهبي، فيقول على إذا صح الحديث فهو مذهبي ». وأبو حنيفة كان يقررأن هذا أحسن ماوصل إليه. فمن رأى خيراً منه فليتهمه.

والاجتهادكما قال الشاطبي سمو في التفكير ، وعلو في النفس والعلم ليكون في مكان النبي صلى الله عليه وسلم ، فيبين للناس شرع الله كما ذكره القرآن ، وكما يبنه النبي صلى الله عليه وسلم ، فهل يصل إلى هذه المرتبة السامية من لم يسلم وجمه لله ، ويخلص في طاب الحق في هذا الدين .

۸۱ --- هذه هى الأمور التى أجمع العلماء على اشتراطها فى المجتهد، وقد يقول
 قائل من الذى وضع هذه الشروط، وجعل نفسه حاكا على الاجتهاد وطو اثفه،
 ومن أى شىء أخذها ؟

هذه أسئلة بلا ريب قد ترد في ظاهر الأمر ، وقد أوردها الذين يريدون أن يتهجموا بالاجتهاد من غير أن بكون بأيديهم أدواته ، ولم يؤتوا مؤهلاته ، والإجابة عن هذه الأسئلة أن تلك الشروط إما أن تكون مؤهلاته ، والإجابة عن هذه الأسئلة أن تلك الشروط إما أن تكون بدهية تقرها العقول ، وإما أن تكون من صفات الجتهدين الأولين الذين سنوا طريق الاجتهاد ، ونحن نقبعهم في الاجتهاد من غير تقصير ، فإن اشتراط الإخلاص وحسن النية في طلب الحقيقة ، واشتراط حسن الفهم والتقدير ، واشتراط العلم بمعاني النصوص والقواعد التي تستنبط منها ليمكن القياس عليها ، وكذا اشتراط العلم بمقاصد الشريعة — اشتراط هذا كله تمليه البدهيات العقلية ، ولا يمارى فيها عاقل ، وإلا فكيف يجتهد من لم يؤت حسن التقدير ، وكيف يتهجم على الاجتهاد من لم يكن ذا نية حسنة ، أوكيف يتمرف أحكام الشريعة من لا يعرف مقاصدها ، ولا يدرك القواعد التي يتعرف أحكام الشريعة من لا يعرف مقاصدها ، ولا يدرك القواعد التي تستنبط بها ؟

وأما اشتراط العلم بالمربية والقرآن والسنة ومواضع الإجماع ، فلأن الله المربية كان عندهم علم ذلك ، وهم الذين سلموة

طريق الاجتهاد في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ، وأقرهم عليه ، فاجتهادهم هو الذي يمتبر حجة . ومسالكهم هي السبل التي أقرها النبي صلى الله عليه وسلم ، فالحروج عليها خروج على منهاج الاجتهاد ، وفوق ذلك ، فإن الكتاب والسنة والإجاع ، مصادر في الفقه الإسلامي ، بل هي مصادره ، فكين يجتهد فيه من لا يعرف مصادره ؟ . وإن الذين يريدون الاجتهاد من غير أن يتقيدوا بمصادر الإسلام ، لهم أن يجتهدوا كما يشاءون ، ولكن لا يصح أن يقولوا إن ما يصاون إليه من أحكام الإسلام ، بل هي أهواؤهم ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

### مراتب الاجتهاد

الله الاجتهاد كل الاجتهاد كا قلنا قسمان ، اجتهاد كامل ، وشروطه هى التى عند كرناها ، واجتهاد فى القطبيق وتخريج المسائل على مقتضى ماوصل إليه السابقون من اجتهادهم ، وهذا يسمى التخريج أو الاجتهاد فى المذهب ، وإن فقهاء المذاهب بالنسبة له درجات ، والاجتهاد بالنسبة لهم مراتب ، وكل له مرتبة لا يتجاوزها ، والاجتهاد الكامل أيضاً مرتبتان : مرتبة من يتقيد بأصول مذهب معين ، ومرتبة من لا يتقيد بأصول أى مذهب إلا الأصول المقررة الثابتة التى معين ، ومرتبة من لا يتقيد بأصول أى مذهب إلا الأصول المقررة الثابتة التى لا اختلاف فيها .

وعلى ذلك يكون الاجتهاد مراتب ، وقد عدها الفقهاء سبع مراتب ، منها أربع يمدون أصحابها مجتهدين ، وإن كان أربع يمدون أصحابها مجتهدين ، وإن كان . لهم نوع اجتهاد .

# ١ ــ المجتهدون في الشرع

من مصادرها ، ويسمى أصابها المجتهدين المستقلين . وهؤلاء يستخرجون الأحكام من مصادرها ، فيأخذون من الكتاب والسنة ، ويقيسون على نصوصهما ، ويفتون بالمصالح إن رأوها ، ويحكمون بالاستحسان ، والعقل عند من يقول به إذا لم يكن نص ، وفى الجملة يسلكون كل سبل الاستدلال التي يرونها ، وليسوا في اختيارها تابعين لأحد من أصحاب المذاهب إلا أن يكونوا تابعين للصحابة رضوان الله تبارك وتعالى عنهم ، فقد مدح الله سبحانه وتعالى التابعين لهم بإحسان .

ومن هؤلاء فقهاء التابعين أمثال سعيد بن المسيب ، وإبراهيم اللخمى ،

والفقهاء أصحاب المذاهب كجعفر الصادق وأبيه محمد الباقر ، وأبى حنيفة ، ومالك والشافىي وأحمد والأوزاعي والليت بن سعد ، وسفيان الثورى وغيرهم. كثير ، وبعضهم لم تصلفا مذاهبهم مجمعة مبوبة ، ولكن تجيء آراؤهم في ثناية كتب اختلاف الفقهاء ، فإلك تجدآراءهم منقولة برواية لا دليل على كذيها ، ويرجع صدقها .

وهل يعد أصحاب الأثمة الذين تتلمذوا عليهم ، وتخرجوا في الاستنباط من بجالسهم من هذه الطبقة ؟ ونقول في الإجابة عن هذا : إن بعضهم بلاشك من الطبقة الثانية ، وبعضهم اختلف الفقهاء في عدم منها ، ومن هؤلاء أصحاب أبي حنيفة أبو يوسف المتوفي سنة ١٨٨ ومحمد بن الحسن الشيباني المتوفي سنة ١٨٨ ومحمد بن الحسن الشيباني المتوفي سنة ١٨٨ ، وزفر بن الهذيل المتوفي سنة ١٥٨ فقد عدم ابن عابدين تابعا لغيره من الطبقة الثانية الآتي بيانها ، ولم يهدم من المستقلين ، فيقول في الطبقة الثانية «طبقة المجتهدين في المذهب كأبي بوسف ومحمد وسائر أصحاب أبي حنيفة القادرين على استخراج الأحكام من الأدلة على حسب النواعد التي قررها أستاذه ، فإنهم خالفوه في بعض أحكام الفروع ، لكنهم يقلدونه في الأصول(١) .

۸۳ ــ وهذا الــكلام فيه نظر ، فإن أبا يوسف ومحمدا وزفركانومستقلين. في تفكيرهم الفقهى ، وماكانوا مقلدين لشيخهم بأى نوع من أنواع التقليد ، وكونهم درسوا آراءه وتلقوها عليه ، لا يمنع استقلالهم ، وحرية اجتهادهم ، وإلا يكن كل من يتلقى عن غيره يكون مقلداً ، وتنتهى القضية لا محالة إلىأن. ننزل أبا حنيفة نفسه عن رتبة المجتهدين المستقلين ، وقد ادعى عليه ذلك بالباطل.

<sup>(</sup>١) شرح رسالة رسم المفق ص ١١ .

فإنه ابتدأ دراسته بتلتى فقه إبراهيم النخعى على شيخه حماد بن أبى سليمان هو كان كثير التخريج عايه، وكذلك قال من أراد أن يبخس أبا حنيفة حظه من. الاجتهاد فى الفقه.

وإذا كانت الأصول التي ببني عليها استنباط هؤلاء التلاميذو شيخهم متحدة في أكثرها ، فليست متحدة في كلها ، وحسبهم تلك المخالفة لتثبت لهم صفة الاستقلال : وأنهم إن اتحدوافي طرق الاستنباط فليس ذلك عن اتباع ، بلءن ، اقتداع ، وهذا هو الفارق بين من يقلد ومن يجتهد ، وهو القسطاس المستقيم .

وإن من يدرس حياة أولئك الأنمة يبعد عنهم صفة التقايدولوفى الأصول ، فلهم لم بكتفوا بما درسوه على شيخهم ، بل درسوا من بعده على غيرهم ، فأبو يوسف لزم أهل الحديث ، وأخذ عنهم أحاديث كثيرة ، لعل أبا حنيفة لم يطلع عليها ، ثم هو قد لختبر بالقضاء ، فعرف أحوال الناس ، فصقل ما وافق فيه شيخه بصقل قضائى ، وخالف شيخه متسلحاً بما هداه إليه اختباره للحكم والقضاء بين الناس ، ومن التجنى على الحقائق أن نقول إن ذلك كله قد قاله أبو حنيفة ، وأختاره أبو يوسف من أقواله ، كا يزعم بعض فقهاء الحنفية متعصبين للأستاذ على التلميذ .

ومحمد من الحسن الشيباني لم يلازم أبا حنيفة إلا مدة قليلة في صدر حياته العلمية ، فأبو حنيفة توفي وهو في الثامنة عشرة من عمره ، ثم اتصل بمالك ولازمه علات سنوات ، وروى عنه للوطأ ، وروايته له تعد من أصح الروايات إسنادا فإذا كان مقلدا في الأصول فلاً في الإمامين ، ألأبي حنيفة أم لمالك ، أم لهما معا ؟ في المنطق يوجب أن نقول إنه لا محالة كان غير مقلد ، وكذلك الشأن في شيخه أبي يوسف ، وفي زفر ، فهؤلاء جميعاً مجتهدون مستقلون لا يقلدون لافي الفروع ، ولا في الأصول .

على أنه يجب أن نقرر أن الأصول لم تسكن قد حررت تحريراً كاملاف عهد الله عنه ، حتى يقال إلهم تلقوها عليه ، واتبدوه فيها ، وإيما كانت الأصول تلاحظ عند الاستنباط ، ولا تلقى إلقاء ، وإذا كان قدجرى على السان أبي حنيفة كلام فيما المتزمه ، فهو كلام مجل قد اتفقت عليه مذاهب الأمصار . ولم يختلف فيه أحد .

وغريب أن يقرر ابن عابدين الاجتهاد المستقل لكال الدين الهام ، ولا سيقرره للأثمة الأعلام .

٨٤ – وهنا يثور سؤال ، وهو : أيجوز فتح هذا النوع من الاجتهاد ؟ عقال الشافعية وأكثر الحنفية يجوز ذلك ، ولكن بعض المتأخرين من المذهبين قد قد خلقوه بالفعل ، ولكن يظهر أن الذين غلقوه لم يحكموا التغليق ، فقد قرر ... بعض الحنفية أن ابن الحمام صاحب فتح القدير قد بلغر تبة هذا النوع من الاجتهاد كما أشرنا .

وقد قارب المالكية في هذا -- المذهبين السابقين ، بيد أنهم وإن جوزوا . خاو عصر من العصور من الاجتهاد المطلق المستقل ، قدأ وجبوا ألا يخاو عصر من المجتهدين في المذهب غير المستقلين .

أما الحنابلة فقد تضافرت أقو الهم على أنه لا يجوز أن يخلو عصر من مجتهد ...مستقل ، وقد قال فى ذلك ابن القيم : « هم (أى الحجتهدون المستقلون ) الذين الله عليه وسلم فيهم : « إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها أمر دينها ، وهم غرس الله الذين لا يزال يغرسهم ... فى دينه ، وهم الذين قال فيهم على بن أبى طالب « لن تخلو الأرض من قائم . الله بحجة » .

فالحنابلة بقررون أن باب الاجتهاد بكل أنواعه مفتوح ، وإذا كانت القوى

محتلفة والمدارك متباينة ، فليس لأحد أن يغلق بابه ، وإذا كان الغاس جميعًا اليسوا أهلاله ، بلكل ومداركه ، وكل وما يسبر له ، وليس لأحد أن يدعيه إلا إذا كان له أهلا ، وإن ادعاه ليس بأهل فقد كذب وافترى ، وغره الغرور ، وصار لا يوثق به في دينه ، فضلا عن العلم والاجتهاد .

وإن الحناباة لم يقرروا فقط فتحه ، بل أوجبوا ألا يخلو عصر من مجتهد من المجتهدين ، ولقد قال ابن عقيل من فقماء الحنابلة . « إنه لا يعرف خلافا بين ... المتقدمين في أنه قد يوجد عصر يخلو من المجتهد المطلق ، قابن حمدان الحنبلي . يقول : « ومن زمن طويل عدم المجتهد المطلق مع أنه الآن أيسر منه في الزمن . الأول » (۱) ولقتهم ما قاله ذلك الفقيه الجليل ، فهو يملل كلامه بقوله : « لأن الحديث والفقه قددونا ، وكذلك ما يتعلق بالاجتهاد من الآيات والآثاروأصول ... الفقه والعربية ، وغير ذلك ، لكن الهمم قاصرة ، والرغبات فاترة ، ونار الجد والحذر خامدة ، اكتفاء بالتقليد ، واستعفاء من التعب الوكيد ، وهربا من الأثقال ، وأرباً في تمشية الحال ، وبلوغ الآمال ، ولو بأقل الأعمال ، وهوفوض ... كفاية ، قد أهماوه وملوه ، ولم يعقلوه ليفعلوه » (٢) .

مح... والشيمة الإمامية يقررون أن الاجتهاد أبوابه مفتوحة عندهم، وعند... النظر فى اجتهادهم نجد أنهم يقررون كما أشرنا أن بناء الفقه عندهم على كتاب الله والسنة المروية بطريقتهم، أى عن طريق الشيمة، ويعدون أقوال أثمتهم من السنة، ولا إمامة عندهم لأحد غير الأئمة الذين أقروا لهم بالخضوع، وهم... اثنا عشر، فقول الإمام جعفر الصادق حجة فى الأصول والفروع معاً، وليس...

<sup>(</sup>١) ابن حمدان هذا عاش في القرن السابع الهجرى .

<sup>(</sup>۲) كتاب صفة الفتوى والمفتى والمستفق المطبوع بدمشق الفيحاء سنة ١٩٣٨٠٠ ص ١٧٠.

و إذا غاب الإمام ، وهو غائب إلى اليوم من نحو أحد عشر قرنا ،فإن لهم أن يجتهدوا ، وهم مقيدون في اجتهادهم بأمرين :

أولها - أنه ليس لهم أن يخالفوا في أى فرع مروى عن هؤلاء الأئمة ، ولهم أن يخرجوا على أقوالهم ، ما وسعهم التخريج : فإن لم يجدوا طبقوا ...قضايا العقل ، لأنهم يمتبرون العقل حجة بعد كتاب الله والسنة ، ومنها ...أقوال أئمتهم .

ثانيهما - أنهم مقيدون بأصول أتمتهم لايخرجون عنها قيد أعلة .

وإننا لونظرنا إلى الأمر بمنطقهم، وهو اعتبار أقوال الأئمة من السنة . وليسوا كأثمة المذاهب الآخرى ، كمذهب أبى حنيقة والشافعي ومالك وأحمد . فإن الاجتهاد الذي فتحوه يكون مطلقا .

إما إذا نظرنا إلى أئمتهم كا ينظر الجمهور إلى أئمة المذاهب، فإن اجتهادهم لايكون مطلقاً كاملا، بل إنه لايتجاوز أنه تخريج على أقوال الأئمة ،وخصوصاً الإمام الصادق، فليس اجتهادهم على هذا إلا تخريجاً، لأنهم لايخالفون الأئمة للافى أصول ولا فروع، فليسوا فى الطبقة الأولى ولافى الثانية .

## ٢ - المجتهدون المنتسبون

٨٨ - هذه هي الطبقة الثانية ، ويسمون المنتسبين ، وهم الذين اختاروا ماقرره الإمام بالنسبة لأصول الاستنباط وخالفوه في الفروع ، وإن انتهوا في فروعهم إلى نتائج مشابهة في الجلة لما وصل إليه الإمام ، وهم في الغالب بمن بكون.

لهم به صحبة وملازمة ؛ ومن هؤلاء في المذهب الحنني خالد بن يوسف السمتى ، وهلال ، والحسن بن زياد اللؤاۋى وفي المذهب الشافهي المزنى ، أوفي المذهب اللالكي عبد الرحمن بن القاسم وابن وهب ، وأشهب ، وابن عبد الحكم موغيرهم .

ولم يخل عصر من القرون الأولى التى تلت عصر الأئمة من هـذا الصنف الذى يتقيد بالمنهاج ولايتقيد في الفروع الخاطحاوى والـكرخى ، وأبى بكر الأصم ، فالـكرخى خالف المذهب الحنفي في الأخذ بالـكفاءة في الزواج ، وأبو بكر الأصم خالف المذهب الحنفي وجمهور الفقهاء في إثبـات ولاية الزواج على الصفار ، والطحاوى كان يتبع المنهاج الحنفي ، وأحيانا يختار من المذهب الشافعي.

والخلاصة أن هذه الطبقة تتقيد بالمنهاج المذهبي، وتجتهد فى الفروع ، وتخالف فيها الإمام أو توافقه، فتجتهد فيما اجتهد فيه ومالم يجتهد ، وسمى هؤلاء منتسبين، الأنهم منتسبون لمذهب معين ، وإن لم يتقيدوا بفروعه .

### ٣ \_ الجم للون في المندهب

۸۹ — هذه هی الطبقة الثالثة ، وهم الذین یتبهون إمام المذهب فیما آثر عنه من فروع و أصول ، و یتبهون ما انتهی إلیه ، ولا یخالفونه أصلا ، و إیما اجتهادهم فی استنباط أحکام المسائل التی لم یرد عن إمام المذهب رأی فیها ، وهؤلاء لا یجوز أن یخلو منهم عصر من العصور ، ولیس لهم أن یجتهدوا فی مسائل نص علیها فی المذهب إلا فی دائرة معینة ، وهی النی یکون استنباط السابقین فیها مبنیا علی العرف ، أو علی ملاحظة أمور من أمور العصر لا وجود له ا إلا فی عرف المتأخرین ، ولو رأی السابقون مایری الحاضرون لرجموا عما قالوا ، و یقولون فی هذا و أشباهه إنه اختلاف زمان ، لا اختلاف دلیل و برهان .

وخلاصة القول ، إن الحجتهدين في هذه الطبقة ينحصر اجتهادهم في أمرين . أولها — استخلاص القواعد التي كان يلتزمها الأئمة السابقون ، وجم الضوابط الفقهية التي تتكون من علل الأقيسة التي استخرجها الأئمة .

وثانيهما - استنباط الأحكام التي لم بنص عليها في المذهب.

وهذه الطبقة هى التى حررت الفقه المذهبى ، ووضعت الأسس لنموالمذاهب. والتخريج عليها ، وهى التى وضعت أسس الترجيح ، والموازنة بين الآراء لتصحيح ، بعضها ، وتضعيف غيره ، وهى التى ميزت الكيان الفقهى لكل مذهب .

# ع ــ المجتهدون المرجحون

• ٩ - هذه هى الطبقة الرابعة، وهؤلاء لا يستنبطون أحكام فروع لم يجتهد الأئمة فيها م ولم يبينوا حكمها ، فلا يستنبطون أحكام مسائل لا يعرف حكمها ، ولكن يرجحون بين الآراء المروية بوسائل الترجيح التى ضبطها لهم علماء الطبقة السابقة ، فلهم أن يقرروا ترجيح بعض الأقو ال على بعض بقوة الدليل أو الصلاحية للتطبيق بموافقة أحوال العصر ، ونحو ذلك مما لا يعد استنباطا جديداً مستقلا ، أو غير مستقل .

وإن الفرق بين هذه الطبقة وسابقتها دقيق ، وقد عدها بعض الأصوليين. طبقة واحدة ، وليس ذلك ببعيد عن الحقيقة ؛ لأن الترجيح بين الآراء بمقتضى. الأصول ، لايقل وزنا عن استنباط أحكام الفروع التي لم ترد فيها أحكام عن. الأئمة ، وإن النووى في مقدمة المجموع ذكرها على أنهما طبقة واحدة ، وابن. عابدين في شرح رسالة رسم المفتى عدها طبقتين .

#### ه \_ طبقة المستدلين

٩١ -- وهذه هي الطبقة الخامسة. وهم العلماء الذين لا يرجعون قولا على قول ،
 ولكن يستدلون للأقوال وببينون ما اعتمدت عليه . ويوازنون بين الأدلة ...

من غير ترجيح للحكم ، فيقولون مثلا : هذا أقيس من ذلك ، ويرجحون أيضة بين الروايات ، فيقولون : رواية هذا القول أصح من رواية ذلك .

وإن التفرقة بين هذه الطبقة وسابةتها ليست واضعة أيضا، وإنه لكى تكون الأقسام متميزة غير متداخلة ، يجبحذف طبقة من هذه الطبقات الثلاث التي ذكرها ابن عابدين ، وهي الثالثة والرابعة والخامسة ، واعتبار هذه الثلاث طبقتين اثنتين :

إحداها — طبقة المخرجين الذين يستخرجون الأحكام لمسائل لم ترد فيها أحكام من أصحاب المذاهب الأولين، وتخريجهم يكون بالبناء على قواعد المذهب المقررة الثابتة التي استنبطها من قبلهم .

الثانية — طبقة المرجحين الذين يرجحون بين الروايات المختلفة ، والأقوال المتعارضة ليبينوا أقوى الروايات وبميزوا أصح الأقوال ، أو أقربها إلى السنة أو أوفقها قياسا، أو أرفقها بالناس .

#### ٢\_ الطبقات المقلدة

٩٧ — هذا ، وإن كل الطبقات السابقة مهما يكن عددها ، لـكلواحدة منها ضرب من الاجتهاد ، فالأولى لها اجتهاد كامل موفور ، والثانية لها اجتهاد في الفروع مطلق وليس لها اجتهاد في الأصول ، والثالثة ويدخل فيها الرابعة لها اجتهاد في استخراج الملل وأسباب الأحكام ، والأخيرة منها، لها اجتهاد محدود في تخير الأقوال ، وتخير الروايات وهي في الحقيقة مقلدة ، بيد أن لها تفسيراً في المذهب ، ونشاطاً عقلياً فيه من غيران تتجاوز إطاره ، ويجوزان نقرر لها نوع اجتهاد بالترجيح .

أما الطبقتان الآتيتان ، فهما مقلدتان ، ايس لمها اجتهاد فقهى إلا الجمع والتدوين ، وها :

#### ٣ - طبقة الجفاظ:

٣٥ – هذه الطبقة كما أسلفنا ليست من طبقة المجتهدين ، ولكنهم يحفظون أكثر أحكام المذهب ، ورواياته ، وهم حجة في الفقل لافي الاجتهاد ، فهم حجة في نقل أوضح الروايات في المذهب ، وأقوى الآراء عند الترجيح، ويقول فيهم ابن عابدين : « إنهم لقادرون على النمييزيين الأقوى والقوى والضميف، وظاهر الرواية وظاهر المذهب ، والرواية النادرة ، كأسحاب المتون المعتبرة ، كصاحب الرواية وظاهر المذهب ، والرواية النادرة ، كأسحاب المجتبر المدر المختار ، وصاحب الوقاية ، وصاحب المجمع ، وشأنهم الا ينقلوا في كتبهم الأقوال المردودة والروايات الضميفة » وعلى هذا لا يكون علم ماقام به المرجعون ، وقد يؤدى تعرف ترجيح المرجعين إلى الحكم يينهم ، فقد يرجح بعضهم رأياً لا يرجعه الآخر ، فيختار من أقوال المرجعين أقواها ترجيحاً ، وأكثرها اعتادا على أصول المذهب ، أو ما يكون أكثر عدداً ، أو ما يكون صاحبه أكثر حجية في للذهب ، أو ما يكون أكثر عدداً ،

وهؤلاء لهم حتى الإفتاء ، كالسابقين ، ولكن فى دائرة ضيقة ، ولقد قال الخير الرملي فى فتاويه :

« ولا شك أن معرفة راجح المختلف من مرجوحه ، ومراتبه قوة وضعفاً هو نهاية مآل المشمرين في تحصيل العلم ، فالمفروض على المفتى والقاضى التثبت في الجواب ، وعدم الحجازفة فيه خوفا من الافتراء على الله تعالى بتحريم حلاله أو ضدة » (1).

<sup>(</sup>١) الفتاوى الحيرية ج ٢ ص ٣٣١ طبع الأميرية .

عه - هذه الطبقة مع اشتراكها في التقليد مع السابقة ، إلا أن السابقة لها انوع تصرف في معرفة مارجحه المتقدمون ، وترتيب درجات ترجيح السابقين أحيانا ، أما هؤلاء فليس لهم إلا فهم الكتب التي اشتمات على الترجيح ، وفلا يستطيعون الترجيح بين الأقوال أو الروايات ، ولم يؤتوا علما بترجيح المرجعين ، وتمييز طبقات الترجيح ، وقد وصفهم ابن عابدين بقوله : « لايفرقون بين الفث والثمين، ولايميزون الشمال من اليمين، بل يجمعون ما يجدون كحاطب اليل ، فالويل لمن قلدهم كل الويل » (1).

و إن هذا الصنف الذى ذكره ابن عابدين قد كثر فى العصور الأخيرة ، ... فهم يمكفون على عبارات الكتب لايتجهون إلا إليها ، والالتقاط منها ، من غير تعرف لدليل مايلتقطون ، بل يكتفون بأن يقولوا ، هناك قول بهذا ، وإن ... لم يكن له وجه من الشرع معقول .

وقد كان هذا الفريقله أثر في البيئات والطبقات التي تحاول أن تجد مسوغا لما تفعل ، فيسارع هؤلاء إلى قول ، يجدونه أياكان قائله ، وأياكانت قيمته ، وأياكانت قوته في المذهب ، وليس له دليل واضح ، أو تفكير راجح ، ثم ينثرون ذلك نثرا في المجالس ، فالويل لمؤلاء ، والويل لمن اتبعهم ، والويل لمن يشجعهم .

ه وقبل أن نترك هذا الموضوع ، نقرر ما أسلفنا من رأى الفقها والذبن وقرروا أن باب الاجتهاد الكامل لم يفلق، وخصوصاً رأى الحنابلة، إذ قالوا إنه الايسح أن يخلو عصر من مجتهد قد استوفى شروط الاجتهاد الكامل ، فإنه . بذلك يصان للدين، ويحمى من افتراء المقترين، ويكون فى الإمكان بيان جوهره

<sup>(</sup>١) رسالة شرح رسم المفق .

صافيًا نقيًا فى كل عصر من العصور بالرجوع إلى مصادره الأولى من غير حواجز : تحول دون ذلك ، و يمكن بذلك تطبيق أصوله من غير انجراف عن منهاجها ... ولا تزيد على أحكامها ، ولا خلع للربقة الدينية .

ولا يسوغ لأحد أن يغلق باباً فتحه الله تعالى للمقول ، فإن قال قائل ذلك ، فمن أى دليل أخذ ، ولماذا يحرم على غيره ما يبيحه لنفسه ، وإن ذلك التغليق... قد أبعد الناس عن السكتاب والسنة وآثار السلف الصالح ، حتى لقد سساخ لبمض من أفرطوا في التقليد أن يقول في مجلس علمي ، إن دراسة تفسير القرآن والحديث لا حاجة إليها بعسد أن أغلق باب الاجتهاد ، ولا حول ولا قوة ... إلا بالله .

# تجزئة الاجتهاد

هل بجب أن يكون الاجتهاد عاماً غير مقيد ، بمعنى أن من استوفى شروط ... الاجتهاد يجبأن يكون مجتهداً فى كل الأحكام الشرعية العملية . لأن الاجتهاد درجة فقهية من وصل إليها فقد أحاط علماً بالأصول والمقاصد ، ولا يقتصر اجتهاده على موضع دون موضع ، ولأن الشريعة متصلة الأجزاء ، فلا يجتهد فى جزء منها إلا من يحيط علماً بكلها ، إذ هى متآخية متصلة ، فلا يستطيع فهم المعاملات إلا من يعرف العبادات حق المعرفة ، ولأن الاجتهاد بعد استيفاء شروطه يصير عند المجتهد ، كالملكة الفقهية ، ينفذ بها فكر المجتهد فى كل ... مسائل الشريعة .

وبهذا النظر أخذ جمهور الفقهاء ، فالاجتهاد عندهم لا يتجزأ ، فلا يقال إن المجتهد في الأنكحة ، ويقلد في العبادات ، أو يجتهد في العبادات ويقلد في البيوع أو الأنكحة ، فإن ذلك جمع بين الضدين ، إذ الاجتهاد والتقليد معنيان متضادان لا يجتمعان في شخص واحد ، وهل يتصور أن فقيما يكون عالماً بمناهج .

\* الله السليم غير الحادر على تطبيقه في أحكام الأسرة ، ويستطيع تطبيقه في المعاملات المالية ، نعم قد يكون علمه يجميع الأدلة في باب دون علمه في آخر من الأبواب ، ولسكن ليس معنى ذلك نزوله عن مرتبة المجتهد إلى مرتبة المقلد .

ولقد قال بمض للالكية ، وبعض الحنابلة كما قال الظاهرية : إن الاجتهاد يتجزأ ، فمن علم دليل موضوع من للوضوعات ، وأحاط به خبراً ، وكان على علم بأسايب السربية ، وفهم النصوص ، يصح له أن يجتهد في هذا الجزء ، ولا ينافي أصلا من الأصول المقررة .

ولا مورد للاعتراض بأنه يصير مقلدا ومجتهدا مماً ، لأنه مجتهد فيا يعرف من أدلة ، ويَأخذ برأى غيره مع الفهم والدراسة والفحص ، فيا لا يعلم أدلته . والذين أجازوا تجزئة الاجتهاد يقررون أنه يجب أن يكون المجتهد ولو فى جزء على علم بكل وسائل الاجتهاد ، وعنده أهليته ، ولكن ربما يكون قد علم بأدلة بعض الموضوعات ، ويغيب عنه العلم بالدليل في الموضوعات الأخرى ، فيفتى فيا علم دليله ، وما لم يعلم دليله مع وجود كل المؤهلات الأخرى يتوقف مفيفتى فيا علم دليله ، وكذلك كان كثيرون من الأئمة يجيبون بقولهم : لا أدرى ، فيه حتى يعلم ، وكذلك كان كثيرون من الأئمة يجيبون بقولهم : لا أدرى ، يؤذا لم يُعلموا الدليل ، وهذا مالك رضى الله عنه قد أجاب في ست وثلاثين مسألة . بقوله : «لا أدرى» ، وما قال ماقال إلا لفقده العلم بالدليل ، ولم يزل عنه وصف « يقوله ، بل إنه إمام دار الهجرة حقاً وصدقاً .

الإفتاء أخصمن الاجتهاد، لأن الاجتهاد هو استخراج الأحكام الفقهية من مصادرها، سواء أكان فيها سؤال أم لم يكن ، كماكان يفعل أبو حنيفة في دروسه عندماكان يفرع التفريعات الختلفة، ويفرض الفروض الكثيرة.

أما الإفتاء ، فإنه لا يكون إلا عند السؤال عن حكم واقعة وقعت ، أو بصدد الوقوع فيها ، ومعرفة حكمها .

والفتوى الصحيحة التي تكون من مجتهد -- تقتضى شروط الاجتهاد، وتقتضى معها شروطاً أخرى، وهي معرفة واقعة الاستفتاء، ودراسة حال المستفتى، والجماعة التي يعيش فيها، ليعرف المفتى مدى أثرها سلباً وإيجاباً ، حتى لا يتخذ دين الله هزواً ولعباً، ولا يتخذ الفتوى ذريعة عند بعض النفوس... لاستباحة ماحرم الله سبحانه وتعالى.

ولذلك شدد العلماء فىشروط المفتى ، وقدروى عن الإمام أحمد بنحنبل. أنه قال فى شروط المفتى .

« لا ينبغي المرجل أن ينصب نفسه للفتيا حتى يكون فيه خس خصال :

أولاها — أن تكون له نية ، فإن لم تكن له نية لم يكن عليه نور ، ﴿ وَلاَ عَلَى كُلَامُهُ نُورٍ . وَلاَ عَلَى كُلامُهُ نُورٍ .

والثانيــة — أن يكون على علم وحلم ووقار وسكينة .

والثالثــة - أن يكون قوياً على ماهو فيه ، وعلىمعرفته .

والرابعة — الكفاية و إلا مضغه الناس .

والخامسة - معرفة الناس » .

ونرى من هذا أن الإمام أحمد يوجبعلى المفتى أن يلاحظ نفسية المستفتى...

كا يوجب أن يكون للمفتى سمتحسن عند الناس ، كا لابد أن يكون له بصيرة فافذة يدرك بها أثر فتواه ، وانتشارها بين الناس ، فإن رأى أن أثر الفتوى قد يكون سيئاً كف ، وإن رآه حسناً تسكلم .

وليملم المفتى أنه هاد مرشد ، وأن فتواه مدار لإصلاح الناس ، وقد قال الإمام الشاطبي في ذلك : « المفتى البالغ ذروة الدرجة هو الذي يحمل الناس على المعهود الوسط ، فما يليق بالجمهور ، فلايذهب بهم مذهب الشدة ، ولا يميل بهم إلى طرف الانحلال »(1).

ويعلل ذلك رضى الله عنه بأن الاتجاه إلى أحد الطرفين خارج عن نطاق المدل، منتصرف إلى ناحية الظلم، ويقرر أن طرف الشدة يؤدى إلى التهاركة ، وطرف التسامح يؤدى إلى فك عرا الإسلام.

وإن باب الرخص التي سهل الله بها لعباده كإباحة الفطر في رمضان ، وإباحة الحظورات عند الضرورات ، أو الحاجيات ـ مفتوح بين يدى المفتى يمالج به حال الناس ، إذا رأى أن الأخذ بالعزائم ، وهي ماشرع ابتداء كالصوم في رمضان مثلا ـ قد يؤدى إلى الحرج والضيق ـ وان الله يحب أن تؤتى رخصه ، كا يجب أن تؤتى عزائمه ، فإنه في الحال التي تؤدى فيها العزيمة إلى الضيق تكون الرخصة أحب إلى الله من العزيمة ، لأن الله تعالى يريد اليسر بهم .

٩٨ -- هذا وإذا كان المفتى لم يبلغ ذروة الاجتهاد بأن لم يستوفشروطه فهل له أن يختار من أقوال المذاهب ما يكون أيسر للناس ، كما كان احتلاف الصحابة سبباً لمنع الضيق ، بأن يختار المفتى من أقوالهم مايراه أيسر ؟ .

لاشك أن المفتى إذا كان له قدر من الاجتهاد يستطيع أن يميز بين الأدلة

<sup>(</sup>١) الموافقات ح ٤ ص٢٥٨ طبع النجارة .

ويتخير من المذاهب على أساس الاستدلال ، فإن له أن يتخير في فتواه ما يراه أنسب ، ولسكن يقيد نفسه بشروط ثلاثة: \_ أولها \_ ألا يختار قولا متهافتاً في دليله ، ، بحيث لو اطلع صاحبه على أدلة غيره المدل عنه \_ وثانيها \_ أن يكون فيا اختاره صلاح للناس ، وسير بهم في طريق وسط لا يتجه إلى طرف الشدة ، ولا طرف الانحلال \_ وثالثها \_ أن يكون حسن القصد في اختيار ما يختار ، فلا يختار لإرضاء حاكم ، أو لهوى الناس ويتجاهل غضب الله تعالى ورضاه ؛ فلا يكون كأولئك المفتين الذين يتمرفون مقاصد الحكام قبل أن يفتوا ، فهم يفتون لأجل الحكام ، لا لأجل الحق ، ولقد رأى الناس من بعض المفتين أنه يتبع مواضع التسامح بالنسبة للحاكم ولمنفسه ، ومواضع التشدد بعض المفتين أنه يتبع مواضع التسامح بالنسبة للحاكم ولمنفسه ، ومواضع التشدد بالنسبة للناس ، فيختار لنفسه من المذاهب أيسر الآراء ، ويختار لغيره آراء مذهبه الذي يتبمه ، ولو بلغ أقصى الشدة .

ويحكى الشاطبى فى كتابه الموافقات قصة فقيه كان يفتى بالأندلس ، حجر عليه فى الفتيا ، لأمور أخذت عليه ، واستمر ممنوعاً من الإفتاء إلى أن حدثت واقعة أفتى فيها فتوى لحاكم مرضاة له ، لا مرضاة لله .

وخلاصة هذه الفتوى ، أنه كان بجوار قصر الناصر أمير الأندلس ـ وقف كان يتأذى من منظره ، إذا نظر إليه من قصره ، إذ كان مقابلا للمتنزه الذى يتنزه فيه ، فرأى أن يموض الوقف ، ويضمه إلى المتنزه ، وأرسل إلى بق بن مُخلد كبير المفتين والعلماء . فجمع العلماء ليجمعوا على رأى ، فأجمعوا على منع بيع الوقف ، كما هو مذهب الإمام مالك . ويظهر أنهم طووا فى نفوسهم أمراً آخر ، وهو أن يفطموا نفس الأمير ، ويخففوا من شهواته ، فلما أعلنوا فتواهم تبرم بها ، وعلم الفقيه المحجور عليه ، واسمه محمد بن يحيى ابن لبابة . فأرسل إلى الأمير يبيح له ماأراد ، أخذا من مذهب الحنفية الذى

ييسوغ بيع الموقوف واستبداله ، فجمع الأمير ذلك الفقيه بالعلماء ، وعقدت اللشورى بينهم ، فأصر الفقهاء على رأيهم ، فقال لهم الفقيه المتساهل لأجل الحكام مخاطبا العلماء .

« ناشدت کم الله العظیم ، ألم تنزل بأحد مد کم ملمة لحمّت بکم أخذتم فیها بقول غیر مالك فی خاصة أنفسکم ، وأرخصتم لأنفسکم ؟ قالوا . بلی . قال : فأمیر المؤمنین أولی بذلك ، فخذوا به مآخذ کم ، وتعلقوا بقول من یوافقه من العلماء ، وكلهم قدوة ، فسكتوا » فأرسل القاضی إلی الأمیر بصورة ما جری فی المجلس فأخذ بفتیا ذلك الفتیه ، وعوض الوقف بأضعاف كثیرة (۱) .

٩٩ - ويجب حينئذ على من يتخبر المذاهب أن يلاحظ الأمور الآنية إن كان قد أوتى النية الحسنة :

أولها \_ أن يتبع القول لدليله ، فلا يختار من المذاهب أضعفها دليلا ، بل يختار أقواها ، ولا يتبع شواذ الفتيا ، وأن يكون على علم بمناهج المذهب الذى يختار منه ، وإن ذلك يقتضى أن يكون مجتهدا فى أى رتبة من مراتب الاجتهاد . ولا ينزل إلى رتبة التقليد . ومن هذا النوع ابن تيميه فى اختياراته ، فإن لم تكن عنده مقدرة اجتهادية فأولى به أن يقتصر على مذهبه الذى يدلمه إن كان قد بلغ درجة الإفتاء فيه .

ثانيها — أن يجتهد في ألا يترك المجمع عليه عندالجمهور إلى المختلف فيه ، فمثلا إذا سئل عن تولى المرأة عقد زواجها بعفسها لايفتى بقول أبى حنيفة الذى انفرد به من بين الجمهور ، بل يفتى بقول الجمهور ، لأن العقد يكون صحيحا بإجماع الفقهاء . ولا مانع من أن يبين قول أبى حنيفة ، ويترك للمستفتى الخيار مع بيان

<sup>(</sup>١) القصة كلها في الموافقات ج ع ص ١٣٩ .

وجه اختياره رأى الجمهور ، باعتبار أنها مسألة دقيقة فى الحلال والحرام يؤخذ. فيها بالاحتياط .

وإذا كانت المسألة خلافية ، احتاط للشرع واحتاط المستفتى من غير خروج ، فمثلا إذا سأله رجل يريد زواج امرأة قد رضعت من أمه رضعة واحدة ــ أفتاه بمذهب أبى حنيفة ومالك اللذين يمدان قليل الرضاع محرما ولوكان مصة ، وإن كان السائل قد وقع قى البلوى وتزوج امرأة بينهما رضاعة لم تصل إلى خس رضعات ولم تملم الواقعة إلا بعد أن أعقب منها أولادا ، فإن للاحتياط للأولاد يسوغ له الإفتاء بالحل مختارا ذلك من مذهب الجمهور ، والكن شرط ذلك أن تكون الأدلة قد تراجعت الديه ، ولا يرى واحداً منها قاطعا في الموضوع .

الأمر الثالث ــ ألا يتبع أهواء الناس. بل يتبع الصلحة والدليل ، والمصلحة المعتبرة مصلحة العامة ؟ وما تؤدى إليه الفتيا بين تحليل وتحريم ، فهذا الفقيه الذى الحنفية الذى يسوغ بيع الموقوف مسايرة للأمير واعتبر رؤية وقف غير حسن المنظر ملمة نزلت بالأمير ــ كان الأولى به أن يشير على الأمير بإصلاح الوقف ليكون منظره جميلا بدل أن يساير رغبة الأمير إلى أقصى مداها .

به ، فإنه إذا كان يترخص لنفسه بأمور لا يبيحها للناس ، فإن ذلك يققده العدالة إذا كان الترخص لنفسه بأمور لا يبيحها للناس ، فإن ذلك يققده العدالة إلا إذا كان الترخص بسبب شخصى حاجى ، لو تو افر فى غيره لأفتاه بمثل ما برخص به لنفسه .

ويجب أن يتأنى ولا يتسرع ، وأن يتفكر ويتدبر فى الأمروفى نتائج الفتوى. كما أشرنا من قبل ، ولا عيب عليه فى هذا التأنى مالم يكن متتبتا من الحق ، والأمر لا يسوغ ممه التأجيل والتسويف . ولقد كان إمام دار الهجرة مالك رضى الله عنه ، يتأنى في فتياه ، حتى أنه يقضى ... أياما فى دراسة مسألة من المسائل . وقال فى ذلك : « ربما وردت على مسألة من المسائل تمنعنى من الطعام والشراب والنوم ، فقيل له : يا أباعبدالله ، والله ما كان . كلامك عند الناس إلا نقرة على الحجر ، ما تقول شيئا إلا تلقوه منك ، قال تفن أحق أن بكون هكذا إلا من كان هكذا « أى ما تلقى الناس كلامه بالقبول . إلا لما رأوه منه من التأنى ، وعدم الخبط خبط عشواء » .

وفى الحق إن المفتى الأمين قائم بعمل هو عمل الأنبياء ، فالأنبياء كانوا المقومون ببيان ما يحل ويحرم ، والمفتى ينقل للناس ما هوشرع النبى ، فهو جالس . في مجلسه ، وهو وارثه فى بيان شرعه للعامة ، فلا يجمل لهواه موضعا ، ويتوقف حيث لا يجب التقدم ، وينطق بالحق إن بدت معالمه ، لا يخشى فى الله لومة لائم اللهم جنبنا الزلل ، واجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه . إنك يارب العالمين سميع الدعاء .



Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المون والمحالة وعصره - آراؤه وفقهم



## أبو حنيفة

( ولد عام ٨٠ ، وتوفى عام ١٥٠ للهجرة )

۱ -- دخل الإسلام خراسان وفارس ، واستولى على كل أرض العراق وما موراءه ، وأسر من أكبرهم نبلا ومحتدا وجاها \_ كثيراً من الرجال . وكان فى أولئك الأسرى رجل من الأثرياء ذوى النبل ، فارسى الأرومة ، شريف بينهم اسمه ، زوطى ، ولقد كان من سماحة المجاهدين الأولين أن يمنوا بدل أن يسترقوا . . . وإن استرقوا سهلوا سبيل الإعتاق ، أخذاً بأوامر الدين الحنيف واقتداء بالهدى المحمدى الشريف ، وكانوا يؤثرون المحبة والمودة على الاستملاء والاستكبار .

ولذلك لم يستمر زوطى كثيراً فى أسره أو رقه ، بل أطلق سراحه حراً من بعد أن أسر أو استرق . وقد كان من بعد ذلك ولاؤه لبنى تيم بن ثعلبة ، وهم قبيلة من العرب غير التيميين من قريش . وإذا كان الله قد من بالحرية على ذلك الرجل الكريم ، فقد من عليه سبحانه بنعمة أجل وأعظم ، هى نعمة الإسلام ... فقد أسلم وحسن إسلامه ، وانتقل من بلده الأصلى «كابل » إلى أقرب الحواضر الإسلامية من فارس ، وهى الكوفة .

وقد التقى ، وهو بالكوفة ، بإمام الهدى على بن أبى طالب كرم الله وجهه . وكان له به مودة ظاهرة ، وقد أهدى إليه كرم الله وجهه « فالوذجا فى عيد النيروز » ، وهذا يدل على قوة صلته بالإمام العظيم ، وعلى أنه كان فى سعة من الرزق ، وعلى أنه تعلق ببيت النبى الكريم .

وقد ولد له على الإسلام ولده ثابت ، فكان على اتصال بالإمام على كرم الله وجهه كأبيه من قبله ، وقد ذكرت الروايات المتضافرة أن على بن أبى طالب الإمام النقى دعا لثابت بأن يبارك له فى ذريته .

و إن الله تعالى قداستجاب لدعائه، فكان منه النعان بن ثابت فقيه العراق». و إن شئت فقل فقيه الإسلام. فهو الذى قال فيه الشافعي رضى الله عنه: «الناس. في الفقه عيال على أبى حنيفة». وقد أطاق التاريخ عايه اسم أبى حنيفة، فبهذه. الكنية ذاع واشتهر، وتناقات الأجيال، جيلا بعد جيل اسمه وعلمه وفكره.

### نشأته :

٧ — نشأ أبو حنيفة بالسكوفة ، وعاش أكثر حياته فيها ، ولقد أنجه في أول حياته إلى استحفاظ القرآن السكريم كما هو شأن المقدينين في هذا العصر، ولقد كان بعد أن حفظه حريصاً على ألا ينساه ، ولذا كان من أكثر الناس. تلاوة للقرآن ، حتى أنه كان يختم القرآن مرات كثيرة في رمضان . وقد جاء من عدة طرق بروايات مختلفة « أنه أخذ القراءة عن الإمام عاصم ، أحد القراء السبمة » . و بعد أن حفظ القرآن السكريم في نشأته اطلع على السنن التي . يصحح بها دينه .

ولقد كانت نشأة أبى حنيفة ، رضى الله عنه ، فى بيت من بيوت التجارة . بالكوفة ، إذ كانت أسرتة تتجر فى الخز ، ولهذا كانت تجذيه نحو التجارة . ومع ما كانت عليه حال أسرته ، كانت فيه نزعة عقاية تتجه إلى الدر اسات العقلية ، وكان أبوه وجده من قبله — باتصالها بالإمام على كرم الله وجهه — لهمامنزع ، يتجه نحو تعرف الإسلام ، ذلك الدين الجديد الذى ملائت ضياؤه آفاق الشرق والغرب ... ثم هو كان بالكوفة ، بها ولد، وبها نشأ ، وبها عاش ، وهى إحدى . مدن العراق العظيمة ، بل ثانية اثنتين ها المصران العظهان فيه فى ذلك الوقت .

" - والعراق من قبل الإسلام ومن بعده ما كانت فيه الملل والنحل.... إذ كان موطنا لمدنيات وحضارات قديمة، وكان السريان قد انتشروا فيه، أنشئوا لهم مدارس به قبل الإسلام ، كانت مثابة لفلسفة اليونان وحكمة الفرس. وكان.

العراق بعد الإسلام مزيجامن أجناس مختلفة، وكانت فيه آراء تتضارب في السياسة وأصول العقائد . . . فيه الشيعة ، وفي باديته الخوارج ، وفيه الممتزلة . وكان فيه ـ في عصر أبى حنيفة \_ تابعون مجتهدون التقى بهم ، ومن قبلهم كان فيه عبد الله ابن مسعود الذى بعثه عر إليهم ليملهم الفقه ، ويهديهم للسبيل الأقوم . . . . وكان فيه إمام الهدى على بن أبى طالب كرم الله وجهه .

فتحت عين أبى حنيفة فرأى ، مع النزعة التجارية في أسرته ، علم العراق وآثار الصحابة فيه ، وأشع عقله ، فانبثقت ينابيع فسكره ، فأخذ يجادل مع المجادلين ، و نازل بعض أصحاب النحل بما توحى به السليقة المستقيمة، وكانذلك في بواكير شبابه ، أو في آخر صباه . . . ولكنه مع ذلك كان منصر فا في الجملة إلى التجارة حرفة أسرته ومرتزقها ، ويظهر أنه ماكان ليختلف إلى العلماء إلاقليلا في أو فات فراغه ، وقد كرس حياته على أن يكون تاجراً كأبيه . . . وإذا كان المال مغرياته فللعلم نوره واجتذابه ، ولذا كان يشبع نهمته العقلية بقدر ماتسمح به حياته التجارية .

## إلى العلم والعلماء :

استمرت هذه حاله حتى استرعى ذكاؤه أنظار العلماء ، فضنوا على التجارة أن يكون لها بكله ، فكانوا يحرضونه على العلم والاتجاه إليه والاختلاف إليه ... يروى عنه أنه قال : «مررت يوماً على الشعبى ، وهو جالس ، فدعانى ، فقال لى: إلى من تختلف ؟ فقلت : أختلف إلى السوق ، فقال: لم أعن الاختلاف إلى السوق ، عنيت الاختلاف إلى العلماء ، فقلت له أنا قليل الاختلاف إلى العلماء ، فقال لى : لا تفعل ، وعليك بالنظر فى العلم ومجالسة العلماء ، فإنى أرى فيك يقظة وحركة . . . قال : فوقع فى قلبى من قوله ، فتركت الاختلاف إلى السوق ، وأخذت فى العلم ، فنفعنى الله بقوله » .

( ۱۰ \_ تاریخ الذاهب )

انصرف أبو حنيفة إلى العلم في أكثر وقته ، وترك الاحتلاف إلى الأسواق كثيراً ، فقد علمها وسبر أغوارها ، وبقى العلم ، فسبر أغواره . . . وإنه لعميق . فانصرف إليه بأكثر وقته ، وأصبح لايختلف إلى السوق إلا قليلا . . فليس معنى انصرافه للعلم ، انقطاعه عن التجارة . ويظهر من الأخبار أنه كان يدير تجارته بالإنابة فيها مع الأشراف عليها ، كما سنشير إن شاء الله عمالى ، فكان لا يختلف إلى السوق إلا بمقدار ما يعرف به سير متجره .

وبعد أن آنجه إلى العلم يجد ما يملاً نزعة الجدل التي مرس بها صغيرا إلا علم السكلام الذي كان يجادل فيه الممتزلة، والذين يتكلمون في العقائد والنحل المحتلفة ولذلك كان اتجاهه إلى السكلام، فأخذ يذاكر العلماء في شئون العقائد، ويقوم بالرحلات المحتلفة إلى البصرة ليجادل المعتزلة ويتعلم ما عندهم، ويجادل الخوارج، ويتعرف فكره . . . وهكذا استمر يتعرف ماعند الفرق المختلفة ، ولكن قلبه النيركان يثور أحيانا كثيرة لأنه يسير على غير منهاج السلف ، وأنه يشغل نفسه عايثير الجدل ولا يفيد . وقد تلفت فوجد حلفات الفقه التي يملؤها علماؤه تقيدون طلناس في أمور دينهم ويعلمونهم النافع العملي ، لا الجدل النظرى .

### إلى الفقه:

٥ - راجع أبو حنيفة نفسه فى أمر العلم الذى يتنهى إليه فرآه الفقه ؟ ولنتركه يذكر حديث نفسه ، فقد قال : « راجعت نفسى ، وتدبرت ، فقلت إن المتقدمين من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم والتابعين ، لم يكن ليفوتهم شىء مما ندركه نحن ، وكاوا عليه أفدر وبه أعرف ، وأعلم بحقائق الأمور . شم لم ينتصبوا فيه منازعين ولا مجادلين ، ولم يخوضوا فيه ، بل أمسكوا عن ذلك ، ونهوا عنه أشد النهى . ورأيت خوضهم فى الشرائع وأبواب الفقه ، وكلامهم فيه : إليه تجالسوا ، وعليه تحاضوا . كانوا يعلمونه الناس ، ويدعونهم إلى فيه : إليه تجالسوا ، وعليه تحاضوا . كانوا يعلمونه الناس ، ويدعونهم إلى

تعلمه ، ويرغبونهم فيه ، ويفتون ويستفتون . وعلى ذلك مضى الصدر الأول ممن السابقين ، وتبعهم الناس عليه . فلما ظهر لى من أمورهم هذا الذى وصفت، تركت المنازعة والجادلة والخوض فى السكلام ، واكتفيت بمعرفته ، ورجعت إلى ماكان عليه السلف ، وجالست أهل المعرفة ، وإلى رأيت من ينتحل السكلام . و يجادل فيه ، قوم ليس سياهم سيا المتقدمين ، ولا منهاجهم منهاج الصالحين . . رأيتهم قاسية قلوبهم ، غليظة أفتدتهم ، لا ببالون نخالفة السكتاب والسنة والسلف ، الصالح ، ولم يكن لهم ورع ولاتق » .

٣ - آنجه أبوحنيفة إلى الفقه، وقد درس علم الكلام وهو الذي يتصدى لبيان العقيدة ، ويثبت حقائق التوحيد بالأدلة العقلية . . وكان قد حفظ بعض الحدبث وعرف النحو والأدب ، وقد استفاد من هذا كله ثقافة واسعة غذت فكره . ولما أنجه إلى الفقة و الحديث بقلبه وعقله و بكله كان على بينة من الأمر، و بصر بالحقائق . ومع أنه ابتدأ حياته متكلا ، كان ينهى أصحابه و بنيه عن أن يجادنو ا فيه ، وقد رأى في كبره ابنه حمادا يفاظر في الكلام ، فنهاه ، فقال الابن لأبيه الحكيم : «كنت تناظر فيه و تنهانا عنه » . فقال : «كنا نفاظر ، وكان على ر عوسنا الطير محافة أن يزل صاحبنا ، وأنتم تفاظرون ، و تريدون زلة صاحبكم . ومن أراد أن يزل صاحبه فقد أراد أن يكفر ، ومن أراد أن يكفر صاحبه فقد كمقر قبل أن يكفر صاحبه » .

## في ميدان العلم والفقه:

√ — انصرف أبو حنيفه فى دراساته العلمية إلى الفقه ، واستخراج الأحكام
 رسن الكتاب والسنة والبناء عليهما وتتبع آثار السلف الصالح ، وتعرف ماكان

<sup>(</sup>١) مناقب أي حنيفة ، لابن النزازى . ج ١ ، ص ١١١ .

موضع اتفاقهم، وما جرى فيه اختلافهم، لا يخرج من أقوالهم، ولكن يختار. من بينها . . ولكن عن أخذ الفقه ؟ لقد سئل هو هذا السؤال ، فأجاب تلاكنت في معدن العلم والفقه ، فجالست أهله ، ولزمت فقيها من فقهائهم » . ومعدن العلم الذى يشير إليه هو الكوفة ، فقد آل إليها علم على بن أبى طالب، وعلم عبد الله بن مسعود ، وطائفة من كبار الصحابة ، وتبعهم فى ذلك علقمة التابعى ، وإبراهيم النحى ، وكان فيها فقه القياس والتخريج .

والمهارة التى قالها ذلك الإمام الحسكيم تنبىء عن أن المتعلم لا يستقيم له العلم الا بثلاثة أور: أن يكون فى بيئة علمية يعيش فيها ويستنشق عبيره منها ، وأن يكون فى بيئة علمية يعيش فيها ويستنشق عبيره منها ، وأن يلزم شيخا من الشيوخ يبصره بالدقائق ، وينبهه إلى الخنى ، حتى يسير فى كلشىء على نور ، فلا يضل ولا يخزى . . وقد يما كان العلماء يقولون : من لا يتلقى عن موقف فلا يمون ناضج الفكر مستقيم المنظر . وكان ابن خلدون يعيب على ابن حزم . الأندادى طريقته فى الدراسات الفقهية ، وينسب ذلك إلى أنه لم يقلق العلم على موقف .

وقد آتى الله أبا حنيفة ذلك كله ، فقد كان بالكوفة التى كانت مثابة علم الفلسفة والعقائد ، وكانت تغاظر المدينة فى الدراسات الفقمية ، وإذا لم تبلغ شأوها فى علم الآثار فقد سارت شوطاً بعيداً فى البناء على النصوص ، وقياس مالا نص فيه على ما فيه نص . وكان إبراهيم النخعى وقلاميذه من بعده يستخرجون الحسباب والعالى التى بنيت أحكام القرآن والسنة عليها ، وإذا أدركوا علقالحكم طبقوه فى كل ما تثبت فيه هذه الدلة ، ويختبرون أقيستهم ، ويناظرون . وفى هذا الجو الفقمى عاش أبو حنيفة فى أثناء طلبه للفقه ، وفى أثناء بلوغه الشأو فيه ، وبعد أن صار شيخ الكوفة وفقيه العراق .

٨ ــ وقد اتصل ، وهو طالب للفقه ، بشيوخ من نحل مختلفة و فرق متباينة ، فلم يكونوا جميعاً من لفقها ، الخاعة ، ولم يكونوا جميعاً من الفقها ، الذين يستبيحون اظلمياس والرأى في الدين والفقه . فقد تلقى عن طائفة من التابعين الذين يقفون عند الآثار والحديث ولا يتجاوزون ذلك ، وتلقى عن تلاميذ ابن عباس فقه القرآن الكريم ، فقد كان ابن عباس رضى الله عنهماأعم الصحابة الذين عاصروه بعملم القرآن وفقهه ، حتى لقد قيل عنه ترجمان القرآن ، وقد كانت إقامة تلاميذ بعملم القرآن وفقهه ، حتى لقد قيل عنه ترجمان القرآن ، وقد كانت إقامة تلاميذ مذلك العالم الجليل ، ابن عباس ، بمكة ، وقد أقام بها أبو حنيفة رضى الله عنه نحو ست سنين منفيا مضطهداً ، فكانت فرصة انتهزها لدراسة فقه الآثار ، وفقه ست سنين منفيا مضطهداً ، فكانت فرصة انتهزها لدراسة فقه الآثار ، وفقه منا درس بالكوفة من فقه القياس .

وأبو حنيفة كان بإقامته الأصلية في الكوفة — التي روى عن جعفر الصادق أنه اعتبرها مدينة على بن أبي طالب — متصلا بفرق الشيعة المختلفة ، فكان متصلا بالزيدية والإمامية (١) ، وإن لم بعرف أنه نزع منازع سهؤلاء ، إلا في محبته لآل النبي صلى الله عليه وسلم وعترته الأطهار ، وكان مثله في تلقيه عن أهل العراق ، وأهل مكة وغيرهم ، وجعه بين المنازع المختلفة . كمثل من يتفذى من عناصر مختلفة ، ثم يتمثل هذه العناصر كلها ، فيخرج منها ما يكون قوام الحياة . . وكذلك كان أبو حنيفة يأخذ من كل هذه العناصر ، ثم يخرج منها بفكر جديد ، ورأى قويم ، لم يكن من نوعها ، هذه العناصر ، ثم يخرج منها بفكر جديد ، ورأى قويم ، لم يكن من نوعها ، وإن كان فيه خيرها .

٩ ـــ و كان في طلبه العلم و در استه حريصًا على أن يطلع على أربعة أنواع من

<sup>(</sup>١) هم أتباع جعفر الصادق ، ومنهم الاثنا عشرية ويدعون أن أتمنهم اثناء عرى . وأن الثانى عشر مغيب ينتظر ظهوره .

الفقه: فقه عمر المبنى على المصلحة ، وفقه على المبنى على الاستنباط والغوص ف... طلب حقائق الشرع ، وعلم عبد الله بن مسعود المبنى على التخريج ، وعلم ابن عباس. الذي هو علم القرآن وفقهه . ولقد سأله أبو جعفر المنصور ــ وقد بلغ المكانة العلميا من الفقهاء ــ « يانمان ، عن أخذت العلم ؟ » قال رضى الله عنه : «عن. أصحاب عمر عن عمر ، وعن أصحاب على عن على ، وعن أصحاب عبدالله (أي ابن مسعود) عن عبدالله ، وما كان في وقت ابن عباس على وجه الأرض أعلم منه » ... قال أبو جعفر : « لقد استو ثقت لنفسك » ...

## لزم شيخًا من شيونخ العلم :

• ١٠ — جالس أبو حنيفة العلماء في البيئات المختلفة ، وأخذ عنهم طرائقهم ، واستفاد من الجو العلمى الذي كان يعيش فيه ، ولزم عالماً من العلماء آلت إليه رياسة الفقه في عهد أبى حنيفة . . ذلك العالم هو حماد بن أبى سليمان ، وقد كان من الموالى ، وانتهى ولاؤه إلى الأشعريين، كما انتهى ولاء أبى حنيفة إلى التيميين . إذ كان أبو حماد هذا مولى لإبراهيم بن أبى موسى الأشعرى . وقد تلقى حماد هذا فقه إبراهيم النخى وفقه الشميى ، وعنهما أخذ فقه شريح القاضى ، وعلقمة ابن قيس ، ومسروق بن الأجدع . . . وأولئك تلقوا فقه الصحابيين الجليابن تنهد الله بن مسعود ، وإمام الهدى على بن أبى طالب كرم الله وجهه .

ومع تلقى حماد لفقه هؤلاء التابعين الذين تلقوا فقه هذين الصاحبين ، قد كان أكثر عناية بفقه إبراهيم اللنخمى وفقه علقمة . وقد تلقى عنه أبو حنيفة فقه هؤلاء التابعين ، والعناية بفقه إبراهيم . وقد عنى رضى الله عنه بالمتخريج .

وقد استمر أبو حنيفة تلميذا لحماد نحو ثمانى عشرة سنة ، إذ قد لازمه إلى أن. توفى عام ١٢٠ هـ . وقد جلس من بعده فى مجلس الدرس بالكوفة . ويجب أن نقرر أن الملازمة لم تكن تامة . فقد تلقى فقه غيره فى رحلاته إلى الحيج ، وقد كان كثير الحيج ، ويظهر أنه لم يتخلف عنه إلا عن معذرة كانت ، أو عائق عاق . وهو في هذه الأثناء يدارس ويذاكر ، ويروى وينقل ، وينقح ويوازن...و إنه قد تهيأ له الأخذ من وراء ذلك عندما خرج من الكوفة إلى مكة عام ١٣٠ . وقد لزم مكة بضع سنين مجاورا البيت الحرام ، وفي هذه المجاورة النقى بتلاميذ ابن عباس ، كما نوهنا من قبل .

## أ بو حنيفة الأستاذ :

۱۱ -- بعد أن مات حاد عام ۱۲۰ ه اتجمت الأنظار إلى أبرز تلاميذه ، وأدناهم إليه ، فجلس أبو حنيفة مجلسه ، وتوسط حلقته ، وقد أفاض فى درسه بشمرات تجاربه ، وينابيع مواهبه ، وقوة جدله ، وحضور بديهته . . . فقد كان ذا تجارب واسعة ، إذ أنه نشأ فى بيت كان يحترف التجارة ، وكان هو يغشى الأسواق ، وكان أولا لا يختلف إلا إليها فى الفالب . ولما اتجه إلى العلم لم ينقطع عنها ، بل استمر فى التجارة بنائب ينيبه ، أو شريك يشاركه . وكان مشتركافى التجارة بقدر لا يقطعه عن العلم ، إذ انصرف إليه فى أكثر أحواله ، حتى كاد التجارة بنسى التجارة التى استمر فيها ، ولا شك أن ذلك كان له أثر وفى تفكيره القاريخ ينسى التجارة التى استمر فيها ، ولا شك أن ذلك كان له أثر وفى تفكيره الفقهى ٠٠٠ وقد كان بناظره أصحابه ، فإذا صار الأمر إلى البحث عن العرف أو المصلحة أو السدل فى ذاته ، فعند ثذ بصمتون ولا يتكامون :

روى أن محمد بن الحسن تلميذه قال: «كان أبو حنيفة يناظر أصحابه في المقابيس، فينتصفون منه ويعارضونه، حتى إذا قال: أستحسن، لم يلحقه أحد منهم، لكثرة مابورد فى الاستحسان من مسائل، فيذعنون جيعا، ويسلمون» وماذاك إلا لإدراكه لدقيق المسائل، وصلتها بالناس ومعاملاتهم وأغراضهم ... فاستحسانه، مادته دراسة أصول الشرع ومصادره، ودراسة أحوال الناس ومعاملاتهم.

وكان أبو حنيفة كثير الرحلات كما أشرنا ، ومن هذه الرحلات استفاد تجارب كثيرة ، ومعرفة بالمنازع المختلفة ... يعرض فى رحلانه آراءه ، ويستمع إلى من يتقدها ، ومن يمحصها مخلصا فى ذلك ، هذا إلى ما تفيده الرحلات المختلفة من فتح الذهن لإدراك أمور وأحوال، ما كان ليصل إليها لواستمرفى صومعة ، أو أرض واحدة لا يعدوها .

وكان أبوحنيفة معهذه التجارب رجلا نافذ البصيرة محيطا بدقائق الأمور. تحضر إليه ثمرات علمه في مناظراته ، وقد اشتهر بالمناظرة ، وأنه يحيط على خصمه بكل فكرة . وممايروى من مناظراته أنه جادل جماعة من الدهرية الذين لا يؤمنون بأن للعالم منشئا يدبره ويوجهه ، فقال لهذا المنكر :

« ماتقولون في رجل يقول لـ كم : إنى رأيت سفينة مشعونة ، مملوءة بالأحمال ، قد احتوشتها في لجة البحر أمواج متلاطمة ، وهي من بينها تجرى مستوية ليس فيها ملاح يجريها ويقودها ، ولامتعمد يتعمدها ويدفعها ويسوقها ، هل يجوز ذلك في العقل ؟ فقالوا : لا ، هذا شيء لايقبله العقل ، ولا يجيزه الوهم فقال أبو حنيفة رحمه الله : يا سبحان الله ، إذا لم يجز في العقل وجود سفينة من غير متعمد ولا مجر ، فكيف يجوز قيام هذه الدنيا على اختلاف أحوالها ، وتغير أمورها وأعمالها ، وسعة أطرافها ، وتباين أكنافها ، من غير صانع ولا محدث لها ؟ » .

المنصوص من علل وأحكام ... فكان إذا أراد استخراج حكم من نصقرآنى النصوص من علل وأحكام ... فكان إذا أراد استخراج حكم من نصقرآنى اتجه إلى تعرف مراميه وغاياته وعلله ، وكذلك إذا تلتى رواية تنص على حكم تعرف عللها وماتؤدى إليه ، ووازن بينها وبين المأثور عن الدي فى غير هذا للوضع ، والمنصوص عليه فى القرآن الكريم والقواعد العامة التى تضافرت.

الأخبار والنصوص القرآنية على تثبيتها.. وهكذا حتى عد بحق صير في الحديث، إذ يتحرى بموازينه معرفة الصحيح من الزبوف، وكان يعد ذلك فقه الحديث، ويقول في ذلك رضى الله عنه:

« مثل من يطلب الحديث ، ولا يتفقه . كمثل الصيدلانى يجمع الأدوية ، ولايدرى لأى داء هي حتى يجىء الطبيب ... هكذا طالب الحديث لايعرف وجه حديثه ، حتى يجىء الفقيه » (١) .

## محاورات أبى حنيفة:

١٣ - كانت طريقة أبى حنيفة في درسه تشبه طريقة سقراط في محاوراته، فهو لا يلقي الدرس إلقاء ، ولكن يعرض المسألة من المسائل التي تعرض له على تلاميذه ، ويبين الأسس التي قد تبنى عليها أحكامها ، فيتجادلون معه ، وكل يدلى برأيه ، وقد ينتصفون منه وبعارضونه في اجتهاده ، وقد يتصايحون عليه حتى يعلو ضجيجهم ... وبعد أن يقلب النظر من كل نواحيه يدلى هو بالرأى الذي أنتجته الحاورات ، ويكون ما انتهى إليه هو القول الفصل، فيقره الجميع، ويرضونه . وقد قال معاصره مسعر بن كدام في وصف درسه : «كانوا يتفرقون في حوائجهم بعد صلاة الغداة ، ثم يجتمعون إليه فيجلس لهم : فمن سائل ، ومن مغاظر ، ويرفعون الأصوات لكثرة ما يحتج لهم .. إن رجلا يسكن الله به هذه الأصوات لعظيم الشأن في الإسلام » (٢).

و إن هذه الطريقة بلا ريب لايسلكها إلا من يكون عظيم النفس ، قوى الشخصية .. فإنه إذ ينزل إلى صف تلاميذه ، نزل وهو الأستاذ ، ولا يحتفظ بالأمرين ، إلا العظيم ذو الشخصية المهيمة الجليلة .

<sup>(</sup>١) الناقب للمكى : ج ٢ ، ص ٩١

<sup>(</sup>٢) المكتاب المذكور: ص ٢٦.

وإن الدراسة على هذا النحو هي تثقيف للمتعلم ، وتمحيص لآراء المعلم ، وتمحيص لآراء المعلم ، وقائدتها للأستاذ لاتقل عن فائدتها للتلميذ . وإن استمرار أبي حنيفة على ذلك النحو من الدرس جعله طالبا للعلم ، ممحصا لحقائقه إلى أن مات ، فكان علمه في نمو متواصل ، وفكره في تقدم مستمر .

١٤ -- وكان لتلاميذه مكانة الأحباب في قلبه ، حتى أنه كان يقول لهم :
 ﴿ أُنْتُم مسار قلبي وجلاء حزنى » .

وكان تلاميذه قسمين: أحدها تلاميذ يقيمون على طلب العلم معه أمدا ، ثم يفادرونه مزودين بما تلقواعنه ، وهؤلاء لا تكون منهم ملازمة دائمة. والقسم الثانى تلاميذ لازموه ، وأخذوا عنه . واستمروا معه إلى أن مات ، ومنهم من تركه قبل موته فى منصب تولاه ، كزفر بن الهذيل . وقد كان محبا لمؤلاء اللازمين ، ولهم فى قلبه منزلة خاصة ، وقد ذكر أن عددهم سقة وثلاثون ، فقال : « هؤلاء ستة وثلاثون رجلا : منهم ثمانية وعشرون يصلحون للقضاء ، وستة يصلحون للفتوى ، واثنان — أبو يوسف وزفر — يصلحان لتأديب القضاء وأرباب الفتوى » واثنان — أبو يوسف وزفر — يصلحان لتأديب القضاء وأرباب الفتوى » (1).

وكانت علاقته بكل من تلقى عليه علاقة الأب بأولاده ، يعطف عليهم ، ويمدهم بما يحتاجون إليه من مال ، فيواسيهم بماله ، ويعينهم على نوائب الدهر، حتى إنه كان يزوج من يبلغ سن الزواج وليس عنده مئونته ، ويرسل إلى كل. واحد منهم قدر حاجته . وقد قال فيه بعض معاصريه : « كان يغنى من يعلمه ، وينفق عليه وعلى عياله . فإذا تعلم قال له : « لقد وصلت إلى الغنى الأكبر بمعرفة . الحلال والحرام » (٢) .

<sup>(</sup>۱) « المناقب لابن البزازى » : ج س ص ١٢٥

<sup>(</sup>٢) ﴿ الحيرات الحسان » ص ٤١ ، ٢٤

ولقد كان يتمهد بالنصيحة من يكون منهم على أهبة افتراق ، أو من كان. يتوقع أن له شأنًا من الشأن .

## أبو حنيفة الحكيم:

10 -- ظهرت حكمة أبى حنيفة فى وصاياه لتلاميذه ، فهو يوصيهم بما يقربهم الله الناس ولا ينفره مهم ، و يدعوهم إلى أن يكونوا قريبين من الناس من غير ضمة ولاهوان ... فهو يقول لتلميذه يوسف بن خالد السمتى ، وهو ذاهب إلى البصرة فى منصب يتولاه: « إذا دخلت البصرة استقبلك المناس وزاروك ، وعر فوا حقك ، فأنزل كل رجل منزلته ، وأكرم أهل الشرف ، وعظم أهل العلم ، ووقر الشيوخ ، ولاطف الأحداث ، وتقرب من العامة ، ودار الفجار ، واصحب الأخيار ، ولا تتهاون بسلطان ، ولا تحقرن أحدا ، ولا تقصرن فى مروءتك ، ولا تخرجن سرك إلى أحد ، ولا تثق بصحبة أحد حتى تمتحنه ، ولا تخادن خسيساً ولا وضيعا ، ولا تألفن ما ينكر عليك فى ظاهره » .

ويسترسل أبو حنيفة فى نصيحة تلميذه ، تلك النصيحة التى تدل على همقه فى دراسة أحوال الناس ، ودراسة النفوس البشرية ، ثم يوجهه إلىسياسة العلم بألايبادر الناس بغير ما يألفون ، حتى يقربه إليهم ، ألا يجبه الناس بآرائه ، حتى لا يرموه بالغرور . ويقول فى ذلك رضى الله عنه :

« متى جمع بينك و بين غيرك مجلس، أوضمك وإياهم مسجد ، وجرت المسائل. أوخاضوا فيها بخلاف ماعندك. فلا تبدلهم خلافا، فإن سئلت عنها أخبرت بما يعرفه القوم ، ثم تقول : فيها قول آخر ، وهو كذا وكذا ، والحبجة له كذا . فإن سمعوه منك عرفوا مقدار ذلك ومقدارك ، فإن قالوا هذا قول من ؟ فقل بهض. الفقهاء ، فإذا استمروا على ذلك وألفوه عرفوا مقدارك ، وعظموا محلك . . . . وأعط كل من يختلف إليك نوعا من العلم ينظرون فيه ، ويأخذ كل واحد منهم،

جمعفظ شيء منه ، وخذه بجلى العلم دون دقيقه ، وآمنهم ومازحهم أحيانًا ، ... وحادثهم ، فإن المودة تستديم مواظبة العلم ، وأطعمهم أحيانًا ، واقض حوائجهم .. واعرف مقدارهم ، وتغافل عن زلاتهم ، وارفق بهم ، وسامحهم ، ولاتبد لأحد منهم ضيق صدر أو ضجر ، وكن كواحد منهم » .

۱۹ - وتنسب لأبي حديفة رسالة تسمى « العالم والمتعلم ». وفي هذه الرسالة يذكر ثمرات العلم ونتائجه ، وما يسوغ المتعلم أن يفعله وما لايسوغ ... وهو يقرر في هذه الرسالة أن الخير هو الذي يميز بين الخير والشر ، ويفعل الخير عن بينة وإدراك لمزايا العلم - وقد قال في هذه الرسالة : « اعلم أن العمل متبع للعلم ، كا أن الأعضاء تبع للبصر ، والعلم مع العمل اليسير أنفع من الجهل . مع العمل الكثير ، ومثل ذلك ، الزاد القليل الذي لابد منه في المفازة مع المداية بها ، أنفع من الجهل مع الزاد الكثير ، ولذلك قال الله تعالى : [قل مله يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون ، إنما يتذكر أولو الألباب ] .

ولقد كان من أدب العلم وسياسيه في نظره أن يجزم بالقول الذي يقوله ،
. ويجابه مخالفيه بالجزم ، مادام القول بينا ، ويقول في ذلك رضى الله عنه . «العالم إذا وصف عدلا ولم يعرف جور ما يخالفه ، فإنه جاهل بالعدل والجور . واعلم على أن أجهل الأصناف كلها ، وأردأهم منزلة عندى لهؤلاء . . . لأن مثلهم كمثل أربعة نفر يؤتون بثوب أبيض ، فيسألون عن لون ذلك الثوب ، فيقول كمثل أربعة نفر يؤتون بثوب أبيض ، فيسألون عن لون ذلك الثوب أصفر ، واحد من هؤلاء الأربعة : هذا ثوب أحمر ، ويقول الآخر هذا ثوب أصفر ، ويقول الثالث : هذا ثوب أسود ، ويقول الرابع هذا ثوب أبيض ، فيقال له : ما تقول في هؤلاء الثلاثة ، أصابوا أم أخطئوا ؟ فيقول : أما أنا فأعلم أن ما تقول في هؤلاء الثلاثة ، أصابوا أم أخطئوا ؟ فيقول : أما أنا فأعلم أن

هذه قبسة من نظرات ذلك المربى الجليل إلى طرق التأليف بين الناس

وحدوده . . . فهو برى أن التأليف واجب إلا إذا أدى إلى تحليل حراب أو تحريم حلال ، فإن السكوت فى مثل هذه الحال ضلال وتضليل ، وهو . يسوغ العمل بالباطل .

## مفات أبى حنيفة :

۱۷ — هذه أحوال أبى حنيفة فى درسه ، وحق علينا بعد ذلك أن نتكلم... فى شخصه وفى وصفه . وأن ما ذكرنا ظاهرة سببها منبعث من نفسه ، ولا يمكن. أن يعرف المسبب إلا إذا عرف السبب ، ولا الثمرة إلا إذا عرف الأصل . وإن أبا حنيفة قد اتصف بصفات رفعته إلى الذروة بين رجالات العلم. والتاريخ ، اتصف بصفات العالم الثبت الثقة ، البعيد المدى فى تفكيره ، الذى يغوص فى باطن الأمور حتى يصل إلى أقصى غاياتها ، وذلك فى ثبات نفس . وقوة جنان .

كان رضى الله عنه ضابطا لنفسه ، لا تعبث به السكايات المارضة ، ولا العبارات النابية . . . كان مرة يخطِّىء واعظ العراق الحسن البصرى - والحسن البصرى ذو مكانة فى عصره ـ فقال له بعض الحاضرين : بابن الزانية أنت تخطِّىء الحسن البصرى ! فما تغير وجه فقيه العراق ، بل استرسل فى قوله ـ وكأن لم يعترضه شىء ـ وقال : « أى والله ، أخطأ الحسن وأصاب عبد الله بن مسعود » . ثم يقول : « اللهم من ضاق بنا صدره ، فإن قلوبنا قد اتسعت له » .

وكان مع هدوء النفس وضبطها ذا قلب شاعر ، ونفس محسة ، قال له بمض مناظريه : يازنديق يامبتدع . فقال في هدوء العالم الذي يرجو ماعند ربه : « غفر الله لك ، الله يعلم منى غير ذلك ، و إنى ماعدلت به مذ عرفته ، ولا أرجو إلا عفوه ، ولا أخاف إلا عقابه » . ثم بكى عند ذكر العقاب ، فقال له الرجل :

فيكان هدوء أبى حنيفة هدوء من علت نفسه ، وانصلت بالله ، فصارت لا تعلق بها أدران الدنيا ، وكأنها صفحة مجلوة لا ينطبع فيها شيء من أقوال الناس الوّذية ، بل تنحدر عنها .

ولقد كان ثابت الجأش رابط الجنان . يروى أن حية سقطت من السقف . في حجره ، وهو في حلقة درسه ، فتفرق من حوله ، وهو قد استمر في . حديثه ، ونحساها(۱) .

١٨ - وكان عميق الفكر ، لا يقف عند ظواهر النصوص ، بل يسير وراء مراميها البميدة والقريبة ، ويبحث عن العلل والفايات غير متوقف . ولعل ذلك العقل الفلسني المتعمق هو الذي دفعه لأن يتجه في أول حياته إلى علم السكلام ، ليرضى تلك النهمة العقلية . وإن ذلك التعمق دفعه لأن يدرس الأحاديث باحثا عن الغاية مما اشتملت عليه من أحكام ، مستعينا في ذلك بإشارات الألفاظ وملا بسات الأحوال ، وما يترتب على الحكم من جلب مصالح أو دفع مضار ... حتى إذا استقامت بين يديه العلة أطرد القياس ، وفرض الفروض ، وصور الصور ، وسار في الفرض والتصوير شوطا بعيدا .

١٩ — وكان مع هذا العمق مستقل التفكير ، لا يأخذ فكرة أو رأيا من غير أن يعرضه على عقله ، وقد لاحظ عليه ذلك شيخه حماد بن أبى سليان ، إذ كان ينازعه النظر فى كل قضية تعرض ... واستقلال فكر ه هو الذى جعله.

<sup>(</sup>١) م المناقب للمكي ،: ج ١ ص ٢٦٨ :

یری مایری حراً غیر خاضع إلا لنص من کتاب أوسنة أو فتوی صحابی ، أما التابعی فله أن یخطئه و یصوبه .

ولقد كان يعيش في وسط آراء متناحرة ، فكان يآخذ من كل ذي رأى رأيه ، ويدرسه حرا غير متبع ... التقى بأئمة الشيعة من ذرية على ، ولهم في قلبه منزلة وإكرام ، وانتفع منهم من غير أن يعرف عنه تشيع لآل البيت ، وإن عرفت عنه محبة واضحة لهم. أخذ عن زيد بن على ، ومحد الباقر ، وابنه جعفر الصادق ، وعبد الله بن حسن بن حسن . ولم يعرف أنه كان تابعا لهؤلاء أو لواحد منهم في تفكيره . ومع أن الكوفة اشتهرت بالتشيع ، والطمن في أئمة الصحابة ، في تفكيره . ومع أن الكوفة اشتهرت بالتشيع ، والطمن في أئمة الصحابة ، كان رضى الله عنه يكرم الصحابة أجمين . . . قال سميد بن أبي عروبة : هذمت الكوفة فحضرت مجلس أبي حنيفة ، فذكر يوما عثمان ، فترحم عليه فقلت له : وأنت يرحك الله ، فما سمعت أحدا في هذا البلد يترحم على عثمان عفان غيرك » (() . .

ولقد خلص أبوحنيفة من كل شهوة إلا الرغبة فى الإدراك الصحيح ، وعلم أن هذا الفقه دين ، أو فهم فى الدين لا يطلبه إلا من كانت نفسه تسير وراءالحق وحده ... وسواء عنده أن يكون غالبا فى المناظرة أو مفلوبا ، بل إنه الفالب دائما مادام يطلب الحق و يصل إليه ، ولو كان الذى هداه إليه خصمه فى الجدال .

وكان لإخلاصه لايفرض في رأيه أنه الحق المطلق الذي لا يشك فيه ، بل

<sup>(</sup>١) الانتقاء ، لابن عبد البر : ص ١٣٠ .

کان یقول : « تولنا هذا رأی ، و هو أحسن ما قدرنا علیه ، فمن جاءنا بأحسن. من قولنا ، فهو أولى بالصواب منا (۱) » .

وقیل له: « یا آبا حنیفة هذا الذی تفتی به هو الحق الذی لا شك فیه » » قال: « لا آدری لعله الباطل الذی لا شك فیه ... » وقال زفر تلمیذه: « كفا نختلف إلی آبی حنیفه ، ومعنا آبو یوسف ، فکنا نسکتب عنه ، فقال بوما آلمبی پوسف: و یحك یا یعقوب ، لا تکتب كل ما تسمعه منی ، فأنی قد آری الرأی الیوم فأثر كه غداً ، وأری الرأی غداً فأثر كه بعد غد ... (۲) » .

فکان یرجع عن رأیه إن بدا له نظر آخر ، وکان یرجع حمّا عن رأیه إذا ً ذکر له مناظره حدیثا مرویا ، فإنه ایس مع الحدیث رأی .

هذا هو إخلاص أبى حنيفة ، فلم يكن من المتعصبين لآرائهم ، بل دفعه الإخلاص للحق ، مع سعة عقله ، لأن بفتح قلبه لغير رأيه ... وإن القعصب إنما يكون بمن غلبت مشاعره على فكره ، أو بمن ضعفت أعصابه ، وضاق عقله ، ولم يكن أبو حنيفة شيئا من ذلك ، بل كان القوى فى عقله ، المستولى على نفسه وأعصابه ، المخلص فى طلب الحق ، الحائف من ربه ... ففرض احمال الخطأ فى رأيه .

۲۱ — وكان حاضر البديهة ، تأتيه أرسال المسانى متدافعة فى وقت الحاجة إليها ، فلا تحتبس فكرته ، ولا يفلق عليه فى نظر ، ولا يفحم فى جدال ما دام الحق فى جانبه ، وعنده من الأدلة ما يؤيده . ولقد اشتهر بذلك بين. فقهاء عصره ... روى عن الليث ابن سعد فقيه مصر أنه قال : «كنت أتمنى.

<sup>(</sup>۱) « تاريخ بغداد » ج ۱۳ ، ص ۲۵۲ .

<sup>(</sup>٢) الكتاب الذكور ، ص ٢٠٤.

أن أرى أبا حنيفة حتى رأيت الناس متقصفين على شيخ ، فقال رجل: يا أبا حنيفة ، وسأله عن مسألة ، فوالله ما أعجبني صوابه ، كاأعجبني سرعة جوابه».

۲۲ -- وكان فى مناظراته واسع الحيلة ، يعرف كيف ينفذ إلى ما يفحم خصمه من أيسر سبيل ، إذاكان خصمه متعنتا ، أو يريد إحراجه وله فىذلك غرائب ومدهشات معجبات ، قد امتلات بهاكتب المناقب والتراجم والتاريخ و إنا نقص منها قصتين .

الأولى: أنه يروى أن رجلامات ، وأوصى إلى أبى حديفة وهو غائب ، وارتفع الأمر فى القضية إلى ابن شبرمة الذى كان قاضيا ، وأقام أبو حديفة البيئة على أن فلانا مات ، وأوصى إليه ، فقال ابن شبرمة : أتحلف أن شهودك شهدوا بحق ؟ فقال أبو حديفة فقيه العراق : ليس على يمين ، كدت غائبا . فقال ابن شبرمة : ضلت مقاييسك . قال أبو حديفة : ما تقول فى أعمى شج ، فشهد له شاهدان بذلك ، أعلى الأعمى يمين أن يحلف أن شهوده شهدوا بحق ، وهو لم شاهدان بذلك ، أعلى الأعمى يمين أن يحلف أن شهوده شهدوا بحق ، وهو لم ير ؟ فحكم ابن شبرمة بما ادعى الإمام وأمضاه .

الثانية: أنه يروى أنه دخل عليه بالمسجد الضحاك بن قيس الخدارجي الذى خرج في عهد الأمويين ، والخوارج يقتلون مخالفيهم ، فقال لأبى حنيفة: تب ، فقال : مم أتوب ؟ قال : من تجويزك الحكين ، فقال أبو حنيفة : تقتلني أو تناظرني ؟ قال : بل أناظرك . قال : فإن اختلفنا في شيء مما تناظرنا فيه ، فمن بيني وبينك ؟ فقال الخارجي : اجعل أنت من شئت ، فقال أبو حنيفة لرجل من أصحاب الضحاك: اقعد فاحكم بيننا فيا نحتلف فيه إن اختلفنا ، ثم قال للضحاك أترضى بهذا بيني وبينك ؟ قال نعم . قال الإمام المناظر: فأنت بهذا قد حوزت المتحكيم! .

٣٧ -- وكان يتوج هذه الصفات كلما صفة أخرى، لعلما مظهر لهذه الصفات كلما ، أو هى هبه الله لبعض النفوس ... تلك الصفة هى قوة الشخصية والنفوذ ( ١١ - تاريخ المذاهب )

والمهابة والتأثير في غيره بالاستهواء والجاذبية ، وقوة الروح . كان له تلاميذ كثيرون، ولم يكن يفرض عليهم رأيه، بل كان يدارسهم ، ويتعرف آراءالكبار و يناقشهم مناقشة النظير ، لا مناقشة السكبير للصغير . وكان هو ينتهى برأى ، فيصمت الجميع عنده ، ويسكنون إليه ، وقد يستمر بعصهم على رأيه ، وفي الحالين لأبي حنيفة مكانته و شخصيته .

وقد كان مسع الهيبة له فراسة دقيقة عيقة يستبطن بها ما يخفيه الرجال ، ويدرك عواقب الأمور ، وحياته كلها تنبىء عن قوة الشخصية وقوة الفراسة ، وإن قوة الفراسة تنموعند ذوى العقل القوى ، والإحساس العميق عند دراسته لتلامذه ، وعند دراسة أحوال الناس . . وهي بعد ذلك نور يفيض الله به على المخلصين الذين يتصدون للقيادة الفكريه . وقد كان أبوحنيفة كل ذلك ، فكان قوى العقل ، قوة الإحساس ، دارسا لأحوال الناس ، أفاض الله عليه بنور الإخلاص، فلماذ لا يكون ذا فراسة قوية ، وقد ورد في يعض الآثار للنسوبة للنبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (اتقوا فراسة المؤمن) .

٧٤ - هذه جملة من صفات أبى حنيفة : بعضها فطرى ، وبعضها كسبى راض نفسه عليها ، وهى مفتاح شخصيته ، وهى التى جعلته ينتفع بكل غذاء يصل إليه ، وكانت بها الحجاوبه بينه وبين عصره وشيوخه وتجاربه ، يتغذى من كل هذه العناصر ، وتحده شخصيته بنوع جديد من الفكر والرأى ، بعيد الأثر في الأجيال من بعده .

وبهذه الصفات استولى أبو حنيفة على المعجبين به فدفعهم إلى الثناء عليه، وأثار حقد الحاقدين فاندفعوه إلى الطمن فى سيرته ، وقد جاءفى كتاب الخيرات الحسان : « يستدل على نباهة الرجل من الماضين بتباين الناس فيه . ألا ترى عليا كرم الله وجهه ، هلك فيه فئتان : محب أفرط ، ومبغض فرط ؟ » .

وكذلك كان أبو حليفة في عصره: فمن الناسمن غالى في تقديره، ومنهم من غالى في تنقيصه، وهو عند الله وأهل المدل عظيم، وشيخ فقهاء المراق غير منازع.

۳ -- معیشته:

٧٠ - قبل أن نتصدى لأبي حديفة الفقيه لا بد من ذكر أمرين :

أولمها معيشته .

وثانيهما موقفه من أمور السياسة فى عصره . ونقول فى أول الأمرين إنه ثبت ثبوتاً لا يقبل الريب أن أباحنيفة رضى الله عنه ، لم يقبل عطاء الحكام، سواء أكانوا خلفاء أمكانوا فى مرتبة دون الخلافة .

و إن التاريخ ليثبت أن الأنمة الأربعة منهم من ترخص في الأخذ من الخلفاء، وهو الإمام مالك رضى الله عنه ، فقد كان يعتقد أن للعلم حمّا في بيت المال ، وأن الحكام لا يعطونه هبة من مالهم ، وإنما يجرون عليه رزقاً ، لأنه حبس نفسه على العلم والبحث والفتيا فابقطع عن الكسب ... فكان حمّاً على بيت المال أن يسد حاجته ، وأن يعطيه ما يكفيه وأهله بالمعروف ، وإن هذا العطاء الذي ترخص في أخذه كان ينفق منه على طلاب العلم ، فإليه كانوا بأوون . وقد آوى إليه الشافعي رضى الله تعالى عنه ، وعاش في كنفه نحو تسع سنين ، ولم يشعر بالخصاصة في حياته ، ثم بعد وفاته اضطر لأن يتولى ولاية بالمين .

والشافعي بعد أن حبس نفسه على العلم كان يأخذ من سهم بنى المطلب الذي فرضه لهم النبي صلى الله عليه وسلم فماكان يأخذ عطاء، بلكان يأخذ سهماً مقدراً في القرآن باعتباره قرشياً من ذوى القربي للرسول صلى الله عليه وسلم.

والإمامان أبو حثيفة وابن حنبل ، امتنما عن الأخذ من بيت المال امتناءًا مظلقًا ؛ ورضى أحمد بأن يميش فى قل من أن يأخذ مالا لا يدرى أجمع محمله ، أم جمع بغير حله . أما أبو حنيفة فقد كان فى محبوحة الميش ، لأنه استمر تاجراً إلى أن مات وقد ذكر نا أنه كان له شريك ، ويظهر أن ذلك الشريك احتسب النية ،وعاون أبا حنيفة بإخلاص ليفرغه فى أكثر وقته للملم والفقه والحديث ، وكذلك كان واصل بن عطاء شيخ الممتزلة الذي كان مماصراً لأبى حنيفة ، والذي كان ينتمى لأصل فارسى مثله .

٢٦ - إذن كان أبو حنيفة تاجراً ، وإن كان له وكيل في تجارته ، وكان له إشراف على تجارته لكى بجملها دائما فى دائرة الحلال .

وقد اتصف أبوحنيفة التاجر بأربع صنات لها صلة بمعاملة الناس ، جعاته في الذروة بين التجار ، كما هو في الذروة بين العلماء .

- (١) كان غنى الغفس لم يستول عليه الطمع الذى يفقر النفوس، ومنشأذلك أنه نشأ في أسرة ذات يسار ، فلم يذق ذل الحاجة .
  - (ب) وكان عظيم الأمانة ، شديداً على نفسه فى كل مايتصل بها .
    - (ج) وكان سمحاً وقاه الله تعالى شح النفس .
- (د) وكان بالغ التدين ، يرى فى حسن المعاملة عبادة .. فمع أنه كان صواماً قواماً ، كان يرى أن ثمة عبادة عالية ، وهي المعاملة الحسنة .

فكان لهذه الصفات مجتمعة أثرها في تجارته على على غريبًا بين التجار وقد شبهه كثيرون في تجارته بأبى بكر الصديق ، إذ كان يسير على منهاجه... كان يظهر الردىء من البضاعة ، ويخفي الحسن من نماذج البياعات .

وكان أميناً في شرائه كأمانته في بيمه ، جاءته امرأة بثوب من الحرير تبيمه له ، فقال : كم تمنه ؟ فقالت : مائة ، فقال : هو خير من مائة ، بكم تقولين ؟ فزادت مائة ، مائة ، حتى قالت أربعائة . فقال : هو خير من ذلك ، قالت تهزأ بي !! . قال : هاتي رجلا يقومه ، فجاءت برجل فاشتراه بخسمائة .

وَكَانَ يَتَرَكُ الرَّ إِذَا كَانَ المُشترى صَدِيقًا أُوضِعَيْقًا .جاءته امرأة ، فقالت ، إنى ضعيفة ، وإنها أمانة ، فبعنى هذا الثوب بما يقوم عليك. فقال : خذيه بأربعة دراهم ، فقالت : أنسخر منى وأنا عجوز ؟ فقال : إنى اشتريت ثوبين ، فبعت أحدها برأس المال إلا أربعة دراهم ، فبقى هذا الثوب على أربعة دراهم !

وكان لمشدة تدينه شديد الحرج فى كل ماتخالطه شبهة الإثم ، ولوكانت بعيدة ، ويروى فى ذلك أنه بعث شريكه حفص بن عبد الرحمن بمتاع ، وأعلمه أن فى ثوب منه عيباً وأوجب عليه أن يبين العيب عند بيعه ، فباع حفص المتاع ، ونسى أن يبين ، ولم يعلم من الذى اشتراه ، فلما علم أبو حنيفة تصدق بالمتاع كله (١).

ومع هذا الورع الشديد كمانت تجارته تدر عليه الدر الوفير ، وكان ينفق من ربحه على المشايخ والمحدثين . جاء في تاريخ بغداد « أنه كان يجمع الأرباح عنده من سنة إلى سنة ، فيشترى بهما حوائج الأشياخ والمحدثين وأقواتهم و حميع حوائجهم ، ثم يدفع باقى الدنانير من الأرباح إليهم : فيقول : أنفقوا في حوائجكم ، ولا تحمدوا إلا الله ، فإنى ما أعطيتكم من مالى شيئا ، وإنما هو من مال الله () .

٧٧ - وقد كان ، رضى الله عنه ، مع كل هذا حريصاً على أن يستمتع الحياة استمتاعا حلالا بريئا... فكان يمنى بثيابه ، و يختار هاجيدة حتى قالوا: إن كساءه كان يقوم بثلاثين دينارا ، وكان حسن الهيئة كثير التعطر، قال تلميذه أبو يوسف: «كان يتمهد شسعه ، حتى لم ير منقطع الشسع » (٦) .

<sup>(</sup>۱) « تاریخ بغداد » : ج۱۳ ، ص ۳۵۸

<sup>(</sup>۲) « تاریخ بغداد » : ج ۱۳ ، ص ۳۹۰ .

<sup>(</sup>٣) « الحيرات الحسان » : ، ص ٦١ .

وكان منظا في عمله وحياته ، كان الجزء الأكبر من حياته للعلم ، والباقى للسوق ولبيته ... روى عن يوسف بن خالد السمتى أنه قال فى توزيع حياته فى أيام الأسبوع : كان يوم السبت لحوائجه لا يحضر فى المجلس ، ولا يحضر فى السوق ، يتفرغ لأسبابه فى أمر منزله وضياعه ،وكان يقعد فى السوق من الضحى إلى الظهيرة ، وكان يوم الجمعة له دعوة يجمع أسحابه فى بيته ، ويقدم لهم ألوان الطعام (١).

### ٣ ـــ موقفه من سياسة عصره :

۲۸ - هذه حياة أبى حنينة ومعيشته ، وهى حياة تجمع إلى الورعوالتقى
 نوعا من الرفاهية ، والنظام الرتيب الهادىء السعيد .

ولكن ذلك التقى المؤمن العالم، اختبره الله تعالى بالسياسة اختبار اشديدا، فقد امتحن فى دووين من أدوار حياته امتحانا شديدا، ومات فى الدور الثانى شميدا... ولنشر إشارة موجزة إلى أحدات عصره:

عاش أبو حنيقة اثنتين وخسين سنة من حيانه فى المصر الأموى ، وثمانى عشرة سنة فى المصر العباسى ... أدرك الدولة الأموية فى قوتها ثم فى تحدرها وانهيارها ، وأدرك العباسية ، وهى دعاية سرية تجوس خلال الديار الفارسية ، ثم أدركها وهى تدبير يفرخ فى خلايا مستورة عن العيون المترصدة ، وأدركها بعد ذلك ، وهى حركة تغالب الأمويين ، وتنزع الملك من أيديهم .

أدرك أبو حقيفة ذلك كله ، فكان له أثر فى نفسه، و إن لم يعلم أنه خرج مع المحارجين ، أو ثار مع الثائرين. ولكن مجرى الحوادث كان يثبت أن قلبه كان مع العلويين فى خروجهم ثانيا على العباسيين. كان رضى الله عنه ، لنزعته العلوية من غير تشيم، لا يرى لبنى أمية أىحق

<sup>. (</sup>۱) المناقب للمسكى : ج۲، ص١٠٦.

فى إمرة المؤمنين ، ولكنه ماكان ايشور عليهم ، ولمله كان يهم أن يفمل ، ويروى لما خرج زيد بن على بالكوفة على هشام بن عبد الملك ، قال أبوحنيفة : « ضأها خروجه خروج رسول الله يوم بدر » . فقيل له : لم تخلفت عنه ؟ قال : « حبسنى عنه ودائع الناس، عرضتها على ابن أبى ليلى فلم يقبل ، فخفت أن أموت مجهلا » . ويروى أنه قال فى الاعتذار عن عدم الخروج مع زيد : « لوعلمت أن الناس لايخذلونه كما خذلوا جده لجاهدت معه ، لأنه إمام حق ، ولكنى أعينه بمالى » ، فبعث إليه بعشرة آلاف درهم ، وقال للرسول : « ابسط عذرى له » (1) .

و إن هذا يدل على أنه ماكان بنو أمية بأهل للإمارة فى نظره ، وعلى أنه كان يرى زيد بن على هو الإمام ، ولكنه لم يكن مؤمنا بحسن النتائج لمعرفته لأخلاق العراقيين الذين يقولون ولا يعملون . . . ومع ذلك لم يرد أن بكون من المعوقين للثبطين ، فأرسل المعونة المالية .

انتهت ثورة الإمام زيد بقتله قتلة فاجرة عام ١٣٧ه» ثم قام بخر اسان من بعده ابنه يحيى عام ١٣٥ه ، و ثار على الحسكم الأموى ، فقتل كما قتل أبوه ، ثم قام عبدالله بن يحيى يطالب بالحسكم، وكانت ثورته باليمن ، ولسكن أرسل إليه مروان بن محمد من قتله كما قتل من سبقه ، وكان ذلك عام ١٣٠ه ه (٢).

۲۹ - إن هذه الحوادث كان لها أثر فى نفس التقى الإمام أ بى حتيفة ... لقدر أى زيدا الذى كان خروجه يضاهى - خروج الرسول عليه السلام يوم بدر ... يقتل و تصلب جثته ، ورأى الجراحات تسرى فى أولاده ، فيقتل ابنه ثم من جاء بعده ، ولا بد أن ذلك يحنقه ويتير غيظه على بنى أمية ، ثم لا بدأن يجرى على لسانه

<sup>(</sup>۱) « المناقب » لاين البزازى: ج ١ ، ص ٥٥

<sup>(</sup>٣) ﴿ السكامل ﴾ لابن الاثير : ج ٥ سنوات ١٣٢ ، ١٢٥ ، ١٣٠

ذكر مظالم الأمويين . . . وألسنة العلماء \_ وهم غضاب \_ تعمل مالا تعمل السيوف العضاب ، فتكون ضرباتهم أحد وأشد .

ولذلك أخذت أعين الأمويين تترصده وتتبعه . . . وخصوصا أنهم رأوا الأرض تميد من تحتهم بالدعاية العباسية ، ثم بترتيب الخروج المحكم . ولما رأى عامل الأمويين ابن هبيرة أن الفتن ابتدأت رءوسها تظهر ، خشى جانب الفقهاء والمحدثين . . . وخصوصاأن أكثرهم كان ضالعا مع زيد بن على ، لمكانه فى الفقه والعلم ، فجمع فقهاء العراق \_ وفيهم ابن أبى ليلى ، وابن شبرمة ، وداود بن هند \_ فولى كل واحد منهم عملا لبنى أمية ليختبر ولاءهم للحكم الأموى ، وأرسل إلى أبى حنيفة ليعطيه عملا ، فأبى ، واشتد فى الإباء . . .

طلب إليه أن يكون فى يده الخاتم يمضى الأمور به ولا ينفذ كتاب إلا من يده ، ولا يخرج شىء من المال إلا بإذنه . . فامتنع الفقيه العظيم الأبى . فحلف ابن هبيرة إن لم يقبل ليضربنه ، فأخذ الفقهاء يستلينون أبا حنيفة ليقبل ، وقالوا له : « إنا ننشدك الله أن تهلك نفسك ، فإنا إخوانك ، وكلنا كاره لهذا الأمر ، ولم نجد بدا من ذلك » . فقال الفقيه القوى ، للؤمن التقى : « لو أرادنى أن أعد له أبواب مسجد واسط لم أدخل فى ذلك . فكيف وهو يريد منى أن يكتب دم رجل يضرب عنقه ، وأختم أنا على ذلك الكتاب! فوالله لا أدخل فى ذلك أبدا » .

• أصر أبو حنيفة ، وتخاذلت كل القوى أمام إصراره . . . أخذ صاحب الشرطة يضر به بعد أن حبسه أياما متقالية ، حتى يئس الضارب ، وخشى أن يموت الفقيه فتكون السبة على الحسكم الأموى إلى الأبد ، فقال ابن هبيرة للفقهاء : « قولوا له يخرجنا من يميننا » ، فطلبوا ذلك إلى أبى حنيفة ، فرفض وأصر على موقفه إصراراً شديدا ، فطلب ابن هبيرة إلى الفقهاء أن يتوسطوا

لدى ذلك المحبوس ليستأجله بدل أن يرفض . . . وأخيراً اضطر ابن هبيرة أن يخلى سبيله ، فركب أبو حنيفة دوابه ، وآوى إلى بيت الله الحرام ، وكان ذلك عام ١٣٠ للهجرة (١) .

٣١ — جاور أبو حنيفة بيت الله وحرمه الآمن ، واستمر إلى أن استقام الأمر للمباسيين ، فلما استتبلم النظام ، عاد إلى الكوفة ، واجتمع بأبى العباس أول خليفة عباسى ، مع العلماء وقد وقف الإمام العظيم خطيبا يعلن مبايعة ذلك الخليفة الجديد ، إذ قد أنابه العلماء عنهم في الإجابة عن طلب الخليفة ، فقال :

« الحمدلله الذى بلغ الحق من قرابة نبيه صلى الله عليه وسلم ، وأمات عنا جور الظلمه ، وبسط ألسنتنا بالحق . . . قد بايعناك على أمر الله ، والوفاء لك بعهدك إلى قيام الساعة ، فلا أخلى الله هذا الأمر من قرابة نبيه صلى الله عليه وسلم » .

وتلك الخطبة تدل على أنه كان له رجاء عظيم فى أن يحكم أهل بيت النبى صلى الله عليه وسلم بالعدل والقسطاس المستقيم .

وقد استمر أبو حنيفة على ولائه لبنى العباس ، لأنها قامت للانتصاف من الظلم الذى وقع على بنى على ، ولقد كانوا يدنونه ويقربونه ... أدناه أبوالعباس إليه ، ثم أدناه من بعده أبو جعفر للنصور ، وكان المنصور يعرض عليه العطايا، ولكنه كان يردها في رفق وحيلة .

٣٧ — ولم يعرف أن أبا حنيفة تكلم في الحسكم العباسي حتى ظامت الخصومة بينهم و بين أبناء على ، و نزل الأذى بآل على \_ ولهم محبته وولاؤه \_ فكان من المعقول أن يفضب لفضبهم ، وخصوصاً أن من ثاروا على حكومة المنصور ها محمد النفس الزكية بن عبد الله بن حسن ، وإبراهيم أخوه ، وكان أبوها

<sup>(</sup>١) مناقب أبي حنيفة للمكي : ج ١ ، ص ٢٣ ، ٢٤

شيخًا لأبى حنيقة ، وكان عبد الله هذا .. وقت خروج ولديه .. في سجن المنصور ومات وهو كفليم في السجن بعد مقتل ولديه .

لم يكن بد من أن ينقم أبو حنيفة من العباسيين ، كما نقم من الأمويين . ولكنه كشأنه فى نقمتة لا يزيد على الكلام فى غضون الدرس ، وكذلك شأن الملماء لا يشغلون عن عملهم إلا بالقدر اليسير ، يرضون به أحاسيسهم بالحبة فيا يحبون ويرضون .

وقد خرج إبراهم بالمراق ، وخرج أخوه النفس الزكية بالمدينة ، وكان ذلك عام ١٤٥ للمبجرة . ويروى أن مالكا بالمدينة أفتى بحل الخروج ، لأنه قرر أن بيمة المنصور كانت بالإكراه . ولكن يظهر أن الإمام مالكا ماأفتى بجواز الخروج ، ولكنه سهل على محمد النفس الزكية إثبات دعواه ، لأنه كان يستند في تهرير خروجه بأن بيمة أبى جعفر كانت بالإكراه ، ومالك رضى الله عنه كان يردد في مجلسه الحديث : « ليس لمستسكره يمين » ، ونهى عن ترديده فلم يفته ، ولما انتهت المحركة بقتل النفس الزكية نزل بمالك الأذى .

وكان فىالمراق أبوحنيفة يجاهر بوجوب نصرة إبراهيم أخى النفس الزكية بل إن الأمر وصل به إلى أن ثبط بمض قواد المعصور عن الخروج لحربه .

يروى أن الحسن بن قعطبة ، أحد قواد المنصور ، دخل على أبى حليفة ، وقال له : « عملى لا يخفي عليك ، فهل لى من توبة ؟ ه . فقال أبو حليفة : « إذا علم الله تعالى أنك نادم على مافعلت : ولو خيرت بين قتل مسلم وقتلك لا خترت قتلك على قتله ، وتجعل على الله عهداً على ألا تعود ، فإن وفيت فهى توبتك » . قال الحسن : « إنى فعلت ذلك ، وعاهدت الله تعالى ألا أعود إلى قتل معظم » .

فكان ذلك إلى أن ظهر إبراهيم بن عبدالله بن حسن ، فأمره المنصور أن

يذهب إليه ، فجاء إلى الإمام ، فقص عليه القصة ، فقال : «جاء أو ان تو بتك ، إن وفيت بما عاهدت فأنت تائب ، وإلا أخذت بالأولى والآخر » . فجد فى توبته ، وتأهب واستعد للقتل ، ودخل على المنصور ، وقال : «لاأسير إلى هذا الوجه ، فإن كان لله طاعة فى سلطانك فيا فعلت ، فلى منه أو فر الحظ ، وإن كان معصية فحسبى » . فغضب المنصور . وقال حميد بن قصطبة أخوه : « إنا نسكره عقله منذ سنة ، وكأنه خلط عليه » . فسأل المنصور المتربص بعض ثقاته : « من يدخل عليه من الفقهاء ؟ » فقالوا : « إنه يتردد على أبى حنيفة » (١).

٣٣ - أخذ أبو جعفر يتتبع أباحنيفة وفتاويه ، و يحصيها عايه إحصاء ، ومن ذلك فتواه في أهل الموصل . . . وذلك لأنهم قد انتقضوا على المنصور ، وتسكرر انتقاضهم ، وكان قد اشترط عليهم أنهم أن انتقضوا تحل دماؤهم . . . فيم الفقهاء ـ وفيهم أبو حنيفة ـ ثم قال : « أليس صبح أن النبي صلى الله عليه وسلم قال ، « المؤمنون عند شروطهم» ؟ وأهل الموصل قد شرطوا ألا يخرجوا على ، وقد خرجوا على عاملى ، وحلت لى دماؤهم ، فقال رجل : «يدلشمبسوطة عليهم ، وقولك مقبول فيهم . . فإن عفوت فأنت أهل العفو ، وأن عاقبت فيما يستعقون » ، وأبو حنيفة ساكت ، فالتفت إليه المنصور ، وقال له : « وأفت ما تقول ياشيخ . . . ألسنا في خلافة نبوة ، و بيت أمان؟ » . فقال الإمام أبو حقيفة قوله الحق : إنهم شرطوا لك مالا يملكون ، وشرطت عليهم ماليس لك . . . لأن قوله الحق : إنهم شرطوا لك مالا يملكون ، وشرطت عليهم ماليس لك . . . لأن دم المسلم لا يحل إلا بأحد معان ثلاثة ( أخذتهم أخذت بما لا يحل ، وشرط الله أحق أن توفى به » ، فأمرهم المنصور بأن يتفرقوا ، ثم دعاء وقال : «ياشيخ

<sup>(</sup>١) « مناقب أبي حنيفة ، لابن البزازي : ج ٢ ، ص ٢٢ .

 <sup>(</sup>٢) المعانى الثلاثة هي : النفس بالتفس ، والردة بعد أيمان ، وزنى المنزوج ،
 فانه يكون فيه الرجم .

القول ماقلت ، انصرف إلى بلادك ، ولا تفت العاس بما هو شين على إمامك فتبسط أيدى الخوارج » (١).

كانت هذه الآراء الجريئة ، مع ميوله العلوية من غير تشيع ، سببا فى ألاينظر إليه المنصور نظرة رضا ، بل يترصده ، ويبث العيون حوله ، وقد أضيف إلى هذا أمران آخران .

أحدها — خلاف شديدبين أبى حنيفة وابن أبى ليلى القاضى فكان إذا قضى قضاء لا يرضى أبا حنيفة انتقده أبو حنيفة مر النقد، فكان هذا يشكوه إلى المنصور، وربما كان منه ماهو أكثر من الشكوى، وقد ذكر ذلك أبوحنيفة وإن ذلك بلا ريب يوغر صدر المنصور أكثر مما هو موغر، ثم هو يوجد ذريعة لإنزال النقمة.

ثانيهما — أن فى حاشية المنصور من كان يبغض أبا حنيفة تملقا للمنصور ، أو يبغضه من ذات نفسه ، ومن هؤلاء الربيع حاجب المنصمور ، وأبو العباس العلوسي .

٣٤ – لـكل هذه الأمور ضاق صدر المنصور حرجا ، وبرم بموقف أبى حنيفة من سلطانه ، فكان لابد أن ينزل به عقاباً ... وجده ينتقد القاضى الأكبر فليتول هو القضاء من بعده ، وقد كان المنصور داهية ، لا يظهر أنه يضطهدالعلماء الذين لا يتهمون في دينهم وإيمانهم ، فاتخذ نقد أبي حنيفة ذريعة لدعوته إلى ولاية القضاء ، وهو يعلم أنه سيرفض ، وأن العقاب في هذه الحال له ما يبرره .

دعاه للقضاء ، فقال الإمام الأعظم : « لا يصلح للقضاء إلا رجل يكون له

<sup>(</sup>١) ﴿ المناقب لابن البزازي » : ج ٢ ، ص ١٧ .

نفس يحمكم بها عليك وعلى ولدك وقوادك ، وليست تلك الففس لى » . فقال له المنصور : « فلم لا تقبل صلتى ؟ » ، فقال له الإمام التقى : « ما وصلنى أمير المؤمنين بشىء من ماله فرددته ، إنما وصلنى أمير المؤمنين من بيت مال المسلمين ولا حق لى فى بيت مالهم ، إنى لست ممن يقاتل من ورائهم فآخذ ما يأخذ المقاتل ، ولست من ولدانهم فآخذ ما يأخذ الولدان ، ولست من فقرأتهم فآخذ ما يأخذ الفقراء » (١) .

تكرر عرض القضاء وتكرر الرفض . .حتى حلف المنصور عليه ليقبلن ، فحلف أبو حنيفة ألا يفعل ، ثم يقول : « لو هددتنى أن تغرقنى فى الفرات أو أن ألى الحكم لأخترت أن أغرق ... لك حاشية يحتاجون إلى من يكرمهم لك » (٢) .

لم ينزل المنصور عن طلبه للقضاء ، ثم يطلب إليه أن يراجع أحكام القضاءه ليملن الصواب ويقره ، ويرفض الباطل ولا ينفذه ، ولكنه يصر على الرفض .

عندئذ يحبسه المنصور، ويعذبه فيأمر بضربه كل يوم عشرة أسواط، حتى أشرف على الناف ، فأخرجه المنصور، ومنعه من الدرس والإفتاء . . وقد مات بعد ذلك بقليل ، وأوصى ألا يدفن فى مقبرة جرى فيها غصب ، أو اتهم الأمير فيها بغصب ، ولذلك قال المنصور ، «من يعذرنى من أبى حنيفة حياً وميتاً!».

۳۵ ــ مات أبو حنيفة كما يموت الصديقون والشهداء ، وكان ذلك عام ١٥٠ هـ . وقد كان في الموت راحة لذلك الضمير المعنى ، ولذلك الوجدان الدينى المرهف ، وذلك القلب القوى ، والعقل الجبار ، ولتلك النفس الصبور التي لاقت

<sup>(</sup>١) «المناقب المكي »: ج ١ ، ص ٢١٥٠ .

<sup>(</sup>۲) «تاریخ بغداد » ج ۱۳ ، س۳۲۹ .

الأذى فاحدملته .. لاقته من المخالفين في الآراء ، ورميت بكل رمية ، فتحملت ما رميت به مطمئنة راضية مرضية ، وافيت الأذى من السفهاء ، ثم لقيته من الأمراء ثم الخلفاء ، وماضعفت وماوهنت . وإذا كان للنفوس جهاد ، ولجهادها ميادين ، فأبو حديفة رضى الله عنه كان من أعظم أبطال ذلك النوع من الجهاد، وممن انتصر في كل ميادينه ، وكان جلداً في جهاده ، حتى وهو يلفظ النفس الأخير ... فهو يوصى بأن يدفن في أرض طيبة لم يجر عليها غضب ، وألا يدفن في أرض قد اتهم فيها الأمير .

ولعظمة العلم والدين والحلق روعة وتأثير ، لا تقل عن عظمة السلطان وجاه الحكام، ولذلك شيعت بغداد كلما جنازة فقيه العراق ، والإمام الأعظم . ولقد قدر عدد من صلى عليه بخمسين ألفاً ، بل إن أبا جعفر الذى عذبه صلى على قبره بعد دفنه ، ولا ندرى أكان ذلك إقراراً منه بعظمة الحلق والدين وجلال التقى، أم لإرضاء العامة ... ولعله مزيج من الأمرين . فقد كان أبو حفيفة عظيا حقا . ولقد ذهبت أخبار الذين آذوه ، فلا يذكرون إلا بمظلمة ارتكبوها ، أو دم أراقوه ، أما هو فله آراء تدرس في مشارق الأرض ومفاربها ، وعلم يتذاكره الناس ويتعلمونه ، ويجلون صاحبه ، رضى الله عنه وأرضاه .

# فقه أبي حنيفة

٣٣ -- قال الشافعي رضى الله عنه: «الناس في الفقه عيال على أبي حليفة» وقال فيه عبد الله بن المبارك: « إنه منع العلم » ، أى أنه يصل دائما إلى اللباب الخالص من العلم في غير أنحراف. وقال فيه الإمام مالك بعد أن ناقشه في مسائل مختلفة من العلم: « إنه لفقيه » .

فأبو حنيفة كان فقيها جليلا بلاريب، شفل عصره بفقه، واختلف الناس في أمره، لأنه أتاهم بطريقة في التفكير الفقى لم يسبق بها، أو على الأقل لم

بأخذ أحد بمقدار ما أخذ فيها ، مع استقلال فى التفكير ، واستقامة فى النظر فغضب عليه المتمسكون بظواهر النصوص الذين لا يتغلغلون فى أعماق معانيها ، ورموه بالخروج عن الجادة ، وغضب عليه أهـل الإنجراف الفكرى ، لأنهم وجدوه يضع دعائم ثما بتة للاستنباط فى الفقه الإسلامى ، ويحد الحدود فيها .

#### منهاجه:

رسم أبو حنيفة منهاجا للاستقباط ، وإذا لم يكن مفصلا ، فإنه جامع لأنواع الاجتهاد . ولقد روى عنه أنه قال : «آخذ بكتاب الله ، فإن لم أجد فبسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإن لم أجد في كتاب الله الله تعالى ، ولاسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أخذت بقول أصحابه . . . آخذ بقول من شئت منهم ، وأدع من شئت منهم ، ولا أخرج من قولهم إلى قدول غيرهم . فأما إذا انتهى الأمر إلى إبراهيم (أى النخعى) والشعبى وابن سيرين والحسن وعطاء وسعيد ابن المسيب . . . فقوم اجتهدوا ، فأجتهد كما اجتهدوا (١) » .

وهذا الكلام يدل على أنه يأخذ بالكتاب، ثم السنة، ثم أقوال الصحابة ولا يأخذ بأقو ال التابعين ...وإن هذا هو الاجتهاد بالنصوص. وأما الاجتهاد بنير النصوص، فقد جاء في المناقب للمكي عن أحد معاصريه ما نصه:

كلام أبى حديقة أخذ بالثقة ، وفرار من القبح ، والنظر فى معاملات الناس وما استقاموا عليه ، وصلح عليه أمورهم ... يمضى الأمور على القياس ، فإذا قبح القياس يمضيها على الاستحسان ما دام يمضى له ، فإذا لم يمض له رجم إلى ما ما يتعامل المسلمون به . وكان يوصل الحديث المعروف ، ثم يقيس عليه مادام

<sup>(</sup>۱) ﴿ تاريخ بغداد ﴾ ج ۱۴ ، س۲٦٨ .

الفياس سائفًا ، ثم يرجع إلى الاستحسان : أيهما كان أوفق رجع إليه. قال سهل : هذا علم أبى حنيفة ، وهو علم العامة (١) .

وعلى ذلك يكون المنهاج الذى رسمه أبو حنيفة لنفسه بقوم على أصول سبعة:

١ -- الكتاب، وهو عمود الشريعة وحبل الله المتين ، و نور الشرع الساطع إلى يوم القيامة ، وهو كلى الشريعة ، إليه ترجع أحكامها ، وهو مصدر المصادر لها ، وما من مصدر إلا يرجع إليه في أصل ثبوته .

السنة: وهي المبينة لكتاب الله ، المفصلة لجمله ، وهي تبليغ النبي صلى الله عليه وسلم رسالة ربه ، فهي بلاغ لقوم يوقنون ، ومن لم يأخذ بها ، فإنه لا يقر بتبليغ النبي لرسالة ربه .

٣ - أقوال الصحابة: لأنهم هم الذين بلغوا الرسالة، وهم الذين عاينوا المتنزيل وهم الذين يعرفون المناسبات المختلفة للآيات والأحاديث، وهم الدين حلوا علم الرسول، صلى الله عليه وسلم، إلى الأخلاف من بعده.

وليست أقوال التنابعين لها هذه المنزله ، لأنه فرض في أقوال الصحابة أنها كانت بالتلقى عن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، ولم تكن بالاجتهاد المجرد . وإن بعض أقوالهم ، أو أكثرها مبنية على أقوال للنبى ، وأن لم يرووا الأقوال. فأن أبا بكر وعمر وعليها وغيرهم لم يرووا أحاديث عن النبى صلى الله عليه وسلم بمقادير تتناسب مع طول صحبتهم وملازمتهم للنبى صلى الله عليه وسلم ، فلابدأنهم كانوا يفتون بأقوال النبى من غير أن ينسبوها إليه خشية الكذب عليه صلى الله عليه وسلم ، فلا عليه وسلم .

٤ ـــ القياس : فهو يأخذ بالقياس إذا لم يكن نص من قرآن أو سنة أو قول لصحابى ، والقياس هو إلحاق أمر غير منصوص على حكمه بأمر آخر منصوص على حكمه لعلة جلمعة بينهما ، فهو في حقيقته حمل على النص ، بأن تتعرف الأسباب

<sup>(</sup>۱) المناقب للمكي : ج ١ ص ٨٢

والأوصاف المناسبة للحكم الذى نص عليه ، حتى إذا عرفت علته طبق الحسكم في كل موضع تنطبق فيه العلة . ولقد سماه بعض العلماء تفسيراً للنصوص . وأبو حنيفة قد بلغ في الاستنباط بالقياس الذروة ، وبه بلغ ما بلغ في المرتبة الفقهية ... كان يبحث عن العلة فإذا وصل إليها أخذ يختبرها ، ويفرض الفروض ويقدر وقائع لم تقع ليطبق عليها العلة التي وصل إليها . وذلك النوع من الفقه بسمى الفقه التقديرى ، إذ تقدر وقائع لم تقع ، ثم يذكر حكمها ، وهذا لاختبار العلة التي وصل إليها .

ه — الاستحسان: والاستحسان أن يخرج عن مقتضى القياس الظاهر ، إلى حكم آخر يخالفه: إما لأن القياس الظاهر قد تبين من الاختبار عدم صلاحيته في بعض الجزئيات ، فيبحث عن علة أخرى ، ويسمى العمل بموجب هذه العلة القياس الخفى ، وإما لأن القياس الظاهر قد عارضه نص ، فإنه يترك لأجل النص لأن العمل بموجب القياس يكون إذا لم يكن نص ، وإما لأن القياس خالف الإجاع ، أو خالف العرف ، فإنه يترك القياس ، ويؤخذ بما انعقد عليه الإجاع أو العرف .

٣ -- الإجماع : وهو فى ذاته حجة ، ثم هو إجماع الجتهدين فى عصر من العصور على حكم من الأحكام ، وقد اتفق العالماء على أنه حجة ، ولكن اختلفوا فى وجوده بعد عصر الصحابة ، وقد أنكره الإمام أحمد فى غير عصر الصحابة لإمكان اجتماعهم واتفاقهم ، ولا يمكن اجتماع الفقهاء بعد عصر الصحابة .

√ -- الدرف: وجو أن يكون عمل المسلمين على أمر لم يرد فيه نصر من القرآن أو للمهنة أو عمل الصحاية ، فإنه يكون حجة . . . والعرف قسمان عرف صحيح ، وعرف فاسد . فالعرف الصحيح هو الذي لا يخالف نصا ، والعرف عرف محيح ، وعرف فاسد . فالعرف الصحيح هو الذي لا يخالف نصا ، والعرف عرف محيح ، وعرف فاسد . فالعرف الصحيح هو الذي لا يخالف نصا ، والعرف المداهب )

الفاسد هو الذى يخالف نصا ، والمرف الفاسد لا يلتفت إليه ، والعرف الصحيح حجة فيما وراء النص .

## السمة الواضحة لفقه أبي حديفة :

كان أبو حنيفة تاجراً ذا خبرة بالصفق فى الأسواق ، وقد قسم وقته بين اللتجارة والفقه والعبادة ، وجعل للفقه الحظ الأكبر فى تلك القسمة المثلاثية . وكان رجلا حراً يحترم الحرية فى غيره ، كما يحترمها فى نفسه ، ولذلك اتسم فقهه بسمتين : إحداها الروح النجارية فيه ، والنانية حماية الحرية الشخصية .

أما الأولى — وهى السمة التجارية — فهى واضحة فى أنه كان فى فقهه متأثرا بالفكر التجارى ، يفكر فى العقود الإسلامية المتصلة بالتجارة تفكير التاجر الذى تمرس بها ، وعرف عرفها ، واستبان معاملات الناس فيها ، وواءم يين نصوص الشريعة من كتاب أو سنة ، وما عليه الناس فى تعاملهم .

### وإن ذلك لواضح في أمرين من منهاجه :

أحدها: أخذه بالعرف كأصل شرعى يترك به القياس، والعرف التجارى ميزان ضابط للتجارة ، والتعامل بين التجار .

ثانيهما : أخذه بالاستحسان ، لأن الاستحسان أساسه أن يرى تطبيق القياس الفقهى مؤديا إلى قبح أو معاملة لا تتفق مع المصلحة أو مع العرف التجارى ، فيترك القياس ، وبأخذ بالاستحسان المبنى على المصلحة التي يردها إلى نص شرعى ، أو المبنى على المرف والتعامل بين الناس .

ولقد كان أقدر الفقهاء على تخير أبواب الاستحسان ، حتى إن الإمام عمد يقرر أن أصحاب أبى حنيفة كانوا ينازعونه فى المقايبس، فإذا قال «أستحسن» ، لم يلحقه أحد .

وإن آراء أبى حنيفة فى العقود التجارية — كالسلم ، والمرابحة والتولية ، والوضيعة (١) ، وكالشركات ـ أحكم الآراء بين الفقهاء وأدقها ، وهو أول من فصل أحكام هذه العقود .

وقد وجدنا أبا حنيفة يقيد تفريعه فى العقود التجارية السابقة بقيود أربعة:
أولها: العلم بالبدل علما تنتنى معه الجهالة التى تؤدى إلى نزاع ، لأن أساس العقود فى الشريعة العلم التام بالبدلين ، حتى لا يكون ثمة تغرير أو غش ، وحتى لا تكون ثمة ذريعة للخصومات ، وإن كلة مبينة فى العقد تمنع خصومات كثيرة فى المستقبل قد تنقطع بها المودة بين الناس ، وتحير القضاء فى الفصل بينهم .

ثانيها: تجنب الربا وشبهة الربا ، فإن الربا بسائر أنواعه أبغض التصرفات في الإسلام ، وأشدها تحريما . . . فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : (أكل درهم واحد في الربا أشد من تلاث وثلاثين زنية يزنيها الرجل ، من نبت لحمه من حرام ، فالنار أولى به )(٢) . فسكل عقد فيه ربا فهو باطل ، وكل عقد يكون فيه شبهة الربا يكون باطلا ، سدا للذريعة ، ومحافظة على أموال الناسأن تؤكل بالباطل .

الثالث : أن العرف له حكمه فى تلك المقود التجارية حيث لا يكمون نص ، فما يقره العرف يؤخذ به ، وما لا يقره العرف يترك .

<sup>(</sup>١) السلم بيع آجل بعاجل. والبيع يكون فيه مؤجلا، والنمن يكون معجلا، كمن يدفع ثمن القطن قبل نضجه بشرط ألا بقصد بذلك الربا والمرابخة أن يبيع التاجر لغيره ما اشتراه مضافا عليه الربح كعشرة في المائة أو خسة، والتولية أن يبيعه بمثل ماقام عليه من النمن، والوضيعة أن يبيعه بأقل بما اشترى.

<sup>(</sup>r) المبسوط: ج ١٧ ، ص ١١٠

الرابع: الأصل في هذه العقود التجارية ، الأمانة: فلمن كانت الأمانة أصلا في كل العقود الإسلامية ، بل هي أصل في الأعمال . . . هي في المرابحة والتولية وأخواتهما أصلها الفقهي ، لأن المشترى ائتمن البائع في إخباره عن الثمن الأول. من غير بينة ولا يمين ، فيجب صيانتها عن الخيانة والتهمة .

هذه أصول ثابتة في كل الفروع الفقهية التي أثرت عن أبي حنيفة في المقود. التجارية ، وهي تتفق مع خبرته في الأسواق ، وتتفق مع خبرته في الأسواق ، وتتفق مع أصوله العامة التي رسمها في منهاجه .

### الفقية الحر :

قلنا إن فقه أبى حنيفة يتسم بالحرية الشخصية ، فقد كان رضى الله عنه فى، فقه حريصا كل الحرص على أن يحترم إرادة الإنسان فى تصرفاته مادام عاقلا، فهو لا يسمح لأحد أن يتدخل فى تصرفات العاقل الخاصة به . . . فليس للجاعة ولا لولى الأمر الذى يمثلها أن يتدخل فى شئون الآحاذ الخاصة ، مادام الشخص لم ينتهك حرمة أمر دينى ، إذ تكون حينئذ الحسبة الدينية موجبة للتدخل لحفظ النظام ، لا لحمل الشخص على أن يعيش فى حياته الخاصة على نظام معين. أو يدير ماله بتدبير خاص .

ولقد تجد النظم القديمة والحديثة للأمم ذوات الحضارات ، تنقسم إلى. قسمين في إصلاح الناس :

القسم الأول: أتجاه تغلبت فيه النزعة الجماعية ، إذ تكون تصرفات الشخص فى كل ما يتصل بالجماعة عن قرب أو بعد تجت إشراف الدولة ، وهذا نراه الآن فى بعض النظم القائمة ، ورأينا، فى نظم النهت .

والنظام الآخر نظام تنمية الإرادة الإنسانية ، وتوجيهها بوسائل التهذيب

والتوجيه نحو الخير ، ثم ترك حبلها على غاربها من غير رقابة ، وقد قيدت بشكائم خلقية ودينية تعصمها من الشرور ، وتبعدها من الفساد .

و إن أبا حنيفة كان يميل إلى النظام الثانى. وقد بدا ذلك فى منع الولاية على البالغة العاقلة بالنسبة للزواج ، وفى منع الحجر على السفيه وذى الغفلة ، وعلى اللدين ، ثم بمدم الوقف باعتباره تقييداً لحرية المالك ، ثم إباحته للمالك أن يتصرف فى حدود ملكه مادام لا يتجاوز حد ما يملك ، ولنشر إلى كل واحد من هذه الأمور بكلمة :

# المرأة لماقلة تزوج نفسها :

اتفق الفقهاء على أن البالغة الحرة لايجبرها أحد على الزواج بمن لاتريده ، إلا ماروى عن الشافعي من أنه أجاز للولى إجبار البكر ـــ ولو بالغة عاقلة ـــ على الزواج ، ولكن لم يوافقه الأكثرون على ذلك .

ومع اتفاق الفقهاء على عدم إجبار البالغة العاقلة على زواج مَن لا تريده، قد اختلفوا مع أبى حنيفة ... فهم يرون أن وليها لايرغمها على الزواج ، وهى أيضاً لا تستطيع أن تتزوج من غير إبرادته ، وإن عبارتها لا تصلح لإنشاء عقد الزواج ، بل يشترك وليها في الاختيار ، وهو الذي يتولى صيغة العقد .

هذا ماقرره جمهور الفقهاء ، ولكن أبا حنيفة الحر يخالفهم أجمعين ، وانفرد رحمه الله من بين الفقهاء بذلك الرأى ، وروى عن أبى يوسف تلميذه أنه وافقه ، ولكن الرواية الأخرى عن هذا التلميذ أنه انضم إلى الجمهور ، وترك شيخه .

و إن انفراد أبى حنيفة بهذا الرأى دليل على تقديره للحرية الشخصية . وهو فى ذلك يقدر أن الولاية على الحر العاقل لا تثبت إلا لمصلحته ، و إذا فاتت هذه المصلحة بتقييد الحرية لاتفرض هذه الولاية وذلك لأن تقييد. الحرية ضرر، فلا يصح أن تقيد إلا لدفع ضرر أشد.

ثم إن أبا حنيفة يقول: إن الولاية المالية تثبت لها كاملة ، فكان يجبأن تثبت لها كاملة أيضاً ولاية التزويج . ثم إنه يقرر المساواة بين الفتاة والفتى فى . الزواج ، فكما أن له الولاية الكاملة فى شأن الزواج، فلما أيضاً الولاية الكاملة فى شأن الزواج .

ولكن أبا حنيفة يلاحظ مع هذا أن المرأة قد تسىء الاختيار ، وإذا أساءت الاختيار ، فإن ذلك بكون سبباً لعار يايحق أسرتها ... وهذا مالاحظه المفقهاء ، فنعوها من الزواج إلا بموافقة وليها ، وكيف يدفع أبو حنيفة ذلك العار أو بعبارة أدق كيف يحتاط لمع وقوعه ؟ إن أبا حنيفة يحتاط للأسرة في الوقت الذي يعطيها الحرية ، فهو يشترط أن يكون زواجها بكفء بكافيء أسرتها، وإذا اختارت غير كفء من غير أن يرضى عنه وليها ، فأصح الأقوال عنه أن العقد يكون قاسداً .

وإن الخلاف بينه وبين الفقهاء فى هذا خلاصته أن جمهورهم يمدهون الحرية خشية أن يقم سوء الاختيار، وما يجلب العار . أما أبو حديفة فيرى أن تقييد الحرية ذاته ضرر شديد، ولايصح أن نعزل بها ضررا شديدا احتياطا لضرر يحتمل أن يكون ويحتمل ألا يكون . . . بل إنه يطلق الحرية ، فإن أساءت الاختيار فعلا قسد العقد، وبذلك يكون قد احتاط للحرية وللأولياء معا

### لاحجر على عاقل:

لايحجر أبو حنيفة على السفيه ، ولا على ذى الففلة ، لأنه يرى أن الشخص بهاوغه عاقلا - سواء أكان سفيها أم غير سفيه - قد بلغ حد الإنسانية-

المستقلة ... فمن كان يبذر ماله سفها ، أو لا يحسن استغلاله غفلة ، ليس لأحد أن يحجر عليه . لأنه ليس لأحد عليه سبيل ، وهو صاحب الشأن في ماله مادام لاضرر منه على أحد ، ولا مصلحة في أن يحجر عليه ويمنع من إدارة ماله ، إذ أن الحجر عليه إهدار لآدميته ، وإيذاء لكرامته فمن الكرامة الإنسانية التي يستحقها الإنسان بمقتضى إنسانيته أن يكون مستقلا في إدارة أمواله التي يملكها، وأن ينال الخير من تصرفانه الحسنة ، وينال منبة تصرفانه السيئة ، ويقرر الإمام الحر أن الحجر في ذاته أذى لا يعدله أذى ضياع ماله ... إذ لاشيء آلم للحر من إهدار إرادته .

ولا يصح لأحد أن يقول إن مصلحة الجماعة في الحجر على السفهاء أوذوى الغفلة العقلاء ، لأن مصلحة الجماعة أن تفتقل الأموال إلى الأيدى التي تحسن استغلالها ، بدل أن تبقى على ذمة من لايحسنون القيام عليها ، ويقام غيرهم لحراستها ... إذ أن من مصلحة الجماعة أن تنتقل الأموال من الأيدى الخاملة إلى الأيدى العاملة ، وإذا وصل المال إلى بد رعناء ولم تستطع إمساكه ، فليترك لتلقفه يد أخرى تستطيع المحافظة عليه واستغلاله .

وقد كان أبو حنيفة يقول: إنى لأستحى أن أحجر على رجل بلغ الخامسة والعشرين . وإن ذلك دليل على مقدار احترامه للإنسانية والحرية ، وعلوشأن الإنسان فى نظره رحمه الله تعالى ورضى عنه .

وقد أثبتت النجارب التي تجرى فى القضاء المصرى أنه مار فعت دعوى حجر للسفه أو الغفلة، وأريد بها مصلحة صاحب المال ... إنما كان يراد بها الأذى، ومنع فعل الخير ، وكان الباعث عليها الأثرة من بعض الوارثين ، وماكان الحجر عند الفقهاء لحماية الوارثين ، لأنه لاحق لهم فى المال وصاحب المال على قيد الحياة .

# لا يحجز على مدين، ولا يمنع مالك من التصرف في ملكه:

كما أن أبا حنيفة لا يحجر على سفيه ولا ذى غفلة ، لا يحجر على المدين ، ولا يمنعه من القصرف فى ماله ، ولو كانت دبونه مستفرقة لماله . ولحكن يجبر المدين على الأداء بالملازمة وبالحبس وبالإكراه البدنى لأنه ظالم . . . والنبى صلى الله عليه وسلم يقول: « لى الواجدظلم يحل عقابه » ولحنه لا يهمل إرادته فى القصرف وإمضاء قوله . وجمهور الفقهاء يقررون هذه العقوبات البدنية ، ويقررون معها إهدار كلامه فى ماله ، فلا يحل له القصرف فيا يملك حتى يوفى دبنه ، ويباع ماله جبراً عنه ، ولو لم يستفرق الدين ماله .

وأبو حنيفة ، في سبيل حماية حرية التصرف في الملك ، لا يجيز القضاء أن يتدخل في تقيد حرية المالك إذا ترتب على تصرفه في داخل ملكه أذى لغيره ، ويترك ذلك للضمير الديني المستية ظ ... لأن تدخل القضاء قد يؤدى إلى المشاحة والخصومة وإضعاف الوازع الديني ، وإذا ضعف الوازع الديني لا يوجد ما يغني غناءه ، بينا هو وحده كاف لفطع النزاع ومنع الاعتداء ، وإن إشعار كل جار بأن مصلحته مع جاره مصلحة مشتركة قديدفعه إلى الخير ، وإذا جاء تدخل القضاء اليازم بأحكامه ، ضعف الإحساس بالمصلحة المشتركة ، ويكون النزاع بدل التعاون الحر المختار ... وإن أبا حنيفة يؤثر في تعامل الناس دائمًا الحرية المتسامحة المقيدة بالدين ، عن القضاء المازم المقيد القاطع لمعالى التسامح .

يروى أن رجلا جاء إلى أبى حنيفة يشكمو إليه أن جاره حفر بثراً فى داره

بجوار جدار الشاكى ، وأن استمرار البئرقد يؤثر فى الجدار ، فقال له : حدث جارك ، فقال : حدث خالك ، فقال : احقر فى دارك بالوعة فى مقابل بئره ففعل، فاندفع ماء البالوعة القذر إلى البئر ، فكبسما صاحبها ... وهكذا تضمنت إشارته إشعار الجار بمعنى التعاون .

وإن ابا حنيفة في سبيل حرية التصرف في الملك لم يجز الوقف على أنه لازم لأن لزومه يقتضى في نظره أن يكون المالك غير قادر على التصرف في ملكه، إذ هو يمنعه من التصرف فيه . . . فهو لا يتصور مالكا لا يملك التضرف، ولا يتصور أن الوقف يخرج المعين عن ملك الواقف ، لأنها تخرج إلى غير مالك، ولا يعرف شيئًا جرى عليه الملك ، ثم ينقلب غير مملوك . وما يقال من أنه يصير ملكا لله يعتبره أبو حنيفة ألفاظا لا مؤدى لها ، لأن كل شيء ملك لله تمالى بحكم سلطانه على كل شيء .

ولم يتصور الوقف إلا فىالمسجد، لأنه خالص لله تمالى ، وأضافه الله تمالى إليه ملكله ، فله اختصاص بالله سبحانه وتمالى دون غيره .

## نقل مذهب أبي حديفة :

لم يؤلف أبو حنيفة كتابًا ، إلا رسائل صغيرة نسبت إليه ، كرسالته المساة الفقه الأكبر ، وكرسالته العالم والمتعلم ، ورسالته إلى عثمان البنى المتوفى عام ١٣٢ه ورسالته في الرد على الفدرية . وهذه الرسائل كلها في علم السكلام أو المواعظ . ولم يؤلف كتابًا في الفقة ، بل إن تلاميذه هم الذين قاموا بنقله و تدوين آرائه ، والآثار التي رواها .

وأخص هؤلاء التلاميذ الذين قاموا بحفظ آثار فقيه العراق وآرائه: تلميذان جليلان سميانى تاريخ الفقه الإسلامي باسم الصاحبين ، لتلازمهما وطول صحبتهما ، وقيامهما على المدرسة الفقهية التي أنشأها شيخهما ، وهما :

يعقوب بن إبراهيم بن حبيب الأنصارى نسبًا، والذى يكنى بأبى يوسف، لولده يوسف وقد عاش بعد أبى حنيفة ٣٣ عامًا . ولأبى يوسف مايأتى من الكتب التي دونت فيها آراء أبى حنيفة ورواياته :

١ — كتاب الآثار، وقد رواه يوسف عن أبيه عن أبى حنيفة ، وبعد ذلك يتصل السند إلى الرسول أو الصحابى أو التابعى الذى يرتضى أبو حنيفة روايته، وهو بجمع مع ذلك طائفة كبيرة اختارها من فتاوى التابعين من فقهاء العراق .. فهو يشتمل على المجموعة الفقهية التى قام عليها استنباط أبى حنيفة ، وهي تبين مقامه في الاستنباط والاجتهاد .

۲ — اختلاف بن أبى ليلى ، وهو كتاب جمع فيه مواضع الخلاف بين أبى حتيفة .
 أبى حنيفة والقاضى ابن أبى ليلى المتوفى عام ١٤٨. وفيه انتصار لآراء أبى حتيفة .
 والذى روى الكتاب عن أبى يوسف هو صاحبه محمد بن الحسن الشيبانى.

٣ — الرد على سير الأوزاعى — وهوكتاب قيم قد بين فيه اختلاف.
 الأوزاعى فى العلاقات بين المسلمين وغيرهم فى حال الحرب ، وما يتبع فى الجهاد .
 وقد انتصر فيه لآراء العراقيين .

٤ — كتاب الخراج، وهو الأثر القيم الذى وضع فيه أبو يوسف نظاماً مقرراً ثابتاً لمالية الدولة الإسلامية. وقد كان يذكر فيها ما يخالف فيه شيخه، ويبين وجهة نظره بإخلاص وأمانة ودفاع دقيق عن آراء شيخه، وما لم يذكر فيه خلافاً يفرض أنه متفق فيه مع شيخه الإمام رضى الله عهما.

أما التلميذ الثانى ، فهو محمد بن الحسن الشيبانى ، وهو قد ولد عام ١٣٢ و توفى عام ١٨٩ . فهو لم يجلس فى درس أبى حنيفة مدة طويلة ، ولكنه أثم.

على أبى يوسف مابدأه مع أبى حنيفة ، ويعد حافظ الفقه العراق . وكان تدوينه أول تدوين فقهى جامع لأشتات نوع معين من الفقه ، وقدعاونه أستاذه الثانى أبو يوسف على إخراج تلك المجموعة الفقهية ، وهى كثيرة ، ولكن الذى بعتبر المرجع الأول في الفقه الحقيقي ستة هي :

كتاب الأصل أو المبسوط ، وكتاب الزيادات ، وكتاب الجامع الصغير ، وكتاب الجامع السغير ، وكتاب السير الحبير ، وكتاب السير الحبير ، وكتاب السير الحبير ، وبعضها لم يراجعه . وبعض هذه السكتب راجعها معه أستاذه أبو يوسف ، وبعضها لم يراجعه . وقد قالوا : إن ماوصف بالكبير انفرد بجمعه وروايته ، وما وصف بالصغير عرضه على أبي يوسف .

وهذه الكتب الستة تسى ظاهر الرواية ، وهى يؤخذ بما فيها ، ولا يرجح عليها غيرها إلا بترجيح خاص . وله مع هذا كتابان آخران يبلغان مبلغ هذه الكتب ، وهما : كتاب الرد على أهل المدينة ، وكتاب الآثار . والأخير يتلاق مع كتاب الآثار لأبى يوسف ، وهو يروى عنه كثيراً ، وكتاب الرد على أهل المدينة رواه عنه الإمام الشافعى :

وللإمام محمد كتب أخرى نسبت إليه لم تبلغ من ثقة النقل مابلغته هذه الكتب ، وهذه الكتب هى : الكيسانيات ، والهارونيات ، والجرجانيات . والرقيات ، وزيادة الزيادات . ويقال لهذه الكتب غير ظاهر الرواية ، لأنها لم ترو عن محمد بروايات ظاهرة .

# نمو المذهب الحننى وذيوعه :

نما المذهب الحنفي بالاستنباط والتخريج نمواً عظماً ، وكانت عوامل نموه ترجع إلى ثلاثة أمور .

أولما : كثرة تلاميذ أبي حنيفة ، وعنايتهم بنشر آرائه ، وبيان الأسسالتي.

قام عليها فقهه ، وقد خالفوه في القليل ووافقوه في الكثير ، وعنوا ببيان دليله في الوفاق وفي الخلاف معا .

وقد أكثروا من التفريع على آرائه ، وبيان الأقيسة التي قام عليها التفريع.
وثانيها: أنه جاء بعد تلاميذه طائفة أخرى عنيت باستنباط على الأحكام،
وتطبيقها على ما يجد من الوقائم فى العصور، وإنهم بعد أن استنبطوا على الأحكام
التي قامت عليها فروع المذهب جمعوا المسائل المتجانسة في قواعد عامة شاملة ،
فاجتمع فى المذهب التفريع ، ووضع القواعد والنظريات العامة التي تجمع أشتاته ،
وتوجه إلى كليانه .

وثالثها: انتشاره في مواطن كثيرة ذات أعراف مختلفة ، وتتولد فيها أحداث تقتضى تخريجات كثيرة ، وذلك لأنه كان يعتبر مذهب الدولة العباسية الرسمى ، فكث بهذا أكثر من خسمائة سنة يطبق في نواحى البلاد الإسلامية ، وذلك لأن الرشيد عين أبا يوسف قاضياً لبغداد ، وماكان القضاة يعينون إلا باقتراحه في كل الأقاليم فكان لا يعين إلا من يعتنق المذهب العراقى ، وبذلك عموذاع . وإن الأعراف المختلفة تنمى الاستنباط بلا ريب وخصوصاً أن من أصول الاستنباط في المذهب الحنفي العرف في غير موضع النص ، وعند ما يكون الاستنباط بالتياس .

#### البلاد التي ذاع فيهما المذهب الحنفي :

انتشر المذهب الحفني في كل بلدكان للدولة العباسية سلطان فيه ، وكان يخف سلطانه كلا خف سلطانها ، غير أن بعض البلاد تغلغل فيه بين الشعب، وبعض البلاد كان فيه المذهب الرسمي من غير أن يسود بين الشعب في العبادات . . . . فحكان في العراق وما وراء النهر والبلاد التي فتحت في المشرق المذهب الرسمي وكان مع ذلك مذهبا شعبيا ، وإن نازعه في بلاد التركسة ان وماوراء النهر المذهب الشافعي في وسط الشعب ، وكانت المناظرات تجرى بين الشافعية والحنفية ،

وكانت المآتم تحيا بالمناظرات الفقهية ، فكانت هي العزاء . ومن للناظرات الفقهية المستمرة تولدت الأدلة المختلفة ، فتولد عنها علم ، ولم تتولد عنها عداوة .

وإذا تركنا العراق وما وراءه من بلدان المشرق نجد المذهب الحنني يسود في الشام شعبا وحكومة ، حتى إذا جاء إلى مصر وجد المذهب المالكي والمذهب الشافعي يتنازعان السلطان في الشعب للصرى: الأول لإفامة كثيرين من تلاميذ الامام مالك ، والثاني لإقامة الشافعي بمصر في آخر حياته ، ودفنه بها . وكان للمذهبين علماء أجلاء ، فلما جاء المذهب الحنني كان له سلطان رسمى ، ولم يكن له سلطان شعبي ، حتى جاءت الدولة الفاطمية فأزالت ذلك السلطان ، وأحلت محلم المذهب الشيعي الإمامي ، حتى إذا حل محلم الأيوبيون قووا نفوذ المذهب الشافعي ، حتى جاء نور الدين الشهيد ، فأراد نشر المذهب الحنني في الشعب وأنشأ له المدارس . ولما جاءت دولة الماليك جملت القضاء بالمذاهب الأربعة ، وتي آل الأمر إلى محمد على ، فأعاد إلى المذهب الحنفي صفته الرسمية منفردا .

ولم يتجاوز المذهب الحنفى بلاد مصر إلى المغرب إلا فى عهد أسد بن الفرات. وكان ذلك زمنا قصيرا ، لأن دولة الأغالبة كانت ذات سلطان ، وانفر دالمذهب. المالكي بالنفوذ في المغرب والأندلس .



الا مام مالك بن أنس (ولدعام ٩٣) وتوفى عام ١٧٩ للهجرة)

# الإمام مالك بن أنس

كان لأبى حنيه حلقة فى مسجد الكوفة بالعراق ، يلنف فيها حوله تلاميذه الذين نقلوا إلى الأخلاف منهاجه والفروع التى استنبطها ، ولعله أقدم فقيه نقل تلاميذه إلى الأجيال فقهه ، وكان بالمدينة حلقة أخرى يعقدها إمام آخر يحف به فيها طلاب الحديث وطلاب الفقه ، وقد اختار أن تكون حلقته فى مسجد رسول الله على الله عليه وسلم ، واختار المجلس الذى كان يجلس فيه أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب ليفصل فيه فى شئون المسلمين ، ويدبر فيه شئون الدولة ... فكان الداخل إلى مسجد رسول الله فى النصف الثانى من القرن الثانى بجد شيخامسنون . اللااخل إلى مسجد رسول الله فى النصف الثانى من القرن الثانى بجد شيخامسنون . اللحية ، أشقر الوجه ، يبدو طو الا فيه سمت ومهابة ، ومن يحفون به يغضون . الطرف من مهابته ، ذلكم هو إمام دار الهجرة مالك بن أنس رضى الله عنه .

# مولده ونسبه ونشنأته :

أرجح الروايات على أنه ولد عام ٩٣ه، وقد ولد بالمدينة من أبوين عربيين. من قبائل يمنية فأبوه ينتهى إلى قبيلة يمنية ، وهى قبيلة ذى أصبح ، واسمه أنس. ابن مالك بن أبى عامر الأصبحى ، وأمه تنتهى إلى قبيلة الأزد، واسمها العالية. بنت شريك الأزدية .

وقد نزل جد مالك بالمدينة عقدما جاءها متظلما من بعض ولاة المين ، فاتخذها مستقرا ومقاما . وقد أصهر إلى بنى تيم بن مرة القرشيين ، ثم عاقدهم على أن يكون ولاؤه لهم و نصرته عليهم . وإن بيت مالك بعد أن انتقل إلى للدينة ، انصرف كثيرون منه إلى العلم ورواية الحديث وآثار الصحابة وفقاويهم وكان جد مالك من كبار القابدين ، روى عن عمر بن الخطاب وعبان بن عفان وطلحة بن عبيد الله وعائشة أم المؤمنين . وقد روى عن مالك بنوه ، ومنهم وطلحة بن عبيد الله وعائشة أم المؤمنين . وقد روى عن مالك بنوه ، ومنهم أنس أبو إمام دار الهجرة، ومافع المكنى بأبى سهيل وكان أبوسهيل هذا أكثرهم

عناية بالرواية ، ولذلك عد من شيوخ ابن شهاب الزهرى ، و إن كان مقاربا له في السن . وقد جاء في فتح البارى لابن حجر مانصه « أبوسهيل نافع بن أبى أنس بن مالك ين أبى عامر شيخ إسماعيل بن جعفر . وهو من صفار شيوخ الزهرى بحيث أدركه تلامذة الزهرى . . . وقد تأخر أبو سهيل في الوفاة عن الزهرى » (١٠) .

نشأ إمامنا إذن فى بيت كان يتجه إلى العماورواية الحديث - وإن كان أبوه لم يبلغ شأو جده فى الرواية ، ولا شأو عمه أبى سهيل - فلم يكن غريباأن يتجه فى أول نشأته إلى العلم والرواية ، فلم يتجه إلى حرفة يحترفها ، بل اتجه إلى العلم يصبو إليه ، وكذلك كان أخ له طلب الحديث من قبل اسمه النضر ، كان ملازما العلماء من القابعين يأخذ عنهم . ولما انجه مالك إلى الرواية كان يعرف بأخى النضر لشهرة أخيه ، فلما ذاع أمره بين شيوخه صار أشهر من أخيه وصار يذكر النضر بأنه أخو مالك .

ولقد كانت البيئة العامة ، مع البيئة الخاصة ، توعز إليه بالاتجاه إلى العلم وطلبه ، فقد كانت بينته مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم ، ومهاجره الذى هاجر إليه ، وموطن الشرع ، ومبعث النور ، ومعقد الحكم الإسلامي الأول وقصبة الاسلام في عهد أبي بكر وعروعمان . وكان عهد عمر هو العهد الذي انفتقت فيه القرآخ الإسلامية تستنبط من هدى القرآن والرسول أحكاما تصلح للمدنيات والحضارات التي أظلها الإسلام بسلطانه .

وقد استمرت المدينة فى العهد الأموى موئل الشريعة ومرجع العلماء. وكان عبد الله بن عمر يستشار من عبد الله بن الزبير ومن عبد الملك بن مروان عبد اليهما: « إن كنتما تريدان المشورة فعلميكما بدار الهجرة والسنة ٩ -

<sup>(</sup>۱) فتح البارى ، شرس البخارى - ٤ ، ص ١٨٠ . (١٣ \_ تاريخ المذاهب )

وقد كان عربن عبد العزيز بكتب إلى الأمصار يعلمهم السنن ويكتب إلى أهل المدينة يسألهم عما مضى ويعمل بما عندهم .

هذه هي المدينة وقت نشأة مالك ، وفي ظلم اوظل بيئته الخاصة التي توجيه إلى العلم نشأ إمام دار الهجرة .

طلبه الملم

آنجه مالك إلى حفظ القرآن فحفظه ، وقد اقترح على أهله أن يحضر مجالس العلماء ، كعمه وأخيه من قبل ، ليكتب العلم ويدرسه ، وقد أجابوا طلبه ، وكانت أشدهم عناية أمه ، إذ ذكر لأمه أنه يريد أن يذهب ليكتب العلم ، فألبسته أحسن الثياب وعممته ، ثم قالت له : «اذهب الآن فاكتب» ... بل لم تكتف بالمناية بمظهره ، فكانت تختار له ما يأخذه عن العلماء ، فقد كانت تقول له : «اذهب إلى ربيعة فتعلم من علمه قبل أدبه » . وربيعة هذا فقيه اشتهر بالرأى بين أهل المدينة ، ولهذا التحريض من أمه جلس إلى ربيعة الرأى ، فأخذ عنه فقه الرأى – وهو حدث صغير – على قدر طاقة ، حتى لقد قال بعض معاصريه شرأيت مالكا في حلقة ربيعة وفي أذنه شنف (١) » :

ولقد أخذ من بعد ذلك بتنقل في مجالس العلماء ، كالطير تنتقل بين الأشجار تأخذ من كل شجرة ما تختار من ثمرها . ولكن لا بد من شيخ يخصه بفضل من الملازمة ، ويجمل منه موقفا وهاديا ومرشدا . وقد اختار ذلك الشيخ ، وهو ابن هرمز ، فلازمه . ولقد كان التلهيذ الشاب معجبا بشيخه ، محباله ، مقدرا لعلمه . وقال رضى الله عنه في شيخه : « جالست ابن هرمز ثلاث عشرة سنة في علم لم أبثه لأحد من الناس » . قال : « وكان من أعلم الناس بالرد على أهل

<sup>(</sup>١) الشنف: ما يعلق في أعلى الأذن للأطفال الذكرر.

الأهواء ، و بما اختلف فيه الناس » و كان يتأدب بأدبه ، و يأخذ بحكمته ، و لقد قال في ذلك : «سمعت ابن هر مز يقول : «ينبغي للعالم أن يورث جلساءه قول : «لا أدرى» ، حتى يكون ذلك أصلا في أيديهم يفزعون إليه . فإذا سئل أحدم عما لا يدرى ، قال : « لاأدرى » قال ابن وهب (تلميذ مالك ) : «كان مالك يتمول في أكثر ما يسأل عنه «لاأدرى » .

وابن هرمز الذى تأثر به الإمام مالك ذلك التأثر، هو عبد الرحمن بن هرمز ولقبه الأعرج . . . كان مولى للهاشميين ، وكان قارئًا محدثًا تابعيًا ، روى عن أبى هريرة ، وأبى سعيد الخدرى. ومعاوية بن أبى سفيان . وروى عنه الزهرى . وأبو الزناد وخلق كثير ، وقد توفى عام ١١٧ للهجرة .

## جده في طلب العلم:

جد مالك في طلب العلم من كل نواحيه ، ومن كل رجاله ، وبذل الجهد في طلبه ، ولم يدخر وسعاً في مال أو نفس . . . فكان يتحمل في سبيله كل مشقة ، ويبذل أقصى ما يملك ، حتى كان يبيع سقف بيته ليستمر في طلبه . وكان يتحمل حدة الشيوخ ، ويذهب إليهم في هجير الحر ، وقر البرد ولقد قال ، رضى الله عنه : «كنت آتى نافعاً نصف النهار ، وما تظلني شجرة من الشمس أنحين خروجه ، فإذا خرج أدعه ساعة ، كأبي لم أره ، ثم أنعرض له فأسلم عليه وأدعه ، حتى إذا دخل أقول له ، كيف قال ابن عمر في كذا وكذا ، فيجيبني ، وكان فيه حدة » (1).

ونافع هذا هو مولى عبد الله بن عمر ، وناقل علمه وروايته عن النبى صلى الله عليه وسلم ، وعمل الصحابة ، وخصوصاً أباه الفاروق أميز المؤمنين عمر رضى الله عنهما .

<sup>(</sup>۱) الديباج المذهب ص ١١٧

ونرى من هذاكيف كان يصبر على حر الهجير ، ثم يتوقى حدة الشيخ ، فيتحايل بالصبر ، حتى يأخذ عنه علم عبد الله بن عمر ، وكيف كان يتجنب الإثقال عليه ، حتى لا يمل من لجاجة الطلب ، فينتظره الأمد الطويل ، فإذا لقيه ، حياه ، ثم سكت ، ثم سأل .

وكان حريصا على أن يأخذ عن ابن شهاب الزهرى ، فقد كان يحمل علم, سعيد بن المسيب وكثيرين من التابعين. وكان يتحايل للقائه ، كاكان يتحايل للقاء نافع مولى عبد الله بن عمر ، وكان تحايله فى لقاء ابن شهاب ليكون لقاؤه فى هدو و فيذهب إليه حيث يتوقع فراغه ، ليكون التلقى فى جو هادىء حيث لا يسمع صحبا لجماعة .

وقد روى عن مالك أنه قال : «شهدت الهيد فقلت هذا يوم يخلو فيه ابن. شهاب ، فانصرفت من المصلى حتى جلست على بابه ، فسمعته يقول لجاريته : انظرى من بالباب ، فنظرت ، فسمعتها تقول . مولاك الأشقر مالك ، فقال : أدخليه ، فدخلت ، فقال : ماأراك انصرفت بعد إلى منزلك . قلت : لا . قال : ها ريد ؟ هل أكلت ؟ قلت : لا . قال : اطعم : قلت ، لاحاجة لى فيه . قال : ها تريد ؟ قلت : تحدثنى. قال : هات الألواح . فأخرجت ألواحى ، فحدثنى بأربعين حديثه قلت : دنى قال : صبك ، إن كنت رويت هذه الأحاديث فأنت من الحفاظ (١٠) » .. قلت : دنى قال : صبك ، إن كنت رويت هذه الأحاديث فأنت من الحفاظ (١٠) » ..

ابتدأ مالك - كما ترى - بعلم الرواية ، وهو علم أحاديث رسول الله. صلى الله عليه وسلم ، والعلم بفتاوى الصحابة وتتبعها ، وبذلك أخذ الدعامة التى بنى عليها فقهه. وقد كان يحترم أحاديث رسول الله صلى عليه وسلم منذصباه، حتى إنه كان يمتنع عن أن بروى الأحاديث واقفا وقدجاء فى المدارك أنهسئل . أسمم من عمرو بن دينار ؟فقال: «رأيته يحدث والناس قيام يكتبون، فكرهت.

<sup>(</sup>١) ترتيب المدارك مخطوط بدار السكتب المعكرية ورقة رقم (٢٧١).

أن أكتب حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا قائم » . ومر مرة بشيخه أبى الزناد ، وهو يحدث ، فلم يجلس إليه ، فلميه بعد ذلك ، وقال لة : مامنمك أن تجلس إلى ؟ فقال له : «كان الموضع ضيقا فلم أرد أن أسمع حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا قائم » .

العلوم التى طلبها

طلب الحديث وفتاوى الصحابة أولا ، ولكنه لم يكتف بذلك ، بل اتجه . إلى كلمايتصل بعلم الإسلام مع علم الآثار والرواية .

فنى عصره قد كثر الكلام حول المقائد ، فكان الخوارج ولهم آراء في عمره قد كثر الكلام حول الشيعة بنجلهم المختلفة من كيسانية وإمامية . وزيدية وغيرهم . وكانت هناك نحل أخرى ، وبعضها انشق على الإسلام ، وإن تسمى بأسماء إسلامية .

وقد كان من الحق على كلمن يتصدى لقيادة فكرية أن يعلم هذا ويدركه وقد تلتى هذاعن ابن هر مز \_ كا أخبر عن نفسه \_ وإن كان لم ينشره على تلاميذه والحيطين به . وكأنه بذلك يقسم العلم قسمين : قسم يلتى على الناس ولا يختص به أحد ، إذ لاضرر فيه لأحد ، وكل العقول تقوى على فهمه والانتفاع به ، وهو الخاص بأحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وفتاوى الصحابة ، وبيانها للناس . وقسم لا يعرفه إلا خاصة الناس فلا يلتى ، لأن ضرره على بعض النفوس أكبر من نفعه ، كآراء الفرق المختلفة ورد المنحرف منها ... فإن ذلك يعسر فهمه ، وربما ينهمونه على غير وجهه ، وربما يكون ترديده والرد عليه موجها النفوس المنحرفة إلى ماعليه المنحرفون ... ولعل هناك قسما ثالثالا يعلن إلا بالطلب وهو فقه الرأى ، والفتاوى في المسائل المختلفة ، ولذلك كان لا يجيب عن استفتاء ... واحراك ن في مسألة واقعة ، ولا يجيب عن أمور عير واقعة ولوكانت متوقعة

والعلم الذي قرنه بعلم الحديث — كما ذكرنا — هو فتاوى الصحابة ، وفتاوى التابعين الذين لم يلقهم . . . فتلتى فتاوى عمر رضى الله عنه ، وفتاوى عبد الله بن عر ، وفتاوى زيد بن ثابت وعبد الرحمن بن عوف ، وفتاوى عمان بن عفان ، وغيرهم من الصحابة الذين تصدوا للفتوى وبيان ما تلقوه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهم الذين شاهدوا التنزيل ، وعاينوا الرسول صلى الله عليه وسلم ، وقبسوا من هديه ونوره . وقد كان معنيا بتعرف فتاوى . كبار التابعين ، كسعيد بن المسيب ، والقاسم بن محمد ، وسلمان بن يسار وغيرهم من التابعين الذين عكفوا على فقه الصحابة يتدارسونه ، ويتفهمونه ، ويتعرفون مداه .

ولم يكتف مالك ، رضى الله عنه بفقه الصحابة وكبار التابعين بجوار حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم . بل اتجه إلى فقه الرأى ، وقد تلقاه عن بعض فقهاء الرأى بالمدينة كيحيى بن سعيد ، واختص ربيعة بن عبد الرحن الملقب بربيعة الرأى بالطلب . ويظهر أن الرأى الذى أثر عن ربيعة وغيره من فقهاء الرأى بالمدينة لم يكن كالرأى الذى كان عند أهل العراق ، وهو القياس بأن يعرف حكم مسألة غير منصوص على حكمها بالقياس على مسألة أخرى منصوص على حكمها بالقياس على مسألة أخرى منصوص على حكمها بالقياس على الحراق ، الحكم ، إنما كان الرأى الذى كان يعرفه ربيعة وغيره أساسه التوفيق بين المنصوص والمصالح المختلفة ، ولذلك جاء في المدارك ما نصه : « سئل مالك : النصوص والمصالح المختلفة ، ولذلك جاء في المدارك ما نصه : « سئل مالك : هل كنتم تقايسون في مجلس ربيعة ، ويكثر بعضكم على بعض ؟ قال : لا والله (۱)

وبهذا يتبين أن مالكا ماكان فيكثر من الرأى الذي يكثر فيه القياس

<sup>(</sup>١) الانتقاء لاين عبدالبر ، وتزتيب المدارك .

والتفريع ، حتى إنه كان يكر و الفقه التقديرى الذى يفرض أمورا لم تقع على أنها والعنه ، ويبين حكمها ، وقد كان يكثر ذلك النوع من الفقه فى العراق . وهو وليدكثرة الأقيسة ، واختبار الأوصاف التى تصلح للتعليل لـكى يستقيم القياس ، وتطبق العلة حيث توجد .

هذا و إن مالكا عندما شدا في طلب العلم كان حريصا على أن بتلقى علم الرواية و خصوصا أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وعن أصحابه ، وينتقى الثقات المتفقهين منهم. وقد أوتى فراسة قوية في فهم الرجال و إدراك قوة عقولهم ومقدار فقههم ، وأثر عنه — رضى الله عنه — أنه كان يقول: « إن هذا العلم دين ، فانظروا عن تأخذون منه ... لقد أدركت سبعين عمن يقولون: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم عند هذه الأساطين (مشيرا إلى أعمدة مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم) فما أخذت عنهم شيئا ، وإن أحدهم لو اؤتمن على بيت مال لكان عليه وسلم ) فما أخذت عنهم شيئا ، وإن أحدهم لو اؤتمن على بيت مال لكان عليه وسلم ) فما أخذت عنهم شيئا ، وإن أحدهم لو اؤتمن على بيت مال لكان أمينا ، إلا أنهم لم يكونو ا من أهل هذا الشأن (۱) » .

#### شيوخه :

حدث الثقات أن رسول الله صلى الله عليه وسلمقال: ( يوشكأن بضرب المناس أكباد الإبل فى طلب العلم ، فلا يجدون عالما أعلم — وفى رواية أفقه — من عالم المدينة ) . وهذا الحديث يسوقه المالكية للدلالة على تقدم مالك رضى الله عنه ، وعلى أنه المقصود بهذا الخبر . ونحن نسوقه لغير ذلك ، نسوقه لبيان فضل العلم فى المدينة ، و استبحار علمائها وامتيازها بالكثرة ... نسوقه لبيان فضل المدينة ، البيئة الفكرية التى أظلت الإمام مالكا . وإن امتياز المدينة بالعلم فضل المدينة ، البيئة الفكرية التى أظلت الإمام مالكا . وإن امتياز المدينة بالعلم

<sup>(</sup>١) الانتقاء لابن عبدالبر

لقى عصر الأمويين وأول عصر العباسيين ، أمر ينتهى إليه السياق التاريخى ، وقد كانت المدينة في عصر الخلفاء الراشدين عش الصحابة ، وخصوصا ذوى السبق في الإسلام ، فقد استبقاهم عمر لفضل إخلاصهم ، ولفزير علمهم ، كأنه يضن بهم أن يقتلوا ، وهم حملة العلم النبوى الشريف ، فأبقاهم بجواره لهذا ، ولينتفع برأيهم . . . ولذلك بقى علم هؤلاء في المدينة ، حتى تفرق بعضهم في الأمصار في عهد عثمان وعلى رضى الله عنهما .

فلما جاء العصر الأموى أرز العلماء إلى المدينة لكثرة الفتن بغيرها ، ولأنها صهبط الوحى ، ومكان الجثمان الكريم حجثمان النبى صلى الله عليه وسلم وبها من بقى من الصحابة ، وآثار من مضوامن علمائهم . وكان أكثر التابعين بالمدينة ، وقليل منهم من كان بالعراق والشام وأقل من ذلك من كانوا فيما وراء ذلك . فلما كان آخر العصر الأموى كان العلماء يجيئون إلى الحجاز فارين بعلمهم من الفتن ، واضطهاد الحكام الذين أحسوا بأن الأرض تميد من تحتهم ، ولقد رأينا شيخ فقهاء العراق أبا حنيفة يفر ناجيا بنفسه إلى مكة ، مجاورا بيت الله الحرام بضع سنين .

نشأ مالك فى ذلك الوسط العلمى أرببا مدركا ، وأخذ العلم عن مائة من هؤلاء العلمية . ولقد أخذ من كل المناهج الفكرية ، حتى أنه كان يغشى مجلس الإمام الصادق جعفر بن محمد ، وقد جاء فى المدارك ما نصه :

لقدكنت آنى جعفربن محمد ، وكان كثيرالمزاح والتبسم ، فإذا ذكر عنده النبى صلى الله عليه وسلم اخضر واصفر . ولقداختلفت إليه زمانا ، فما كنت أراه إلا على أحدى ثلاث خصال : « إمامصليا ، وإمّاصائماا، وإمايقرأ القرآن . وما رأيته قط يحدث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا على الطهارة ، ولا يتكلم فيما لا يعنيه ، وكان من العلماء العباد الزهاد الذين يخشون الله . وما رأيته قط

إلا رأيته يخرج الوسادة من تحته ، ويجعلها تحتى ... وجعل يعدد فضائله ومارآه من فضائل غيره من أشياخه في خبر طويل(١) » .

وقد كان حريصا على أن يجمع كل مافى الدينة من آثمار الصحابة وفتاويهم وأقوال النبى صلى الله عليه وسلم . وإذا كان قد لازم ابن هرمز زمانا ، فإنه لم يقطع نفسه عن بقية علماء المدينة ، ولقد ذكر الذين تلقى عليهم علم المدينة ، ومن أخذوا عنهم فقال :

«سمعت ابن شهاب (الزهرى) يقول : جمعنا هذا العلم من رجال فى الروصفة ، وهم سعيد بن المسيب ، وأبو سلمة ، وعروة ، والقاسم ، وسالم ، موخارجة ، وسلمان ، ونافع . . . ثم نقل عنهم ابن هرمز وأبو الزناد ، وربيعة والأنصارى ، وبحر العلم ابن شهاب ، وكل هؤلاء يقرأ عليهم »(٢) .

و إن هذا يدل على أنه تلقى العلم عن ابن هرمز وأ بى الزناد وربيعة، ويحيى ابن سعيد الأنصارى ، وبحر العلم ابن شهاب .

وقد ذكرنا لك أنه كان يتمرف فتاوى عبد الله بن عمر ، وما نقله عن البيه ، من نافع مولاه . وقد وصل إليه بهذا الطريق فقه عمر ، وفقه زيد بن ابت وعبد الله بن عمر وغيرهم .

وهؤلاء الذين ذكرهم ، مع أن عندهم عناية برواية فقه الصحابة والتابمين ، يختلفون في مقدار أخذهم بفقه الرأى . فمنهم من غلبت عليه الرواية ، كنافع مولى عبدالله بن عمر ، وأبى الزناد ، وابن نهاب الزهرى . ومنهم من غلب عليه فقه الرأى: كربيعة ، ويحيى بن سعيد، أما ابن هرمز

۱۱ المدارك : ورقة رقم ۱۰ ۳ .

<sup>(</sup>y) المدارك : ورقة رقم ١٨٧ ·

فلم نجد له ذكراكثيرا فى رواية مالك ، ولكنه كان ذا تأثير شديد فيه ، ويظهر أنه أخذ عنه قدراً كبيراً من الثقافات الإسلامية ، وما يتملق بالمقائد والفرق ، كا نوهنا من قبل ، وكان ابن هرمز لايحب أن يروى عنه ، ولذلك نهى مالكا عن أن يذكره فى سنده ، ورضى أن يحمل اسمه عن أن يشيع عنه النقل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد يكون فيه الخطأ .

وبهذا نستطيع أن نقسم شيوخ مالك إلى قسمين : أحدهما أخذ عنه الفقه والرأى .

والآخر أخذ عنه الحديث وآثار الصحابة . وكان مالك يتلقى من هؤلاء الشيوخ ، ولا يزدرد مايلقى إليه ازدرادا ، بل يفحصه ، ويمحصه ، يقبل بعضه ويرد بعضه . وقد كان مع تقديره لابن هرمز يفحص ما يقول ، ويناقشه فيه . . . وقد كان لهذا يخصه ابن هرمز بكثرة المحادثات العلمية ، ويشركه فيها صاحبه عبد العزيز بن أبى سلمة . وقد قيل لابن هرمز : نسألك فلا تجيبنا ، ويسألك مالك وعبد العزيز فتجيبهما . فيقول : « حل في بدنى ضعف . ولا آمن أن يكون قد دخل على عقلى مثل ذلك ، وأثم إذا سألتمونى عن الشيء فأجبتكم . فبلتموه ، ومالك وعبد العزيز ينظران فيه ، فإن كان صوابا قبلاه ، وإن كان .

#### فقه الرأى في المدينة :

اشتهر العراق بأنه موطن فقه الرأى ، واشتهر الحجاز – وخصوصا المدينة – بأنه موطن فقه الأثر ، وراج ذلك النظر رواجا شديدا ، حتى أصبح , في مرتبة المقررات في تاريخ الفقه الإسلامي . ونحن لا نشك في أن فقهاء الرأى . بالعراق كانوا أكثر أخذا به منهم .

<sup>(</sup>١) المدارك : ورقة رقم ١٤١ .

ولكنا لا نستطيع أن نقول: إن فقه العراق كله فقه رأى ، وأن فقه الحجاز جلة فقه أثر . . . فإن الأثر كان مأخوذا به فى العراق ، والرأى كان مأخوذا به فى العدينة . ولقد كان سعيد ابن المسيب — كبير التابعين فى عهده ، والذى تخرج عليه ابن شهاب الزهرى وغيره — لايهاب الفتيا ، وكان يلقب بالجرى ، . ولا يمكن أن يقدم على الإفتاء بجرأة إلا من يتخذ الرأى فى كثير من الأحيان منهاجا لإفتائه . وإن بعض التابعين كان يدرس الرواية دراسة فاحصة ، فكان لا يقبل حديثا إلا إذا عرضه على كتاب الله ، والمشهور من سنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، والمقرر ات الإسلامية الحجمع عليها . وكان ربيعة يقدم عمل أهل المدينة على أصاديث الآحاد غير المشهورة ، ويقول . ألف عن ألف ، خير من واحد عن واحد . وقد نهج ذلك المنهاج مالك على ماسنبين إن شاء الله تعالى .

و إنه كان في المدينة فقه كثير ، واستنباط عظيم . وما دام ثمة فقه فلا بد أن يكون للتخريج والرأى مجال .

وفى الحقيقة أنه قد اختلف منهاج الرأى عند العرقيين عن منهاج الرأى. عند المدنيين ، فقد كان منهاج الرأى عند العراقيين القياس اتباعا لعبد الله ابن مسعود ، وعلى بن أبى طالب ، ومن نقل عنهما من القابعين كعلقمة و إبراهيم المنخبي وغيرها .

وأن الآثار عند العراقيين تختلف عن الآثارعند الحجازيين مقدارا وشيخا، إذ صار لكل بلد طائفة من العلماء تقود الفكر فيه، وتفذيه بالرواية، حتى أخذت هذه القيادة الفقهية تتكون مذاهب ومناهج.

وقد قال ولى الله الدهاوى فى هذا المقام: « المختار عند كل عالم مذهب أهل بلده وشيوخه ، لأنه أعرف بصحة أقاو يلهم ، وأرعى للأصول القاضية لهم وقلبه أميل إلى فضلهم ، فذهب عمر وعمان وابن عمر وابن عباس وزيد بن بمابت

وأصحابهم مثل سعيد بن المسيب ( فإنه كان أحفظهم لقضايا عمر وحديث أبي هريرة)، ومثل عروة وسالم وعطاء بن يسار ، وقاسم والزهرى و يحيى ابن سعيد وزيد بن أسلم ... أحق بالأخذ من غيره عند أهل المدينة لما بينه النبي صلى الله عليه وسلم في فضائل المدينة ، ولأنها مأوى الفقهاء ، ومجمع العلماء في كل عصر ، ولذلك نرى مالكا يلازم محمتهم، ومذهب عبدالله بن مسعود وأصحابه وقضايا شريحوالشعبي ، وفتاوى إبراهيم ... أحق بالأخذ عند أهل الكوفة (١).

ومع أن الرأى كان عند المدنيين ، كما كان عند العراقيين ، فإنه لابد أن ثمة اختلاف التابعين الذين اختصت كل مدرسة بطائفة منهم ، ولابد أن يكون ثمة اختلاف من حيث مقدار الرواية والرأى ، فالرواية — بلاريب كانت بالمدينة أكثر ، لأنها كانت مقام الصحابة أولا ، ومأواهم ومأوى أكثر التابعين آخرا . وفوق ذلك هناك اختلاف آخر ، وهو أن كبار التابعين كانت أقوالهم لها مقامها عند فقهاء المدينة كالك ومن كان قبله من مشيخته ، بينها آراء التابعين — ونو كانوا كبارا . لم يأخذ بها أكتر فقهاء العراق أخذ اتباع بينها آراء التابعين ونوكانوا كبارا . لم يأخذ بها أكتر فقهاء العراق أخذ اتباع .فأبو حنيفة يقول: «إذا جاء الأمر إلى إبراهيم والحسن ، فهم رجال و يحن رجال» .

وإن الرأى عند أهل المدينة مخرج على الآثار ' وسائر على منهاج عمر ،ومن جاء بعده من الأخذ بالمصلحة ... فهو رأى يشبه الآثار ' ولا يخرج عنها . إلا إلى ماهو في معناها .

وننتهى من هذه الدراسة إلى أن الرأى بالمدينة لم يكن قليلاكما توهم عبارات بمض المكتاب فى تاريخ الفقه ، وأن كان فى الكثرة دون العراق ، ويخالف منهاج العراقيين .

وقد قبس مالك من الرواية والرأى في المدينة ، فمكان محدثا ونقيها ،وقد قال

<sup>(</sup>١) حمية الله البالغة ، ج١ ، ص١٤٤ .

فيه ولى الله الدهاوى: «كان مالك من أثبتهم فى حديث المدنيين عن رسول. الله صلى الله عليه وسلم ، وأوثقهم إسنادا وأعلمهم بقضايا عمر وأقاويل عبد الله ابن عمر ، وعائشة وأصحابهم ... وبه وبأمثاله قام علم الرواية والفتوى ، فلماوسد. إليه الأمر حدث وأفتى وأفاد وأجاد (١) » .

#### جلوس مالك للدرس:

جلس مالك للدرس ورواية الحديث بعد أن تزود من زاد المدينة العلى ، واستو ثق لنفسه ، واطمأن إلى أنه يجب أن يعلم بعد أن تعلم ، وأن ينقل للناس أحادبث رسول الله صلى الله عليه وسلم كا رواها من الثقات ، وأن يفتى و يخرج ، ويرشد المستفتين . ويظهر أنه قبل أن يجلس للدرس والافتاء استشار أهل الصلاح والفضل . وقد قال فى ذلك : « ليس كل من أحب أن يجلس فى المسجد للحديث والفتيا جلس ، حتى يشاور أهل الصلاح والفضل و الجهة من المسجد ، فإن رأوه لذلك أهلا جلس وما جلست حتى شهد لى سبعون شيخا من أهل العلم أنى موضع لذلك .

بعد هذه الشهادة التي لا تعدلها شهادة ، جلس مالك للدرس والافتاء ، ولم تعرف سنه على وجه اليقين ، ولكن مجموع أخبار حياته يدل على أنه قد بلغ من السن حد النضج ، وأنه ما جلس حتى بلغ أشده .

والرواة يقولون: أنه مع شهادة السبعين عالما له ، ما جلس إلا بعد أن اختلف مع ربيعة . وقد ذكر هذا الخلاف في رسالة الليث بن سعد إليه ، فقد جاء فيها : « وكان خلاف ربيعة لبعض ما قد مضى مما قد عرفت وحضرت وسمعت قولك فيه ، وقول ذوى الرأى من أهل المدينة : يحيى بن سعيد ، وعبيد الله بن عبر ، وكثير بن فرقد ، وغير كثير ممن هو أسن منه ، حتى بن عبد الله بن عبر ، وكثير بن فرقد ، وغير كثير ممن هو أسن منه ، حتى

<sup>(</sup>١) حجة الله البالغة ، ص ١٤٥٠

اضطرك إلى ماكرهت من ذلك إلى فراق مجلسه . وذاكرتك أنت وعبدالعزير ابن عبدالله بعض ما نعيت به على ربيعة من ذلك ، فكنتما من الموافقين فيما أنكرت ، تكرهان منه ماأكرهه . ومع ذلك - بحمد الله - عند ربيعة خير كثير ، وعقل أصيل ، وفضل مستبين وطريقة حسنة في الإسلام ، ومودة صادقة لاخوانه عامة ، ولنا خاصة . . . رحمه الله وغفر له ، وجزاه بأحسن حمله » .

و إذا كان ربيمة قد توفى عام ١٣٦ للهجرة » ففد توفى ومالك قد بلغ الثالثة والأربمين ، فإذا كان الأمركذلك فإنه يتصور أن مخالفة مالك له ، وهو فىسن ناضجة كاملة ، وهو المعقول .

### · مجلسه فی درسه :

كان فى أول أمره بجلس فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد الحتار أن يجلس فى مجلس عمر بن الحطاب رضى الله عنه كما أشرنا ، واختار أن يسكن فى البيت الذى كان يسكنه عبد الله بن مسمود ، وذلك لتحف به آثار الصحابة فى مقامه ومبيته ، كما يعيش فى جوهم بفكره ورأيه .

ولم يلازم مالك المسجد في درسه طول حيانه كافعل أبو حنيفة ، فقدانتقل حرسه إلى بيته عندما مرض بسلس البول . ولما لج به المرض انقطع عن الخروج إلى الناس ، و إن لم ينقطع عن الدرس وقد جاء في الديباج المذهب لابن فرحون: « قال الواقدى : كان مالك بأتى المسجد . ويشهد الصلوات والجنائز ، و يبود المرضى، ويقضى الحقوق، و يجلس في المسجد ، فيجتمع إليه أصحابه . ثم ترك الجلوس في المسجد . فسكان يصلى وينصرف إلى مجلسه في داره ، وترك حضور الجنائز ، في المسجد . فسكان يصلى وينصرف إلى مجلسه في داره ، وترك حضور الجنائز ، فكان بأتى أصحابها و يعزيهم ، ثم ترك ذلك كله . فلم يكن يشهد الصلوات في المسجد ولا الجمعة ، ولا يأتى أحداً يعزيه ، واحتمل الناس له ذلك حتى مات ،

موكان ربما قيل له في ذلك فيقول: ليس كل الناس يقدر أن يتكلم بمذره » .

وكان له في درسه مجلسان: أحدهم للحديث، والآخر للمسائل، أي الفتيا في أحكام الأمور التي تقع. ولما انتقل درسه إلى بيته كان له أيضاً هذان المجلسان. ويمكي أحد تلاميذه « أنه كان عند ما انتقل درسه إلى بيته إذا أتاه الناس. تخرج لهم الجارية، فتقول لهم: يقول لسكم الشيخ أثريدون الحديث أم المسائل؟ فإن قالوا المحديث، قال لهم الجلسوا، فإن قالوا الحديث، قال لهم الجلسوا، ودخل مفتسله فاغتسل وتطيب، ولبس ثياباً جدداً، وليس ساجة وتعمم، فتلتى له المنصة، فيخرج إليهم قد لبس وتطيب وعليه الخشوع، ويوضع عود. فلا يزال يبخر. حتى يفرغ من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم »(١).

وقد انتهى أمره بأن خصص أياماً للحديث وأخرى للمسائل . والمسائل الخاصة كانت ترفع إليه ، ويكتب جوابها لمن يريدها من غير أن ينزل ، ويفعل دلك مع أمير المدينة كما يفعله مع غيره .

وقد التزم مالك في درسه - سواء أكان حديثًا أم كان إفتاء - الوقار، والابتماد عن لغو القول. وكان يرى ذلك لازمًا لطالب العلم، فكان يقول: «حقًا على من طلب العلم أن يكون فيه وقار وسكينة وخشية ،وأن يكون متبمًا لآثار من مضى. وينبغى لأهل العلم أن يخلوا أنقسهم من المزاح، ومخاصة إذا ذكروا العلم ؟. وكان يقول: « من آداب العالم ألا يضحك إلا مبتسما » ...

<sup>(</sup>۱) المدارك : ورقة رقم ۱۷۱ والديباج : ص ۲۳ . والساجة لباس للرأس يشبه تيجان الملوك .

وقد أخذ نفسه بذلك أخذاً شديداً ، حتى أنه مكث يحدث ويدرس نحو خسين. سنة فما عدت له ضحكة فى أثناء درسه !

وماكان ذلك لجفوة فى طباعه ، بلكان تأدباً فى علم إلدين . فإذا كان فى غير مجلس العلم الدينى تبسط و تواضع : وكان موطأ الأكناف ، قال بعض تلاميذه: «كان مالك إذا جلس معنا كأنه واحد منا . يتبسط معنا فى الحديث وهو أشد تواضعاً منا له . فإذا أخذ فى الحديث (أى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم)» تهيبنا كلامه كأنه ماعرفنا ولا عرفناه » .

وفى أثناء العام كان يحضر درسه من شاء من أهل المدينة ، سواءاً كان درسه فى بيته أم كان فى المسجد . ولما آل درسه إلى البيت ما كان ليتسع الحجاج كلهم فى موسم الحج ، ولذلك كان يأمر الآذن له بأن يأذن لأهل المدينة أولا ، فإذا انتهى من التحديث إليهم أو الفتوى لهم أذن لغيرهم ، وربما أذن لبعض الأقاليم ثم لغيرهم إذا كان الاردحام ببابه شديداً . وقد جاء فى المدارك : « قال الحسن بن الربيع : كنت على باب مالك فنادى مناديه : ليدخل أهل الحجاز فما دخل إلاهم . ثم نادى فى أهل الشام . ثم نادى فى أهل السام . ثم نادى فى أهل العراق فكنت آخر من دخل، وفينا عماد بن أبى حنيفة » .

وكان رضى الله عنه فى فتاويه لا يجيب إلا عن المسائل الواقعة ، فلا يجيب. عن مسألة لم تقع ، وإن كانت متوقعة ، كما كان يفعل أبو حنيفة . سأله رجل عن مسألة لم تقع ، فقال له : « سل عما يكون ، ودع ما لا يكون » . وقد قال ابن القاسم تلميذه : « كان مالك لا يكاد يجيب. وكان أصحابه يحتالون أن يجيء رجل بالمسألة التي يحبون أن يعلموها ، كأنها مسألة بلوى فيجيب عنها (١).

<sup>(</sup>١) معنَّا ما مسألة واقعة لامتوقعة

ومالك ، إذ امتنع عن الإجابة على المسائل الفرضية ، قد حصن عقله فى نظره من أن يندفع منساقاً بشهوة الفرض والتقدير ، إلى ما يحتمل أن يكون مخالفة الآثار عن غير بينة . وإنه يرى أن الإفتاء ابتلاء للعالم ، لايقدم عليه إلا لإرشاد الناس فى أعمالهم وحلهم على الوقوف فى دائرة الدين الحنيف .

وإنه في إفتائه في المسائل كان يتحرز عن الخطأ ، ولا يجيب إلا عما يعلم ، فإن كان لا يقطع في المسألة برأى يقول : «لا أدرى » ، ويعتبر تلك السكلمة حصناً يتحصن به من الوقوع في الخطأ . وقد روى في ذلك أن رجلاسأله عن مسألة ، وذكر أنه أرسل فيها من مسيرة ستة أشهر من المفرب ، فقال : « أخبر الذي أرسلك أن لاعلم لي بها » فقال . ومن يعلمها ؟ قال « الذي علمه الله » (١٠) . وسأله رجل من أهل المغرب أيضاً ، فقال : « ماأدرى ، ما ابتليدا بهذه المسألة في بلدنا ، وما سمعنا أحداً من أشياخنا تسكلم فيها ، ولكن تعود إلينا غداً » . فقال الرجل : « يا أبا عبد الله تركت خلق من يقول : « ليس على وجه الأرض أعلم الرجل : « يا أبا عبد الله تركت خلق من يقول : « ليس على وجه الأرض أعلم منك » . فقال مالك غير مستوحش : « إنى لا أحسن » (٢٠).

#### صفات مالك:

وإن هذا الهدى وذلك العلم ، ينبعث أول ماينبعث من صفات الشخص ، ثم من شيوخه بالتوجيه ، ومن عصره بالجوالفكرى الذى يتفذى منه ، ثم بحموده : وقد أشرنا إلى بعض من ذلك ، ولكن يجب أن نتكلم بالتفصيل المناسب فى المقوم لشخصيته ، وهو صفاته الذاتية ، فإنها الأصل وغيرها فروع

<sup>(</sup>١) المدارك : ورقة رقم ١٥٩ .

<sup>(</sup>٢) الكتاب المذكور .

تتفذى منهاكما يتفذى الجذع من الأغصان ، وإن كانت لا وجود لها يغير قيامه وامتداد جذوره في باطن الأرضحيث يتكمون من الخصب والماء .

١ — لقد آناه الله حافظة واعية ، وحرصاً شديداً على الحفظ وصيانة ما يحفظ من النسيان . وقد سمع من ابن شهاب الزهرى واحداً وثلاثين حديثاً . . . لم يكتبها ، ثم أعادها على شيخه ، فلم ينس منها إلا حديثاً واحداً . وإنه كان ينمى الحفظ وشدة الوعى في عصر مالك الاعتماد على الذاكرة في ذلك الزمان . فما كان العلم ، وخذ من الكتب ، بل كان يتلقى من أفو اه الرجال ، وكانت أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم غير مدونة في كتاب مسطور ، بل كانت في القلوب ومذكرات خاصة للشيوخ ، لا يتداولها التلاميذ ، وإنما يتلقون ما احتوته من أفر اه كتابها .

ولا شك أن الحافظة القوية أساس للنبوغ فى أى علم ، لأنها تمدالعالم بفذاء لمقله يكون أساساً لفكره . وكان مالك بهذه الحافظة القوية الححدث الأول فى عصره ، حتى لقد قال فيه الشافعى : « إذا جاء الحديث فمالك النجم الثاقب»، وقال فيه شيخه ابن شهاب إنه « وعاء علم » .

ومع هذه الفزارة فى الأحاديث التى حفظها ، كان لا يحدث الفاس إلا بما يرى فى التحديث به مصلحة . قيل له : عند ابن عيينة أحاديث ليست عندك ، فقال : « إذن أحدث بكل ماسمعت ، إنى إذن أحمق ، إنىأريدأن أضام م إذن ولقد خرجت منى أحاديث لوددت أنى ضربت بكل حديث منها سوطا ولم أحدث بها » (1).

٢ - وكان مالك ، مع هذه القوة العقلية الواعية ، ذا جلد وصبر ومثابرة فــكان ينالب كل المعوقات التي تقف في سبيل طلبه للعلم : عالج شغاف العيش

<sup>(</sup>١) المدارك ورقة رقم ١٦٤.

وهو يشدو فى طلبه ، وعالج حدة الشيوخ ، وصبر على حر الهجيرة كما صبر على قارس البرد ، وهو يسمى إلى الشيوخ متنقلا إليهم فى القر والحر ، وكان يحث تلاميذه على الصبر فى طلب العلم ، ويقول : « من طلب هذا الأمر صبر عليه » وقال لهم فى أحد مجالسه : « لا يبلغ أحد ما يريد من هذا العلم ، حتى يضر به الفقر ، ويؤثره على كل حال » .

أعطته هذه الصفة قوة إرادة وعزيمة جملته يواجه مشكلات الحياة بإرادة صارمة ، وجملته يستولى على أهوائه وشهواته ، فما سيطر عليه هوى جامح ، ولا ضعف أمام ذى سلطان ، وذلك فوق ما تمكر بها من طلب العلم من كل نواحيه .

٣ - والصفة التي أشرق بها قلبه بنور الحسكة هي الإخلاص ... أخلص في طلب العلم ، فطلبه لذات الله ، و نتى نفسه من كل شو أئب الغرض والهوى . وأخلص في طلب الحقيقة ، وأنجه إليها من غير عوج ولاأمت ، والإخلاص يضيء الفسكر فيسير على خط مستقيم ، وهو أقرب الخطوط للوصول إلى الحق ، كا هو أقرب الخطوط ببن نقطتين . و إنه لا شيء يعسكر صفو الفكر أكثر من الهوى ، فإنه يكون كالغيم على الحقائق فيمنع العقل من رؤيتها .

ولقد دفعه الإخلاص لأن يقول ويقرر أن نور العلم لا يؤنس إلا من المتلاً قلبه بالتقوى ، فهو يقول : « العلم نور لا يأنس إلا بقلب تتى خاشع » .

ولا خلاصه فى طلب العلم كان يبتعد عن شواذ الفتيا ، ولا يفتى إلا بما هو واضح نير ، وكان يقول : « خير الأمور ما كان ضاحيا نيرا ، وإن كنت فى أمرين أنت منهما فى شك ، فخذ بالذى هو أو تق » .

وكان يتأنى فى الفتوى ولا يسارع إلى الإجابة، وقد قال ابن عبد الحسكم: كان مالك إذا سئل عن المسألة ، قال للسائل : « انصرف حتى أ نظر، فينصرف ،

ويتردد فيها ، فقلنا له في ذلك فبكي ، وقال : « إلى أخاف أن يكون لى من المسائل يوم وأى يوم » . وما كان يمتبر في الفتاوى خفيفا وصعبا ، بل يمتبر ها كلما أمرا صعبا مادام يترتب تحايل أو تحريم على قوله . سأله سائل وقال له : مسألة خفيفة ، فغضب ، وقال : « مسألة خفيفة سهلة !! ليس في العلم شيء خفيف . أما سمعت قول الله تعالى: [إناسنلقي عليك قولا ثقيلاً ()] ، فالعلم كله ثقيل ، وخاصة ما يسأل عنه يوم القيامة » .

وكان لإخلاصه لايقول هذا حرام أو هسذا حلال ، إلا إذا كان ثمة نص صريح ، أما ما يكون استنباطا بوجه من وجوه الرأى ، فإنه لايقول حلال وحرام ، بل يقول : أكره وأستحسن . وكثيرا ماكان يمقب على ذلك بقوله مقتبسا من القرآن : [ إن نظن إلا ظنا ،ومانحن بمستيقنين (٢)].

وقد دفعه إخلاصه لأن يبتعد عن الجدل في دين الله ، ويدعو إلى ألا يجادل أحد في دين الله ... لأن المجادلة نوع من المنازلة ، ودين الله تعالى أعلى من أن يكون موضع منازلة بين للسلمين ، ولأن الجدل يدفع في كثير من الأحيان إلى التعصب للفكرة من غير أن يشعر المجادل ، والتعصب يجعل نظر المتعصب جانبيا لا يرى إلا من ناحية واحدة . ثم كان يرى أن الجدل لا يليق بكر امة العلماء ؛ لأن السامعين ينظرون إلى الديكة وهي السامعين ينظرون إلى الديكة وهي تتناقر . ولقد جابه بهذه الحقيقة الرشيد ، وأبا يوسف صاحب أبى حنيقة ، عندما قال الرشيد له : « ناظر أبا يوسف » . فقال له : « إن العلم ليس كالتحريش بين البها م والديكة » .

ولكراهيته للجدل أكثرمن النهى عنه ، فكان يقول : « الجدال يقسى القلب ، ويورث الضفن ». ويقول : « المراء والجدل فى الدين يذهب بنورالعلم من قلب العبد » . وقيل له : رجل له علم بالسنة أيجادل عنها ؟ فقال: «لا، ولكن

<sup>(</sup>١) سورة المزمل الآية ٢٥ (٢) سورة الجاثية الآية ٢٣٧

ليخبر بالسنة ، فإن قبل منه ، وإلا سكت » . وكان يرى أن الجدل يبعد المتجادلين عن حقيقة الدين ، وقال فى ذلك : «كلما جاء رجل أجدل من رجل تركنا مانزل به جبريل » .

ومع نهيه عن الجدل كان يناظر بعض العلماء المخلصين ليبين لهم الدليل ، ويناقشهم فيه ويناقشونه .

وقد دفعه إخلاصه للدين لئالا يكثر من التحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولأن ينتقى ما يحدث به الناس، وقد أشرنا إلى ذلك ، كاكان يقال من الإفتاء، ولا يفتى إلا فيما يقع بين الناس.

#### مالك والقضاة :

دفع مالكا إخلاصه ونزاهته إلى ألايفتى في مسائل نقصل بالقضاة وأحكامهم. قال تلميذه ابن وهب: «سمعت مالكا يقول ، فيا يسأل عنه من أمر القضاة :هذا من متاع السلطان » . فهو ماكان يتعرض لأحكام القضاة بنقد ، وهذا موقف يختلف فيه عن أبى حنيفة رضى الله عنهما – وكلاهاكان في مسلكه مخلصا فأبو حنيفة دفعه إخلاصه للفقه وللدين لأن ينقد قضاء القاضى عبد الرحمن ابن أبى ليلى في درسه ، حتى اضطر إلى الشكوى منه للولاة والأمراء ، وحتى صدر الأمر بالحجر على أبى حنيفة من الفتوى زمنا حرم الناس فيه من فقهه الهميق الدقيق .

ودفع الإخلاص مالكا لأن لا يتمرض لأحكام القضاة علمنا ، لأن التمرض لها بالنقد على الملأ من تلاميذه وأصحابه يجرىء الناس على عسيانها ، فتذهب هيبتها وجلالها ، فلا تجتث المنازعات من جذورها.

ذانك موقفان دفع إليهما الإخلاص، وهما متعارضان. . دفع إلى الأول الاخلاص للعلم والحقيقة، ودفع إلى الثانى الاخلاص للنظام والفصل بين الناس.

ونو أن لنا أن نختار لأخترنا موقف إمام دار الهجرة رضى الله عنه ، وخصوصا أنه يجمع إلى موقفه أنه كان يوالى افنصح للقضاة ، ويرشدهم فيا بينه وبينهم إلى الحقالصريح الذي لامجال لانكاره ، فهو يهديهم من غير ماتنقيص ولا تهوين للأحكام .

#### فراسة مالك :

ع -- وقد كان مالك ذا فراسة قوية تنفذ إلى بواطن الأمور ، وإلى نفوس الأشخاص ، يعرف ما يخفون فى نفوسهم من حركات جوارحهم ، ومن لحن أقوالهم .

وإن الفراسة صفة تتكون فى الشخص من قوة إحساسه ، وشدة يقظته المقلية والنفسية ، ونفاذ البصيرة ، والتتبع الشديد لحركات الأعضاء ، والتجارب الكثيرة لعقل قوى أريب . . . وذلك كله يهبه العليم الخبير ، والتربية تنميه وتقويه .

وقال الشافعى فى فراسة مالك: « لما سرت إلى المدينة ولقيت مالسكا وسمع كلامى ، نظر إلى ساعة – وكانت له فراسة – ثم قال: « ما أسمك؟ » « قلت محمد » . قال: يا محمد اتق الله ، واجتنب المعاصى ، فإنه سيكون لك شأن من الشأن » .

والفراسة النافذة إلى نفوس الأشخاص التى تكشف كنه أمورهم ، من الصفات التى يعلو بها كل من يتصدى لإرشاد الناس وتعليمهم ، فإنه يستطيع أن يعرف خبايا أمراضهم ، فيعطيها الدواء الشافى والغذاء الصالح الذى تقوى على هضمه ، ويتم به شفاء النفس وسلامتها وقوتها .

#### هيبة ــــه :

انفقت الروايات على أن مالكا - رضى الله عنه - كان مهيبا ،

حتى أنه ليدخل الرجل إلى مجلسه فيقرىء السلام للحاضرين ، فما يرد أحد إلا همهمة وبصوت خفيض ، ويشيرون إليه ألا يتكلم . فيستنكر عليهم القادم ذلك ،ولكنه ما أن يملأ المين من مالك وسمته ، ويقع تحت تأثير نظراته النافذة حتى يأخذ مأخذه ، ويجلس معهم ، كأن على رأسه الطير مثلهم .

وكان يهابه والى المدينة حتى إنه لا يحس بالصفر إلا فى حضرته ، ويهابه أولاد الخلفاء ، حتى إنه ليروى أنه كان فى مجلس أبى جمفر المنصور، وإذاصبى يخرج ثم يمود ، فقال المنصور: أتدرى من هذا ؟ قال: لا، قال: هذا ابنى، وإنما يفزع من شيبتك ... بل يهابه الخلفاء أنفسهم ، إذ يروى أن المهدى دعاه وقد ازد حم الناس بمجلسه ، ولم يبق موضع لجالس — حتى إذا حضر مالك تنحى المناس له ، حتى وصل إلى الخليفة ، فتنحى له عن بمض مجلسه ، ورفع إحدى رجليه ليفسح لمالك المجلس ... وهكذا كان شيخ فقهاء المدينة مهيبا ، حتى كان له نفوذ أكبر من نفوذ الولاة ، وله مجلس أقوى تأثيرا من مجلس السلطان من غير أن يكون ذا سلطان ، وقد قال فيه بعض شعراء عصره :

يأبى الجواب فما يراجع هيبة والسائلون نواكس الأذقان أدب الوقار وعز سلطان التقى فهو المطاع وليس ذا سلطان

وما سر هذه الهيبة ؟ إنه مهما يكن للشخص من صفات عقلية وجسمية لا نستطيع أن نسند المهابة إليها وحدها . وإن من الناس من تتوافر فيهم هذه المهابة ، ولذا نقول في سبب هذه المهابة إنه قوة الروح ، فن الناس رجال قد آتاهم الله تأثيرا روحيا في غيرهم يجمل لهم سلطاناعلى النقوس ، فيكون لكلامهم مواضع في النفس ، وكأنما يخطون في النفوس خطوطا حين يتكلمون . وقد أعطى الله تعالى مالكا هذه القوة الروحية .

وكانت حياته كلها تزيدها وتنميها ، وتظهرها وتجليها ... فحيساة عقلية متسمة الأفق والمدى ، وعلم غزير ، وضبط للنفس ، و نفاذ بصيرة ، وسمت حسن، وقلة في القول - فإنه لا يذهب المهابة أكثر من لفط السكلام وكثرته التي تدفع إلى السقط ، إذ كل سقطة في القول تذهب بشطر من المهابة - ومع هذا كله قد بعد مالك عن الملق والرياء ، والتزم التقوى ، وصدق القول ، وكانت له عناية بالمظهر ، فكان يعني بأثاث منزله و بملبسه ، يلبس أجود الثياب ، ويعنى بنظافتها وتنسيقها . وقد أوتى بسطة في الجسم ، فكان له مظهر جسمي ممتاز . وقد قال أحد تلاميذه في وصفه : «كان طويلا جسيا ، عظيم المامة ، أبيض الرأس واللحية ، شديد البياض ، أعين (١) ، حسن الصورة ، أشم الأنف ، عظيم اللحية تبلغ صدره ، ذات سعة وطول . وكان يأخذ أطراف شاربه ولا يحلقه ، ولا يحلقه ، ولا يحقيه ، وبرى حلقه من المثلة ، ويترك له سبلتين طويلتين ، ويحتج بفتل عمر لشار به إذا أهمه أمر » (٢) .

وهكذا كانت صفاته الجسمية والعقلية ، وأخلاقه وأحواله ، من شأنها أن تربى المهابة منه ، وقد بلفت هيبته حدا أعلى من هيبة الملوك ... دخل عليه بمض أهل الأندلس ، فقال بعد أن رآه : « ما هبت أحدا هيبتي من عبد الرحمن بن معاوية (أي عبد الرحمن الداخل) ، فدخلت على مالك فهبته هيبة شديدة صغرت معما هيبه ابن معاوية » .

مەيشتە ورزقە :

لم تبين كتب المناقب والأخبار موارد رزق مالك أيام طلبه للعلم ، ولاموارد

<sup>(</sup>١) أعين : واسع العينين.

<sup>(</sup>٣) الديباج الذهب لابن فرحون ، س ١٨ .

رزق أسرته، ببیان كامل موضح.ولنگن جاءت أخبار منثورة یكشف مجموعها عن موارد رزقه، وإن لم یكن كشفا واضحا بینا .

ولقد ذكر العلماء أن أباه كان يصنع النبال ، ولسكن لم ينشأ ابنه على هذه الصناعة ، بل اتجه إلى رواية الحديث ، كا صنع أعمامه وأخوه . ومع أن أخاه قد كان من طلاب الحديث ورواته ، قالوا : إنه كان من تجار الحرير ، وإن مالكاكان يعينه في تجارته ، وإن ذلك لم يمنعه من اشتغاله بالعلم . وإن الذي يرجعه العلماء أن مالكاكانت له تجارة ، وقد قال تلميذه ابن القاسم : « إنه كان لمالك أربعائة دينار يتجرفها ، فنها كان قوام معيشته »(١).

ومهما يكن من أمر تلك الأخبار فإنه من المؤكد أن مالسكا ، في أثناء طلبه للملم ، كان يميش في قل من المال ، حتى إذا استوى في مكانه من العلم ، واتصل أمر علمه بالخلفاء والولاة ، وذاع فضله ، آتاه الله بسطة من العيش ، إذ كان يقبل عطاء الخلفاء ، ولا يقبله ممن دونهم وقد سئل عن الأخذ من مال السلاطين ، فقال : « أما الخلفاء فلا شك (يمني أنه لا بأس به ) ، وأمامن دونهم ففيه شيء » .

والقدكان بعض الناس يستكثر قبوله الهدايا ، أو يستكثر ذات الهدايا . . . حتى إنه يروى أن الرشيد أجازه بثلاثة آلاف دينار ، فقيل له : يا أبا عبد الله ثلاثة آلاف دينار تأخذها من أمير المؤمنين !! فقال: « لوكان إمام عدل فأنصف أهل المروءة ، لم أر به بأسا » .

وإن هذا يفيد أنه ماكان ليقبلها إلا لإنصاف أهل المروءة ،وحفظ مروءتهم من أن يتدلوا إلى ما لايليق بأمثالهم. وقدكان يسد بها حاجة الحتاجين،وينفقها على طلاب العلم الذين يلوذون به . . . فقد كانت طائفة من تلاميذه تأوى إلى

<sup>(</sup>١) الكتاب المذكور ، ص ١٩ .

كمفه وتعيش فى ظله ، ومنهم الشافعى رضى الله عنه ، فقد عاش فى كنفه نحو تسع سنين . وكان بعض الصحابة من قبله يأخذون من الخلفاء حتى كان بعضهم إذا سئل عن أخذها يقول : « عليهم المأثم ولنا المطعم » .

إن للعلماء حقا في بيت المال ، لأنهم حبسوا أنفسهم لخدمة العلم ، ولإرشاد الناس ؛ فكان على بيت المال أن يرزقهم ما يكفيهم وأسرهم بالمعروف ، ومع أن الإمام مالكا كان يأخذ هدايا الخلفاء ، كان ينهى غيره . . . لأنه يحتسب نية لا يحتسبها غيره ، ولأنه يأخذها في مقابل عمل يقوم به لخدمة الإسلام والمسلمين، وغيره قد يقبلها هدية من غير عمل ، ولكنه كان لا يتكلم في هذا لأنه لا يميل إلى الجدل ، وقد قال لبعض من سأله عن ذلك : « لا تأخذها » ، فقال له : « أنت تقبلها » ، فقال له : « أنت تقبلها » ، فقال له : « أن أبوء بائمي واثمك » .

وإن مالكا رضى الله عنه - بعد أن أعطاه الله تعالى رزقا حسنا ، وأسبغ عليه رافغ العيش - قد بدت عليه آثار النعمة فى كل مظهر من مظاهر حياته ، فى مأكله وملبسه ومسكنه ، إذ كان يقول : « ما أحب لامرىء أنعم الله عليه ألا يرى أثر نعمته عليه ، وخاصة أهل العلم » .

ان مأكله كان موضع عنايته ، لا يأكل جاف العيش ، ولا يكتنى بأدنى معيشة منه ، بل يطلب جيده عير مجاوز حده . وكان حريصا على أن يأكل لحما بدرهمين فى كل يوم ، وذلك قدر ليس بالقليل لرخص اللحم فى عهده . وكان له ذوق فى الطعام ، يحسن تخير الطيب من ألوانه ، وكان يعجبه الموز ، ويقول فيه : « لاشىء أكثر شبها بثمر أهل الجنة منه ، لا تطلبه فى شتاء ولا صيف إلا وجدته » . قال الله تعالى : [ أكلها دائم وظلها ] (1) .

وكان يمنى بملبسه ، وكان يختار البياض ، وكان يختار الثياب الجيدة ، وقد جاء في المدارك : « كان مالك يلبس الثياب العدنية والخراسانية والمصرية

<sup>(</sup>١) سورة الرعد الآية ٣٥

الفااية الثمن ٣ (١٦) . وكان يمنى بفظافة ثيابه كما يعنى بتخيرها .

وعنى بمسكنه « فقد اشتمل على أثاث جيد فيه كل أسباب الراحة ، وبه نمارق مصفوفة ومطروحة يمنه ويسرة فى نواحى البيت ، يجلس عليها من يأتيه من قريش والأنصار ووجوه الناس.

وكان فى كل حال يظهر بمظهر حسن ، كان يتطيب ، ويتجمل بالمظهر اللائق دائما . ولقد جاء فى المدراك أنه ما كان يظهر على الناس بلبسة المتبذل أبدا . فقد قال: «كان مالك إذا أصبيح لبس ثيابه وتعمم ، ولايراه أحد من أهله ولا أصدقائه إلا متعما ، وما رآه أحد قط أكل أو شرب حيث يراه العاس » (٢) .

وقد يقول قائل: إن هذه العيشة الناعمة لا تتفق مع ماعرف عن رجال الدين من الزهادة ، والانصراف عن ملاذ الحياة، وانها لا تتفق أيضا مع ما ينبغى لرجل الدين من العناية بالقلوب والحقيقة ، والعمل بدل المظهر والملبس . وإن هذه الحياة أقرب ما تسكون إلى حياة السلاطين والأمراء ، لاحياة العلماء . ورجال الذين جعاوا كل غايتهم المعنى لا المادة ، والروح لا الجسم .

وهذا كلام يبدو بادى الرأى صحيحا ، ولكن النظرة الفاحصة لحياة مالك رضى الله عنه ، وما أحاط بها يجعلنا نستبين أنه ماقصد بهذه الحياة الزخرف أو الاستملاء أو التكبر، بل قصد بها علو النفس ، والبعد عن سفساف الأمروقصد بها الاستعانة على الحياة العقلية والارشادية . . .

ذلك: لأن الرجل الذي لا يستوفى عناصر التفذية من غير أفراط لا تسكون أعصابه سليمة، بل يكون مضطرب النفس، مضطرب الفكر، وكتيرا مايكون سوء التفكير من سوء التفذية. وإن الله أمرنا ألا نحرم ما أحل الله، وإن الله أمرنا ألا نحرم ما أحل الله، وإن الزينة

<sup>(</sup>١) المدارك : ورقة رقم ١٠٦٠

<sup>(</sup>٢) المدراك : ورقة رقم ١١٢٠

فى ذاتها أمر حسن ما لم تكن استكبارا ، ولقد قال تعالى : [ قل من حرم زينة الله التي أخرج لمباده والطيبات من الرزق ] .

و إن أزهد الزهاد محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم كان يتخير الطمام العليب من غير حرص على طلبه ، ولا شهوة في ابتغائه .

ويجب أن يلاحظ أن مالكا ، مع هذا العيش الرافغ كان ينفق كل مايصل إلى يده من وظيفة مقررة له ، أو من موردرزقه أيام كان يكتسب ، أو من جوائز الخلفاء ، حتى إنه كان يسكن بكراء وليس له دار يملسكما ، ولعله كانت له دار فى أول حياته ورثها ، ثم باعها .

## علاقته بالحكام:

عاش مالك فى ازدهار الدولة الأموية ، ثم أفول نجمها ، وعصر الدولة المعباسية فى قوتها . وكانت الدولةان تحكمان باسم الخلافة ، وحكمهما ملك عضوض بتوارثه الأبناء عن الآباء . وفرق مابين الخلافة والملك عظيم، إذ الخلافة أساسها المشورى ولا شورى فى ملك متوارث استبدادى ، ولسكن لم ير مالك من المسكم إلا الحسكم إلا الحسكم الملسكى ، وقد رأى الفتن التى كانت تحدث . . . فرأى فتن الخوارج ، ثم رأى الفتن فى عهد هشام بن عبد الملك ، والفتن بمده ، ثم انتقال الملك إلى العباسيين ، ولا حظ فى حياته أمرين كونا له رأيا :

أولها أن الفتن يحدث فيها مظالم لا تحصى ، إذ تعم الفوضى ، وفوضى ساعة بر تنكب فيها من المظالم ما لا يرتكب في استبداد سنين .

الأمر الثانى أن الحاكم العادل ـ وإن لم يكن مختارا اختيارا شوريا ـ قد يصلح ، فقد رأى حـكم عمر بن عبد العزيز ، وكيف كان نسيم رحمة فى وسط استبداد المستبدين ، وقد رد المظالم ، وانتصف للناس من أهل بيته ، ولذلك

اعتبروه مثالا للتحكم المادل. وقد سئل فى أول المصر العباسى عن الخروج مع الخارجين عليها: أيقاتلون معهم أم مع الخليفة ؟ فقال: « إن خرجوا على مثل عمر بن عبد المزيز فقساتلهم ، والا فدعهم ينتقم الله من ظالم بظالم ، ثم ينتقم من كليهما » .

من أجل هذا اعتزل مالك السياسة العملية ، ولم يكن مع الخارجين ، ولامع الحكام ، ولم يدع إلى فتنة ، ولم يمالى ، ظالما . وإذا رأى أن الحاكم قد طفى واستبد ، فإنه يرى ذلك مظهرا لحال الشعب . . . لأنه لا يستبد مستبد ظالم ، والشعب عادل فى ذات نفسه يعرف حقوقه ويؤدى واجباته ، ويراقب حكامه ، ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، وله رأى عام فاضل ، وكيفا تكونوا يول عليكم : [إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم (١)].

وإن رأى أكثر الفقهاء – وعلى رأسهم مالك – أن الحاكم الظالم لايصح الخروج عليه بفتنة ، ولكن بسعى فى تغييره . والأمة كلها تكون آئمة إن لم تسع فى تغييره من غير فتنة ، ولا انتقاض . . . لأنه فى ضجة الفتن لا يسمع قول الحق ، ويكون الشح المطاع والهوى المتبع ، ويوضع السيف فى موضع البرء وموضع السقم ، ويكون الأجدر بالمؤمن أن يأتى إلى سيفه فيدقه على حجر .

لذلك كان يتجه العلماء في عصور الغلم إلى إرشاد الشعب و تعليمه دينه الحق ، وتربية ضميره وكرامته ، وفي ذلك العزة أو السبيل إليها ، ويتجهون إلى إرشاد الحكام إن سنحت الفرصة ، وإلى الوقوف السلبي إذا ضاع صوت الحق . ولو أن المؤمنين جميعاً وقفوا موقفا سلبيا من الظالمين لما استمر هؤلاء في ظلمهم ، وما رتعوا في غيهم ، ولكنهم في أكثر الأحوال --- بله في كلها - يجدون من يؤيده في عامة أموره ، ويسمى ظلمهم عدلا ، وفسادهم إصلاحا ، وارهاقهم للشعب إكراما له واعزازاً .

<sup>(</sup>١) سورة الرعد الآية ١١

ومع بعد مالك، رضى الله عنه ، عن الفتن ، وامتناعه عن تأييدها نزلت به محنة شديدة في عهد أبي جعفر المفصور ، ثانى الخلفاء العباسيين . وقد اتفق المؤرخون على نزولها بذلك العالم الجليل ، وأكثر الرواة على أنها نزلت في عام المؤرخون على نزوله هذه المحنة ، فقال بعضهم إن سببها أنه كان يفتى بتحريم المتعة ، وهي عقد مؤقت يبيح للرجل أن يعيش مع المرأة مدة معلومة بأجر معلوم يتكافأ مع المدة وصع حالها ، وإذا امتنعت عن طاعته مدة نقص من هذا الأجر ، كالأجرة في الأجارة تماما ، وإذا امتنعت عن بتحريمها أخذت عليه الفتيا ، لأنه روى عن ابن عباس ـ جد المنصور ـ أنه كان يفتى علها . . وهذا لا يصلح سببا ، لأنه ما عرف أن المنصور كان يستبيح المتعة ، ولأن أكثر الرواة على أن ابن عباس رجع عنها بعد أن لامه على ذلك ابن عمه على بن أبي طالب كرم الله وجهه .

وقيل أن السبب أنه كان يفضل سيدنا عثمان على الإمام على كرم اللهوجهه، فوشى به العلويون. وهذا أيضاً لايصلح سبباً ، لأن الزمن الذى نزلت فيه المحنة كان العلويون مبغضين إلى المنصور غير راض عنهم، لخروج محمد النقس الزكية بالمدينة ، وأخيه إبراهيم ببغداد عام ١٤٥.

وإن السبب الذى تراه معقولا ، هو أنه كان يحدث بحديث ( ليسعلى مستكره يمين ) . وقد كان العلويون والذين خرجوا مع النفس الزكية يدعون أن بيعة المنصور قد أخذت كرها، فاتخذ هذا الحديث ذريعة لابطال البيعة ، فنهاه وإلى المدينة باسم المنصور عن أن يحدث به ، ثم دس عليه من يسأله عنه ، فحدث به على رموس الأشهاد ، وقد وجد مع ذلك أولئك الذين يكيدون الإمام دار

الهجرة حالك ، ويروجون أنه ليس من الموالين للمنصور ودولته .

فالحديث مع روايته اعتراه نظران: نظر السياسة والسياسيين والمنافة بن الذين يلتنفون حولهم دائمًا، وهؤلاء ظنوا أنه بروايته يروج الدعاية ضدهم ويمالى، بروايته في وقت خروج الخارجين. والثانى نظر الإمام مالك، فهو يروى الحديث إذا سئل عنه، لأن في روايته إذاعة لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإفشاء للعلم، وامتناعًا عن كتمانه. ولا يبالى في ذلك شيئًا، وإن امتدم عد نقسه عاصياً كاتمًا لماجاء على لسان الرسول عليه الصلاة والسلام، وقد حكم الله تمالى بلعنه ، لأنه لعن من يكتم علماً.

وكان لذلك وقع شديد في نفوس أهل المدينة وطلاب العلم الذين قصدوه. وكان لذلك وقع شديد في نفوس أهل المدينة وطلاب العلم الذين قصدوه. فقد رأو افقيه دار الهجرة وإمامها ينزل به ذلك ، وماحرض على فتنة ،ولا بنى في قول ، ولا تجاوز حد الافتساء. ونكراً جروحهم أنه سار على خطته بعد الأذى ، فازم درسه بعد أن رقئت جراحه ، واستمر لا محرض على فتنة ، ولا يدعو إلى فساد ، فنقموا ذلك الأمر من الحاكين ، وسخطوا عليهم ، وغلت النفوس بالآلام منهم .

ثم إن الحكام أحسوا مرارة ما فعلوا ، أو على الأقل أرادوا أن بداووا الجراح التي جرحوها ، وخصوصاً المنصور الداهية ـ والفرصة لدبه سانحة ـ فإنه لم يكن في ظاهر الأمر ضارباً ، ولم يثبت أنه أمر بضرب ، أو رضى هنه . ولذلك لما جاء إلى الحجاز حاجاً ، أرسل إلى مالك بستدعيه ليعتذر إليه .

ولنسق الخبركما جاء على اسان مالك رضى الله عنه ، لنرى مقدار عظمته في سماحته ، كماكان عظيما بعلمه وخصاله ومهابته ، وها هو ذا الخبر : « لما دخلت على أبى جعفر - وقد عهد إلى أن آتيه فى الموسم - قال لى : والله الذى لا إله إلا هو ، ما أمرت بالذى كان ، ولا عامته . إنه لا يزال أهل الحرمين بخير ما كنت بين أظهرهم ، وإنى إخالك أمانا لهم من عذاب، ولقد رفع الله بك عنهم سطوة عظيمة ، فإنهم أسرع الناس إلى الفتن ، ولقد أمرت بعد والله أن يؤتى به (أى بالوالى) على قتب (1) وأمرت بضيق محبسه ، والاستبلاغ فى امتهانه ، ولا بد أن أنزل به من العقوبة أضعاف ما نالك منه . فقلت : عانى المتابد أمير المؤمنين ، وأكرم مثواه ، فقد عفوت عنه لقرابته من رسول الله صلى الله عليه وسلم وقرابته منك . قال : فعفا الله علك ووصلك » .

وهكذا خرج الإمام من المحنة مكرما ، وزاد بها رفعة عند الخليفة وعند الناس . أما الخليفة فع ترضيه له على هذا النحو ، طلب أن يكتب إليه فيا يخص نفسه ، وفيا يكون فيه صلاح للناس ، ورفع ضيق أو حرج أو ظلم هنهم . وطلب إليه أمراً جليلا آخر ، وهو أن يكتب آثار الرسول صلى الله عليه وسلم والصحابة ومجوع الأقضية والفتاوى لينشرها بين الناس قانوناً .

وأما منزلته عند الناس فقد ارتفعت أكثر مما كانت ، حتى كانت تلك السياط شهادة له بعلو المنزلة والمسكانة والرفعة عند الله ، فارتفع ولم ينخفض من بعدها أبداً .

#### وفاته :

عاش ذلك الإمام الجليل مكرماً ، محفوفاً بالمهابة والسكينة . لايجيء أحد إلى السجد النبوى . إلا عرج على مالك ، يستمع إليه وينقل عنه أحاديث

<sup>(</sup>١) القتب : اكاف البعير الذي يغطى به سنامه . والمراد أن يساق الوالي إلى الحليفة مهينا غير مكرم .

رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويستفتيه فيا يقع له من أمور . وتجاوز سلطانه حدود درسه ، حتى كأنه الرقيب على المعدل فى الرعية . . . لأن المنصور قال له بعد المحنة التى نزلت به : « إن رابك ريب من عامل المدينة أو عامل مكة أو أحد من عمال الحجاز فى ذاتك أو ذات غيرك ، أو سوء أو شر بالرعية ، أحد من عمال الحجاز فى ذاتك أو ذات غيرك ، أو سوء أو شر بالرعية ، فا كتب إلى أنزل بهم ما يستجفون » . وكان لذلك ينصح الولاة ، ويرشدهم من غير أن يتدخل فى أعمالهم بشغاعة غير عادلة .

ولم تلف نصائحه عند الولاة ، بل تجاوزتهم إلى الخلفاء . وله معهم نصائح حسنة ، ومواعظ قيمة قد سجلها التاريخ .

وإن ذلك الرجل العظيم عاش جزءاً كبيراً من حياته عليلا ، ولكنه ماكان يعلم بعلته أحداً ، فكان بعض الناس يظهون الظنون حول حاله ، ولمحلفه لا ينطق بها .كان درسه في المسجد ، ثم جعله في بيته ، خضوعاً لحكم العلة ، وشدة المرض ، وكان يخرج إلى الجمع والأعياد ، ويعود المرضى ، ويشيع الجدائز ، ثم لزم بيته ولم يخرج إلى الجماعة ، لأنه معذور ذو علة . ثم اللطع عن تشييع الجدائز ، واكتنى بالمواساة ، ثم انقطع من بعد ذلك عن هذا كله ، وهو لا يتحكم بعلته ، وإذا سئل عن مرضه يقول : « ليس كل الناس يذكر عذره» . ولم يذكر مرضه إلا ساعة أن حضر ته الوفاة ، فعندئذ أعلنه ، وقال : « لولا أنى ولم يذكر مرضه إلا ساعة أن حضر ته الوفاة ، فعندئذ أعلنه ، وقال : « لولا أنى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم بغير وضوء كامل ، وكرهت أن أذكر مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم بغير وضوء كامل ، وكرهت أن أذكر علتى فأشكور بى » .

وهكذا كان ذلك الرجل الكريم العظيم الجليل يعيش فى مرض قديتنافى مع كل ماكان يظهر به من تجمل ، ولكنه صبر صبراً جميلا ، فكان صبره من غهر أنين ولا شكوى ولا إعلام للناس ، فرضى الله عنه وأرضاه .

( ١ - تاريخ الذاهب )

## آراؤه

كان الإمام مالك علماً من أعلام الحديث ، وكان علماً من أعلام الفقه ، فعال الإمامة فيهما . ولكنه كان مع ذلك في عصر اضطربت فيه المفازع الفكرية : فن آراء منحرفة في العقيدة ، كأولئك الذين يقولون : إن الإنسان مجبر في أفعاله غير مختار ، وآخرين يزعمون أن مرتكب يقولون : إن الإنسان مجبر في أفعاله غير مختار ، وآخرين يزعمون أن مرتكب الكبيرة كافر ، وبجوارهم من يفرط فيقول : إنه لايضر مع الإيمان معصية ، كا لا ينفع مع الكفر طاعة . ثم كان هؤلاء الذين خاضوا في السياسة من فرق مختلفة : فطائفة تقول : الخلافة في على و بنيه من فاطمة ، وأخرى تقول الإمامة في أولاده من الحسين ، وثالثة تقول : الخلافة ليست في قبيلة من قبائل المرب ، فأولا بطن من بطونها ، ولا بيت من بيوتها ... فكان لابد أن يرشد إمام دار المجرة الناس إلى ما يتبعونه في هذه المتاهات الفكرية المنحرفة عن الصراط المستقيم الذي هو صراطالله تعالى ، إذ قال : [ وأن هذا صراطي مستقيا فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ] .

ولقد سلك فى هذه الأمور ماسلكه فى الفقه والحديث ، فقد قرر أنه يجب اتباع السنة واتباع منهاج السلف الصالح. وكان يتمثل دائمًا بقول الشاهر:

وخـــير الأمور ما كان سنة وشر الأمور المحــدثات البدائع

وكان يعجب بقول عمر بن عبدالعزيز : « سن رسول الله صلى الله عليه وسلم وولاة الأمر من بعده سننا : الأخذ بها اتباع لكتاب آلله ، واستكال لطاعة الله ، وقوة على دين الله ، ليس لأحد بعدها تبديلها ، ولا النظر في شيء خالفها . من اهتدى بها فهو منصور ، ومن تركها اتبع من اهتدى بها فهو معدى ، ومن استنصر بها فهو منصور ، ومن تركها اتبع غير سبيل المؤمنين نوله ماتولى ، ونصله جهنم وساءت مصيرا » .

وهكذا سار على السنة في دراسته لامقيدة ، كما سار عليها في دراسته للفقه ، فكان يدعو الناس إلى أخذ العقيدة من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، لامن حكم العقل الحجرد ، وإن لم يكن في الشرع ، لافي أصوله ولا فروعه ، شيء يخالف حكم العقل .

فكان بقول: إن الإيمان قول واعتقاد وعمل ، ويأخذ ذلك من نصوص القرآن وأحاديث النبي صلى الله عليه وسلم . وكان برى أن الإيمان يزيد ولايذكر أنه ينقص ، لأن نص القرآن جاء بزيادته ، ولم يجيء بنقصه . . . وهكذا كان يسيرف دراسته للمقيدة يتبع المفقول ، ولايسير وراء الفروض المقلية . والمعارات التي يضل سالكها .

وقد كان مالك يؤمن بالقدر خيره وشره ، ويؤمن بأن الإنسان حرمختار ، وهو مسئول عما يفعل إن خيراً وإن شراً ، ويكتنى بذلك من غير أن يتعرض لكون أفعال الإنسان مخاوقة له بقدرة أو دعها الله ، أوغير مقدورة له ، وقد قال فى ذلك : « مارأيت أحداً من أهل القدر إلا كان أهل سخافة وطيش وضعة». ويستشهد بكلام لعمر بن عبد العزيز، وهو قوله : « لوأراد الله ألا يعمى ماخلق إبليس وهو رأس الحطايا » . ويعلق على هذا بقوله : ما أبين هذه الآية على أهل القدر وأشدها عليهم [ ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها ، ولكن حق القول منى لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين ] .

وكان رأيه فى مرتكب الكبيرة أنه يمذب بمقدار معصيته ، وإن شاء غفر الله تعالى له لقوله سبحانه: [ إن الله لايغفر أن يشرك به ، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ] وذلك هو رأى أبى حنيفة ، وقد وافق عليه عندما بينه له حاد ابن أبى حنيفة . وقال مالك فى هذا المقام : « إن العبد إذا ارتكب الكبائر كلها بعد ألا يشرك بالله شيئا ، ثم نجا من هذه الأحوال ، رجوت أن يكون فى

أعلى الفردوس ، إن كبيرة بين العبد وربه هو منها على رجاء ، وكل هوى ليس هو على رجاء ، إنما يهوى به في نار جهنم (۱)» .

وقد ثارت في عصره مسألة خلق القرآن ، أثارها الجمد بن درهم ، وقد أخذها عن رجل كان يريد إفساد العقيدة الإسلامية وهو يهودى . فقرر أن القرآن مخلوق طائمة من المسلمين ، وقال غيرهم إنه غير مخلوق . والمستمصمون علموا أن هذ فتنة تثار بين المسلمين ، فأمسكوا عن الخوض فيها ، وكان من هؤلاء مالك رضى الله عنه ، فما كان يرى أنه يجوز السيرفي الجدل وراء ما يثيره الدين نصبوا أنفسهم لفتنة المسلمين عن دينهم .

وقد أثار المعتزلة مسألة رؤية الله يوم القيامة ، ودرسوها دراسة عقلية ، منكرين لها ، مؤولين النصوص التي نثبتها مثل قوله تعالى: [ وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة ] . ولكن مالكا المتبع لا المبتدع يقرر رؤية الله تعالى، متمسكا بظواهر النصوص ، غير متأول لها ، ولكن من غير أن يتمرض لكيفية الرؤية وكونها كرؤيتنا في الدنيا ، بل إنهاعلى نحو آخريليق بذات الله العلية التي لايشبه فيها أحدا من خلقه : [ ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ] .

و هكذا نرى مالكا يسيرفى فهمه للمقائد على طريق السنة ، وعلى منهاجه، ولا يسير فى مثارات الذين يريدون إفساد العقيدة الإسلامية على أهلما ، أو إيجاد الفرقة بينهم فى فهمها ، ووراء ذلك انحلال فكرى ونفسى .

وفى السياسة كان يقرعمل الراشدين رضى الله عنهم أجمعين ، وكان يرى أنه لا تجوز الإقامة فى بلد لايقام فيه العدل، ويسب فيه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويقول فى ذلك : « ليس لمن سبأ صحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم

<sup>(</sup>١) المدارك ورقة رقم ٧٠٧ .

فى الفيحاء حق » ، ويقول : 1 لاينبغى الإقامة فى أرض يكون العمل فيها بغير الحق ، والسب للسلف » .

ولا يرى أن الخلافة تكون فى البيت الهاشمى أو العلوى وحده، لأن الشيوخ الثلاثة، أبا بكر، وعمر، وعمّان، لم يكونوا من واحد منهما. وقد روى هو حديث السقيفة » وقد انتهى الأمر فيها إلى أن تكون الخلافة فى قريش، ويظهر من هذا أنه هوكان يرى ذلك.

وكان يرى أن ما سلكه الصحابة في اختيار الخلفاء الراشدين هو الطريقة المثلى ، واذلك أقر نظام الاستخلاف بشرط المبايعة الحرة التي لا إكراه فيها ، كا استخلف أبو بكر عمر رضى الله عنهما ، ويقر نظام الشورى بين عدد يمينهم الخليفة السابق ، وكان يقرنظام الشورى ابتداء كما فعل الصحابة مع أبى بكر وعلى رضى الله عنهما .

وكان رضى الله عنه يرى أن بيعة أهل الحرمين الشريفين مكة والمدينة كافية ، ولا تكفى بيعة الأقاليم إلا إذا دخلت فيها مكة والمدينة ، وذلك كله سير على منهاج الصحابة من غير انحراف .

و إن مالكا رضى الله عنه كان يعتبر الذى يتفلب ثم يبايعه الناس راضين سوهو عدل فى ذاته - تعد ولايته شرعية لا غبار عليها ، ويرى في ذلك صلاحا للمسلمين .

وهو فى آرائه السياسية ينظر دائما إلى المصلحة والعدالة، ومايفضى إليهما.. فما يفضى إلى المسلحة والعدالة بجوز، وليس من المصلحة ولا العدالة إكراه الناس على مالا يريدون. وقد سأله بعض من خرجوا على المنصوره، ولعله محمد النفس الزكية. « بايعنى أهل الحرمين، وأنت ترى ظلم أبى جعفر (أى المنصور). فقال مالك: أتدرى ما الذى منع عمر بن عبدالعزيز أن يولى رجلا صالحاً بعده ؟ قال: لا، قال مالك: كانت البيعة ليزيد نفاف

عمر بن عبد العزيز إن بايع لغيره أن يقيم يزيد الهرج ، ويقاتل الهاس ، ويفسد ما لا يصلح » (١) .

وهكذا نجد مالكا لا يتجه إلى الصور المثالية لطريقة الاختيار ، بل يتجه إلى الوقائع ، وماعليه حال الأمة ، فيرى أن المصالح الواقعة يجب أن تكون مقدرة في اعتبار الذين يحثون على الطاعة أو الخلاف ، وهو ينتهى من هذا إلى أن السكون خير من الخروج والانتقاض ، وأن الابتعاد من الفتن خير من يخب فيها ويضع . وإرشاد من غير خروج قد يحمل الحاكم على الجادة ، فيكون الصلاح من غير عبث وفساد .

وإذا كان الحاكم ظالما يرى الصبر عليه و يرشده . فليس صبره صبر المستكين الذى لا يستنكر الظلم ، بل صبر الذى يبغى صلاح الناس ، وقد وجد أن الفساد يكون في الخروج ، وأن حل الظالم على العدل بالموعظة الحسنة وتذكيره أو امر الدين واجب . ويقوم بذلك الصالح المرشد ، ولو تعرض لنقمة الحاكم الظالم ، فإن قتل في سبيل الموعظة الحسنة فهو شهيد ، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم في ذلك: (خير الشهداء حمزة بن عبد المطلب ، ورجل قال كلة حق أمام سلطان جائر فقتله ) ، ولو أن المسامين أخذوا بنظر مالك ، فقام علماؤهم بو اجب النصح والإرشاد ، ولم يكن المنافقون المتملقون ، ما استمر استبداد ، ولا بغي ظالم .

#### نقه مالك وحديثه :

كان مالك محدثاً وفقيها كما أشرنا من قبل ، وكان فى حديثه ينتتى الرواة الذين ينقل عنهم، ولعله بذلك أول ضابط لفن الرواية : وقدجاء من بعد ذلك تلميذه الشافعى فأوفى على الغاية فى ضبط الرواية . و إن روايته عن المنبى صلى الله عليه وسلم تعد السلسلة الذهبية وأوثن الروايات ، فقد قال البخارى : « إن أوئتى الرواية مالك عن نافع عن عبد الله بن عمر » :

<sup>(</sup>١) المدارك، ورقة رقم ١٤٩.

ولنترك الحكلام في الحديث إلى أن نتكلم عن كتابه الموطأ الذي يعدأول مجموعة في السنة ، ولنتجه إلى فقهه . . .

لقد قرر العلماء أنه كان فقيها بل زادان قتيبة ، فقرر أنه من فقياء الرأى. وقد سأل بعض العلماء من للرأى بعد يحيى بن سعيد ؟ فأجهب بأنه مالك رضي الله عنه.

وإن مالكاكان له منهاج فى الاستنباط الفقهى لم يدونه ، كا دون بعض مناهجه فى الرواية ، ولكن مع ذلك صرح بكلام قد يستفاد منه بعض منهاجه . وأن الفروع الفقهية التى أثرت عنه يمكن أن يستنبط منها منهاجه فى الاستنباط وقد فعل ذلك فقهاء المذهب المالكى فدونوا منهاجه ، وهو الأصول التى بنى عليها فقهه .

وقد ذكر القاضى عياض في «المدارك» الأصول العامةالتي هي منهاج مالك في الاستنباط، وذكرها أيضاً راشد من فقهاء المذهب المالكي في البهجة .

وخلاصة ما ذكره هذان العالمان وغيرها أن منهاج أمام دار الهجرة أنه يأخذ بكتاب الله تعالى أولا ، فإن لم يجد في كتاب الله تعالى نصا اتجه إلى السنة ، ويدخل في السنة عنده أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفتاوى الصحابة وأقضيتهم ، وعمل أهل المدينة . ومن بعد السنة بشتى فروعها \_ يجىء القياس ، وهو إلحاق أمر غير منصوص على حكمه بأمر آخر منصوص على حكمه ، لوصف مشترك بينهما يكون هو علة الحكم التى بنى عليها . ومع القياس المصلحة وسد الذرائم والعرف والعادات .

ولنشر إلى كل أصل من هذه الأصول بكلمة :

#### الكتاب:

يجمل مالك منزلة السكتاب فوق كل الأدلة ، لأنه أصل هذه الشريعة وحجتها، وكليها ، وسجل أحكامها الخالدة إلى يوم القيامة ، ويقدمه على السنة وعلى

ماوراءها . . . فهو يأخذ بنصه الصريح الذي لا يقبل تأويلا ، ويأخذ بظاهره الذي يقبل التأويل مادام لا يوجد دليل من الشريعة نفسها على وجوب تأويله، ويأخذ بمفهوم الموافقة وهو فحوى الكلام ، وذلك بأن ينص القرآن على حكم ويفهم مأقوى منه في معنى هذا الحكم من هذا النص من غيرأى مجهود عقلى ، مثل قوله تعالى في شأن أموال اليتامى ومن يأكلونها : [إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً] . فإن هذا النص يغهم منه بالأولى النهى عن تبديد أموال اليتامى والتقصير في المحافظة عليها .

ويأخذ مالك بمفهوم المخالفة ، وهو أن يجىء النص على الحكم مقيداً بوصف أو نحوه ، فيفهم ذلك نقيض الحسكم عند تخلف النص ، مثل قوله صلى الله عليه وسلم ( فى السائمة زكاة ) ، فإن هذا النص يفهم منه أن السائمة من الإبل ـــ وهى الور ثرعى فى عشب مباح ــ فيها زكاة ، ويفهم منه بالمخالفة أن المعلوفة لازكاة فيها ، وإن كان مالك قد أثبت الزكاة فى المعلوفة بأدلة أخرى .

ويأخذ أيضاً بالتنبيه على علة الحسكم ، كما فى قوله تعالى : [قل لا أجد فيا أوحى إلى محرما على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة أو دما مسفوحا أو لحم خنزير ، فإنه رجس ، أو فسقاً أهل لفير الله به ] . فإن هذا يستفاد منه أن العلة فى التحريم أنه رجس أى طعام ردىء وبىء ، ليحرم كل ما يماثله فى هذه الصفات .

وهكدا يأخذ بكل ما يفهم من السكتاب نصاً صريحاً ، أو بإشارة أوتنبيه أو مفهوم ، ويقدم السكتاب على ماعداه من السنة . وكان يروى الحديث بسنده ، ثم يرده لأنه يخالف كتاب الله تعالى . فروى حديث : (إذا ولغ السكلب في إناء أحدكم فليفسله سبعاً ، إحداهن بالتراب الطاهر ) ، ولم يأخذ به واعتبره غير موطأ وغير ثابت ، لأن القرآن السكريم أباح أكل صنيده في قوله تعالى :

[ وما علمتم من الجوارح مكلبين تعلمونهن مما علمكم الله ] . وقال ؛ كيف بباح صيده ، ويكون نجساً ؟ ولم يأخذ بالخبر الذي أجاز للولد أن يحبح عن أبيه أو أمه من غير وكالة ، وذلك لقوله تعالى : [ وأن ليس للإنسان إلا ما سعى ، وأن سعيه سوف يرى ، ثم يجزاه الجزاء الأوفى ] .

#### السنة:

تكون السنة فى المرتبة الثانية التى تلى السكتاب، وهو يأخذ بالمتواتر منها، وهو الذى رواه جمع يؤمن اتفاقهم على السكذب عن جمع مثلهم ، حتى يصلوا بذلك إلى الذي صلى الله عليه وسلم . ويأخذ بالمشهور منها . وهو مارواه عن النبي صلى الله عليه وسلم واحد من الصحابة أو اثنان أو أكثر لم يبلغوا حد التواتر، ثم رواه عن الصحابة عدد يؤمن اتفاقهم على السكذب، أو رواه واحداًو أكثر من التابعين، ثم رواه من بعدهم عدد يؤمن تواطؤهم على السكذب... فاشتهاره يكون فى عصر التابعين، أو تابعى التابعين، ولا عبرة بالاشتهار بعد ذلك، وهو يقارب التواتر فى قوته فى الاستدلال .

ويأخذ بخبر الآحاد، وهو الذي لم يتواتر ولم يشتهر في عهد التابعين، ولا في عهد تابعي التابعين، ولا في عهد تابعي التابعين و إن خبر الآحاد هذا يقدم عليه عمل أهل المدينة على ماسنبين، ويقدم عليه القياس على ما استنبطه بعض فقهاء مذهبه . . . فقد حكى القاضى عياض . وابن رشد الكبير في «المقدمات المهدات» قولين في تقديم مالك عياض . وابن رشد الكبير في «المقدمات المهدات» قولين في تقديم مالك القياس على خبر الآحاد على القياس، وقول آخر إنه يقدم خبر الآحاد على القياس، وقول آخر إنه يقدم القياس عليه .

و إنه قد روی عن مالك مسائل ترك فيها خبر الآحاد الذی رواه بالرأی : فقد رد حديث خيار الحجلس الذی رواه عن ابن عمر (وهو البيعان بالخيار ما لم

يتقرقا )، أن كلا العاقدين له حق الفسخ ما لم يتفرقا ، نقد رده بقوله : « ليس عندنا حد معروف » فهو أبطل حق الفسخ بعد العقد ، لأن المجلس ليس له مدة معلومة .

وقد رد الخبر الذى من مقتضاه إكفاء القدور التي طبخت من لحم المنم أو الإبل التي أخذت من المغنائم قبل القسمة ، فقد روى أن النبي صلى الله عليه وسلم أكفأها وأخذ يمرغ اللحم فى التراب ، فأنكر نسبة الخبر إلى النبي صلى الله عليه وسلم ن لأن إكفاء القدور وتمريغ اللحم فى التراب إفساد مناف للمصلحة من غير حاجة إليه ، إذ يمكنى الحظر من الرسول وهو يغنى عما عداه .

ولم يأخذ مالك بالخبر الوارد عن النبى صلى الله عليه وسلم فى صيامست من شوال تبتدىء من اليوم التالى ليوم الفطر ، ورد الخبر وأنكره ، لأنه قديفضى إلى زيادة رمضان .

فهذه فروع كثيرة رد فيها خبر الآحاد بالمصلحة أو القياس. وقد قالوا: إن مالكا يترك خبر الآحاد وينكر نسبته إلى النبى صلى الله عليه وسلم إذا عارض أصلا معلوماً، ولوكان مستنبطاً إلا إذا كان للخبر ما يعاضده من أصل قطعي آخر.

و إن هذا السكلام قد أفضنا فيه بعض الإفاضة ليتبين أن مالكاكان فقيه رأى ، ولم يكن فقيه حديث فقط ، وإن كان فى الحديث النجم الثاقب كما قال عنه تلميذه الشافعي رضى الله عنهما .

## عمل أهل المسدينة:

كان مالك رضى الله عنه يعتبر عمل أهل المدينة حجة إذا كان ذلك العمل لا يمكن إلا أن يكون نقلا عن النبى صلى الله عليه وسلم ، ويقول مقالة شيخه ربيعة بن عبد الرحمن : « ألف عن ألف خير من واحد عن واحد » . وبذلك

يقدم عمل أهل المدينة الذى أساسه الرأى عن خبر الآحاد كا نوهنا . وقد كان ياوم كل فقيه لا يأخذ بعمل أهل المدينة ويخالفهم . وقد كتب فى ذلك إلى الليث بن سعد فى رسالته إليه :

« بلغنى أنك تفتى الناس بأشياء مختلفة مخالفة لما عايه جماعة الناس عندنا، وببلدنا الذى نحن فيه ، وأنت — فى أمانتك وفضلك ومنزلتك من أهل بلدنا، وحاجة من قبلك إليك ، واعتمادهم على ما جاء منك — حقيق بأن تخاف على نفسك وأن تتبع ما ترجو النجاة باتباعه ، فإن الله تعالى يقول فى كتابه : [فبشر عباد الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ] فإنما الناس تبع لأهل المدينة التي بها نزل القرآن » .

وقد كان العمل بما عليه أهل المدينة رائجاً قبل مالك ، حتى عند القضاة ، ويعتبرونه من المنقولات عن النبي صلى الله عليه وسلم . ويروى فذلك أن القاضى محمد بن أبي بكر قيل له في حكم قضى به : « ألم يأت في هذا حديث كذا ؟ فقال بلى ، فقيل له : فما بالك لا تقضى به ؟ فقال : فأين الناس عنه ؟ » يعنى ما أجمع عليه الصلحاء بالمدينة ، فيرى أن العمل به أقوى باعتباره منقولا عن النبي صلى الله عليه وسلم ، فهو يرد خبراً عنه بما هو أقوى منه .

#### فترى الصحابي :

كان مالك رضى الله عنه يأخذ بفتوى الصحابى على أنها حديث واجب العمل به ، ولذلك أثر عنه أنه عمل بفتوى بعض الصحابة فى مناسك الحج ، وترك عملا نسب للنبى صلى الله عليه وسلم باعتبار أن ذلك الصحابى ما كان يفعل مافعل فى مناسك الحج من غير أمر النبى صلى الله عليه وسلم ، إذ أن المناسك لا يمكن أن تعرف إلا بالنقل ، وهذا من الواضع التى انتقد فيها الشافعى شيخه مالكا ، وقال عنه إنه جعل الأصل فرعاً ، والفرع أصلا . . . فإن قول النبى هو الأصل ، وفعل

الصحابي ملعمس منه فهو فرع . فكيف يقدم الفرع على الأصل أ

ولكن مالكاكان يمتبر قول الصحابى فى أمر لا يعلم إلا بالبقل حديثاً، فالمارضة بين أصلين ، لا بين أصل وفرع ، وله أن يختار من الأصلين مايكون أقوى سنداً ، وأقوى ملاءمة للأحكام الإسلامية العامة ، ويرد الثانى ، ولا يثبت نسبته إلى النبي صلى الله عليه وسلم .

وروى أن مالكا رضى الله عنه كان يأخذ بفتاوى كبارالتا بعين ، ولكنه لا يرفعها إلى مرتبة أقوال الصحابة ، وبالأولى لا يرفعها إلى مرتبة ماينسب إلى النبى صلى الله عليه وسلم إلا أن يصادف ذلك إجماع أهل المدينة .

## القياس والمصالح المرسلة والاستحسان:

كان الإمام مالك بأخذ بالقياس . وكلة القياس عنده كانت تشمل القياس لاصطلاحي الذي هو إلحاق أمر غير منصوص على حكمه بأمر آخر منصوص على حكمه ، لاشتراكهما في وصف هو علة الحكم ، والاستحسان ترجيح حكم المصلحة ، فجزية على حكم الفياس ... فلوكان القياس يقتضي إلحاق الحسلم غير المنصوص عليه بحكم معين منصوص عليه ، والمصلحة الجزئية توجب غير ذلك ، يحكم بها ويسمبها الاستحسان . وهذا هو الاستحسان الاصطلاحي ، ولكنه يعممه في كل مصلحة . فالاستحسان عنده هو حكم المصلحة حيث لانص ، سواءاً كمان في ننوضوع قياس أم لم يكن . ويظهر أن ذلك هو تمبيره دائماً ، فهو يشمل لاستحسان الاصطلاحي الذي ذكرناه ، ويشمل المصلحة المرسلة ، وهي المصلحة التي لا يشهد لها دايل خاص بالاعتبار أو الإلفاء ، فيوخذ بها حيث لا نص بشرط أن يكون في الأخذ بها دفع حرج ، وأن تكون من جنس المصالح المعتبرة في الشريعة الإسلامية ، وإن لم يشهد لها دليل خاص .

و إن الأخذبالصالح ، كما قررنا قد يسميه مالك استحسانًا، ولذلك كمان يقول

« الاستحسان تسعة أعشار العلم» . و إن التمسك بالقياس حيث لا نص قديضيق واسماً ، ولذلك قال ابن و هب : « المفرق في الفياس يكاد يقارق السنة » .

وفى الجُملة إن مالكا يخضع لحسكم المصلحة إن لم يكن نصقر آنى أو حديث نبوى ، لأن الشرع ما جاء إلا لمصالح الناس ، فسكل نص شرعى فهو مشتمل على المصلحة بلا ريب ، فإن لم يكن نص فالمصلحة الحقيقية الملائمة لمقاصد الشرع هى شرع الله تعالى .

ويقول الشاطبي في ذلك: « وقد استرسل مالك استرسال المدل العربق في فهم المعاني المصلحية مع مراعاة مقصود الشارع ، لايخرج عنه ، ولا يناقض أصلا من أصوله ... حتى لقد استشنع العلماء كثيراً من وجود استرساله زاعين أنه خلع الربقة ، وفتيح باب التشريع ... وهيهات ، ما أبعدد من ذلك رحمة الله ، بل هو الذي رضى في فقهه بالاتباع ، بحيث يخيل لبعض الناس أنه المقلد لمن قبله ، بل هو صاحب البصيرة في دين الله تعالى » (١) .

# الذرائع:

والذرائع من الأصول التي أخذ بها الإمام مالك ، وظهرت في فروع كثيرة قد نقلت عنه . ومؤداها : أن ما يؤدى إلى حرام يكون حراما ، وما يؤدى إلى حلال يكون حلالا بمقدار طلب هذا الحلال ، وكذلك ما يؤدى إلى مصلحة يكون مطلوبا ، ومايؤدى إلى مفسدة يكون حراما . وقد قسموا ما يؤدى إلى مفسدة أقساما أربعة :

أولها: ما يكون أداؤه إلى مفسدة مقطوعا به ، كحفر بثر خلف باب الدار يحيث يسقط فيها الداخل منه .

<sup>(</sup>١) الاعتصام الشاطبي: ج ٢ص ٣١١.

ثانيها : ما يغلب على الظن أداؤه إلى مفسدة غالباً ، كبيع العنب لمن تكون صداعته إعداده للخمر .

ثالثها: ما يكون أداؤه إلى المفسدة نادراً ، كحفر البئر فى موضع لا يؤذى. والنوعان الأولان محرمان بلا ريب عند مالك ، والثالث ليس محرام عنده ؛ لأن الأحكام لا تناط بالنادر ، إذ النادر لا حكم له .

والقسم الرابع: ما يكون أداؤه إلى المفسدة كشيراً ، ولكن ليس غالباً ، كالبيع بالأجل الذى قد يؤدى إلى الربا ، ويتخذه بعض الناس سبيلا . وهذا يتنازعه عاملان : عامل الإذن الأصلى ، وهو يقتضى الحل ، وعامل ما قد يفضى إليه ، وهذا يقتضى التحريم ... ولذلك قرر المالكية صحة النصرف ، ويترك قصد الربا لنية الفاعل. فإن قصده فهو آثم قلبه وعقابه عند الله ، وإن لم يقصده فإنه لم يرتكب إثماً .

هذا، وإن الإمام مالكا فتح باب المصادر وأكثر منها، ولذلك كان مذهبه خصبا، وكان فقها مصلحيا يربط الأصول الشرعية بمصالح الناس.

## كتبه:

أثر عن الإمام مالك رسائل علمية مختلفة ، وروى عنه تلاميذه آراء مختلفة ، ودونونها في كتب ، ومنها كتاب « المجالسات » لابن وهب دون قيها ما سمع من مالك في مجالسه ، وهو مجلد يشتمل على أحاديث وآثار وآداب، رواها عن مالك ، ولكن الكتابة والتأليف لابن وهب ، ومنها رسالة في « القدر » أرسلها إلى تلميذه ابن وهب ، ورواها هذا عنه ، ومنها رسالته في الأقضية كتبها لبعض النضاة ، رواها عنه بعض تلاميذه ، وكذلك رسالته في الفتوى .

وفى نسبة هذه الكتب الرسائل إليه كلام، وإن كان الراجع نسبتها، ولكن الكتاب الذي لا يشك في نسبته، كتاب الموطأ.

يعد هذا الكتاب الذى كتبه الإمام أول كتاب مدون ، قد جمعت فيه روايات من السنة ، وذلك لأن الناس قبله كانوا يعتمدون على ذاكراتهم ، لسيلان أذهانهم ، ولأن كثيرين من الرواة كانوا يجهلون الكتابة والتدوين .

وكان الآنجاه إلى التدوين في عصر الإمام مالك ، وقد فكر عربن عبد العزيز من قبل ، في جمع السنن ، ولكن لم يتم له ماأراد ، وقد فكر من بعده أبوجعفر المنصور في جمع الناس على قانون واحد ، وهو ما عليه الفقه في المدينة والآثار التي عند رواتها . ولقد وجدت دعايات مختلفة لذلك ، فقد قرر ذلك ابن المقفع في رسالته الصحابة ، ودعا إليه لتكون الأفضية كلها على أمر واحد ، لا يختلف في بلد عن بلد .

وجدت الدواعى لتدوين الموطأ ، وقد ابتدأ فى تدوينه فى عهد أبى جعفر، ولكن لم يتمم الكتاب فى عهده ، بل أثمه فى عهد المهدى . ولكن لم يمر قانونا عاماً شاملا ، لأن مالكا نهى عن ذلك . وحاول الرشيد أن يجمله قانونا ويعلق نسخة منه بالكعبة ليعلمه الناس جميعاً ، ولكن لم يرتض مالك ذلك ، وحدل عنه تيسيراً على الناس فى أقضيتهم .

والموطأكتاب حديث وفقه ، تذكر فيه الأحاديث في الموضوع الفقهى الذي يجتهد فيه ، ثم عمل أهل المدينة المجمع عليه ، ثم رأى من التتي بهم من التابعين ، وآراء الصحابة والقابعين الذين لم يلتق بهم — كسعيد بن المسيب وفيه الآراء المشهورة بالمدينة ، واجتهاده الذي ينتهى إليه مخرجا له على مايعرض من أحاديث وفتاوى الصحابة وأقضيتهم ، وآراء بعض التايعين وفتاويهم . . . ولذلك قال في رأيه الفقهى إنه رأى مخرج متبع ، وليس برأى مبتدع . فقد قال « أما أكثر مافي الكتاب فرأى لعمرى ما هو برأى ، ولكنه سماع من قال « أما أكثر مافي الكتاب فرأى لعمرى ما هو برأى ، ولكنه سماع من

غير واحد من أهل العلم والفضل، والأئمة المقتدى بهم الذين أخذت عنهم، وهم الذين كانوا يتقون الله ، وكبر على فقلت رأى ، وكان رأيهم مثل رأيى ، مثل رأى الصحابة الذين أدركوهم عليه ، وأدركتهم أنا على ذلك . . . فهذا وراثة توارثوها قرنا عن قرن إلى زماننا ، فهو رأى جماعة ممن تقدم من الأئمة » . وهكذا نجد الموطأ يشتمل على السنة وما بناه عليها .

وأحاديت الموطأ اختلف مقدارها باختلاف رواته. والسبب في ذلك أنه كان دائم التثبت مما رواه ، فكان يحذف مما روى وقتا بعد آخر، وقد روى بعدة روايات ، وأشهر الروايات له روايتان : إحداهما رواية يحيى بن يحيى الليثى الأندلسى المتوفى عام ٢٣٤ ، والأخرى رواية محمد بن الحسن الشيبانى صاحب أبى حنيفة.

# نمو المذهب المالكي وانتشاره:

تنمو فروع المذهب، وتتسع آفاق التفكير فيه، بخصب أصوله، وتعدد المصادر فيه، وسعة مدى التفكير الذى يفتحه لأنفسهم القائمون على المذهب من بعد الإمام، وتعدد الأجواء الفكرية التي يجتهدون فيها. وقد كان هذا كله في المذهب المالكي، فناهجه خصبة متعددة، وتلاميذ الإمام ومن بعده قد وسموا مدى تفكيرهم في تطبيق أصول إمامهم، وكثرت الأقطار التي أخذ فيها بالمذهب المالكي، وتباينت أحوالها، وكان من فقهاء هذا المذهب من جمع فيها بالمذهب المالكي، وتباينت أحوالها، وكان من فقهاء هذا المذهب من جمع بين الفقه العميق والفلسفة والحكمة. . . فهذا ابن رشد الحفيد الذي تلقي عنه الأوربيون فلسفة أرسطو، والذي نازل الغزالي في هجومه على الفلاسفة، كان فقيها ممتازا في الفقه المالكي، وله الكتاب القيم في الفقة المقارن المسي لا بداية المجتهد، ونهاية المقتصد».

وإن تخافف الأقاليم وتباينهاوتهاعدها ، مع كثرة أسباب الاجتهاد وخصب

المناهج ، سبب في كثرة الأقوال في المذهب. وكانت تلك الكثرة في الأقوال جنابا خصيبا يجد فيه الباحث في الفقه للمالكي ثمرات فكرية متنوعة ، وألوانا من المنازع الفقهية صالحة ، توافق البيئات المختلفة ، وتوائم الأقطار المتباينة في أعرافها وعاداتها ، وخصوصا أن العرف والعادة كان لهما مقام في الاستنباط في الفقه المالكي . وكان المفتى بهذا بين يديه آراء مختلفة يتخير من بينها ، إذا لم يفتح لنفسه باب الاجتهاد مم التمسك بالأصول المقررة في المذهب .

ولقد قال الحطاب فى ذلك: « الذى يفتى فى هذا الزمان أقل مراتبه فى نقل المذهب أن يكون قد استبحر فى الاطلاع على روايات المذهب و تأويل الشيوخ لها ، و توجيههم لما وقع من الاختلاف فيها ، و تشبيههم مسائل بمسائل يسبق إلى الذهن تباعدها ، و تفريقهم بين مسائل يقع فى النفس تقاربها ، إلى غير ذلك المتأخرون من القرويين فى كتبهم ، وآثار من تقدم من أسحاب مالك فى المنطه رواياتهم (١) » .

#### إنتشار المذهب:

انتشر المذهب فى بلاد كثيرة ، وقد كان من منطق الحوادث أن يكثر انتشاره فى بلاد الحجاز حيث نشأ وانتظم ، ولأنه استقى من بيئة الحجاز . ولكن بتوالى الأيام على بلاد الحجاز قد اختلفت أحواله ، فكان تارة يغلب ، وتارة يخمل ، حتى إنهم ذكروا أنه خل بالمدينة أمدا طويلا حتى تولى قضاءها ابن فرحون عام ٧٩٣ ، فأظهره بعد خول .

وقد ظهر المذهب المالكي في مصر في حياة الإمام مالك ، أدخله فيها تلاميذه عبد الرحن بن القاسم ، وابن الحكم ، وعبد الرحيم بن خالد ، وأشهب

<sup>(</sup>۱) شرح الحطاب ج ۱ ص ۳۳ . وراجع فی هذا آیضاً فتاوی الشیخ علیش ج ۱ ص ۵۹ وقد نقل ذلك من شرح التلقین للمازری .

<sup>(</sup> ١٦\_ تاريخ المذاهب )

وغيرهم من التلاميذ الذين أتخذوا مصر مستقرا ومقاما . وقد استمر المذهب المالكي له الغلب في مصر ، حتى جاء المذهب الشافعي فنازعه السلطان فيها حتى صار المذهبان هم الغالبين ، ولا يزالان كذلك بالنسبة للمبادات .

وفى بلاد تونس انتشر المذهب المالسكى ، ولكن غلب عليها المذهب الحنفى مدة سلطان أسد بن الفرات الذى كان مالسكيا ، ثم تحول حنفيا ، إذ درس على الإمام محمد بن الحسن كتب الفقه العراق ، ثم جاء المعز بن باديس فحمل أهل تونس وما والاها من بلاد المغرب على مذهب مالك ، ولا تزال هذه البلاد تتعبد على مقتضى المذهب المالسكى .

وفى الأندلس كان المذهب المالكي صاحب السلطان ، وقد قالوا : إن أهل الأندلس أخذوا بمذهب الأوزاعي الذي كان فقيه الشام أمدا ، حتى جاء المذهب المالكي فاستولى عليها . ولقد استوثق المذهب بسلطان الدولة عندماولي القضاء يحبي بن يحبي الذي كان مكينا عند أميرها ، فكان لا يولي إلا من فقهاء ذلك المذهب . . . كا فعل أبو يوسف عند ما آل إليه منصب كبير القضاة في الدولة العباسية ، وقد قال ابن حزم الأندلسي في ذلك : « مذهبان انتشرافي بدء أمرها بالرياسة والسلطان : الحنفي بالمشرق ، والمالكي بالأندلس ، فكان القضاء في المشرق بالمذهب الحنفي وكان للمذهب المالكي في المغرب مثل ذلك .

وهكذا نرى مذهب مالك قد انتشر فى غرب البلاد الإسلامية ، ولم ينتشر إلا قايلا فى شرقها ببلاد العراق وما وراءها ، وذلك لإقامة كثيرين من تلاميذه بمصر وتونس ، وسرى منهما إلى كل البقاع فى غرب البلاد . الشــــافعى حياته وعصره، آراؤه وفقهه



حياته

١ - كان الذاهب إلى بيت الله الحرام فى المشر الأخيرة من القرن الثانى المجرى إذا طاف بالبيت المعظم يتلفت فيجد شاباً أسمر أقرب إلى الطول يحف به تلاميذ فيهم شباب وكهول ، يبين لهم حقائق شرعية لم يألفوا سماعها من الفقهاء ولا الححدثين ، ويستوى فى ذلك من أقدموا من إقليم يسوده الفقه كالهراق ، ومن أقدموا من إقليم المحدثين كالمدينة . ولقد رآه الإمام أحمد الذى جاء يطلب الحديث ويتزود به مع زاد الحيج ومناسكه ، وكان مع صاحب له هو إستحق بن راهويه ، فقال لصاحبه لقد سممت رجلا مارأيت أحسن من عقله ، فقال له أنترك حديث ابن عينية ، وأمثاله لنستمع إلى ذلك الشاب فقال له : إن فاتك عقل هذا الفتى لا تجد بدله ، وإن فاتك الحديث بعلو لا يفوتك بترول .

ذلك الرجل الشاب هو محمد بن إدريس الشافعي الإمام القرشي الذي فَتَقَ أصول الفقه فتكشفت عن عيون صافية من العلم لم يسبق بتدوينها ، والتمبير عنها وقد ورثها الأجيال من بعده .

#### مولده ونسبه:

٢ — اتفقت الروايات على أن الشافعي ولد سنة ١٥٠ ، وعلى أنه ولد بفزة
 وقد ولد في السنة التي توفى فيها أبو حنيفة شيخ فقهاء المراق ، وإمام القياس ،
 وقد ذهب الخيال بيمض الكتاب إلى أن يقول إنه ولد في الليلة التي توفى فيها

أبو حنيفة ، ليقال قد ولد إمام ، وتوفى إمام ، لَكيلا يُخلو وجه الأرض من إمام في باب من أبواب الفقه وما لهذا الادعاء فضل جدوى .

والمتفق عليه أيضا أن أباه قرشى ينتهى إلى بنى المطلب أخى هاشم جد النبى صلى الله عليه وسلم، وتقول الكثرة من المؤرخين فى سلسلة نسبه: إنه محمد ابن إدريس بن العباس بن عمان بن شافع بن السائب بن عبيد بن عبد بن هاشم ابن المطلب بن عبد مناف . والمطلب هذا أحد أولاد أربعة لعبد مناف : هم المطلب، وهاشم، وعبد شمس جد الأمويين و نوفل جد جبير بن مطعم .

والمطلب هو الذى ربى عبد المطلب جد النبى صلى الله عليه وسلم. وكان بنو المطلب نصراء بنى هاشم فى الجاهلية والإسلام ، حتى إنه عندما قاطعت قريش بنى هاشم لتمسكها بنصرة النبى صلى الله عليه وسلم ، وعدم تمكينهم منه وهويدعو إلى الله بمكة كان بنو الطلب مع الهاشميين ، وعاشوا فى المشعب ، ورضوا بأن يجرى عليهم ما يجرى على الهاشمين على سواء ، بينما أبو لهب عم النبى صلى الله عليه وسلم قد انضم إلى قريش فى مقاطعتها.

ومن أجل ذلك كان الذي صلى الله عليه وسلم يجمل لبنى المطلب حقوقا فى النقائم كحقوق بنى هاشم على سواء . ويروى أنه عندما أعطاهم مثل ما أعطى الماشميين ، طالب بنو أمية وبنو نوفل مثلهم ، فقد قال جبير بن مطعم : « لماقسم رسول الله — صلى الله عليه وسلم — سهم ذوى القربى من خيبر على بنى هاشم ، وبنى المطلب مشيت أناوعمان بن عفان ، فقلت يارسول الله ، هؤلاء إخوتك من بنى هاشم لا ينكر فضلهم ، لأن الله تعالى جعلك منهم ، إلا أنك أعطيت بنى المطلب وتركتنا ، وإنما نحن وهم بمنزلة واحدة ، فقال صلى الله عليه وسلم : [إنهم لم يفارقونا فى جاهاية ولا إسلام ، إنما بنو هاشم وبنو المطلب شيء واحد ، ثم شبك رسول الله صلى الله عليه وسلم إحدى يديه فى الأخرى ] .

وأم الشافعي بمنية من الأزد ، وليست قرشية ، وكان لما فضل في تحكوينه وتنشئته .

#### ٔ نشأته:

۳ - قد ولد الشافعي من أب قرشي نسيب ، ولسكنه مات والشافعي في المهد و نشأ فقيرا ، وقد خشيت أمه أن يضيع نسبه وممه حقوق قد تدفع عنه العوز ، فلم ترد بعده عن مقام القرشيين ، ولذلك حملته على أن يكون مقامه بمكة وقد روى البغدادي في كتابه تاريخ بغداد بسعد متصل بالشافعي أنه قال :

« ولدت بالمين ، فخافت أمى على الضيمة ، وقالت الحق بأهلك فتكون مثلهم، فإنى أخاف أن تغلب على نسبك ، فجهزتنى إلى مكة فقدمتها ، وأنا بوسنذ ابن عشر أو شبيه بذلك ، فصرت إلى نسيب نى ، وجعلت أطلب العلم » .

وعلى ذلك نقول: إن الشافعي في نشأته الأولى عاش عيشة اليتامي الفقراء مع نسب رفيع. وإن النشأة الفقيرة مع النسب الرفيع تجعل الناشيء يتجه في أول عمره إلى المالي بمقتضى نسبه مالم يكن فيه شذوذ، أو في تربيته انحراف، ولم يكن أحدها في الشافعي، بل كانت ذات التنشئة تتجه به إلى السمو والرفمة من تلقاء نفسها، وإن الفقر مع هذا العلو النسبي يجعله قريباً من الناس يحس بإحساسهم، ويندمنج في أوساطهم، ويتعرف دخائل المجتمع، ويستشعر مشاعره.

وإن ذلك كله بلاريب بهذب نفسه تهذيباً اجتماعياً، يجعله يألف ويؤلف، ويعطيه عاماً بالناس، وأحاسيسهم، وإن ذلك أمر ضرورى لحكل من يتصدى لممل يتعلق بالمجتمع وما يقصل به في معاملاته، وتنظيمه، وتوثيق علائقه، وإن تفسير الشريعة، واستخراج أحكامها، والكشف عن موازينها ومقاييسها يتقاضي الباحث ذلك كله.

ع - كان الاستعداد للمعالى في نفس الشافعي ، ووجهته أمه إلى طلبها ،

واتخاذ أسبابها ، عندما أرسلته من غزة إلى مكة ، ثم تبعته من بعد ذلك .

وقد ابتدأ بالاتجاه إلى طلب العلم، وهو في كنفها بغزة ، فاستحفظ القرآن الكريم ، ولما ذهب إلى مكة اتجه إلى تلق أحاديث رسول الله تعالى من شيوخ الحديث بها ، وكان حريصاً على حفظها وكتابتها ، يكتبها على ماتتناوله يده فيكتبها أحياناً على الحزف ، وأحياناً على الجلود ، وكان يذهب إلى ديوان الحكم يستوهب الظهور (أى الأوراق الديوانية التي كتب على أحد جوانبها ) ، ليكتب على الوجه الذى لم يكتب عليه .

ولما شدا في طلب العلم مع أنه لا يزال في صباء اتجه إلى التفصح في العربية ليبعد عن العجمة وعدواها التي أخذت تغزو اللسان العربي بسبب الاختلاط بالأعاجم في المدائن والأمصار ، وفي سبيل هذا خرج إلى البادية ، ولزم هذيلا ، وهو يقول في هذا : « إني خرجت من مكة فلازمت هذيلا بالبادية ، أتعلم كلامها ، وآخذ طبعها، وكانت أفصح العرب ، أرحل برحيلهم، وأنزل بنزولهم، فلما رجعت إلى مكة كنت أذكر الآداب والأخبار » .

استحفظ أخبار البادية ، وحفظ أشعارها ، واختص شعر هذيل بالعناية ، و بلغ الشأو فى ذلك ، حتى أن الأصمى راوى المتراث الفنى للأدب الجاهلي ، وصدر الإسلام قال : « صححت أشعار هذيل على فتى من قريش اسمه محمد ابن أدريس» .

وفى البادية تعلم خير مافيها بجوار تعلمه العربية ، وتفصحه فيها ، فقد تعلم الرماية ، وأغرم بها ، ونبغ فيها ، حتى صار إذا رمى من السهام عشرا أصابت كلما ، وقد روى عنه أنه قال لبعض تلاميذه : «كانت همتى فى شيئين:فى الرمى والعلم ، فصرت فى الرمي بحيث أصيب عشرة من عشرة ، ثم سكت عن العلم فقال: بعض الحاضرين : « أنت والله فى العلم أكثر ممنك فى الرمى ، ونرى من هذا أنه

ثر بى أعلى ثربية فى عصره ، وقد اتجه من بعد ذلك للعلم بكليته ، فطلب الفقه و الحديث من الفقهاء و المحدثين بمكة ، حتى صار يشار إليه بين شبابها ، واختصه العلماء والمحدثون ، كسفيان بن عينية ، ومسلم بن خالد الزنجى ، بفضل رعاية و تقدير .

#### فى ظل مالك ورعايته !

و بلغ الشاب العشرين من عمره ، وبلغ منزلة سوغت له أن يفتى ، ويحدث، ولكن همته فى طلب العلم التجاوز أسوار مكة لتنظلع إلى ماوراءها، لأن العلم ليس له حدود وأقطار، فقد وصل إليه خبر إمام المدينة مالك بن أنس رضى الله عنه، فقد اشتهر اسم ذلك الإمام الجليل، وتناقلته الركبان ، وكان لا بد أن تسموهة الشافعى رضى الله عنه إلى التلقى عنه ، وأن يذهب إلى المدينة .

ولكنه لم يرد أن يذهب إلى مالك خالى الوفاض من علمه ، وكان لمالك كتاب قد اشتهر ، وذاع اسمه ، وهو كتاب الموطأ ، فاستماره من رجل اقتداه بمكة ، فقرأه ، وكانت قراءته مضاعفة له فى إرادة الذهاب ، فقد استطاع أن يستأنس منه بفقه مالك ، مع علو درجته فى الرواية .

وعند اعتزامه الرحيل استطاع أن يأخذ كتابا منوالى مكة إلى والى المدينة، ليسهل له لقاء الإمام مالك رضى الله عنه .

ويذكر ياقوت فى كتاب معجم الأدباء قصة الكتاب واللقاء ، فيقول حاكيا عن الشافعي .

« دخلت على والى مكة وأخذت كتابه إلى والى المدينة ، وقدمت المدينة وأ بلغت الكتاب إلى الوالى ، فلما قرأه قال : إن مشيى من جوف المدينة إلى جوف مكة حافيا راجلا أهون على من المشى إلى باب مالك بن أنس . فلست أرى الذل ، حتى أقف على بابه . فقلت أصلح الله الأمير ، إن رأى الأمير ، يوجه إليه ليحضره. فقال . هيهات . ليت أنى إذا ركبت أناومن معى، وأصابنا

من تراب العقيق فلنا بعض حاجتنا ، فوالله لـكان كا قال، لقد أصابنا من تراب المقيق، فتقدم الرجل ( أى بعد أن سرنا ووصلنا إلى بيت مالك) فقرع الباب، فخرجت إلينا جارية سوداء . فقال لها الأمير . قولى لمولاك إنى بالباب ، فدخلت فأبطأت ، ثم خرجت فقالت إن مولاى يقرئك السلام ، ويقول لك : إن كانت مسألة ، فارفعها في رقعة يخرج إليك الجواب ، وإن كان للحديث فقد عرفت يوم الحجلس فانصرف ، فقسال لهسا : قولى له إن معى كتاب والى مكة إليه في حاجة مهمة فدخلت ، وخرجت وفي يدهاكرسي . فوضعته . ثم إذا أنا بمالك قد خرج وعليه المهابة والوقار ، وهو شيخ طويل مسنون اللحية . فجلس . . . فرقع إليه الوالى الـكتاب ، فقرأه ، وبلغ إلى هــذا : وإن هذا رجل من أمره وحاله ، فتحدثه ، وتفعل وتصنع ، فرمي بالكتاب من بده ، ثم قال سبحان الله ، أوصار علم رسول الله صلى الله عليه وسلم يؤخذ بالوسائل ، فرأيت الوالى قد تهيبه أن يَكُلمه ، فتقدمت إليه ، وقلت أصلحك الله إنى رجل مطلبي،من حالى وقصتي كذا وكذا فلما سمع كلامي نظر إلى ، وكان لمالك فراسة ، فقال مااسمك ! قلت محمد ، فقال يامحمد ، اتق الله ، واجتنب المعاصى ، فإنه سيكون لك شأن من الشأن . إن الله قد ألتي في قلبك نورا ، فلا تطفئه بالمصية ، إذا كان الفد تجىء و يجىء من يقرأ لك » .

7 — كانت العادة في رواية الحديث في هذا العصر ومن وليه. أن يتلقى طالب الحديث كتاب الحديث عمن رواه ودونه أو عمن قرأه على من دونه ورواه. ولذلك جاء الشافعي في اليوم البالى، ومعه الموطأ، ليقرأه على مالك. فابتدأ يقرؤه فأعجب مالك بحسن قراءته، فكان الشافعي كلما تهيب الاستمرار في الفراءة. يقول له مالك : زد يافتي . ولذلك أثمه في القراءة على مالك في أيام يسيرة.

لزم الشافى شيخ فقهاء الحجاز مانسكا ، وعاش فى كنفه ، وكان يرحل أحيانا مع هذه الملازمة إلى الصحراء يدرس القبائل العربية ، ويعاشر أهلها أحيانا من الزمان ، كاكان يرحل إلى مكة ليزور أمه ، ويسقنصح بنصائحها ، وكان فيها نيل وحسن فهم ، وتقدير للأمور ، ولذلك نقرر أن ملازمته لشيخه لم تكن كاملة .

#### ولايته الممل في الدولة :

٧ — عاش الشافعي فقيراً ، حتى أجرى له فى آخر حياته عطاء من بيت المال مماكان يخص بنى المطلب ، ولما مات مالك أراد عملا يميش من رزقه ، وقد عاد إلى مكة بعد أن صاحب مالكا نحو تسع سنين ، وصادف ذلك أن قدم إلى الحجاز والى المين ، فكلمه بعض القرشيين ، فأخذه الوالى معه ، ويقول الشافعي في ذلك ! « ولم يكن عبد أى ما تعطيني ما أتحمل به ، فرهنت دارا ، فتحملت منه ، فلما قدمنا عملت له على عمل » .

وفي هذا العمل تبدو كفاية الشافعي في الولاية ، والعمل كان بنجران ، فأقام العدل فيها ، ونشر لواءه ، وكان الناس في نجران ، كما هم في كل زمان ، وفي كل بلد يصانعون الولاة والقضاة ويتملقونهم ، ليجدوا عندهم سبيلا إلى نفوسهم ، ولكنهم وجدوا في الشافعي عدلا ، لاسبيل إلى الاستيلاء على نفسه بالمصانعة والملق ، وقد صور هو ذلك فقال : « وليت نجران ، وبها الحارث ابن عبد المدان ، وموالى ثقيف ، وكان الوالى إذا أتاهم صانموه ، فأرادوني على نمو ذلك فلم يجدوا عندى » .

سد الشافعي باب المصانعة والملق الكميلا يصل إلى نفسه أحد ، وإن ذلك الباب هو الذي يصل به المفسدون إلى نفوس الولاة ، فالشافعي إذ خلقه حصن نفسه من كل فساد ، وشر ، وظلم ، فصار كله للمدل ، ولكن العدل دائما

مركب صعب لايقوى على الوصول إليه إلا أولو العزم من الولاة ، وهم يتمرضون لخشونة الزمان ، ودس الفاسدين المفسدين .

#### محنته

۸ — والدلك لم يكن غريباً أن يتمرض الشافعى بسبب ذلك لمحمة شديدة ، فقد نزل بنجران وال ظالم ، فكان الشافعى يأخذ على يديه ، ويمنع مظالمه أن تصل إلى من تحت إدارته ، وربما ناله ذلك الإمام بما يملكه العلماء من سيف يحسنون استماله وإرهافه ، وهو النقد ، فلمله كان مع الأخذ على يديه يساقه بلسانه ، أو يناله بنقده فأخذ الوالى يكيد له بالسعاية ، « وكل ميسرلا خلق له » .

كان العباسيون يخشون دائمـاً على ملـكمهم من العلوبين ؟ لأنهم يدلون بمثل نسبهم ، ولم من رسول الله تعالى رحم واصلة ليست لهم ، ولأن الخارجات التي خرجت عليهم كان كلها منهم ، ولذلك كانوا في حذر دائم منهم ، فسكانوا إذا رأوا دعوة علوية سارعوا إلى القضاء عليها ، وإذا علموا أن أحد الولاة له رأى حسن في بني على عزلوه أو حاكموه ، أو قتلوه ، ولا يمتنمون عن أن يأخذوا في ذلك بالشبهة ، إذ يرون أن قتل برىء يستقيم به الأمر لهم أولى من ترك متهم بجوز أن يفسد الأمر عليهم .

ولما أراد ذلك الوالى الظالم أن يكيد للشافعي جاءهم من هذه النقطة التي تضعف فيها نفوسهم وعقولهم ، فاتهم الشافعي بأنه مع العلوية ، وأرسل إلى الرشيد للذي كان يجلس مجلس الحلافة في ذلك الوقت كتابايقول فيه : « إن تسمة من العلوية تحركوا ، و إنى أخاف أن يخرجوا ، وإن ها هنا رجلا من ولد شافع المطلبي ، لا أمر لي معه ، ولا نهي ، يعمل بلسانه مالا يقدر عليه المقاتل بسيفه » .

اتهم الشافعي بهذه التهمة ، وقد يكون لها سبب نفسي ، و إن لم يكن لها سبب على ، ذلك بأن الشافعي عرف بمحبته لآل على رضى الله عنه ، ولم تبلغ هذه الحبة مرتبة التشيع لهم ، والعمل على جعل الحركم في سلطانهم ، والذلك اتهم بأنه رافضي أي يرفض إمامة الشيخين أبي بكر وعمر ، ولكنه من ذلك بريء ، ويقول :

إن كان رفضا حبى آل محمد فليشهد النقلات أنى رافض وبسبب ذلك سيق الشافعي مكبلا بالحديد إلى بغداد ، وتلك وفدته الأولى إليها ، وكانت سنة ١٨٤ من الهجرة ، وسنه نحو أربع وثلاثين سنة .

ولما مثل بين يدى الرشيد استطاع أن ينجو بفصاحة لسانه ، وبشهادة محمد بن الحسن الشيبانى له ، ولعله كان قد التقى به فى مجلس الإمام مالك ، إذ أن الشافعى لازم مالكا تسع سنبن فى آخر حياته ، ومحمداً لازمه ثلاث سنين . فأما فصاحته وقدرته على البيان فقد بدت فى قوله عندما سأله الرشيد عن التهمة ، إذ قال له مجيباً :

«يا أمير المؤمنين ، ماتقول في رجلين ، أحدها يرانى أخاه ، والآخر يرانى عبده ، أيهما أحب إلى . قال : الذي يراك أخاه . قال الشافعي : فذاك أنت يا أمير المؤمنين ، إنكم ولد العباس ، وهم ولد على ، ونحن بنو للطلب ، فأنتم ولد العباس تروننا إخوتكم وهم يروننا عبيدهم ، ولعله أراد بذلك ما كان يدعيه المتشيمون على العلويين ، فمعاذ الله أن بكون العلويون الصادقون في نسبهم يرون ذلك.

وأما شهادة محمد بن الحسن الشيبانى الذى كان قاضى بغداد فى ذلك الإبان فقد كانت ، لأن الشافعى استأنس به لما رآه فى مجلس الرشيد عند الاتهام ، إذ أن العلم رحم بين أهله ، فقال : « إن لى حظا من العلم ، وإن القاضى محمد

ابن الحسن يعرف ذلك » فسأل الرشيد محمداً فقال « له من العلم حظ كبير ، وليس الذى وقع عليه من شأنه » .

وجد الرشيد — ولم يكن شرها إلى الدماء — الدريمة للتدبر في الأمر، وعدم البنت السريع فيه، فقال لمحمد بن الحسن، وهو أهل ثقته « خذه إليك حتى أنظر في أمره» و انتهى النظر إلى عدم الالتفات إلى الاتهام.

## عودة الشافعي إلى العلم :

٩ - كان أخذ محمد بن الحسن فقيه المراق له ليس سبباً للنجاة فقط ، بل كان أيضاً سبباً لترك ظلمة العمل فى الولاية إلى المودة إلى نور العلم ، والانصر اف له ، فانصر ف إليه من ذلك الإبان أى من سنة ١٨٤ - إلى أن قبضه الله تمالى إليه أى نحو عشرين سنة ، وكان هو للعلم من قبل الولاية التى استفرقت نحو خس سنين من عمره القصير المبارك ، إذ توفى فى الرابعة والخسين من عمره .

ورب محنة أورثت خيراً عظيا ، فإنه لولا هذه المحنة لا نصرف الشافى الى الولاية ، ولم يعد إلى العلم ، ولحرمت الأجيال من ذلك النراث العلمى الخالد . إنه نزل عند محمد بن الحسن فى بيته ، فآوى إليه كا آوى إلى مالك من قبل ، فأخذ يقرأ كتب الإمام محمد التى ألفها فى فقه العراقيين ، وتلتى هذه السكتب عليه ، كا تلقى الموطأ من قبل عن الإمام مالك رضى الله عنهم جميعاً ، وبذلك اجتمع له فقه الحجاز ، وفقه العراق ، وتخرج بذلك على كبار علماء الفقه فى زمانه . وقال فى ذلك ابن حجر المسقلانى فى كتابه «توالى التأسيس» انتهت رياسة الفقه بالمدينة إلى مالك بن أنس ، فرحل إليه ولازمه وأخذ عنه ، وانتهت رياسة الفقه بالمدينة إلى مالك بن أنس ، فرحل إليه ولازمه وأخذ عنه ، وانتهت رياسة الفقه بالعراق إلى أبى حنيفة ، فأخذ عن صاحبه محمد بن الحسن حملاليس فيه شىء إلا وقد سمعه عليه ، فاجتمع له علم أهل الرأى ، وعلم أهل الحديث فيه شىء إلا وقد سمعه عليه ، فاجتمع له علم أهل الرأى ، وعلم أهل الحديث

فتصرف فى ذلك ، حتى أصل الأصول ، وقعد القواعد ، وأذعن له الموافق والمخالف ، واشتهر أمره ، وعلا ذكره ، وارتفع قدره ، حتى صار منه ماصار» .

أخذ الشافعي عن محمد بن الحسن ، ونقل عنه ، وكتب مانقل ، حتى لقد قال « حملت عن محمد بن الحسن وقر بمير ليس عليه إلا سماعي منه » .

وكان يجل محمد بن الحسن ويكبره ، حتى لقد قال فيه « مارأيت أحدا سئل عن مسألة فيها نظر ، إلا رأيت ذلك في وجهه إلا محمد بن الحسن » .

ويجبأن ننبه هنا إلى أنه لم يأخذ عن محمد بن الحسن فقه الرأى أو القياس فقط ، ولم كن أخذ عنه الروايات التي اشتهرت عن العراقيين ، ولم تشتهر عند الحجازيين ، فقد جاء في رواياته عن محمد بن الحسن : « أنبأنا محمد بن الحسن عن يعقوب بن إبراهيم (أبي يوسف) عن عبد الله بن دينار ؟ عن ابن عمر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال (الولاء لحسة كلحمة النسب ، لا يباع ، ولا يوهب) .

والشافعي في أثفاء إقامته في بفداد كان يناظر العراقيين في فقههم ، ويمتبر نفسه تلميذاً لمالك ، ولم يكن قد خرج على الناس بمنهاج معين ، والحله في مناظراته كان يناظر من دون محمد بن الحسن عمن هو في مثل سنه ، ويستكره أن يناظر محمدا نفسه ، لأنه ينظر إليه ، على أنه الأستاذ له ، والحن الأستاذ يرغب في مناظرته ، كاكان أبو حنيفة يناظر تلاميذه ، فيقدم الشافعي على ذلك في استحياء ، لأنه تربي على مالك الذي كان لا يفتح لتلاميذه باب المناظرة ، وينهى عن الجدل .

## إلى البيت الحرام:

١٠ ـــ لم يذكر المؤرخون المدة التي أقامها في بغداد ملتزما محمد بن الحسن ومناظرا التلاميذ والأستاذ، ويغلب على الظن أنها سنقان ، ومهما طالت المدة ،

أو قصرت ، فقد كانت مباركة ، إذ اطلع تلميذ مالك على آراء غير آراء مالك ، وعلى منهاج فى الفقه غير منهاج مالك رضى الله عنهم جميماً ، فكان لابد أن يدرس دراسة موازنة بين هذه الآراء المختلفة و بين هذه المناهج المختلفة أيضا ، ولا بد أن ينتهى من الموازنة بآراء تقارب أحد الفريقين ، أو تباعده ، أو تباعدها جميماً .

وإن هذه الموازنة لابد أن تبنى على مقاييس ضابطة يزنبها الآراءوالمناهج ليعرف أيها أهدى سبيلا ، وما هو أقرب إلى الحق ، ولقد عكف على هذه الموازنة فى البيت الحرام منصرفا لها ، عاكفا عليها ببصر نافذ ، وتأمل مدرك ، وقد انتهى منها إلى أمرين :

أولها — أنه خرج على الناس بمذهب له ، لقد كان من قبل تلميذاً لمالك ، ينادى بآرائه ، فصار الآن دارسا مستقلا يدرس آراء مالك دراسة فاحصوناقد نقدا ينتهى بالموافقة أو المخالفة ، و يكتب فى ذلك كتابا يسميه خلاف مالك ، ويدرس آراء محمد بن الحسن وشيخيه أبى حنيفة وأبى يوسف دراسة ناقد وفاحص يخالف أو يوافق ، ويكتب كتابا يسميه خلاف المراقيين .

وهكذا يتحلل من التبعية لأى طائفة من الفقهاء ، ليواجه اجتهادا حراً مستقلا في ظل كتاب الله تعالى وسنة رسوله الأمين صلى الله عليه وسلم .

ثانيهما -- أنه خرج على الناس ببيان قواعد الاستنباط ، وهي ماسمي من بعد أصول الفقه . وإنه بهذا كان نسيج وحده في الاجتهاد ، فقد كان العلماء من قبله يلتزمون مناهج يتبعونها في اجتهادهم ، ويشيرون إليها بعبارات عملة غير مفصلة ، فجاء الشافعي ، ولم يكتف بالإشارة ، بل بين بالتفصيل ماينبغي اتباعه في الاجتهاد والقوانين التي يلتزمها المجتهد في اجتهاده لكيلا يخطىء في استنباطه ، ولا يصل إلا إلى الحقائن ماوسعه اجتهاده .

۱۱ - مكث الشافعي في مكة يدرس ويفحص ويلقي على تلاميذه علما لم يألفوه من قبل ، وهو لا يخرج عن الدراسة الفقهية في ظل القرآن والسنة النبوية ، وفي هذه الأثناء كان يلقاه العلماء من كل فتج عميق في إبان الحج ، فجاءه المراقبون وغيره ، وكانت إقامته بمكة نحوا من تسع سنين في هذه المرة .

ولابد أن ينشر ماوصل إليه فى كل البلاد الإسلامية ، وخصوصا ماوضعه من مناهج للاستنباط الفقهى ، وليس ثمة إلا مكان ينبثق منه نور العلم عاما مشرقا ، وهو قصبة الدولة الإسلامية «بغداد» وقد ألفها وألفته، وعرفها وعرفته.

ولذلك رحل إلى بغداد سنة ١٩٥ ، أى وهو فى نحو الخامسة والأربعين من عمره المبارك .

هئالك فى بغداد استرعى نظر كل العلماء فيها، واحتف به التلاميذ، ولم يستكبر علماء بغداد أن يكون فيهم تلاميذ له، فقد تتلمذ له ابن حنبل الذى لقيه فى مكة من قبل، وعجب من عقله وفكره، وأخذ عنه إستحق بنراهويه وهو فى سن قريبة من سنه، وهؤلاء وأشباههم غير التلاميذ الذين أخذوا يتلقون عنه، ويتخرجون عليه.

وكان يجيب الجميع في درسه ويعجبون بإجابته ، لأنه قد أتى بعلم لم يكن على منهاج مادرسوا ، ولأنه يتحلى بصفات لم تكن فيمن سبقوه ولكل فضله، أما المنهاج فقد جاء إليهم بعلم الأصول الذي هو منهاج الاستنباط يبينه بالتفصيل و يمد المعانى المبهمة بالألقاظ الوانحة ، حتى لقد قال فيه إسحق بن راهويه «ماكنا نعرف قبل الشافعي ماالناسخ والمنسوخ» وأما ماتحل به من صفات ، فهو الفصاحة والبيان ، والقدرة على المناظرة و المجادلة ، فقد كان فصيح العبارة قوى التأثير ببيانه ، حتى لقد قال فيه بعض معاصريه « إنه خطيب العلماء » .

وقى هذه القدمة أملى كتبه التي سماها «الكتب البغدادية»، ففيها أملى كتابه الأم، ويسمى بالمبسوط، وهو عدة كتب شملت أكثر ماأثر عنه فى الفروع، وقد كتبها عنه تلميذه ـ الزعفرانى ـ وكذلك أملى كتابه فى أصول الفقه وهو الذى يسمى « الرسالة » ، ورواها عنه الزعفرانى أيضا .

وبهذا انتشر علمه فى كل بلاد المشرق ، مما وراء المراق ، عن أولئك التلاميذ الذين كانوا يحتفون به فى درسه ، وقد استولى عليهم عامل الرغبة فى الاستفادة ، وعامل الإعجاب بشخصية الشافمي الفذة النادرة المثال .

وقد مكث فى هذه القدمة مدة تزيد على سنتين عاد بعدها إلى مكة ، ولعله عاد إلى مكة ، ولعله عاد إلى مكة ليجمع أمتمته وأحواله ، ويزور البيت الحرام ، وشيوخه بها كسفيان ابن عيينة وغيره ، ولم تدم الإقامة بها ، ولذلك عاد إلى بغداد سنة ١٩٨ .

#### إقامــة قصيرة :

۱۲ -- لم يقم الشافعى بيغداد هذه المرة إلا مدة يسيرة ، قد شد الرحيل فيها إلى مصر ، ووصل إليها سنة ١٩٩ .

ولماذا قصر الإقامة في هذه الفتره ببفداد ، مع أن السياق التاريخي كان يقتضى أن يقيم طويلا ، لأنها عش العلماء ، وقصبة الدولة الإسلامية ، وقد صار له بها تلاميذ ومريدون ، والعلم الذي ينتشر بين ربوعها يشع نوره في كل الآفاق الإسلامية ، ولماذا يفادرها إلى مصر ، ولم تكن لها مثل هذه السكانة العلمية ، وإن كانت قد أخذت تثبت شخصيتها العلمية ؟ سؤال تتجاوب أصداؤه في النفس ، ويحتاج إلى جواب .

ولمل هذا الجواب أنه في سنة ١٩٨ ـ قد آلت الله الله عبدالله المأمون ابن الرشيد، بعد حروب وفتن ، بين العرب والفرس انتهت بقتل الأمين ، وقى عهد المأمون ساد أمران تدل حياة الشافعي ومنهجه العلمي على أنه لايستطيب الإقامة في ظليما.

أولها \_ أن الفلبة في عهد المأمون صارت للمقصر الفارسي ، إذ أن المعركة التي كانت بين الأمين والمأمون هي في الواقع بين مفسكر العرب الذي يمثله الأمين ، ومعسكر الفرس الذي كان جميع قواده وجنده منهم ، وإذ انتهت المعركة بنصر المأمون ، فقد انتهت إذن بانتصار الفرس على العرب ، و بذلك صار لهم النفوذ ، وما كان لهذا القرشي أن يرضى بالمقام في ظل سلطان فارسى بنفوذه وصبفته .

ثانيهما \_ أن المأمون كان من الفلاسفة المتسكلمين ، فأدنى إليه المعتزلة ، واعتبر نفسه منهم ، وجعل منهم كتابه وحجابه وجلساءه ، والمحكمين فى العلم وأهله ، والشافعى ينفر من المعتزلة ، ومناهج بحثهم ، ويقرر أنه تفرض عقوبة على من يخوض مثل خوضهم ويتكلم فى العقائد على طريقتهم ، فما كان لمثل الشافعي أن يرضى بالمقام ممهم ، وتحت سلطان ذلك الحاكم الذي مكن لهم ، حتى انساق وهو يسير وراءهم إلى أن أنزل المحنة من بعد بالفقهاء والمحدثين ، تلك الحنة التي سميت من بعد محنة خلق الغرآن ، ونزل فيها بالإمام أحمد مانزل من بلاء.

ويروى بمض الشافعية أن المأمون عرض على الشافعى أن يوليه القضاء فاعتذر، وإن ذلك بلاريب يتفق مع منطق تفكيره، ومع سلسلة حياة الشافعي تلميذ مالك .

### إلى مصر العزيزة :

۱۳ - لم يطب للشافى المقام ببغداد فى هذه القدمة ، ولابد من الرحيل عنها إلى بلد غيرها يكون قريبا منها فى المنزلة العلمية ، ولا يكون فيه مارأى فى فى بغداد من تحكم الفرس فى العرب ، ولقد وجد بغيته فى مصر ، لأن بها تلاميذ مالك ، وإقامة الليث بن سعد كانت بها ، فضارت لها مكانة علمية إن لم تكن مثل بغداد ، فإنها تقاربها ، ولأنه وجد للعرب سلطانا فيها ، لأن واليها

قرشى عباسى ، وقد قال ياقوت الحوى فى معجم الأدباء: هكان سبب قدومه إلى مصر أن واليها العباس بن عبد الله بن العباس بن موسى بن عبد الله ابن عباس » .

وقد قال الشافعي عندما أراد السفو إلى مصر ، وانعقدت عزيمته على ذلك.

لقد أصبحت نفسي تتوق إلى مصر ومن دونها قطع المهامه والقفر فوالله ما أدرى اللفوز والغني أساق إليها أم أساق إلى القسبر ولقد أجاب القدر عن سؤاله ، فساقه إليهما مما ، فقد نال الفني ، إذ فرض ذلك الوالى العربي عطاء له من سهم ذوى القربي من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ناله بشرف نسبه ، و نال الفوز بنشر آرائه وعلمه وفقهه ثم ناله الموت ، فسكان مسوقا إلى قبره بمصر ، ققد مات بها في آخر ليلة من رجب سنة ٢٠٤ من الهجرة ، إذ قد مات في الرابعة و الجمسين من عمره ، فلم يعمر كأ بي حنيفة من الحدي عاش نحو سبعين سنة ، ولا كشيخه مالك الذي عاش نحو ستو ثمانين ،

ولقد قيل إنه مات على أثر ضربة طائشة من عصابة رجل أحمق طائش اسمه فتيان كان من أتباع مالك ، وقد ذكر هذه الرواية ياقوت الحموى في معجم الأدباء ، فقد جاء فيه مانصة :

وقضى حياته في نضال ، وقد توفي على فراشه مريضاً .

«كان بمصر رجل من أصحاب مالك يقال له فتيان فيه حدة وطيش ، وكان يناظر الشافعي كثيراً ، ويجتمع الناس عليهما ، فتناظر الشافعي كشيراً ، ويجتمع الناس عليهما ، فتناظرا يوماً في مسألة بيع الحر ، وهو العبد المرهون إذا أعتقه الراهن ، ولا مال له غيره ، فأجاب الشافعي بجواز بيعه على أحد أقوال الشافعي ، فظهر عليه الشافعي في المتحاج ، فضاف فتيان بذلك ذرعا ، فشتم الشافعي شتما قبيحاً ، فلم يرد عليه الشاعمي حرفا ، ومضى في كلامه في السألة ، فرفع ذلك رافع إلى السرى (حاكم مصر ) فدعا الشافعي ،

وسأله عنذلك ، وعزم عليه ، فأخبر بما جرى ، وشهد شهود على فتيان بذلك فقال السرى ، لو شهد آخر مثل الشافعى على فتيان لضربت عنقه ، وأمر بفتيان فضرب بالسياط ، وطيف به على جمل ، وبين يديه مناد ينادى : هذا جزاء من سب آل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم إن قوما تعصبوا لفتيان من سفهاء الناس ، وقصدوا حلقة الشافعى بمحتى خلت من أصحابه ، وبتى وحده ، فهجموا عليه . وضربوه ، فحمل إلى منزله ، فلم يزل فيه عليلا حتى مات » .

وإن هذه الرواية تفيد أن الموت كان سببه هذا الضرب ، وإنا نستبعد ذلك ، لأن الوالى الذى استكثر أن يسب الشافعى حتى أوشك أن يقتل من سبه لا يمكن أن يسكت عن ضربوه ، وكان لابد أن يسأل الشافعى عن ذلك ، وسواء أصحت قصة الضرب هذه ، وسلم أنها اتصلت بالموت ، أم لم تصح فإنه من المقرر أن مرضه الذى مات به البواسير ، فقد أصيب بنزيف شديد ، ولتى ربه راضياً مرضياً ، فرضى الله عنه .

ولقد ترك رضى الله عنه ثروة مثرية ، لا تزال مميناً خصباً للفقه ، وقد دوى ذكره بها فى المشارق والمفارب .

غ١٠ – لقد شغل الشافعي الناس بعلمه ، وعقله ، وبلاغته ، شغلهم في بغداد عندما كانت تعقد بينه وبين فقهائها المناظرات ، وهو شاب بتلتي عن محمد بن الحسن ، وشغل العلماء الذين كانوا يجيئون إلى البيت الحرام، حاجين، ومتزودين بزاد من علم الرسول وأحاديث يتلقونها عن بقية التابعين بها ، وشغل بغداد مرة ثانية بالثمرات العلمية التي وصل إليها ؟ وهو عاكف في البيت الحرام يضع القواعد ، ويجمع الأصول ، ويدرس المذاهب دراسة مقارنة لم يسبق بها ، ثم لما جاء إلى مصر شغل الناس بعلمه الذي لم يعرفوا له نظيراً فيا درسوا ، وإن كان لكل فضله وسبقه .

ولقد انطلق بالثناء عليه شيوخه الذين تلقى عنهم، وقرناؤه الذين ناظروه، ثم كانوا له كالتلاميذ، وتلاميذه الذين حفظوا للأجيال علمه الغزير .

فنجد شيوخه مالكا ، وسفيان بن عينية ، ومسلم بن خالد الزنجى يثنون على عقله ، ونجد عبد الرحمن بن مهدى بعد أن قرأ رسالته فى الأصول يقول «هذا شاب مفهم » ونجد محمد بن عبد الله بن الحسكم أحد تلاميذه بمصر يقول فيه : « لولا الشافعي ماعرفت كيف أرد على أحد ، وبه عرفت ماعرفت، وهو الذى علمنى القياس رحمه الله ، فسكان صاحب سنة وأثر وفضل وخبر معلسان فصيح طويل وعقل صحيح رصين » .

ولقد قال فيه تلميذه أحمد بن حنبل: يروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال: « إن الله عز وجل يبعث لهذه الأمة على رأس كلمائة سعة رجلايقيم لها أمر دينها، فكان عمر بن عبد العزيز، على رأس المائة، وأرجو أن يكون الشافعي على رأس المائة الأخرى » .

وهـُكذا نجد الشهادات العلمية ثجيئه تثرى مبينة ماكان له من فضل وعلم وإحاطة.

- والحقيقة أنه أوتى من أسباب العلم ما يجعل له هذه المنزلة السامية ، فقد أوتى علم القرآن الكريم ، ففقه معانيه وأدرك كثيراً من أسراره ومراميه وقد قال بعض تلاميذه : « إذا أخذ الشافعى فى التفسير كان كأنه شاهدالتينزيل» وأوتى علم الحديث ، فروى أحاديث من كانوا بمكة من بقية التابعين، وروى أحاديث الأمام مالك، فقرأ عليه الموطأ الذى يعد أول مدون كامل فى الحديث، وأوتى العلم العراق راوياً له عن العراقيين فى الفترة التى التتى فيها بالإمام محمد ابن الحسن .

وأوتى مع هذا فقة الرأى ، وضبط قواعد الفقه ، فوضع ضوابط القياس ، وضوابط النسخ .

وقد كان رضى الله عنه يدعو إلى طلب العلوم المختلفة فسكان يقول : « من تعلم القرآن عظمت قيمته ، ومن كتب الحديث قويت حجته ، ومن نظر في الفقه نبل قدره ، ومن نظر في اللغة رق طبعه ، ومن نظر في الحساب جزل رأيه ، ومن لم يصن نفسه لم ينفعه علمه » .

## انصرافه للعلم وعصره :

17 - منذ نعومة أظفاره اتجه إلى العلم ، وتو افرت له أسبابه ، فقد كانت إقامته بمكة ، وفيها براية من التابعين وفيها مدرسة عبد الله بن عباس الذى اختار جوار البيت الحرام مستقراً له ومقاماً ... ذريعة لأن يصل فى نشأته الأولى إلى أعلى ما يصل إليه من هوفى مثل سنه ، ولما شدا وترعرع اتجه إلى عالم دار الهجرة فلازمه تسع سنين هى أخصب زمن لإنتاج الشيخ ، وأخصب سن للتاميذ ، ولم ينصرف إلى العمل فى غير العلم إلا وقتا قصيرا ، عاد بعده إلى العلم مشغوفا به ،

مذركا أن فيه الشرف كل الشرف، وأخذ يدرس علم القرآن والسنة، واختلاف الفقهاء، ويضع الموازين لضبطها، وتعرف الحق من بينها، واتخذ مجلس درسه ابتداء فى البيت الحرام، حتى إذا امتلأ الوعاء ذهب إلى بفداد، واتخذ فيها كرسيا آخر لدرسه، ثم لما صاق ببغداد، وتبرم بمناهج علمية فيها لا ير تضيها، يمم وجهه ناحية مصر الطيبة التى صارت من بعد مأوى العلماء من الشرق والنرب عندما ادلهمت الخطوب بأهل الإسلام، واضطر العلماء إلى الرحلة حيث الأمن ، فلم يحدوه إلا في مصر، و بذلك كانت حياته كلها للعلم بعقل عبقرى، وقلم محكم، ولسان بليغ مصور.

۱۷ – وإن عصر الشافعي كان عصر ازدهار العلوم ، وابتداء التدوين، ووضع الأصول الحكل علم من العلوم ، فني عصره كانت اللغة تدون وتوضع أصولها ، فأخلاف أبى الأسود الدؤلى أخذوا يدونون الأصول لعلم النحو ، والأصمى وغيره أخذوا يضعون الروايات للشعر ، ويتقلونه ، والخليل بن أحمد وضع علم العروض الذي كان ضابطا لأشعار العرب ، وأنفاعها ، والجاحظ أخذ يوجه الأنظار إلى طرائق النقد الأدبى ، وهكذا غير هؤلاء .

وفى الأحاديث أتجه العلماء إلى جمعها من ينابيعها المختلفة ، وأبتدأت الأصول توضع لتسكون ميزانا يعرف به الخبر الذى تصح روايته ، ويصلح أن يكون حديثا منسوبا للنبى صلى الله عليه وسلم ، من حيث رجاله الذين رووه ومن حيث متنه الذى اشتمل عليه .

والفقه قد تكونت فيه المدارس المختلفة ، فكانت مدرسة الفقه المسكى الذى كان ينقل ينقل آراء ابن عباس ، وفى المدينة كانت مدرسة الفقه المدنى الذى كان ينقل فقه عمر بن الخطاب وزيد بن ثابت ، وعمّان بن عفان . وعلى بن أبى طالب ، وغيرهم من فقهاء الصحابة الذين نقلوا علم النبى إلى الأخلاف مطبقا ، وقد أخذ

الفقه طريقه فى التدوين ، فالإمام مالك يدون الموطأ الذى اشتمل على كمثير من فقه مع مافيه من سنة مروية ، وفتاوى الصحابة المنقولة عن تلاميذهم .والإمام محمد بن الحسن يدون الفقه العراقى، ويفرع فروعه فى دقة وإحكام فى التأليف، والشافعى قد استفاد من كل هذا .

وهناك أمر آخر ، وهو الفرق الإسلامية المختلفة ، فقد أخذت كل فرقة طريقها في الدفاع عن آرائها و نشرها ،المعتزلة كانوا يجادلون عن آرائهم ويدافعون عن الإسلام ، وكذلك الفرق السياسية المختلفة من شيعة وإمامية ، وزيدية وغيرهم ، فكان العصر عصر جدل ومهاظرات .

و إذا كان الشافعي لم يرض عن أكثر هذه الفرق ، فلم ينهج منها جالمعمزلة ، ولا الشيعة ولا الخوارج ، فإنه قد تأثر بالعصر الذي عاشوا فيه من حيث المنهاج ، فقد كان عصر الجدل و المناظرات ، ولذلك كان رضي الله عنه نظارا مجادلا ، يعرف كيف يبطل الباطل ، ويحق الحق في جدله ومناقشاته .

ولقد جادل الممتزلة بالفعل دفاعا عن الحديث، فقد كان بالبصرة فريق منهم ينكر الاحتجاج بأخبار الآحاد ، أى الأحاديث التى فيست متواترة ، فتصدى الشافعي لمجادلتهم دفاعا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد دون ذلك فى كتابه الأم ، وكان يسمى لهذا ولغيره بحق «ناصر السنة».

وإنه في عصر الشافعي ترجمت العلوم المختلفة من اليونانية والفارسية والمندية ، وبتلك الترجمة نشرت في العصر ألوان من العلم ، ولا نعتقد أن الشافعي كان بعيدا عنه ، مجافيا له ، وربما قد نال منه مما له صلة بالجدل والمغاظرة قدرا ، وعلى أي حال لم يكن له أثر في آرائه الفقيية ، فإنها كانت من صميم المصادر الإسلامية ، بل إنه قد بلغ في ذلك حد التشدد بالنصوص؟ إذ يبطل كل اجتهاد ايس مبنيا عليها ، كما سنبين إن شاء الله تعالى ذلك بإيجاز ،

## صفات الشافعي

۱۸ ــ لقد آتى الله الشافى صفات رفعته فى علمه وخلقه ودينه ، ومنزلته الاجتاعية بين معاصريه.

ا \_ فقد كان رضى الله عنه قويا فى إدراكه العلمى ،كان صاحب ذاكرة واعية حافظة يقرأ الموطأ فيحفظه ، ثم يقرؤه عن ظهر قلب كما روى ، حتى إنه قبل أن يلتق بمالك كان قد حفظ الموطأ .

وكان مع الذاكرة الواعية الحافظة حاضر البديهة تنثال عليه المعابى انتيالاً في وقت الحاجة إليها ، فلم تكن به حبسة فكرية ، ولم يكن بمن تفاق عليه الأمور ، بل كان يلقي على مايدرس ضوءا من تفكيره ، فتتضح بين يديه الحقائق ، ويستقيم أمامه منطقها ، فيسلك به مسالكها .

وكان حميق الفكرة ، لايكتنى من المسائل بدراسة ظاهرها ، بل يذهب إلى أحمق أغوارها ، وكان يعيد المدى فى الفهم لايقف عند حدحتى يصل إلى الحق كاملا ، وكان يتجه فى دراسته للحوادث وأحكامها إلى وضع صوابط لها، فكانت دراسته طلبا للكيات ، ولا يكتنى بالجزئيات ، وكانت نتيجة أنجاهه إلى الكيات أن وضع علم أصول الفقه .

٢ – وكان الشافعى قوى البيان، واضح التعبير، بين الإلقاء، أوتى مع فصاحة لسانه، وبلاغة بيانه وقوة جناته صوتا عميق التأثير، يعبر بنبراته، كما يوضح بعبارانه، لقى مالكا فأراد أن يقرئه الموطأ على بعض أصحابه، فقال اقرأ صفحاً، فما إن قرأ الصفح، حتى رغب مالك فى سماعه منه، حتى آخره، وذلك لما فى صوته من تأثير عيق.

وقد روى عن بعض تلاميذه أنه قال : « مارأيت أحدا إلا وكتبه أكبر

من مشاهدته إلا الشافعي ، فإن لسانه أكبر من كتابه ، وإذا كانت كتب الشافعي على أحسن ماتكون عليه الكتب من جودة تعبير ، وحسن تصوير للفكرة ، فكيف تكون حال مشاهدته، وهي أقوى أداء ، وأكمل إشارة، وأعلى عبارة ، ولقد بلغ من إجادته للبيان أنه قال فيه إسحق بن راهو به « إنه خطيب العلماء » .

٣ - وكان الشافعي نافذ البصيرة ، قوى الفراسة ، كشيخه مالك ، وتلك صفة لازمة للمفاظر الأريب ، كما هي لازمة للأستاذ الجيد ، إذ يلتى على تلاميذه القدر الذي يطيقونه من المعرفة ، ولا يعرف ذلك إلا بفراسته ، فيواجم بين طاقتهم في الفهم ، وطاقته في التبيين . وكان بصر الشافعي بهذا سببا في أن التف حوله أكبر عدد من التلاميذ والصحاب ، وكان خبرته بففوس الناس لا يمطى سامعيه من العلم إلا بمقدار ما يطيقون . جاء في معجم الأدباء لياقوت أنه كان يتناشد مع بعض سامعية شعر هذيل ، فأتى عليه الشافعي حفظا ، ثم قال لمن كان يتناشد معه : « لا تعلم بهذا أحداً من أهل الحديث فإنهم لا يحتملون ذلك » .

٤ ـ وكان الشافعي مخلصاً في طلب الحقائق ، صادق النظر في الاتجاه إلى الحق الذي لا يبتغي سواه . وفي الحكمة المشرقية أن الاتجاه المخلص في طلب الحقائق ، يلتى في القلب بنور المعرفة، ويوجد في النفس صفاء تتضح به الحقائق ويدرك به العقل ، ويستقيم الفكر ، ويجعل العبارات صادقة التصوير للمعانى الصحيحة ، وبذلك يكون الرأى قويماً ، والتعبير سلياً .

و إن إخلاص الشافعي في طلب الحقائق لازمه في كل أدولر حياته ، حتى كان يطلب الحق أنى يكون ، فإذا اصطدم إخلاصه مع مايألفه الناس من آراء أعلن آراء في جرأة ، وإذا اصطدم إخلاصه للحقائق بإخلاصه لشيوخه آثر

الحقائق، فلم يمنعه إخلاصه لمالك من أن يخالفه ، ويعلن الخلاف بعد أن تردد في إعلانه ، ولكن لما بلغه أن العاس في الأندلس يستسقون بقلنسوة مالك أعلن كتابه فيه للناس ، ليعلموا أنه بشر يخطىء ويصيب ، ولم يمنعه إخلاصه لمحمد بن الحسن الذي أنقذه وآواه من أن يناظره، ويشد عليه فىالمناظرة،وأن يغالب أصحابه ، حتى ينتصف لأهل للدينة منهم. وهكذا كان يسير في كل أدوار حياته العلمية ، وللذلك كان يستقبل مناظريه بإخلاص الحق ، فيظفر بهم مادام الحق مطلبه .كان يعتقد أنأساس الشريعة الإسلامية كتاب الله وسنة رسوله، وما كان يعتقد أنه أحاط بسنة رسول الله علماً ، فـكان يحث أصحابه على طلب الحديث ، وإن رأوا حديثًا صحيحًا بخالف مايقرره فليرفضوا رأيه ، وليأخذوا بالحديث . وجاء في معجم ياقوت بسند إلى الربيع بن سليان أنه قال : « سمعت الشافعي وقد سأله رجل عن مسألة ، فقال يروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : كذا ، وكذا ، فقال له يا أبا عبد الله ، أتقول بهذا ، فارتعد الشافعي، واصفر لونه ، وحالوتغير ،وقال: أي أرض تقلني ، وأي سماء تظلني إذا رويت عن رسول صلى الله عليه وسلم ، ولم أقل به ، نعم على الرأس والعينين » ويقول الربيع بن سليمان سمعت الشافعي يقول : « مامن أحد إلا وتذهب عنه سنة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتعزب ، فمهما قلت من قول ، أو أصلت من أصل فيه عن رسول الله خلاف ماقلت ، فالقول ماقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو قولى » وجمل بردد هذا الــكلام .

وهناك نوع من الإخلاص يخص الله به صفوة عباده الذين يكونون أسوة للناس ، وهو الفقاء فى الفكرة التى اختص بها المؤمن ، وطالب بها ودعا إليها بأن يذعن للحق أياكان قائله من الناس ، فإن اللؤلوة الفائفة لاتهون لموان غائصها الذى استخرجها ، يخضع للولى وللعدو على سواء مادام الحتى فى جانبه ،

والإخلاص بهذا الشكل مرتقى صعب ، ومطلب عزيز ، فإن الذين يصاولون بالبيان ، وينازلون بالحجة ، يندر فيهم من لم يدخله زهو ، ويناله حب علو والشافعي كان من هذا القليل النادر ، ولذا ماكان يفضب في جدال ، ولا يستطيل محدة لسان ، لأنه يبغى الحق ولا يبغى جاها ، ولقد بلغ من زهده في جاه العلم ، وإخلاصه لطلب الحق وفنائه فيه أن كنان يتمنى أن ينتفع الناس بعلمه من غير أن ينسب إليه ، فقد جاء في تاريخ الحافظ بن كثير أنه كان يقول «وددت أن الناس تعلموا هذا العلم ، ولا ينسب إلى شيء منه ، فأو جرعليه ولا يحمدوني ».

ولقد كسبه الإخلاص ذكاء قلب ، وقوة نفس ، وتباعدا عن الدنايا ، وتساميا عما لايليق بالرجل الكامل. وقد قال يحيى بن معين فى خلق الشافعى . « لو كان الكذب مباحاله لكانت مروءته تمنعه من أن يكذب » ، وهذا أسمى مايصل إليه المخلص الصدوق ، يقوم بما يجب استجابة لضميره ووجدانه ، لا لجرد الأمر والنهى .

# آراء الشافعي وفقهه

19 ـ ظهر فى عصر الشافعى آراء مختلفة ، ونحل متباينة ، وقد ظهر علم سموه علم السكلام أقام المعتزلة قواعد بنيانه ، وتكلموا فى أن السكلام صفة لله أو ليس بصفة ، وفى أن القرآن السكريم مخلوق ، أو غير مخلوق ، كما تسكلموا فى أن أوصاف الله تعالى معان غير الذات ، أو هى والذات معنى واحد، لأن الله سبحانه وتعالى لا يعرف إلا يصفاته ، وتسكلموا هم وغيرهم من الجبرية فى القدر ، وفى إرادة الإنسان بجوار ما قدره الله سبحانه وتعالى ، وظهرت الفرق السياسية من شيعة وخوارج ، وعباسيين .

فكان لابدأن يكون لذلك مكان من تفكير هسلبا أو إيجابا ، قبولا أوردا، وقد كان الأثر سلبيا بالنسبة لعلم الكلام ، وما يتفرع منه ، فقد كان ينهى عن الاشتغال به ، وقد أثر عنه أنه قال : « إيا كم والنظر في المكلام ، فإن الرجل لوسئل عن مسألة في الفقه فأخطأ فيها - كان أكثر شيء أن يضحك منه لوسئل عن رجل قتل رجلا ، ففال ديته بيضة ، ولو سئل عن مسألة في الكلام فأخطأ لنسب إلى البدعة .

ومع نهيه عن الكلام كان يعلم الكثير منه ، وما كان لمثل الشافعي أن ينهى عن أمر لا يعلمه ، ولقد دخل مرة مع تلاميذه فوجدهم يتناظرون في الكلام، فقال لهم : « أتظنون أنى لا أعلمه !! لقد دخلت فيه ، حتى بلغت مبلغا عظيا إلا أن الكلام لا غاية له ، تناظروا في شيء إن اخطأتم فيه يقال أخطأتم ، ولا يقال كفرتم » .

وليس معنى نهى الشافعى عن النظر فى علم السكلام أنه ليس له رأى فى المسائل التى خاض فيها المدكلمون كرؤية الله يوم القيامة ، ومسألة القدر ، ومسألة الصفات ، بل كان للشافعى رأى يتفق مع منهاجه فى الفقه ، وهو الأخذ بكل

ماجاء به القرآن وما جاءت به السنة غير باحث في الأدلة التي يسوقها المتكامون إلا بالمقدار الذي يؤيد النصوص ، فكان مثلا يعتقد أن الإيمان يزيد وينقص، لظو اهر نصوص القرآن ، و الأحاديث العبوية .

### رأيه في الإمامة:

٢٠ ــ ومن المسائل التي أثارها المتكلمون ، وأثارتهاالفرق السياسية مسألة الإمامة ، وشروطها ، ولأن هذه المسألة لها صلة قريبة أو بعيدة بالفقه ، قد أثرت له آراء ثلاثة حول الخلافة في موضوعات :

أولها أن الشافعي يعتقد أن الإمامة أمر ديني لابد من إقامته ، فلابد للناس من إمام يعمل تحت ظله المؤمن ، ويستمتع الكافر ، حتى يستريح بر ، ويستراح من فاجر » كما قال على بن أبي طالب كرم الله وجهه .

ثانيها \_ أنه يرى أن الإمامة في قريش ' ويروى في ذلك عن همر بن عبد المزيز وابن شهاب الزهرتي بسند متصل أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « من أهان قريشا أهانه الله » ويروى أيضا أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لقريش ، « أنتم أولى بهذا الأمر ماكفتم على الحق إلا أن تعدلوا ( أى تعدلوا عنه) فتلحوا كا تلحى هذه الجريدة » وهذا النص يستفاد منه أنه يشترط العدالة، فلا يعد إماما من يكون ظالما .

الأمر الثالث \_ أن الشافعي لايشترط لصحة الخلافة أن تكون البيمة سابقة على التولى، و إن كان سبقها، بلاريب هو الأولى، بل إنه يقرر أنه إذا تغلب متغلب وكان قرشيا، ثم عدل و استقام له الأمر، واجتمع الناس له فإنه يعد إساما، وقد روى عنه تلميذه حرملة أنه قال: «كل قرشي غلب على الخلافة بالسيف، واجتمع عليه الناس فهو خليفة » فهو يشترط في التصدى للخلافة أن يكون قرشيا، وأن يجتمع الناس عليه قبل تولى دفة الحسكم أو بعده، والعدالة شرط يدهى كما قررنا،

ويعتقد رضى الله عنه أن أحق الناس بالخلافة كان الصديق ، ثم الفاروق ، ثم ذا النورين ثم إمام الهدى على بن أبى طالب رضى الله عنهم جميعا .

وقد روى أنه يعد الخلفاء الراشدين خمسة ، فيزيد على الأربعة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم عمر بن عبدالمزيز، وكان يرى الفضل فى الراشدين كترتيبهم فى الخلافة ، ولسكن الشافعى القرشى كان يخص عليا بمحبة أكثر، وإن كان يراه دون أبى بكر فضلا ، وقد روى فى إعجابه بعلى ، أنه قال رجل فى على : « ما نفر الناس من على إلا أنه كان لا يبالى بأحد ، فقال الشافعى رضى الله عنه . كان فيه أربع خصال ، لا تسكون خصلة واحدة لإنسان إلا يحق له ألا يبالى بأحد ، كان زاهدا ، والزاهد لا يبالى بالدنيا وأهلها ، وكان عالما ، والعالم لايبالى بأحد ، وكان شجاعا ، والشجاع لايبالى بأحد ، وكان شريفا ، والشريف لايبالى بأحد ،

وقال أيضا في على كرم الله وجهه . «كان على قد خصه الدي بعلم القرآن لأن الدي صلى الله عليه وسلم دعاله ، وأمره أن يقضى بين الماس ، وكانت قضاياه ترفع إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فيمضيها » .

والشافعي في الخلاف بين على كرم الله وجهه ومعاوية ، يرى أن عليا كان على الحق ، ومعاوية ما كان على الحق ، بل كان باغيا ، وكذلك كان الخوارج، ولذلك أخذاً حسكام البغاة من معاملة على رضى الله عنه للخارجين عليه ، ويروى قى ذلك أنه قيل لأحمد بن حنبل أن يحيى بن معين ينسب الشافعي إلى الشيعة فقال أحمد ليحيى بن معين . كيف عرفت ذلك ؟؟ فقال يحيى نظرت في تصنيفه في قتال أحمد أهل البغى ، فرأيته قد احتج من أوله إلى آخره بعلى بن أبي طالب ، فقال أحمد يا عجبالك !! فيمن كان يحتج الشافعي في قتال أهل البغى ؛ فإن أول من ابتلى من هذه الأمة بقتال أهل البغى هو على بن أبي طالب كرم الله وجهه .

71 — منذ أن عاد الشافعي إلى مكة بعد إقامته في بغداد ، وقد أخذ ينهيج منهاجا فقهيا ليس فيه تابعا لشيخه مالك رضى الله عنه ولا لحمد بن الحسن الشيبانى الذى كان يحمل فقه العراقيين ، وقد اتجه كا أشرنا من قبل إلى دراسات كلية مع دراسة الفروع ، ولذا قال فيه الإمام أحمد بن حنبل . «كان الفقه قفلا على أهله ، حتى فتحه الله بالشافعي» وقد استقبل الناس ذلك النوع من العلم على أهله ، حتى فتحه الله بالشافعي» وقد استقبل الناس ذلك النوع من العلم على أنه فتح جديد فى الدراسات الفقهية ، لم يسبق به الشافعي ، حتى لقد أثار إعباب الناس عندما أعلنه فى بغداد سنة ه ١٩ه ، ولقد قال الكر ابيسي . «ماكنا ندرى ما السكتاب ولا السنة ولا الإجماع ، حتى سمنا الشافعي يقول : «الكتاب ندرى ما السكتاب ولا السنة ولا الإجماع ، حتى سمنا الشافعي دخلنا عليه ، فكان يقول . « إن الله تعالى قد يذكر العام ، ويريد به الحام ، ويذكر الخاص ويريد به العام ، وكنا لا نعرف هذه الأشياء ، فسألناه عنها ، فقال إن الله تعالى يقول : [ إن الناس قد جموا لـ كم ] والمراد أبو سفيان (أى وهو خاص ) يقول [ يأيها النبي إذا طلقتم النساء ] ، فهذا عام ، والمراد عام » .

وهكذا نرى الشافعي قد قدم بغداد ، وفي حقيبته علم لم يكن لهم به عهد قد وضحه وبينه ، وضبطه ، وإن لم يخترعه اختراعاً كاملا ، ولابد ونحن نشكام في فقهه أن نشكلم بإنجاز عن أمرين .

أولهما ــ الأدلة التي بني عليها فقهه أو مصادره .

وثانيهما \_ عمله في علم الأصول.

## مصادر فقه الشافعي

#### ٢،١ – الكتاب والسنة :

۲۲ — استقى الشافعى فقمه من خسة مصادر ، وقد نص عليها فى كتابه الأم : فقد قال : « العلم طبقات شتى ، الأولى الكتاب والمسئة إذا ثبتت ، ثم الثانية الإجماع فيما ليس فيه كتاب ولا سنة ، والثالثة أن يقول بعض أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قولا ، ولا نعلم له مخالفا منهم ، والرابعة الحتلاف أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم فى ذلك ، الحامسة القياس ، ولا يصار إلى شىء غير الكتاب والسنة ، وهما موجودان ، وإنما يؤخذ العلم من أعلى » (١).

وعلى ذلك نرى أن الشافعى يعتبر المرتبة الأولى من مراتب الاستنباط هى المنصوص، وهى السكتاب والسنة، ويعتبرهما المصدر الوحيد للفقه الإسلامى، وغيرهما من المصادر محمول عليهما، فالصحابة فى آرائهم ـ متفقين أو مختلفين \_ لا يمكن أن يكونوا مخالفين للسكتاب أو السنة، بل هما الينبوعان لهذه الآراء بالنص فيهما أو بالحل عليهما، وكذلك الإجماع لا يمكن أن يكون إلا معتمداً عليهما، غير خارج عنهما، فالعلم يؤخذ دائما من أعلى، وهما الأعليان.

۲۳ - وقد وجدنا الفقهاء من بعد الشافعى يذكرون الكتاب أولا ، ثم السنة ثانيا ، وكذلك كان يقرر أبو حديفة من قبل الشافعى ، أنه يأخذ بالكتاب ، فإن لم يجد فبالسنة ، وكذلك روى عن معاذ بن جبل عددما سأله

<sup>(</sup>١) الأم ج ٧ س ٢٤٧ .

النبي صلى الله عليه وسلم «عما يقضى به» فقد قرر أنه يقضى بكتاب الله ، فإن لم يجد فبسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإن لم يجدهما اجتهد رأيه» .

ولماذا دمج الشافعي السنة مع القرآن ، مع أنهما في حقيقتهما وذاتهما ليسا مرتبة و احدة ، فالسنة عرفت حجيتها من الكتاب ؟ إن الشافعي بلاريب لا يعتبر السنة في منزلة القرآن من كل الوجوه ، وعلى الأقل القرآن متواتر يتمبد بتلاوته ، وهو كلام الله ، والسنة أكثرها غير متواتر ، ولا يتعبد بقراءتها ، وليست كلام الله ، بل هي كلام النبي صلى الله عليه وسلم .

و إنما نظر الشافعي إلى الفقه فوجد القرآن قد اشتمل على بيان الكليات، وكثير من الجزئيات، والسنة أتمت ببان القرآن، وفصلت ما أجمل، ووضحت بعض ماقد يدق على بعض العقول إدراكه، فإن السنة مبينة للكتاب في كل ماجاء به من مسائل كلية، ومفصلة لمجمله، ولا يمكن أن يكون لها البيان إلا إذا كانت في مرتبة المبين في العلم، وقد كان كثير ون من الصحابة ينظرون ذلك النظر.

ولكيلا نحرف مفصد الشافعيءن موضعه ، أو نحمل كلامه على غير مممله يجب التنبيه إلى ثلاث مسائل قد يعزب إدراكها .

أولها ... أن الشافعي إذ جعل العلم بالسنة في مرتبة العلم بالقرآن عند استخراج أحكام الفروع لا يتنافى قوله مع كون القرآن أصل هذا الدين وعوده، وحجته ومعجزة النبي صلى الله عليه وسلم، وأن السنة فرع هو أصلها، ولذلك استمدت قوتها منه، وإنما كانت في مرتبته عند المستنبط للأحكام، لأنها تعاون الكتاب بالبيان والتوضيح، وتعاضده في بيان ماجاء به هذا الشرع الكريم من أحكام يصلح بها الناس في معاشهم ومعادهم.

ثانيها \_ أن الشانعي في بيان الفروع يجمل العلم بالسنة في مجموعها في مرتبة

العلم بالقرآن ، ليكون الاستنباط صحيحا مستة يا ، ولا يجعل كل مروى عن الرسل مهما تكن طرقه في مرتبة القرآن المتواتر ، فإن أحاديث الآحاد ليست في مرتبة الأحاديث المتواترة ، فضلا عن أن تكون في مرتبة الآيات القرآنية ، وإن الشافعي قد نبه إلى ذلك في الكلام الذي نقلناه عنه إذ قيد السنة التي تكون في مرتبة القرآن عند استخراج أحكام الفروع .. هي السنة الثابتة ... إذ قال المرتبة الأولى : « الكتاب والسنة إذا ثبتت » .

ثالثها — أن الشافعي قد صرح بأن السنة ليست في مرتبة القرآن في تمر في المقائد .

ولقد أيد كثيرون من الفقهاء الذين جاءوا من بعد الشافعي نظره ، فقد قال الشاطبي في الموافقات: « لا ينبغي في الاستنباط من القرآن الاقتصار عليه دون النظر في شرحه و بيانه وهو السنة ، لأنه إذا كان كليا وفيه أمور كلية ، كا في شأن الصلاة والزكاة والحج والصوم ، ونحوها ، فلا محيص عن النظر في بيانه ، و بعد ذلك ينظر في تفسير السلف الصالح له ، إن أعوزته السنة ، فإنهم أعرف به من غيره ، وإلا فمطلق الفهم العربي عمن حصله يكفي فيا أعوز من ذلك » .

۲۲ — وإن الشافعى مع اعتبار والقرآن والسنة درجة واحدة فى الاستدلال. يقرر أن القرآن لاينسخ السنة ، وأن السنة لاتنسخ القرآن ، ولكنه مع ذلك يقرر أنه إذا نسخ القرآن السنة لابد من دليل من السنة يبين النسخ ، وقد شدد. فى ذلك ، و بنى هذا على أمرين :

أحدها — أن الاستقراء أثبت ذلك ، فما من حكم ثبت بالقرآن نسخه الاكانت معه سنة تبين النسخ ، وضرب لذلك مثلا هو أن القبلة كانت إلى بيت المقدس ، فلما صارت إلى السكعبة أرسل النبي صلى الله عليه وسلم إلى الذين.

كانوا يصلون بقباء بتوجيههم إلى الكعبة ، فكان ذلك سنة مبينة للنسخ بجوار ماقرره القرآن الكريم ، وإن النسخ يتناول أحكاما علية ، والأحكام العملية . ويقوم بها النبى صلى الله عليه وسلم فيكون عمله تطبيقا للنسخ ، فوق أنه بيان له.

وثانيهما — أن السنة بيان للقرآن ، والنسخ إعلام بأن الحـكم انتهى العمل به، وماداست السنة بيانًا للقرآن فلابدأن يقترن بالنص الناسخ ما يبينه وهو السنة.

وإن الشافعي بلا ريب خالف أكثر الفقهاء في قوله إن السنة لاتنسخ بالقرآن ، وقد كان ذلك سببه تشدده في عدم إهال السنة وفي أنها بيان للقرآن فإنه رضى الله عنه تصوراً نه لوسوغ نسخ القرآن بالسنة من غير سنة تبين النسخ ، لادعى نسخ سنن كثيرة لمخالفتها لظواهر نصوص القرآن في نظر مدعى النسخ ، فسد وضي الله عنه ذلك الباب ، فقرر أن السنة تنسخ بالسنة ، وإذا عارضت القرآن سنة ، فإن القرآن يقدم عليها ، وسنجد سنة في هذه الحال توافق القرآن ، أو تبين النسخ ، وإن المخالفة لا تسمح بالجمع بينهما ، وحين لا يوجد من السنة مايدل على النسخ ، فإنه في هذه الحال يكون الخبر ضعيفاً ، ولا تثبت نسبته إلى الدي صلى الله عليه وسلم .

## دفاع الشافعي عن السنة:

حور الشافعي كاأشرنا وجدت نحل مختلفة ، وقد وجدت طوائف في عصره تهاجم السنة ، وقد ذكر في كتاب جماع العلم أنهم كانوا "ثلاثة أصناف:

أولها \_ أنكر السنة جملة ، فادعى أن الحجية في القرآن وحده . والثاني \_ لايقبل السنة إلا إذا كان في معناها قرآن .

والثالث \_ يقبل من السنة ما يكون متواتراً، ولايقبل مايكون غير متواتر

ويسمى المتواتر حديث المامة أو خبر العامة ، ويسمى ماليس بمتواتر حديث الخاصة أو خبر الخاصة .

وإن الصنفين الأول والثانى يهدم السنة هدماً ، ولا يستبرها أصلا قائمً بذاته ، وقد ذكر ما يترتب على الأخذ بقول الصنف الأول ، فذكر أنه أمر عظيم خطير، وهو ألا نفهم الصلاة ولا الزكاة ولا الحج ، ولاغيرها من الفرائس المجملة في القرآن التي تولت السنة بيانها - إلا على القدر اللهوى منها ، فيفرض من الصلاة أقل ما يطلق عليه اسم صلاة ، ومن الزكاة أقل ما يطلق عليه اسم زكاة ، فلو صلى في اليوم ركعتين جاز عنده وقال : ما لم يكن في كتاب الله فليس على فرضه دليل ، وبهذا تسقط الصلوات والزكوات والحج .

وقد بين رضى الله عنه أنه يترتب على كلام الصنف الثانى ما يترتب على كلام الصنف الأول .

وأما الفريق الثالث الذي يفكر الاستدلال بخبر الآحاد ، فقد رد الشافعي قوله ، ردا محكما عيقاً ، وبينأن رسول الله في دعايته إلى الإسلام كان يرسل رسلا لايبلغون حد التواتر (()) ، ولو كان التواتر ضروريا ما اكتنى بذلك النبي صلى الله عليه وسلم لأنه يكون لمن أرسل إليهم الحق في رد الرسل بدعوى أنهم لايلزمون بإخبارهم . واستدل أيضاً بأنه يقضى في الأموال والدماء والأنفس بشهادة رجلين ، وهذا خبر لايبلغ حد التواتر ، ومع ذلك ألزم به الشارع ، ويستدل ثالثا بأن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أجاز لمن سمع عنه أن ينقل ماسمع ولو كان واحدا ، فقد قال عليه السلام : ( نَضَّر الله عبداً سمع مقالتي فحفظها ولو كان واحدا ، فقد قال عليه السلام : ( نَضَّر الله عبداً سمع مقالتي فحفظها

<sup>(</sup>١) التواتر أن يروى الحديث جمع يؤمن تواطؤهم على الكذب عن مثلهم حتى يصل إلى الرسول صلى الله عليه وسلم . والأحايث التى تكون على هذا المعنى نادرة. الله فى كينية العبادات .

ووعاها ، وأداهاكما سممها ، فرب حامل فقه غير فقيه ، ورب حامل فقه إلى منهو أفقه منه ، ثلاث لايغل عليهن قلب مسلم : إخلاص العمل لله ، والنصيحة فلمسلمين ، ولزوم جماعتهم ) .

واستدل رابعاً بأن الصحابة كانوا يتناقلين أخبار رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بآحادهم ، ولا يشترظون جمعاً كثيراً . . . وهكذا يسرد الأدلة في الدلالة على قبول أخبار الآحاد .

٢٦ ــ ونقرر أن تلك الأصناف الثلاثة قد ذهبت فى لجة التاريخ ولم يبق منهم فى المصور الإسلامية بقية تذكر بهم ، والحقيقة أن الثلاثة كانوا يتجهون إلى هدم السنة وعدم الأخذ بها ، وقد كانت طوائف تريد هدم الإسلام ولم تجد السبيل إلى تحريف القرآن ، أو العبث بمعانيه إلا قطعه عن السنة التي هى بيان له ، وإذا قطع المبين وجد السبيل إلى تحريف معانيه ، والعبث بأحكامه ، وبذلك يهدم الإسلام بأيسر كلفة .

ولقد نبتت نابتة في هذا العصر الذي نعيش فيه ، والذي كثرت فيه عوامل هدم الإسلام \_ تنهج منهاج سابقيهم من المنحرفين العابثين الذين يريدون هدمه فسلكوا ماسلكه سابقوهم من المنحرفين الفاسقين ، فقالوا لابد من الاعتماد على القرآن وحده ، وسلكوا مسلكين كلاهما منحرف .

أولها فريق قال بصريح اللفظ لاحجية في السنة ، إنما الحجية في القران وحده دون سواه ، وقد وجدنا بعضاً من هؤلاء في لاهور بباكستان عندما عقدت فيها الندوة السكبرى الإسلامية وسمت نفسها تلك الجماعة جماعة القرآن ـ وهي أعدى أعدائه ، إذ تتهجم على تفسيره ، وهي لا تعرف من العربية حرفا واحداً و تعتمد على تراجم شائهة ، و تعتبر مافيها هو الحجة من غيراحتياج بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإن هؤلاء لو استقام لهم طريقهم لتأدى

ذلك إلى أن يصاب القرآن بما أصيبت به الكتب السابقة ، إذ اعتراها التغيير والتبديل بسبب التراجم ، وضياع الأصل .وقد وجدنا مثل هذا الفريق في مصر وألف في ذلك الكتب الكثيرة، وكان يرأسه وكيل لإحدى الوزارة ولكن الله أهلكه فتفرق أمر الجماعة .

والفريق الثانى : فريق أراد هدم السنة بالطعن فى رواتها ، وتكذيب صحاحها ، بدعوى تنقيتها ، وغرضه هو غرض الأول ، والفريقان يستمدان المعونة ممن لا يرجون للإسلام وقاراً ، ويؤيدهم أولئك المعاونون بالمال والإعلان وتمكينهم من كرامة الذين يعارضونهم ، فهل لنا من شافعى لهذا الزمان ؟ ولسكن هؤلاء قد خفت صوتهم، وإن الله تعالى سيطويهم فى لجة القاريخ الإسلامى، كا طوى غيرهم .

# ٣ ـ الإجماع عند الشافعي

٣٧ ـ قرر الشافعي أن الإجماع حجة في الدين ، وعرفه بأن يجتمع علماء المصر على حكم شرعي عملى عن دليل يمتمدون عليه ، وهو يقول في ذلك: «لست أقول ، ولا أحد من أهل العلم : هذا مجتمع عليه إلا لما تلق عالما أبدا ، إلا قاله لك ، وحكاه عمن قبله ، كالظهر أربع ، وكتحريم الخر وما أشبه ذلك » .

وأول إجماع يعتبره الشافعي هو إجماع الصحابة ، ولا يوجد في كلامه ما يدل على أن إجماع غيرهم لا يكون حجة ، ولكن يجب التنبية إلى أمور ثلاثة :

أولها: أن الشافعي يؤخر الإجماع في الاستدلال عن الكتاب والسنة ، فإذا كان الأمر المجتمع عليه يخالف الكتاب والسنة فلا حجية فيه ، وفي الحق إنه لا يمكن أن يكون إجماع في أمر يخالف الكتاب والسنة ، فلا يتصور ذلك ولم يقع في التاريخ الإسلامي ما يؤيده ، أو يصح أن يكون مثلاله .

وقد كانمن الفقهاء من بعده من توهم تعبيراته أن الإجماع مقدم على الكتاب والسنة ، ووجد من الفرنجة من تعلق بذلك ، ووقع فى خطأ كبير ، فتوهم أن الشريعة الإسلامية متطورة باعتبار أن الإجماع على أمر يجعله شرعياً ، وإنكان مخالفاً لنص الكتاب أو لمروى السنة ، ثم تعجب لأن المسامين لم يستخدموا ذلك لتطوير الإسلام .

والحقيقة فى القضية أن الإجماع نوعان ، إجماع على النصوص، وتواترذلك الإجماع ، وهو الإجماع على الأمور التى تعد إطار الإسلام ، والتى يقول العلماء ، إنها علمت من الدين بالضرورة ، وذلك ككون الصاوات خسا وعدد ركعاتها ، وعلى مناسك الحج ، وعلى الزكوات ، وغير ذلك ، فإنها مسائل مجم عليها لتضافر العصوص والأخبار على إثباتها ، وثواتر السنة بها . وإجماع العلماء في هذه الحال هو إجماع على النصوص وفهمها وعلى أخبار صادقة وتقريراً حكامها .

وهذه بلا شك تقدم على النصوص الجزئية التى يتوهم مخالفتها ، وكل نص يخالف ذلك النوع من الإجماع لا يلتفت إليه ، لأنه يخالف نصوصا مجما على معانبها .

والنوع الثانى من الإجماع، هو الإجماع على أحكام هى موضع مناقشات بين العلماء ، كإجماع الصحابة على رأى عمر ، وهو منع تقسيم الأراضى المفتوحة بين الفاعين ، وهذا إجماع قد اعتمد على النص ، ولا يعد منكره كافرا ، كمن ينكر كون الصلوات المكتوبة خسا ، وكمن ينكر عدد ركعاتها ، وهكذا . وهذا النوع الأخير بلاريب يؤخر الاستدلال به عن المكتاب والسنة .

الأمر الثانى ــ أن الشافعى ماكان يعتبر إجماع أهل المدينة إجماعا ، وبذلك خالف شيخه مالـكا رضى الله عنه ، ولكنه من الناحية العملية يقرر أن أهل المدينة لا يجمعون على أمر إلا إذاكان مجماً عليه فى البلاد الإسلامية ككون الظهر أربعاً ، والمغرب ثلاثاً ، والفجر اثنتين ، وأما ما يجرى فيه الخلاف بين الناس ، فإنه يجرى بين أهل المدينة ، وبذلك يلتقى من الناحية العملية مع شيخه ، وإن خالفه من الناحية النظرية .

الأمر الثالث ــ أن الشافعي رضي الله عنه ، كان إذا ناظر أحداً وادعى الإجماع فيه أنكره. الإجماع ، حتى ادعى عليه أنه ينكره.

لسكن الحقيقة أن أدعاء الإجماع كثر في عصر الأئمة المجتهدين ، حتى إنه كان يدعى الإجماع في مسائل كثيرة لم ينعقد عليها الإجماع . وقدوجدنا أبايوسف صاحب أبى حنيقة ينكر دعاوى الأوزاعى في إجما عات ادعاها وكان إنكاره. بعبارات لاذعة في كثير من الأحيان.

وفى الجلة إن الشافعى أخذ بالإجماع على أنه حجة ، ولكنه وقف مجابها، ادعاء الإجماع ليمحص القول فيه .

### ع ـ اقرال الصحابة

۸ -- ادعى بعض كتاب الأصول من الشافعية أن إمامهم كان يأخذ بأقوال الصحابة فى مذهبه القديم ، ولا يأخذ بها فى مذهبه الجديد ، ومذهبه القديم هو ما اشتملت عليه رواية الزعفرانى اكتبه بالمراق ، ومذهبه الجديد هو رواية ربيع ابن سليان المرادى الموذن لكتبه بمصر .

ولكنا نجد فى كتابه الرسالة برواية الربيع بن سليان أنه يأخذ بأقوال الصحابة، وبذلك يتبين أنه كان يأخذ بقول الصحابى فى الجديد، كما كان يأخذ به فى القديم بالاتفاق، وذلك هو ما نرى أنه الحق.

وخلاصة قول الشافعي بالنسبة لرأى الصحابي أنه يقسمه إلى ثلاثة أقسام : أولها — ما يكونون قد أجمعوا عليه ، كإجماعهم على ترك الأراضي المفتوحة بين أيدى زراعها ، وهذا حجة لأنه إجماع ، فهو داخل في عمومه ، ولا مقال لأحد فيه .

ثانيها – أن يكون للصحابي قول ، ولا يوجد غيره ، خلافا أو وفاقا ، وقد كان يأخذ به رضى الله عنه ، وقد جاء في كتاب الرسالة في مناظرة له مع بعض مناظريه ، قال مناظره : « أفرأيت إذا قال الواحد منهم القول لا يحفظ عن غيره منهم فيه موافقة أو خلاف ، أتجد لك حجة باتباعه في كتاب أو سنة أو أمر أجمع الناس عليه . . . قلت ما وجدنا في هذا كتابا ولاسنة ثابتة ، ولقد وجدنا أهل العلم يأخذون بقول واحدهم مرة ، ويتركونه أخرى . . . قال فإلى أىشيء صرت ، قلت إلى انباع قول واحدهم إذا لم أجد كتابا ولاسنة ولا إجماعا يحكم بحكه . . . وقل ما يوجد من أقوال الواحد منهم قول لا يخالفه فيه غيره (۱) .

<sup>(</sup>١) الرسالة ص ٩٧٥ طبع الحلبي ، بإخراج المرحوم الشيخ أحمد شاكر .

القسم الثالث ... ما يختلف فيه الصحابة ، وهو فى هذا القسم كأبى حنيفة بختار من أقوالهم ، ولا يقول قولا يخالف كل أقوالهم ، ويتخير من أقوالهم ما يكون أقرب إلى الكتاب والسنة ، أو الإجماع ، أو يؤيده قياس أقوى .

وإليك ماقاله الشافعي في هذا المقام:

« ماكان السكتاب والسنة موجودين ، فالمذر عن سمعهما مقطوع إلا الباعهما ، فإذا لم يكن ذلك صرنا إلى أقاويل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أو واحد منهم ، ثم كان قول أبى بكور ، أو عمر ، أو عثمان ، إذا صرنا فيه إلى التقليد \_ أحب إلينا ، وذلك إذا لم نجد دلالة في الاختلاف تدل على أقرب الاختلاف من الكتاب والسنة ، فنتبع القول الذي معه الدلالة (١) » .

وإن هذا الكلام يستفاد منه أنه بالنسبة إلى الصحابة إذا اختلفوا يتجه أولا إلى اختيار أقربها إلى الـكتاب والسنة ، ويندر ألا يجد أحد الأقوال أقرب في الدلالة إلى الكتاب والسنة ، ولذلك لم نجده انجه إلى الأمر الثاني ، وهو التقليد ، وهو في هذه الحال يختار الجانب الذي يكون فيه الإمام ، فيختار الجانب الذي يكون فيه الإمام ، فيختار الجانب الذي فيه أبو بكر ، ثم عمر ، ثم عثمان .

ويملل ذلك بقوله: « إن قول الإمام مشهور ، يلزمه الناس ، ومن لزم قوله الناس كان أشهر من أن يفتى الرجل أو المنفر ، وقد يأخذ بفتياه أو يدعها ، وأكثر المفتين يفتون للخاصة فى بيوتهم ومجالسهم ، ولا تعنى العامة بما قالوا عنايتهم بما قال الإمام ، وقدوجدنا الأئمة يبتدئون ويسألون عن العلم من المكتاب والسنة فيا أرادوا أن يقولوا فيه ، ويقولون فيخبرون بخلاف قولهم ، فيقبلون من الحجر ، ولا يستنكفون أن يرجعوا لتقواهم الله ، وفضلهم فى حالاتهم ، فإذا لم يوجد عن الأئمة ، فأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى موضع الأمانة .

<sup>(</sup>١) الأم الجزء السابع ص ٧٤٧ .

فأخذنا بقولهم . وكان اتباعهم أولى من اتباع من بعدهم (١) » .

وإن هذا القول يدل على أنه يأخذ بأقوال الصحابة . بل يقلد الأئمة الراشدين إن لم يكن مايرجح به دليل غيرهم على دليلهم .

#### ه ـ القياس

٢٩ -- ما ذكركان الشافعي فيه ناقلا ، ولم يكن مجتهدا إلا في إدراك معانى النصوص ؛ أو ترجيح بعض الأقوال على بعض كاكان الشأن في ترجيحه بين أقوال الصحابة رضوان الله تعالى عليهم .

أما القياس ، فقد كان فيه الشافعي مجتهدا في إخراج الرأى الذي يمكن. أن يسير عليه ، ولذلك يقرر الشافعي أن القياس هو الاجتهاد ، والقياس في نظر الشافعي كا يبدو من أمثلته الكثيرة التي ضربها يتفق مع تعريف علماء الأصول له بأنه إلحاق أمر غير منصوص على حكمه لاشتراكه معه في علة الحسكم .

ويثبت الشافعي القياس على أنه أصل من الأصول الإسلامية لمعرفة مايدل عليه الكتاب والسنة من أحكام لم يرد فيها نص صريح ، ويبنى ثبوث القياس على مقدمتين :

أولاها — أن كل أحكام الشريعة عامة لاتفرض في حادثة دون حادثة ، ولافي زمان دون زمان ، ومادامت كذلك ، فإنه لا بدمن بيان الحكم الشرعي في كل ما ينزل بالإنسان . وفي كل ما يقع منه من حوادث ، وهذه إما أن تثبت بالنص الصريح ، وإما أن تحمل على نص ، بقياس مالم ينص عليه على ماجاء به نص ، فيقول في ذلك رضى الله عنه : «كل ما نزل يمسلم ففيه حكم لازم ،

<sup>(</sup>١) الأم ج ٧ ص ٢٤٧ .

وعلى سبيل الحق فيه دلالة موجودة ، وعليه إذا كان بعينه حكم — واجب اتباعه . وإذا لم يكن فيه بعينه طلب الدلالة على سبيل الحق فيه بالاجتهاد ، والاجتهاد هو القياس (١) » .

وهذا الكلام معناه أن الشريعة عامة ، فإن وجد النص الصريح اتبع ، وإن لم يوجد اتجه المجتهد إلى تعرف الحكم بما تشير إليه أحكام الشريعة عامة ، وبما يكون فيه دلالة من بعض النصوص توجه المجتهد إلى القياس على هذه النصوص .

والمقدمة الثانية - أنهيقسم علم الشريعة المتعلقة بالأحكام إلى قسمين :علم قطعى يثبت بالنصوص القطعية التى تكون دلالتها على الأحكام قطعية ، والقسم الثانى ظنى يكتفى فى العلم بين الظن الراجح ، ومن هذا القسم أخبار الآحاد ، ومن هذا القسم أيضا القياس ، فهو يقرر أنه إن فات العلم القطعى فى النصوص . اتبجه المحتهد إلى ما يكفى فيه الظن الراجح .

ويقول: إن العلم الذي يوجب القطع هو علم في الظهاهر والباطن ، أي لا يسع مسلما أن ينكره ولا يعمل بموجبه ، والذي يترتب عليه ظن راجح هو علم في الظاهر ، ولا يجب في الباطن بمعنى أنه يجب العمل به ، والخضوع له دون الاعتقاد ، وإذا أنكره لا يكفر المنسكر ، ويضرب رضى الله عنه الأمثلة على وجوب الأخذ في أحكام الشريعة الكثيرة بالظن الراجح ، فالقاضى قد يقتل المتهم بشهادة الشهود ، والأمارات الدالة على صدقهم من عدالة وتزكية ، وظهور الصلاح عليهم ، وعدم وجود مايدفعهم إلى الكذب أو يرجحه ، وقد يكونون مخطئين أو كاذبين ، واكنه يعمل بما يظهر له ، ويترك لله مابطن ، ومصلحة بكونون مخطئين أو كاذبين ، واكنه يعمل بما يظهر له ، ويترك لله مابطن ، ومصلحة الجاعة في ذلك ؛ لأنه لو ترك القضاء على الجناة لمظنة الكذب في الشهود لضاعت

<sup>(</sup>١) الرسالة ص ٤٧٧ .

آموال ، ولذهبت دماء ، ولصار أمر الناس فوضى ، وما تحقق الممنى الاجتماعى السامى في قوله تعالى : [ والحكم في القصاص حياة ] .

فالمجتهدون مكلفون أن يستخرجوا الأحكام من دلائلها ، ومكافون العمل بما تؤديهم إليه الأسباب فيما يظهر لهم ، وليس عليهم إثم ما غيب عنهم ، فن تزوج امرأة على أنها حلال له ، ثم تبين أنها أخته من الرضاع بعد أن دخل بها لا يعد آثماً فيما بينه وبين الله ، لأنه ماكان يعلم ، ولم يؤده تحريه إلى معرفة ما غاب عنه ، حتى إذا انكشف له المجهول فسيخ العقد ، ونيط بالظاهر حكم ، والباطن حكم ، فأثبت الظاهر النسب والعدة والمهر ، وثبت بالباطن أنه لا توارث ولا نفقه .

•• حسر المجتهد، بل يمتبره بياناً لحسكم الشرع في المسألة التي يجتهد فيها المجتهد ويقول في ذلك: « والخبر من الكستاب والسنة عين يتأخى معناها المجتهد؛ أي أن القياس يعتمد على السكستاب والسنة ، بأن يتعرف يعض نصوصها ومعناه ويحاكى بين المسألة التي يجتهد فيها ، والمعنى الدى يدل عليه النص الذى ثبت لديه أنه أصل القياس.

والشافعي لا يأخذ من ضروب الاجتهاد بالرأى إلا بالقياس، ولا طريق سواه من بعد النصوص الصريحة والإجماع وفتاوى الصحابة ؛ ويقول في ذلك رضى الله عنه :

« إذا أمر النبي صلى الله عليه وسلم بالاجتهاد فالاجتهاد لا يكون إلاعلى طلب شيء، وطلب الشيء لا يكون إلابدلائل ، والدلائل هي القياس ، ألاترى أن أهل العلم إذا أصاب رجل لرجل عبدا (أي لشرائه ) لم يقولوا أقم (١) عبدا

<sup>(</sup>١) اقم معناها قوم

ولا أمة إلا وهو خابر بالسوق ليقيم بمعنيين: بما يخبركم ثمن مثله في يومه ، ولا يكون ذلك إلا بأن يمتبر عليه بغيره ، ولا يقال لصاحب سلمة إلا وهو خابر ، ولا يجوز أن يقال لفقيه غير عالم بقيم الرقيق: أقم هذا العبد ، ولا هذه الأمة ولا إجارة هذا العامل ، لأنه إذا قام على غير مثال بدلالة على قيمته كان متعسفاً »(1).

ومؤدى هذا السكلام أنه لا يمكن الاجتهاد إلا إذا كان ثمة مثال يقاس عليه فمن أراد تقويم سلمة عليه أن يلاحظ ذات السلمة ، وما يستفاد منها ، ثم عليه أن يلاحظ سمر أمثالها في السوق ، وكذلك أمر الفقيه يجب عليه أن يلاحظ أصلا يبنى عليه استنباطه ، ولا يكون أمره فرطا من غير ضابط يضبطه ، وإذا كانت قيم الأشياء لا تمرف إلا بملاحظة الأمثال ، وإنها هيئة في ذاتها بجوار أوامر الله ونهيه ، فيجب على المجتهد أن يقيد في اجتهاده بماقيد به تقويم الأشياء ، وهو أن يكون نص مماثل في المعنى يبنى عليه اجتهاده .

٣٩ - وليس الشافعي أول من أخذ بالقياس في الاجتهاد ، فمالك أخذ به هو وسبقه أبو حنيفة شيخ فقهاء القياس ، ومدرسة العراق من عهد إبراهيم الفخمي كان يقوم الاجتهاد فيها على القياس ، ولكن الشافعي مع تخلفه في الزمن عن مدرسة العراق ، ومع أنه لا يعد نفسه في مرتبة أبي حنيفة في استخراج علل الأقيسة ـ كان له فضل عظيم في هذا الأصل لأنه هو الذي ضبط قواعده ، وذكر شروطه الني لا يخطىء الفقيه أو الحجمد إن انبعها عند محاولة تعرف الحكم القياس وهو الذي وضع مراتبه ، ووضع أقسامه .

فإذاكان غير. قد سبقه بالقياس ، فهو الذى استنبط قوانينه ، ونظمه ، ويمد فى ذلك كاشفا لما كان يقوله أثمة القياس وإن لم يبينوه .

<sup>(</sup>١) الرسالة ص ٥٠٦ ومعنى ليقيم بمنيين أى يقومه ملاحظا معنيين ؟ ملاحظا ذاته ، وملاحظا مثله

وهو يذكر مواضع النياس ، وما لا يمكن أن بجرى فيه القياس .

ويقسم الشافعى القياس إلى مراتب على حسب مقدار وضوح العلة وقوتها في التأثير بالنسبة للفرع ، فإذا كانت العلة في الفرع أوضح وأقوى تأثيرا ، فهذا أقوى مراتب القياس ، ومن ذلك أن يجيء التحريم على القليل ، فيفهم بالأولى تحريم الكثير .

والثانية قياس المساواة ، بأن يكون الفرع بالنسبة للمالة مساويًا للأصل ، كقياس العبد على الأمة في تنصيف العقوبة .

والقسم الثالثأن يكون الفرع بالنسبة لعلة الحسكم أقل وضوحا من الأصل وأكثر الفقهاء لا يعدون المرتبتين الأولى والثانية من الفياس ، بل يعدون الأولى من دلالة الموافقة ، وهو ما يسمى دلالة النص ، والشافعى جوز ذلك ، ولم يعارضه في إخراجه من باب القياس ، وجعله في باب المنصوص .

والثانية لا تعد قياسا ، بل هي من قانون المساواة في أحكام التكليف بين الذكر والأنثى ، ولذلك أخذ نفاة القياس بهذا النوع من الاستنباط-

والشافعي لا يكستني ببيان القياس ومراتبه ، بل يذكر من هو الفقية الذي يتقدم للقياس بما لا بخرج عن شروط الاجتهاد التي بيناها .

### إبطال الإستحسان

٣٧ — قال الإمام مالك رضى الله عنه: الاستنحسان تسعة أعشار العلم، وقال الإمام الشافعي من استحسن فقد شرع فما هو الاستحسان الذي ورد عليه النفي والإثبات من الإمام الجليل وتلميذه العظيم ؟ يفسر متقدمو المالكية الاستحسان الذي جاء على اسان مالك رضى الله عنه بأنه الأخذ بالمصلحة المرسلة ، وهي المصلحة التي تناسب أحكام الشرع ، ولم يرد فبها نص بعينه بالإثبات أو الإلفاء سواء أكان في موضوعها قياس أم لم يكن ، وإذا كان تمة قياس في مقابلها حصها بعض المالكية باسم الاستحسان.

وفى الجملة الاستحسان كما جاء على لسان مالك تفسيره بأنه الأخذ بالمصلحة المفاسبة حيث لا نص ، والشافعي نفي ذلك نفيا مطلقا .

#### واستدل في نفيه:

أولا — أن الأخذ بالاستحسان معناه أن الشارع لم يتعرض لحسكم المسألة ، والله تعسالى قال : [ أيحسب الإنسان أن يترك سدى ] وترك الأمر من غير حسكم بنص مبين ، أو يحمل عليه بقياس \_ معناه أن الإنسان ترك سدى وذلك باطل .

وثانيا — أن الطاعة لله ولرسوله فقط، وأن الحسكم يكون بما أنزل الله، وذلك يتحقق بالحسكم بالنص أو بالحل على النص.

وثالثا — أن النبى صلى الله عليه وسلم ماكان يبين الأحكام الفقهية باستحسانه ، بلكان ينتظرالوحى فى كل أمر يجىء إليه ، ولو جاز الاستحسان من أحد لجاز من النبى صلى الله عليه وسلم « وما ينطق عن الهوى » ولم يفعل .

رابعاً ــ أن النبي صلى الله عليه وسلم استنكر من الصحابة حكمهم بمقتضى استحسانهم عندما قتلوا رجلا لاذ بشجرة وقال أسلمت لوجه الله ، فاستحسنوا قتله لأنه قالها تحت حر السيف فاستنسكر النبي صلى الله عليه وسلم فعلهم .

وخامسا .. أن الاستحسان لاضابط له ولا متياس ، وذلك يؤدى إلى الاختلاف من غير ضابط يرجع إليه ؛ فيكون كل واحد يحكم بتشهيه ، بخلاف القياس ، فإن له ضابطاً يرجع إليه ، وهو النص الذى اعتمد عليه .

وسادساً ـ بأن الاستحسان وهو حكم المصلحة لوكان مقبولا لأخذ به العالم بالشريمة ، وغير العالم ؛ لأن إدراك المصلحة ممكن من كليهما ، بل ربما كان أهل الصناعات أكثر إدراكا لوجود المصالح من العلماء .

ولكن يجاب عن ذلك بأن الذين قرروا الأغذ بالمصلحة اشترطوا أن تكون من جنس المصالح التي أقرها الشارع ، وإن لم يشهد لها نص خاص وأعملوها في المواضع التي ليس فيها نصوص ، وذلك كله لا يتصور إلا بمن يكون عالما بالشريعة في مصادرها ومواردها ، وأوجه المصالح التي أقرها .

وبهذه الأدلة التي ساقها في الأم والرسالة رد الاستحسان في نظره :

# عمل الشافعي في علم الأصول

٣٣ — عصر الشافعي يعد عصر العلم الإسلامي حقا وصدقاً ، فقد كان العلماء بتجهون فيه إلى تدوين العلوم ، وتثبيتها بالقواعد ، فني عهد كان البصريون والسكوفيون يضمون قواعد النحو ، ووضع الخليل بن أحمد قواعد العروض ، وحاول الجاحظ أن يضع أصولا للنقد الفني .

فكان لابد أن يكون للفقه حظه من تثبيت الاستنباط فيه على قواعد ، وقد وجد الشافى ثروة فقهيه من أحكام الفروع تشير إلى ما يسلمكه الفقهاء في استنباطهم من غير أن يدونوه ، ووجد المدارس الفقهية المختلفة فوجد مدرسة مكة التي نشأ بين ربوعها ، ومدرسة المدينة التي هاجر إليها ، ومدرسة المراق الذي آوى إليه ، وقد عاش في هذه المدارس جميمها ، ودرسها في وفاقها وفي خلافها .

فكان عند الحكم فيا اختلفوا فيه لابدأن يعرف الموزاين التي يزنون بها الفقه ويعرف بها سقيم الآراء من صحيحها ، أو على الأقل أقربها إلى الحق ، فكانت هذه الموازين التي تبين المنهاج الصحيح هي علم أصول الفقه .

ولا بدأن يحمل الشافعي ذلك العبء لأنه كانت عند مؤهلاته .

- (۱) فقد كان عليا باللسان العربى علما جعله يصل إلى درجة التخصص ، حتى إن الجاحظ الذى كان معاصرا له لم يجد بين الفقهاء عالما باللغة مثله ، وبعلم اللسان العربى استطاع أن يستنبط القواعد لفهم القرآن . ومعرفة مراتب الألفاظ في دلالتها .
- (ب) وكان عالما بالسنة ، حافظا لرواياتها ، مدركاً لصحيحها ، وجامعا بين الأحاديث للمروفة فى الحجاز ، والمعروفة فى العراق ، وبذلك العلم استطاع أن يبين أنواع الأحاد بث وقوتها فى إثبات الأحكام ، ومراتبها فى ذلك واستطاع أن يكشف موازين تببن ما يمكن الاستدلال به ، وما لا يجوز .

(ج) وكان بحفظه لموطأ الإمام مالك ، ولدراساته المختلفة ، وتلقيه الفقه ، في كل مدارسه عليما بآراء الصحابة وفقههم الذي اتفقوا عليه والذي اختلفوا فيه بموازين استنبطها .

(د) وكان بعقله العلمي الذي يتجة إلى السكليات ، ولا يهيم في جزئيات القدر فقهاء عصره على الوصول إلى القواعد العامة التي يجب اتباعها لاستنباط الأحكام، ولتكون ميزانا توزن به الآراء، فيعرف صحيحها من سقيمها.

٣٤ - وصل الشافعي بهذه المؤهلات ، وما تهيأ له من الاطلاع على ثروة فقهية هي جُلُّ ما أنتجته المدارس قبله ، إلى أن يضع علم أصول الفقه .

وهذا العلم الذى وضعه أو القواعد التى استنبطها استخدمها فى أمرين : أولهما \_ أنه جملها ميزانا يعرف به صحيح الآراء وقد وزن بها آراء مالك، وآراء العراقيين، وآراء الأوزاعى.

ثانيهما \_ أنه اعتبر هذه القواعد قانوناً كلياً تجب مراعاته عند استنباط الأحكام الجديدة ، ولقد قيد نفسه بهذه القواعد .

والشافعى اتجه بهذة القواعد اتجاها عمليا! ونظرباً ، فهو لايهيم فى صور .وفروض ، بل يضبط أموراً كثيرة واقعة ، ويستنبط منها ماتدل عليه ، ويقرر أن ذلك هو المنهاج الذى يتبع .

ولمل اتجاهه العملي في استخراج القواعد وتطبيقها هو الذي جعله يبين القياس بالأمثلة لا بالتعريف .

وإنه بذلك العمل الذى حمله الشافعى وحده ، وهووضعه قواعد الاستنباط. قد جعل الفقه علما مبنيا على أصول وقواعد ثابتة ، وليس مجموعة من الفتاوى والأقضية ، والحلول الجزئية لمسائل واقعة ، أو لمسائل يفرض وقوعها ، وقد فتح بذلك عين الفقه ، وسن الطريق لمن يجىء بعده ، ليسلكوا مثل ماسلك , وليتموا ما بدأ .

#### المذهب الشافعي

٣٥ ـــ أُخَذُ للذهب الشافعي دورين في الاجتهاد .

أحدهما \_ مانشره ببغداد ، وقد رواه عنه الزعفرانى وهو يشمل الكتب. التي دونت عن الشافعي في بغداد ، وهى الرسالة الأصولية ، والأم والمبسوط ، وقد دونها الزعفراني بإملاء الشافعي وكان يقرؤها ببغداد للناس ، واستمر يقرؤها مع تغيير الشافعي لبعض آرائه في مصر إلى أن مات الزعفراني سنة ٢٦٠ ه.

والدور الثانى عندما انتقل إلى مصر سنة ١٩٩ فقد أخذينة حكتابه الذى. كتبه فى العراق ، وهو ذو شعبتين إحداها الرسالة ، والثانى المبسوط ، ويمحص. الآراء فيه ، يرجع عن بعض الآراء ، ويعتمد بعضها ، ويقطع فيها بماكان يحتمل رأيين من كلامه ، إذ كان يذكر أحيانا فى بعض المسائل وجهين ، ففى الجديد كان يرجع أحد الوجهين ، أو يتركهما ، أو يعرض له وجه ثالث أو يعدل عنهما لحديث رآه لم يكن على علم به ، أو خطر له قياس جديد هو أرجح من الأول .

ثم أخذ يدون ماانتهى إليه ، وقد روى كتبه الجديدة الربيع بن سليال. المرادى المؤذن ، فقد نقل كتب الشافى بمصروكانت الرحلة إليه في طلب هذه السكتب ، وقد توفى سنة ٢٧٠ من الهجرة النبوية .

وقد نسخ الشافعي بكتابه المصرى كتابه البغدادي ، وقال رضي الله عنه :: « لا أجعل في حل من روى عني كتابي البغدادي » .

٣٦ – كان للشافعي آراء قديمة نسخها بآراء جديدة ، وإن شئت الحق كانت له كتب قديمة ، نقحها ، فكانت كتبه الجديدة ، وهذا هور الوضع الصحيح .

وكان كتابه القديم ككتابه الجديد فيه وجوه مختلفة من الرأى أحيانا ، وذلك في المسائل القياسية ، فقد كان رضى الله عنه يرى الرأى القياسي فيقطم بوجه من القياس ، أو يرجحه في أكثر الأحيان ، وفي بعض الأحيان يتردد بين وجهين من أوجه القياس ، فلا يرجح أحدها على الآخر ، بل قد يتردد بين وجوه ثلاثة ، وإخلاصه للعلم والحقيقة الدينية يحمله على أن يترك الوجوه الثلاثة في كتابه من غير ترجيح بينها ، لأنه لم يجد وجها للترجيح ، وكل وجه من هذه الوجوه يصح اعتباره قولا منسوبا إليه .

ولنضرب لذلك مثلا إذا باع الشخص الزرع أو الثمر من غير أن يخرج زكاته، ثم تبين للمشترى ذلك : أله فسخ البيع كله، أو أن يفسخ البيع في الجزء الذى يخص الصدقة وهو العشر إن ستى بغير آلة ، ونصف العشر إن ستى بآلة ، أو يختار بقاء البيع ، أو أن يأخذ الباقى بكل الثمن أو يفسخ ، ويذكر هذه الأقوال على أنها وجوه محتملة .

ولنصرب مثلا آخر ، إذا نسب الرجل نفسه لنير نسبه ، وتزوجته امرأة على أساس هذا النسب الذى ذكره ثم تبين أنه دون ذلك النسب ، ودون نسبها، نقدذكر أن فى المسألة قولين، أحدها أن لها الخيار، والثانى أن النكاح باطل.

٣٧ ــ لـكثرة الأقوال فى المذهب الشافعى كان ناميا ، وكان باب الترجيح واسعا ، وفتح لتلاميذه باب الاجتهاد فى الفروع ، وباب التفريع فى المذهب .

ولقد كان من أعظم موضوعات دراستهم القديم والجديد ، فقد وجد من العلماء من صحح بعض مسائل فى القديم ، وأفتى بها ، وقد انفقت كلة أكثر الشافعية على أن القديم إذا صح فى موضوعه حديث يعاضده . ولم يكن للجديد معتمد غير القياس أنه يؤخذ بالقديم ، لأن الشافعي يقول : إذ صح الحديث فهو مذهبي » .

وإذا كان القديم لا يعاضده حديث أيجوز اختياره على أنه مذهب الشافى ظال بعض العلماء يجوز اختياره من المجتهدين في المذهب ، لأن الإمام إذا كان لله رأى ، ثم ينص على خلافه لا يكون رجوعا عنه ، والله يكون له قولان ، والرأى الثانى أنه لا يجوز المجتهد في المذهب أن يختار القديم على أنه مذهب الشافعي ، لأن القديم بالنسبة للجديد كنصين متعارضين لا يمكن الجمع بينهما ، فيعمل بالمتأخر منهما ، وإن ذلك يتفق مع ما أثر عن الشافعي من رجوعه عن طقديم إذ قال : ٣ أنا في حل ممن يأخذ بكتابي البغدادي » وهو بهذا ينهى عن الأخذ به .

ومهما يكن من أمر هذا الخلاف فإن مسائل معينة قد اختارها فقهاء المذهب من القديم ، ورجعوا الافتاء بها ، وتركوا الجديد فيها ، وقد أحصاها بعضهم بأربع عشرة مسألة ، وبعضهم باثنتين وعشرين ، والحق أنها أكثر من ذلك ، وهي منثورة في كتب المذهب .

### التخريج في الذهب :

٣٨ - كثر التخريج في المذهب الشافعي ، وبعضها منسوب إليه ، وبعضها يضاف إلى المذهب من غير أن ينسب إلى الشافعي ، وبعضها لا يعد من المذهب قط ، فالذي لا يعد من المذهب قط ، ويعد خارجا عنه ما يكون المخرج قد خالف فيها نصا للشافعي في واقعة من الوقائع ، أو خالف فيها قاعدة من القواعد الأصولية ، لمنافاتها للمأثور عنه ، إذ لا يعقل أن ينسب إلى الإمام ما يكون مناقضاً للمأثور عنه من فقوى قد ثبت أنه قالها .

ومن التخريجات التى تضاف إلى المذهب على أنها منه ، التخريجات التى تكون مبنية على أصول الشافعي ولم بؤثر عن الشافعي قول له فيها ، فإن هذه

تمد بلا ريب وجها من وجود المذهب ، وإذا كان الشافعي لم يقلما فهي قائمة على أصوله .

ومن التخريجات التي يتردد العلماء في إضافتها للمذهب ما يأتى :

(۱) التخريجات التى تكون فى فروع لم يؤثر عن الشافى قول فيها ، ولكنها بنيت على أصول غير أصوله ، والمخرج شافى الأصل ، فإنها لا تعد من المذهب عند الأكثرين إذا لم يكن بينها وبين فروع المذهب تناسب ، وإلا فهى من المذهب .

وهذا إذا نص المخرج على أنه لم يتعسك بأصول الشافعى فى المسألة ، أما إذا لم ينص علىذلك ، فقد قالوا : إن كان المخرج بمن اشتهر بالتقيد بالأصول الشافعية كأبى حامد الغزالى ، فإنه يعتبر قوله من المذهب ، وإلا لا يعتبر .

(ب) إذا اختار المجتهد قولا رجع عنه الشافعي رجوعا واضحاً بالنص ' فإنه لا يعد من المذهب بالاتفاق .

(ج) إذا اختار المجتهد رأيا يخالف رأى الشافعي في مسألة ، ولكنه يعتمد على حديث ، فكثيرون من الشافعية على أنه يعد من المذهب لقول الشافعي : « إذا صح الحديث فهو مذهبي » وتردد الآخرون ، ولكن الأكثرين على الأول :

#### المجتهدون فى المذهب الشافعى :

ومن الشافعية من كانوا بالشام ، ومن كانوا باليمن ، ثم كان من الشافعية ومن الشافعية من كانوا بالشام ، ومن كانوا باليمن ، ثم كان من الشافعية بمد ذلك من انخذوا نيسابور وخراسان مقاما ، وهكذا تباعدت أقاليمهم وإن انتموا إلى مذهب واحد وكان منهم مجتهدون منتسبون إلى المذهب الشافعى ، ومنهم مخرجون في المذهب يخرجون على الفروع المأثورة عن الشافعى ، والأفيسة التي قررها ، والأصول التي بينها .

ولا شك أنهم في تخريجاتهم متأثرون ببيآتهم المختلفة ، ومشاربهم المتباينة » والأحداث التي تنزل بهم ، وطرق علاجها ، ولا شك أن ذلك يدعو إلى اختلاف آرائهم ، وإن كانوا جميعاً يستقون من معين واحد، ومقيدين بأصول واحدة . ولو أننا درسنا آراء فقهاء خراسان ونيسابور والعراقيين ، وحللناها على ضوء ذلك توجدنا أثر البيئة واختلاف النزعات ، ومنهم من كان يتقيد تقيداً شديدا بالفروع المأثورة عن الشافعي ، ومنهم من لا يتشدد في التقيد ، وقدقال الإمام محيي الدين النووى : « اعلم أن نقل أصحابنا المراقيين لنصوص الشافعي وقواعد مذهبه ، ووجوه متقدى أصحابنا أوثق وأثبت من نقل الخراسانيين غالباً ، والخراسانيون أحسن تصرفا وتفريعاً وترتيباً غالباً » .

وإن وجود الشافعية المخرجين بخراسان ونيسابور جعلهم يتصلون بالشيعة الإمامية ، كما اتصلوا بالزيدية في اليمن ، وإن الاتصال بين المذاهب المتضاربة في بعض نواحيها وإن أوجد جدالا في بعض المسائل ، يمكن أصحاب كل مذهب من أن يفهموا بعض ماعند مخالفيهم مما يحسن أخذه ، إذ الالتقاء الفكرى والمادى يجمل الأفكار تتبادل بينهم أرادوا أم لم يريدوا .

وإن المذهب الشافعي قد صاقب في هذه البلاد النائية عن البلاد العربية المذهب الحنفي ، وكانت المعركة الجداية شديدة بين المذهبين ، بلغت أقصى حدتها في كانت المناظر الت تقام في المساجد، وفي المجتمعات ، وكل يتقرب إلى الله بالدفاع عن مذهبه والاحتجاج له بالأدلة التي يراها مقوية له ، ويضعف المذهب الآخر بكل ما يراه مضعفاً لها ، حتى إن المسآئم كانت تحيى بالمناظرات فإذا توفي أحد المغقماء أو توفي أحد ذوى الشأن كان مأتمه يحيى بالمناظرات تقام في مسجد حيه. ولقد ترتب على ذلك أمران :

أحدها \_\_ أن التعصب المذهبي قد اشتد ، وأفرط فيه بعض الكاتبين ، حتى إن منهم من أفرط في التشنيع على أبي حنيفة شيخ فقهاءالعراق غيرمنازع ،

الذى قال فيه الشافى: « الناس فى الفقه عيال على أبى حديفة ، وكان لذلك - أثره المؤلم فى نفوس العلماء من الشافعية والحنفية ، حتى إن بعض الشافعية - تصدى لبيان مناقب الإمام أبى حنيفة ليزيل عن الشافعية وصمة الطمن فى ذلك الإمام الجليل.

الشانى —

#### انتشار المذهب الشافعي

و بالعراق لأنه ابتدأ بنشر آرائه فيه ، وانبثق من العراق إلى خراسان وماور اعت النهر ، وقاسموا الحنفية الفتوى ، والتدريس .

ومع أن المذهب الحنفي كان له سلطان ، لأنه مذهب الدولة العباسية ، كان. المذهب الشافعي ينازعه السلطان في الشعب واستمر سلطانه في الشعب بمصر حتى . بعد أن غلبت الدولة الفاطمية ، واستولت على حكم مصر والشام .

ولما آل الحسكم إلى الأيوبيين قوى المذهب الشافعي وجعل له السلطان الأكبر في الدولة ، مع سلطانه في الشعب ، واستمر سلطان المذهب الشافعي. مستمرا إلى عصر الماليك إلى أن جاء الظاهر بيبرس ، فأحدث فكرة أن يكون. قضاة أربعة من المذاهب الأربعة ، لكل مذهب قاض يقضى بما يوجبه مذهبه من ويتقاضى بين يدبه أهل ذلك المذهب ، ولكن جعل للشافعي مكانا أعلى من سائر الأربعة ، وذلك بأنه كان له وحده الحق في تولية النواب عنه في بلاد القطر ، كما له الحق وحده في النظر في أموال اليتامي والأوقاف ، وكانت له بهذا المرتبة الأولى في الدولة ثم يليه المالكي ، ثم الحنني فالحنبلي ، ولكن جاء في صبح الأعشى أن ابن بطوطة ذكر أن ترتيبهم بمصر مدة الملك الناصر كان بتقديم الحنني على المالكي .

ولما استولى العثمانيون على مصر جعلوا للمذهب الحنفي المكان الأول عـ

مم جاء محمد على ، فألغى العمل بالمذاهب الأخرى غير المذهب الحنفى ، وبتى المذهبين الشافعي والمالكي مكانهما في الشعب .

وأهل الشام كانوا على مذهب الأوزاعى فى القضاء ، حتى ولى قضاء دمشق البو زرعة الدمشقى المشافعى المتوفى سنة ٣٠٢ من الهجرة ولكن المذهب الشامى من قبل ذلك .

ومع ما للمذهب الشافعي من مكان عند بعض أهل العراق ، لم يستطع أن يغالب المذهب الحنفي في الفضاء ، ولا في السلطان عند الشمب ، حتى إن الخليفة القادر بالله ولى قاضيا شافعيا لبغداد ، فثار أهلها ، ووقعت الفتن ، فاضطر الخليفة إلى إرضاء أكثر الشعب ، وعزل القاضي الشافعي .

ولقد دخل المذهب الشافعي فارس ، ويقول ابن السبكي في طبقات الشافعية إنه لم يكن بها سواء هو ومذهب داوود الظاهري ، ولعل في هذا بعض المبالغة ،

وقد حمل المذهب الشافعي إلى مرو وخراسان في آخرالقرن الثالث المجرى وكان العلماء الذين نقلوه حريصين على نقل كتب المذهب الأصلية إلى تلك البلاد، ونشرها بين المثقفين، كاكانوا حريصين على نشر فقهه في الشعب، ولم يكتفوا بذلك، بل كانوا حريصين على إقناع الحكام والسلاطين به، الميجعلوه مذهبا في ولاياتهم، أو ليديروها بسلطانهم:

و يلاحظ أن المذهب الشافعي لم يكن له مقام في بلاد المغرب ولا في . بلاد الأندلس .

ويلاحظ أن البلاد التى دخلها فى الماضى لا يزال يقيم فيها الآن ، وهو الذى ينازع فى الشعب النمينى الآن سلطان المذهب الزيدى ، وفى فارس هو الذى يجاور المذهب الشيعى الإمامى .

ورحم الله الشافعي ورضي الله عنه .

الامام أحمل بن حنبل من ١٦٤ إلى ٢٤١ه



# أحمد بن حنبل ۲٤١ – ۲٤١

ا \_ فى العام الثامن عشر من القرن الثالث الهجرى رأى العاس رجلا كملا لا عمل له إلا درس الحديث وجمعه ونقله للناس ، وبيان فقه السنة \_ رأوه يسام الخسف والهوان ، رأوه ينزع من مجلس درسه وبكبل بالحديد ، ويساق والسياط نكوى ظهره من بغداد إلى طرسوس ، حيث خرج المأمون ، وحيث مات \_ وقد سجن ، واستمر فى السجن يضرب حتى يئسوا من أن ينطق بما يريدونه على النطق ، بما يعتقد أن الدين لا يسوغ له أن يقطق به ، ومكثوا ومكث معهم على ذلك ثمانية وعشرين شهراً لم يسكتوا عنه ، ولم يسايرهم فيا يقولون ، حتى يئسوا منه ولم يخنع ، فأخرجوه وقد أثقلته الجراح ، فلما استشنى منها بعد أن تركت ندوبها عاد إلى درسه ، والكنهم من بعد ذلك عادوا إلى مسجنه ، ثم إلى منعه من درسه ، حتى أزال الله الغمة \_ ذلكم الرجل هو إمام حار السلام ، وشيخ الفقهاء والمحدثين في عصره أحمد بن حنبل رضى الله عنه .

### مولده وتشأته :

حولد أحمد بن حنبل فى شهر ربيع الأولسنة ١٦٤ ، وقد كانتولادته ببغداد ، حيث عاش ودرس وذاع أسمه منها ، وقد جاءت به أمه حاملا به من مرو التي كان بها أبوه ، وهو عربى النسب من جهة أبيه ومن جهة أمه ، إذ ينتميان إلى قبيلة شيبان ، وهى قبيلة ربعية عدنانية ، تلتقى مع النبي صلى الله عليه وسلم فى نزار .

وحنبل ليس اسم أبيه \_ إنما هو اسم جده ، فأبوه محمد بن حنبل ابن هلال ، وقد كان مقام الأسرة أولا بخراسان ، حيث كان جده والياعلى سر خس من ولاياتها ، ثم كان أبوه قائداً من قواد المسلمين ، أو جندياً قارب سنزلة القيادة .

ولما انتقلت الأسرة إلى بفداد قرب ميلاد أحمد .. استمرت صلتها بالخلافة: المباسية ، وكان الذى يتولى ذلك العمل عم أحمد ، فإن محمداً أبا أحمد قد مات بعد انتقاله إلى بغداد بقليل .

وقد كانت أسرة أحمد فيها همة وجود ، فجده كان والياً للأمويين ثم لما اعتقد أن الدعوة المباسيه على حق ، ورأى نظام الأمويين ينهار ، ترك العمل للأمويين ، واتصل بدعاة بنى العباس وأنزل به الأذى فاحتمله ، وكان أبوه جواداً كريماً فتح داره بخراسان لوفود العرب ، تنزل عليه ، فيضيفها ويكرم مثواها .

ولكن الغلام الصغير أحمد لم يكديرى نور الوجود حتى فقد أباه ، وقد ذكر أنه لم ير أباه ، فقد مات وهو لم يبلغ درجة الإدراك بالرؤية الميزة ، ويذكر المؤرخون أن أباه مات شابًا في الثلاثين من عمره .

٣ ـ وقامت على تربيته أمه برعاية عمه ، وقد وجهته إلى العلم منذ نشأته والأحوال مهيأة له ، فقد انتهت إقامة أسرته إلى بفداد معدن العلم الإسلامى وموئله ، إذ ذخرت بأنواع المعارف والفنون ، فيها القراء والمحدثون ، والمتصوفة وعلماء اللغة ، والفلاسفة والحكاء ، فقد كانت حاضرة العالم الإسلامى .

وجه أحمد منذ صباه إلى دراسة الإسلام ، فاستحفظ القرآن الكريم ، وأخذ يدرس المربية والحديث ، وآثار الصحابة والتابعين ، وسيرة النبي صلى الله عليه وسلم ، وسيرة صحابته المقربين . والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين .

وقد ظهرت عليه أمارات النجابة والتتى منذ نعومة أظفاره وفى شبابه ، فكان الفلام التتى بين العلماء ، والشاب التقى بين الشباب ، ثم صار الكهل الذى أبلى البلاء الأكبر فيما يعتقد ، واحتمل من المكاره ما ينوء بحمله غير أولى العزم من الأتقياء :

وقد كان جاداً بين الصبيان حيث يهزلون ، ويلمون ويلعبون ، فقد كسبه اليتم جداً وقوة احتمال ، ورغبة فى العمل ، وكان الآباء يلاحظون ذلك عليه » ويريدون أن يكون أبناؤهم على مثاله ، ويروى أن بعض الآباء قال : أنا أنفق على ولدى ، وأجيئهم بالمؤدبين على أن يتأدبوا فما أراهم يفلحون ، وهذا أحمد ابن حنبل غلام يتيم ، انظرواكيف ، وجعل يعجب من أدبه، وحسن طريقته م

#### دراسته :

٤ — وإن الطفل الصغير أودع سر الرجل السكبير، فما إن شب أحمد عن الطوق، وقد أنجه إلى العلم حيث وجهته أسرته - حتى اختار علماً يتناسب مع التقوى التي نشأ عليها، فما اختار الفلسفة، ولا الرياضة ، بل اختار علم الدين، واختار من بين علوم الدين علم الحديث الذي كان يحتاج إلى الانتقال من الأمصار إلى الأمصار . والحديث جره إلى الفقه ، حتى التتى فى قلبه الفقه والحديث مماً، بقدر متناسب، وإن كان بعض العلماء يرجح فيه جانب الحديث ولكن الإجماع على أنهما التقيا فيه .

وقد اشتهر أحمد بين الأفران بالتقوى والعناية بعمله والصبر والجلد ، واحتمال ما يكره ، ولعل ذلك من فرط اعتماده على نفسه صغيراً ، وإحساسه بالاستقلال النفسى منذ طفولته ، وقد استرعت هذه الحال نظر العلماء الذين اتصل بهم صغيراً ، حتى قال فيه الهيثم بن جميل: « إن عاش هذا الفتى فسيكون حجة أهل زمانه » .

اختار أحمد فى صدر حياته كا أشرنا أن يكون محدثاً يروى الحديث ع ويدونه ، ويحمله غيره من بعده ، ولم يكن اختياره للحديث عن غير بينة ، بل إنه أنجه ابتداء إلى الفقه الجامع بين الرواية والدراية ، وأخذ عن أبى يوسف صاحب أبى حنيفة وقاضى الدولة الأكبر فى ذلك الإبان ، ولكنه مال إلى حديثه ، ( ٢٠ \_ تاريخ المذاهب ) ولم يمل إلى فقهه ، ولذا قال : «أول سن كتب عنه الحديث أبو يوسف » أى أنه تلقى عن أبى يوسف الحديث ، وذاق منه الفقه .

وإذا محصنا هذه الرواية ، وهى تلقيه عن أبى يوسف ننتهى إلى أنه ابتدأ من أنواع الفقه بفقه الرأى ، وهو الفقه الذى كان يسود المراق ، والذى كان يمثله فقه أبى يوسف ، وإن كان قد جمع إليه دراسة الحديث ، فكان يدعم فقه الاستنباط القياسى بالحديث ، ويستنبط من الحديث الحكم ويخرج عليه ويقيس ، ويفرض الفروض .

طلب أحمد الحديث ، وأخر طلب الفقه ، وكان علماء الحديث مفرقين في كل الأمصار الإسلامية ، فني بغداد محدثون ، وفي السكوفة ، وفي البصرة ، وفي الحجاز ، وفي الهين ، وهكذا كل الأقاليم الإسلامية كان فيها محدثون ، وطالب الحديث لا بدأن ينتجع كل هذه الأقاليم ، ويرحل إليها إقليما بعد إقليم .

## رحلته في طلب الحديث

وقد ابتدأ تلقیه الحدیث من سنة ۱۷۹ أى من وقت أن بلغ الخامسة عشرة من عره فابتدأ بطلبه ببغداد إلى سنة ۱۸۳ أى نحو سبع سنین ، فأخذ عن شیوخ الحدیث فیها ، و ابتدأ رحلاته سنة ۱۸۳ (۱) إذ رحل إلى البصرة ، و في العام التالى رحل إلى الحجاز ، نم تو الت رحلاته إلى البصرة والكوفة و الحجاز و اليمن .
 وكانت رحلاته ليتلقي الحديث عن يروى من الأحياء يأخذ عنهم شفاها ،

ولإ يكتنى بالكتيب ينقل عنها ، ذلك ليتثبت في الرواية .

وقد قالوا: إنه رحل إلى البصرة خسمرات ، ورحل إلى الحجاز خسمرات أولاها سنة ١٨٧كما أشرنا، وفيهاكان أول لقاء بينه وبين الشافعي ، إذ التتي

<sup>(</sup>١) راجع في هذا المناقب ص ٨٥

به في المسجد الحرام بمكة، ثم التقى به بعد ذلك في بغداد، عندما جاء إليهاينشر مذهبه، وقد فصل ابن كثير مرات حجه، فقال: «أول حجة حجها في سنة سبع وثمانين ومائة، ثم سنة ست وتسمين ومائة، ثم سنة ست وتسمين ومائة، وجاور في سنة سبع وتسمين. ثم حج سنة ثمان وتسمين، وجاور إلى سنة تسع وتسمين. قال الإمام أحمد حججت خمس حجج منها ثلاث راجلا، وأنفقت في إحدى هذه الحجج ثلاثين درها، وقد ضللت في بعضها عن الطريق وأنا ماش، فجملت أقول: ياعباد الله دلوني على الطريق، حتى وفقت إلى الطريق.

وترى من هذا أنه كان كثير الحج ، ولم يكن حجه لذات الحج فقط ، بلكان لزاد آخر ، وهو رواية حديث النبي صلى الله عليه وسلم .

وكان يركب متن الصعاب في طلب الحديث ، يذهب إلى رواته أنى كانوا وحيمًا ثقفوا ، وكان يفضل أن يبذل المشاق في طلبه عن أن يناله رخيصاً سهلا ، فإن السهل ينسى ، والصعب لاينسى ، وقد كان يريد أن يذهب بعد الحج والحجاورة لبيت الله إلى عبد الرازق بن هام المحدث المشهور بصنعاء اليمن ليأخذ عنه ، وقد حقق ذلك بعد أن التقى به في الحج ، وكان يمكنه أن يأخذ منه ، ولكنه آثر أن يأخذ في الحج عن محدثي مكة والمدينة ، ويأخذ منه بعد ذلك ، ولأنه يريد أن يحتسب النية في السعى إلى صنعاء ، ويركب المشقة .

وقد سافر فعلا إلى صنعاء وناله العيش الخشن ، والمركب الصعب ، إذ انقطعت به النفقة في الطريق فأكرى نفسه من بعض الحمالين إلى أن وافي صنعاء وقد كان رفقاؤه يحاولون أن يمدوا له يد المعونة، فكان يردها شاكراً حامداً فيه أن أعطاه القوة التي تمكنه من أن يحصل على نفقات سفره بقوة بدنه .

<sup>(</sup>۱) تاریخ ابن کثیر ج ۱ س ۳۲۹

و اا وصل إلى صنعاء والتقى بعبد الرازق حاول أن يعينه ، فقال له يا أبا عبد الله خذ هذا الشيء ، فانتقع به ، فإن أرضنا ليست أرض متجرولا مكسب ومد إليه يده بدنانير . فقال أحمد : أنا مخير ، ومكث على هذه المشقة سنتين استهان بهما ، إذ سمع أحاديث عن طريق الزهرى وابن المسيب وما كان بعلمها من قبل

# مع الحبرة إلى المقبرة

7- طاف أحمد فى الأقاليم الإسلامية طالباً الحديث لا يستكثر الكثير من التعب ، يحمل حقائب كتبه على ظهره ، حتى لقد رآه بعض عارفيه فى إحدى رحلاته ، وقد كثر مارواه من الحديث ، وحفظه وكتبه ، فقال له معترضاً مستكثراً ماحفظوما كتب وما روى : « مرة إلى الكوفة، ومرة إلى البصرة!! إلى متى ؟ فقال رضى الله عنه . . . « مع المحبرة إلى المقبرة » .

وأحمد مع حفظه وقوة ذاكرته كان معنياً بتدوين كل مايسمع من أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لأن العصر كان عصر تدوين ، ففيه دون الفقه وعلوم اللغة ، وكان لابد أن تدون علوم الحديث ، وقد دون من قبل مالك موطأه ، ودرن أبو يوسف الآثار ، ومثله تلميذه محمد بن الحسن ، ودون الشافعي مسعده ، فكان لابد أن يدون ما يسمع ، ومع أنه يحفظ كل مايسمع فإنه إذا سئل عن حديث لايروى من ذاكرته بل يروى مما كتب ، حتى بعد أن بلغ من العلم ما بلغ ، يروى أنه سأله رجل من أهل مرو عن حديث ، فأمر ا بنه ، بعن العلم ما بلغ ، يروى أنه سأله رجل من أهل مرو عن حديث ، فأمر ا بنه ، عبد الله أن يحضر له كتاب الفوائد ليبحث عن الحديث ، ولكنه لم يجده ، فقام ، بنفسه وأحضر الكتاب ، وكان عدة أجزاء وقعد يطلب الحديث » (1).

<sup>(</sup>۱) المناقب لابن الجوزى ص ١٩٠، ١٩١

#### إلى الفقه

السنة التي كان بجمعها عي أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، وفتاوي أصحابه وأقضيتهم وفتاوي التابعين وأقضيتهم ، وإن هذه الروايات فوق أنها سنن مأ ثورة هي فقه عميق دقيق ، ولذلك لانقول إنه في رواياته وانفاره فيها كان منقطعاً عن الفقه والمسائل والفتاوي ، بل كان متصلا بالفقه غير منقطع ؛ فإذا كان قد تفرغ شطراً كبيراً من حياته للرواية ، فإنه لم يكن فيها مقطوعاً عن الفقه .

و إنه في دراسته الأولى أنجه إلى طلب الفقه على القاضى أبى يوسف ، ولما المنه أشده كان يفتجه إلى فقه السنة ، ولعل ذلك قد جذبه إلى علم الفقه ، وخصوصاً عندما التقى بالشافعي رضى الله عنه في مكة ، فقد استرعاه عقل الشافعي، ووضعه موازين دقيقة للاستنباط الفقهي ، فقد جاء في معجم ياقوت :

« قال إسحق بن راهويه : كما عند سفيان بن عينية نكتب أحاديث عمرو ابن دينار ، فجاءني أحد بن حنبل ، فقال في قم يا أبا يمقوب حتى أريك رجلا لم ترعيداك مثله ، فقمت ، فأتى بي فناء زمزم ، فإذا هناك رجل عايه ثياب بيض ، تعلو وجهه السمرة ، حسن السمت حسن المقل ، وأجلسني إلى جانبه ، فقال يا أبا عبدالله ، هذا إسحق بن راهويه الحنظلي، فرحب بي وحياني ، فذا كرته، وذا كرئي ، فانفجرلي منه علم أعجبني ، فلما طال مجلسنا قلت: قم بها إلى الرجل . وذا كرئي ، فا توجمت إلا أن تأتينا برجل مثل الزهري أوقريب منه ؛ فأتيت بنا إلى الزهري ، فما توجمت إلا أن تأتينا برجل مثل الزهري أوقريب منه ؛ فأتيت بنا إلى مثله » . هذا الشاب ، فقال لي يا أبا يمقوب : اقتبس من الرجل ، فإنه مارأت عيناي مثله » . هذا الشاب ، فقال لي يا أبا يمقوب : اقتبس من الرجل ، فإنه مارأت عيناي مثله » .

فمع الحديث يجب أن نقرر أن أحمد كان يطلب فياكان يطلب علم الفقه

والاستنباط مع الرواية ، وتلقى ابتداء عن أبى يوسف كما أشرنا ، وتلقى انتهاء عن الشافعى وغيره ، وقد التقى به مرة فى بغداد سنة ١٩٨ ، وطلب إليه الشافعى أن يذكر له كل حديث يطلع عليه ويجد فيه مخالفة لما قرره من مسائل ، وكان على نية أن يلحق بالشافعى فى مصر عندما انتقل إليها ، ولكن لم يتم له ذلك .

٨ -- وبهذا التقى الحديث والسنة والآثار مع الفقه، وسواء أكان طلبه للفقه سابقاً للحديث والسنة أم كان بعد أن اتجه إلى الآثار، وجمع منها الكثير، فإنه من المؤكد أنه اتجه إلى الفقه ، والذى أراه في هذه القضية أنه اتجه إلى الفقه بدراسة عميقة عندما أخذ بدرس الفقه في المرويات التي آل إليه علمها، فإنه طلب فقه الصحابة، وخصص لكل محابي مُسْنَدًا قائماً بذاته في كتابه «المسند» وفي كل أسند لصحابي من المجتهدين الذين اشتهروا بالإفتاء ماروى وأفتي كعلى ابن أبي طالب، وزيد بن ثابت، وخليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم أبي بكر، وأمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنهم أجمين، فلا بد أنه كان يعنى بدراسة فقه هؤلاء وتعرف غاياته ومراميه، وإن دراسة فقه هؤلاء وغيرهم عمرو بن الماص -- يرهف عقل الراوى المستيقظ، وبعطيه ملكة فقهية عيقة، عمرو بن الماص -- يرهف عقل الراوى المستيقظ، وبعطيه ملكة فقهية عيقة، وإذا أضيف إلى ذلك أنه التقى بضابط علم الاستنباط الإمام الشافى رضى الله عنه ، فإنه بلا ريب يكون فقيهاً عريقاً في فقه الهسنة ، لا يمكن في آرائه أن عنه ، فإنه بلا ريب يكون فقيهاً عريقاً في فقه الهسنة ، لا يمكن في آرائه أن

ثم إنه لم يكتف بدراسة فقه الصحابة ، بلدرس فقه التابدين ، وجمع فتاويهم. وفيهم من كان يغلب عليه الرأى، وفيهم من كان يتوقف إن لم يجد حديثًا، فوجد في فقه التابدين مجموعة فقهية ، انبعها ، واستنبط على منهاجها ، ومنهاج ما أثرعن.

الصحابة رضوان الله تبارك تعالى عليهم مالم يجد نصاً عليه من الكتاب والسنة، ولم يؤثر عن تابعي أو صحابي فتوى فيه .

### ٠٠ علم أحمد بالفارسية:

٩ --- انتقلت أسرة أحمد بن حنبل من مرو ، وأمه كانت حاملا به ، وقد وقد ببغداد ، ويظهر أن إقامة أسرته الطويلة بخراسان واتصال أعمال عمه بها جعل اللغة الفارسية معروفة فى تلك الأسرة ، ولذلك ثبت أن أحمد كان يعرف الفارسية ، ويتحدث بها ، وقد روى ذلك الذهبى فى تاريخه ، فيروى أنه قدم عليه من خراسان ابن خالته ، ونزل عنده ، ولما قدم له أحمد الطعام كان أحمد يسأله عن خراسان وأهلها وربما استمتجم القول على الضيف ، فيكلمه أحمد بالفارسية .

وقد روى الذهبى ذلك الخبر عن زهير حفيد أحمد رضى الله عنه ، ويذكر أنه شاهده وعاينه ، ولذلك كان لابد لنا من قبول الخبر ، لأنه خبر ، راويه ثقة ، وله صلة بأسرة الإمام ، وفوق ذلك ليس عندنا دليل على النفى ، ولا يردخبر الثقة إلا بدايل أقوى من الرواية ، أو برواية نافية أوثق من الرواية الناقلة .

# جلوس أحمد للنحديث والإفتاء

• ١٠ - طلب أحمد الحديث من كل رجاله ، ولم يقتصر على بغداد والبصرة والكوفة، ومكة والمدينة ، بلذهب إلى البين ، وهم بأن يذهب إلى مصروراه أستاذه الشافعي رضى الله عنه ، وما سمع برجل له علم بالحديث إلا ذهب إليه وروى عنه .

ولم يكتف بعلم الرواية ، بل أخذته الرواية إلى الفقه العميق ، وإن كان قد استأنس بالفقه في صدر حياته ، وقد علم أشتات العلوم التي لها صلة بالدين ، ألم

ببعضها ، وتعمق في خيرها ، وهو علم الكتاب والسنة وروايتها وفقهها .

وقد آن لهذا العالم أن يعطى بعد أن أخذ، وأن يملى بعد أن استنلى ، والكنه لم يتخذ مجلسه للتحديث والإفتاء إلا بعد أن بلغ الأربعين، فهل هو ف خلك مقتد بالنبي صلى الله عليه وسلم، لأنه لم يبعث إلا بعد الأربعين من عمره، وإن سن الأربعين هي سن النصج الكامل الذي تقل فيه الأهواء، و يعلوالعقل والإرادة، وأبو حنيفة لم يجلس للفتوى إلا في سن الأربعين!

وقد أغنانا أحمد عن الإجابة عن هذا السؤال ، فقد سئل فى ذلك فقال : ﴿ إِنّه لا يحدث و بعض شيوخه حى ، وقد ذكر أحد معاصريه أنه سأله أن يملى عليه حديثاً رواه عن عبد الرازق ، فامتنع لأن عبد الرازق حى » وإن لذلك دليلا واضحاً ، لأنه جلس للأفتاء والحديث فى السنة الرابعة بعد المائتين، وفي هذه فالسنة مات الشافعي بمصر ، وبذلك يكون هذا التعليل مؤيداً بالواقع التاريخي .

ونحن نقررها أنه جلس للافتاء والتحديث ، وصاربذلك مرجماً للحديث والفتوى ، وليس معنى ذلك أنه كان إذا سئل عن أمر فيه سفة لا يجيب ، فإن ذلك يكون كتماناً للعلم لا يجوز، والدين بوجب الإرشاد والتعليم ويوجب نشر أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولقد روى أنه سئل فأفتى في مسجد الخيف سنة ١٩٨ أى وهو في الرابعة والثلاثين من عرم .

ولهذا نقول إن أحمد كان يفتى قبل أن يبلغ الأربعين ، إذا لم يكن من المفتوى بد ، فالضرورة تكون ملجئة إليها . أما جلوسه للدرس الذى يقصده طلاب العلم للأخذ عنه والرجوع إليه ، فإنه لم يتصد له أحد إلا بعد الأربعين، عندماوجد المكان شاغراً فملاً ه ، وعندما وجد أن الاتباع للهدى بوجب عليه أن يقمد للارشاد والإفتاء بعد الأربعين .

ولقد كان ذكر عفافه وتقواه ونزاهته قد شاع بين الناس ، فقصدوه

السؤال عن الفقه ورواية الحديث، فاضطر لأن يجلس لإجابتهم في السجد، وكانت حياته بعد ذلك تنمي الشهرة وتذيعها.

ثم نزلت به المحنة التي سنبينها ، والتي صهرت نفسه ، وبينت مقدار جلده وصبره ، فزادته علواً ورفعة ، وزادت مكانته عند الله والناس ، فعرفه الناس وأشاعوا ذكره ، وكلا تواضع لله ولعباده ازداد رفعة .

11 — ولقد كان ذيوع اسمه بالعلم والزهد والتقوى سبباً في الازدحام في درسه ، وقد ذكر بعض الرواة أن عدة من كانوا يستمعون إلى درسه نحو خمسة آلاف ، وأنه كان يكتب منهم نحو خمسائة ، ولسنا نسلم بأن هذا العددهوالذي كان يحضر ، ولسكن ربما يكون قريباً ، أو أن يكون العدد ضخماً ، والعدد بالألف بدل على الضخامة بلاشك ، فلو نزلت عدة السامعين إلى نصف ماذكروا أو خمسه لسكان العدد كبيراً مع ذلك ، ولدل على مكانة أحد في بغداد ، ومن يفدون من الأقاليم الإسلامية .

وإن كثرة الساممين ، والكاتبين تدل على كثرة رواة الحديث والسنة عن أحمد ، وكثرة الناقلين لفقيه .

و يجب أن نذكر في هذا المقام أن أحمد كان له ورع وفضل، وتقى وزهادة وجلد وصبر، وكل هذا كان يرغب الناس في الاستماع إليه كما أشرنا، فلا بدأنه لم يكن كل الذين يحضر ون طالبين لعلمه ، يل لابدأنه كان منهم من بحضر مجلسه محبة له ، وتيمنا به ، ومنهم من كان يريد أن يتعظ بحاله ، ويعرفها ، وينظر إلى هديه وخلقه وأدبه ، ولقد جاء في مناقب أحمد لابن الجوزى عن بعض معاصريه « اختلفت إلى أبى عبدالله اثنتي عشرة سنة ، وهو يقرأ المسند على أولاده ، فما كتبت حديثاً منه واحداً ، وإنما كنت أميل إلى هديه وأخلاقه » .

ويظهر أنه كان له مجلسان \_ أحدها \_ في منزله يحدث فيه خاصة تلاميذه

وأولاده (و ثانيهما) في المسجد يحضر العامة والتلاميذ ، وإن هؤلاء التلاميذ هم. الله ين كانوا يكتبون الحديث ، وهم يبلغون نحو عشر الحاضرين .

وقد ذكر الذهبي أن وقت درسه بالمسجد كان بعد العصر ، وكذلك كان. مجلس درس أبى حنيفة في مسجد السكوفة ، وذلك لأن ما بعد العصر يكون. وقت استراحة ، ولأنه وقت صفاء النفس ، وفراغها من مشاغل الحياة ، فيكون. الحديث والإفتاء ، والنفس مستجمة مقبلة ، وليست كليلة مدبرة ، والدرس عند إقبال النفس أهمق أثراً ، وأعظم تأثيراً.

۱۲ -- ویلاحظ فی درس أحمد ثلاثة أمورجعلت له آثراً فی النفوس حمیداً : وأول هذه الأمور أنه كان یسود مجلسه الوقار والسكینة مع تواضع واطمئنان نفس، فكان لا يمزح ولا يلهو، لأن كل مزحة فی موضع الجد مجة من العقل، وكل لهو فیه مهما یكن باطل، ولقد كان الحاضرون یلاحظون. ذلك فلا يمزحون فی مجلسه، ولو كان لا يدرس، روی ابن نعيم عن خلف ابن سالم أنه قال: «كنا فی مجلس يزيد بن هارون فمزح يزيد، فتنحتح أحمد. ابن حنبل، فضرب يزيد بيده على جبينه وقال: «ألا أعلمتموني أن أحمد هنا..

وثانى هذه الأمور التى تلاحظ فى درسه أنه ماكان يروى الأحاديث إلا من بطلب الرواية ، حتى يكون الإقبال عليها ، وإذا روى الحديث لا يرويه إلا من الكتاب ، فكان يروى من الكتب التى كتبها . وتلقاها من أفواه الرواة ، ولا يعتمد على حافظته خشية أن تضل ، فيروى عن النبى ما لم يقل ، ولم يعتمد على ذاكرته إلا إذاكانت حاجة ماسة ، ويكون مستيقناً من نص الحديث ، حتى إن تلاميذه أحصوا الأحاديث التي ذكرها من غيركتاب يقرؤه ، فوجدوها الاحديث التحاوز مائة حديث .

جاء فى تاريخ الذهبى عن الروذى صاحب أحمد أنه قال : « لم أر الفقير فى مجلس أعزمنه فى مجلس أبى عبدالله ، كان مائلا إليهم ، مقصراً عن أهل الدنيا ولم يكن بالعجول ، بل كان كثير التواضع ، تعلوه السكينة والوقار ، إذاجلس مجلسه بعد العصر لا يتكلم حتى يسأل (١) .

والأمرالثالث الذي يلاحظ في درس أحمد . أنه كان لا يسمح في الكتابة . إلا بكتابة الأحاديث ، بل إنه كان يوجب الكتابة على تلاميذه ، كاكان. يوجبها على نفسه ، عندماكان يتنقل في الأقاليم راويًا ناتلا .

أما بالنسبة لفتاويه فإنه كان ينهى عن نقلها وكتابها ، ويرىأن علم الدين هو وحده الذى يكتب ، وعلم الدين هو الكتاب والسنة ، فلا يكتب سواها ، ولذلك كان ينهى عن كتابة فتاويه ، وسأله رجل هل يكتب كتب أهل الرأى. من فقهاء العراق ؟ فقال : لا . . قال السائل : فابن المبارك كتبها . . . فقال : لا ابن المبارك كتبها . . . فقال : لا ابن المبارك لم ينزل من السهاء ، إنما أمر نا أن نأخذ العلم من فوق » بل إنه ينهى الحدثين عن أن يكتبوا كتب الشافعى ، مع أن الشافعى منزلته منه بمنزلة الأستاذ وله فى نفسه المكان المكين ، لأنه ماكان يرى علما فى الدين جديراً بالتدوين، ونقله للأخلاف إلا المكتاب والسنة ، وذلك ليجعل كلام الرجال خاصاً بأزمانهم وعلاجاً لمشاكل عصورهم ، ولا ينتقل إلى من بعدهم ، وذلك ما هو جدير بهم، ولكيلا ينتقل إلى الناس إلا علم القرآن ، وعلم النبى وأصحابه والذين اتبعوهم بإحسان ، صفواً لا تكدره الدلاء التى تأخذ منه ، ولكيلا يكون تقليد العلماء واتباع الرجال على أسمائهم .

ولكن أحمد الذي كان يبالغ في النهي تلك المبالغة قد ابتلاه الله تعمالي ،

<sup>(</sup>١) حاية الأولياء ج ٥ ص ١٦٥ .

وأجرى الأموز على غير ماكان يحب، فروى عنه تلاميذه مجلدات ضخاماً .

السلف رضى الله تعالى عنهم لا يشغلون أنفسهم إلا بعلم الكتاب والسنة ، كان السلف رضى الله تعالى عنهم لا يشغلون أنفسهم إلا بعلم الكتاب والسنة ، فالفقيدة والإفتاء ، وتعليم الفاس شئون دينهم مستمدة من الكتاب والسنة ، فالعقيدة التي تعتنى ، لا مصدر لها إلا الكتاب والسنة ، فما نص عليه منها فإنه العقيدة التي تعتنى ، ولا دليل عليها إلا كلام الله تعالى وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، ولا مصدر لأى علم إسلامي سواها ، لا يبحث عن العقيدة من طريق العقل المجرد ، بل يبحث عنها من طريق النقل ، لا يتبع سواه ، ولقد كثر في عصره الكلام في العقائد ، من غير الترام منهاج الا تباع للكتاب والسنة ، بل خاضوا في أمور حول العقيدة ، مثل الجبر والاختيار ؛ ومثل الكلام في أسماء الله تعالى المذكورة في القرآن ، أهي صفات لله تعالى غير الذات ، أم هي والذات شيء واحد ، وهل الكلام من صفات الله تعالى ، ثم هل القرآن قديم ، أو هل القرآن نخلوق . وغير ذلك عماكان يخوض فيه العلماء الذين سموا علماء الكلام .

كان أحمد لا يصنع صنيع هؤلاء ، ولا يشغل درسه بشى وقط من كلامهم ويعدهم من أهل الزيم .

كفت إليه رجل بسأله عن مناظرة أهل الـكلام ، فكتب إليه أحمد :

« أحسن الله عاقبتك ، الذي كما نسمع ، وأدركنا عليه من أدركنا أنهم
كانوا يكرهون الـكلام ، والجلوس مع أهل الزيغ ، وإيما الأمر في التسليم
. والانتهاء إلى ما في كتاب الله لا نعدو ذلك ، ولم يزل الناس يكرهون كل
. من وضع كتاب ، وجلوس مع مبتدع ، ليردوا عليه بعض ما بلبس عليه
في دينه (١)

<sup>(</sup>١) ترجمة الحافظ الذهبي لأحمد المطبوعة في مقدمة المسند ، طبع المعارف .

هذا مسلك أحمد ، ولا شائ أنه لم يكن المسلك الذى كانت تشجعه حكومة العباسيين إبان ذاك ، ذلك أنه كان على رأس الحكومة العباسية فى ذلك الوقت عبدالله المأمون بن الرشيد ، وقد كان يعد نفسه من المعتزلة ، وعالماً من علمائهم وكان يعقد المناظرات لتأييد مذهب الاعتزال ، ويثير المناقشات حول كون القرآن مخلوقاً أو غير مخلوق ، وفى آخر حياته وجدت فكرة إكراه العلماء من فقهاء ومحدثين على ذلك القول ، ومن هنا نزلت المحنة بإمام دار السلام أحمد ابن حنبل رضى الله عنه .

### المحنة وأسبامها وأدوارها

15 — كثر القول حول القرآن السكريم في كونه مخلوفاً أو غير مخلوق ، وقد عمل على إثارة هذه المسألة النصارى الذين كانوا في حاشية البيت الأموى ، وعلى رأسهم يوحنا الدمشق ،الذى كان يبث بين علماء النصارى في البلاد الإسلامية طرق المناظرات التي تشكك المسلمين في دينهم ، وينشر بين المسلمين الأكاذيب عن نبيهم ، مثل زعمه عشق النبي صلى الله عليه وسلم لزينب بنت جحش ، فقد جاء في القرآن أن عيسى بن مريم كلته ألقاها إلى مريم ، فكان يبث بين المسلمين أن كلة الله قديمة ، في القرآن الما عيسى بن مريم كلته ألقاها إلى مريم ، فكان يبث بين المسلمين علوق ، وإن قالوا قديمة ، ادعى أن عيسى قديم (١) .

وعلى ذلك وجد من قال إن القرآن مخلوق ، ليردكيد هؤلاء ، فقال ذلك الجمد بن درهم ، وقاله الجهم بن صفوات ، وقاله المعتزلة ، واعتنق ذلك الرأى المأمون .

<sup>(</sup>١) ولا شك أن ذلك تلبيس ، لأن معنى كلمة الله أن الله خلقه بكامة منه كمانس. على ذلك في آيات أخرى لا أنه هو ذات كلة الله .

وقد أعلن فى سنة ٢١٢ أن المذهب الحق هو أن القرآن مخلوق ، وأخذ يدعو لذلك فى مجلس مناظراته ، وأدلى فى ذلك بما يراه حججاً قاطمة فى هذا الموضوع ، وقد ترك المناقشة حرة ، والناس أحرار فيما يقولون .

الناس بقوة السلطان إلى اعتناق هذه الفكرة ، ومن الفريب أنه ابتدأ بهذا وهو خارج بقداد .. وقد خرج مجاهداً ، فكتب هذه المكتب وهو بمدينة الرقة وأخذ يرسل الكتب لحل الناس على اعتناق عقيدة أن الفرآن مخلوق إلى نائبه ببغداد إسحق بن إبراهيم ، و بلاحظ أن كانبه هو أحمد بن أبى دؤاد شيخ من شيوخ المعتزلة ، و الحصم العنيد الفقهاء و الحدثين .

وقد ابتدأت فكرة الاضطهاد الديني في هذه المسألة بألا يمين في الدولة في أى منصب من مناصبها إلا من يقول ذلك القول ، ولا تقبل شهادة شاهد في أى قضية إلا إذا كان يقول ذلك القول ، وقد جاء في الكتاب الأول مانصه:

« وأعلمهم أن أمير المؤمنين غير مستمين فى عمله ، ولا واثق فيمن قلده واستحفظه من رعيته بمن لا يوثق بدينه وخلوص توحيده ويقينه ، فإذا أقروا بذلك ، ووافقوا أمير المؤمنين فيه ، وكانوا على سبيل الهدى والنجاة ، فمرهم بنص من يحضرهم من الشهود على الناس، ومسألتهم عن عملهم فى القرآن ، وتركشهادة من لم يقر بأنه مخلوق محدث ولم يره (١) » .

. ونرى من هذا الكتاب أن العقوبة لمن لا يقول ذلك القول كانت سلبية مانعة ، ولم تكن إيجابية .

ولكن لم يقف الأمر عند ذلك الموقف السلبي ، بل تجاوزه إلى الأمر

<sup>(</sup>۱) تاریخ الطبری .

- بامتحان بعض من الناس فيهم ، فيسألهم عن قولهم فى القرآن ، فإن لم يقولوا . . حملوا موثقين إلى معسكر المؤمنين ، وكان فى ذلك الكتاب الأمر باختبار الفقهاء والمحدثين ، فن لم يقل منهم ذلك القول يحمل إليه موثقاً مكبلابالحديد ، ومن أقر ترك يفتى و يحدث .

وقد سارع نائبه ببغداد إلى تنفيذ ماأمر به ، فأحضر الفقهاء والمحدثين وفيهم أحمد بن حنبل ، وأنذرهم بالعقاب والعذاب إن لم يقروا بما طلب منهم، ويحكموا بالحسكم الذى ارتآه المأمون من غير تردد، فنطقوا بما طلب منهم، وأعلنوا اعتناق ذلك المذهب في القرآن ، ولكن أربعة منهم ربطالله على قلوبهم . قد أصرواعلى موقفهم إصراراً جريئاً ، وهم أحمد بن حنبل ، ومحمد بن نوح ، والقواريرى ، وسجادة ، فشدوا بالوثاق ، وكبلوا بالحديد ، وباتوا مصفدين بالأغلال، فلما كان الفد أجاب سيجادة فيما دعاه إستحق ، ففكوا قيوده ، واستمر الثلاثة الآخرون.

وفي اليوم التمالى أعيد السؤال عليهم ، وطلب الجواب إليهم ، فخارت نفس القواريرى ، وأجابهم إلى ماطلبوا ففكوا قيوده ، وبقى اثنان ــ الله معهما ــ فسيقا فى الحديد ، ليلتقوا بالمأمون فى طرسوس ، وقد استشهد ابن نوح فى الطريق .

وبتى أحمد وحده يسام العذاب والهوان فى سبيل عقيدته ، ولكنه ،راض مطمئن .

١٦ ــ وبيناهم فى الطريق نعى الناعى المأمون ، ولكنه قد ودع الدنيا ، وترك وصية يوصى بها من بعده أن يستمر على امتحان الفقهاء والمحدثين لحملهم على أن يقولوا إن القرآن مخلوق ، وقد جاء فى هذه الوصية .

« هذا ماأشهد عليه عبد الله بن هرون الرشيد أمير المؤمنين بحضرة من حضره ، أشهدهم جميمًا على نفسه أنه يشهد من حضره أن الله عز وجل وحده

لاشریك له فی ملسكه ، ولا مدبر لأمره غیره ، وأنه خالق ، وما سواه مخلوق ، ولا یخلو القرآن أن یكون شیئاله مثل كل شیء ، ولاشیء مثله تبارك و تمالی » وجاء فی وسط الوصیة یخاطب أخاه المعتصم الذی ولی بعده : « یا أبا إسحق . ادن منی ، واتعظ بما تری ، وخذ بسیرة أخیك فی خلق القرآن » .

ولهذا امتدت الحجنة بأحمد وغيره من الفقهاء والمحدثين الذين استه سكوامن بعد ، ولم تنته بوفاة المأمون بل اتسع نطاقها ، وزادت ويلاتها ، وأخذت تأخذ دوراً أفسى وأشد ، وكان مع الوصية يأخذ الناس بالشدة لجملهم على أن يقولوا إن القرآن مخلوق ، الوصية ببقاء أحمد بن أبى دؤاد ، وهو أصل البلاء الذى وسوس بالأذى و تولى كتابة الكتب به ، وهو الذى غلب على إرادة المأمون، وهو فى مرض الموت ، حتى أمر بما أمر ، وأوصى بما أوصى .

۱۷ ـ مات المأمون ، وأحمد سيق إليه مقيداً بالأغلال ، فلما أعلنت وفاة . المأمون ، أعيد إلى بغداد ، وزج به في غيابات السجن بها حتى يصدر في شأنه أمر ، ثم من بعد ذلك سبق إلى المعتصم ، واتخذت معه كل ذرائع الإغراء والإرهاب فلمأجدى فيه القول رغباً ورهباً نفذوا الوعيد ، فلمأ خذوا يضر بونه بالسياط المرة بعد الأخرى ، ولم يترك في كل مرة إلا بعد أن يغمى عليه ، وينخس بالسيف فلا يحس ، وتكرر ذلك ، واستمر في محبسه مع يغمى عليه ، وينخس بالسيف فلا يحس ، وتكرر ذلك ، واستمر في محبسه مع هذا العذاب نحواً من ثمانية وعشرين شهراً ، فلما استيئسوا منه اطلقوا سراحه وأعادوه إلى بيته ، وقد أ ثخنته الجراح ، وأثقله الضرب المبرح ، والإلقاء في السجن حتى إنه كان من شدة ما زل به لا يقوى على السير ، ولكنه المنتصر .

واستمرأ حمد منقطعاً عن الدرس والتحديث إلى أن التأمت جراحه واستطاع أن يخرج إلى المسجد ، وعندئذ أخذ يجدث ويفتى ، وزاده ذلك تقديراً من الناس ، فأقبلوا عليه وهم أشد تقديرا . وأعظم رغبة في سماعه . ولما جاء الواثق بعد المعتصم ، والوصية بالامتحان قائمة ـ أعاد المحنة على أحد بن حنبل ، ولكنه لم يأمر بضرب أحمد بالسوط ، كاكان الأمر في عهد المعتصم ، إذ رأى أن ذلك زاده منزلة عند الناس ، ومنع فكرة الخليفة من أن تذبع وتنشر ، بلكانت محاطة بالأذى والاضطهاد ، ولا يميت الأفكارسواها . وفوق ذلك ما ترتب عليه من سخط العامة ، ونقمة من سماها ابن أبى داؤد محرك الشر \_ حشو الأمة .

وكانت المحنة الجديدة أن منمه من الاجتماع بالناس والتحديث والفتوى وقال الواثق :

«لانجمعن إليك أحداً ولا تساكنى فى بلدأ نا فيه » فأقام الإمام أحمد محتفياً ، حتى مات الواثق ، فلما جاء المتوكل رفع المحنة ، وقرب الفقهاء والمحدثين وطرد الممتزلة وأخرجهم من السلطان الذى كانوا فيه .

١٨ -- ومن حق التاريخ أن نقرر أن الفتنة قد عت ، ولم تكن مقصورة على أحمد ، بل شملت غيره من الفقهاء والمحدثين ، ومنهم من أصحاب الشافعى البويطى ، فقد سجن فى هذه السبيل .

ويروى أن الوائق فى آخر حياته قد ستم هذه الحال ، وقد صار الأمر يتناوله الهزل والجد، ويروى فى سبيل الهزل أنه دخل بعض المضحكين على الوائق ، فقال : يا أمير المؤمنين أعظم الله أجرك فى القرآن ، فقال الوائق تا ويلك . . القرآن يموت !! ؟ قال : يا أمير المؤمنين كل مخلوق يموت . يا أمير المؤمنين بم يصلى الناس التراويح ؟ فضحك الوائق وقال : قاتلك الله . . أمسك .

ويروى الدميرى فى تأييد أن الوائق رجع فى آخر حياته عن إنزال لحمة : أنه دخل عليه شيخ ممن كان يمذب لأجلها ، فجادله أحمد بن أبى دؤاد ، فقال الرجل فى ضمن مجادلته : «شيء لم يدع إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا أبو بكر ، ولا عمر ، ولا عثمان ، ولا على تدعو إليه أنت ، ليس يخلو أن تقول علموه ، أو جهلوه ، فإن قلت علموه ، وسكتوا عنه ، وسعنى وإياك من السكوت ماوسم القوم ، وإن قلت جهلوه وعلمته أنت .. فيالكع بن لكع ( يخاطب ابن أبى حؤاد) يجهل النبى صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدون شيئاً وتعلمه أنت!!؟ ه فلما سمم الوائق ذلك وثب من مجلسه ، وأخذ يردد تلك الكلمات ، وعنى عن الشيخ ورجم .

19 - هذه عبارات موجزة فى تاريخ المحنة كلما ، وكانت قاسية على ذلك الإمام التقى ، وقد دام الإزعاج نحو أربع عشرة سنة ، تراخى عده العذاب فى نصفها ، واستمر فى سائرها .

وقد يقول قائل : أماكان الأولى بذلك الرجل المؤمن أن يتخذ التقية بأن يظهر الموافقة على رأيهم ، ويبطن فى نفسه مايراه ، وخصوصاً أنهكان يترتب على توقفه توقف دروسه فى رواية الحديث والفتوى ، وضرر ذلك أشد من ضرر المقول بخلق القرآن الذى لم يكن النطق به كفراً ، بلربما يكون ذلك هو الأوضح نظراً واستدلالا .

وقد يجاب عن ذلك بأن التقية في دار الإسلام ، حيث تستقر الأحكام الإسلامية تفاقض الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وهو واجب مفروض لا يسوغ لمن في مقام أحمد من الحديث والفتوى أن يسكت عنه ، ولو نزل به أقسى العذاب ، فعليه أن يقف عند رأيه ، فالتقية لا تجوز من أئمة المسلمين الذين يقتدى بهم ، حتى لا يضل الناس ، لأنهم إن نطقوا بغير ما يمقة دون ، وليس للناس علم مافي الصدور — اتبعوهم في مظهرهم ، وظنوا أن ما يقولونه هو الحق المبين ، وبذلك يكون الفساد عاماً ؛ ولذلك نرى أن صبر الإمام هو الحق المبين ، وبذلك يكون الفساد عاماً ؛ ولذلك نرى أن صبر الإمام

آحدكان هو الأولى بمثله ، وإن كنا لانوافقه من كل الوجوه على رأيه ابتداء . رأيه في خلق القرآن ورأى غيره

٢٠ -- لانترك هذه الحجنة من غير أن نذكر حقيقة رأيه ورأى المعتزلة :

إن الممتزلة قرروا أن القرآن مخلوق ، وهدذا لا يمنع أنه كلام الله تمالى ومعجزة النبى صلى الله عليه وسلم ، فالله سبحانه وتعالى خلقه ، وأوحى به إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، ونزله عليه منجما في مدى ثلاث وعشرين سنة ، وجعله فوق قدرة البشر ، فلن يأتوا بمثله ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ، وحجتهم في ذلك تقوم على ثلاث دعائم :

الأولى — أن كل شيء ما عدا الله تعالى مخلوق لله تعالى، والقرآن لايمكن إلا أن يكون مخلوقاً .

الثانية — أن القرآن مكون من حروف وكمات ينطق مها الناس، وليس القرآن إلا تلك، وهذه لا يمكن أن تسكون غير مخلوقة، لأنها تقوم بالمحلوقين عند النطق مها، وعند كتابتها.

الثالثة - أنه لوكان القرآن غير مخلوق ، لـكان قديما ، لأن غير المخلوق لا ابتداء له ، وما لا ابتداء له لا يمكن أن يكون قديما ، وبذلك تتمدد القدماء كما النصارى فى شأن عيسى عليه السلام .

ويصح أن يقال تبريراً لرأى المعتزلة أن يوحنا الدمشقى كان يضال المسلمين بالتعبير عن عيسى بأنه كلة الله ألقاها إلى مريم وروح منه، وإن قطع السبيل عليه أن يقال إن كلة الله مخلوقة لله تعالى، والقرآن مخلوق لله سبحانه وتعالى، فينقطع الطريق عليهم، و ترد السهام إليهم، نعم إن احتجاجهم باطل، لأن معنى كلة الله هنا في هذا المقام أنه خلقه لله تعالى بمجرد كلة «كن فكان» أى أنه لم يخلق على مقتضى العادة في تكوين الأحياء، وإن معنى روح منه أى أن

الله تعالى أنشأ روح عيسى بأص منه لابالأسباب التي تجرى فى خلق الأحياء فالله. تعالى هو خالق الأسباب، وهوفوق الأسباب ... إنه فعال لما يريد تعالى قدرته، وتكاملت إرادته .

71 — هذا هو رأى المعتزلة ، وهو واضح بدليله ، فما رأى الإمام أحمد؟ في الإجابة عن هذا السؤال يجب أن نقررابتداء — أن الإمام أحمد ما كان يرى . الخوض في مثل هذه الأمور التي لم يخض فيها السلف الصالح رضوان الله تبارك و تعالى عليهم ، لأنه ما كان يرى علماً إلا علم السلف ، فما يخوضون فيه يخوض فيه ، وما لا يخوضون فيه من أمور الدين يراه ابتداعاً ، يجب الإعراض عنه ، وهذه مسألة لم يتكام فيها السلف ، فلا يتكلم فيها ، والمبتدعون هم الذين يتكلمون ، وما كان له أن يسير وراءهم .

وهنا قال بعض العلماء إنه كان متوقفاً فى المسألة ... قد امتنع عن الخوض . فيها ، ويؤيدون ذلك بكلام روى عن الإمام أحمد فى هذا ، فقد روى عنه أنه قال : « جاست وقد اثقلتنى الأقياد ، فلما مكثت هنيهة ،قلت تأذن فى السكلام ؟ فقال : تكلم ، ففلت : إلام دعا رسول الله صلى الله تمالى عليه وسلم ؟ فقال : إلى شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة و إيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وأن تعطوا الخمس من الغنم » .

وإن هـذا الـكلام يدل على التوقف ، ويروى أنه قال : « من زعم أن. القرآن مخلوق فهو جهمي (١) ومن زعم أنه غير مخلوق فهو مبتدع » .

وقال فريق آخر من العلماء . إنه كان يرى أن القرآن بحروفه وكلاته. وعباراته وممانيه غير مخلوق ، واستدلوا على ذلك ببعض عبارات وردت فى رسالة . كتبها إلى المتوكل عندما سأله عن ذلك ، وقد جاء فى هذه الرسالة مانصه : « قال .

<sup>(</sup>١) نسبة إلى الجهم بن صفوان ، لأنه بمن قال بخلق القرآن، وبنني صفة السكلام عن الله مد

تمالى: [وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ] وقال تمالى: [الآله الخلق والأمر] فأخبر بالخلق » ثم قال والأمر ، فأخبر أن الأمر غير الخلق » هذا بعض ماجاء في هذه الرسالة ، وكأنه يشير بالفرق بين الخلق والأمر بأن القرآن من أمر الله تعالى وكلامه وعلمه ، لامن خلقه ، فهو على هذا لا يعد مخلوقاً في نظره .

وقد جاء في هذه الرسالة أيضاً: « لقد روى عن غير واحد بمن مضي من سلفنا أنهم كانوا يقولون: القرآن كلام الله غير مخلوق. وهو الذى أذهب إليه ، لست بصاحب كلام ، ولا أرى المكلام في شيء من هذا ، إلا ماكان في كتاب الله، أو في حديث عن النبي صلى الله عليه وسلم أوعن أصحابه ، أو عن التابعين ، فأما غير ذلك فإن المكلام فيه غير محود » .

وهذه الرسالة قد كتبها بعد المحنة ، وبعد أن اطمأنت نفسه ؛وفبها التصريح بذلك ، وهذا بلاشك يزكى قول الذين يرون أنه كان ينتهى إلى أن القرآن غير مخلوق .

٢٢ ـــ و عند النظر في التوفيق بين الرأيين نقرر حقيقتين :

أولاها — أن أحمد في أول أمره كان يتوقف عن القول بأن القرآن مخلوق، أو غير مخلوق، لأنه يرى أن ذلك بدعة من القول، ولسكنه بعد أن زالت المحنة ماكان يستطيع أن يستمر على توقفه، بل لا بدأن يدلى بقوله مؤيداً أحد الاتجاهبن، وقد طلب إليه المتوكل ذلك، فاختار ما رآه أسلم فى نظره، وهو أن يقول إن القرآن ليس بمخلوق، وليس معنى ذلك أنه قديم، فإنه لم يؤثر عنه أنه قال إنه قديم ولسكنه تعفف عن أن يقول إنه مخلوق، لأنه كلام الله ولأنه من علم الله تمالى، ولأن الله نسبه إليه على أنه من كلامه ومن أمره، ومن خلقه.

وإذا انتهينا إلى أن الخلاف حول التسمية يكونخلافا يسيرا ، وإن ترتبت. عليه كل هذه المحنة .

الحقيقة الشانية \_ أن أحمد مع أنه أدلى بهذا الرأى فى آخر حيانه كان. مع ذلك ينهى عن الخوض فى هذا الوضوع ، ولقد روى فى صدر رسالته إلى. المتوكل الروايات الكثيرة عن الصحابة الكرام ، وعن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لا تماروا فى القرآن ، فإن مراء فيه كفر » .

وروى فى ذلك أن ابن عباس كان يخشى من المسارعة إلى القرآن والكلام، فيه ، فسأله أمير المؤمنين عرعن ذلك ؟ فقال : باأمير المؤمنين ، متى يتسارعوا هذه. المسارعة يحتقوا ، ومتى يختصموا ، ومتى يختصموا يختلفوا ، ومتى يختلفوا ، قال الإمام عمر : لله أبوك ، والله إن كنت لأكتمها. الناس حتى جئت » .

٣٣ ـ وبهذا انتهى من الـكلام فى رأى أحمد رضى الله عنه إلى أنه يرى. أن القرآن غير مخلوق، ولا يوجد فى كلامه ما يدل على أنه يرى أنه قديم ، ولـكن وجد من قال ذلك من بعده ، وأنه يرى أن الخوض فى هذا غير جائز، وماكان يسوغ لنفسه الخوض ، لولا أن المتوكل طلب أن يبدى رأيه ، فبين. أنه يرى أن القرآن غير مخلوق ، لأنه لم يرد عن السلف أنهم قالوا إنه مخلوق ، ولأنه يتملق بأمر الله ، وأمر الله غير خلقه .

ولكن أهو قديم ؟ وللإجابة على هذا السؤال ، نقول إن القرآن. له ناحيتان:

إحداها \_ معانيه وهي متعلقة بعلم الله تعالى الأزلى ، فهى من علمه تعالى ،. وعلمه قديم ، لأن صفات الله تعالى قديمة . والثانى ـ ما يتملق بألفاظه وحروفه التي أوحى بها إلى النبى صلى الله عليه وسلم عن طريق روحه الأمين ، جبريل ، وقد قرأها للنبي وأقرأها النبى للصحابة . وهؤلاء أقرءوها للتابيين ، وتواترت القراءة والإقراء بها ، وهذه نرى أنهـ المخلوقة لله تمالى ، وذلك لا ينافى أن القرآن من عند الله ، وأنه ممجزة النبى صلى الله عليه وسلم ، التي تحدى المشركين أن يأتوا بمثله ، أو بعشر سور منها ولو مفتراة ، فعجزوا .

## معيشة أحمد

75 ــ سردنا حياة الإمام أحمد ، وما نزل به من محن ، ولم نتمرض لمورد رزقه ، ومعيشته أكان في بسطة من الرزق أم كان مقدور الرزق يعيش عيشة القل ، وهل كان يقبل عطايا الخلفاء والأمراء .

هذه أسئلة لا بد من الجواب عنها:

عاش أحمد فقيراً محدوداً ولم يكن مجدوداً ذا مالوفير، وكان يؤثر الخصاصة على أن يكون ذا مال لا يعرف مورده ، كما كان ينفر من أن يكون لأحد عليه يد ، فتناله منة العطاء .

وكثيراً ما كانت تضطره الحاجة لأن يعمل بيده ليكسب قو ته أو يؤجر نفسه في عمل يعمله إذا انقطع به الطريق ، ولم يكن معه ما ينفق منه . وكان يؤثر ذلك السكد واللفوب على أن يقبل عطاء ، فإن العطاء في مثل هذه الشدة وممن يعجز عن مكافأته لا يستطيع أن يتحمله أحمد الأبي العيوف ، وبذلك حرر نفسه ، وأ تعب جسمه ، تلك كانت حاله دائما ، عند ما يتردد بين تعب الجسم ، وتعب الغفس.

وأما من جهة مورد زوقه المعتاد ، فإنه كان يميش من غلة عقار قد تركه له

أبوه ، وجاء في المفاقب لابن الجوزى : «كان أحمد رضى الله قد خلف له أ بوه طرزا ، وكان يأكل من خلة تلك الطرز ، ويتعفف بكرائها عن الناس » (١٠).

ولعل هذه الطوز هي التي عبر عنها بالحوانيت في كتب أخرى ، فقد جاء في حلية الأولياء لابن نعيم « وقع من أحمد بن حنبل مقراض في البئر ، فيجاء ساكن له فأخرجه ، فلما أخرجه فاوله أبو عبد الله مقدار نصف درهم أو أقل أو أكثر . فقال : المقراض يساوى قيراطاً ، لا آخذ شيئاً وخرج ، فلماكان بعد أيام قال له : « كم عليك من كراء الحانوت ! قال كراء فلماكان بعد أيام قال له : « كم عليك من كراء الحانوت ! قال كراء ملائة أشهر ، وكراؤه في كل شهر ثلاثة دراهم ، فضرب على حسابه ، وقال أنت في حل » .

وترى من هذه القصة أن ذلك الأبي العفيف كان يقدر مروءة الرجال حق قدرها ، فقد رأى من ذلك الساكن هذه المروءة ، ووجده فقيرا في حاجة إذ عجز عن السداد ثلاثة أشهر ، فأعفاه وحفظ مروءته .

و إن هذه الغلة التي كان يميش منها أحمد قدرها ابن كثير بسبعة عشر درها فقد جاء في تاريخه : «كانت غلته من ملك له في كل شهر سبعه عشر درها ، منفقها على عياله ، ويتقنع بذلك ، رحمه الله صابراً محتسباً » .

وهذه بلاشك غلة ضئيلة ،وسواء أصح ذلك المقدار الذى رواه ابن كثير أم لم يصح فالأخبار متضافرة على أنها ضئيلة لا تسكاد تسكنى حاجته ، لولا فرط القناعة والصبر .

٢٥ ــ كان هذا القدر اليسير من المال يتقنع به ، ويحمد الله تعالى عليه ،

<sup>(</sup>١) الطرز بضم الراء جمع طراز ، وهو الموضع الذى تنسج فيه الثياب ، وهو ما نسميه الآن الدنبر ، فيظهر ان احمد ورث هذه الطرز ، وكمان يستأجرها ، ويأكل من أجرتها .

. ولا يرضى معه أن يأخذ من أحد عطاء ، ولا أن يقبل معونة .

وإذا لم يكفه ذلك المورد الصئيل كان يسلك أحد المسالك الثلاثة الآتية:
أولها \_أن يلجأ إلى الاقتراض، وكان ذلك إذا كان ينتظر غلة قريبة من ذلك المورد الضئيل وحيث يستوثق من أن المقرض يعطيه دينا ولا يعطيه عطاء، وكان يلجأ إلى هذا في الحضر لا في السفر، وما كان يستقرض إلا من أهل التتى الذين يعرف طيب مالهم، وأنه حلال لا ريبة فيه » ويروى أنه استقرض مرة من بعض معاصريه مائتى درهم ، فذهب إليه بردها ، فقال يا أبا عبد الله مادفعتها ، وأنا أنوى أن آخذها منك فقال أحمد: وأنا ما أخذتها إلا وأنا أنوى أن أردها إليك .

المسلك الثانى \_ أن يتقدم للعمل ، ولا يجد غضاضة فى أن يعمل مهما يكن نوع العمل لأن كل عمل شريف فى ذاته ما دام يجعل اليد هى العليا ، ولا يجعلها السفلى ، فلا صغار فى عمل يمليه الدين ما دام يرفع الإنسان عن خسة التناول من أموالهم .

وقد رأينا أنه كان يؤجر نفسه للحمل إذا انقطع به السبيل ، وكان ينسخ بالأجر في السفر ، إن ضاقت به الحال ، وقد جاء في تاريخ الذهبي ما نصه:

لا كان لنا جار ، فأخرج لنا كتاباً ، فقال : تعرفون هذا الخط ؟ قلنا هذا خط أحمد بن حنبل ؟ فكيف كتب لك ؟ قال كنا بمكة مقيمين عند سفيان ابن عيينة ، ففقدنا أحمد أياما ، ثم جننا لنسأل عنه ، فإذا الباب مردود عليه ، فقلت ما خبرك ؟ قال : سرقت ثيابى . فقلت : معى دنانير ، فإن شئت صلة وإن شئت قرضا ، فأبى ، فقلت تكتب لى بأجرة ؟ قال نعم؟ فأخرجت دينارا ؟ فقال اشتر لى ثوباً واقطعه نصفين : يعنى إزارا ورداء ، وجننى بورق ، ففعلت ، وجئت بورق ، ففعلت ،

وقد كان أحيانا ينسج بمض المنسوجات السهلة ، ولقد حكى الذهبى عن. إسحق بن راهويه أنه قال :

» كنت أنا وأحمد بالبمن عند عبد الرازق ، وكنت أنا فوق الفرفة، وهو أسفل م وكنت إذا جئت إلى موضع اشتريت جارية ، فاطلعت على أن نفقة أحمد فنيت ، فمرضت عليه فامتنع ، فقلت إن شئت قرضاً ، وإن شئت صلة ، فأبى ، فنظرت إليه ، فإذا هو ينسج الشكك ، ويبيع وينفق (١) .

المسلك الثالث — أن يلتقط بقايا الزرع الذي يكون في حسكم المباح ، فيكان ذلك العالم الجليل المحدث يحمل على عاتقه ، ويذهب فيجمع يقايا الزرع الذي يترك في الأرض مباحاً ، وكان حريصاً على ألا ينزل في أرض أحد إلا بإذنه ، ولذلك يروى عنه أنه قال : «خرجت إلى الثفر على قدمي ، فالتقطما وقد رأيت قوما يفسدون مزارع الناس ، لا ينبغي لأحد أن أن يدخل مزرعة رجل إلا بإذنه (٢) » ،

#### رفضه عطاء الخلفاء والولاية :

٣٦ - هذا هو أحمد الذى شرق اسمه وغرب فى حياته ، والذى لاتزال الأجيال تذكره بعد وفاته بقرون ، والذى ترك تلك التركه المثرية من العلم ، ولم يترك شيئًا من حطام الدنيا ، ولا بقية من يقاياها الفانية ، ما غض من مقامه العمل ، بل زاده رفعة فى الأجيال ، لأن المادة و إن غلبت على نفوس الناس لا يزالون يقدرون المعانى الروحية والعقلية ، فإن عجزوا عن تحقيقها فى أنفسهم

<sup>(</sup>١) راجع ترجمة احمد للذهبي الملشورةفي مقدمة المسند بتحقيق المرحومالأستاذ. الشبيخ احمد شاكر

<sup>(</sup>٢) المناقب لابن الجوزى .

يمجبون بها فى غيرهم ، إن كان عندهم بقية من الإنصاف والمعانى الإنسانية .

وإنه ليزداد الإكبار ، إذا علمنا أنه كان يتعفف عن أمرين :

أحدها – أن يتولى ولاية .

وثمانيهما -- أن يأخذ عطاء من وال أو خليفة .

وهما يروى بالنسبة للولاية أن الشافعي عندما جاء إلى بنداد حوالى سنةه ١٠٠ وهي القدمة التي أقام فيها ، ونشر مذهبه بها كان أحمد قد التزم مجلسه ، ماكان يفارقه إلا لطلب حديث في السفر أو بغداد ، ولاحظ الشافعي أنه كان يرحل إلى اليمن لطلب الرواية عن عبدالرازق بن هام كا أشرنا من قبل ، فلاحظ عظم المشقة التي يتحملها أحمد وكان الشافعي مكينا عند الأمين ، وقد كلفه أن يختار قاضياً لليمن ، فاختار الشافعي أحمد ليسهل عليه السماع من عبد الرازق ، من غير مشقة ، وعرض على أحسد ، فرفض ، فكرر الشافعي العرض ، فقال من غير مشقة ، وعرض على أحسد ، فرفض ، فكرر الشافعي العرض ، فقال أحمد في حزم لشيخه الذي يجله : « يا أبا عبد الله ، إن سمست منك هذا ثانية لم , ترني عندك (1) » .

وترى من هذا أنه رفض ذلك العرض الذى عرضه عليه شيخه ، لأنه لا يرى العمل لسلطان لا يراه كامل العدالة ، وهنا نجده يختلف عن شيخه ، فشيخه مع إدراكه لمقدار عدل الحسكام قبل ولاية باليمن استمر فيها نحو أربع سنين ، فهل كان دونه تورعا ؟ والجواب عن ذلك أن الشافعي يرى أن إقامة العدل واجبة ، فلو دعى لإقامته ، ولو كان الداعى له غدير عادل في ذاته تقدم ؟ لأنه إن عمل لا يعمل لحساب من ولاه ، إنّما يعمل لله . ولا يغض من عدالته أن يكون من ولاه غير عادل، فعمر بن عبدالعزيز ، وهو من نعلم إيماناوتتي وعدلاً

<sup>(</sup>١) المناقب ص ٢٧١ .

قبل ولاية العهد عن سليمان بن عبد الملك، وماكان سليمان إلا كبقية بني أمية . فأ دام الولى يجد في نفسه السكفاية للعدل تولى .

هذا نظر الشافى ، أما أحمد ومثله من قبل أبو حنيفة فقد كان يرى فى التولى من قبل الظالمين معاونة لهم وأكلاً من مال جمعوه بغير حله ، ولذلك رفضا تورعا . وابتمادا عن كل معاونة لمن لا يرونه عدلا .

٢٧ -- ومع رفض أحمد الولاية كان يرفض كل عطاء يجيئه من قبل الخلافة أو الوالى .

وفى الحق إن الفقهاء كمانوا بالنسبة لذلك ثلاثة أقسام :

القسم الأول - يتعفف عن مال السلطان والخلافة ، ويرفض أن يأخذ ، ويشدد في الرفض ، ومن هؤلاء أبو حنيفة والثورى ، فأبو حنيفة كان يُمتنع ، وهو يعلم أن في الامتناع تعريض نفسه للتاف ، لأن المصور كان يختبر مقدار ولائه بقبوله لعطائه ، فهؤلاء يرفضون الولاية ، ويرفضون العطاء معا .

والقسم الثانى — يقبل عطاء الخلفاء ويستهين به فى سد حاجات الموزين ، وإعانة من يحتاج إلى معونة من أهل العلم ، وفى أن يعيش عيشة تليق بكرامة العلم ، وأهل الدين من غير إسراف ولا تبذير ، وعلى رأس هؤلاء الحسن البصرى ، ومالك رضى الله عنهما ، لأنه مال المسلمين ، ومن أحق به من أهل العلم والدين الذين وقفوا أنفسهم على تعليم الناس أمور دينهم وهم فى ذلك كالجند قد وقفوا أنفسهم لحاية الثغور من الأعداء ، فإنه إذا كان الجند يحمون الثنور ويصدون الأعداء ، فإنه إذا كان الجند يحمون الثنور ويصدون الأعداء ، فالعلماء لمنع الضلال ، ولئلا يثلم الدين الثلم الذى يصل إلى وتلوب الأمة [ فتزل قدم بعد ثبوتها ] فهؤلاء يقبلون عطاء الخلفاء ولايتدلون وأخذوا من الولاة .

والقسم الثالث — يقبل الولاية ، ويأخذ العطاء ويتصدق به ، ومن هذا · القسم الشافعي وقد أبي أن يأكل من آي عطاء إلى أن أخرج له في مصر عطاؤه . من بني المطلب الذي كان خمس الخمس من الغنائم .

ولا شك أن أحمد اختار مسلك أبى حنيفة مع أنه كان يوالى بنى العباس، ولا يخرج عليهم، فلم يقبل عطاء قبل الحجمة ولا بعدها، كا لم يقبل الولاية قبلها ولا بعدها، ولكنه كان يضطر أحياناً إلى قبول العطاء، ولكن لا يدخله. في منزله، بل كان يوزعه بين المحتاجين، ويروى في ذلك أن وزير المتوكل. كتب له: إن أمير المؤمنين قد وجه إليك جائزة، ويأمرك بالخروج إليه، فالله الله أن تستعنى، أو ترد المال، فيتسع القول لمن يبغضك (١) ».

وعندئذ يضطر أحمد إلى القبول ، ليدفع عن نفسه ظلم السعاية ، ولكنه لا يمس ما يقبله ، بل يأمر ولده صالحاً بأخذه وتوزيعه على أهل التجمل ، ومن يعرفهم من أبنساء المهاجرين والأنصار ، وكأنه يرى أنهم أولى بهذا المال منه ، وفوق ذلك إنه يرى أن المال الذى يشك فى خبئه ، أو أنه ليس يطيب يكون مصرفه هو الصدقة ، تطهيرا للنفس ، وإبعادا عن موضع الارتياب عملا بقول النبى صلى الله عليه وسلم : (دع ما يريبك إلى مالا يريبك) .

ومع كل ذلك لم تنقطع السعاية ولكن المتوكل يقطعها قطعًا حاسمًا ،. كما تدل على ذلك هذه القصة ، فإن قوما من دعاة الشر قالوا للمتوكل: « إن. أحمد لا يأكل من طعامك ، ولا يجلس على فراشك ، ويحرم هذا الشراب الذى. تشرب ، فيقول المعتصم للنّام الواشى قولا حاسما قاطعًا لـكل مشاء بنميم ت

<sup>(</sup>١) المناقب .

• ﴿ لُونَشُرُ المُعتَّصِمُ مِن قَبْرُهِ . وقال لَى فَيهُ شَيْئًا لَمُ أَقْبِلُهِ ﴾ (١) .

وعند ما بلغ أحمد هذه المنزلة من ثقة المتوكل ، سكت الوشاة ، وأعطاء المتوكل حرية كاملة فى أن يقبل العطاء أو يرده ، ولذلك كان يرد من بعد هذا كل عطاء ، و إنه يروى أن المتوكل وجه إليه ألف دينار ليوزعها على أهل الحاجة . فقال رضى الله عنه : « أنا فى البيت منقطع عن الناس، وقد أعفانى أمير المؤمنين مما أكره ، وهذا مما أكره » .

- حمل الأخذ ، لم يهدأ بال ذلك العالم الجليل ، لأن أولاده وذوى قرباه كانوا الحله على الأخذ ، لم يهدأ بال ذلك العالم الجليل ، لأن أولاده وذوى قرباه كانوا يأخذون من مال الخليفة ، ولعلهم يأخذون باسم هذه القرابة ، ولكن أحدكان ينهاهم فلا ينتهون ، وكان يقول لهم: « لم تأخذونه ، والثغور معطلة غير مشحونة ، والنيء غير مقسوم بين أهله (٢) » .

ثم إنه يقاطعهم ولا يؤاكلهم ، حتى إنه لا يأكل الخبزالذى يخبز في تنورهم، فإنه يروى أنه قد خبز له خبز في تنور مسجور في بيت ولده ، فرفض تناوله ، لأنه يأخذ جو أثر السلطان ، ويبلغ الخليفة ذلك ، فلا يفضب ، إذ عرف إيمانه وإخلاصه ، ويقول : « إن أحد لهينمنا من بر ولده » ثم يأمر بإعطاء أولاده وأقاربه خفية عنه » .

ومع هذا النشدد فى الامتناع عن الأخذ من مال السلطان ما كان يعلن أنه كسب حرام ، بل كان يتشكك فقط ، و بروى فى هذا أنه دخل على ابنه يعوده ، وهو مريض ، فقال: يا أبت عندنا شى وقد يقى هما كان يبرنا به المتوكل ، أفاحج منه ؟ قال : نعم . قال: فإذا كان هكذا عندك ، فلم لاتأخذه ، قال : يايني ليس هو عندى محرام ، ولكنى تنزهت عنه (٢).

<sup>(</sup>١) المناقب ص ٣٦٩. (٢) المناقب ص ٣٨٤. (٣) المناقب ص ٣٨٥.

إذن فأحمد ما كان يقطع بأن قبول العطاء من الخلفاء حرام ، ولكنه كان يشتبه ، وحيثًا اشتبه فإنه ينزه نفسه ، وفوق ذلك فإنه ماكان يقبل العطاء من الخلفاء خشية منة العطاء ، فكيف يقبله من الخلفاء والأمراء .

وهكذا نجد الإمام أحمد يميش زاهدا وفيا لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان زاهدا متبتلا عليه وسلم ، وكان زاهدا متبتلا خاشماً خاضماً ، لا يهمه إلا الاقتداء بالرسول صلى الله عليه وسلم ، حتى إنه ليتسرى بإحدى الجوارى ، لأنه علم أن النبي صلى الله عليه وسلم تسرى بمارية القبطية ، فخشى أن يكون امتناعه عن التسرى ابتعادا عن السنة ، ولذلك استأذن زوجه في ذلك فأذنت له .

وكان يستهين بكل عذاب في سبيل أن يستمسك بسنة النبي صلى الله عليه وسلم ، ولا يعرض عنها ، بل يستمر في الأخذ بمنهاج السلف الصالح مهما ينزل به من محن ، يستعذب أشد العذاب في سبيل التمسك بما أثر عن السلف ، يترك القول فيا تركوا القول فيه ، ويتكلم فيا تكلموا بكلامهم لايخرج عنهم قيد أنملة ، واستمر يعلو بهذه الزهادة وبذلك الاتباع ، حتى صار بحق إمام دار السلام ، يقصده العلماء من مشارق الأرض ومفاربها طالبين للحديث ، وطالبين لفقهه ، واستمر رضى الله عنه في ذلك المجد العلمي ، مع العيش الذي كان قد اختاره ، وهو عيش الفقر ، فازداد بذلك قدرا وعلوا ومنزلة بين الناس .

ولذلك لما توفى سنة ٢٤١ شيمته بفداد كلمها تقديرا لعلمه وزهده ، و تكريما . لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعلم السلف الصالح الذى كنان يجمعه ذلك الإمام الجليل ، ويحييه ويدعو له ، ويستمسك به ، ويترك ماسواه .

#### صفاته

٣٠ -- لحمناجزءاً من صفات أحمد ، فى أثناء سرد حياته ، ولكن ماكان. بالإشارة نبينه الآن بالعبارة ، فى عبارات جامعة ، لا فى إشارات لامحة .

إن صفات أحمد بمضها هبات من الله تعالى ، وبعضها اكتسبها بالرياضة: النفسية والتوجيه ، ولنذكر صفاته بنوعيها .

وأول هذه الصفات حافظة قوية واعية ، وهى صفة عامة فى المحدثين ، وأهل الإمامة عنهم بشكل خاص ، وهى الأساس لكل علم ، فلابد لأهل العلم أن يكون عندهم طائفة من موضوع علمهم ، حفظوها يبنون عليها ، ويستنبطون منها وإن علم النفس فى حاضره وماضيه يقرر أن مقياس الذكاء يكون بالحافظة ، وحضور البديهة التى تثير المعلومات فى الوقت المناسب .

ولقد آتى الله أحمد من هذه الصفات حظا وفيرا ، والأخبار فى ذلك متضافر قد يؤيد بعضها بعضا .

ولقد شهد بقوة حفظه معاصروه حتى عد أحفظهم ، وقد قيل لأبى زرعة :ـ « من رأيت من المشايخ والمحدثين احفظ ؟ قال أحمد بن حنبل .

وكان مع حفظه لأحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، وسنة أصحابه وفتاويهم . وأقوال التابعين وفتاويهم — يتفهم كل مايحفظ تفهم العارف. المستنبط الذي يبني على ماعرف. ولقد امتاز بذلك على سأتر محدثي عصره، فقد كانوا يكتفون بالرواية دون الفقه والدراية ، وتركوا الاستنباط للفقهاء أما أحمد فكان يعني بفقه الآثار ، كاكان الحاقظ الراوي . ويقول في ذلك معاصره . ورفيقه في بعض رحلاته اسحق بن راهويه : «كنت أجالس بالعراق أحمد بن حنبل . ويحيى بن معين ، وأصحابنا ، فأقول : ما مراده ؟ ما تفسيره ؟

مافقهه ، فيقفون كلهم إلا أحمد بن حنبل » . وقد قال فى ذلك تلميذه إبراهيم الحربى : « أدركت ثلاثًا لم ير مثلهم ، رأيت عبد الله بن سلام ، ما أمثله إلا بجبل نفخ فيه روح ، ورأيت بشر بن الحارث ، فما شبهته إلا برجل عجن من قرنه إلى قدمه عقلا ، ورأيت أحمد بن حنبل ، فرأيت كأن الله جمع له علم الأولين والآخرين من كل صنف ، يقول ما شاء و يمسك ما شاء .

٣١- والصغة الثانية . وهي أبرز صفات أحد، وهي التي أذاعت ذكره، وهي صفة الصبر والجلد، وهي ثمرة لعدة من السجايا الكريمة ، أساسها قوة الإرادة وصدق العزيمة ، وبعدالهمة مهما يتعب الجسم فيذلك، ولقد كانت هذه الصفة المزاج الخلق الذي اختص يه الإمام أحد فقد جمع بها بين الفقر والجود والمفة والعزة ، والإباء والمفو ، واحمال الأذى ، وهي التي جعلته يحتمل الرحلات وما فيها من مشقة — في طلب الحديث ، والأخذ عن رجاله ، وهي التي جعلته لا يتقبل منة العطاء ويؤجر نفسه لحمل الأثقال وللنسخ ، ولم حملته على أن يتعرف بعض الصناعات لياً كل منها ، إن قل ما يجيء إليه من غلة عقاره .

وهذه الصفة هي التي تحمل بها البلاء الأكبر الذي نزل به في نحو ثمانية وعشرين شهرا ، من ضرب مبرح وسجن مضيق ، ثم جعلته يتحمل الانقطاع عن الناس، والامتناع عن التحديث وشرح مسائل الدين طول مدة الوائق أو جلها .

ويجب أن نذكر هنا أن صبر أحمد بن حنبل كان من نوع الصبر الجميل ، وهو الصبر من غير أنين ولا ضجر ولاشكوى ، وكان ذا جنان ثابت ، لايفزعه أمر ، ويروى فى ذلك أنه فى أيام المحنة دخل على الخليقة يستجوبه ، وقدهو لوا عليه لينطق بما يريدون ، وينجيه ، وقدضر بوا عنق رجلين ليرهبوه ، ولكنه فى وسط ذلك المنظر المروع وقع نظره على بعض أصحاب الشافعى ، فسأله : « أى في وسط ذلك المنظر المروع وقع نظره على بعض أصحاب الشافعى ، فسأله : « أى

شىء تحفظ عن الشافعى فى المسح على الخفين ، فأثار ذلك دهشة الحاضرين . وراعهم ذلك الجنان الثابت ، حتى لقد قال خصمه المنيد أحمد بن أبى دؤاد : لا انظروا رجلا هو ذا يقدم لضرب عنقه فيناظر فى الفقه » (١).

وإن السر فى ذلك أن الرجل قد اعتر بالله تمالى وحده ، وتو كل عليه وحده ، ونظر إلى ما عنده ، ولم ينظر إلى ماعند الناس ، ولم يحس بعظمة غير عظمة الله ، وبذلك علا عن مستوى من كانوا يؤذونه ، واستهان بالشدائد ومنزليها ، واستهان بالحياة ومتمها ، فرضى من متاعها بالقليل ، ولم يقنع من العمل لله بغير السكثير الوقير .

والعلوه عن مستوى الملوك وأذنابهم ، لم ير لهم اعتبارا بجوار الله تعالى .

ولا عتزازه بالله كان متواضعاً متطامناً للناس مقيلا لعثراتهم ، فإن المعتز بغير الله يكون غليظ العنق مستكبرا والمعتز بالله يكون طيب النفس ، ويكون كثير العفو ، فكان رضى الله عنه يعمل بما رواه عن النبي صلى الله عليه وسلم ، ويدركه ، إذ روى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : ( ما نقص مال من صدقه ، وما زاد عبد بعفو إلا عزا ومن تواضع لله رفعه الله ) .

۲۲ — والصفة الثالثة من صفات أحدرضى الله عنه النزاهة بأوسع معانيها بوجيع أشكالها وصورها ، فهو نزه النفس فلم يأخذ قليلا ولاكثيراً من مال غيره ، وكان عنيفاً لا يخضع لهوى ، ولا تسيره شهوة ، وكان نزيها فى إيمانه ، فلم يجعل لأحد غير الله تعالى سلطانا ، وكان نزيها فى تفكيره ، فلم يقبل أن يخوض فى أمر لم يخض فيه السلف الصالح ، وكان نزيها فى بيانه فما ارتضى أن يتكلم بغير ما يعتقد ، ولمتى فى ذلك الأذى والعنت الشديد ، وكان نزيها

<sup>(</sup>١) حلية الأولياء جه ص ١٨٦.

افى فقهه ، فلم يسمج لنفسه أن يوازن بين أقوال الصحابة إذا اختلفوا ، بل يعتبر كل قول لأحدهم قولا له ، وكذلك التابعون وقف منهم ذلك الموقف .

ولقد رفعته هذه النزاهة أن يترك بعض الحلال ، فلم يأخذ عطاء حتى من صديق ، ولا من أمير ، ولا خليفة مع تصريحه لبعض أولاده بأن ذلك بصح الحج منه ، وأنه يترك الأخذ منه تنزيها للنفس .

وماكان زهد أحمد أو نزاهته زهداً عن طيبات الحياة ، بلكان يطلب الحلال ، وينتفع به ، والكنه لا يطلب ما فيه شبهة ، ولو ضؤلت .

وكان يرى أن الزهد الذى يلين القاوب ، ويرقق النفوس ليس هو الامتناع من الحلال الذى لا شك فيه ، بل في طلب الحلال الذى لا شك فيه ،

يروى فى ذلك أن أبا حفص عمر بن صالح الطرسوس قال: « ذهبت إلى أبى عبدالله فسألته بم تلين القلوب، فأبصر إلى أسحابه ثم أطرق ساعة ، ثم قال: وابنى بأكل الحلال ، فررت إلى أبى نصر بشر بن الحارث ، فقلت له يا أبانصر بم تلين القلوب ؟ قال : [ألا بذكر الله تطمئن القلوب] ، قلت فإنى جئت من عند أبى عبدالله ، فقال هيه ايش قال لك أبو عبد الله قلت : قال بأكل الحلال . فقال قد جاء بالأصل ، فمررت بعبد الوهاب بن أبى الحسن ، وقات بم تلين فقال قد جاء بالأصل ، فمررت بعبد الوهاب بن أبى الحسن ، وقات بم تلين القلوب ؟ قال : [ ألا بذكر الله تطمئن القلوب ] قلت فإنى جئت من عند أبى عبدالله ، فقلت قال بأكل الحلال ، فقال جاءك بالجوهر ، الأصل كما قال » .

وكان رحمه الله تعالى يرى أن الاقتصار على الحلال الخالص من كل شبهه مرتبة هي من أعلى المرانب نبلا، لا يقوى عليها إلا أولو العزم من الرجال ويرى أن القوة الحقيقية المانسان ليست في قوة البدن، ولكن في الاستيلاء على النفس، وحلها على الاقتصار على الحلال الطيب ، ولقد سئل مرة عن الفتوة ، فقال : هإنها ترك ما هوى الم تخشى،

وإن الاقتصار على الحلال النزه هو وسط بين الحرمان المطلق الذي نهي. الله تعالى عنه في قوله تعالى : [يا أيها الذين آمنوا لاتحرموا طيبات ما أحل الله له أو الرقوع الله له أو الرقوع الله له أو الرقوع في حمى المحرمات ، والترامه مشقة نفية ، لأن النفس طلعة تقطلع للمتم ، فإما أن تحرم تطلعها ، وإما أن تجاب فتقع في المحظور ، والوقوف عند نقطة الوسط من غير الحراف ولا ذلل محتاج إلى ضبط وقوة نفس .

٧٧ - والصفة الرابعة التي امتاز بها أحمد هي الصفة التي امتاز بها كل الأثمة الأعلام ، وهي الإخلاص ، ولقد أتي الله تعالى الإمام أحمد حظا كبيرا من الإخلاص ، في طلب علم الكتاب والسنة ، فما سيطر عليه هوى عند طلبه، وما أراد أن ببتدع أمرا غير ما سلكه السلف الصالح في طلبه ، فإن هذا العلم دين ، يكون الاتباع فيه واجبا من غير أي ابتداع ، وما طلب هذا العلم لنيل جاه ، أو شهره ، فكان يقول: « أريد النزول بمكة ، ألتي نفسي في شعب من علك الشعاب ، حتى لا أعرف ، وكان ينفس على العلماء الذين أخل ذكرهم ، فيقول طوبي لمن أخل الله تعالى ذكره ، وكان يعتقد أن الافتخار بالتقوى بنقصها ، ولقد قال يحيى بن معين : « ما رأيت مثل أحمد بن حنبل، صبته خسين . ينقصها ، ولقد قال يحيى بن معين : « ما رأيت مثل أحمد بن حنبل، صبته خسين .

وأشد ما بغض إليه الرياء ، فلم يراء في عمل ، ولا عبادة ، ولا طلب للملم وقد كان دقيقاً في منع الرياء ، حتى إنه كان يمد حمل أدوات العلم من العالم أو الطالب رياء فيقول: « إظهار الحجرة من الرياء » ، ولذلك كان لا يظهرها .

وكان رضى الله عنه يستقل ما قدم في سبيل كتاب الله تعالى وسنة الرسول. صلى الله عليه وسلم والسلف الصالح ، كاكان يستقل ما نزل به في سبيل المحافظة.

<sup>(</sup>١) حلية الأولياء جهص ١٨١.

على الدين ، ولا يستكثره ، لقوة وجدانه الدينى ، وإن النفس اللوامة نتهم -ضاحها بالتقصير ولا تدل بالعبادة .

٣٤ - والصفة الخامسة التي امتاز بها أحمد ، وجعلت لكلامه وروايته موقعها في النفوس ــ الهيبة مع الثقة الطلقة به ، فقد كان رضى الله عنه مهيباً ، من غير زهبة ، وكان رجال الشرطة يهابونه عندما يساورون داره ، فإنه يروى أن الشرطي الذي كان يناط به القيام بالليل على باب داره ، ذهب ليناديه ، فهاب أن يطرق بابه ، وآثر أن يطرق باب عمه ، ويصل إليه من ذلك الباب ، "بمد أن تستأنس نفسه باللقاء المهيب.

وأما هيبة تلاميذه ، فكانت أعظم من ذلك ، مع أنه كان الأليف المألوف بينهم ، ولقد قال فى ذلك أحد تلاميذه «كنا نهاب أن نرد أحمد فى شىء ، أو نحاجه فى شىء من الأشياء .

ولقد قال أحد تلاميذه: « ما رأيت أهيب من أحدد بن حنبل ، صرت إليه أكله في شيء ، فوقعت على الرعدة حين رأيته من هيبته » ولقد كانت الحوال أحدد من شأنها أن تنبي هذه الهيبة ، وتقوى تأثيرها في النفوس ، فهو بفي جد مستمر ، لا يمزح ، حتى إنه ليحسب أن كل مزحة هي مجة من العقل ، أو غفوة من غفوات الضمير اللايني ، ولا يريد أن تخبو قوة وجدانه .

كان مجلسه لا لغو فيه ولا تأثيم ، لا يتكلم إلا فى علم القرآن والسنة أو يصمت ، ولا يذهب بالروعة والهيبة أكثر من لغو القول والمراء والسكاثرة . والمهاترة ، وقد تجافى أحمد عن كل ذلك ، وباعده عن قلبه ولسانه .

۳۵ - وكان مع هذه الهيبة حسن المشرة ، ولم يكن فظا غليظاً ، بلكان عطلق النفس والوجه ، كريم الخلق لينا ، وكان شديد الحياء ، يستحيى من الله تعالى حق الحياء فلا ينافق ولا يوارى ، ويستحيى من الناس فلا يأمرهم

ولا يكابره ، ويقول بعض معاصريه : » ما رأيت فى عصر أحمد ممن رأيت. أجمع منه ديانة ، وصيانة ، وملكا لنفسه ، وفقها ، وأدب نفس ، وكرم خلق و ثبات قلب ، وكرم جالسة ، وأبعد عن التماوت» .

٣٦ — هذه أخلاق أحمدوصفاته، وهي قبسة من الهدى النبوى الكريم، اتبع فيها هدى الرسول صلى الله عليه وسلم، واتخذ منه قدوة جسنة، فكان. يتمرف أخلاق الرسول صلوات الله وسلامه عليه، ويأخذ هنسه بها أخذا شديداً من غير مراءاة أو سعى وراء الشهرة التي كان يتململ منها إذ جاءته ه فكان الرفيق في قوله وفعله، وكان ذا الحياء المهيب، وكان المستكين لله ه المريز في الحق، الممتربه، وبالله العلى القدير.

# آراء أحمد وفقهه

٣٧ -- كان أحمد رجل سنة حافظا لها ، وجاءه الفقه عن طريقها ، ولكن مع ذلك أثرت عنه آراء حول بعض العقائد من غير أن يخوض في مجادلات فقهية ، منها رأيه في الإيمان ، ومنها رأيه في القدر وأفعال الإنسان ، ورأيه في مرتكب الكبيرة ، ومنها مسألة خلق القرآن ، وقد ذكرنا رأيه فيها عند المكلام في محنته ، ولنتكلم موجزين في الباقي .

## رأيه في الإيمان:

٣٨ -- خاض العاماء في عصره ، ومن قبله في حقيقة الإيمان ، فنهم من قال إنه التصديق والإذعان ، ولا يزيد ولا ينقص ، ومنهم من قال إنه يزيد ولا ينقص، وكان لا يد أن يدلى أحمد بدلوه من غير جدل ولا مهاترة ، وهو يستقى من السنة ، فالإيمان عنده اعتقاد جازم ، وإذعان ، وعمل ، وقد روى عنه أنه قال في ذلك :

«الإيمان قول وعل يزيد وينقص: زيادته إذا أحسنت، ونقصانه إذا أسأت ويخرج الرجل من الإيمان إلى الإسلام، فإن تاب رجع إلى الإيمان، ولايخرجه من الإسلام إلا الشرك بالله العظيم، أو يرد فريضة من الفرائض جاحدا لها، فإن تركها تهاونا بها وكسلاكان في مشيئة الله، إن شاء عذبه، وإن شاء عنا عنه ».

ومن هذا الكلام يتبين أن أحمد يرىأن هناك حقائق ثلاثاً يتديز بعضها عن بعض ، وهى الإيمان ، وهو تصديق بالقلب ونطق باللسان ، وعمل بالجوارح، والإسلام وهو ، يكون إذا تو افر التصديق والقول، وتخلف العمل من غير إشراك ولاجحود لأمر جاء به القرآن أوالسنة ، والكفر وهو الإشراك بالله أوجحود أمر من أوامر الدين أو نهى من نواهيه .

وهو في هــــذا الرأى يعتمد على النصوص وحدها، ولا يخوض في أمور عقلية .

## رأيه في مرتكب الكبيرة:

٣٩ - منذ آخر عهد الإمام على كرم وجهه والناس يخوضون فى حكم مرتكب السكبيرة ، لأن الخوارج حكموا بشركه ولجوا فى ذلك لجاجة شديدة ولذلك اختلف فى شأنه العلماء ، فقال : الحسن البصرى إنه منافق .

. وقال: المتحرفون من المرجئة لاتضر مع الإيمان معصية ، كما لايضر مع الكفر طاعة ، أى أنه لاعذاب ولا مؤاخذة .

وقال أبوحنيفة وأكثر الفقهاء: إن مرتكب الكبيرة إن تاب تو بة نصوحاً فإن الله يقبل تو بته كما وعد الله تعالى عبيده، وإن لم يتب فأمره مرجأ إلى ربه، إن شاء عذبه، وإن شاء عفا عنه.

والمعتزلة لا يعتبرون المرتسكب مؤمناً ، و يقولون: إنه في منزلة بين المنزلتين .
وأحمد رضى الله عنه رأيه كرأى الفقهاء ، وهو يقول: في وصف المؤمن :
« أرجأ ماغاب عنه من الأمور إلى الله ، وقوض أمره إليه ، ولم يقطع بالذنوب المصمة من عندالله ، وعلم أن كل شيء بقضاء الله وقدره ، الخير والشر جميماً ، ورجا لحسن أمة محمد ، وتخوف على مسيئهم ، ولم ينزل أحداً من أمة محمد الجنة بالإحسان ، ولا النار بذنب اكتسبه ، حتى يكون الله الذي ينزل خلقه حيث شاء » .

ونرى من هذا أنه يرجىء أمرالمصاة إلى الله تعانى، ولكن يتخوف علمهم.

ويرد على المعبرلة قولهم: إن مرتكب الكبيرة ليس بمؤمن ، فيقول : « فن كان منهم كذلك فقد زعم أن آدم كافر وأن إخوة يوسف حين كذبوا أبام كفار (١) » .

## رأيه فى القدر وأفعال الإنسان :

و كذلك كان منهاجه فى دراسة مسائل الدين هو منهاج السلف، لا يعتمد على المقل دون النقل ، فيقرر ما يقرره السلف ، ويكف عما كف عنه السلف ، وكذلك كان كلامه فى القضاء والقدر وأفعال الإنسان ، ينطق بما قرر السلف ، ولا يخوض فى أمر عقلى لم يخوضوا فيه ، ولا يجادل ولا يمارى ، انظر إلى قوله فى القدر ، إنه ينقل و يسكت فيقول .

« أُجَمَّ سبعون رجلا من التابعين وأثمة المسلمين وفقهاء الأمصار على أن السنة التي توفي عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم الرضا بقضاء الله ، والتسلم لأمره ، والصبر تحت حكمه ، والأخذ بما أمر الله به ، والبعد عما نهى عنه ، والإيمان بالقدر خيره وشره ، وترك المراء والجدال والخصومات في الدين (٢٦) » .

وبهذا تراه يقرر وجوب الإيمان بالقدر خيره وشره، ووجوب الطاعة، فالقدر لاينافى التكليف والاختيار فى الطاعة ، وإذا لم يصرح بذلك فكلامه يتضمنه .

و إنه يقرر أن الله تعالى يعلم كل مايفعله العباد، ويريده، ولا يمكن أن يقع في الكون مالايريد، ويبلغه عن بعض القدرية قولهم، فيستنكره، وينتهى دائمًا في كل أمر إلى أن يقرر رأيه فيقول:

« لست بصاحب كلام ، ولا أرى الـكلام في شيء من هذا ، إلا ما كان

(١) المناقب ص ١٦٨

فى كتاب أو سنة ، أو حديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أو عن أصحابه،. فأما غير ذلك فإن الكلام فيه غير محمود » .

### رأيه في الصفات

وغير ذلك مما وصف الله سبحانه و تعالى ذاته العلية بصفات ، فوصف ذاته العلية القدرة والإرادة ، والعلم والحياة والسمع والبصر وقال: [وكلم اللهموسى تكايا]، وغير ذلك مما وصف الله تعالى به ذاته العلية ، فيذكر أسمائه الحسنى، فأثبت أحمد لله تعالى كل ما جاء في القرآن والحديث ذكره من صفات الله تعالى ، فهو يصف الله تعالى بأنه سميع بصير متكلم قادر مريد عليم خبير لطيف ، عزيز حكيم السيس كثله شيء] ، ويذكر كل ماوصف به الله تعالى ذاته من غير محاولة تأويل ، كذلك. ما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وقد روى عنه ابنه عبد الله أنه قال : في أحاديث الصفات : « هذه الأحاديث ترويها كما جاءت » .

فهو لا يبحث عن كنه الصفات ولاعن حقيقتها ، ويعتبر التأويل خروجًا على السنة والقرآن ، إن لم يكن مستمدًا من أحدهما بالنص ، وذلك لأنه يرى أن اتباع للتشابه ابتفاء الفتنة ، وابتداع في الإسلام ، ولذلك يقول رضى الله عنه :

« صقة المؤمن إرجاء ما غابعته من الأمور إلى الله ، كاجاءت الأحاديث. عن النبي صلى الله عليه وسلم ، فيصدقها ولا يضرب لها الأمثّال (١٦) » .

27 — ونرى أحدق مسائل الاعتقاد النزم المنقول ، ولم يستخدم ما تنتجه المقول ، ذلك أنه كان رجل سنة ، ولم يكن رجل فلسفة ، فما كان يعتمد على القضايا الفلسفية ، والمعازع العقلية ، و إنه فوق ذلك ، العقول تتقاصر عما وراء المشاهد الحسوس ، فالناس من عهد الفلاسفة اليونانين إلى اليوم ، وهم في قول.

<sup>(</sup>١) الكتاب السابق.

مختلف بالنسبة لأمور الغيب أو لما وراء الطبيعة كما يقولون ، أو لما وراء المحسوس كما نقول .

فأحمد إذا اعتمد على النص الذى قام الدليل القاطع على أنه من عند الله ، وعلى كلام الرسول الذى قام الدليل القاطع أنه ينطق عن الله ـ قد آوى إلى ركن حصين ، وابتعد عن متاهات العقل وأوهامه ، ولم يشغل نفسه إلا بما فيه جدوى وعلم ينفع الناس في أعمالهم ، ومعاشهم ومعادهم، فترك مالا فائدة فيه إلى ما فيه الفائدة.

### آراؤه في السياسة :

27 ـ كان منهاجه فى دراسة المسائل المتعلقة بالسياسة منهاجاً سلفياً فكان فى شأن الخلافة والخلقاء يتبع ماعليه أكثر الصحابة والتابعين ، فهو يرى فىذلك اتباع ماسلكه السلف الصالح رضى الله تبارك و تعالى عنهم ، وإن ذلك الذى اتبعه السلف هو أنه كان يعمد بالخلافة لمن يراه صالحا من بعده ، على أن تكون السلف هو أنه كان يعمد بالخلافة لمن يراه صالحا من بعده ، على أن تكون الكلمة النهائية لمبايعة المؤمنين له ، فالنبى أشار إلى أبى بكر ، ولم يصرح ، وذلك لأنه اختاره لإمامة الصلاة ، فكان ذلك إشارة إلى أنه صالح لإمامة الدنيا أتم صلاحية ، ولذلك كانت عبارة الصحابة التي برروا بها مبايعته : « اختاره لأمر دنيانا » .

ولقد اختار أبو بكر عمر من بعده، وترك للناس الحق فى مبايعته فبايعوه واختار عمر ستة توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنهم راض، وترك لمؤلاء الستة أن يختاروا من بينهم واحدا يدعون السلمين إلى مبايعته، فاختار أربعة، منهم عمان رضى الله عنه، فبايعه السلمون، ومنهم على رضى الله عنه، كرم الله وجهه.

ويقر أحد الاختيار بالشورى لقوله تمالى : [ وأمرهم شورى بينهم ] وقد. كان أحد بمقتضى السنة يرى أن الخلافة النبوية تكون فى قريش . ولأحد رأى يتلاقى فيه مع سائر الفقهاء ، وهو جواز إمامة من تغلب ورضيه التناس ، وأقام الحسكم الصالح بينهم ، بل إنه يرى أكثر من ذلك ، إن من تغلب وإن كان فاجر اتجب طاعته ، حتى لاتسكون الفتن ، و إليك ماجاء فى إحدى رسائله «السمع والطاعة للأثمة ، وأمير المؤمنين البر والفاجر ، ومن ولى الخلافة فاجتمع عليه الناس ورضوا به ، ومن غلبهم بالسيف وسمى أمير المؤمنين مو الغزو ماض مع الأمراء إلى يوم القيامة ، البر والفاجر ، وقسمة الفىء وإقامة الحدود إلى الأثمة ، ليس لأحد أن يطمن عليهم ولا ينازعهم ، ودفع الصدقات الحدود إلى الأثمة ، ليس لأحد أن يطمن عليهم ولا ينازعهم ، ودفع الصدقات وخلف كل من ولى جائزة إمامته ، ومن أعادها فهو مبتدع تارك للآثار مخالف وخلف كل من ولى جائزة إمامته ، ومن أعادها فهو مبتدع تارك للآثار مخالف عليه ، وأقروا له بالخلافة بأى وجه من الوجوه كان بالرضا أو بالفلبة ، فقد شق عليه ، وأقروا له بالخلافة بأى وجه من الوجوه كان بالرضا أو بالفلبة ، فقد شق الخارج عصا المسلمين ، وخالف الآثار عن رسولى الله صلى الله عليه وسلم - فإن الخارج عليه مات ميتة جاهلية » (١)

هذه آراء تبدو غريبة ، لأنها تقر الظلم ، وتمتبر الخروج على الظالم خروجا عن الطاعة ، فكيف يقول أحدذلك ؟ لاشك أن أحد «لايقر ظلم الظالم، ويؤمن بأنه محاسب أمام الله تعالى على مقدار ظلمه ، وقد روى هو الأحاديث الكثيرة فى ذلك ، ولكنه ينظر فى هذه القضية إلى مصلحة المسلمين ، وأنه لا بدمن نظام مستقر ثابت ، وأن الخروج على هذا النظام يحل قوة الأمة ، ويقك عراها ، ولأنه رأى من أخبار الخوارج وفتنهم ماجعله يقرر أن النظام الثابت أولى، وأن الخروج عليه برتكب فيه من المظالم أضعاف ما يرتكبه الحاكم الظالم.

<sup>(</sup>١) المناقب لابن الجوزى من ٧٦ .

إلى أكثر من ثلثى زمانه ، قد رأوا مظالم كثيرة ، ومفاجر كثيرة ، ومع ذلك بهوا عن الخروج ، ولم يسيروا مع الخارجين ، وكانوا ينصحون الخلفاء ، والولاة ، إن وجدوا آذانا تسمع ، وقاوبا تفقه ، وفي كل حال لا يخرجون ، ولا يؤيدون خارجة .

٤٤ — ومع هذا الرأى الذي يدعو إلى الاستقرار أياكانوصف الحاكم، لم يعمل على الانصال بالخلفاء أو الولاة بأى نوع من أنواع الانصال ، ولم يقبل عطاءهم ، ومن المؤكد أنه ماكان يرى في عصره عدلا قائما ولا يجد من الخلفاء إنصافا ، بل كان يرى فجورا في الظلم ، ولكنه مادعا إلى الخروج ، وفي ذات نفسه كان يبتعد عنهم تنزيها لنفسه ، فرحمه الله ورضى الله عنه ، لقد كان ذا قلب كبير يؤمن بالحق ، ولا يقر الظلم ، ولا يدعو إلى الفساد واضطراب الأمور .

## حديث أحمد وفقهه

وانكر بعضهم الفق العلماء على أن أحمد رضى الله عنه كان محدثاً ، وأنكر بعضهم أن يكون فقيها ، ويحق لناأن نقول : إن أحمد إمام في الحديث بلاريب ، ومن طريق هذه الإمامة كانت إمامته في الفقه ، وإن فقهه سنن وآثار في منطقه وصوابطه ، ومقاييسه ولونه ومظهره ، ولذلك أنكر ابن جرير الطبرى أن يكون فقيها ، وعده ابن قتيبة من المحدثين ، ولم يذكره في الفقهاء ، وغيره قال هذه المقالة أو قريباً منها ، ولكن النظرة الفاحصة فيا أثر عنه من أقوال وفتاوى تبين لنا ما ذكرنا من أنه كان فقيها غلب عليه الأثر .

ومهما يكن حكم العلماء على أحمد من حيث كونه فقيها ، فإن بين أيدينا مجوعة من الفقه تنسب إليه بروايات مختلفة ذات سند مرفوع إليه تحكى عنه ، وقد تلقاها الناس بالقبول ، وما كان لنا أن ترد أمراً تلقاه الناس بالقبول من غير دليل يرده .

وفي الحق ، إن الذي أثار الغبار حول فقه أحمد هو ما يأتي :

۱ — أنه كان يؤثر الرواية على الفتوى ، وأن اشتهاره بالحديث و إمامته
 فيه أسدلت ستاراً وقتاً ما على فقيه .

٢ — وأنه هو كان يمنع كتابة فتواه ، لأنه كان لا يرى كتابةشيء غير أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم ، خشية أن يعنى الغاس بالفقه الذى استنبط، ولا يعنوا بالأصل الذى منه أخذ ، ويظهر أن ذلك النهى كان فى صدر حياته الفقهية ، ولذلك وردت روايات من بعد ذلك تدل على أنه كتب بنفسه فتاوى فه ، ونقل عنه ذلك النقل ، ولعله نقل ما كان قريباً من الآثار ، أو تنطق يمكمه الآثار .

وانه كان يرى أن الصحابة إذا اختلفوا أخذ بكل أقوالهم، واعتبرت أوجهافي المسألة، وإذا اختلف التابعون اعتبر أقوالهمأوجهافي المسألة، ولا يسمح لنفسه أن يراجح بين أقوالهم، فأنى هذا من قول أبي حنيفة في التابعين «هم رجال ونحن رجال» ومن الشافعي إذ يختار من أقوال الصحابة أقربها إلى كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم.

٤ -- وأن العلماء قد أجمعوا على صحة نسب المسند في الحديث إليه،
 و يشكك كثيرون في نسبة بعض المسائل الفقهية إليه، وإن لم يكن لهذا
 المتشكك مستند.

ولنبدأ بالسكلام في أحمد المحدث ، وإذا أنجهنا إلى ذلك فإنه لابد أن نتكلم عن المسند .

#### السند

27 — المسند هو مجموعة من الأحاديث التي رواها الإمام أحمد ، وهو خلاصة ما رواه عن الثقات ، وقد ابتدأ في جمعه من وقت أن ابتدأ في رواية الحديث واستمر يجمع فيه طول حياته ، ولكن همته لم تكن متجة إلى الترتيب بل كانت متجهة إلى الجمع والتدوين ، وكان يكتبه في أوراق متناثرة ، ولكن يحصاة مجموعة ، لا يسقط منها شي مما يجمع ، حتى إذا تقدمت به السن، و خشى على ما جمع الضياع ، أخذ يملى على بنيه وخاصته ما كتب ، وأسمعهم إياه مجموعاً وإن لم يكن مرتباً ، وقد قال شمس الدين الجزرى :

« إن الإمام أحمد شرع فى جمع المسند ، فكتبه فى أوراق متناثرة، وفرقه فى أجزاء منفردة على نحو ما تكون المسودة ، ثم توقع حلول المنية قبل حصول الأمنية ، فبادر بإسماعه لأولاده وأهل بيته ، ومات قبل تنقيحه وتهذيبه ، فبق

على حاله ، ثم جاء ابنه عبد الله ، فألحق به ما يشاكله وضم إليه من مسموعاته ما يشابهه ويماثله (١) » .

وإن هذا الـكلام يدل على أمرين:

أحدها -- أن الجمع والترتيب لم يكن لأحمد، بل لمن يعده ورواه ، وإذا كان الذى رواه هو عبد الله ابنه ، فيكون الترتيب لعبد الله ، ولا غضاضة فى ذلك ، فقد كان عبد الله محدثا وعى كل أحاديث أبيه . وتلقى عن غير أبيه .

ثانيهما — أن عبد الله لم يكتف بالجم ، بل ألحق بالمسند ما يشاكله ، وضم إليه من مسموعاته ما يمائله، والظاهر من معنى المشابهة والمائلة أن يروى في المسند حكم في المسألة عن صحابي مثلا ، فيكون عبد الله قد سمع ما يشبهها من أبيه أومن غيره ، فيلحقه بما أملاه أبوه عليه ، ولمل ذلك لم بكن كثيرا ، ولم يرو عن غير أبيه إلا نادرا ، لأن الناس لم يختلفوا في أن المسند لأحمد .

و إن عبد الله هذا كان معنيا بالحديث في حياة أبيه ومن بعده ، وقد جاء في كتاب أبي الحسين المنادى عن ولدي أحمد صالح وعبد الله : «كان صالحقليل السكتابة عن أبيه ، فأما عبد الله ، فلم يكن في الدنيا أحد أروى عن أبيه رحمه الله منه » (٢) .

وكان العلماء يثنون على عبد الله لفضل أبيه وامتداد الفضل إليه ، و بعد همته ، وقيامه على التركة العلمية المثرية التي تركها أبوء .

عن ترتيب كتب الحديث، فإن صحاح كتب الحديث مرتبة على ترتيبه غريباً عن ترتيب أبواب المنفقة في الجلة، ولذلك سهل الانتفاع بها في الفقة، وفيا لافقة فيه من الأحاديث

<sup>(</sup>١) راجع مقدمة المسند طبع المعارف بتحقيق الأستاذ الشيخ أحمد شاكر .

<sup>(</sup>٢) طبقات الحنابلة المختصرة ص ١٣٢ طبع دمشق.

رنب على حسب الموضوعات من غير نظر إلى الراوى ، فكانت أحاديث الأدب، وأحاديث الاجوع إلى كل وأحاديث الوحى، فيسهل الرجوع إلى كل باب لمريد معرفة المروى عن النبى صلى الله عليه و سلم فيه .

أما ترتيب المسئد فكان على حسب ترتيب الصحابة ، فجمع أحاديث أبى بكر المتحرواها ، والسنة التي أثرت عنه في كتاب سمى مسند أبى بكر ، وكذلك عر ابن الخطاب رضى الله عنه ، وعثمان ، وعلى ، وهكذا كل الصحابة ، وإن هذا يصمب الرجوع إلى الموضوعات العلمية التي يشتمل عليها الحديث النبوى، وقد يكون فيه فائدة أخرى للمؤرخ الذي يريد معرفة فقه صحابى بذاته ، فن أراد أن يعرف فقه عمر ، فإنه بلا ريب ستكون بين يديه من مسنده مادة علمية يمكن أن يعرف فقه عمر ، فإنه بلا ريب ستكون بين يديه من مسنده مادة علمية يمكن أن تنكون أصلا لمعرفة ذلك الفقيه العظيم ، ولاشك أن هذه فائدة لما جدواها ، ولكنها ليست مقصودة من طالبي فقه الحديث النبوى ، وعلم السنة الشريفة .

ولقد قال الذهبي في ترتيب المسند الذي وضعه عبد الله بن أحمد: « ولوأنه حرر ترتيب المسند وقربه وهذبه لأتى بأسنى المقاصد، فلعل الله تبارك وتعالى أن يقيض لهذا الديوان السامى من يخدمه، ويبوبه، ويتكلم عن رجاله، ويرتب هيئته ووضعه، فإنه محتو على أكثر الحديث النبوى، وقل أن يثبت حديث إلا وهو فيه ».

# طريقة أحمد في رواية السند :

٤٨ - كان أحمد يروى عن الثقات في عصره ، وكان حريصاً على أن يروى الحديث متصلا سنده إلى النبي صلى الله عليه وسلم وما لا يتصل سنده يكون ضعيفاً عنده ، وإن كان راويه من الثقات . وقد جمع بهذه الطريقة أكبر مجموعة كالله الذهبي ، وأسكنه كان ينقتح ماجمع ، فكان يحذف بعض ماروى ، فقد كان يبدو له أحيانا أن بعض من روى عنه لم يكن ضبطه كاملا ، أو خدع فيا رواه ، يبدو له أحيانا أن بعض من روى عنه لم يكن ضبطه كاملا ، أو خدع فيا رواه ،

فكان يحذف مارواه عنه ، وكان دائم الحذف والتغيير والتنقيح حتى وهو فى مرض الموت ، وكان يحذف ما يبدو له تعارضه مع المشهور من الصحاح ، فهو يجمع فى الرواية المتعارضين ، ثم عند التنقيح يحذف أحدها الذى يبدو له أنه معارض للصحاح أو أن الآخر أقوى منه .

ولكن بعد الحذف والتنقيح أيعد كل ما اشتمل عليه المسند قويا يعتمد عليه ، القد أجاب عن ذلك العلماء بأن الإمام أحمد ، ولو أنه كان يحذف وينقح ، كان مقتصدا في الحذف كل الافتصاد إذا لم يظهر عيب في الراوى الذى دوى عنه ، وقد أثر عنه أنه قال في ذلك لابنه عبد الله :

« قصدت فى المسند الحديث المشهور، وتركت الناس تحت سترالله تعالى، وقدأردت أن أقصد ماصح عندى، لم أرد من هذا المسند إلاالشىء بعضالشىء، ولكنك يابنى تعرف طريقتى فى الحديث ، لست أخالف ماضعف إذا لم يكن فى الباب مايدفعه » .

## هل في المسند ضعيف :

٤٩ --- إن مقتضى هذا النص المروى عنى أحمد أن يكون فى كتاب المسند
 بمض الأحاديث الضميفة ، ولابد من أن يفرض ذلك الفرض .

وليس معنى وجود الضعيف فى المسند أنه يوجد فيه المسكذوب، أو الموضوع الذى ثبت وضعه، وفرق ما بين الضعيف والموضوع، فإن الضعيف هو الذى يكون فى بعض رجاله من لم يبلغ مبلغ الثقة، أو كان فى سلسلة سنده انقطاع، ولا يوجد دليل على بطلان نسبته، ولم يثبت عن الثقات ما يخالفه، أما المسكذوب أو الموضوع، فموماقام الدليل على بطلان أنه من السنة، ورده الثقات، وأبطلوا نسبته إلى النبى صلى الله عليه وسلم.

ولكن هل في المسند ماثبت وضعه ؟ قد قال بعض العلماء إن في المسند آنها موضوعة ،وهي قليلة بل نادرة، وأحاديث ثبت أنها موضوعة ،وهي قليلة بل نادرة، مقال العراقي ذلك .

وقال ابن تيمية إن المسند فيه الضميف ، ولم يثبت أن فيه حديثاً موضوعاقط. والأكثرون على رأى ابن تيميه هذا .

ومن العلماء من ذهب به القعصب ، فادعى أن المسند ليس فيه ضعيف يرد . ولنختم الكلام في المسند بكلمة ابن الجوزى ، وهاهي ذي :

«قد سألنى بعض أصحاب الحديث ، هل فى مسند أحمد ما ليس بصحيح ، فقلت منعم ، فعظم ذلك على جماعة ينسبون إلى المذهب ، فحملت أمرهم على أنهم عوام ، وأهملت ذلك ، وإذا بهم قد كتبوا فتاوى ، فكتب فيها جماعة يطمنون فى هذا القول و بردونه ، ويقبحون قول من قاله ، فبقيت دهشا متمجماً ، وقلت فى نفسى : واعباً !! صار المنتسبون إلى العلم من العامة أيضاً ، وذلك لأنهم سمعوا الحديث ، ولم يبحثوا عن صحيحه من سقيمه ، وظنوا أن من قال ماقلته قد تعرض للطعن ولم يبحثوا عن صحيحه من سقيمه ، وظنوا أن من قال ماقلته قد تعرض للطعن أخرجه أحمد ، وليس كذلك ، فإن الإمام أحمد روى المشمور والجيد ، والردى ، ، ثم هو قد رد كثيراً مما روى ، ولم يجعله مذهباً له ، وختم ابن الجوزى كلامه بقوله : «قد غمنى فى هذا الزمان أن العلماء لتقصيرهم فى العلم صاروا كلامه بقوله : «قد غمنى فى هذا الزمان أن العلماء لتقصيرهم فى العلم صاروا على خساسة الهمم ، ولا حول ولا قوة إلا بالله » .

وخلاصة القول أن المسند أكثره صحيح، وفيه من الصحيح العدد الذي الايحصى، وفيه الضعيف، ويندر فيه الموضوع، بل ينكره بعض العلماء.

### فقه أحمد

ه - قد تبين مما قلنا أن إمامة أحد في الفقه جاءت من وراء إمامته في الحديث ، ولذ لله كان فقهه أقرب إلى الحديث ، وإن فقهاء المذهب الحنبلي قلاسا المتعبطوا الأصول التي بني عليها الفقه الحنبلي ، وإن فقه أحمد جاء من فتاويه التي كان يفتى بها ، مستمداً فتواه من السنة أو ما يشبهها ، وقد لخص ابن القيم الأصول التي بنيت عليها هذه الفتاوى ، فذكر أنها خسة .

أولها — النصوص، فإذا وجدالنصأفتي به ، ولم يلتفت إلى غيره ، ولدلك. قدم اللص على فتاوى الصحابة ، وقد ضرب ابن القيم أمثلة على تركه فتوى. الصحابي للنص ٠٠ منها أنه قدم الحديث الذي يعتبر عدة الحامل المتوفى عنها زوجها بوضع الحمل ، ولم يفت بأنها تعتد بأبعد الأجاين كما هو فتوى ابن عباس، ومنع توريث المسلم من غير المسلم للحديث الوارد في ذلك ، ولم يلتفت إلى قول. معاذ بن جبل ومعاوية بن أبي سفيان .

الأصل الثانى — ما أفتى به الصحابة ولا يعلم له مخالفاً ، فإذا وجد لبعضهم. فتوى ولم يعرف مخالفاً لها — لم يتركها إلى غيرها ، ولم يقل إن ذلك إجاع ، بل يقول من ورعه : لا أعلم شيئاً يدفعه ، ومن ذلك قبول شهادة العبد ، فقد روى هذا عن أنس ، ويروى عنه أنه قال : ه لا أعلم أحداً رد شهادة العبد» ، وقال ابن القيم « إذا وجد الإمام أحمد شيئاً من هذا النوع عن الصحابة لم يقدم عليه عملا ولا رأياً ولا قياساً () » .

الأصل الثالث — من الأصول الخمسة التي ذكرها ابن القيم أنه إذا اختلف الصحابة تخير من أقو الهم ماكان مو افقاً للمكتاب والسنة الصريحين ، ولم يخوج

<sup>(</sup>١) أعلام الموقعين ج ١ ص ٢٢.

حن أقوالهم، فإذا لم يتبين موافقة أحد الأقوال حكى الخلاف ولم يجزم بقول ، حقال إسحق ابن إبراهيم بن هانى في مسائله : قيل لأحمد : يكون الرجل في قومه فيسأل عن الشيء وفيه اختلاف ؟ قال يفتى بما وافق الكتاب والسنة ، حومالم يوافق الكتاب والسنة أمسك عنه (١) » .

وهنا نجداً حد يختلف عن الخشافى ، فالشافى يتخير، ويرجح ، ولوبالقياس، فحما يكون أقوى قياساً ، أما أحمد فإنه عند تخيره من أقوال الصحابة يختار ما يكون معاضداً بنص صريح من الفرآن أو «الحديث . ولا يتجه إلى القياس ، لأنه لا يقدم القياس على قول صحابى .

الأصل الرابع — الأخذ بالمرسل ، وهو الذى لم يذكر فيه الصحابى الذى مرواه ، والحديث الضعيف الذى لم يثبت وضعه \_ إذا لم يكن فى الباب شىء مدفعه ، ويقدمه على القياس ، ويبين ابن القيم الضعيف بأنه ليس المرادبه الباطل، ولا المنكر ، ولا ما فى روايته متهم ، بحيث لا يسوغ الذهاب إليه ، بل المراد سمن ذلك من لم يبلغ رواته درجة الثقة ، ولم ينزلوا إلى درجة الاتهام ه .

وهنا نجد أن ابن القبم لم يذكر موقف أحمد من أقوال التابعين ، وكأنه يختار الرواية التى تقرر أن أحمد كان يختار من أقوال التابعين أو بعضهم اختياراً من غير اتباع مجرد ، وعلى ذلك لا يكون قول التابعي حجة ، وإن قال بقول أحدهم ، فلا نه وثيق الدليل ، لا لأن صاحبه حجة ، أما الرواية الأخرى، وهي أنه كان يعتبر قول التابعي واجب الاتباع ، فإذا لم يجد كتاباً ولا سنة مولا فتوى للصحابة ، أخذ بقول التابعي ، وإن اختلفوا ولم يكن في قول واحد منهم ما يتفق مع قول الصحابي تركها أقوالا في مذهبه ، وإلا اختار ما يتفق مع الهي منهم ، وهي قول الصحابة أو النبي صلى الله عليه وسلم .

<sup>(</sup>١) الكتاب للذكور .

و إن هذه الرواية مشهورة ، وأقوال أحمد المأعورة ، ورسائله المنشورة ، وأقوال أحمد المأعورة ، ورسائله المنشورة ، تؤيدها ، وقد أشرنا إلى بعضها من قبل ، فقد كان يعد قول السلف ومنها جهم. أولى بالاتباع ، ويعد من السلف التابعين .

الأصل الخامس — الذى ذكره ابن القيم ... هو القياس ، فإذا لم يكن عند. الإمام نصمن كتاب أو سنة أو قول صحابى .. أو تابعى على الرواية المشهورة ، مرلا أثر مرسل أو ضعيف ... ذهب إلى القياس ، وقد نقل الخلال عن أحمد أنه قال : « سألت الشافعى عن القياس ، فقال : إنما يسار إليه عندالضرورة » (١)..

ونرى أنه يمتبر القياس حجة ، ولا يسار إليه إلا عند الفرورة ، فإن. وجد مندوحة عنه لم يلجأ إليه ، وقد استأنس في هذا النظر بما رواه عن الشافعي. ولكن الشافعي لا يأخذ بالضعيف ويترك القياس ، فقدار الأخذ عند الإمامين. مختلف ، الشافعي يتجه إليه إن لم يجد حجة لا شبهة فيها ، وهذا يؤخره عن أى. مستند من النصوص أو ما يشبهها ، ما لم يوجد دليل على رده .

٥١ — ونرى الأصول التي ذكرها ابن القيم تنتهى إلى النصوص ٤٠ ويدخل فيها المرسل والضعيف ، وفتوى الصحابى ، ثم التابعي على نظرف ذلك ٤٠ مم القياس .

ولكنه لم يذكر الإجماع أ أصلا عند أحمد . كالم يذكر المصالح، والذرائع ... والاستصحاب ، وهي أصول عندالحنابلة ومذكورة في كتبهم ...

ولذلك كان لا بد من ذكرها وبيانها بكلمات موجزات ، ويصحأن نقول. إن المصالح والاستحسان والذرائع والاستصحاب كلها يدخل فى باب القياس. إذا فسر القياس بمعنى واسع يشمل كل وجوه الاستنباط من غير النصوص ..

<sup>(</sup>١) الـكتاب المذكور ص ٢٦.

٥٢ -- الإجماع اتفاق مجتهدى الأمة فى عصر من العصور على حكم من الأحكام المشرعية معتمدين على دليل من الكتاب والسنة ، أو القياس على رأى بعض الفقهاء .

والإجماع نوعان كما ذكرنا من قبل: إجماع على أصول الفرائض كعدد الصاوات، وعدد الركعات، والصوم، والحج، والزكاة وغيرها، وهذا النوع من الإجماع مسلم به عنذا لجميع، ومنكره يعدمنكرا لأمرعلم من الدين بالضرورة ولذلك يكون كافراً، لأن الإجماع على هذه الأمور إجماع على مسائل ثبتت بالقرآن والسنة ثبوتاً قطعياً، وهي إطار الإسلام، وسوره المكين، ومن تجاوزه فقد خرج من الدين.

والفرع الثانى الإجماع على أحكام دون ذلك كإجماع الصحابة على أن الأراضى المستولى عليها تبقى فى أيدى زراعها على أن تكون فى حكم ملك الدولة وإجماعهم على قتال المرتدين ، ونحو ذلك .

وهذا النوع من الإجماع قد اختلفت الرواية فيه عن أحمد ، فمن المماء من نقل عنه أنه قال : « من ادعى وجود الإجماع فهو كاذب » وقد قال ابن القيم : « قد كذب من ادعى الإجماع ، ولم يسغ تقديمه على الحديث الثابت ».. وقال عبد الله بن أحمد بن حنبل : سمعت أبى يقول « ما يدى فيه الرجل الإجماع فهو كاذب ، لمل الناس اختلفوا ، ما يدريه ، ولم ينبه إليه ، فليقل لانعلم مخالفاً » .

وننتهى من هذا إلى الإمام أحمد لا ينكرأصل الإجماع ، ولـكنه ينفى العلم بوقوعه بعد عصر الصحابة ، ولذلك كان يقرر إجماع الصحابة فيا يجمعون عليه من مسائل ، لأنهم معلومون ، وعلماؤهم كانو امحدودين معروفين ، وعمررضى الله عنه كان قد احتجزهم فى المدينة ، وكان يجمع المسلمين وعلماءهم ليشتشيرهم فى كل أمر يهم المسلمين ليأخذ فيه رأيا قاطعاً منهم ، يخليه من أن يتحمل التبعة وحده وأما مايدعى من الإجماع بعد ذلك ، فقد كان يقول : لا نعلم له مخالفاً » .

وعلى ذلك نقرر أن الإجماع عند أحمد له مرتبتان :

أولاها وهي العليا إجماع الصحابة ، وهو الذي كان يكون في المسائل التي تعرض عليهم للنظر ويفتهون فيها إلى رأى واحد ، فإن هذا الإجماع يكون حجة ، وهو معتمد على أصل من الكتاب أو السنة الصحيحه ، ولا يفرض أنهم يخالفون فيهسنة صحيحة ، لأنهم رواة أقوال النبي صلى الله عليه وسلم ، وإذا علم بعض الحديث عن بعضهم ، فإنه لا يغيب عن كلهم ، كا قال الإمام الشافعي رضى الله عنه .

المرتبة الثانية أن يعلم رأى ويشتهر ، ولا يعلم له مخالف ، فهذه مرتبة ثانية من الإجماع إن سميناً مثل هذا إجاءا ، وهذا دون الحديث الصحيح ، وفوق القياس ، لأنه إذا وجد فقيه مخالف نقض الإجاع .

ويجب أن يلاحظ أن هاتين المرتبتين هما دون الإجماع على أصول الفرائض التى تعد من الدين بالضرورة ، والتى يعد منكرها كافراً ، كمن ينكركون الصلوات خساً ، وكمن ينكر عدد الركمات فى كل صلاة ، فإن هذه مرتبة تقدم على كل استنباط ، والله أعلم .

#### القياس:

٥٣ -- القياس الذي تريده هذا هوما اصطلح الشافعي وأبو حنيفة وغيرها من فقهاء القياس على تسميته بالقياس ، بحيث لايدخل فيه الاستحسان، ولا المصالح المرسلة ولا الذرائع ، وهو الحاق أمر غير منصوص على حكمه بأمر أخر منصوص على حكمه لاشتراكهما في الوصف الموجب للحكم ، كما بينا .

وأحمد قد روى عنه أنه قال: إن القياس لايستذى عنه ، وأن الصحابة قد الخذوا به ، وإذا كان أحمد قد عنوابه. أخذوا به ، وإذا كان أحمد قد عنوابه. وأكثروا من الأخذ به عندما كانت تجد لهم حوادث لا يجدون في المأثور عن الله عليه وسلم ، وأصحابه حكما فيها .

ولكن كتاب الحنابلة كابن تيمية وتلميذه ابن القيم كانوا يقيسون الأوصاف المناسبة لا بمجرد العلة المضبوطة ، فمثلا الحنفية يقررون أن عقدالسلم ، وهو بيع دين بعين بأن يكون المبيع مؤجلا والثمن معجلا ، عقدغير قياسى ، لأن محل المقد غير موجود ، وبيع المعدوم لا يجوز ، فيقرر ابن تيميه أنه عقد قياسى لأن الحكمة فى وجود المبيع ثابتة فيه ، وهو منع الجهالة ، وما دامت الجهالة أو الفرر مدفوعين فالعقد قياسى .

ومن ذلكأن الحنابلة يقررون حوالة الحق بأن يكون لشخص دين على آخر في محول هذا الدين إلى غيره بحيث يحل محله فى طلب الدين، وهذا يخالف قول الحنفية القياسيين ، لأن ذلك يعتبر يهم دين بدين، وهو لايجوز .

فقال الحنابلة ، إن ذلك من جنس استيفاء الدين ، لأن الذى يحول الدين، إنما يستوفيه ممن حوله عليه ، والاستيفاء جائز .

وهكذا نجدالكثير من المسائل التى لايلتفت فيها إلى العلل ، بل بلتفت فيها إلى الحكم والأوصاف المناسبة .

#### المالح:

عه - يرادبالمصالح هنا المصالح المرسلة ، وهي التي لا يشهد لها دليل خاص من الكتاب والسنة و الإجاع بالإثبات ، ولا يشهد لها دليل بالإلفاء ، وهي من جنس المصالح التي أقرها الشرع ، وهي يؤخذ بها عند المالكية ، بشرط أن تكون ملائمة لمقاصد الشرع ، وأن يكون فيها دفع حرج ، وألا تعارض نصا

ويمدها الحنابلة وغيرهمن القياس، لأنها قياسعلى المصالح العامة المستةاة. من مجموع النصوص القرآنية والنبوية، وإن لم تكن قياساً على نص خاص بعينه.. وأحمد رضى الله عنه أخذ بها، لأنه رأى الصحابة قد أخذوا بها.

فقد أخذ بها فى السياسة الشرعية ، وهى ماينهجه الإمام لإصلاح الناس ، وحملهم على مافيه مصلحة ، وإبعادهم عما فيه مفسدة ، وقرر رضى الله عنه فى ذلك عقوبات ، وإن لم يرد بها نص ، ومن فقاويه التى من هذا القبيل نفى أهل الفساد والدعارة إلى بلد يؤمن فيه شرهم ، ومنها تغليظ الحد على شرب الخر فى نهار رمضان ، ومنها عقوبة من طعن فى الصحابة ، وقرر أن ذلك واجب ، وايس للسلطان أن يعفو عنه ، بل يعاقبه ، ويستقيبه فإن تاب ، وإلا كرر له (١).

ولقد تبع الحنابلة أحمد فى ذلك ، فأفتوا بأمور كثيرة بناء على المصلحة التى تعد. من جنس المصالح التى قررها الشارع ، ومن ذلك إفتاؤهم بجواز إجبار المالك لدار على أن يسكن فى بيته من لامأوى له ، إذا كان فيها فراغ يتسع له ، ولقد قال ابن القير فى ذلك ، وإذا قدر أن قوماً اضطروا إلى السكنى فى بيت إنسان لا يجدون سواه أو النزول فى خان مملوك ... وجب على صاحبه بذله بلانزاع ، لكن هل يأخذ أجراً ؟ فيه قولان للعلماء ، وها وجهان لأصحاب أحمد ، ومن جوز له أخذه حرم عليه أن يطلب زيادة على أجرة المثل (٢) » .

ومنها ما أفتى به أصحاب أحمد أن الناس إذا احتاجوا إلى أرباب الصناعات ، كالفلاحين وغيرهم أجبروا علمها بأجرة المثل ، وايس لهم أن يمتنموا ، ويعاقبون إذا لم يفعلوا ، فإنه لاتهم مصاحة إلا بذلك ، ولقد افترضوا للمصلحة الواجبة

<sup>(</sup>١) أعلام الموقعين ج ع ص ٣١٣ .

<sup>(</sup>٢) المطرق الحسكيمة ص ٢٣٩.

الرعاية أن تعليم الصناعة فرض كفاية لحاجة التاس إليها(١) . •

والمصالح أخذبها أحمد على أساس أنها باب من أبواب القياس ، ووسع , ممناه ، وكأنه اعتبرها قياساً على المصالح المتبرة في الفقه الإسلامي عامة ، مأخوذة من النصوص مجتمعة ، لا من نص معين .

و إذا كانت من أبواب القياس ، فهو يؤخرها عن الأحاديث ، ولوكانت . غيرقوية مادام كذبها لم يثبت ، لأن قاعدته أن القياس لا يعمل به إلا للضرورة . حيث لا يجد نصا من كتاب ، ولا سنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أو صحابته .

#### الاستحسان:

وه - الاستحسان عند الحنفية الحسكم في مسألة بنير ماحكم به في نظيرها الدليل من نص أو إجاع ، أو ضرورة ، أو لممارضه القياس الظاهر بقياس أقوى ، و إن هذا بلا ريب داخل في أصول الفقه الحنبلي الممتبرة ، لأن ذلك إما أخذ بدليل من النصوص أو الإجاع ، أو الخضوع لحسكم الضرورة ، وذلك كله معتبر في المذهب الحنبلي ، ولا يمكن أن يكون عن الإمام أحد ما يخالفه .

والاستحسان عند المالكية ضرب من ضروب الأخذ بالمصلحه في مقابل. قاعدة ثابتة ، وإن الحنابلة وقد أخذوا بالمصالح لا يمكن أن يكون في مذهبهم. ماينافي ذلك الاستحسان ، لأنه خضوع لحكم المصلحة ، وقد قرر الحنابلة الأخذ . بها في غير موضع النص اتباعا للسلف الصالح من الخلفاء الراشدين ، وغيرهم. من كبار فقهاء الصحابة المهديين .

#### الذرائع :

٥٦ — هذا أصل فقهى اعتمده الحمابلة تا بعين لإمامهم أحمد . وذلك لأن . الشارع إذا طالب بأمر فكل ما يوصل إليه مطلوب ، وإذا نهى عن أمر فكل . ما يؤدى إليه منهى عنه ، فالذرائع هى الوسائل ، وهى تأخذ حكم ماهو ذريعة . إليه طلبا إن كان مطلوباً ، ومنماً إن كان ممنوعا .

<sup>(</sup>١) الـكتاب المذكور ص ٢٢٧.

وللذهب الحنبلي أشد المذاهب الإسلامية أخذا بالذرائع ، ويقول في ذلك البن القيم :

« ولما كانت المقاصد لا يتوصل بها إلا بأسباب وطرق تفضى إليها كانت طرقها وأسبابها قابعة لها ، معتبرة بها ، قوسائل المحرمات والمعاصى فى كراهتها والمنع بحسب إفضائها إلى غايتها . . . فإذا حرم الرب شيئاً وله طرق ووسائل والمنع بحسب إفضائها إلى غايتها . . . ولوأ باح الوسائل والذرائع المفضية بخكان ذلك نقضاً للتحريم ، وإغراء للنفوس به ، وحكمته تعالى وعلمه يأبيان ذلك . . والأطباء إذا أرادوا حسم الداء منعوا صاحبه من الطرق والذرائع الموصلة إليه ، وإلافسد عليهم ما يرومون إصلاحه ، فما الظن بهذه الشريعة التي هى في أعلى . درجات الحكمة والمصلحة والكمال ، ومن تأمل مصادر الشريعة ومواردها علم . «رجات الحكمة والمصلحة والكمال ، ومن تأمل مصادر الشريعة ومواردها علم . أن الله تعالى ورسوله سد الذرائع المفضية إلى المحارم ، بأن حرمها ونهى عنها (١)»

و بذلك يتبين أن المذهب الحنبلى اتباعا لأحمد أخذ بأصل الذرائع طلباوسدا، فاهوذريمة لمطلوب كان مطلوباً ، وماهو وسيلة لممنوع ، كان ممنوعاسداً للذرائع.

و إن النظر فى الذرائع فى المذهب الحنبلى يتجة أتجاهين :

أولها - النظر إلى الباعث على الأفعال ، أقصد به الشخص أن يصل إلى

حرام أم إلى مباح ، والنبي صلى الله تمالى عليه وسلم يقول :

(إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرىء مانوى ) .

و تانيهما — أن ينظر إلى الما لات مجردة ، ولو كانت النية طيبة ، فن كان بيسب الأوثان ، ولوقصد نية حسنة ولكن أدى ذلك إلى أن يسب المشركون الذات العليه ، فإنه يكون ملوماً ، ولوكانت نيته حسنة .

وعلى ذلك لا يكون النظر إلى الذرائع لا يعتمد على النية فقط ، بل يعتمد

<sup>(</sup>١) أعلام الموقعين ج ١ ص ١١٩

عليها أحيانا ، وفي الكثير يعظر إلى المه آل ذاته ، وقد أخذ الحفابلة بالأمرين: فالأعمال التي تؤدى إلى مفاسد تمنع ، ولوكانت هي ذاتها لاتعد مفسدة ، ومن قصد بفعله شرا، ولو أدى قعله إلى مالا فساد فيه، كان مرتكباً إثماً، فمن صوب سهما على إنسان نائم ليقتله ، فلم يصبه ، وأصاب حية كانت بجواره تريد أن ، تلاغه ، فهو آثم أمام الله تعالى ، ولوكانت النتيجة خيراً :

ولنضرب أمثلة على الأخذ بالذرائع في المذهب الحنبلي .

- (١) تلقى السلع قبل نزولها فى الأسواق ، وأخذها للتحكم فىالسوق ممنوع ، . لأن ذلك قد يؤدى إلى الاحتكار وقد يؤدى إلى غبن البائع،والدلك أثبت أحمد ، . الخيار للبائع إذا تبين له أن السمر على غير ماباع ، أو لم يتبين ، فيكون له حق . الفسخ سداً للذريعة .
- (ب) ومما أفتى فيه الإمام أحمد بالذرائع وجوب للدية على من منع شخصاً ، من طعام أو شراب حتى مات جوعاً ، لأن منعه من ذلك كان وسيلة للموت .
- (ج) أن أحمد كان يكره الشراء بمن يرخص فى السلع لمينع الناس. عن جاره ، لأنه يريد بذلك إنزال الضرربأخيه ، والامتناع عن الشراء منه فيه قطع لهذا الضرر ، ولقد ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه نهى عن طعام. المتبارين وها ألرجلان يقصد كل منهما مباراة الآخر فى التبرع .
- (د) أن أحمد يحرم بيع السلاح عند الفتن ، لأنه إعانة على المدوان، ومن ذلك بيع السلاح لقطاع الطريق ، لأنه إعانة لهم على جرمهم ، وبيع العنب لمن. يتأكد أنه يتخذه خراك الخمارين ، وفى كل هذا يكون البيع غيرصحيح، ومن. ذلك إجارة الدور لمن يتخذها مكانا للمعاصى كالمراقص والملاهى المحرمة.

#### الاستصحاب:

٧٥ - ومعناه أن الحكم الثابت يستمر حتى يوجد دايل بغيره .

وقد أكثر الحنابلة من الأخذ بهذا الأصل ، ومن المسائل التي أفتوا بها على أصل الاستصحاب .

(١) الأصل في الأشياء الإباحة ، حتى يوجد دليل المنع ، ولذلك كان . الأصل في العقود والشروط الاباحة ، ووجوب الالتزام بهما ، حتى يوجد .

. نمس يمنع . (ب) الأصل فى الماء أنه طاهر حتى يوجد دليل على نجاسته .

(ج) إذا طلق الرجل امرأته وشك فى أنه طلقها واحدة أو ثلاثا كانت واحدة ، لأنها المستيقنة .

و هكذا نرى الحنابلة يأخذون بهذا الأصل في كثير من فروعهم ، بل في قواعدهم .

و إن قاعدتهم إباحة العقود والشروط إلا ماقام نص على منعه ، وقد وسع مذهبهم في هذا الباب بما لم يتسع به أى مذهب آخر .

# نمو المذهب الحنبلي وروابته والأقوال فيه

۸٥ – لم يكتب أحمد بن حنبل فقهه ، كا كتب الشافعى فقهه بل إنه كان ينهى عن كتابته ، وإذا وجدت له كتابات فى بعض المسائل الفقهية ، فهى مذكرات خاصة به ، لا يعمل على نشرها ، ولا يسمح لأحد بعقلها ، لأنه كان يرى كا نوها من قبل ألا يدون إلا الكتاب والسنة ، حتى لا ينسى الناس الرجوع إليهما فى معرفة الأحكام التكليفية .

١ ــ و إنما نقل الفقه الحنبلى عن طريق تلاميذ الإمام ، وأولهم ابنه صالح ، وقد تلقى الفقه عن أبيه وغيره ، وكان ينشر فقه أبيه عن طريق الرسائل ، إذ يرسل إليه ، فيجيب عن رأى أبيه ، وقد تولى القضاء ، فاستطاع أن ينقل فقه أبيه ، لا إلى الأجيال فقط ، بل إلى العمل والتطبيق ، وقد توفى سنة ٢٦٦ .

٢ ــ وكذلك عبد الله بن أحمد فقد نقل المسند إلى الأجيال ، ونقل فقه أبيه ، وإن كان نقله للحديث أكثر ، وقد تو في سنة ٢٩٠ .

٣ ــ ومن تلاميذه الذين نقلوا فقهه أبو بكر الأثرم ، وقد لزم أحمد أمداً غير قصير ، ونقل فقمه ، وقد توفى سفة ٢٦١ .

٤ ــ ومن تلاميذه أيضاً عبد الملك الميمونى ، وقد صحب أحمد نحو اثنتين . وعشرين سنة ، وكان يكتب عن أحمد المسائل مع نهيه عن ذلك ، ولروايته . فقه أحمد مقام كبير ، وقد توفى سنة ٢٧٤ .

٥ ــ ومنهم أبو بكر المروذى ، وقد كان أخص أسحاب أحمد ، وقد نقل عن أحمد مسائل كثيرة ، ونقلها عنه الخلال ، وكان به معجباً ، وقد تونى سنة ٢٧٥ .

٣ ـ ومن الذين نقلوا عن أحمد حرب ، وقد لقى أحمد زمناً غير طويل ، ومع ذلك نقل عن أحمد فقها كثيراً ، وكان يتقبع الحكم التى ينطق بها أحمد ، ومما نقله فى ذلك قول أحمد : « الناس يحتاجون إلى العلم مثل الخبز والماء » وقد توفى حرب سنة ٢٨٠ .

٧ ـ ومن هؤلاء التلاميذ إبراهيم بن إسحق الحربي المتوفى سنة ٢٨٥ ، وقد نقل عن أحمد الفقه والحديث ، واتبعه في الزهد والورع، ويروى أن الخليفة المعتضد أرسل إليه عشرة آلاف درهم ، فردها ، فسأله أن يفرقها في جيرانه ، فقال للرسول : قل لأمير المؤمين ، مالم نشغل أنفسنا مجمعه لا نشغلها بتفريقه . قل لأمير المؤمنين! إن تركتنا، وإلا تحولها من جوارك وقد توفي سنة ٥٨٥. وقد نقل غير هؤلاء كثيرون ، ولكن هؤلاء كان لهم فضل اختصاص ، ولأكثرهم طول سحبة .

وجاء من بعد التلاميذ الذين محبوا الإمام \_ أبو بكر الخلال ، وقد صرف. عنايته إلى جميع علوم أحمد ، وسافر لأجلها وصنفها كتباً ، وقد حبب إليه رواية فقه أحمد محبته لأبى بكر المروذى، فنقل فقه أحمد عن كل من رواه، فنقلد عن أولاده ، وعن حرب ، والميمونى ، وغيرهم كثير ، يكثر تعدادهم ، ويشق. إحصاؤهم .

وبذلك يعد الخلال الناقل لفقه أحمد بعد تلاميذه ، وقد توفى سنة ٣١١ . ثم جاء بعد الخلال نقلة كشيرون ، حتى شاع المذهب وانتشر بين الناس . الأقوال فى المذهب :

٩٥ - كثرت الأقوال في المذهب الحنبلي ، ولذلك أسباب كثيرة منها:
 ١ --- أن أحمد كان فقيها سلفياً . فكان يتورع عن الترجيح ، فإذا نقل.
 قولين عن الصحابة أو بمض التابعين وليس هناك نص يؤيد ترك القولين.

أو الأكثر يكون في المذهب القولان أو الأكثر.

٣ — اختلاف الرواية عن رأى أحمد فى مسألة من المسائل ، فتكون كل رواية قولا ، ما لم يوجد ما يرجح صدق إحداها .

٤ — أن أحمد كان يفتى فى حال من الأحوال فى مسألة معينة ، فيسأل. عن المسألة نفسها ، ويرى اختلاف حال السائل عن حاله فى الأولى ، فيفتى بما يراه من حاله ، فيظن الراوى أنهما رأيان ، ولسكن الحقيقة أن الحال اختلفت. فاختلف الحسكم ، وأحمد يرى أنه يجب عند الإفتاء دراسة حال المستفتى ، فلمله يريد أن يتخذ الفتوى طريقاً لحرام .

اته قد كان يفتى أحياناً قليلة بالرأى المبنى على المصلحة أو القياس ،
 فتختلف أوجه النظر بين وجهين ، فيترك الوجهين من غير ترجيح .

#### . عــو المذهب

- ٦٠ الحنابلة يقررون أن باب الاجتهاد لم يقفل ، فإذا كان الذين يتعصبون لبمض المذاهب يقررون إغلاق باب الاجتهاد ، فالحنابلة يفتحون الياب لسكل من استأهل أن يكون مجتهدا ، وتحققت فيه أوصاف الاجتهاد ، وقد ذكر ناها في صدر هذا الكتاب، بل إنهم أكثر من هذا يرون أن وجود مجتهد مستقل مطلق فرض كفاية لا يصح أن يخلو منه عصر ، لأنه يجد للناس من الأحداث ما يجمل وجوده ضروريا ، حتى لا يضل الناس ، ويفتى من ليس لهم علم بالفتوى ، وحتى لا يندرس علم الكتاب والسنة ، فيرجع الناس إلى المذاهب يخرجون عليها ، وكأنها أصول بذاتها ، بدل أن يرجعوا إلى المكتاب والسنة .

( ۲٤ \_ تاريخ المذاهب )

وإنه لهذا ولغيره نما المذهب الحنبلي نمواً كبيراً ، ونموه يرجع مع هذا إلى أمور ثلاثة :

- ١ -- أصوله
- ۲ --- والفتاوى
- ٣ والتيخريج فيه

أما بالنسبة للأصول ، فإنا نراها كثيرة خصبة ، وقد ذكر ناها ، وقد كان المنسبة للأصول ، فإنا نراها كثيرة خصبة ، وقد ذكر ناها ، وقد كان المناهب من اعظم ما نمى ذلك المذهب هو مااشتمل عليه الحديث والسنة فى ذلك المذهب من إحاطة كبيرة بفتاوى الصحابة والتابعين وأقوالهم ، فقد بنى عليها المكثير من الغناوى فى المنجهدين فيه يخرجون الفتاوى فى المنجهدين فيه يخرجون عليه ، ويقيسون ، ويهتدون به .

ثم هذه الأصول الأخرى كانت فيها خصوبة ، وخصوصاً المصالح ، والذرائع ، فإنها فقحت أبواياً واسعة للاجتهاد على مقتضاها ، ولذلك كثرت الغروع المبنية عليها ، وقد وسعوا في باب الاستصحاب ، فأبيح به ما لم يبح في غيره بالنسبة للعقود .

وأما بالنسبة للفتاوى ، فإن الحنابلة كانوا يشددون فى شروط الإفتاء ، فلا يتولاها إلا من له قدم ثابتة فى علم الكتاب ، وعلم السنة ، وعلى اطلاع بفتاوى الصحابة والنابمين ، وعلم أصول المذهب وتفريعاته ، وله عقل مدرك و نية خالصة ، ومعرفة لأحوال الناس ، ومن كان هذا شأنه يستطيع أن يفتى فتاوى سليمة مناسبة لحال الناس ، مع الاستمساك بالأصول .

وقد أدَّعى الاجتهاد المطلق لكثيرين من فقهاء المذهب ، وقد فال ابن الفيم:
« إن منهم من وصل إلى درجة الإجتهاد المستقل المطلق ، وإن لم يصل إلى قدرة أحمد ، ومنهم من كان دون ذلك » ويقول فى فقهاء المذهب أيضاً : « ومن تأمل أحوال هؤلاء وفتاويهم واختياراتهم علم أنهم لم يكونوا مقلدين لأثمتهم فى كل

ما قالوه ، وخلافهم لهم أظهر من أن ينكر ، وإن كان منهم المقل ومنهم المكثر . وعقدار الكفاية العلمية عند أهل الفتيا والتفريع يكون نماء المذهب ، وسلامة التخريج فيه .

وأما بالنسبة لرجال المذهب، وعملهم فى تدميته فوق ما ذكرنا من قبل، منانهم قد رتبوا المذهب ترتيبًا محكمًا، فرتبوا عملهم فى الفتاوى والتفريعات، وقد قسموا الفناوى والأقوال إلى تلاثة أقسام:

أولها : الروايات المنسوبة لأحمد ، وكان الحسكم فيها صريحًا ، فقد أخذوا بها ، وبنوا عليها ، وفرعوا الفروع وخرجوا التخريجات .

ثانيها: التنبيهات، وهى الأقوال التى لم تنسب إلى أحمد بعبارات صربحة صدرت عنه، بل فهم رأى الإمام فيها عن طريق التنبيه بما تومىء إليه العبارة كأن يسوق حديثاً يدل على الحكم، ويبين حسن الحديث، أو يقويه بأى عبارة، وإن هذه أيضا تعتبر أقوالا فى المذهب بنوا عليها وخرجوا وفرعوا بما أوتوا من قوة الاستنباط الفقهى، وعلم بما روى من فتاوى الصحابة والتابعين وغيرهم.

التسم الثالث — الأوجه ، وهي ليست أقوال الإمام بالنس ، ولا بالتنبيه ولا بالإشارة ، بل هي أقوال المجتهدين والمخرجين والمذهب ، وإن كل اجتهاد المفقهاء الذين بلغو رتبة الإفتاء ، يضاف إلى المذهب ويعد وجها فيه ، ولو لم يره بالعبارة أو الإشارة عن الإمام رأى فيه ، وقد ينسب إلى الإمام ، والأصح ف المذهب أنها تكون أقوالا فيه ، ولا تنسب إلى الإمام .

وأجازوا مخالفة الإمام في المسائل القياسية ، ويكون ذلك وجها آخر في المذهب ، وإن لم ينسب إلى الإمام :

٦١ — ولقد كان لرجال المذهب الحنبلي جهود كبيره قي خدمة المذهب ،

ولفل من أعظمها استخراج قواعد جامعة لفروع المذهب وأشتات مسائله ،، فقد وجدوا أشتاتاً من الفروع موزعة فى الأبواب المختلفه ، ووجدوا أحكاما متشابهة ينص عليها فى أبواب مختلفة ، فجمعوا تلك الأشباه والنظائر ، وجعلوا كل طائفة متحدة الفكرة والعلة والحكم تدخل فى قاعدة جامعة لها ، فتكون من هذه الطوائف الفقهية قواعد تجمع المسائل الموحدة .

وهى تسهل الاطلاع على الأحكام العامة للمذهب ، وتكون بابا للعلم. بالفروع ، وتعطى صورة واضحة عن منطقه و اتجاهاته .

وقد ألفت عدة كتب فى القواعد كالقواعد الصغرى لنجم الدين الطوقى. والقواعد الدين بن عباس المعروف بابن اللحام المتوفى سنة ٨٠٣ .

# الحنبلية وانتشار المذهب

97 — مع قوه رجال الفقه الحنبلي لم يكن انتشاره متناسباً مع هذه القوتة وانساع الاستنباط فيه ، وإطلاق فقهائه حرية الاجتهاد لأهله ، فقد كان أتباع المذهب من العامة قليلين ، حتى إنهم لم يكونوا سواد الشعب في أى إقليم من الأقاليم ، إلا ماكان من أمرهم في نجد ، ثم في كثير عن الجزيرة العربية: بعد سيادة حكم آل السعود في تلك الجزيرة .

ولماذا كانت تلك الفلة ؟ والجواب عن ذلك أن عدة أسباب تضافرت. فقلَّلت من انتشار هذا المذهب :

أولها: أنه جاء بعد أن احتلت المذاهب الثلاثة التي سبقيّه الأمصار الإسلامية. فكان فى العراق مذهب أبى حنيفة ، وفى مصر المذهب الشافعي والمالكي ، وفي المغرب والأندلس المذهب المالكي .

ثانيها: أنه لم يكن منه قضاة ، والقضاة إنما ينشرون المذهب الذى يتبعونه ، مقابو يوسف ومن بعده محمد بن الحسن رضى الله عنهما نشرا المذهب العراق ، وخصوصاً آراء أبى حنيفة وتلاميذه ، وسحنون فى المغرب نشر المذهب المالكي ، والحكم الأموى فى الأندلس عمل على نشر ذلك المذهب أيضاً . ولم يبينل المذهب الحنبلي تلك الحظوة إلا فى الجزيرة العربية أخيراً .

وثالثها: شدة الحقابلة وتعصبهم ، وكثرة خلافهم مع العامة ، لا بالحجة والبرهان ، بل بالعمل ، وكانوا كما قويت شوكتهم اشتدوا على الناس باسم الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، واقرأ ماكتبه الكامل لابن الأثير عنهم « وفيها أى فى سنة ٣٢٣ عظم أمر الحنابلة ، وقويت شوكتهم ، وصاروا يكبسون دور القواعد والعامة ، وإن وجدوا نبيذاً أراقوه ، وإن وجدوا مفنية ضربوها وكسروا آلة الفناء ، واعترضوا فى البيع والشراء ، ومشى الرجال مع النساء والصبيان ، فإذا رأوا ذلك سألوه عن التى معه من هى ؟ فأخبرهم ، وإلا ضربوه ، وحلوه إلى صاحب الشرطة، وشهدوا عليه بالفاحشة ، فازهجوا بغداد»

وبهذه الأعمال وغيرها نفر الناس منهم، وقل أتباعهم ، والله سبحانهوتعالى حمو الذي يتولى الأمور بحكمته وتدبيره م

# المذهب الظاهرى داوود الأصبهاني ابن حزم الأندلسي

١ -- نتمرض في هذا الجزء للسكلام في المذهب الظاهري ، وهو المذهب الذي يقرر أن المصدر الفقهي هو النصوص، فلا رأى في حكم من أحكام الشرع، ونغي المعتنقون لهذا المذهب الرأى بكل أنواعه ، فلم يأخذوا بالقياس ، ولا" بالاستحسان ولا بالمصالح المرسلة ، ولا الذرائع ، بل يأخذون بالنصوص وحدها» وإذا لم يكن النص أخذوا بحكم الاستصحاب الذي هو الإباحة الأصلية الثابتة بقوله ثمالى : [ هو الذي خلق لـكم مافي الأرض جميماً ] ، وقد قرروا أحكاماً ا كثيرة خالفوا بها الفقهاء، فمثلاكل الفقهاءقالوا إن تصرفات المريض مرض الموت. لتعلق حق الورثة بالتركة تكون خاضعة لقيود خشية أن يكون بتصرفه محابياً لبعض الورثة كهبته ، فقد قالوا: إنها تأخذ حكم الوصية ، وذلك خشية أن يقصد حرمان الورثة من ميراثهم بهبة كل مايملك أو أكثره ، ولكن الظاهرية قالوا: إن تصرفات المريض كتصرفات الصحيح على سواء ، فلو وهب كل ماله فليس. لأحدأن يعترض، لأن أساس تقييد تصرفات المريض في مرض الموت هو الرأي. المبنى على سد الذرائع ، وهم لايقولون بالرأى في أي شعبة من شعبه ، وقد أداهم ترك الرأى والتمسك بالنصوص إلى أن يقولوا أحكامًا هي في متنهي الشذوذ ،. فهم مثلا يحكمون بنجاسة الماء ببول الإنسان لورود الحديث بذلك ، و يحكمون بأن بول الخنزير لاينجس الماء لعدم ورود النص بذلك ، وإذا قيل لهم إن بول. الحيوان يتبع لحمه ولحمه نجس ، قالوا : إن ذلك رأى ، ولارأى في أحكام الإسلام .. وإنه قدقام ببيان هذا المذهب عالمان أحدها داوود الأصبهاني، ويعد منشيء

المذهب لأنه أول من تكلم به، والعالم الثانى ابن حزم الأندلسى، وإذا لم يكن له فضل الإنشاء فله فضل التوضيح والبيان والأدلة والبسط الواضح ، وفوق ذلك هو أشد استمساكا بالظاهرية من داوود، ولا بد من السكلام فى حياة هذين العالمين ، ونبسط القول فى ثانيهما ، لأنه المنشىء الثانى، ولأنه هو الذى وضعه وبينه ، ولأنه هو الذى تشدد فيه ، حتى كان أكثر ظاهرية من داوود كما أشرنا .

# داوود بن على الأصبهاني « من سنة ۲۰۲ إلى سنة ۲۷۰ هـ»

ولقد ولد فى أول القرن الثالث وتوفى سنة ٢٧٠ ، ولقد تخرج فى الفقه على تلاميذ الشافعى ، والتتى بكثير من أصحابه الذين لازموه ، وكان معجباً أشد الإعجاب بالإمام الشافعى ، وقد صنف فى فضائله مؤلفاً .

وكان مع تلقيه فقه الشافعي يطلب الحديث ، فسمع الكثيرين من محدثي عصره ، وروى عنهم وسمع من المقيمين ببغداد موطنه ، ورحل إلى غيرالمقيمين ببغداد ، رحل إلى نيسابور ليسمع المحدثين هنالك ، وقد دون ما رواه في كتبه، وكانت كتبه مملوءة حديثاً ، ولما أنجه إلى فقه الظاهر ، كان فقهه هو مارواه من أحاديث .

ولكن كيف انتقل من الفقه الشافعي الذي تلقاء إلى فقه الظاهر؟ والجواب عن ذلك أن تأثره يالفقه الشافعي في الأخذ بالنصوص واحترامها مع كثرة رواية السنة في عصره ، جعله يتجه إلى النصوص وحدها ، ذلك أن الشافعي رضى الله عنه ، كان يفسر الشريعة تفسيراً مادياً موضوعيا ، فيعتبر مصادرالشريعة النصوص والحل عليها بالقياس فقط ، ويقول: الاجتهاد إما الاعتماد على نص ، أو حمل على عين قائمة أي نص قائم .

وقد انحرف داوود بهذا التفكير فجعل الشريعة فى نظره نصوصاً فقط ، ولا رأى فيها ، فلا علم فى الإسلام إلا من نص ، وأبطل القياس ولم يأخذ به ، ولقد قيل له كيف تبطل القياس؟ وقد أخذ به الشافعى؟ فقال أخذت أدلة الشافعى فى إبطال الاستحسان فوجدتها تبطل القياس .

وإنه بإجماع العلماء أول من أظهرالقول بظاهرية الشريمة ، وأخذالأحكام من ظواهر النصوص ، من غير تعليل لها ، ولهذا يقول الخطيب البغدادى فى ترجمته « إنه أول من أظهر انتحال الظاهر ، وننى القياس فى الأحكام قولا ، واضطر إليه فعلا ، وسماه الدليل (١)» .

والدليل الذى ذكره البغدادى باب من أبواب الاستدلال الفقهى يعتمد على صريح النصوص عند الظاهرية ، وليس هو عندهم بابا من أبواب القياس ، وله مناح شتى ، ومن أمثلته أن يذكر النصفيه مقدمتان ، ولا يصرح بالنتيجة ، كأن يقول : «كل مسكر خر ، وكل خر حرام » والنتيجة أن كل مسكر حرام ، ولحن النص لم يصرح بالنتيجة » فهل يعد هذا قياساً ؟ كلا إنه يعد من دلالة اللفظ ، أو القياس الإضمارى كا يقول المناطقة ، ومن ذلك أيضاً تعميم فعل الشرط ، مثل قوله تعالى . [قل : للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ماقد سلف ] فإن النص وارد فى الدكافرين ، ولكن معناه المأخوذ من لفظه يفيد أن كل من يكونون في حال عصيان وينتهون من هذا العصيان ، ويتوبون يكونون في حال غفران يكونون في حال غفران . . . وهكذا . . .

٣ -- وقد آتى الله تعالى داوود بن على علماً غزيراً بالأحاديث ، حتى لقد كانت كتبه مملوءة حديثاً ، لأن الحديث هو فقيه كما أشرنا، ولقد قلت الرواية عنه لا نتحاله القول بالظاهر ، ولأنه قال : إن القرآن الذي بأيدينا مخلوق ، وقد

<sup>(</sup>١) تاريخ بغداد ج٨ ص ٣٧٤ .

كان العلماء في عصره يتهمون من يقول هذا القول بأنه مبتدع ، ولا يؤخذ الحديث في نظرهم من أهل البدع ، ومع ذلك قد روى عنه عدد قليل ، ويقول الخطيب البغدادى: روى عنه ابنه محمد ، وزكريا بن يحيى الساجى ويوسف بن يعقوب ابن مهران الداودى ، والعباس بن أحمد المذكر (١١)».

ويظهر أن الذين رووا عنه ممن انتحاوا نحلته ، واتبعوه فى فقهه ، ولكن عامة الفقهاء والحدثين نفروا من روايته .

بل إنه بعد إعلان آرائه في القرآن والاستدلال الفقهى ، وبعض مسائل الفقه ، مثل قوله : إن للصحف يجوز أن يمسه الجنب، ومن ليس على وضوء — نفر منه علماء الحديث الكبار الذين كان يمكن أن يروى عنهم ، فقد أراد أن يأخذ الحديث عن أحمد ، فامتنع عن لقائه ، وكان فيه كياسة ، فأراد أن يحتال للقاء ولحد ، فامتنع عن الجهر بآرائه في بفداد ، وقد أعلنها في نيسابور ، لكى يتمكن من التلقي عن أحمد ، ومع ذلك أبعده أحمد عن لقائه ؛ فلجأ إلى صالح بن أحمد ، فكام هذا أباه ، وتلطف في الاستئذان ، فقال لأبيه : «سألني رجل أن يأتيك : وقل ما اسمه ؟ قال : داود . قال هومن أهل أصبهان ، وكان صالح يروغ عن تعريفه حتى لا يمتنع ، ولمكن أحمد أحرص من أن يدخل عليه رجل مثل هذا يخالفه ، فإزال يفحص حتى علم أنه داوود بن على بن خلف . فقال : «هذا كتب إلى عمد بن يحيى في أمره أنه زعم أن القرآن محدث ، فلا يقربني . فقال صالح : « إنه ينتني من هذا وينكره ، ولكن الإمام قد فهم سبب هذا الإنكار الذي هو في الحقيقة كتان ، ولذا قال محمد بن يحيى : أصدق منه ، لاتأذن له (٢٠) » .

ع - هذا إشارة إلى آرائه ، وسنبينها بالتفصيل عند ما نتكلم عن ابن حزم،
 فهو الذى سجل فقه أهل الظاهر في ديوان ضخم يعد من أعظم مصادر الإسلام،

<sup>(</sup>١) الكتاب المذكور ص ٣٧٠ (٧) طبقات ابن السبكى ج ٢ ص ٤٣٠

فى فقدالحديث، وآثار الصحابة، كما سجلأصول الفقه الظاهرى فى كتاب مستقل. قائم بذاته.

ولكن نقول: إن داود هذا مع نفور أهل عصره منه ، كانت فيه صفات. تعليه ، فقد كان فصيحاً قويا مبينا ، وكان حاضر البديهة قوى الحبحة ، سريم الاستدلال. حتى لقد قال فيه أبوزرعة معاصره: « لو اقتصر على ما يقتصر عليه أهل العلم. لظننت أنه يكمد به أهل البدع مما عنده من البيان و الأدلة ، و لكنه تعدى (1) ».

وكان جريثاً فيما يعتقد أنه الحق، لايهاب النطق به ، ولا يخشى فيه لومة لائم، . إلا أن يكون النطق برأيه بمنع عنه علماً فإنه يسكت رجاء العلم ، كا رأينا فى . قصة محاولته اللقاء بأحمد ، ولقد قال المستعلى معاصره «سمعت داود بن على الأصبهانى يرد على إستحاق « يعنى ابن راهويه » وما رأيت أحداً قبله ولا بعده يرد عليه هيبة له (٢) » .

وكان مع آرائه الجريئة ناسكا عابداً زاهداً ورعا تقيا ، فكان يعيش على القليل أو أقل من القليل ، ومع ذلك كان يرد الهدايا ، ولا يقبلها إفراطاً منه في الورع ، وإنه ليرسل إليه رجل من رجال الدولة ألف درهم ليصلح بها حاله ، فيردها مع الفلام ويقول له : «قل لمن أرسلك بأى عين رأيتني، وما الذي بلفك من حاجتي وخلتي . حتى وجهت إلى بهذا » .

وكان مع زهده وعبادته ونسكهجم التواضع والتطامن للناس، فهولا يتعالى. على أحد بعلمه ولا بعبادته . فإن بعض الزهاد يتخذون من نسكهم سبيلا للاستعلاء على الناس، والاستطالة عليهم بفضل تقواهم وورعهم، حتى إن بعضهم ليعتريه من الغرور ما يفض من فضل عبادته . وإن في مظهر التماوت

<sup>(</sup>۱) تاریخ بغداد ج ۸ ص ۳۷۳ (۲) تاریخ بغداد ج ۸ ص ۳۷۰

فى المبادة أحياناً مايخنى وراءه تمالياً وتسامياً فلم يكن داود من هذا النوع من الناس . ويقول فيه أحد مماصريه : « رأيت داود بن على يصلى . فا رأيت مسلماً يشبهه فى حسن تواضعه » .

#### نشره لمذهب الظاهر:

• — أخذ داود ينشر مذهبه في الاستنباط ، وكان يؤيده في دعوته كثره الرواية ، وكثرة السنة ورواجها في ذلك المصر ، وما إن تمكن مذهبه حتى كان له مؤيدون قليلون ومعارضون كثيرون ، وكان يعقد مجالس للمناظرة داعياً إلى فكره ، متجها إلى الكتاب والسنة وحدها ، ويعتمد على الإجماع . ويبنى عليه . ويروى في ذلك أنه دخل أبو سعيد البرذعي الحنني شيخ المذهب في القرن الثالث الهجرى . فسأله عن بيم أمهات الأولاد . فقال داود يجوز بيمهن قبل العلوق أي قبل أن تحمل بولدها . بيمهن . لأنا أجمعنا على جواز بيمهن قبل العلوق أي قبل أن تحمل بولدها . فلا يزول عن هذا الإجماع إلا بإجماع مثله ، فقال البرذعي أجمعنا على أن بيمها بعد العلوق قبلوضع الحل لا يجوز ، فيجب أن نتمسك بهذا الإجماع ، ولا نزول عنه إلا بإجماع مثله ).

وإنه كان من أسباب شدة المعارضة لهذا المذهب أن داود منع التقليد منعاً مظلقاً ، فلا يجوز للعامى أن يقلد ، بل عليه أن يجتهد ، وإن لم يستطع الاجتهاد ، سأل غيره ولكن لايقبل قول غيره إلاإذا قدم له الدليل من الكتاب أو السنة أو الإجماع ، فإن لم يقدم واحداً من هذه اتجه إلى غيره .

ومهما يكن أمر هذا الرأى منحيث سلامته . فإنه لم يكن أثره حسناً ، لأنه يجرىء على الاجتهاد من لا يحسن فهم الـكتاب ولاالسنة ، ومن تمسكوا بظواهر النصوص ، فكانوا كالخوارج الذين يتعلقون بظواهر النصوص ولا بكفرون .

<sup>(</sup>١) مقدمة النبذ لصديقنا المرحوم الإمام الـكوثرى ص ٤

٣ ـــ وإن المذهب قد انتشر مع معارضة الكثيرين له ، حتى إن بعض الفقهاء ليقولون إن خلافهم لا ينقض الإجماع ، والأكثرون على أنه ينقض الإجماع إذا كان خلافهم فى غير القياس .

وكان نشره بسببين :

أولهما \_ كتب داود ، فقد ألف كتباً كلها سنن وآثار قد اشتملت مع أدلته التي أثبت بها مذهبه \_ على آرائه فى فروع فقهية عرضت له ، مبينا أحكامها من النصوص ، ومبينا مع ذلك شمول النصوص لحكل مايحتاج المسلم من أحكام للحوادث التي يبتلى بها ، وإن الكتب بذاتها آثار مستمرة غير قابلة للمحو ، وهى تدعو بذاتها إلى مذهب كاتبيها فهى السجل الخالد للأعمال الفكرية .

وثانيهما \_ تلاميذه الذين نشروا ما فى هذه الكتب من علم ، والجو العلمى الذى أحدثته . وكان أخص تلاميذه الذى قام على الدءوة المذهب ونشر كنتبه ابنه أبو بكر محمد بن داود ، فقد قام على تلك التركة المثرية من علم السنة التى تركها أبوه ، فنشرها ، ودعا الناس إليها ، وكان يجذبهم نحوها إعلاؤهم لمقام السنة فى وقت قد كثرت فيه الآراء الفقهية والتفريعات المذهبية .

وبسبب هذين الأمرين انتشر المذهب الظاهرى فى القرن الرابع فى الرابع الشرق، حتى قال صاحب أحسن التقاسم إنه كان رايع مذهب فى القرن الرابع فى الشرق، وكان الثلاثة التى هو رابعها مذهب الشافعى وأبى حنيفة . ومالك ، فكأنه كان فى الشرق أكثر انتشارا وتابعاً من مذهب أحمد إمام السنة فى القرن الرابع الهجرى (۱) ولسكن فى القرن الخامس جاء القاضى أبو يعلى ، وجعل للمذهب الحنبلى مكانة ، و بذلك زحزح المذهب الظاهرى ، وحل محله ،

وفي هذه القترة التي كان للمذهب الظاهري سلطان في بلادالشرق ظهرفيه

<sup>(</sup>١) مقدمة النبذ للإمام الـكوثرى .

علماء أفذاذ، أمدوا الفكر الفقهى بأحكام فى الفروع تعتمدعلى الكعاب والسنة. وإجماع الصحابة .

## المذهب الظاهرى بالأندلس:

٧ - فى الوقت الذى خبا فيه ضوء ذلك المذهب بالشرق ـ كان يحياحياة . قوية فى الأندلس ، لا بكثره الأتباع والأنصار بل بتصدى عالم قوى فى تفكيره آناه الله قلماً مصوراً ، ولساتاً عضبا عنيفاً ، ذله هو ابن حزم الأندلسى ، فإن . ابن حزم فى الفترة التى زحم قيها المذهب الظاهرى مذهب الإمام أحمد على يد القاضى أبى يعلى ، قد أخذ ابن حزم يقرر المذهب الظاهرى فى قوه وعنف ، يد القاضى أبى يعلى ، قد أخذ ابن حزم يقرر المذهب الظاهرى فى قوه وعنف ، ويناضل عنه فى غير رفق ، وذلك لأن الفقيهين الجليلين عاشا فى عصر واحد ، إذ أن أبا يعلى توفى سنة ١٥٨ وتوفى الثانى سنة ٢٥٦ ، فهما قد عاشا فى فترة . واحدة من الزمان .

واكن كيف انتقل ذلك للذهب من مشارق الأرض إلى مغاربها ودخل. الأندلم. ؟

إن ذلك المذهب ، وإن لم تكن له سوق رائجة بالمفرب والأندلس كانت. بذوره تنبت فيهما ، بل كان منهاجه ينتقل إليها في الوقت الذي كان يعيش فيه داود نفسه ، فإنه في القرن الثالث الهجرى رحلت طائفة كبيرة من علماء قرطبة المبرزين المتازين إلى بلاد المشرق ينتهلون من علمها ، ويردون موارده المذبة ، ومنهم من التتى بالإمام أحمد ومعاصريه كداود بن على بن خلف وغيره ، ومنهم من له منزلة في الدولة .

وقد نقل هؤلاء علم السنة والآثار من المشرق ، ونشروها بالأندلس . كا نقلوا مذاهب المشرق إليه . ووجد بالأندلس دعاة المذهب المظاهرى . ومن هؤلاء القاضى خطيب الأندلس منذر بن سعيد المتوفى سنة ٣٥٥. ولعله فيها كان أكثر حظاً من المذهب الحنفي والشافعي والحنبلي ، إذو جدله علماء ينشرونه

وكان من أظهرهم من تلقى عنه ابن حزم المذهب، وهو مسعود بن سليان بن سفلت أبى الخيار، المتوفى سنة ٤٢٦.

كان مسعود هذا أمنية ابن حزم الأندلسى، وكان يذكره دائما على أنه أستاذه، كان حر الفكر، لا يتقيد بمذهب، وكان لا يرى تقليد أى مذهب وكان داودى المنهاج، فهو ينهج منهاج أهل الظاهر فى الاستدلال وكان معواضعا، يطلب العلم أنى كان ومن أى عالم كان، ويرى أن العلم يطلب من المهد إلى اللحد. وقد أخذ بنشر الذهب فى ربوع الأندلس، وإن كان فى دائرة ضيقة. وإذا كان داود قد ألف كتباً فى فروع فقهية كلها أحاديث وسنن، فإنه قد جاء بعده فقيه عبقرى قد سحل المذهب فى هذا الوجود بالدفاع عنه، والاستدلال له، خالف داود ووافقه، ولكنه فى الحالين أيد منهاجه، فكان الإمام الثانى الذى أبقى المذاهب، بعد أن ذهبت آثار داود. وهو ابن حزم،

# **ابن حزم** من ۳۸۶ إلى ۴۵۶

ا \_ هو على بن أحمد بن سعيد بن حزم بن غالب بن صالح بن أبى سفيان يزيد ، وكنيته أبو محمد ، وهى التي كان يعبر بها في كتبه وشهر ته ابن حزم ولقد كان أبوه أحمد من أسرة لها شأن في حكم الأمويين بالأندلس، وقد ذكر ابن حزم أنه ينتمى لأسرة فارسية ، فجده الأعلى كان فارسيا ، ومولى ليزيد بن أبى سفيان أخى معاوية ، وعلى ذلك فهو قرشى بالولاء ، فارسى بالعنصر والجنس وإنه لهذا الولاء كان يتعصب لبنى أمية ، يعادى من يعاديهم ، ويوالى من يواليهم . وذلك من الوفاء الذى كان أخص صفات ابن حزم .

ولم يسلم ابن حزم من طعن فى نسبه ، فقد أنكر أبو حيان التوحيدى نسبة ابن حزم إلى فارس ، وقال إنه من عجم « لبلة » وغير معروف الجنس ، وإن أباه أحمد هو الذى رفع شأن هذه الأسرة ، وإننا لا نكذب ابن حزم فى نسبه ، فهو أعلم الناس به ، وقد استمرت أسرته فى خدمة البيت الأموى ، انتقلت معه ، لما انتقل إلى الأنداس يحكمها .

وإنه إذاكان قد عقد ولاءه جده الأعلى مع يزيد بن أبى سفيان ، فإن ذلك يقتضى أن تكون أسرته عريقة فى الإسلام من وقت ذلك العقد ، ولا يلتفت إلى ما أثاره أبو حيان من أن أسرته كانت نصرانية من عجم لبلة ، وإسلامها قريباً ، ولم يكن عريقاً .

# مولدمونشأته :

٧ - لا يكاد الباحث يجد عالما قد عرف وقت ميلاده بطريق التعيين الذي لاشك فيه، ولكن ابن حزم قد عين تاريخ ميلاده بالساعة، لا باليوم:

ولا بالشهر والسنة فقط، فقد كتب إلى القاضى صاعد (<sup>1)</sup> أنه ولد في آخر يوم من. أيام رمضان سنة ٤٨٤، وكانت ولادته فى تلك الليلة بعد الفجر ، وقبل شروق الشمس » وإن ذلك يدل على عناية أسرته بتاريخ ميلاد آحادها ، وذلك نوع; من الرقى الفكرى .

وكان مولده بالجانب الشرق من قرطبة التي كانت حاضرة العلم فى أوربه في ذلك الإبان ، وكانت إحدى الحواضر الإسلامية التي تضم فى ثناياها كنوز. العلم والمعرفة والعمران والحضارة .

٣ — وقد نشأ ابن حزم فى بيت له سلطان فى الدولة ، وله ثراء وجاه ، وكان يمتز بأنه طلب العلم لا يبغى به جاها ولا مالا ، ولكن يبغى المعرفة لذات المعرفة ، ويروى فى ذلك أنه تناظر مع الباجى شارح الموطأ ، وهذه هى المناظرة كا جاءت فى نفح الطيب (٢).

قال الباجى : «أنا أعظم منك همة فى طلب العلم ، لأنك طلبته، وأنت معان. عليه ، فتسهر بمشكاة الذهب ، وطلبته وأنا أسهر بقنذيل السوق » ،

فقال ابن حزم: هذا الـكلام عليك، لا لك، لأنك إنما طلبت العلم، وأنت في هذه الحال رجاء تبديلها بمثل حالى، وأنا طلبته في حال ماتعلمه وما ذكرته فلم أرج به إلا علو القدر العلمي في الدنيا والآخرة » (٢).

نشأ ابن حزم فى هذا البيت الرافغ بالنميم ، فابتدأ باستحفاظ القرآن ،. ويقول إنه حفظه فى بيته ، حفظه إياه النساء من الجوارى والقريبات<sup>(٣)</sup> .

وإن هؤلاء النسوة هن اللائى علمنه الـكتابة ، وجودة الخط ، ولم يكن.

<sup>(</sup>١) هو القاضي صاعد بن أحمد الجياني الأندلسي المتوفي سنة ٤٦٢ .

<sup>(</sup>۲) نفح الطيب للمقرى ج ٦ ص ٢٠٢ طبع فريد الرفاعي .

<sup>(</sup>٣) طوق الحمامة ص ٥٠ ، طبع القاهرة .

النساء قوامات عليه في التعليم فقط ، بل كن حريصات عليه ، يمنعنه من أن يقم في فهنة أحد في غرارة الصبا ، وحدة الشباب ، وهو يقول في ذلك :

« و إنى كمنت وقت تأجيج نار الصبا وشرة الحداثة ، وتمكن غرارة الفتوة مقصوراً محظراً على بين رقباء ورقائب ، فلما ملسكت نقسى ، وعقلت صبت أبا الحسن بن على الفاسى ٠٠٠ وكان عاقلا عاملاعالما ممن تقدم فى الصلاح والنسك الصحيح فى الزهد فى الدنيا ، والاجتهاد للآخرة ، وأحسبه كان حصوراً لأنه لم تكن له امرأة قط ، وما رأيت مثله علما وعملا ، وديناً وورعا ، فنفىنى الله به كثيراً ، وعلمت موضع الإساءة ، وقبح للماصى ، ومات أبو الحسن رحمه الله تعالى فى طريق الحق () » .

# من الرخاء إلى الشدة:

ع ــ نشأ ابن حزم فى تربية الجوارى والنساء ، مع تهذيب الرجال والعلماء فالأوليات راقبين عواطفه ، وعلمته القرآن والحديث والخط ، والآخرون أخذو المقيادة فكره وقلبه ونفسه إلى الدمل الآخرة .

والحياة في صورتها حياة ناعمة لم تكن خشنة بل هادئة ، وكانت مطمئنة ، ولو أنها استمرت لحكان ابن حزم رجلا من بعد لا قوة ولا شكيمة عنده ، لأن نعيم الحياة يوجد طراوة في الأخلاق ، قد تضعف الرجال .

ولأن الله تمالى قدر أن يكون منه رجل قوى فى شكيمته يصك مخالفيه بعنيف القول ، كما تصك الوجوه بصخر الجندل - قد ابتلاه بالشدة ، كااختبره بالهناءة والدعة ، فإنه وهو فى الخامسة عشرة من عره نشأت بأسرته شدة بدلت نميمها بؤسا ، وذاقت بعدها كأس المرارة ، فإن أباه كان وزيراً من وزراء بنى

<sup>(</sup>١) طوق الحمامة ص ١٧٦ طبع القاهرة .

أمية ، ولما تولى هشام المؤيد ، وكان صغيرا وكانت الاضطرابات الشديدة ، فكان الخليفة الأموى كما كانوا بسمونه اسما خاليا من مسماه ، ثم كان النزاع الشديد بين أهل البيت الأموى ، ولغترك الكلمة لابن حزم يحكى ماوقع لأسر ته بقلم مصور فهو يقول : « شفلنا بعد قيام أمير المؤمنين هشام المؤيد بالنكبات ، وباعتداء أرباب دولته ، وامتحنا بالاعتقال والتفريب ، والإغرام الفادح ، وأرزمت الفتنة وألقت باعها ، وعمت الناس وخصتنا إلى أن توفى أبى الوزير رحمه الله ، و نحن فى هذه الأحوال بعد العصر يوم السبت لليلتين بقيتا من ذى القعدة سنة ٤٠٢ » .

ابتدأت الشدائد تصقل تلك النفس اللينة ، فجملت منها إرادة قوية ، فقد انتهيت بيوتهم الجديدة ، واضطروا للانتقال إلى القديمة ، ثم اضطرتهم الحن والشدائد إلى الانتقال من قرطبة حاضرة الأندلس إلى المرية .

# إلى مجد العلم:

ه ... نزل بأسرة ابن حزم فى أول شبابه صدمة نقلتها من العزة إلى التغريب والانتهاب، ولحنها لم تنقلها مين الغنى إلى الفقر ، بل إن البقية التى بقيت لهامن المال كانت كبيرة ، و إن كانت قد نقصت أشطراً ، ولحن ابن الوزير كان يبغى أن ينشأ ليكون وزيراً ؛ إذ أن قانون الوراثة فى هذه الأزمان لم يكن مقصوراً على وراثة الدم والشكل ، بل تجاوزه إلى وراثة المنصب والعمل .

وقد كانت تلك الصدمة موجهة ابن حزم لأن يكون للملم خالصاً ، ولايعتز بغيره ، وإن تخلل حياته اشتغال بالسياسة فقد كان عرضياً ، وبحكم الوفاء ، وكان ينقضى من قريب .

آنجه إلى الملم ، وقد مهدت له أسرته طريقه ، فتذوقه صغيراً ، وحلا مذاقه في نفسه كبيرا ، فانصرف إليه .

آتجه إلى العلم بالقرآن، ثمرواية الحديث، وعلم اللسان. فبلغ في كلذلك المبلغ

الذى وصل فيه إلى المرتبة العليا ، ثم أنجه من بعد ذلك إلى الفقه ، ولكنه لح ينصرف إليه بكليته في صدر حياته ، بلكان يتعلم منه ما يكفي لثقافة رجل يكون مبرزا في العلوم التي اشتهرت في عصره ، من علم باللغة والحديث والقرآن، والحكمة ، والفلسفة إلى غير ذلك .

ابتدأ دراسته للفقه على مذهب مالك رضى الله عنه ، لأنه مذهب أهل الأندلس وشمال أفريقية ، وقد جاء فى تذكرة الحفاظ للذهبى برواية عن بعض معاصريه أنه قال: « بينما تحن ببلنسية ندرس المذهب (أى مذهب مالك) إذا . بأبى محمد بن حزم يسمعنا ويتعجب! ثم سأل الحاضرين عن شىءمن الققه أجيب عنه ، فاعترض فيه ، فقال له بعض الحاضرين هذا ليس من منتجلاتك ، فقام . وقعد ، ودخل منزله فمكف ، ووكف منه وابل ، وماكان بعد شهر حتى قصدنا . إلى ذلك الموضع ، فناظر أحسن مناظرة ، قال فيها ، أنا أتبع الحق واجتهد ، ولاأ تقيد بمذهب » .

اتجه إلى مذهب مالك ، وكان قدقرأ فياقرأ من كتب الحديث كتاب الموطأ، ولكنه مع دراسته للمذهب المالكي كان يتطلع إلى أن يكون حراً يتخير من المذاهب الفقهية ، ولا يتقيد بمذهب ، ولا بدأنه قرأ للشافعي اختلاف مالك طالدي انتقد فيه آراء مالك في الأصول والفروع .

ولذلك انتقل من المذهب المالكي إلى المذهب الشافى ، وبدر استه للمذهب الشافى أطل على مذاهب العراقيين عبدالرحن بن أبى ليلى ، و ابن شبرمة وعبّان البتى ، وشيخ فقهاء القياس أبى حنيفة و تلاميذه أبى يوسف و محمد بن الحسن ، وزفر بن المذيل وغيرهم .

وقد أعجبه من بينهذه المذاهب المذهب الشافعي، ولعل خير ما أعجبه فيه تمسكه بالنصوص، واعتباره الفقه نصاً أو حملا على النص، وشدة حملته على حمن أفتى بالاستحسان، ومن بينه المصالح الرسلة، إذ الاستحسان في اصطلاح

الشافعي يشمل المصالح، وقد قرأ من غير شك كتاب أبطال الاستحسان .

ولكنه لم يلبث إلا قليلا في المذهب الشافعي، بل تركه كما ترك داود ذلك. المذهب، ثم رأى فيه مارأى داود، إذ وجد أن الأدلة التي ساقها الشافعي لبطلان. الاستحسان تصلح لأن تبطل القياس وكل وجوه الرأى أيا كانت.

وفوق ذلك كانت السلسلة من العلماء التي وجدت بالأندلس تمهد للمذهب. الظاهرى بها ، وخصوصاً مسعود بن سليان الذي أخذ عنه ابن حزم ، وقدرأى. ذلك العالم الزاهد يتخير من المذاهب مايتفق معالنصوص ، ويجتهد في استخراج, الأحكام من النصوص ، ولا يعتمد على غيرها .

#### سیاسة عرضیة فی حیاته :

٣ -- استمرت المنازعات في البيت الأموى، وهو الوفي لهذا البيت ، كاكان. أبوه من قبل ، فلما استمر الخلاف والتناحر ارتضى لنفسه وهو في ميمة الصبا ، مانهجه أبوه من قبله ، وهو أن يكف عن نصرة فريق على فريق من ذلك ، هما جعله ينصر ف للعلم انصرافا تاما مطلقاً ، وانتهت المنازعات بأن استولى على ، الأمر آل حمود ، وهم علويون بينهم و بين البيت الأموى ما يينهم من القديم .

فكان لتلك النتيجة ما يؤلم ابن حزم الوفى للبيت الأموى ، وازدادت الشدة ، على بيت ابن حزم وعلى شخصه ، لأنه معروف بولائه الأمويين ، ولم يقابل ابن حزم الاضطهاد هذه المرة بالاستكانة ، أو الاستمرار في صومعة العلم ، بل انضم هو ومن اضطهدوا معه إلى أموى قام مطالبا ، وهو المرتضى عبد الرحمن بن محمد وهو يقول في ذلك : « ركبنا البحر قاصدين بلنسية عند ظهور أمير المؤمنين. المرتضى عبد الرحمن بن محمد ، وساكناه بها » .

أخذ ابن حزم يناصرذلك الأموى ويعاونه، ولكنه لم يستمرطويلا، لأن عبد الرحن هذا لم يكن عنده جند أشداء، ولم يكن عنده من الأنصار ما عند

ابن حود ، وليس له من الحيلة والقديم ماعند ابن حود ، ولذلك دبر الأمر الاغتياله ، وقيل إنه جم له الجموع والأنصار ، فاغتيل عبد الرحمن، وانتهى أمره . ولم يكن أنصاره من القوه بحيث يقيمون دولته ، بل صاروا عرضة للاضطهاد . والتفريب بل الأسر والتقييد .

وقد اشترك ابن حزم فى حملات عبد الرحمن، فسار معه فى جيشه الذى أراد ، به الاستيلاء على غرناطة ، ولكن عبد الرحمن اغتيل قبل أن يتم له ما أراد ، وحينئذ أصيب ابن حزم بما يصيب المهزوم ، فقد أسر واستمر فى الأسر مدة ، مم فك إساره سنة ٤٠٩ .

#### العودة إلى محراب العلم :

٧- عاد ابن حزم إلى العلم ، وعاد معه إلى قرطبة التى غادرها عند اشتداد الحال بها ، وعاد بعد أن غاب نحواً من ست سنين، وهو يقول فى ذلك «خرجت عن قرظبة أول المحرم سنة أربع وأربعائة ، ثم دخلتها فى شوال سنة تسع ، وأربعائة » .

عاد ابن حزم إلى العلم ملاذه وملجئه ، ومأواه الذي كان يؤويه في شدائده ، وانصرف إليه كشأنه الأول ، وأخذ في دراسة الفقه والحديث كا ابتدأ ، ثم ، زاد على ذلك أنه أخذ يدافع عن الإسلام ، ويبطل مايثيره اليهود والنصارى حوله ، وقد أفاد الإسلام في ذلك فائدة جليلة .

### السياسة تجذبه مرة أخرى:

٨- كان ينبنى لابن حزم أن يهجر السياسة بعد تجربته السابقة ، ولكنه . جذب إليها مرة أخرى ، وإن الحبل الذى يشده إليها هو وفاؤه للأمويين ، ورغبته فى نصرة هذا البيت الذى أكرم أسرته ، فقد ظهر أموى يؤيده أهل قرطبة عنى السنواب التى تحبداً من سنة ٤١٨ إلى سنة ٤٧٢ ، وأبو محمد بن حزم سرعان

ماتقدم لنصرته، فاستوزره هذا ، وقد جاء في معجم ياقوت : ه كان الفقيه أبو محمد وزيرا لمبد الرحن المستظهر بالله بن هشام .... ثم لهشام المعتد بالله بن محمد بن عبد الرحن العاصر .

وإن هشاما هذا قد بايعه ابنجهور عيد قرطبة ، و كان ذلك سنة ٤١٨ و كان. بالنفر في (لارده) ، وقد أقام فيها. ثلاث سنين، ثم قدم إلى قرطبة، وخلع من الملك سنة ٤٢٢ ، وهو آخر الأمويين بالأندلس وقد قال المقرى في خلعه « خلعه الجند سنة ٤٢٢ ، وفر إلى لارده ، فهلك بهما سنة ثمان وعشرين ، وانقطعت الدولة الأموية من الأرض ، وانتثر سلك الخلافة بالمفرب ، وقام الطوائف بعد انقراض الخلائف، وانتزل الأمراء والرؤساء من البربر والعرب والموالى بالجهات ، واقتسموا خطتها » (١).

انقطعت الأسرة الأموية من الأرض على أساس أنها حاكمة ، محكم على أنها خلافة ، وكان انقطاعها ، مؤدياً بابن حزم إلى الانصراف المطلق إلى العلم ، وإلى المأس من أن يكون له أو لأسرته سلطان من بعد ، وإن الأول كان خير الحضاء للإسلام ، أما الثانى فقد أوجد مع اليأس ومع اعتلال جسمه بؤسا نفسياً ، وتبرما بالناس فكانت الحدة التي تبدو في كتاباته .

#### مميشته . :

وإذا كان ابن حزم يعيش عيشة تعدمن عيشة الأغنياء ، فقد كان ذا مزارع .
 وإذا كان قد أصابه حرمان من بعض مال أسرته ، فإن ذلك لم ينزله إلى رتبة الفقر كا بينا ، أو دون الأغنياء ، ولكنه يذكر مع ذلك مافقده بمرارة وألم .
 فيقول في آخر كتابه طوق الحامة الذي كان رسالة أرسلها لأحد أصدقائه :

<sup>(</sup>١) نفح الطيب ج ٤ ص ٥٠ .

« أنت تعلم أن ذهني متقلب ، وبالى مضطرب ، عا نحن فيه من نبوالدار، والجلاء عن الأوطان « وتغير الزمان ونكبات السلطان ، وتغير الإخوان ، وفساد الأحوال ، ، وتبدل الأيام ، وذهاب الوفر ، والخروج عن الطارف والتالد ، واقتطاع مكاسب الآباء والأجداد ، والغربة في البلاد ، وذهاب المال والجاه والفكر في صيانة الأهل والولد ، واليأس من الرجوع إلى موضع الأهل ، ومدافعة الدهر ، وانتظار الأقدار ، لاجعلنا الله من المشاكين إلا إليه ، وأعادنا إلى فضل ماعودنا ، وإن الذي أبق لأكثر مما أخذ ، ومواهبه الحيطة بنا . ونعمه التي غرتنا لانحد ، ولا يؤدي شكرها ، والدكل منحه وعطاياه ، ولاحكم لنا في أنفسنا ، وتحن منه ، وإليه منقلبنا ، وكل عارية راجعة إلى معيرها وله الحد أولا وآخراً وعوداً وبدءاً » (١) .

وإن هذا النص مع أنه شكوى من الزمان، فيه تسليم وإذعان، ويدل أيضاً على أن ما بق من المال فوق السكفاية وماقطع من المال لم يغير البسطة فى الرزق، ولعل أشد ما كان يشكو منه هو أنه فقد الجاه، فهذه هى المرارة التى ذاقها ، وذلك هو شأن من ينشأ فى أسرة ذات سلطان ، ثم تصاب بالمبعد عنه ، ومع أنه قد عوض عن ذلك بجاه العلم ، وهو الذى أبقاه وخلاه إلى الميوم . لم ينس جاه السلطان و الوزارة .

رحلاته :

۱۰ -- أخذ ابن حزم ينتقل فى بلاد الأندلس، وهى كالحديقة الغناء، حيثما حل وجد طيب الإقامة ، ولين العيش ، وهو فى هــذه الانتقالات ينشر فقهه وآراءه ، وكان استيلاؤه على اللغة ، وعلمه بالحسكة والقلسفة وطرق الجدل

<sup>(</sup>١) طوق الحامة طبع القاهرة ص ١٥٤.

يجذب إليه الشباب فى كل مكان ، فيطوفون به ، ويلقنهم آراءه ، وأفكاره ، وكان لها أثر واضح فى تفكيره ، فكانت هذه الرحلات سبباً فى راحة نفصه ، ونشر فكره .

ولقد التقى فى إحدى هذه الرحلات بالباجى، وكانت لهما مجادلات فقهية، وقد نقل المقرى خبر لقائهما فقال:

« لما قدم (أى الباجى) الأنداس وجد الكلام ابن حزم طلاوة ، إلاأنه كان خارجا عن المذهب ، ولم يكن بالأنداس من يشتغل بعلمه ، فقصرت ألسنة الفقهاء عن مجادلته وكلامه ، واتبعه على رأيه جماعة من أهل الجهل ، وحل بجزيرة ميورقة فرأس فيها واتبعه أهلها ، فلما قدم أبو الوليد (الباجى) كلوه فى ذلك ، فدخل إليه و ناظره ، وشهر باطله ، وله مجالس كثيرة » (١).

وإن هذه المناظرات كانت بعد أن نضج ابن حزم ، وتجاوز سن الشباب ، ودخل في الكمولة، فقد ثبت أن الباجي لم يدخل الأندلس إلا سنة ٤٤٠ هـ وعلى ذلك تكون هذه للناقشة وقد دخل ابن حزم في العشرة السادسة .

وإذاكان ابن حزم قد فقد معاونة أكثر الأمراء ، فقد كانله معاونة من الأصدقاء ، و بعض العلماء من الولاة ، فإن إقامته بميورقة ، ورياسته للعلم فيها ، وانجذاب أهلما إليه كان من أسبابه أن ولايتها كانت لأحمد بن رشيق صديقه، فكان يناصره ، ويعاونه ، وقد توفى سنة ٤٤٠ .

فبعد موته ضعف أمر ابن حزم عند الحكومة، وقد تظاهر عليه الفقهاء، كا تظاهروا عليه في كل مكان حل فيه واستعانوا بأبى الوليد الباجى ، فناقش ابن حزم ، وانتصر عليه ، كما ادعى الذين لايهضمون تقكير ابن حزم .

ولقد خرج ابن حزم من ميورقة من غير أن يكون مغلوبا في حجاج ،

<sup>(</sup>٩) نفح الطيب ج ٣ ص ١٧٦ طبع فريد الرفاعي .

ولكن لأنه فقد النصير المؤيد ، ولم يعد الانتصار للحجة والبرهان ، بل صار للن هو أكثر عدداً وأعز نقراً .

وقد كان الذى يأخذونه عليه أنه يخالف المذهب المالكي ، وبشن عليه المنارة ، ويضرب بأقوال جمهور الفقهاء الذى يتخذون الرأى منهاجاً فقهياً عرض الحائط في عنف وقوة ، لأنه لا يعتمد إلا على النصوص ، و يحسب في ظنه أنها وحدها الفقه ، ولا فقه غيرها ، وأنه ليس للمقل أن يخوض إلا في فهمها ، فإن خاض فها وراءها ، فإنه لا يمكن أن يكون ما يأتي به من الأحكام الشرعية .

وقد غادر ابن حزم ميورقة ، وأخذ بمر على بلاد الأندلس ، وكتبه على أحمالها ، ولسانه وقلمه صارمان صادعان بكل مايمتقده ويؤمن به ، غير وان ولا مقصر .

# إحراق كنيه

١١ - انتهى ابن حزم من تطوافه فى الأندلس إلى الإقامة فى أشبيلية أمدا
 فى مدة حكم المعتضد بن عباد الذى تولى أمرها من سنة ٢٣٩ إلى ستة ٤٦٤ .

والمعتضد هذا لم يكرم مثوى العالم العظيم، وقد ابتدأت الشيخوخة تدب إليه دبيبًا، بل أغرى به، فأنزل به عقوبة نفسية هى أقسى ما ينزل بالعالم، وهى إحراق كتبه، ولكن خففها أنها نزلت، وقد مرسته، التجارب وشرب من الكأسين الحلو والمر.

ولنذكر كلة مشيرة إلى أصل المعتضد ونسبه: للمعتضد هذا هو ابن القاضى أبى القاسم محمد بن إسماعيل بن عباد اللخمى ، والقاضى هو الذي أنشأ ملك بني عباد إذ اختاره أهل أشبيلية أميراً عليهم في عهد بني حمود، عندما ضعفوا، وقد أداراً شبيلية وماحولها بمجلس شورى مختار من العلماء ، وذوى الرأى فدبر أمرها أحسن تدبير إلى أن مات سنة ٤٣٩ .

فياء المعتضد، وجرى على سنة أبيه، مستميناً بمجلس الشورى، ولكن بدا له أن يستبد بالأمر، ووافته المقادير، ولكن كيف يستبد بالأمر، وقوة أبيه مستمدة من إرادة شعبية مختارة، ولم يكن من أسرة الخلافة حتى يدعى أنه تولاها بحكم العهد من خليفة يشترك معه فى النسب، كا جرى الأمر فى عهد الأمويين والعباسيين، ولكن لا بأس من الانتحال فى هذا المقام؛ فإنه ادعى أنه استمد السلطان من هشام بن الحكم المؤيد الأموى، وادعى أنه حى يرزق، مع أنه مات سنة ٢٢٤ ـ ويقال إن الذى ادعى ذلك هو أبوه القاضى، ولكن الأكثرين على أنه هو.

وماكان لابن حزم أن يسكت على هذه الفرية ، وهي تمسأولياءه ، لذاك كشفها بلفته القاسية في رسالة موجزة هي ( نقط العروس ) فقد جاء فيها :

« أخلوقة لم يقع فى التاريخ مثلها ، فإنه ظهر رجل حصرى بعد اثنتين وعشرين سنة من موت هشام بن الحسكم المؤيد ، وادعى أنه هو ، فبويع له ، وخطب له على جميع منابر الأندلس فى أوقات شتى ، وسفكت الدماء ، وتصادمت الجيوش فى أمره » (1) .

وهشام هذا هو الذى ادعى المعتضد أو أيوه النيابة عنهو الحسكم باسمه، فهو طمن صريح فيها ادعى ، وكان المعتضد رجلا صارماً عنيفاً لاتقف فى سبيل غاياته عاطفة مهما تسكن ، حتى إنه قتل ابنه ، إذ علم أنه يأتمر به ، وإنه ليبلغه أن رجلا كفيفاً صادر أمواله ، دعا عليه فى البيت الحرام، فأرسل إليه من لاحقه وقتله بالسم .

۱۲ — هذا الرجل أتجه إلى إحراق كتب ابن حزم ، ولكن كيف دبر ذلك ؟ إن العلماء في كل مكان تضيق صدورهم حرجا بآراء ابن حزم، وخصوصاً

<sup>(</sup>١٨) رسالة نقطالمروس طبع سنة ١٩٥١ص ٨٣، حققها الأستاذ الدكتورشوقىضيف

فى تهجمه على آراء الإمام مالك رضى الله عنه ، وفى منهاجه الاجتهادى الذى. خالف به جماهير الفقهاء فى الشرق والغرب ، وقد رأينا أنه خرج من ميورقة . مصحوباً بغضب علمائها ، فلا يد أنه يجد مثل هذا الفضب فى أشبيلية .

وهذا نجدغضبين من نوعين مختلفين ينصبان على ذلك العالم المجاهد في سبيل. ما يعتقده: غضب العلماء ، والثانى غضب الأمير ، إذ أنه جرح ولا يته ببيان. بطلان هذه النيابة التي ادعاها هو أوأبوه ، فكان لا بد من النكاية ، وقدلبس. في سبيل ذلك لباس المدافع عن العلماء، ولذلك أحرق كتب ابن حزم لأنها هي. التي يذكرها العلماء ، وهي التي يعد إحراقها أبلغ إيذاء ، ولكنه يعلوعن أن. ينال نفسه الأذى ، ويذكر أنهم إن حرقوا القرطاس لم يحرقوا من كتبه .

ويظهر أن الإحراق لم يكن لـكل الـكتب، ولم يكن لـكل النسخ ، فإن تلاميذه في كل مكان كانوا يستحفظون على كتبه وينسخونها .

## إلى كَبْلة والمزرعة :

١٣ — ضاقت صدور العلماء بعلم ابن حزم ، وضاقت صدور الأمراء بخلقه وقوة شكيمته ، طوف فى الأقاليم ، فروج بين الشباب علمه ، وأثار حقد العلماء فى كل مكان حل به ، ومن الأمراء من ناصره ، وهم أقل عدداً ، والأكثرون عاونوا العلماء عليه ، وفى آخر الأمر أرهقوه عسراً ، حتى آوى آخر الأمر إلى البلد الصغير الذى كانت فيه أسر تهقبل أن تخرج منها إلى قرطبة ، ثم آوت إليه بعد إخراجهامن قرطبة ، وذلك البلد هو من إقليم لبلة التى كانت به مزارعه وفيه عكف على العلم والبحث فى هدأة وأناة ، ولكن فى ألم مرير بدا فى كثير من عكف على العلم والبحث فى هدأة وأناة ، ولكن فى ألم مرير بدا فى كثير من كتبه ، وكان بفد إليه شباب يستمعون إليه ، ويأخذون عنه ، وقد قال أبوحيان. فى ذلك :

« طفق الماولة يقصونه عن قربهم، ويسيرونه عن بلادهم، إلى أن انتهوا به-

إلى منقطع أثره بتربة بلده من بادية لبلة ، وبها توفى رحمه الله سنة ست وخمسين وأربعائة ، وهو فى ذلك غير مرتدع ، ولا راجع إلى مأأرادوا به ، يبث علمه فيمن ينتابه من بادية بلده ، من عامة المقتبسين منهم من أصاغر الطلبة الذين لايخشون فيه الملامة ، يحدثهم ويفقههم ويدربهم ، ولا يدع المتابرة على العلم ، والمواظبة على التأليف والإكثار من التصنيف »(1) .

انتهى أمر ابن حزم بالنفى ، ولكن لم ينته علمه إلى الكتبان ، فإذاكان . الذين طاردوا ابن حزم ، حتى أقام بضيعته قد أرادوا إطفاء نور العلم الذى انبعث بين جنبيه ، فقد أراد الله تعالى إتمامه بجعله للطالبين له المقبلين عليه ، ولقدطوى التاريخ ذكر الذين ناوءوه ، وبتى اسمه لامماً بين علماء المسلمين جميعاً ، بل بين علماء الإنسانية قاطبة .

و إذا كان ابن حزم قد ورث سلطانا ومالا ، وتولى الوزارة ، فسكل ذلك . طوى فى التاريخ ، وبقى اسم العالم وحده يشق مجراه فى ظلمات التاريخ .

#### صفاته

18 ــ إن مواهب العالم هي الدعامة الأولى لتكوين شخصيته العلمية، وهي الأساس .

وقد آتى الله تعالى ابن حزم من الصفات مامكنه من فتح نور المعرفة والاستضاءة به .

وأولى هذه الصفات حافظة قوية مستوعبة ، وقد سهلت له حفظ أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وارتفع بذلك إلى مرتبة الحفاظ الكبار ، وحفظ بجوار أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فتاوى الصحابة والتابعين .

<sup>(</sup>١) معجم الأدباء ج ١٢ ص ٢٤٨ طبع الرفاعي .

وكان معاصروه يعجبون من تموة حافظته ، وعظيم إحاطته .

وكان له مع هذه الحافظة الواعية بديهة حاضرة ، تجيء إليه المعانى في وقت الحاجة إليها ، فتسعفه في الجدال ، وتدصره في النزال الذي كان يختار خصومه ... مع من يؤيدهم من الأمراء ميدانه .

وكان مع هاتبن الميزتين العلميتين عميق التفكير ، يغوص على الحقائق والمعانى ، وإنك لتجد ذلك واضحاً فى دراسته للفرق الإسلامية والملل والفحل ، وتجده فى رسالته طوق الحمامة يدرس النفوس من ناحية العشق دراسة عميقة ، وهو مثل ذلك فى رسالته مداواة النفوس ، بل إنها أين فى الدلالة على عمق . دراسته النفسية ، وانظر وهو يصف المعجبين بأنفسهم ، وقد سأل بمضهم عن . سبب استعلائه عن الناس ، فاقرأ هذه المحاورة :

« لقدتسببت في سؤال بعضهم في رفق وابن عن سبب علو نفسه ، واحتقاره . للمناس ، فما وجدت أن يزاد على أن قال أنا حر ، لست عبداً لأحد ، فقلت له أكثر من تراه بشاركك في هذه الفضيلة ، فهم أحرار مثلك فلم أجد عنده زيادة . فرجعت إلى تفتيش أحوالهم ومراعاتها ، فقكرت في ذلك سنين ، لأعرف الباعث لهم على هذا المجب . . . ، فلم أزل أختبر ما تنطوى عليهم نفوسهم بما يبدومن أحوالهم ومراميهم من كلامهم ، فاستقرأ مرى على أن عندهم فضل عقل . يبدومن أحوالهم ومراميهم الأيام من تصريفه لوجدوا فيه متسماً ، ولأداروا الممالك إدارة دقيقة ، ولبان فضلهم على سائر الناس ، ولو ملكوا مالا لأحسنوا تصريفه ، فن هاهنا تسرب التيه إليهم ، وسرى العجب فيهم » (1) .

الله على الله على الله على الله على المواهب العقلية ، يؤمن كل الإيمان بأنها هبة من الله تعالى ، و نعمة أنعم بها عليه ، وأن عليه حق شكرها ، وإن لم يشكر لله

<sup>(</sup> ١ ) رمالة مدواة النفوس ص ٢٦ طبعة همشق الفيحاء .

-سبحانه وتعالى كابت عرضة لأن يستحبها ، فهو معطيها ، ولذا بوجه الملام إلى الله الذين يفترون بمواهبهم ، ويستطيلون على الناس بها ، فيقول رضى الله عنه فى ذلك :

« وإن أعبت بعلمك ، فاعلم أنه لاخصلة لك فيه ، وأنه موهبة من الله عجردة ، وهبك إياها ربك تعالى ، فلا تقابلها بمايسخطه ، فلعله ينسيك ذلك بعلة يمتحنك بها تولد عليك نسيان ماعلمت وحفظت ، ولقد أخبرنى عبد الملك بن طريف ، وهو من أهل العلم والذكاء واعتدال الأحوال ، وصحة البحث أنه كان . ذا حظ من الحفظ عظيم ، لا يكاد يمر على سمعه شيء ، ويحتاج إلى استعادته ، وأنه ركب البحر مرة ، فمر في هول شديد أنساه أكثر ماكان يحفظ ، وأخل بقوة حفظه إخلالا شديداً ، لم يعاوده ذلك الذكاء بعد ، وأناأ صابتني علة فأفقت بمنها ، وقد ذهب ماكنت أحفظ إلا مالا قدر له ، فما عاودته إلا بعد أعوام .

17 ـ بهذا الإيمان اتجه ابن حزم إلى العلم ، وجعله مناط عزته ، وسبيل رفعته ، فنال منه الحظ الأوفر ، واتجه إليه بإخلاص ، والإخلاص كان أخص صفات ابن حزم ، وهو نور الحكمة ، وطريق الحق .

وإن إخلاص ابن حزم كان سبباً فى الصفة التى كانت وانحة فيه كل الوضوح . وهى الصراحة ، فهو ينطق بما يعتقد أنه الحق سواء أكانت مفبتة عليه حسنة أم كانت السوءى ، ولقد أجمع الذين عاصروه على أنه كان شديداً فى إعلان رأيه بالقول والقلم ، وإن كتبه لتنطق بذلك ، حتى لقد قال فيه علماء عصره : إنه علم العلم ، لم يعلم سياسة العلم .

ومع هذه الشدة فى الصراحة كان يرى أنه تجب المسالمة مع الناس فيما لايضر فهو يسالم مالم يكن فى المسالمة ما يؤدى إلى غضب الله تعالى ، و إلا صك من يخالفه ممث الجندل إرضاء لله سبحانه وتعالى ، واقرأ قوله فى هذا :

« وإياك ومخالفة الجليس ومعارضة أهل زمانك فيما لايضرك في دنياك

ولا أخراك و إنقل ؛ فإنك تستفيد الأذى وللنافرة والمداوة ، وربما أدى ذلك إلى الضرر العظيم دون منفعة أصلا ، وإن لم يكن بد من إغضاب الناس ، أو إغضاب الله عزوجل ، ولم يكن لك مندوحة عن منافرة الحلق ، أو منافرة الحق فأغضب الناس ونافرهم ، ولا تغضب ربك ، ولا تنافر الحق (١) .

وإنهرضى الله عنه كان صورة صادقة لهذا ، فقد كان له و صادق مع كثيرين من علماء عصره ، ورسائله لكثير منهم تفيض بالبشر والمحبة والإخاء ، والأنس ، ولطف العشرة مع من يخالطه ، حتى إذا اختلف الكثيرون منهم معه ، وناوءوه واشتدوا فى مناوأته ، ومنهم من كان صدى لكيد الأمراء عاضبهم ونازلهم بحدة وشدة فوق الصراحة المطلقة .

۱۷ ـ ولا شك أن خلق ابن حزم مع هذا العمق وذلك الإدراك فيه حدة ، ولذلك كانت تفرط منه في جدله عبارات جافة قاسية ، وإنك لتجد وصف الشناعة في أكثر الآراء التي يخالفها ، فيقول في رأى مخالفه ، هذا خطأ شنيع ، وإن الحدة من العلماء أمر غير محمود في ذاته ، ولكن مع ذلك يجب أن نتلمس سبب تلك الحدة الشاذة ، وإننا إذ نتلمس ذلك يبدو لها أمران :

أولهما - أنه كان يحس بإرادة السوء من الأمراء ، ومن يدفعونهم من اللهماء ، فقد كانوا يقصدون إنزال الأذى به ، بل أنزلوه ، وأحدث مرارة شديدة في نفسه جملته ينقم على بعض العلماء ، أشد ما ينقمه عالم ، وأى أذى أشد وأعظم أثراً في العالم من أن يرى كتبه وهي ثمرات جهوده تحترق ، والعامة يشهدون احتراقها ، وإن ذلك يخرج الحكيم عن حلمه ، ولذا نقول: إن كيد خصومه من الأمراء ، ودفعهم العلماء من أسباب حدته .

وثانيهما ـ أنه يذكر يصر احته المعهودة أن علة نزلت به ، أوجدت فيه تلك

<sup>(</sup>١) مدواة النفوس ص ٥٥.

الحدة ، فيقول فى ذلك : « لقد أصابتنى علة شديدة ولدت فى ربواً فى الطحال شديداً ، فولد ذلك على من الضجر ، وضيق الخلق ، وقلة الصبر ، والنزق أمرا ، جاشت نفسى فيه ، إذ أنكرت تبدل خلق ، واشتد عجبى من مقارقتى لطبمى ، وصح عندى أن الطحال موضع الفرح ، وإذا فسد تولد ضده »(١).

وإن هذا تحليل دقيق يذكر فيه أسباب ضعفه النفسى فى صراحة وقوة ، فيصف نفسه بالنزق والضجر ، ولا يضن عليها بمثل ما يصف به مخالفيه .

و إنه مع شكواه من هذه الحدة يرى فيها فائدة ، فيذكر أنها من أسباب تواليفه الحثيرة ، فيقول فى ذلك : « ولقد انتفعت بمحك أهل الجهل منفعة عظيمة ، وهى أنه توقد طبعى ، واحتدم خاطرى ، وحمى فكرى وته يج نشاطى ، فكان ذلك سبباً إلى تواليف عظيمة النفع ، ولو لا استثارتهم ساكنى ، واقتداحهم كامنى ما لنبعثت لتلك التواليف (٢).

تلك ثمرة من ثمرات الحدة ، فهى أنتجت ذلك الدور الذى انبعث من محك. الشدة ، فإذا كانت حدته قد مست ناساً بأذى القول أو العلم ، فقد أنتجت مع ذلك إنتاجا طيبا .

۱۸ — ولقد كانت نشأة ابن حزم وماضى أسرته، ونزوعه النفسى وعلوه عن سفساف الأمور — سبباً فى أن كان من أوضح صفاته اعتزازه بنفسه، فكان يعتز بنفسه لأنه نشأ عزيزاً فى قومه ، ولأنه لجأ إلى العلم بإخلاص واستقلال ، وهو حصن العزة لمن طلبه على وجهه ، ولقد كان اعتزازه من جوهر سليم وما زادته الحوادث إلا صقلا وصفاء ، فما وهن من استكان عندما أوذى.

<sup>(</sup>١) مداواة النفوس ص ٤٥.

<sup>(</sup>٢) مداواة النفوس ص ٣٠.

بالسجن والتغريب ، ولقد ذاق حلو الحياة ومرها ، فما استهوته اللذة الحلوة إلى. ماينافي عزته ، ولاهوت به موارة الحياة إلى مواطن الذلة .

وإن الذى نمى اعتزازه بنفسه ثلاثة أمور :

أولها - أنه جافى السياسة فى أكثر عمره ، وما أرادها إلا وفاء لبنى أمية ، فسكان الدافع إلى طلبها اعتزازا. وكانت مجافاتها اعتزازا ، وإن من يريدالسياسة يتولد فى نفسه الطمع ، ومصارع الرجال تحت بروق المطامع ، وقد جاء فى المثل العربى « أذلت المطامع أعناق الرجال » فمن يوم أن جافى أبو محمد بن حزم السياسة ، وتركها إلى العلم ، آوى إلى ركن العزة النفسية الحصين .

ثانيها — أنالله تعالى آناه قوة عقلية . ومواهب فكرية كان يحمدالله عليها » وإذا احتك به العلماء بإغراء الأمراء شعر بأنه فوقهم بقوة الحق وقوة النفس ، وكان لايرى الأمراء فوقه ، لأنه شغل مثل مناصبهم ، وكان يتهيأ لها لوكان له مثل لينهم ، ورضاهم بالسياسة أيا كان لونها ، وأيا كانت غاياتها ووسائلها .

ثالثها — يسار الميش الذى من الله به عليه ، فما أذلته الحاجة ، وما أذله الطمع ، وما أذلته الاستكانة ، فكان عزيزًا بالله .

۱۹ — وإن أخص ما امتاز به ابن حزم من الصفات الخلقية والاجتماعية الوفاء، وهو جوهر نفسه ، كان وفياً لأصدقائه ولشيوخه ، ولسكل من يتصل به ، وكان يفخر بهذا الوفاء ، ويقول فى ذلك : « لا أقول قولى هذا ممتدحا ، ولكن آخذ بأدب الله عز وجل [ وأما بنعمة ربك فحدث ] لقد منحنى الله عز وجل من الوفاء لكلمن يمت إلى بلقية واحدة ، ووهبنى من المحافظة لكل من يتذمم منى، ولو بمحادثة ساعة حظا أنا له شاكر حامد ، ومنه مستمد ومستزيد، وماشىء أنقل على من الفدر ، ولعمرى ماسمحت نفسى قط فى الفكرة فى إضرار من بينى وبينه أقل فمام ، وإن عظمت جريرته ، وكثرت إلى ذنو به ، ولقد دهنى من بينى وبينه أقل فمام ، وإن عظمت جريرته ، وكثرت إلى ذنو به ، ولقد دهنى

من هذا غير قليل فما جزيت على السوءى إلا بالحسنى ، والحمد لله على ذلك كثيرا » (١).

وإن هذا الكلام كتبه فى طوق الحمامة ، وهوفى ريق الحياة ، قد اختبر فى الطلطان ، ولكن لم يكن أصيب بآلام مرض الطحال ، كما كان من قبل، فهل كان كذلك ، حتى بعد أن أصيب بهذ الداء !! ، على أى حال كان الوفاء فى معدنه ، فإن اعتراه غيره لمرض ألم ، أو لبالغ الأذى والاضطهاد ، فذلك عارض ليس فى أصل السجايا .

# ذوقه الفني و الأدبى:

• ٢٠ - لقد كان ابن حزم مع تلك السجايا الفكرية والخلقية والاجتماعية فيه قوة إحساس ، وعاطفة ، والعاطفة القوية إذا كان معها عقل مدرك ، وخلق كامل أنتجت صدق نظر ، ومدارك تشبه الإلهام ، ومشاركة وجدانية بينه وبين الناس وانتجت مع ذلك ذوقا فنيا لكل ماهوجميل، وكان له ذوق فني في النثر والشمر -- ، وقد استطاع بتفكيره العميق ، وحسه الدقيق، وعاطفته المستوفزة القوية أن يحلل الدفوس ، في كتابه طوق الحامة ، ويحلل نفسه أكثر في كتابه مداواة النفوس، وإن يكتب كل ذلك في نثر فني ينساب في النفس انسياب النمير ونقول : إنه لولم يشتهر بالعلم والعمق فيه . لاشتهر بالكتابة ، ولار تفع اسمه إلى مقام أعلى الكتاب كعباً ، وأبعدهم ذكراً .

وكان مع هذا النثر الفنى الذى يعد من السهل الممتنع شاعراً مجيداً ، ولولا غلبة الفقه ، والعلوم لـكانشاعرا بين الشعراء .

وفى الجُملة إنهذا العالم العظيم قد وهبه الله من الصفات والسجايا ، ماعلابه

<sup>(</sup>٢) طوق الحامة ص ٨٢.

رفى عصره ، وجمله موضع التقدير المظيم، وموضع الحقد والحسد ، وموصع النقد والحسد ، وموصع النقد واللوم ، وكل هذا لا يكون إلا لعظاء الرجال الأفذاذ الذين ينبغون في هذه الدنيا. . وفي وسط مضطربها الواسع المملوء بالخير والشر ، ولله في خلقه شئون .

### علومه

71 — قال أبن حيان «كان أبو محمد حامل فنون ، من حديث وفقه وجدل مونسب ، وما يتعلق بأذيال الأدب ، مع المشاركة في أنواع من النعاليم القديمة من المنطق والفلسفة ، وله في بعض تلك الننون كتب كثيرة ، غير أنه لا يخلو . فيها من غلط وسقط ، لجراءته على النسور على الفنون (1).

هذا السكلام يدل على غزارة علم ابن حزم ، ولسكن فيه غزاً شديداً له ، وفهويقول : إن في كلامه غلطاً ، لأنه كان يتسور على العلوم ، أى يجيء إليها من أسوارها ، لامن أبوابها ، بمعنى أنه ما كان يتلقى عن الشيوخ ، ولكن يأخذ من السكتب ، وقد نقده ذلك النقد ابن خلدون ، وسواء أصح ذلك أم لم يصح فن المؤكد أنه ترك ذخيرة من السكنب تلقاها الخلف وانتفع بها ، ومن المؤكد أيضاً أنه كان له منهاج اختص به ، ولعل ذلك المنهاج ما كان ليتكون لوكان أبضاً أنه كان له منهاج اختص به ، ولعل ذلك المنهاج ما كان ليتكون لوكان المن حزم متبعاً للشيوخ دائما ، ولم يكن ذا فكر مستقل قويم .

ولقد ذكر ابن حيان الناقد اللاعم بعض هذه الكتب ومقامها فقال : « ولهذا الشيخ أبى محمد مع يهود لمنهم الله ومع غيرهم من أولى المذاهب المرفوضة من أهل الإسلام مجالس محفوظة ، وأخبار مكتوبة ، وله مصففات في ذلك معروفة من أشهرها في علم الجدل كعابه المسمى الفصل بين أهل الآراء بوالعجل، وكتاب المصادع والرادع على من كفر من أهل النأويل من فرق المسلمين ،

<sup>(</sup>١) معسجم الآدباء لياقوت ج ١٢ ص ٢٤٧ طبع الوفاعى .

والرد على من قال بالتقليد ، وله كتاب في شرح الموطأ ، والكلام على مسائله محد وله كتاب الجامع في صحيح الحديث باختصار الأسانيد ، والاقتصار على أصحها ، واجتلاب أكل الألفاظ وأصح معانيها ، وكتاب التلخيص والتخليص في المسائل النظرية وفروعها التي لانص عليها في الكتاب والحديث ، وكتاب المسائل النظرية وفروعها التي لانص عليها في الكتاب والحديث ، وكتاب في منتقى الإجماع وبها نهمن جملة مالا يعرف فيه اختلاف ، وكتاب الإمامة والسياسة في قسم سير الخلفاء ومراتبها ، والندب والواجب منها ، وكتاب أخلاق النفس وكتابه الكبير المعروف بالإيصال إلى فهم كتاب الخصال ، وكتاب كشف الإلباس ، ما بين أصحاب الظاهر وأصحاب القياس ... ، إلى تواليف غيرها ورسائل في معان شتى كثير عددها (١)».

هذا ذكر بعض كتبه ، وكثير مما ذكره فى الدفاع عن الإسلام ، ومجادلة أعدائه ، أو المنحرفين من أتباعه ، وله فى ذلك القدح المعلى ، ومن ذلك نرى. اتساع أفقه ، وتنوع علمه .

وليس ماذكره إحصاء كاملا لـكلكتبه ، بل هوالقدر الأقل معكثرته ، ولقد قال ابنه أبو رافع الفضل : « اجتمع عندى بخط أبى من تواليفه نحو أربعائة مجلد تشتمل على قريب من نحو ثمانين ألف ورقة » (٢٠).

## المنهاج العلمي لابن حزم:

۲۲ — مع كثرة ماألف ابن حزم من كتب ، وما دخله من أبواب فى العلوم المختافة كان له منهاج على سلسكه ، وإن هذا المنهاج يتشعب إلى شعبة بن. إحداها — منهاجه فى العقليات . والثانية — منهاجه فى العقليات . أما منهاجه فى العقليات فقد انجه إليه ، لأنه تصدى للجدل مع المخالاين.

<sup>(</sup>١) معجم الأدباء ج ١٢ ص ١٥١ ..

<sup>(</sup>٧) الـكتاب المذكور .

مومن يتصدى للجدل لا بد أن يلترم منهاجا عقليا غير نقلى . لأن الخصم لا يلتزم على العقل ، عالنقل ، فلا بد من مناقشته على أساس من العقل .

#### منهاجه المقلى :

٧٣ — يقرر ابن حزم أن الإنسان بمقتضى إنسانيته عنده علم البدهيات ، ويسمى ذلك النوع من العلم علم النفس ، لأن كل نفس سليمة تعلمه من غير تعلمي ، بدليل أن الطفل يدركها ويؤمن بها ، فيذكر أن من البدهيات أن الجزء أقل من الدكل ، بدليل أنك إذا أعطيت الطفل تمرة طلب ثانية ، وإذا أعطيته الثانية سر، ومن علمه البدهي أيضاً أنه لا يجتمع الأمر أن المتضادان ، فإنك إذا وقفته بغير إرادته بكي ، حتى إذا تخلص عاد إلى القمود ، ومن ذلك أيضاً علمه بأنه لا يشغل الجسمان مكانا و احداً في وقت واحد ، فإنك تراه يتنازع على المكان الذي يريد أن يقعد فيه ، علماً منه بأنه لا يسمه هذا المكان مع غيره » (١).

ويسترسل ابن حزم في مقدمة كتابه الفصل في بيان علم النفس بالبدهيات المعقلية التي لا يختلف فيها اثنان ، ويذكر أنه من البدهيات أن العلم بالأمور الفائبة عنه لا يصح أن يتعارض ، فإذا أخبره شخص بأ مر غائب عنه ، ثم جاءه ثان ، فأخبره بمثل الخبر صدقه ، وإن اختلف خبر الثاني عن الأول في واقعة واحدة لم يصدق كليهما ، ومهذا يعلم صحة الأخبار ، نيعلم ولادة من يولد ، وموت من يموت ، وعزل من عزل ، وولادة من ولد ، ومرض من يمرض ، وإفاقة من أفاق ، ونكبة من نكب ، والبلاد الغائبة عنه ، حتى إذا ارتقى وإداكه استطاع أن يعلم أخبار الوقائع ، وأخبار الأنبياء ، فإذا كبرعقله استطاع الله يتحقق المناسلة عليه وسلم ، وبذلك يتحقق أن علم العقل أساس لعلم النقل » .

<sup>(</sup>١) الفصل ج ١ ص ٥ .

٣٣ - ويقرر ابن حزم من بعد ذلك أن هذه البدهيات في ففس كل، إنسان وإن خطأ الفكر حول الأمور العقلية فليس منشؤه الاختلاف في هذ البدهيات، إنما منشؤه بعد ما يختلفون فيه عنها، فقد تطول المقدمات و تكثر حتى يصعب ردها إلى هذه البدهيات، ومثال ذلك الحساب، فأنه كلاكثرت أرقامه كانت الحسبة مظفة الخطأ، وبذلك تختلف نتائج المعادلات الحسابية أو الجبرية، وكلما قلت الأرقام كانت الفتأنج أبعد عن الخطأ، ويقول في ذلك رضى الله عنه:

« لاسبيل إلى الاستدلال ألبته إلا من هذه المقدمات (أى البدهيات) ، ولا يصبح شىء إلا بالرد إليها ، فما شهدت له مقدمة من هذه المقدمات بالصحة فهو صحيح متيةن، وما لم يشهد بالصحة فهو باطل ساقط ، إلا أن الرجوع إليها قد يكون من قرب، وهذ يكون من بعد ، فما كان من قرب فهو أظهر في كل نفس، وأمكن للفهم ، وكلما بعدت المقدمات المذكورة صعب العمل في الاستدلال. حتى يقع في الفلط ، إلا للفهم القوى الفهم والتمييز . وليس ذلك عما يقدح في أن ما يرجم إلى مقدمة من المقدمات التي ذكر ناحق ... وهذا مثل الأعداد، في أن ما يرجم إلى مقدمة من المقدمات التي ذكر ناحق ... وهذا مثل الأعداد، وكثر العمل في جعمها صعب ذلك ، حتى يقع في الخطأ الحاسب الجيد ، وكل ماقرب من بعد ذلك أو بعد فهو حق . ولا تفاضل في شيء من ذلك ، ولا تعارض مقدمة عما ذكر نا مقدمة أخرى (١) » .

و بذلك يبين ابن حزم منشأ الخطأ فى النتائج معأن كل قضايا المقل ترجم إلى. هذه البدهيات ، ولكنه لا يقصر سبب الخطأ على ذلك ، بل يرجم جزءاً منه إلى تحسكم الشهوة أو النعصب لفكرة معينة ، فيكون ذلك آفة تعترى الفكر فتضله و توقعه فى الخطأ، فإنه عند ثذ يضل عن الرجوع إلى هذه البدهيات ، فقد تكون.

<sup>(</sup>١) الفصل ج ١ ص ٧ .

الآفة قوية ، فينكر بعض هذه المقدمات ، ويقول في ذلك : « ولا يشك ذو تمييز عيح في أن هذه الأشياء (أى بدهيات العقل) كلما حيحة لاامتراء فيها ، وإنما يشك فيها بعد صحة علمه بها من دخلت عقله آفة وفسد تمييزه ، أومال إلى بعض الآراء الفاسدة ، فكان ذلك أيضاً آفة دخلت على تمييزة ، كالآفة الداخلة على من به هيجان الصفرة ، فيجد العسل وراً ، وكسائر الآفات الداخلة على الحواس ٢٤ — ويسير ابن حزم على منهاجه العقلي في دراسة العقائد ، ويبين سنة الله في الكائنات ، وخوارق العادات ، وكان في دراسة هذه السنن يعتمد على الاستقراء والتتبع ، ويبين أصل الإيمان بالرسل، ويبني ذلك على وجود خوارق اللأسباب يتحدى بها الرسول من يدعوهم ، حتى إذا ثبتت الرسالة بهذا الخارق الذي كان به التحدى ، كان الاعتبار للمنهاج النقلي الذي يتعرف به أحكام هذه الرسالة ويتبعها .

### دراساته النفسية والخلقية :

٢٥ — لابن حزم دراسات نفسية وخلقية ، وقدوضحت الدراسة النفسية في كتاب طوق الحامة (١) .

ووضحت دراسته الخلقية . فى رسالته مداواة النفوس التى كتبها فيما يبدو من موضوعاتها فى خريف حياته ، لافى ربيعها ، ولنبدأ بالإشارة إلى موضوعاتها فنى هذه الرسالة اعتمد على أمرين :

أحدهما — على الاستقراء والتتبع الذى يرجع إلى المقدمات البدهية التي قررها ، فقد كان يستقرى أخلاق الناس الذين عاشرهم والتقى بهم ، وأخبار من غابوا ، ويذكر عيوب من أصابتهم آفة فى أخلاقهم ، وما يمكن أن يكون دواء لهذه الميوب مما درسه و تتبعه .

وليس الاستقراء بمقدور لكل إنسان، ولذلك كان على من لا يستطيمه أن يرجم

<sup>(</sup>١) مداواة النفوس ص ٦٦.

فى علمه بالفضائل والرذائل إلى الرسالة السماوية ويقول فى ذلك: « من جهل مورفة الفضائل فليمتمد على ما أمره الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، فإنه يحتوى على جميع الفضائل.

الأمر الثمانى الذى اعتمدت عليه رسالة مداواة النفوس هو الدراسات الفلسفية التى أثرت عن فلاسفة اليونان، والتى كان أساسها الرجوع إلى البدهيات المقلية، أو الاستقراء والتتبع، فهو يعتمد على استقراء غيره، كما اعتمد على اسقراء نفسه، وعلى النتائج التى وصل إليها الفلاسفة في المقدمات التى رجعوا بها إلى أصل البدهيات الأولى، فإن هذه النتائج تصير بعد مبوت سلامتها ملكا للمقل البشرى ينتفع بها كل من وجدها.

و إن اعتماده في الرسالة على آراء بعض فلاسفة اليو نان واضح، فهو يقر نظرية أن الفضيلة وسط بين رذيلتين وهي نظرية أرسطو ، ويقول في ذلك: «الفضيلة وسط بين الإفراط والتفريط ، فكلا الطرفين مذموم والفضيلة بينهما »(١)

ويقتبس من استقراءات أفلاطون التي انتهى بها إلى أن أصول الفضائل أربعة ويغير فيها بعض التغيير تبعاً لاستقرائه، فهويرى أن الفضيلة هي المعرفة والشجاعة والسخاء والمدل ، ونراه ترك العفة ، ووضع محلها السخاء ، ويقرر أنها داخلة في العدالة ، فيقول في ذلك « والعفة والأمانة نوعان من العدالة والجود » .

ولم يترك الأخلاق الآسلامية الثابتة بالنقل في دراسته ، بل أشار إلى حكمها إشارة مستمدة من النظريات اليونانية ، والاستقراءات التي قام بها ، وكثيرا ماكان يذكر النظريات الفلسفية ، ويردفها ينصقرآني ، أو حديث نبوى . وهو يدعو دأيما إلى دعم الحقائق الإسلامية بالمعلومات العقلية النافعة ، ويقول في ذلك :

<sup>(</sup>١) مدواة النفوس ص ٤٤

«كشف العلوم النافعة يزيد العقل جودة وتصفية من كل آفة ، ويهلك ذا العقل الضعيف ، ومن الغوص على الخير ما لو غاصه صاحبه على العقل لمكان أحكم من الحسن البصرى ، وأفلاطون الأثيني ، وبزجم الغارسي » (١)

وإنه قى هذه الرسالة يبين المقياس الخلقى للخير والشركا يراه، ويبين من هو جدير بالثقة، ومن ليس جدير بالثقة وينتهى من در استه الفلسفية بماينتهى إليه مثله من علماء الإسلام إلى أن الدين لابد منه للحاعة وفيه حمايتها، ونشر المثقة بين آحادها، وأن المتدين ولو بغير الإسلام جدير بالثقة، وغيره غير جدير بها، ولو كان مسلماً ويقول رضى الله عنه في ذلك:

« ثق بالمتدین ، ولو کان علی غیر دینك ، ولا تثق بالمستخف ، و إن أظهر أنه علی دینك ، ومن استخف بحرمات الله تعالی، فلا تأمنه علی ثنیء تشفق علیه » هذه نظرات لا محدتشیر إلی ملامح الرسالة ، و إن كانت لم توضح كل افيها.

#### طوق الحمامة:

٢٦ ــ هذه الرسالة دراسة نفسية في الصداقة والائتلاف والحبة ، وإذا كانت رسالة مداواة النفوس قد كتبت في خريف حياته لتكون تجاربه طبا يعالج به النفوس ، فرسالة طوق الحمامة كا تدل عباراتها قد كتبت ، وهو في آخر ربيع عمره ، أي آخر شبابه ، فحوادثها تدل على أنه عندما كتبها لم يكن في بواكبر الشباب . ففيها تجارب كثبره ، وفيها أخبار حياته ، حتى انتهى إلى التفرغ المعلم والحلوص له .

وقد اعتمدت هذه الرسالة على التحليل النفسى المستمد من الاستقراء، وعلى المقدمات التي تنتهى إلى البدهيات الأولى التي سماها علم النفس. ويبدو التحليل المستمد من الاستقراء ، ومن الحقائق الدينية في تعريفه للحب فهو يقول في

<sup>(</sup>١) الرسالة المذكورة ص ١٣

تعريفه «قد اختلف الناس في ماهيته (أي الحب) وقالوا وأطالوا ، والذي المحب إليه أنه اتصال بين أجزاء النفس المقومة في هذه الخليقة في أصل عنصرها الرفيع ... على سبيل مناسبة قواها في مقر عالمها العلوى ، ومجاوبتها في هيئة وكيبها ، وقد علمنا أن سر التمازج والتباين في المخلوقات إنما هو الاتصال والانفصال ، والشكل إنما يتبع شكله ، والمثل إلى مثله ساكن ، والمجانسة على محسوس . وتأثير شاهد، والتنافر في الأضواء ، والموافقة في الأندادموجود بيننا ، فكيف بالنفس وعلمها الصافى الخفيف ، وجوهر الجوهر الصافى بيننا ، فكيف بالنفس وعلمها الصافى الخفيف ، وجوهر الجوهر الصافى المعتدل . . . كل ذلك معلوم بالفطرة في أصل تصرف الإنسان ، فيسكن إليها ، والله عز وجل يقول : [هو الذي خلقكم من نفس واحدة ، وخلق منها زوجها ليسكن إليها ] فعل علة السكون أنها منه .

ويقول أيضاً « ومن الدليل على ذلك أنك لا تجد اثنين يتحابان إلا وبينهما مشاكلة واتفاق في الصفات الطبيعية ، لا بد من هذا ، وإن قل ، وكما كثرت الأشباه زادت الحجانسة، وتأكدت المودة ، فانظر هذا تراه عياناً ، وقول الرسول صلى الله عليه وسلم بؤكده (الأرواح جنود مجندة ما تعارف منها اثقلف ، وما تنافر منها اختلف ) وربرى عن أحد الصالحين « أرواح المؤمنين تتعارف » . ولهذا ما اغتم بقراط حين وصف له رجل من أهل النقصان يحبه ، فقيل له في ذلك ، فقال : « ما أحبني إلا وقد وافقته في بعض أخلاقه » .

وهكذا نراه يعتمد على الفلسفة ، ويؤيدها بالنصوص الدينية ، ثم يعتمد على الاستقراء في كل أجزاء الرسالة ، بسرد الوقائع التي رآها ، ويحلل هذه الوقائع ، حتى يصل منها إلى أغسوار الففس ، فهو يعتمد على ما رأى لا على ما سمع ويقول في ذلك : • الترمت في كتابي هذا الوقوف عند حد الاقتصار على ما رأيت ، أو صحعندى بنقل النقات، ودعني من أخبار الأعراب والمتقدمين: «فسبيلهم غير سبيلنا ، وقد كثرت الأخبار عنهم ، ومامذهبي أن أمتطى مطية سواى ، ولا أتحلى محلى مستعار » .

ويقرر أن الحب أساسه أمران:

أولمها ـ المشاكلة النفسية والاتفاق الروحي .

وثانيهما \_ من حيث الصورة ، فإن الإعجاب الأول هو الذي يحد له · ملامح الصورة التي يرضاها ، فهو الذي يكون مقياساً للجال عنده ، لا يعجب بغيره ولا يستثيره سواه .

٣٧ — وإن ابن حزم يسترسل في هذه الرسالة فيبين مراتب الحب، ويذكر أن أعلاه المحبة في الله عز وجل، فيحب لأجل التقوى، أو إتقان العمل أو القرابي.
 طاعة لله تعالى، ثم يلى ذلك محبة الألفة، والصداقة ومنها محبة التصاحب والمعرفة، ثم من بعد هذا محبة العشق التي لا سبب لها إلا اتصال العفوس.

وفى باب آخر يبين الفرق بين الحب للمعنى الروحى ، والحب للشهوة فيبين . أن الحب للمعنى الروحى هو الذى يكون سببه المشاكلة النفسية . « وأما مايقع من أول وهلة لبعض أعراض الاستحسان الجسدى ، واستطراف الصورة الذى لا يجاوز الألوان ، فهذا سر الشهوة ، ومعناها على الحقيقة » (١).

ويذكر أن الحب الروحي لا يكون إلا لواحد ، أما الحب الجسدى فقد يتعدد و يكدثر .

وإنه يعقد باباً مستقلا، لارتباط العشق بالعفة ، وبيان الصالح من النساء ، والفاسق ، ويحلل ذلك تحليلا دقيقاً عميقاً ، ويقول في هذا: «الصالحة من النساء هي التي إذا ضبطت انضبطت ، وإذا قطعت عنها الذرائع أمسكت . والفاسدة - هي التي إذا ضبطت لم تنضبط » .

وهو فى كل ما أودعه من علم فى هذه الرسالة التى تتسم بالعمق والجمال معاً يسير على منهاج الاستقراء والقتبع والتحليل ، ولا نستطيع أن نقول إن استقراءه كامل ، بل هو ناقص، ولكنه يكفى فى الدراسة والتحليل ، ويهديه إلى مايريد فى نظره ، ولنتجة بعد ذلك إلى منهاجه فى دراسة النقل .

 <sup>(</sup>١) طوق الجامة س ٣ ، ٤ ، ٢٦ .

# منهاجه في دراسة المنقول

#### بالنسبة للمقيدة:

٢٩ — للعقيدة ناحيتان من الدراسة .

إحداها -- إثبات الألوهية ، وإثبات الرسائل النبوية .

والثانية — ما تدل عليه ألفاظ القرآن والسنة من عقائد .

فن الناحية الأولى اعتمد على البدهيات الأولى ، وعلى الاستقراء والتتبع ، وانتهى من هذه الدراسة إلى الإيمان بإله واحد أحد ، والإيمان بالرسائل النبوية والمعجزات ، وإثبات أن التحدى بها يثبت أن من يتحدى بها يتكلم عن الله . سبحانه وتعالى .

حتى إذا ثبتت الرسالة أصبحت الحجة فقطهىالنصوصالتى جاءبها الرسول يأخذ بظواهرها ، فإذا قرأ قوله تعالى : [ الرحمن على العرش استوى ] استيقن أن لله عرشاً و استواء يليق بذائه من غير محاولة للتأويل .

ولهذا ثبتت عنده كل المغيبات التي جاءبها الذرآن الكريم بظو اهر نصوصه، ولا يقصد إلى غير الظو اهر، وثبتت عنده كل المغيبات التي جاءت بها السنة سواء أكانت السنة متواترة أم كانت أخبار آحاد ثبتت روايتها بطريق الثقات . فهو يؤمن بالملائكة والصراط، والكتاب والحساب والميزان واللوح المحفوظ.

#### بالنسبة للوحدانية :

٣٠ ــ يؤمن ابن حزم بوحدانية الله تعالى على النحو الذى جاءت به النصوص القرآنية والنصوص النبوية ، وللوحدانية عنده كما يستقادمن النصوص . ثلاث خواص .

أولاها — وحدة المعبود، فلايعبد غير الله تعالى، ولايتقرب إليه بأحد من عباده ، لأن التقرب عبادة ، ولا معبود إلا الله تعالى ، فلا يعبد بشر ولاحجر، ولا ضريح ، ولا كائن من كان في الوجود .

والثانية - وحدانية الخالق. فالله سبحانه وتمالى هو الخالق لكلما فى الوجود، فلا خالق سواه، فليس لأحد أن يدعى أنه يخلق. فملا من الأفعال، أو شيئاً من الأشياء، فالله خالق كلشىء كما وردت المصوص

### الجبر والاختيار :

۳۱ — ولكن يجره القول في هذا إلى السكلام في خلق الإنسان أفمال. نفسه إلى التعرض لمسألة الجبر والاختيار ، فإن قال إن الأفعال بخلق الله ، وليس للإنسان فيها إرادة جره ذلك إلى سقوط التكليف ، وإن قال إنه يخلق أفعال نفسه قال إن لله شريكا في خلق الأفعال . وينتهى من الأمر إلى القول بأن العبد خلق الله فيه الاستطاعة والاختيار ، فهو يستطيع أن يفعل ، ويختار ما يفعل ، ولله فوق استطاعته واختياره قدرته القاهرة ، فهوسبحانه وتعالى يزيل الموانع عن طريق فوايته إن أراد الشر ، وبذلك تكون شره ، ويتحقق قوله الموانع عن طريق غوايته إن أراد الشر ، وبذلك يكون شره ، ويتحقق قوله المان : [قل إن الله يضل من يشاء ، وسهدى إليه من أناب] .

والثالثة : وحدائية الصفات

٣٢ -- يقصد بوحدانية الصفات أو الذات أن الله تمالى ليس له شريك في . ذاته ولا صفاته ، وليس متعدداً .

وأن الله تعالى لا يشابهه شيء من الحوادث ، : [ ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ] .

و إن ابن حزم في هذه المسألة بمتمد على الأدلة المقلية متقيدا بالنصوص الحذبه ، المواردة فيها ، يأخذ بظواهرها ، ولذلك قرر أن ما جاءت به النصوص بأخذبه ، فحكل الأوصاف المذكورة في القرآن والسنة يجب الأخذبها ، ويمتبرها أسماء . فله تعالى ، فالله تعالى سمى نفسه باسم القادر ، والقدير ، والعليم ، والحكيم ، والسميع ، والبصير ، والمريد والمحتار ، والحي القيوم ، وغير ذلك من الأسماء والسميع ، والبصير ، والمريد والمحتار ، والحي القيوم ، وغير ذلك من الأسماء . الحسنى التي جاءت في القرآن السكريم ، ولا يسمى ذلك صفات لله تعالى ، بلهى أسماء ، ويقول في هذا : وأما إطلاق لفظ الصفات لله عز وجل فمحال لا يجوز . أما ولا حفظ عن النبي صلى الله عليه وسلم بأن لله تعالى صفة أو صفات . نعم ولا جاء ذلك قط عن أحد من الصحابة رضى الله عنهم ، ولا عن أحد من خيار ولا جاء ذلك قط عن أحد من الصحابة رضى الله عنهم ، ولا عن أحد من خيار ، التنابعين » .

وبالنسبة للألفاظ الموهمة للتشبيه مثل [ يد الله فوق أيديهم] ومثل: [ويبق وجه ربك ذى الجلال والإكرام] لا يقول فيها إن لله يدا لا تعرف ذاتها ، ولا إن لله وجها لا تعرف حقيقته ، بل إنه مع أخذه بظواهر الألفاظ لا يرى النظاهر يدل على ذلك ، بل يرى بذوقه وعلمه بأساليب العرب أنه لا يراد بالوجه غير الذات ، كذلك يفسر اليد في قوله تعالى : [ يد الله فوق أيديهم] بقوله الله . فوق أيديهم] بقوله الله ينفق كيف يشاء ] : « الله ينفق كيف يشاء ] : « الله ينفق كيف يشاء ] . « الله ينفق

ونراه يسلك مسلك المؤولين ، ولمسكنه لا يعتبر ذلك تأويلا ، بل يعتبره أخذاً عدلولات الألفاظ المجازيه ، والمجازات المشهورة من دلالات ظواهر الألفاظ .

وبذلك ينتهى ابن حزم إلى أنه لا متشابه فى أسماء الذات العلية ، ولا يُمكم بأن ثمة متشابها فى الفرآن إلا فى الحروف التى تبدأ السور ، مشل قوله تعالى : «حم » و « ألم » و « المص » وكذلك فى قسم الله تعالى بالأشياء والكائنات .مثل قوله: [والشمس و محاها] [ولاأ قسم بهذا البلا ، وأنت حل بهذا البلا] إلى آخره .

## آراء له في السياسة وغيرها :

٣٣ ــ وابن حزم يتكلم فى شئون السياسة ، وقد نشأ فى حضن السياسة ، وإن كان يتعلق بالعقيدة ، فهو يقكلم فى الخلافة ، وكيف يختار الخليفة ، وفى شأن مرتكب الكبيرة ، تلك المسألة التى نبتت بين الفرق السياسية .

وبالنسبة للخلافة يقرر أن إقامة خليفة فرض على المسلمين ، يجب عليهم أن يقيموه وإلا أثموا جميعاً لورود النصوص المثبتة لضرورة وجود الإمامة بين المسلمين .

وبرى أن الإمامة لا تنعقد إلا إذا تحققت شروطها ، وذلك بأن يسكون الإمام قرشياً ، لورود النص بذلك ، ولأن الصحابة لما اجتمعوا في سقيفة يني ساعدة انتهوا إلى اختيار خليفة من قريش بعد أن اقترح الأنصار أن يكون من يينهم خليفة ، ولكنهم انتهوا إلى الإجماع على خلافة أبى بكر لأنه قرشي، ولمقام صعبته من النبي صلى الله عليه وسلم .

والشرط الثانى — أن يكون رجلا عاقلا لقول النبى صلى الله عليه وسلم : [ لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة ] .

والشرط الثالث – أن يتقدم للأمر متحملا أمانته ، وأن يكون عالمًا

بما يلزمه في الحسكم ، وأن يكون ظاهر حاله الصلاح ، غير معلن للفساد ويقول في دلك رضي الله عنه : « إن من قدم من لا يتقى الله عزوجل ، ولوفى شيء من الأشياء ، أو معلما الفساد في الأرض غير مأمون ، أو من لا ينفذ أمر الله ، أو من لا يدرى شيئاً في دينه ، فقد أعان على الإنم والدوان » وقد قال صلى الله عليه وسلم : [ من عمل عملا ليس أمرنا فهو رد ] وقال عليه السلام : [ يا أبا ذر إنك ضعيف ، لا تأمرن على الهدين ، ولا تولين مال يتيم ] وقال تعالى : [ فإن كان الذي عليه الحق سفيما أو ضعيفا أولا يستطيع أن يمل هو فليملل وليه بالعدل ، الحق سفيما أو ضعيفا أولا يستطيع أن يمل هو فليملل وليه بالعدل ، واستشهدوا شهيدين من رجاف كم فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان عمن واستشهدوا شهيدين من رجاف كم فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان عمن ترضون من الشهداء أن تضل إحداها فتذكر إحداها الأخرى . الآية ] اتضح بذلك أن السفيه والضعيف ومن لا يقدر على شيء لا بدله من ولى ، فلا يجوزأن يكون ولياً للمسلمين .

وابن حزم يقرر أن الخلافة لاتكون وراثية ، فالإسلام لايعرف الملك الوراثى ، ويقول رضى الله عنه : « لاخلاف بين أحد من المسلمين في أنه لا يجوز التوارث فيها أى في الإمامة ولافي أنها لا يجوز لمن لم يبلغ (حاشا الروافض) فإنهم أجازوا كلا الأمرين ، ولاخلاف بين أحد في أنها لا يجوز لامرأة » .

ولكن كيف تنعقد الإمامة التي تستوفي هذه الشروط عند ابن حزم ؟ يرى ابن حزم أنها تتم بأحد وجوه ثلاثة :

أولها —وأفضلها في نظره وأصحها أن يعهد الإمام قبل وفاته إلى واحد يختاره إماماً من بعده ، ويقول في ذلك : «كما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكما فعل أبو بكر بالنسبة لعمر ، وكما فعل سليان بن عبد الملك بالنسبة العمر بن عبد المريز ، وهذا الوجه هو الذي يختاره ، وترى من هذه الأمثلة أنه يشترط أن يكون العهد لمصلحة المسلمين وللدين ، لا للقرابة ولا أثرة .

والمهد لا يمنع وجوب البيعة ، فالبيعة العـــامة واجبة ، ولا يتم الاختيار إلا بعد البيعة .

والوجه الثانى : من أوجه عقد الإمامة عند ابن حزم - إذا لم يكن عهد أن يبادر رجل مستحق للإمامة فيدعو إلى نفسه ، ولامنازع له، فإنه يفترض اتباعه كاكان الأمر بالنسبة لعلى رضى الله عنه وكرم الله وجهه فى زعم ابن حزم .

والوجه الثالث: إنه يجمل للخليفة الحى اختيار الخليفة لرجل يعهد إليه بالنرشيح، أو لرجال ثقات يرشحون من بينهم واحدا ، كما فعل الإمام عمر، فقد ترك الأمر من بعده لستة رجال توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنهم راض . ويقول فى ذلك: « وليس عندنا فى هذا الوجه إلا التسليم لما أجمع عليه المسلمون حينئذ ، ولا يجوز التردد فى الاختيار أكثر من ثلاث ليال للنابت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من النهى عن البيات ليلتين من غير إمام ولأن المسلمين لم يجتمعوا أكثر من ذلك ، والزيادة على ذلك باطل لا يحل .

ويلاحظ أن ابن حزم فى كل ذلك كان ظاهرياً متبعاً لما أجمع عليه أهل المدل من المسلمين ، فهم أجمعوا على بيعة أبى بكر، ثم عمر ، ثم عثمان ، ثم على، و بذلك جاءت الطرق الثلاث بطريق إجماع أهل العدل من المسلمين ، ولاينقض الإجماع خروج أهل البغى .

# رأيه في مرتكب الكبيرة :

٣٤ - نشأت فكرة الكلام في مرتكب الكبيرة وحكمه بين الخوارج ابتداء ، فقد كفروا مرتكب الكبيرة ، وعارضهم أهل السنة والجماعة ، فقالوا إن مرتكب الكبيرة ليس بكافر ، ولكنه محاسب بما ارتكب إلا أن يتوب أو يتغمده الله برحمته ، والمرجئة قالوا : لايضر مع الإيمان ذنب ، كما لاينفع مع أو يتغمده الله برحمته ، والمرجئة قالوا : لايضر مع الإيمان ذنب ، كما لاينفع مع الإيمان دنب ، كما لاينفع مع المربخ المذاهب )

الكفر طاعة ، والممتزلة قالوا : إنه فى منزلة بين المؤمن والكافر ، ومحملا فى النار إلا أن يتوب .

وابن حزم ينهج تقريباً منهاج أهل السنة ، لأن ظواهر النصوص تؤيده ، ولكنه يقصل بمضالتفصيل ، فيقول من تاب لربه توبة نصوحاً عما ارتكب فإن الله تمالى ينفر الذنوب جميماً «ومن مات غيرتائب فإن رجحت حسناته على كبائره ، فإن كبائره وسيئاته تسقط ، وهو من أهل الجنة ولايدخل النار ، ومن استوت حسناته مع كبائره وسيئاته فهؤلاء أهل الأعراف ولهم وقفة ولا يدخلون النار ، ثم يدخلون الجنة ، ومن رجحت كبائره وسيئاته بحسناته ، فهؤلاء مجازون بقدر مارجح لهم من ذنوب الفن فحدة واحدة إلى بقاء خسين ألف سنة في النار ، ثم يخرجون منها إلى الجنة بما فضل لهم من حسنات » (١٠) .

ونراه فى هذا لايكفر مرتسكب الذنب ولوكان كبيرة ، ثم يدخل فى تخصيلات بأخذها من ظواهر النصوص ، وبذلك كان منطقياً فى منهاجه النقلى الذي التزمه ، وقد آن لنا أن ننتقل لفقيه .

<sup>(</sup>١) النصل ج ٤ س ٢٦

وقد الأخذ بظاهره ، وقد طبق في فيم المنقول هو الأخذ بظاهره ، وقد طبق ذلك في كلامه في السياسة ، وصفات الله سبحانه وتعالى وغير ذلك من شئون المقيدة ، ولم يعتمد على العقل إلا في إثبات الرسالة والألوهية ، فإذا ثبت ذلك ، فا أمامه سوى المنقول والأخذ بظواهره من غير بحث عن على الأحكام ونحوها .

وإن ذلك واضح فى فقهه كل الوضوح ، بل هو الأساس فى هذا الأمر ، فهو لا يعتمد فيا يستنبط من أحكام فقهية إلا على النصوص من الكتاب والسنة ولا يتجاوزها ، وليس للمقل مجال مطلقاً وراء النصوص ، ووراء ظواهرها ، فليس عنده اجتهاد بالرأى مطلقاً ، لا بالقياس الذى هو إلحاق أمر غير منصوص على حكمه ، والاستدلال به يكاد يكون على حكمه ، والاستدلال به يكاد يكون استدلالا بالنص ، ولا بالمصلحة ، ولا بالذرائع التى هى الحكم على الشىء عا يؤدى إليه .

# إبطاله الاجتهاد بالرأى :

٣٦ — وبهذا السياق يتبين أن ابن حزم يرى أنه لايصح الاجتهاد فى استخراج الأحكام الفقهية بالرأى ، ويستدل على ذلك بظواهر النصوص أيضًا، وها نحن أولاء نسوق ملخصًا لأدلته .

الدليل الأول من القرآن ، يستدل فيه بقوله تعالى: [ ما فرطنا فى الكتاب من شيء ، ويستدل من شيء ] ولوكان ثمة موضع للرأى لكان الكتاب قد فرط فى شيء ، ويستدل بقوله تعالى : [ يا أيها الذين آمنو ا أطيعو ا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمرمنكم فإن تنازعتم فى شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر]

فني هذا النص الكريم حصر الحصادر الشرعية وهي الكتاب والسنة. والإجماع الذي لانزاع فيه .

الدليل الثانى وهو من السنة ، وهو يستمد بظو اهر نصوص منها، فهو يروى.. أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « لا ينزع العلم من صدور الرجال ، ولسكن ينزع العلم بموت العلماء ، فإذا لم يبق عالم اتخذ الناس رؤساء جهالا، فأفتوا بالرأى. فضاوا وأضاوا » .

والدليل الثالث من أقوال الصحابة ، فيروى قول عمر : « اتهموا رأيكم ف. دينكم » وقوله « إنما كان الرأى من رسول الله صلى الله عليه وسلم مصيباً لأن. الله عز وجل كان يريه ، وإنما هو منا الظن والتكلف، ويسترسل في الرواية عن الصحابة فيروى مثل ذلك عن أبي بكر خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعلى كرم الله وجمه .

ولا يكتنى فى استدلاله بصحة رأيه ، بل يتجاوزه إلى ما استدل به الجمهور فينقضه ، فلا يجد فى قوله تعالى : [ فاعتبروا يا أولى الأبصار ] ما يدل على الأخذ . بالرأى فى الدين ، بل فيها ما يدل على الاعتبار بالحوادث الواقعة ، وينكر صحة حديث معاذ بن جبل الذى ذكر فيه للنبى صلى الله عليه وسلم أنه يجتهد برأيه إذا لم يجد نصافى الكتاب، ولاقضاء لرسول الله، وينكر صحة كتاب القضاء الذى . أرسله عمر رضى الله عنه إلى أبى موسى الأشعرى الذى فيه أمره له بقياس . الأشباه بالأشباة والأمثال بالأمثال .

٣٧ - وكل مناقشته واستدلاله أخذ بظواهر الألفاظ، وما أنكره من من حديث ثبنت صحته لا مساغ لإنكاره.

بقى أن نفظر فيما ساقه من أدلة ، فنقول : إن الذين قالوا : إن الرأى جائز لم يتركوا الأمر فرطاً من غير قيد بقيده ، فإن الرأى الذى أجازه الفقهاء ليس . إلا القياس أو المصلحة ، وكل أبواب الرأى ترجع إلى هذين الأمرين ، وليس. عَى الأَخَذَ بهما إلا الرد إلى كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، وقدأمر الله تمالى عند الخلاف الرجوع إلى كتاب الله وسنة رسوله ، فلا خروج على .نص القرآن إذا أخذ بالرأى .

ووجه ذلك أن القياس رد إلى كتاب الله وسنة رسوله ، لأنه الحسكم فى المسألة عاجاء به النص فى نظائرها ، فهو رد إلى نص معين فى القرآن أوالسنة، وليس خروجا على واحد منهما ، وهو طريق فهم النصوص والاستدلال منها كما قال حجة الإسلام الغزالى رضى الله عنه .

وأما المصلحة فليس الأمر فيها انطلاقا من كل القيود ، وإنما الأمر فى المصلحة هو أن تكون من جنس المصالح التي أقرها الإسلام ، فهى رجوع إلى عموم المقاصد التي أخذت من النصوص، وهي بهذا الاعتبار رجوع إلى الكتاب والسنة ، وليست خروجا عليهما ولاعلى مقتضى أحكامهما .

# الأدلة عند ابن حزم

٣٨ - قال ابن حزم: الأصول التي لا يعرف شيء من الشارع إلا منها أربعة وهي نص القرآن الكريم ، ونص كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي هو عن الله تعالى ، مما صحعنه ، عليه السلام ، ونقله الثقات أو التواتر، وإجماع جميع علماء الأمة ، ودليل منها لا يحتمل إلا وجها واحداً (١).

فهذه أربعة أصول مصادر يأخذ منها ابن حزم فقهه .

أولها الكتاب :

٣٩ ــ والكتاب هو الأصل الأولُّ للشريعة كلمها ، فمامن أصل إلا يرجع إليه

<sup>(</sup>١) الإحكام في أصول الأحكام لابن حزم ج ١ ص ٧١ ٠

فإن حجية السنة علمت منه ، وهو معجزة النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو سجل شريعته الباقى إلى يوم القيامة .

والقرآن إما أن يكون بيناً بنفسه ، مثل كثير من أحكام الزواج والعلاق والمدة ، وأحكام المواريث ، وإما أن يحتاج إلى بيان من السنة مثل تفصيل المجمل في معنى الصلاة والزكاة والحج ، فتكون السنة بياناً ، كما قال تمالى تنافي المجمل في الدكر لتبين للناس ما نزل إليهم ] .

و إن بيان القرآن قد يكون واضحاً جلياً ، وقد يكون خفياً لا يدركه على. وجهه إلا أهل الذكر ، كما قال تمالى : [ فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لاتعلمون]! ويقول ابن حزم فى ذلك :

« والبيان يختلف في الوضوح ، فيكون بعضه جليا ، وبعضه خفياً ، فيختلف . الناس في فهمه ، فيفهمه بعضهم بفهمه ، وبعضهم يتأخر عن فهمه ، كما قال على . ابن أبي طالب رضى الله عنه « إلا أن يؤتى رجلا فهما في دينه » .

وإن ابن حزم يذكر أن بيان القرآن قد يكون من القرآن ، فقد يكوند بمض نصوص القرآن خفياً أو عاماً يحتاج إلى تخصيص ، فيخصصه نص آخر من القرآن .

ويذكر أن المبين للعام من ألفاظ القرآن الذى قد يخصصه قسمان :

أحدها — يكون مقارناً له فى الزمان ، فيسمى تخصيصاً وقد يكون غير مقارن له فى الزمان ، فيسمى نسخاً ، ويقول: إن النسخ استثناء لعموم الحكم فى الأزمان ، فهو يفيد أن الحكم يطبق فى زمان ما قبل النسخ ، ثم يستثنى منه عموم الزمن بمد ذلك ، ويقول فى ذلك :

«إن النسخ نوع من أنواع الاستثناء ، لأنه استثناء زمان وتخصيصه بالعمل دون سأتر الأزمان . . . و يكون حينئذ صواب القول: إن كل نسخ استثناء ، وليس كل استثناء نسخاً » .

وابن حزم ينكر تمارض نصوص القرآن ، ويقطع بذلك ، لأن القرآن وحى إلمى ، لاشك فى ذلك فلا تعارض فيه .

و إن التمارض بين نصوص القرآن معناه أن يكون فيه اختلاف ، مع أن الاختلاف قد نفاه الله تعالى بقوله :

[ أفلا يقد برون القرآن ولو كان من عند غير الله لو جدوا فيه اختلافة كثيرا] فإذا توهم متوهم أن ثمة تعارضاً بين نصين من نصوص القرآن ، فإن ذلك التعارض زائل بإمكان التوفيق ، وإما بالتخصيص للعام من القرآن ، وإما بالتخصيص للعام من القرآن ،

#### السنية

يقول ابن حزم «لما بيدا أن القرآن هو الأصل المرجوع إليه في الشرائع نظرنا فوجدنا فيه إنجاب طاعة ما أمرنا به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ووجدناه عز وجل يقول واصفاً لرسوله: [ وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحي] فصح لنا أن الوحي من الله عز وجل إلى رسوله ينقسم إلى قسمين:

أحدهما — وحي متلو مؤلف تأليفاً معجز النظام .'

ثانيهما \_ وحى مروى ، منقول غير مؤلف ولا معجز النظام، ولا متلوه ولسكنه مقروء ، وهو الخبر الوارد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو المبين عن الله عز وجل مراده . قال تعالى [ لتبين للناس ما ترل إليهم] ، ووجدناه تعالى قد أوجب طاعة هذا القسم كما أوجب طاعة القسم الأول الذى هوالقرآن ولا فرق . »

ونرى من هذا أنه يعتبر السنة كالقرآن من حيث إنها وحى ، وإن لم تكن مثله فى العظم والتأليف والتلاوة والإعجاز . وأنه يرى أنها تبين القرآن ، وتأتى بأحكام لم يأت بها القرآن ، وأن الأخذ بها واجب بإبجاب القرآن .

وابن حزم يعتبر النصوص من قرآنية وأحاديث هي مصدر الشريعة ، والسنة، والقرآن مرتبة واحدة وقد سبقه بذلك الشافعي ، وهو يقول في ذلك : « والقرآن والخبر الصحيح بعضهما مضاف إلى بعض ، وهما شيء واحد في أنهما من عند الله تعالى ، وحكمهما حكم واحد في باب وجوب الطاعة لها ... قال الله تمالى : [ يأيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله ، ولا تولوا عنه وأنتم تسمعون ولا تكونو اكاذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون ] .

وابن حزم يعتبر أقوال النبي صلى الله عليه وتقريراته حجة لا ريب فيها ،

وأما أفعاله فلا تعتبر حجة إلا إذا اقترن بها من القول ما يدل على أن مله تطبيق لما أمر به ، مثل قوله صلى الله عليه وسلم : «صلوا كما رأيتمونى أصلى» أو توجد قرينة تدل على أن فعله قائم مقام قوله ، فإن القرينة تجمل الفعل في معنى القول .

# أقسام السنن من حيث روايتها :

وسنن آحاد ، والمتواترة حجة بالإجماع ، وهي عند ابن حزم حجة قطعية من غير تردد ، والمتواترة حجة بالإجماع ، وهي عند ابن حزم حجة قطعية من غير تردد ، والحن له تفسير للمتواتر يغاير تفسير علماء الحديث وسائر الفقهاء فهم يقولون « المتواتر ما رواه جمعيؤمن تواطؤهم على الحذب عن جمع مشلهم ، حتى يصل السند إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو يقرر أن التواتر أفل حد له اكنان إذا أمن اتفاقهما على الحذب ، فلو أن امرأ من ناحية روى خبراً ، مم جاء آخر من بلد آخر ، وهم لم يلتقيا ، فإن ذلك يكون تواتر اعنده ، إذا نه يوجب المتصديق ، كما تقرر ذلك في بدهيات العقول .

والقسم الثاني هو خبر الآحاد ، ويعرفه ابن حزم بأنه ما رواه الواحد أو الأكثر إذا لم يستوف شرط التواتر .

وابن حزم بخالف العلماء فى أنه يرى أن خبر الآحاد يجب تصديقه والأخذ به فى العقائد والعمل مماً ، فهو يوجب العمل والاعتقاد مماً ، وبذلك يتلاقى مع كثيرين من المحدثين ، وبعض الفقهاء المحدثين كأحمد بن حنبل ، والفقهاء الآخرون يرون أنه يوجب العمل ، ولا يوجب العلم .

وحبجة ابن حزم والمحدثين في الأخذ بخبر الآحاد في العقائد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم عند ما بعث رسائله إلى الملوك كان يحملها وأحد ، وأنه مصلى الله عليه وسلم كان يبعث بعوثه إلى المسلمين، ولا يتحرى أن يكون المبعوث

عدداً ، فبعث معاذاً إلى المين ، وأبا بكر أميراً للحج ، وعلياً قاضياً بالمين ، وأن الصحابة كانوا إذا عرض لهم أمر لم يجدوا له نصا في الفرآن السكريم بحثوا عن حديث لرسول الله صلى الله عليه وسلم في حكم ماعرض لهم ، فإذا وجدوه قضوا به من غير أن يبحثوا عن عدد .

والفرق بين التواتر والآحاد هو فى قوة الاستدلال ، بحيث يقدم التواتر على الآحاد ، فإذا تمارض خبران :

أحدهما — متواتر والآخر آحاد ، ولم يمكن التوفيق بينهما اعتبر الصادق. منهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم الحديث المتواتر .

27 — وابن حزم يشترط فى الرواة أن يكونوا عدولا ثقات فى ذات أنفسهم، وأعلى مراتب الثقة فيهم من يكون فقيهاضابطاً حافظاً، والمستور الحال يتوقف قبول روايته ، حتى يتبين أهو عدل مقبول القول ، أم غير عدل مردود الرواية .

والفقه فى الراوى شرط لأعلى الرتب ، وليس بشرط لأصل القبول . ، وقد روى فى ذلك حديث أبى موسى الأشعرى عن النبى صلى الله عليه وسلم . وهذا ماجاء فى كتابه الأحكام :

عن أبى موسى الأشعرى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال: [ إن مثل ما بعثنى الله به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضاً ، فكان منها طيبة قبلت للماء ، فأ نبتت الكلاً والعشب الكثير ، وكان فيها أجادب (١) أمسكت الماء فنفع الله بها الناس ، فشربوا وسقوا ورعوا ، وأصاب منها طائفة أخرى، إنماهى قيمان (٢) لا تمسك ماء ولا تنبت كلاً ، فذلك مثل من فقه فى دين الله ، و نفعه الله

<sup>(</sup>١) الأجادب الأرض الصلبة التي تمسك الماء ولا تتشربه وليس فيها نبات ولا عشب لعدم خصوبتها .

<sup>(</sup>٢) القيمان جمع قاع ، وهي الأرض المستوية التي لا بمسك الماء .

عا بمثنى به ، فَمَلِم وعلم ، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ، ولم يقبل هدى الله الذى أرسلت به ] فقد جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى هذا الحديث مراتب العلم دون أن يشذ منها شى ، فالأرض الطيبة النتية هى مثل الفقيه الضابط لما روى ، الفاهم للمانى التى يقتضيها لفظ النص ، المتنبه على رد مااختلف فيه الناس إلى نص حكم القرآن وسفة رسوله صلى الله عليه وسلم . وإن الأجادب الممسكة لماء التى يستقى منها الناس فهى مثل الطائفة التى حفظت ماسمعت ، أو ضبطته بالكتابو أمسكته ، حتى أدته إلى غيرها غير مفيرة ، ولم تكن تنبه على معانى ماروت ، لكن ولا عارفة برد مااختلف الناس فيه إلى نص القرآن والسنن التى رويت ، لكن نفع الله بهم فى التبليغ فبلغوم إلى من هو أفهم لذلك ، فقد أفذر رسول الله بهذا إذ يقول [ فرب مبلغ أوعى من سامع ] ، وكا روى عنه عليه السلام : فرب حامل فقه ليس بفقيه ] ، فن لم يحفظ ماسمع ولا ضبطه ، فليس مثل الأرض الطيبة ، ولا مثل الأجادب المسكة الهاء ، بل هو محروم معذور ، أو مسخوط بمنزلة القيمان التى لاتنبت السكلا ولا تمسك الماء » .

وابن حزم لايشترط فى الرواية تمدد الراوى فرواية الواحد المفرد تقبل وقد فرق ابن حزم بين الشهادة التى لاتقبل إلا بشهادة رجلين أورجل وامرأتين ورواية الحديث بثلاثة أمور:

أولها — أن الله سبحانه وتعالى تكفل محفظ دينه ، فكان المدل وحده كافياً لنقل ماينقل عن النبى صلى الله عليه وسلم ، ولا مشاحة فى الدين ولا اختلاف ، وإذا تعارضت الروايات قدم أقواها سندا ، أما أمور العباد فإنها مبنية على المشاحة ، وحيث كانت المشاحة كانت الظنة ، فكان لابد بما يزيلها بشهادة رجلين أو رجل وامرأتين .

الثانى — أن القضاء بشهادة العدول أمر لازم على القضاء ، ولذلك يفسق المقاضى الذى لايقضى بشهادة العدول فكان لابدً من توثيقها .

الثالث -- أن الرواية ليست شهادة ، ويقول في ذلك : « إن الله افترض علينا أن نقول في جميع الشريعة » : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأمرنا الله تعالى بكذا ، لأنه تعالى يقول : [وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول] : [وما آتاكم الرسول فخذوه وما نها كم عنه فانتهوا] ففرض علينا أن نقول : نهانا الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم عن كذا . . وأمرنا بكذا ، ولم يأمرنا تعالى أن نقول شهد هذا محق كذا ، ولا حلف الحالف على حق كذا . .» (١) وهكذا نراه ظاهريا في هذا الوجه الأخير يأخذ بظاهر الألفاظ ، إذ أنه يذكر أنه مادام لم تذكر الرواية مشروطة بلفظ شهدنا أو نحوها ، فهذا نوع من الفرق بين الشهادة والرواية .

وابن حزم لايقبل من الروايات إلا ماكان السند فيها متصلا، وعلى الذك لا يقبل الحبر المرسل الذي لم يذكر فيه القابعي اسم الصحابي الذي روى عنه ، كا لا يقبل خبراً قد انقطع السند فيه في أي طبقة من طبقاته ، ولا يقبل المرسل أو المنقطع إلا إذا كان قد وجد الإجماع على معناه ويقول في ذلك : « وقد يرد خبر مرسل إلا إن كان الإجماع قدصح فيه متيقناً مقبولا جيلافجيلا ، فإذا كان هذا ، فقد علمنا أنه منقول نقل كافة كنقل القرآن ، فاستغنى عن نص السند ، وكان ورود المرسل وعدم وروده سواء ، وذلك نحو : « لاوصية أوارث » وكثير من أعلام نبوته وإن كان قد رووها بأسانيد صحاح ، فهي منقولة نقل الكافة ، كشق القمر ، مع أنه مذكور في القرآن ، وكإطعامه النفر الكثير من الطعام اليسير ، وكسقيه الجيش من ماء يسير في قدح » .

وابن حزم لايعتبر القول منسوباً إلى النبى صلى الله عليه وسلم إلاإذا قال الصحابي إن النبى قاله أونحو ذلك ، فلابد من القصريح ، وعلى ذلك لايعتبر من

<sup>(</sup>١) الأحكام ج ١ ص ١٣٩ ، ١٠ ١٤ - الأحكام ج ١ ص ٣٣١ .

الأحاديث قول الصحابي : « السنة كذا ، أو أمرنا بكذا » فلا يعتبر ذلك إسناداً لأنه يحتمل أن يكون معنى ذلك أنه سمع من النبي صلى الله عليه وسلم قولا في ذلك ويحتمل أنه اجتهاد منه ، ومع هذا الاحتمال لا ينسب القول إلى النبي صلى الله عليه وسلم . واجتهاد الصحابى عند ابن حزم ليس حجة في الدين فلا يقلد الصحابى ، ولا من دون الصحابى .

وبهذا يتبين أن ابن حزم كان ظاهرياً حتى فى الرواية .

## تعليل النصوص

عنظرون إلى الفصوص على أنها معقولة العنى ،قد جاءت لمقاصد ، تغطمها أحكام ينظرون إلى الفصوص على أنها معقولة العنى ،قد جاءت لمقاصد ، تنظمها أحكام الدين والدئيا ، ويسير الناس بمقتضاها على منهاج مستقيم قاضل ، فيفهم كل نص بما تدل عليه ألفاظه ، وما يفيده من معان عامة وخاصة ، فإذا جاء العص بتحريم الخر تعرفوا النصد من القحريم ومرماء ، ويطبقون على الخركل ما يتحقق فيه الحنى الذي كان من أجله النحريم ، وبذلك يأخذون من مجموع النصوص القرآئية والأحاديث النبوية قواعد كلية تندرج تحتها جزئيات كثيرة ، ويمكن معرفة أحكام الحوادث التي تجد بتطبيق هذه القواعد عليها ، وبذلك تقسع الشريعة أحكام الحوادث التي تجد بتطبيق هذه القواعد عليها ، وبذلك تقسع الشريعة شرعى ، ولا يجد النص .

هذا نظر الجمهور، أما الظاهرية، فإنهم يرون أن النصوص لصالح العباد، ولكن كل نص يقتصر على موضوعه لا يتجاوزه ولا يفكر في علة مستنبطة معه، وإن كان يجب الاعتقاد بأنه جاء لمصلحة العباد، فلا نحلل ولا نحرم إلابنص وإذا كانت بعض النصوص جاءت لأسباب، فليس ذلك لتتعدى أحكامها إلى غير موضوع النص، ويقول في ذلك:

« لانقول إن الشرائع كلما لأسباب ، بل نقول : ليس شيء منهالسبب إلامانص عليه أنه لسبب ، وماعدا ذلك ، فإنما هو شيء أراده الله تمالى الذي يفعل ما يشاء ، ولا نحرم ولا نحلل ، ولا نزيد ولا ننقص إلا ما قال ربنا عز وجل، ونبينا صلى الله عليه وسلم ، ولا نتمدى ما قالا ، ولا نترك شيئا منه ، وهذا هو الدين المحض الذي لا يحل لأحد خلافه ولا اعتقاد سواه ، وبالله تمالى التوفيق. قالى تعالى ؛ [لايسأل عما يفمل ، وهم يسألون] فأخبر تمالى بالفرق بيندا وبينه،

وأن أفعاله لا تجرى فيها : « لم » وإذا لم يحل لناأن نسأله عن شيء من أحكامه تعالى وأفعاله : « لم كان هذا » فقد بطلت الأسباب جملة ، وسقطت العلل ألبقة إلاما نصعليه تعالى أنه فعل كذا لأجل كذا ، وهذا أيضاً ممالا يسأل عنه ، ولا أن يقول لفيره : « لم جعل هذا سبباً دون أن يكون غيره سببا أيضاً ، لأن من قال هذا السؤال ، فقد عصى الله عز وجل وألحد في الدين » (١).

ونجد ان حزم يخرج المسألة في تعليل النصوص إلى مجال آخر ، فهو يعتبر تعليل النصوص ، من قبيل سؤال الله تعالى هما يفعل ، وتعليل إرادته السكونية في الأقوال والأفعال ، وذلك بعيد عن الموضوع كل البعد، إذا أن تعليل النصوص الذي يتجه إليه الفقهاء هو تعرف مرامي النصوص ، ومقاصدها ، و تعميم مانشتمل عليه من معان ، فهي تعرف لما يريده الله تعالى من نصوص ، وليس وضعا لإرادته موضوع تساؤل ، ولذلك نقول إن ابن حزم في هذه فاته ما ينبغي لمثله من دراسة للموضوع دراسة عميقه ، إذ أن الفرق بين الأمرين أن من يبحث عن معانى النصوص يتعرف مراد الله تعالى من أحكامها ، ويفسر النصوص ، فهو يقول ما الذي يريده رب العالمين من أحكام ، وأما من يضع الإرادة موضع تساؤل . فهو يقول بنوية والفرق بين الأمرين عظيم .

الأحكام ج ٨ س ١٠٧

### الاستصحاب

ومصلحة واستحسان وذرائم ، فما الذي يعتمد عليه فيما لانص فيه ؟

إنه يعتمد على أصل الإباحة الأصلية ، بالاستصحاب، وذلك أن الاستصحاب معناه عنده بقاء الحسكم المبنى على النص ، حتى يوجد دليل من نصوص تذيره ، وقد قرر أن إباحة الأشياء كلما إلا ماجاء به التحريم ثابت بالنص، فقد قال تعالى عند نزول آدم إلى هذه الأرض : [ ولسكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين ] ويقول في هذا النص : «أباح الله تعالى الأشياء بقوله إنها متاع لنا ، ثم حظر ماشاء ، وكل ذلك بشرع » (1).

و إنه وقد أخذ بالاستصحاب، وترك الاجتهاد بقياس يجعل الأشياء المتاثلة: ذات حكم واحد أداه إلى غرائب، منها.

(۱) أن الأشياء لاننجس إلا إذا ظهر للشيء النجس أثر مادى فيها من تغير لونها أو رائحتها أو طعهما ، فإذا وقع شيء من ذلك في الماء ، ولم يكن هذا التغير فالماء طاهر يصح شربه ، والوضوء منه ، ولايستثنى من ذلك إلا البول. في الماء الراكد لورود نص فيه (۲) .

(ب) ويقول إن سؤر السكلب ، وهو الماء الباقى بعد شربه نجس لايكون. القطمير للإناء الذى فيه إلا بفسله سبماً إحداهن بالتراب الطاهر لأن النص قد. ورد بذلك ، بينما يقرر أن سؤر الخنزير طاهر يصح شربه والوضوء منه (٢)

<sup>(</sup>١) الاحكام ج ١ ص ٥٥ .

<sup>(</sup>٢) الحلي ج ١ ص ١٣٥٠

<sup>(</sup>٣) الحلى ج ١ ص ١٣٢٠.

(ج) يقرر أن بول الإنسان في الماء الراكد ينجسه ، بينما بول الخنزير لا يتجسه ، لأن النص لم يرد إلا في بول الإنسان ، فلا يقاس عليه بول الحيوان ولو خنزيرا<sup>(۱)</sup> .

ولا شك أن هذا شذوذ في الفقه ، وفي الفكر ، وقد أدى إلى هذا عند ابن حزم عدم أخذه بالرأى وعدم اعتباره النصوص معقولة المعنى، فلم يبن أحكامها على علل مستنبطة ، ولا على مصالح مقررة ، ولا على إلحاق الأشباه بأشباهها ، وإعطاء المتاثلين حكما واحداً ، وبذلك انهدم صرح الاستنباط .

# خاتمة في فقه ابن حزم

27 — هذه نظرات مصورة لفقه أهل الظاهرعامة ، وفقه ابن حزم خاصة ، وقد شدد في الأخذ بالظاهر ، وخالف في هذا التشدد الإمام الأول للمذهب ، وهو داود الأصبهاني ، وقد أخذنا بعض كلام له ، وهو مصور لما وراءه ، فما سقناه له من قول فيه تصوير لمنهاجه الفقهى الذي التزمه وشدد فيه .

وإن ذلك المنهاج دفعه لأن يعلب الحديث من كل مظانه ، وبكل رواياته، ليجد السبيل للأخذ بالظاهر من النصوص مادام لايعتمد على الرأى ، وقد أتى من ذلك بالثروة المثرية الوفيرة . ٧٤ ــ كان المذهب انتشار نسبي في عهدداود أول من نادى به ، ومنجاء بعده ، ولكنه لم يرتفع في انتشاره إلى أى مذهب من مذاهب الأمصار المعروفة. ولما جاء الأمر إلى ابن حزم في القرن الخامس حمل العب وحده ، وقد خدم ذلك المذهب بثلاثة أمور .

(١)كتابه الإحكام في أصول الأحكام ، فقد ناقش فيه أصول المذهب وبينها ووضّم الوقارن بينها وبين غيرها ودافع عنها دفاعاً قوياً وإن لم يكن حقاً في كل ما انجه إليه .

(ب) وقد لخص ذلك الكتاب تلخيصاً موجزاً مقرباً في رسالة لغيره سماها (العبذ)، وفيها خلاصة دقيقة لمنهاج المذهب الظاهرى مع مناقشات قليلة لغيره من المذاهب.

(ج) والأخير هو كتاب المحلى ، وهو ديوان الفقه الإسلامى حقاً وصدقاً ، جمع فيه أحاديث الأحكام ، وفقه علماء الأمصار ، وهو كتاب عظيم الفائدة في ذاته ، وفيه دون المذهب الظاهرى ، وسجل في هذا الوجود ، ولولا مافيه من حدة في الألفاظ ، وانحراف في بعض المبارات لكان أمثل كتاب في فقه السئة والأمر الثانى : أنه حاول نشر المذهب بالدعوة إليه ، ولكن حدة قوله أثار عليه حسد الحاسدين ، فكانت الاستجابة لقوله لاتتكافاً مع الجهد الذي كان يبذله رضى الله عنه ، ولقد نسب هو ذلك إلى أن العالم لا يستجاب له في بلده وقد قال في ذلك :

« وأما جهتنافا لحسكم في ذلك ماجرى به المثل السائر : أزهد الناس في عالم أهله ، وقرأت في الإنجيل، أن عيسي عليه السلام قال : « لايفقد النهي حرميّه

إلا في بلده » وقد تيقنا ذلك بما لتي النبي صلى الله عليه وسلم من قريش ، وهم أوفر الناس أحلاماً وأصحهم عقولا ، وأشدهم تثبتاً ، مع ماخصوا به من سكناهم أفضل البقاع ، وتغذيتهم بأكرم المياه ، حتى خص الله تعالى الأوس والخزرج بالفضيلة التي أبانهم بها عن جميع الناس ، والله يؤتى فضله من يشاء ، ولاسيا أندلسنا ، فإنها مضت من حسد أهلها للعالم الظاهر فيهم ، الماهر منهم ، واستقلالهم كثير ما يأتى به ، واستهجاتهم حسناته ، وتتبعهم سقطاته وعثراته وأكثر ذلك مدة حياته \_ بأغماف ما في سأتر البلدان ، إن أجاد قالوا سارق مغير ، ومنتحل مدم ، وإن توسط قالوا غث بارد ، وضعيف ساقط ، وإن باكر لحيازة قصب سبق قالوا : متى كان هذا ، وفي أى : مان قرأ ، ولأمه الهبل (١) » .

وإن هذا الـكلام يدل بلا ريب على أن حسد الحاسدين حال بينه وبين ما يبتنى من إرادته نشر هذا المذهب، وإنه بلا ريب لم يكن حقدعاماء الأندلس على ابن حزم سبباً لنقل المذهب من سيء إلى أسوأ، ولكفه كان مانعاً من أن تظهر ثمرات الجهود التى بذلها ابن حزم فى تأييده، فقداشتد على قومه، واشتدوا عليه، فلم يكن ما يرجى له من رواج.

الأمر الثالث: هو أن ابن حزم كان يجتذب الشباب إليه ، فإذا كان لم يستطع أن يبث للذهب في النظراء ، ومن كانوا قريبين منه سنا ، فقد استطاع أن يبذر بذوره في قلوب الشباب الذين كانوا يفدون إليه في مزرعته التي اتخذها مقامه الأخير طوعاً أو كرها — فأولئك التلاميذ من الشباب كانوا يقصدون إليه مخلصين في طلب ماعنده وقد تلقوا ماعنده من تفكير في الفقه والحديث، وسائر العلوم الإسلامية ، وأولئك ، وإن كانوا عدداً قليلا ، ومن صفار الطلبة لا من كبار العلماء ، قد أغنى إخلاصهم ونشاطهم عن الكثرة ، وكان لهم من بعد ابن حزم أثر واضح في جم كتبه ، وتوضيح آرائه .

<sup>(</sup>١) نفح الطيب م ٢ ص ١٣٠ طبع الخيرية .

## المذهب بعد أبن حزم

٨٤ -- لم يمت المذهب بموت ابن حزم ، بل إنه خلده بكتبه ، ونشره إلى
 حد ما بتلاميذه الذين تلقوا عليه ، وكانوا من أو لئك الشبان الذين اجتذبهم ،
 ولم يكن نشره بالأندلس فقط ، بل كان نشره ببلاد المشرق .

وأول من اتجه إلى ذلك تلميذه الحميدى الذى جمع الصحيحين البخارى ومسلم، فإنه هرب من الأندلس بعد وفاة ابن حزم وكان في هروبه نشر المذهب في المشرق بالكتب التي دونها ابن حزم .

والحميدى هو أبو عبد الله محمد بن أبى نصر الذى ولد سنة ٤٢٠ وتو ف سنة ٤٨٨ ، وكان مؤرخا حافظا راوية ، تتلمذ على ابن حزم . وتخرج عليه فى أكثر علوم الإسلام ، وتلتى عليه كتبه ، ونشرها بالمشرق .

٤٩ — إنه قد انتشر تلاميذ ابن حزم ، وكان لانتشارهم مع كتبه أثره في الأجيال ، فكان لا يخلو جيل من ظاهرى ، والأنداس كانت لا تخلو من فقيه ظاهرى في عصر من العصور .

وكان من العلماء الذين عاشوا فى القرن السادس والسابع الهجرى أبو الخطاب مجد الدين بن عمر بن الحسن ، ويكنى أبو الخطاب ابن دحية ، وقد طاف بأقاليم الأندلس كلما ، وتلتى العلم على شيوخها ؛ ثم انتقل إلى مصر فى عهد الأبوبيين ، وقد قال فيه القرى :

[قد روى رحمه الله بمصر وبالمغرب والشام والعراق والعجم . ورحل فى طلب الحديث ، حصل الكتب والأصول ، وحدث وأفاد . . . وصنف كتباً كثيرة معيدة جداً . . . ] .

ومن العلماة البارزين الذين كان لهم أثر فى الفكر الإسلام، محيى الدين ابن عربى ، وقد كان ظاهرياً فى العبادات ، يأخذ بمذهب أهل الظاهر ، وكان معاصراً لأبى الخطاب بن دحية ، وقد قال فيه المقرى «كان ظاهرى المذهب فى العبادات ، باطنى النظر فى الاعتقادات »(١) .

وكان أبو الخطاب وابن عربى يعيشان فى عصر الموحدين الذين حكموا الأندلس، ويصح لنا أن نقول إن آخر القرن السادس وأول القرن السابع. كان عصر ازدهار وانتشار المذهب الظاهرى، فقد عمم العمل به فى شمال أفريقية وبلاد الأندلس كاما يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن بن على الذى تولى سنة ٨٠٠ إلى ٥٠٠.

إذ قد أعلن العمل به ، وصار على ذلك من جاء بعده ، فقد ذكر صاحب كتاب المعجب فى تلخيص أخبار المغرب ، أنه دعا إلى السنة ، وإلى ترك التمذهب بمذهب مالك ، والعمل على الأخذ بكتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، لا إلى شيء سواها ، بل إنه جاء إلى كتب الفروع فى المذهب المالكي وحرقها كلها ، ولفترك السكلمة لصاحب المعجب . فهو يقول :

« فى أيامه أى أيام يعقوب انقطع علم الفروع ، وخافه الفقهاء ، وأمر بإحراق كتب المذهب ، بعد أن يجرد مافيها من أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم والقرآن ، فأحرق منها جلة فى سائر البلاد ، كمدو نة سحنون وكتاب ابن يونس، و نوادر أبى زيد ومختصره ، وكتاب التهذيب للبرادعي ، وواضحة ابن حبيب وما جانس هذه الكتب ، ونحا نحوها . لقد شهدت منها يومئذ ، وأنا بمدينة

<sup>(</sup>١) نفح الطيب ج ١ ص ١٠٠ طبع الرفاعي .

فاس أنه يؤتى منها بالأحمال فتوضع ، وتطاق فيها النار » .

ويقول فى ذلك أيضاً: « تقدم إلى الناس فى ترك الاستفال بعلم الرأى ، والخوض فى شىء منه ، و توعد على ذلك بالعقوبة الشديدة . . . . وكان قصده فى الجلة محو مذهب مالك و إزالته ، من المغرب مرة واحدة ، وحمل الناس على الظاهر من القرآن والحديث » .

وبذلك قام المذهب الظاهرى ، وانبعث من مرقده ، لأنهم إذا دعوا إلى الأخذ بظاهر القرآن والسنة ، فقد دعوا إلى منهاج أهل الظاهر الذين منعوا التقايد ، وافتصر واعلى ظواهرالنصوص ، وكان ابن حزم موضع تقدير يعقوب ابن يوسف ، حتى إنه عندما دخل الأندلس زار قبر ابن حزم رحمه الله ورضى الله عنه ، والله هو الموفق ، والهادى إلى سواء السبيل م



١ - كان السائر في الطريق بين حران ودمشق في سنة ٢٩٨ بجد أسرة كبيرة تسير في هذا الطريق فصلت عن حران إلى دمشق تسير ليلا، وتأوى إلى كن آمن من الأرض نهاراً، قدفرت من سيوف التتار في ظلمة الليل البهيم، وهي في طريقها إلى حيث الأمن والاستقرار في دمشق الفيحاء مأوى العلم والعلماء، وقد ناءت تلك الأسرة بحملها ، فلم تجد من الدواب ما يحمله ، وكان في العربات تجر ما أغناها عن الدواب تحمل ، وما كان متاع هذه الأسرة ذهبا أو فضة ، أو حلياً وطنافس ، أو غير ذلك من متاع هذه الدنيا ، بل كان حملها الذي تحمله هو تركة الأنبياء وتروة الأجبال.. هو علم الدين ، فسارت بأوقارها حتى آوت إلى دمشق ، فالوت إلى ركن شديد ، ومع هذه الأسرة غلام يقظ العقل والنفس دمشق ، فالوت إلى ركن شديد ، ومع هذه الأسرة غلام يقظ العقل والنفس في السابعة من عمره ، قد تفتح حسه فوجد هذه الحرب الضروس التي ضرسته بأنيابها ، فصقلته التجرية ، ولم ينشأ في حلية فاكهة بالنعيم والأمن والاستقرار ، بأنيابها ، فصقلته التبخرية ، ولم ينشأ في حلية فاكهة بالنعيم والأمن والاستقرار ، بل نشأ في الشدة قد مرست نفسه وجسمه . ذلكم الفلام هو أحمد تقى الدين أبي المحاس عبد الحليم بن الشيخ مجد الدين أبي المحاس عبد الحليم بن الشيخ مجد الدين أبي البركات عبد الشر م بن أبي المحاس عبد الشم بن علي بن عبد الله ، و تعرف هذه الأسرة بأسرة ابن تيمية .

مولدابن تيمية .

٣ - كان مولد ابن تيمية في العاشر من ربيع الأول سنة ٦٦١ ه ويذكر بمض العلماء أن مولده كان في الثاني عشر من هذا الشهر ، وامل أولئك يريدون أن يثبتوا أن مولده كان موافقاً لمولد الرسول صلى الله عليه وسلم تيمنا بأنه سيحيى سنته ، ويدعم بالحجج شريعته ، ويدافع عنها إلى أن يموت في محبسه .

والشيخ شهاب عبد الحليم والد ابن تيمية بذكر بالحراني (أ) ، كا ينسب ابن تيمية الصغير بهذه بالنسبة ، والنسبة إلى البلد دون القبيلة تومى و إلى أنه ليس بعربى ، لأن العرب يحتفظون ، وأنسابهم ، وغير العرب لا يحتفظون ، ولكن الأستاذ بهجت البيطار حفظه الله أثبت أنه عربى بميرى ولا يهمنا نسبه ، فمثل ابن تيمية يفخر به من يكون منهم ، ولا يفخر هو بهم ، فاغض من مقام أبى حنيفة أنه فارسى .

ولم يذكر المؤرخون عن أمة شيئا ولا عن قبيلها ، وإذا كان أبوه قدمات و ابن تيمية في مقتبل العمر إذ مات سنة ٦٨٢ أى وابن تيمية في الحادية والعشرين فقد ما تت أمه بعد ذلك ، وعاشت حتى رأت مجد ابنها يكتمل ، وقد صار المجاهد الأول لإحياء الشريعة و دفع الأوهام عنها ، وعاونته في جهاده ببرها وحد بها وعطفها ، وعند ما كان في ميدان العمل بمصر من بعد الاعتقال كان يرسل إليها كمتبا تنييض عطفاً و براً ووفاء وإحساناً ، حتى إنه ليخني عنها آلامه لكيلانسيبها لوعة الألم والفراق معاً.

وعدما انتقلت الأسرة إلى دمشق جلس كبيرها في مجلس مثله من العلماء الذين يشار إليهم ، إذا أنه بمجرد أن وصل إلى دمشق ذاع فضله واشتهر أمره ، لأن العلم نوريضيء حول صاحبه فتعشو إليه الأبصار : فكان له كرسي للقدريس والوعظ مجامع دمشق الأعظم (السجد الأموى) وتولى مشيخة دار الحديث بالسكرية ، وبها كان مسكنه وفيها تربى ولده تقى الدين .

ومما لوحظ على درس ذلك العالم الكبير أنه كان يلقى دروسه غير مستمين بقرطاس مكتوب، أو كتاب يتلومنه ،أومذكر ات يستمين بها الوقت بعد الآخر بل كان يلقى الساعات من ذاكرته الواعية ، وهذا يدل على قو تالذاكرة الحافظة،

<sup>(</sup>۱) يذكر صاحب القاموس أن النسبة إلى حران هى حرنانىوهى نسبة سماعية، ويخطىء من يقول حرانى ، وهى النسبة القياسية .

وثبات الجنان ، وهى الصفات التى برز بها ابن تيمية تقى الدين، إذ كان من أخص صُفاته الحافظة الواعية ، والبديهة الحاضرة التى كان يقرع بها الحجة ، ويشده لها المناظر ، ويتحير عندها الحجادل .

#### نشأته:

٣ - نشأ ابن تيمية في أسرة علمية عملها البحث والدراسة والقلم والبيان، فكانت بيئته متجهة به إلى العلم، تحدوه إليه، وتجعل فيه نزوعا نحوه، ومحبة له. وقد وجهته الأسرة إلى ذلك ، فاستحفظ القرآن صغيراً ، واستمر عدته في عمله ، ويتعبد بتلاوته ، حتى إنه كان سميره في محبسه الذي مات فيه ، فقد قال الرواة إنه تلافي سجنه ثمانين ختمة من القرآن .

وقد وجه من بعدالقرآن إلى الحديث فأخذ يترع من مائه العذب، وخصوصاً أن أباه على رأس مشيخة الحديث، ومع الحديث فقهه ، وففقه الحديث لب الدين وقد امتاز ابن تيمية منذ نعومة أظفاره بثلاث صفات هي التي سارت به نحو الكال ونحو العلم الناضج ، وهذه الصفات هي :

- ( ا ) الجدوالاجتهادوالمثابرة ، والانصراف إلى المجدى من العلوم ، فكان لا يلهو لهو الصبيان ، ولا يعبث عبثهم .
- (ب) وتيقظ حسه ، وتفتح عقله ونفسه لكل ما حوله يدركه ويعيسه ، وقد ربى ذلك فيه تتابع الأحداث القارعة للحس مع عقل نافذ أريب .
- (ج) والذاكرة الحادة والفكر المسيقيم ، وقد كانت ذاكر ته حديث الفلمان من زملائه ، وشجاوز ذلك الصبيان إلى الرجال فتسامعت به دمشق و ما حولها، وقد ذكرت في ذلك روايات وأخبار قد يبدو دادى الرأى أنها من صنع الحيال ولسكن المتتبع لحياة ابن تيمية من بعد يذعن لصدق جلها إن لم يصدقها كلها . ومهما تكن قيمة هذه الأخبار ، فالثابت أن ابن تيمية قد آتاه الله تعالى

ذاكرة واعية ، والذاكرة هي المقياس الأول للذكاء قوة وضعفاً ، وقد ورثابن تيمية هذه الموهبة عن أسرته .

٤ — اتجه أحمد تقى الدين إلى العلم كشأن أسرته ، فقد كان أبوه على مشيخة الحديث فى بعض مدارس دمشق كا نوهنا ، ولم يكن تاجراً كا بي حنيفة إذ كان أبوه تاجراً ولذا كان ينصرف إلى الأسواق فى صدر حياته ، ولم ينقطع عنها طول حياته ، فكان المنطق أن يتجه تقى الدين إلى العلم .

وكان المنطق أيضاً أن يتجه بعد القرآن إلى الحديث ، ويجعله هم نفسه فى الطلب ، وقد تلقاه عن أبيه ، وسمع السكتب على مشايخ الحديث السكبار، فسمع منهم الدواوين السكبيرة ، كسند الإمام أحمد بن حنبل، وصحيح البخارى، ومسلم وجامع الترمذى ، وسنن أبى داوود ، والنسائى ، وابن ماجه والدارقطنى ، ويذكر بعض معاصريه أنه حفظ الجمع بين الصحيحين للإمام الحميدى .

وقد اتجه مع الحديث إلى الفقه الحنبلى، فقد كانفقه الحديث، وهو مذهب أسرة ابن تيمية ، فكان أبوه هو الموجه إليه فيه ، وبذلك أخذ يعب منه حتى أشرب منطقه ، وعلم كليانه وجزئياته .

وكان معنيا في صباه بتعرف آثار الصحابة والتابعين وأقوال التابعين ، وشيوخهم من الصحابة في معنى آي القرآن الـكريم .

ولم تكن دراسته مقصورة على علم الدين وحده من كتاب وسنة وفقه السنة ومعانى القرآن، بلعنى بأداة هذه العلوم الدينية، وهي علوم العربية فدرسها كأنه يقصد إليها ليتخصص فيها، فحفظ كثيراً من المنثور والمنظوم وأخبارالعرب في القديم وأيام ازدهار الدولة الإسلامية، وبرع في النحو براعة واضحة، حتى إنه ليقرأ كتاب سيبويه ويدرس شواهده دراسة فاحصة ناقدة، فيخالف بعض ما انتهى إليه سيبوبة معتمداً في المخالفة على ما درس في غيره، فلم يكن المتهجم

من غير بينة ، ولا للندفع من غير حجة وسلطان من الحق مبين .

ومع هذه العلوم الدينية الزاخرة كان يرهف فكره وعقله بالعلوم الرياضية وآراؤه التي ظهرت من بعد تدل على إلمامه بآراء الفلاسفة و بعض العلوم الفلسفية كالمنطق ، وإذا كان له كتاب في نقض المنطق ، فإنه بدل على معرفة له معرفة مكنته من أن يناقضه ، وهو يجهله ، بل لا بد من معرفة دقيقة ، فائقة ناقدة فاحصة .

## البيئة الأولى التي وجهته :

حكان يسير في هذه الدراسة تحت ظل أبيه ، وقد كانت ملازمته لهذا الأب المالم ذات جدوى مثمرة، وقد قال أبوحنيفة رضى الله عنه في التوجيه العلمي عندما سئل عمن وجهه ، فقال : «كمنت في معدن العلم ، والفقه ، فجالست أهله ، ولازمت فقها من فقهائهم » .

وقد تحقق الأمران لتقى الدين ،فقدلازم أباه،وكان فى معدن العلم بدمشق، فإن ذلك المصركان ثانى اثنين من أمصار المسلمين آوى إليهماالعلماء فى المشرق والمغرب ، وأول المصرين القاهرة ، فإن العلماء من المغرب أخذوا يأوون إلى القاهرة ليجدوا فيها الحماية فى ظل حكامها الذين يحسنون ضيافة العلماء وأيواههم يجرون الأرزاق عليهم ، ويحبسون الأحباس لهم ، ولما أغار الصليبيون من قبل أخذ العلماء يتجهون إلى دمشق ، مم إلى القاهرة .

ولما أغار التتار في الشرق ، واستولوا على المدائن الإسلامية يعيثون فيها فساداً ، حتى سقطت حاضرة الخلافة في أيديهم فر العلماء بعلمهم إلى دمشق ، منهم من اتخذ منها مستقرا ومقاماً ، ومنهم من نأى به الخوف فاجتازها إلى القاهرة العامرة .

كانت دمشق إذن في عهدا بن تيمية عشالعلماء ، وقد آوت أسرته إلى ذلك العش الحريم ، وكان فيها مدارس للحديث والفقه الشافعي والفقه الحنبلي وغيرهما ،

وكان فيها أمثال عز الدين بن عبدالسلام ثم محيى الدين النووى وابن دقيق العيد، يدرسون الفقه والحديث دراسة فاحصة ، فيقار نون فى الفقه بين المذاهب الإسلامية ، كا ترى فى كتاب المجموع للنووى ، وكا ترى فى كتاب المغنى لموفق الدين عبد الله أحمد بن قدامة ، وهو حنبلى .

ويدرسون مع الفقه الحديث دراسة فاحصة لرجال الأسانيد ، ومتون الأحاديث ، وموازنة المرويات بعضها ببعض ، وقد جمعت الأحاديث ودونت فكانت الدراسة على بينة واستقراء و فحص ، وقد زخرت المكاتب الكتب الضخمة التي أنتجتها الدراسة في ذلك العصر ، حتى إن القارىء ليقرأ الباب من الأبواب ، فيجد الأحاديث الواردة فيه مجتمعة كلها غريبها وحسنها وصحيحها وضعيفها مع التنبيه على مراتبها ، وما فيها من توافق و تعارض، و تضعيف أقواها لما هو دونه في المرتبة ، فيسهل على الدارس طلب الحق بأيسر كلفة .

وكانت في دمشق مع الفقه والحديث: راسة العقائد ، وكان السائدهومذهب أبي الحسن الأشعري (1) وكان يتبع على أنه السنة ، وقد قواه صلاح الدين، ويقول المتريزي في خططه: « حفظ صلاح الدين في صباه قصيدة ألفها قطب الدين أبوالمعالى مسعود بن محمد النيسابوري ، وصار يحفظها صفار أولاده ، ولذا عقدوا الخناصر ، وشدوا النيات على مذهب الأشعري ، وحملوا في أيامهم كافة الناس على التزامه ، فتادت الحال على ذلك في جميع أيام الملوك من بني أبوب ، ثم في أيام مواليهم الأتراك » .

وقد كان أبو الحسن الأشعرى مع استمساكه بالسنة يسيرفي إثبات العقائد

<sup>(</sup>١) ولد سنة ٢٦٠ وتوفى لبضع وثلاثين سنة بعد الثلاثمائة وكان معتزليا ثم ترك الاعتزال، واعتنق مذهب أهل السنة، وقبل كل الأحاديث الواردة فى العقائد، ولكنه كان يؤول المتشابه من القرآن والحديث، وبذلك خالف بعض الحنابلة الذبن كان منهم ابن تبمية.

فى مسار المنطق والفلسفة فهو يتفق مع السنيين فى النقائع ، ولكن يسلك فى إنباتها غير سبيل يمض الحنابلة ، ولذلك كانت الحرب بينهم وبين الجمهور من أتباع أبى الحسن الأشعرى .

وقد تلقى ابن تيمية الحنبلى طريقة الحنابلة الذين ناوءوا المذهب الأشمرى، ولذلك كانت مناضلات له من بعد فى هذا السبيل، ونزلت به محن ، وكادث نفسه تذهب فى هذا الأمر.

# توليه التدريس في كرسي أبيه :

٦ — اتسعت آفاق دراسة ابن تهمية وكانت دراساته مستوعبة في الفقه والحديث والعقائد وعلوم العربية ، وكان له اطلاع على العلوم الرياضية والفلسفية ودراسانه المقارنة تدل على معرفته لآراء الفلاسفة .

ولما شب أحمد عن الطوق وامتلأ قلبه بالمعرفة ، واستوى رجلا سويا جلس فى مجلس الدرس بعد أبيه ، إذ أبوه قد ماث سنة ٦٨٢ فتولى من بعده أحمد حلقة درسه وهو فى الحادية والعشرين ، فتقدم بما تغذى به من معارف السابقين وقد أثمرت فى قلبه أينع الثمار وأغزرها وأنضجها ، وتقدم واثقاً بمعونة ربه ؛ ليؤدى الأمانة التى حُمسًلها . وإذا كان مثله فى سنه لايزال فى ميعة الصبا ، وغرارة الحياة ، فقد بلغ هو فى العلم أشُده .

تقدم بعلمه ودراساته واستعداده لتلتى المعارف من كل ناحية ، فألتى دروسه فى الجامع السكبير بلسان عربى مبين، فاتجهت إليه الأنظار، واستمعت إليه أفئدة سامعيه ، وانتقل كثيرون من المستمعين إلى مريدين متحمسين معجبين، فصارله من بينهم مخلصون إخلاص الحواريين، وكانت دروسه تجمع الموافق له والمخالف، والبدعى والسنى ، ومعتنق مذهب الشيعة ومن هو مع الجاعة .

وكانت غزارة علمه تبدوعلى لسانه ، حتى إن ابن دقيق الميد الفقيه الحدث يلقاه ، وهو أكبر منه سنا ، فيقول فيه . « رأيت رجلا جمع العلوم كلما بين عينيه يأخذ منها مايريد ، ويدع مايريد » .

وكان مع هذا العلمله شخصية قوية نفاذة ، ولا يخلو من حدة ، وقد وصفه الذهبي الذي عاصره فقال :

«كان أبيض أسود الرأس واللحية ، شمره إلى شحمة أذنيه ، كأن عينيه لسانان ناطقان، ربعة من الرجال بعيد ما بين المنكبين ، جهورى الصوت، فصيحاً سريع القراءة ، تعتريه حدة ، لكن يقهرها بالحلم » .

وقد اختلف أهل العلم فيه منذ سمعوه ، مابين موافق له متحمس لما يقول يشايمه ويناضره ، وفريق يقاومه وينازله ، لأنه هجم بفكر لم يألفوه ، وفريق المات يوافقه في بعض قوله ، ويخالفه في آخر ، وهو في حاليه معجب به مقدر لعلمه وشخصه ، ومن هذا الفريق الذهبي المؤرخ ، وقد قال فيه .

« ومن خالطه وعرفه ينسبني إلى التقصير فيه ، ومن خالفه و نابذ مقد ينسبني إلى التفافل فيه ، وقد أوذيت من الفريقين من أصحابه وأضداده ، وأنا لا أعتقد فيه عصمة ، بل أنا مخالف له في مسائل أصلية وفرعية ، فإنه كان مع سعة علمه وفرط شجاعته ، وسيلان ذهنه ، وتعظيمه لحرمات الدين — بشراً من البشر، تعتريه حدة في البحث وغضب وصدمة للخصوم "نزرع له عداوة في الففوس ، ولولا ذلك لكان كلة إجماع، فإن كبارهم خاضعون لعلومه ، معترفون بأنه بحر لاساحل له ، وكنز ليس له نظير، ولكنهم يأخذون عليه أخلاقا وأفعالا، وكل يؤخذ من قوله ويترك.

 انت دروس هذا الشاب لها دوى ، لأنه غذاها بفكر مستقل يتبع السلف ولا يقلدغيرهم، وقواها بحجج رآها قوية، وأدلى ببيان قوى، غذاه بالعاطفة والفكرة مماً ، فانقسم الناس فيه ذلك الانقسام الذى بدت ظواهره في خلاف عنيف، أو وفاق معاتباع ، أو أخذ بعض قوله، وترك الآخر من غير لدد في خصومة.

وإن الرجل الذى ليس له مخالف لا يمكن أن يكون قوياً ، فكانت المخالفة ترجع إلى قوة قوله فى الكثير الفالب ، وإلى حدة فى نفسه فى غير الفائب ولكن المخالفة لا تكون نتيجة للحدة فقط ، بل لابد أن يكون قد أتى الناس بغير ما كان شائماً عندهم ، ولمل حدته سببها عنف المعارضة ورميه بالكفر والإلحاد فى دين الله تعالى .

ولقد هاجم فى دروسه الطرق الصوفية التى كانت شائمة فى عصره ، وقد اقترنت بها شعوذة وفساد أحياناً ، وكان من المتصوفة من مالاً التتار عندما ساوروا دمشق ، ثم عندما دخاوها ، فكان لابد أن ينالهم بمعرة لسانه ، وقد كان يعمم فى قوله ولا يخصص فصار له أعداء من أنباعهم أو مريديهم .

ولم يكتف بما يلقى فى حلقة درسه ، وما يلقيه على العامة فى الجامع الكبير، إذ قد قسم دروسه إلى قسمين :

أحدُهما للخاصة يذاكرهم الحقائق التي انتهى إلى وجوب تقريرها .

وقسم للمامة يعظ فيه ويرشد ، ولكنه مع ذلك أضّاف إليه رسائل كان يكتبها ، ويجيب بها عن الأسئلة توجه إليه من المستفهم الطالب للحقيقة فيبين له ، ومن المخالف المعترض لما يقول ، فيرسل إليه يرد قوله في عنف وحدة ، وقول بليغ محكم ، ويشيع أقواله بالرسائل والإجابات ، كما شاعت بالدرس والإلقاء .

ومن هنا ابتدأت المعركة بينه وبين معاصريه ، ويذكر المؤرخون أن أهل حاة أرسلوا إليه يسألونه عما حكى الله تعالى به عن نفسه من أنه [على العرش استوى] ومن أن كرسيه وسع السماوات والأرض وغير ذلك ، فأجابهم بالرسالة (٢٩ – تاريخ المفاهب)

الحموية التي يقرر فيها أنه لا يؤول ، بل يقرر أن لله استواء لا نعلمه ، وكرسياً لا نعلمه ، وهو ليس من استواء الحوادث ، ولا كرسي الحوادث ، وكذلك فى كل الآيات والأحاديث التي تذكر أن لله وجها أو يداً وبين هذا كله في رسالته الحموية وذلك يخالف بعض مذهب أبي الحسن الأشعري الذي كان شائها ، ويتعصب له الولاة والرعية ، ويتصدى حينئذ لمناقضته الكثيرون ، وإنهم ليسوا في قوة حجته ، وإن كان رأيهم أشد استمساكا بأسباب التنزيه ، ولذا يشكونه إلى القاضي الحنفي ، وبذلك تنتقل المناضلة من القول إلى الفعل ، ولنترك المحامة للحافظ ابن كثير تلميذه فقد قال في تاريخه في حوادث سنة ٦٩٨.

«قام عليه جماعة ، وأرادوا إحضاره إلى مجلس القاض جلال الدين الحننى فلم يحضر ، فنودى فى البلدة فى العقيدة التى كان قد سأله عن مسائلها أهل حماة اللسماة بالحوية ، وأرسل فطلب الذين أقاموا عنده ، فاختنى كثيرون منهم ، وضرب جماعة ممن نادوا على العقيدة فسكت الباقون ، فلما كان يوم الجمعة ذهب الشيخ تقى الدين إلى الميعاد بالجامع على عادقه ، وفسر قوله تعالى [ و إنك العلى خلق عظيم ] نم اجتمع بالقاضى إمام الدين الشافعى ، يوم السبت ، واجتمع عنده جماعة من الفضلاء ، ومحثوا فى الحموية وناقشوا فى أماكن فيها ، فأجاب عنها عما أسكتهم بعد كلام كثير ، ثم ذهب الشيخ تتى الدين ، وقد تمهدت الأمور، وسكنت الأحوال ، وكان القساضى إمام الدين فى معتقده حسنا ، وفى مقصده صالحا ().

ونرى أنه لجأ في محاكمته على آرائه إلى القاضى الشافعي ، ولم يذهب إلى القاضى الحنفى ، وكذلك سنراه في المحنة الحقيقية التي وقعت له بعد أن خرج مجاهداً في سبيل الله ، وكان له عمل جليل في النصر الذي أحرزه الجيشان المصرى والسورى، أو إن شئت فقل جيش الجمهورية المتحدة الذي جمعها الله تعالى بعد طول افتراق ثم غرقها ، لحكمة قدرها وسنت كلم على موقفه عند السكلام في عصره إن شاء الله تعالى .

<sup>(</sup>١) البدابة والنهاية لابن كثير ص ٤ ج ١٠٠

### محنة الشيخ:

٨ -- علا مركز ابن تيمية بعد أن خرج من محراب العلم إلى العمل فى الحرب لحماية الإسلام والمسلمين من العيث فى الأرض فساداً ، علافى نظر الناس ،
 وعلا فى نظر ناصر الدين قلاوون الذى قاد هذه الجحافل لوقف خطر التتار .

وقد انتصر فى آخر ممركة بين المرب والتتار ، وقد تحولت الممارك من بعد إلى مكان آخر .

وقد صارت منزلته فى الدولة بحيث يستشار فى المناصب الدينية ، فهو الذى أشار بتميين الشيخ كال الدين الشربينى فى مشيخة دار الحديث السكاملية بمدتق الدين بن دقيق العيد ، وهو الذى كان لايمين خطيب أو واعظ أو رئيس مدرسة دينية إلا برأيه ، ولم يقف الأور عند ذلك الساطان الأدبى ، بل تجاوزه إلى أن كان يقيم بعض التمزيزات بأمر السلطان أو بتفويض مطلق منه ، وذلك إذا كانت الجريمة تتصل بأمر عام .

يروى فىذلك أنه أحضر إليه شيخ من شيوخ الباطنية الذين سموا بالحشاشين والذين كانوا شوكة فى جنب الدولة الإسلامية فى عهد صلاح الدين ومن جاءوا بعده من الأبوبية الذين تولوا عبء رد الصليبيين على أعقابهم خاسرين ،

فوجد ابن تيمية ذلك الشيخ قد استطال شعره ، و ترك أظفاره ، وأرسل شاربه ، فقص شعره ، وحف شاربه وقلم أظفاره واستتابه من كلام الفحش في الصحابة وعامة المؤمنين ، وأخذ ما يغير العقل من الحشيشة وسائر المحرمات ، وأخذ عليه وثيقه بألا يتكلم في تعبير الأحلام وغيرها مما يؤثر به على العامة وقد أثارت هذه المنزلة حفيظة العلماء فوق ماقرره من مسائل في أصول الدين تخفاير ما يألفون ، وما يتبعون وقد أثار أيضا حفيظة الصوفية ؛ سواء أكانوا

معتدلين أم كانوا مغالين ؛ لأنه أخذ يطعن في آراء محيى الدين بن عربى الذي قد آنخذه أكثر الصوفية إماما يتبع .

ومع هـذه الإثارة بالفكر والرأى ، ومع الحسد الشديد لمنزلته كان في، لسانه حدة كا ذكرنا، فكان يجرى على لسانه الفاظ عنيفة يوجهها لمن يخالفونه ، وفيهم علماء ذوو أسنان ، ولم يكن هو في مثل سنهم ، ومنهم من كان يعد من شيوخه، فكان يكبر ذلك عليهم وعلى تلاميذهم ، ومن اتصلوا بهم ، وله فيهم حسن ظن وتقدير .

ه -- اتجه العلماء بسبب كل هــذا يشكون ابن تيمية إلى الأمراء فى مصر، ويذكرونه بما يكره ، و منهم من لم يعرف فضله كاملا إذ كان هو بالشام ، وكان التدبير الخنى \_ ذكره بالمروق و الحروج على عقيدة الأشمرى التى كانت مقدسة عنده \_ بمصر ، وكان السلطان الناصر الذي كان يبالغ فى تقديره ، ويعرف له فضله قد أخذ سلطانه يضعف ، وخرج عليه القواد ، واستهانوا بأوامره .

و بمقدار ضعف السلطان كانت قوة التدبير وأثمر القول فى شأن ابن تيمية ، وقد عقدت الحجالس المؤلفة من الحاقدين والحاسدين والناقمين ، ثم المخالفين الذين لا يعتقدون الحير فيه ؟ وكانت تلك الحجالس تنظر فى أمره ، والطريق للنيل منه ، ومنعه من الاسترسال فى دعوته .

وانتهى الأمر بدعوته ؟ فجاء إلى مصر وكان الطلب بكتاب ظاهره الخير ؟ فكان في عبارات الكتاب . «إنا كنا سمعنا أنه يعقد مجلس للشيخ تتى الدين ابن تيمية ، وقد بلغنا ما عقد له من المجالس ، وأنه على مذهب السلف ، وإنما أردنا بذلك براءة ساحته مما نسب إليه ، مم أعقب ذلك الكتاب الرقيق كتاب آخر في طلب أنه يتوجه على البريد إلى مصر » .

﴿ كَإِنْ الشَّيْحِ رَضِي اللَّهُ عَنْهُ ، يُواجِهُ الأَمُورِ ، وَلَا يَخْتَفَى عَنْ مَلَاقَاتُهَا ؟ ولذلك

اعتزم الحجىء ولكن السلطان فى دمشق قد أوتى علمابما 'يبَيَّتُنَّه فى مصر ، فنهاه عن الذهاب ، ولكنه أبى لأن فى ذهابه إلى مصر فقعًا للعامة ونشرًا لآرائه ، ولو ناله فى ذلك الأذى الشديد .

# المحنــة الأولى :

- ۱ - وصل الشيخ إلى مصر فى سنة ٥٠٥من الهجرة ، وكان يمقد المجالس الدروسه فى الطريق ، وبينا يعظ ويدرس كان خصومه فى مصر يستعدون لاستقباله بتدبير ما ينزلونه به ، فلما جاء إليها البقوا به فى مجلس عقد بالقلعة ، اجتمع فيه القضاة وأكابر الدولة ، وأراد أن يتكلم فلم يمكنوه لما يعرفون من قوة بيانه ، وموقع كلامه ، وجابهوه بالاتهام ، وتولى الادعاء عليه زين الدين بن مخلوف قاضى المالكية ، فادعى عليه أنه يقول : « إن الله فوق العرش حقيقة ، وأنه يتكلم بحرف وصوت ، فأخذ الشيخ فى حمد الله والثناء عليه فقيل له أجب ولا تخطب فعلم أنها المحاكمة ، وليست المناظرة، فقال الشيخ : من الحاكم فى أمره ؟ فقيل له المالكي ، فقال له الشيخ كيف تحمكم في وأنت خصمى ، فغضب القاضى غضباً شديداً وانزعج ، وحبس الشيخ رحمه الله .

آل أمر ابن تيمية إلى الحبس ، وشاركه فى محبسه أخواه شرف الدين ومجد الدين اللذان حضرا معه إلى مصر .

وكان ابن تيمية محقاً في امتناعه عن أن يكون الفاضي المالكي حكمه ، فقد كان فيه غلظة وقسوة ، فقد حكم من قبل بالإعدام على عالم اتهم بأنه يستهزئ بالآيات الحكمات من القرآن، وينافض المشتبهات بعضها يبعض، مع أن البينات لم تكن كافية ، وكان للمالم فضل ظاهرو فضيلة واضحة ، ورأى العلماء فيه حسن، حتى أنه لما استفاث بابن دقيق العيد شيخ علماء الحديث في عصره ، قال له ما تعرف منى ؟ قال أعرف منك الفضيلة ، ولكن حكمك إلى القاضي زين الدين .

ولم تشفع تلك الشهادة الطيبة ، ولم يستتب ، فلم يخفف عنه حكم الإعدام .

فكان الشيخ أريباً إذ لم يقبل أن يكون هذا القاضى قاضيه ، و فوق ذلك هو ... يناقضه فى تفكيره ، وقد عاجله بالاتهام ، وليس من المعقول أن يتهم الشخص .. ويقضى ، لأن الاتهام والقضاء عملان متباينان ، فالمتهم يسرد الأدلة المسوغة . للمقاب ويقيم الآدلة عليها ، ومن اتهم يقدم الأدلة المنافيه المبطلة للاتهام إن كانت . والقاضى يو ازن بين الحجتين . ثم إن زين الدين أدلى بالاتهام ، ومنع المتهم من . أن يدلى بحجته .

نزل الشيخ السجن فى رمضان سنة و ٧٠ و صحب نزوله آذى شديد ، نزل بالحنابلة فى مصر ؛ ولم بستطع القاضى الحنبلى الذى كان القاضى الرابع فى مجلس القضاة. الذى يمثل فيه المذاهب الأربعة — أن يدافع عن ابن تيمية ، ولا عن الحنابلة . فقد كان ضعيفاً ، وقد قال فيه ابن كثير : — « حصل للحنا بلة بالديار المصرية إهانة عظيمة ، ومن ذلك أن قاضيهم كان قليل العلم مزجى البضاعة ، فلذلك نال أصحابه ما نالهم وصارت حالهم حالهم » . (١)

11 — مكث الشيخ فى غياهب السجن سنة وفى نهايتها فى ايلة عيد الفطر تحركت ضمائر لإخراجه . فجمع حاكم القاهرة القضاة الثلاثة الحنفى والمالكى. والشافمى ، وبعض الفقهاء وتكلم ممهم فى إخراج الشيخ من السجن وإطلاق حريته ، فقد وجد ذلك الأخير أن بقاء الشيخ فى السجن لا يتفق مع الدين ولا المعدل ، ولاالخلق، وهو الذى قاد الجموع ، وحرك الجيوش ، وتقدم للموت ، وكان روح المقاومة المعنيفة التى انتهت بالانتصار على التتار .

ومع أن الفقهاء والقضاة لم نكن عندهم تلك الأريحية السكريمة التيكان عليها ذلك الأمير ، لم يقاوموا أمر إخراجه ، لأن من يكون على شاكلتهم يعملون.

<sup>(</sup>١) تاريخ ابن كشير ج ٤ س ٣٨ .

على إرضاء الأمراء أو على الأقل لايغاضبونهم ، ولكن بعضهم قيد الموافقة بشروط اشترطها منها أن يعلن الشيخ رجوعه عن بعض ماأعلن من آراه فى أصول الدين فوافقوا على ذلك ، وأرساوا إلى الشيخ ليحضر ، فامتنع لأنه يعلم أنهم ليسوا طلاب حقيقة ، ولا حجة ، وأنهم يريدون أن يفرضوا عليه رأياً لم يقدموا عليه دليلا وتسكررت الرسائل إليه حتى بلغت ست مرات ، فتفرقوا ، ويقول ابن كثير تفرقوا غير مأجورين .

وفى الوقت الذى كان فيه الشيخ فى غيابة السجن كان أصحابه بالشام فى ألم ، ولعل آلام أهل الشام هى التى كانت تجعل أمراء مصر يفكرون فى إخراجه ، والعلماء بشترطون ما يعلمون أنه لا يمكن أن يجيبه .

وبعد المحاولة التي سبقت جاءت محاولة أخرى ، وهي إحضار أخويه ليتكله باسمه ، فجاءا إلى مجلس القضاة ، وأخذ يتناقش شرف الدين أخوه مع القاضي المالكي زين الدين بن مخلوف ، حتى ظهر عليه أخو الشيخ بالحجة ، ويقول في ذلك ابن كثير : « ظهر شرف الدين بالحجة على القاضي المالكي بالنقل والدليل والممرفة وخطأه في مواضع ادعى فيها دعاوى باطلة ، وكان الكلام في مسألة العرش ومسألة الكلام ، ومسألة النزول » . (٢)

كانت هذه المناقشة والشيخ في محبسه لايريم ـ سبباً أدى إلى أن خرج الشيخ من محبسه في ٢٣ من ربيع الأول سنة ٧٠٧ه، بعد أن مكث في السجن نحو ثمانية عشر شهراً.

<sup>(</sup>۱) مسألة العرش وهى كون الله تعالى يستوى عليه ومعى العرش ، ومسألة كلامالله ، وأنه بحروف وآصوات أم هو غير ذلك ، والنزول وما جاء في عبارات بعض الأحاديث من أن الله تعالى ينزل في بعض الليالى إلى السموات

## صفح جميل:

المسلمة على المسلمة من السجن ، وانصرف إلى الدرس ، فأخذ يدرس للعامة والخاصة في المساجد ، ويخطب على المنابر ومكث على ذلك سبة أشهر حتى كان له في مصر محبون ومريدون ، كاكان له في الشام .

و إن الذي يتجه إليه النظر أمران:

أحدها — الصفح الجميل عمن آذوه ، وألقوه فى السجن ، وقدسجل ذلك فى كتاب أرسله إلى دمشق جاء فيه : « تعلمون رضى الله عنكم أنى لا أحب أن يؤذى أحد من عموم المسلمين فضلاعن أصحابنا بشىءأصلا، لاظاهراً ولا باطناً ، ولا عندى عتب على أحد منهم ، ولا لوم أصلا بل لهم عندى من الكرامة والإجلال والمحبة والتعظيم أضعاف ماكان ، كل بحسبه ولا يخلو الرجل ، إما أن يكون مجتهداً أو مخطئاً أو مذنباً فالأول مأجور مشكور .

والثانى — مع أجره على الاجتهاد معفو عنه .

والثالث - فالله يغفر لنا وله ولسائر المؤمنين . . . لا أحب أن يقتص من أحد يسبب كذبه على ، أو ظلمه أو عدوانه، فإنى قد أحلات كل مسلم ، وأنا أحب الخير لـكل المسلمين ، وأريد لـكل مؤمن من الخير ما أريده لنفسى ، والذين ظلموا وكذبوا هم فى حل من جهتى » .

الأمر الثاني — أنه بمجر أن خرج من السجن أرادت أمه أن تكتحل عينها برؤيته ، ولكنه يريد أن يؤدى واجبه في مصركما أداه في الشام. وأن تكون عين أمه قارة مطمئنة فيكتب إليها كتاباً جاءت فيه العبارات الآتية :

« من أحمد بن تيمية إلى الوالدة السعيدة أقر الله عينيها بنعمه ، وأسبغ عليها خزيل كرمه ، وجعلها من إمانه وخدمه . . . نشكر الله على نعمه ، ونسأله المزيد من فضله ، ونعم الله كلا جاءت في نمو وازدياد ، وأباديه جلت عن التعداد

تعلمون أن مقامنا الساعة فى هذه البلاد إنما هو لأمور ضرورية ، متى أهملناها ، فسد علينا أمر الدين والدنيا ، ولسنا والله مختارين للبعد عنكم ، ولو حملتنا الطيور السرنا إليسكم ، ولسكن الغائب عذره معه ، وأنتم والله لو اطلمتم على باطن الأمور فإنسكم والله لا تختارون الساعة إلا ذلك . . .

والمطاوب كثرة الدعاء بالخير، فإن الله تعالى يعلم ولا نعلم، ويقدر ولا منقدر وهو علام الغيوب، وقال الذي صلى الله عليه وسلم: « من سعادة ابن آدم السيخارته الله، ومن شقاوة ابن آدم ترك استخارته الله، ومن شقاوة ابن آدم ترك استخارته الله، وسخطه بما يقسم الله » والتاجر يكون كثيراً مسافراً فيخاف ضياع ماله فيحتاج أن يقيم حتى يستوفيه، وما نحن فيه أمر بجل عن الوصف، ولا حول ولا قوة إلا بالله، والسلام عليكم ورحمة الله كثيراً، وعلى سأتر من في البيت من الكبار والصفار والأهل والأصحاب واحداً واحداً ، والحدلة رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم » .

المحنة الثانية :

۱۳ ــكانت إقامة ابن تيمية مهما تطل فى مصر على نية العودة ، إلى الشام ، ولكن الله تعالى اختار له إقامة أطول مماكان يريد ، ولم تكن فى فى حسبانه ، واختبره الله تعالى بامتحان جديد .

وذلك الامتحان كان سببه في هذه المرة من غير الفقهاء وعلماء الـكلام ، بل كان من الصوفية الذين كانت لهم منزلة كبيرة ، فقد بني لهم من قبل صلاح الدين الأيوبي (خانقاه) وهو مكان يختلون فيه للمبادة ، و بني لهم من بعد ذلك الناصر بن قلاوون خانقاه أخرى سنة ٧٢٣ ، وكان لها أثر في حياة ابن تيمية كا سنبين .

كان بعض الصوفيين في مصر يأخذون بمذهب وحدة الوجود الذي نادى به معيى الدين بن عربي في مثل قوله:

يا خالق الأشياء فى نفسه أنت لما تخلقه جامع تخلق ماينتهى كونه فيمك فأنت الضيق والواسع

وكان بمن تأثر بهذا الرأى ابن الفارض الشاعر المصرى المتوفى سنة ٦٣٢ مر وقد كان بعض الصوفيه أيضاً في مصر يقولون إنهم إذا وصلوا إلى حال من التربية النفسية والتهذيب الروحي يتصلون بالذات العلية ، ويعلون عن التكليف ...

وماكان هذا ليرضى ابن تيمية ، كما لم يرضه من قبل فى الشام بعض. الشمبذة التي كان يقوم بعض الرفاعيين من الصوفية ، فتصدى لمهاجمة هذه. الآراء ، وفى سبيل مناهضتها لابدأن يفند آراء محيى الدين بن عربى ، فهاجمها ، ولم تكن ثمة محاجزة ببنه وبين أن يهاجم ابن عربى نفسه ، ففعل بعقل مفكر ، ولسان معبر ، وقلب جرىء .

تقدم ابن عطاء الله السكندرى صاحب كتاب الحكم، وهو صوفى له مقامه عند الصامة، مقامه عند الصوفية، ومن أتباع ابن عربى \_ بالشكوى، وله مقامه عند العامة، وذهب الصوفية إلى القلعة يشكون مجتمعين ، فأمر السلطان أن يعقد مجلس بدار العدل ، وحضر ابن تيمية يشق الجموع ثابت الجنان مع أنه قد قيل له ، إن الناس قد جمعوا لك ، فقال : ه حسبنا الله ونعم الوكيل » وتناقش مع الحصوم يصدع بالحجة الظاهرة ، والبينات القاهرة ، وينطق بالمفهوم من غير تعقيد ولا تلبيس ، فانتصر .

و تكاثرت من بعد ذلك اجتماعات الصوفية ، والشيخ لا يني عن مجابهتهم ، . ثم أنهم وجدوا ما يثير حوله الريب ، فإنه كان يرى أنه لا يستفاث إلا بالله ، فلا يستفاث بأحد من عباده ، ولو كان نبى الرحمة محمداً صلى الله عليه وسلم ، وقد قيل هذا في مناقشة مع ابن عطاء الله السكندرى فعجل بعض الحاضرين بقوله: ليس في هذا شيء . وقال كبير القضاة : إن هذا قلة أدب ، ولم يقل إنه كفر . ليس في هذا شيء . وقال كبير القضاة : إن هذا قلة أدب ، ولم يقل إنه كفر .

إلا بإسكات ذلك الضيف الذي أثارها، فخيروه بين أمور ثلاثة: إما أن يذهب إلى الإسكندرية، وإما أن يذهب إلى دمشق موطنه، وإما الحبس، واختار الحبس، لأنه كان مقيداً عند الذهاب إلى دمشق أو الإسكندرية، ألا يعلن ما يرى فقال: « السجن أحب إلى » فارتضاه دون تقييد الفكر واللسان، ولأنه رأى أن الحرية التي تملأ نفس العالم ليست حرية الانتقال من مكان إلى مكان، وإنما هي حرية الفسكر وجولانه ونشر تفكيره وآرائه، وإن الحرحقاً هو الذي يفهم حرية جسمه، وإن الحرحقاً هو الذي يفهم حرية جسمه، وإن تنقله من مكان. إلى مكان من غير أن يدلى بآرائه، يكون في ذلك كبت عقلى ونفسي له، ولا يحس بذلك في داخل السجن.

ولـكن تلاميذه أرادوه على أن يختار دمشق فركب خيل البريد في الثامن. عشر من شوال سنة ٧٠٧، وما إن غذ في السير حتى ألحقو به من رده، وقالوا إن الدولة لا ترضى إلا بالحبس، وكأنهم شعروا أنه إذا ذهب إلى دمشق. فسيكون بين أصحابه ويرد إليهم شروطهم التي أجبروه عليها.

أعيد الشيخ إلى المحاكمة ، وكان فى القضاة فى هذه المرة من يقدره حق. قدره ، اذ قد رأوه ورأوا اخلاصه وإيمانه ، ومهما يسكن فى آرائه من خروج عن المألوف المعروف ، فقد كان شخصه مثالاً للتتى ، وللتقوى أثرها فى النفوس ، فقد قرروا أنه ليس عليه شىء يسوغ الاتهام ، وكان بعضهم يعارض فى الحبس . وتجادلوا فى ذلك ، فأنقذ ابن تيمية الموقف . وقال أنا أمضى الى السجن . فقال نور الدين الزواوى الذى كان يعارض فى حبسه : يكون فى موضع يصلح له . فقيل له إن الدولة لا ترضى إلا بما يسمى الحبس (۱).

أرسل بمدهذا إلى حبس القضاة ، وأذن له بأن يكون عنده من يخدمه .

<sup>(</sup>١) هذه المجاوبة دونها تلميذه ابن كثير في الجزء الرابع عشر ص ٤٦ ، ونقلها الماحب العقود الدرية عن البرزاني ص ٢٧٠

كانت المعركة التي أدت إلى ذلك الحبس بين ابن تيمية والصوفية ، ولم تحكن بينه و بين الفقهاء ، ولمل القضاة قد نظروا الديه في هذه المرة نظرة تقدير ، لأنهم لا يرون وحدة الوجود ، وهي أشد بعداً عن المألوف من كل آراء ابن تيمية ، فهو في نظرهم كان مدافعاً عن الإسلام ، ولم يكن مهاجماً ، فكان عليه ، وذلك مع قوة بيانه .

ولقد كان الحبس غير مانع تلاميذه من أن يفدوا عليه ويروحوا، ثم لم يلبث الاقليلا حتى خرج من محبسه بقرار من مجلس للقضاة والفقهاء عقد بالمدرسة الصالحية.

وبعد أن خرج أكب الناس على مجلس العلم الذى يُمقده ، ولا نرى أن حذه كانت محنة ، وقد كان النصر فيها له على الصوفية .

10 ــ وإنما المعركة الحقيقية كانت بعد ذلك عندما عزل السلطان ناصر ابن قلاوون نفسه ، و تولى الأمر بعد ذلك المظفر بيبرس الجاشنكير ، وكان شيخ بيبرس هذا نصراً المنجى من أتباع ابن عربى في آرائه ومنحاه ، فكانت المعركة الشديدة ، لتحكم نصر المنجى في تفكير بيبرس، ولأنه ينظر الى ابن تيمية على أنه من أنصار الناصر ، ودبر السلطان الجديد وشيخه الأمر ، فوجدا أن أنجح السبل للتخلص منه ، أن ينفي إلى الإسكندرية ؛ إذ قد صار له أتباع منى القاهرة ؛ والفقهاء يناصرونه ؛ وايس له في الأسكندرية ولى ولا نصير ؛ وقد مرجوا أن يقتل فيها غيلة فيرتاحوا .

ولسكن أخبار فضله سبقته إلى الإسكندرية ، فالعلم نور يصل شعاعه الى كل مكان ما لم تحجبه الظلمات ، وكان سفره إلى الإسكندرية في الليلة الأخيرة من شهر صفر سنة ٧٠٠ . وأخذ يعقد المجالس للدرس والوعظ والتوجيه ؟ ومكث على ذلك سبعة أشهر ، أى إلى الوقت الذي عاد فيه الناصر قلاوون الى الحكم بعد الاعتزال ، وفي هذه الأشهر السبعة ، وجد خصا يناضله فقد انفق أن وجد

وهو فى الإسكندرية فرقة من الصوفية تسمى السبعينية تنسبار جل صوفى اسمه ابن سبمين، وينهج منها جا بجمع بين الفلسفة والتصوف ، فقد كان هو فيلسو فأصوفياً. ١٦ — عاد الشيخ إلى القاهرة مكرماً بعد أن جلس الناصر على عرش مصر، إذ دعاه هذا إليها ، فوصل فى اليوم الثامن من شوال سنة ٢٠٩ واتخذ مقره على مقربة من المشهد الحسينى ، وانصرف إلى العلم انصر افاً مطلقاً ، وجاء إليه الذين. أساء وا إليه يمتذرون ، فقال فى ذلك كلة لا استثناء فيها : « من آذانى فهوفى حل من جهتى ».

وهنا نجد من الواجب عليها أن نذكر موقفاً كريماً لابن تيمية ، ذلك أن الفاصر لما استقر به الأمر أراد أن ينتقم من العلماء والقضاة الذين مالئوا خصمه عليه ، وهم أنفسهم الذين حكموا على ابن تيمية بالحبس فى المحنة الأولى ، وقدمكث ثمانية عشر شهراً بسببهم فى السجن؛ فاستفتى فى ذلك ابن تيمية ، فأفتى الإمام التتى بأن دماء هم حرام عليه ، وأنه لا يحل إنزال الأذى بهم ، فقال له السلطان إنهم قلد آذوك وأرادوا قتلك مراراً ، فقال الشيخ الكريم: « من آذانى فهو فى حل ومن آذى الله ورسوله ، فالله ينتقم منه ، ولا أنتصر لنفسى » ولم يكتف الشيخ الطيب بذلك ، بل طالب بالعفو عنهم ، وأخذ يخاطبه فى العفو ، ويقول له إذا قتلت . هؤلاء لا تجد بعده مثلهم ، ومازال به حتى عفا عنهم .

فعل ابن تيمية ذلك وفيهم ابن مخلوف الذى كان شديد الوطأة على ابن تيمية والذى منعه من الدفاع عن نفسه ، وألتى به فى غيابة السجن من غير محاكمة ، ولم يسع ذلك القاضى إلا أن ينطق بالثناء على ابن تيمية ويقول : « مارأ ينامثل ابن تيمية ، حرضنا عليه فلم نقدر ، وقدر علينا فصفح وحاج عنا » .

۱۷ — في هذه المرة من الحجيء إلى القاهرة نوى الإقامة بها ، والاستقرار فيها ، ولذا أرسل بطلب بعض كتبه ، وانصرف إلى الدرس والافتاء والوعظ والإرشاد ، ولم يحاول أحد من العلماء أن ينال من علمه علنا ، وكذلك كبار

الصوفية لم يستطيعوا أن يطعنوا في آرائه ، لا لأنهم يؤمنون بقوله ، ولا لأنهم يخشون الله ، ولكن لأنهم يخشون السلطان .

ولذلك أخذ خصومه من النقهاء والصوفية يكيدون يطريق آخر ، وهو تحريض العامة عليه ، فحرضوهم وحرشوهم به ، ولكنهم نسوا أنه قد أكتسب ببلاغته وقوة حجته وشخصيته أنصاراً أكثر من أنصارهم ، وقد حدث له حادثان :

أحدها -- أنه في الرابع من رجب سنة ٧١١ قد انفرد به جماعة بتحريض خصومه ، فامتدت أيديهم الأثيمة إليه بالضرب، فتيجمع أهالي الحسينية ليثأروا للشيخ ، وألحوا عليه في أن يأذن لهم ، وأكثروا من القول فقال لهم : إما أن يكون الحق لي أو لــكم أولله ، فإن كان الحق لي فهم في حل منه ، وإن كان الحق لي فهم في خل منه ، وإن كان الحق له ، فالله يأخذ حقه إن شاء الله .

الحادث الثانى — أنه فى هذا الشهر نفسه قد اعتدى عليه بالقول المقذع ، ولكنه فى هذه المرة لم يكن من الجهال الأغمار، بلكان من بعض الفقهاء 'أساء إليه بهذا القول ، ثم اعتذر إليه ، وهلكان اعتذاره سببه الخوف من السلطان لمكانته عنده ، ولكن الشيخ على أى حال صفح وقال : « لا أنتصر لنفسى».

وهذه المدة التي أقام فيها بالقاهرة كان يشير على السلطان بما يرى فيه رأيا، ومن ذلك أنه كثرت الرشوة في الولاية وغيرها ، فما زال ابن تيمية بالناصر حتى كتب كتاباً يشدد فيه النكير على ذلك ، جاء فيه : « لا يولّى أحد بمال ولا برشوة فإن ذلك يفض إلى ولا ية غير الأهل، وكانت أمور القصاص فوضى فشاعت جريمة الأخذ بالثار ، فشدد السلطان في تتبع ذلك ، وعالجه بأن يكون القضاص عاجلا ، وألا يكون إلا بحكم الشرع الشريف .

### عودة الشيخ إلى الشام :

۱۸ - أدى الشيخ رسالة العلم والتقوى في مصر، فوعظو علم وجاهد في سبيل الحق ، وتحمل الأذى، وكان حقاً عليه أن يعود إلى أهله وعشيرته ، والمغانى التي فشأ فيها وترعرع ، ولسكنه لم يعد إلا لداعى الجهاد ، ذلك أنه في شو السنة ٢١٧ قد أعد الناصر جيشاً كشيفاً ، لملاقاة التتار، إذ ترامى إليه أنهم قصدوا الشام ليزعجوا الآمنين ، ويعيثوا في الأرض مفسدين ، وأراد أن يصحبه ابن تيمية في هذا الجهاد، وما كان الشيخ ليتلكاً عن الجهاد، فعاد إلى دمشق حاملا السيف، يحمله اليوم وهو كهل تجاوز الخمسين ، بعد أن حمله شاباً لم يصل إلى الأربعين .

وصل الشيخ إلى دمشق في مستهل ذى القعدة سنة ٧١٧ ، وكني الله المؤمنين المقتال ، فقد ترامت الأخبار بأن التتار رجعوا على أدبارهم ناكصين ، لا يلوون على شيء .

۱۹ ـــ أقام الشيخ من بعد ذلك بالشام واستقر به النوى ، ولقد قال ابن كثير فى أحواله بعد هذا الاستقرار :

«ثم إن الشيخ بعد وصوله إلى دمشق واستقراره بها لم يزل ملازما الاشتغال في سائر العلوم ونشر العلم وتصنيف الكتب، وإفتاء الناس بالكلام، والكتابة المطولة ، والاجتهاد في الأحكام الشرعية ، فني بعض الأحكام يفتى عا أدى إليه اجتهاده من موافقة أئمة المذاهب الأربعة ، وفي بعضها يفتى بخلافهم، أو بخلاف الشهور في مذاهبهم ، وله اختيارات كثيرة ومجلدات عدة ، أفتى فيها أدى إليه اجتهاده واستدل على ذلك من الكتاب والسنة وأقوال الصحابة والسلف » .

و نلاحظ أنه فى الفترة الأولى من حياته بالشام ومصركان اتجاهه إلى بيان المقيدة التي كان يراها سليمة ، وآراؤه فى الفقه كانت مستندة إلى مذهب الإمام أحمد بن حنبل ، ولا يخرج عنها إلا فى القليل النادر .

أما في هذه الفترة ، فقد كانت عنايته السكبرى بالفروع . فقد أقبل على الفروع يفحصها بعقله السانى ، وفكره المستقيم ، ووصل فيها إلى نتأج يخالف فيها الأئمة الأربعة أو يوافق المشهور من مذاهبهم أو غير المشهور ، وما يختاره إثما يكون عن بينة وعن دليل من الكتاب أو السنة ، وثروته فيهما كانت مثرية عظيمة ، لا يعوزه النص إذا احتاج إليه ، كالا يعوزه القياس الفقهى المستقيم الذى . يؤيد به النص ، أو يؤيد به ما يذتهى إليه إن لم يكن نص .

وليس معنى تقسيم حياته إلى هاتين الفقرتين أنه فى الأولى لم يكن معنيا بالفقه مد وفى الثانية عنى به ، بل نقول إن عنايته بالفقه كانت فى كل أدوار حياته مم ولكن التقسيم هو لمقدار نسبة العناية ، فقد استفرق الفقه فى الثانية أكثر أدوار حياته ، وخرج بالفقه من نطاق الدراسة الخاصة بمذاهب الأمصار المعروفة إلى دراسة أوسع أفقاً ، إذ عنى بأمرين : دراسة فقه القرآن والسنة مستمداً من الينابيع الأصلية ، والثانية دراسة آراء أثمة آل البيت ، ومع كراهته لمعض الطوائف التي كانت تنتمى إلى الشيعة لم يمتنع عن أن يجوس خلال الفقه الشيعى الذى اشتمل على بعض آراء أثمة آل البيت أو أكثرهم .

وهو في هذه الدراسة كان يمتبرنفسه حنبلياً أو على الأقل ما أخرجه أتباعه. من أنه حنبلي مع هذه الاختيارات الكثيرة ، ومع اتجاهه إلى الكتاب والسنة من غير توسط أحد ، فقد استمر معجباً بفقه الإمام أحمد ، ولكنه لم يكن إعجاب المتعصب ، بل إعجاب الفاهم المدرك المرجح ، ويقول في مذهب الإمام أحمد .

«أحمد كان أعلم من غيره بال كتاب والسنة، وأقوال الصحابة والتابعين لهم. بإحسان ، ولهذا لا يكاد يوجد له قول يخالف نصاً ، كما يوجد له يره ، ولا يوجد له قول ضعيف ، إلا وفى مذهبه فى المالب قول يوافق القول الأقوى، وأكثر مفاريده التى يختلف فيها مذهبه عن غيره يكون قوله راجحاً، كقوله بقبول شهادة. أهل الذمة على المسلمين عند الحاجة ، ، كالوصية فى السفر إلى غير ذلك » .

ونراه في هذا يرجح فقه ابن حنبل لا لشخصه ، بل لاتصاله بالكتاب والسنة وماكان مع ذلك متعصباً له ، بل اختار من غيره في كثير من المسائل ولقد كان يعتبر التعصب نابعاً من الهوى ، لا من الحجة والبرهان فيقول : « من تعصب لواحد من الأئمة بعينه ، فقد أشبه أهل الأهواء ، سواء أن أتعصب لمالك أم لأبي حنيفة أم لأحمد ، تم غاية المتعصب لواحد منهم أن يكون جاهلا بقدره في العلم والدين ، وبقدر الآخرين ، فيكون جاهلا ظالماً أن يكون جاهلا بقدل ، وينهى عن الجهل والظلم . قال تعالى: [وحملها الإنسان والله يأمر بالعلم والعدل ، وينهى عن الجهل والظلم . قال تعالى: [وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولا] وهذا أبو يوسف ومحمد أتبع الناس لأبي حنيفة ، وأعلمهم بقوله ، وها خالفاه في مسائل لانكاد تحصى ، لما تبين لها من السنة والحجة ما أوجب عليه ما عدم اتباعه فيها وها في ذلك يعظانه » .

- ٢٠ - خلع إذن نير التمصب وأتجه إلى دراسة حرة ، لاتتقيد بآراء الأثمة الأربعة ، وقد وصل فى هـذه الدراسة الحرة إلى نتائج إفى بعض مسائل خطيرة منها .

(1) أنه قد رأى أن الطلاق قد صار يمينا يحلف به ، كا يحلف بالله ، بيد أنه إن حنث في يمين الله كفر بعتق رقبة أو إطعام عشرة مساكين أو كسوتهم أو صيام ثلاثة أيام . أما إذا حنث في يمين الطلاق طلقت امرأته وخرب بيته ، رتعطلت تلك العلاقة المقدسة ، وهي الزواج ، هالته هذه النتيجة فبحث عن أصل لها في كتاب الله أو سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كما أنه لم يجد في أقوال السلف ما يدل على ذلك ، فلم يجد ما يبرر قطع العلاقة الزوجية ، والرجل ما قصد إيقاع الطلاق ، ولا أراده ، فأفتى بأن الحلف بالطلاق لا يقع به طلاق ، واستأنس لتف كيره بأقوال أثرت عن أئمة آل البيت ، فأفتى بعدم وقوع الطلاق .

فلما كان ذلك الإفتاء استنكره الفقهاه، وكان ذلك في سنة ٧١٨.

(ب) ومنها أنه وجد أن المأثور الذى يتفق مع نص القرآن السكريم أن الطلاف الثلاث بلفظ الثلاث لا يقع إلا واحدة ، ولا يمكن أن يقع ثلاناً ، لأن ذلك نيس إلا مرة واحدة ، والله تعالى يقول : [ الطلاق مرتان ] وكثيرون من التابعين على ذلك الرأى ، وقد استأنس لرأيه هذا أيضاً ، بآثار رويت عن أثمة آل البيت ، وهو بذلك خالف الأئمة الأربعة مجتمعين .

(ج) ومنها أن الطلاق الذي يقع في الحيض لا يعتير ، واستشهد لذلك بأن النبي صلى الله عليه وسلم أمر عبد الله بن عمر أن يمود لامرأته وقد طلقها في حال الحيض ، واستأنس أيضاً في هذا برأى مأثور عن أثمة آل البيت .

أفتى بهذه الأمور ، وبنيرها وخالف الأئمة الأربعة ، فنصحه بعض العلماء المسكوت عن الإفتاء بها فسكت حيناً لتردده ، ثم عاد إلى الإفتاء .

جاء بعد ذلك منع السلطان له من الإفتاء بهذه المسائل التي يخالف فيهما الأثمة الأربعة ، فأصر على الإفتاء ، لأنه لايقبل الدنية في دينه ولأنه استوثق عما يقول :

#### المحنة الثالثة :

٢١ - استمر الشيخ على الإفتاء في مسائل الطلاق ، وترامى إلى السلطان خبر عودته ، ومع أن السلطان هو صديق ابن تيمية ، وهو الذى لم يرتض أن يبقى في الحبس يوماً واحداً بعد عودته إلى الحسكم ـ لم يقبل أن يرد أمره ـ وقد أصدره جهراً من غير إخفاء ، وضمير السلطان لم يرتض قولا يخالف الأثمة الأربعة ، فإذا كان ابن تيمية معظا عنده ، فإن الأثمة الأربعة أشد تعظما .

ولذلك أرسل فى التاسع عشر من رمضانسنة ٧١٩ كـ تماباً فيه فصل خاص . الشيخ يؤكد فيه المنع ، وقرىء عليه الـ كمتاب فى جمع من القضاة والفقهاء . والمفتين ، وعوتب على عدم امتناعه ، وافترق المجلس من غير أن يعطى الشيخ عهداً بالامتناع عن الإفتاء ولذا استمر ، وقد تكرر الإرسال . وتكرر العتب ،

وماكان للسلطان أن يغضى من بمد ذلك، و إن أغضى ، فإن القضاة والمفتين لن بغضوا ، وهم يرون فيما يفتى به الشيخ مخالفة لإجماع الأئمة الأربعة ، فيكون ضلالاً مبيناً .

ولهذا انعقد مجلس بدار الحدكم بحضرة نائب السلطنة حضره القضاة والفقهاء والمفقون من المذاهب الأربعة ، وحضر الشيخ وعاتبوه ورجوه ألا يعود إلى الإفتاء في هذه المسائل ، وكانوا حريصين على عتابه دون جداله ، ولما تسكرر العتب والرجاء من غير أن يمتنع قرروا حبسه في القلعة بدمشق ، واستمر محبوسا خمسة أشهر وتمانية عشر يوما تبندىء من يوم ٢٢ رجب سنة ٧٢٠ ، وكان الإفراج عنه في العاشر من محرم سنة ٧٢١ .

وقد عاد الشيخ بعد ذلك إلى درسه حراً طليقاً ، فأخذ يفتى في هذه المسائل وغيرها ، وبتكرار ذلك منه ألفوه وإن لم يرضوه واستمر يبحث ويكتب ويصنف ، وتعد هذه الفترة من حياته التى تبتدىء من سنة ٧١٢ هى الفترة التى انتج فيها ذلك الإنتاج الفقهى العظيم ، وإن كان يدرس مع ذلك العقائد ، وموقف الصوفية ، وما يظهرونه من بدع ، ولكن الحظ الأكبر كان للفقه .

## الحنة الأخيرة :

٢٢ — استمر الشيخ في دروسه ، وقد أخذ يراجع كتبه ورسائله ، سواء أكانت في العقائد أم كانت في السياسة أم كانت في الفقه، ويفيض بعقله الخصب و نفسه المخلصة على سامعيه حتى جاءت سنة ٢٢ فأمر بالانتقال إلى القلعة ونذكر ببعض التفصيل سبب التحول .

ذلك لأن الذين يتربصون به الدوائر إما لحسد بسبب ماناله من منزلة عند الناس ، وإما لخصومة لجوج فى الفكر والرأى والآنجاه كالمصوفية والروافض ، ومن الفقهاء من عاداه لأنه رأى فيه انحرافاً وخروجا على الدين . اجتمعت كلة حولاء وأولئك على الكيد للشيخ ، فأخذوا يبحثون عن رأى له يغضب العامة

والخاصة مماً ، فوجدوا فتوى كان قد أفتاها منذ سبع عشرة سنة ، وهى أنه يرى منع زيارة قبور الصالحين ، بل منع دخول الروضة الشريفة التي بها قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ وهذا بعض عبارات هذه الفتوى .

« في سنن سعيد بن منصور أن عبد الله بن حسن بن حسن بن على بن أبي طالب رأى رجلا يختلف إلى قبر النبي صلى الله عليه وسلم فقال ناقلا عن النبي صلى الله عليه وسلم قوله: «لاتتخذوا قبرى عيداً وصلوا على ، فإن صلاتكم حيماً كنتم تبلغنى » فما أنت ورجل بالأندلس منه إلا سواء ، وفي الصحيحين عن عائشة ، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال في مرض موته: « لمن الله اليهود والنصاري أنخذوا قبور أنبهائهم مساجد ، ولولا ذلك لا برز قبره ، ولكن كره أن يتخذ مسجداً ، وهم دفنوه في حجرة عائشة رضى الله عنها ، خلاف مااعتادوه من الدفن في الصحراء ، فلا يصلى أحد عند قبره و يتخذه مسجدا فيتخذقبره و ثناء و كان الصحابة والتابعون لما كانت الحجرة منفصلة عن المسجد إلى زمن الوليد بن عبد الملك لا يدخل أحد منهم إليه ، لا لصلاة هناك ، ولا تمسح بالقبر ، ولا دعاء هناك بل هذا جميعه إنما كانوا يفهلونه بالمسجد ، وكان . السلم الصالح إذا سلموا على النبي صلى الله عليه وأرادوا الدعاء دعوا مستقبلي القبلة ، ولم يستقبلوا القبر ، وأما الوقوف للسلام عليه صلوات الله وسلامه عليه، فقال أبو حنيفة يستقبل القبر ، وأما الوقوف للسلام عليه صلوات الله وسلامه عليه، فقال أبو حنيفة يستقبل القبر ، وقال أكثر الأثمة فقال أبو حنيفة يستقبل القبر ، وقال أكثر الأثمة وستقبل القبر عليه القبر القبر عند الدعاء » .

٢٣ - لقد قيلت هذه الفتوى منذ مدة طويلة ، ولم تتحرك فتن لأجلها ، ولم يحاول أحد أن يتخذ منها سبيلا للنكاية والأذى لمكانته عند السلطان.
 إبان ذلك .

فلما كانت الجفوة بسبب الإفتاء في مسائل الطلاق انتهزوا تلك الفرصة ،. وحركوا السلطان والعامة عليه ، إذ اتخذوها سبيلا للتأثير على العامة لما للنبي.

حملى الله عليه وسلم من مكانة قدسية ، فإن نفس المسلم سرعان ماتتحرك إن أتيت من قبل مايمس شخص النبي صلى الله عليه وسلم .

وقد كاتب المؤتمرون السلطان بذلك ، وقيل له فيها إنه حرف المكلم عن موضعه ، فرأى السلطان حبسه في محبس بليق بمثله وجاء الأمر بذلك إلى دمشق في السابع من شعبان سنة ٧٧٦، وبلغ إلى الشيخ وخصصوا له مرتباً ونقل إلى قلمة دمشق ، وأجرى عليها ، وأقام معه أخوه زين الدين يخدمه بإذن السلطان وما إن اعتقل الشيخ حتى تكشفت القلوب عن خبيئاتها ، ونزل الأذى بتلاميذه وأوليائه ، فأمر قاضى القضاة بحبس جماعة منهم ، وعزر جماعة من أصحابه بإركامهم على الدواب والمناداة عليهم ، ثم أطلقوهم من محابسهم ما عدا صفيه وحامل اللواء من بعده شمس الدين بن قيم الجوزية .

لقد كان هذا الاعتقال موضع ألم المخلصين ، وموضع شماتة الحاسدين ، والمبتدعين ، والمبتد والماء في شدة ، ولم يكن الألم مقصوراً على دمشق وعلمائها المخلصين ، بل تجاوزه إلى علماء بغداد ، فكتبوا إلى الناصر كتابا يبينون فيه النازلة التي نزلت بالمسلمين بعد إنحاد ذلك المسيف الذي كان مصلتا ، وجاء في المكتاب « لما قرع أهل البلاد الشرقية والنواحي العراقية التضييق على شيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن تيمية ـ سلمه الله ـ عظم ذلك على المسلمين ، وشق على ذوى الدين ، وارتفعت رءوس الملتحدين وطابت نفوس أهل الأهواء والمبتدعين .

ولما رأى علماء هذه الناحية عظم هذه النازلة من شماتة أهل البدع والأهواء عالم رأك الفضلاء وأثمة العلماء ، أنهوا حال هذا الأمرالفظيم إلى الحضرة الشريفة السلطانية زادها الله شرفا ، وكتبوا أجوبتهم في تصويب ما أجابه الشيخ سلمه الله في فتاواه » .

وكان نأييد ابن تيمية في هذا قد جاء من علماء من مختلفي للذاهب منهم

مالكية وحنفية وشافعية ، وهذا يدل على أن ما دعا إليه قد وصل إلى عامة. العلماء في مصر والشام والعراق ، وعلى أنه صار له أثر في قلوب أكثرهم ،. وأن حبسه كان برداً وسلاماً على أهل الأهواء والبدع .

٢٤ — لنترك الذين لم يدخلوا السجن، ولنتجه إلى السجين الحر، وهنا نجد الخارجين الحاقدين يلجون في الأذى ، وبعضهم يرتع ويلعب ، ونجد الشيخ في سر ورالمؤمن التقى ، لأن ماوقع به كان يتوقعه ، وقال «أناكنت منتظراً ذلك» وهذا فيه خير كثير ومصلحة كبيرة » وقد كان في حاجة إلى الهدوء ، والبعد عن ضجة المدن ، وقد انصرف في هدأة ذلك المحبس إلى أمرين :

أحدهما ـــ العبادة وتلاوة القرآن الـكريم .

ثانيهما - تمحيص آرائه وتدوينها في هذا الهدوء الشامل.

وقد كتب في تلك الفترة كثيراً من التفسير ، ولم ينقطع عن الناس ، فقد كانت رسائل الناس تأتى إليه ويفتيهم ويرد عليهم فكانت كتابات الشيخ تذيع بين الناس ويتحدثون فيها ، ولعل احتجابه عنهم زادهم شفقاً بها ، فكان التأثير بها أشد من التأثير لو كان قائماً بينهم ، لأن المنوع المخبوء إن عرف ذاع أكثر من المعلن المكشوف ، إذ النفوس تقطلع إليه وتبحث عنه وتقرؤه بعناية لأنه يكون كالشيء النفيس يعثر عليه ويكشف عنه ، فلا يابث إلا قليلا حتى تتناوله الأيدى .

عندئذ وجدالذين يريدون محاربة آرائه وأفكاره أنهم حبسوا شخصه، ولم. يحبسوا فكره ورأيه ، فمكروا مكرهم عند ذوى السلطان (اليمنعوا ذلك النور أن يخرج من ردهات السجن ، فيضىء بين العلماء ) .

ولقد كان من نتيجة ذلك التدبير الخنى أنه فى اليوم التاسع من جمادى الآخرة سنة ٧٢٨ أخرج ما كان لدى الشيح رضى الله عنه من الكتب والأوراق والحجابر والأقلام، ومنع منماً باتاً من المطالعة، وحملت كتبه التى كان يكتبها أو يراجعها

ف مستهل رجب من هذه السنة إلىالكتبة الكبرى ، وكانت نحو ستين مجاياً وأربع عشرة ربطة كراريس ، وحفظت بها واستمرت محفوظة .

وقد قال ابن كثير في سبب هذا القضييق «كان سبب ذلك أنه أجاب لمساكان رد عليه به ابن الإخناني المالسكي في شأن الزيارة ، فرد عليه الشيخ تقى الدين واستجهله ، وأعلمه أنه قليل البضاعة في العلم ، فطلع ابن الإخناني إلى السلطان وشكاه ».

حدد محبرة ولا قلماً ، ولـكن ذلك الفكر المتحرك الذى لا ينى عن العمل عنده محبرة ولا قلماً ، ولحكن ذلك الفكر المتحرك الذى لا ينى عن العمل لا يمكن أن يحتبس ، ولذلك كان أحياناً يضطر إلى أن يقيد بعض آرائه وخواطره فيقيدها بفحم على ورق متناثر ، وقد جمع الورق المتناثر ، وحفظها التاريخ على أنها من آثاره .

ولقد احتمل ابن تيمية ذلك الابتلاء بصبر وجلد، وعلم أنه الجهاد العظيم ه وقال في هذا: « نحن والله في عظيم الجهاد في سبيله ، بل جهادنا في هذا مثل جهاد يوم قازان ، والجبلية والجهمية ، والاتحادية ، وأمثال ذلك ، وذلك من أعظم نعم الله عليناوعلى الناس [ولكن أكثر الناس لا يعلمون] (١)».

وكان هذا الـكلام مما كتب على الأوراق المنثورة .

لم يطلذلك المحبس المضيق على ابن تيمية ؛ فإن الله قد قبضه إليه فى العشرين من شوال سنة ٨٣٨ بعد مرض نزل به ، ولقد كان عظيما فى آخر أيامه ، كاكان عظيما طول حياته ، فقد ذهب إليه وزير دمشق فى مرضه يعتذر إليه ويلتمس منه أن يحلله مما عساه يكون قد وقع منه من تقصير أو أذى فيجيبه الرجل العظيم:

<sup>(</sup>١) يومقازان هو يوم التقى بقازانعندما هاجم التنار دمشق ، وقازان قائدهم ، والجباية هو حربه معالنصيرية يوم أن ذهبوأنزلهم من الجبل ، والجهمية هم منكرو الصفات الذين جادلهم ، والاتحادية هم الصوفية الذين كانوا يقولون بوحدة الوجود ـ

« إنى قد حللتك وجميع من عادانى ، وهو لا يعلم أنى على الحق ، وأحللت السلطان المعظم الملك الناصر من حبسه إياى ، لكونه قد فعل ذلك مقلداً معذوراً ، ولم يفعله لحفظ نفسه ، وقد أحللت كل أحد مما كان بينى ويينه إلا من كان عدوا لله ورسوله » .

والمستورة عالمها ، بلعالم السلمين ، فحرجت جموعها محتشدة تودعه ، حق مثواه دمشق بوظة عالمها ، بلعالم السلمين ، فحرجت جموعها محتشدة تودعه ، حق مثواه الأخير ، ولقد قدر الله لذلك العالم الحر العظيم أن يموت وليس لابن أنثى عليه من فضل ، لقد توثقت العلاقة بينه وبين الناصر ، حتى حكمه في رقاب العلماء الذين آذوه ، فما قال فيهم إلا خيراً ، ولو مات وهو ممكن عند السلطان ذلك التمكين لقال بعض الناس إنه تابع للسلطان ، وأنه من رجاله يحط في هواه ، وأنه ما علا إلا بقوته ، ولكن يأبي الله العلى القدير إلا أن يظهر ذلك العالم على حقيقته و بجوهره ، العالم المستقل الذي لا يتبع أحداً إلا الله ، يقول الحق ، ولا يضطرب ولا بتلقم ، وعظمته من نفسه . وهو كالدوحة العظيمة يستظل ولا يضطرب ولا بتلقم ، وعظمته من نفسه . وهو كالدوحة العظيمة يستظل من الناصر ما ألقاه في غيابة السجن ، فكان هذا هو الدليل القاطع على أنه متبوع لا تابع ، وحر سيد لنفسه ، وليست نفسه ولا فكره ملكا لأحد .

توفى ذلك العالم إلى رحمة الله تعالى ورضوانه بعد أن جاهد أكثر من ثلاثين سنة من يوم أن بزغ نجمه عالمًا بين الدنماء إلى أن فاضت روحه .

حليه ذلك التغير ، ابتدأ فحبسه حبساً رفيقاً ثم حبساً شديداً ، فنقول: إن الحوادث عليه ذلك التغير ، ابتدأ فحبسه حبساً رفيقاً ثم حبساً شديداً ، فنقول: إن الحوادث يفسر بعضها بعضا ، ذلك أن الناصر لبث بمصر ، وقد فارقها ابن تيمية ولزم دروسه بدمشق ، فما الذي تعرض له الناصر ، حتى يغير نفسه من ناحية ابن تيمية ، فلنتجه إلى كتب القاريخ نتامس حاله فيها ، لقد ذكر المقريزي : « أن الناصر

ركب كمادته للصيد ، وبينما هو فى الطريق إذ انتابه ألم شديد كاد يقضى عليه ، فنزل عن فرسه ، ولسكن الألم تزايد عليه ، فنذر إن عافاه الله أن يبنى فى هذا الموضع مكاناً يتعبد فيه الناس ، ولما عاد إلى قلمة الجبل ، وقد شفاه الله من مرضه سار بنفسه إلى الموضع الذى انتابه فيه المرض ، وصحبه جماعة من المهندسين ، واختط هذه الخانقاه ( خانقاه سرياقوس ) فى سنة ٧٧٣ ، وجعل فيها مائة خلوة . لسائة صوفى ، وبنى بجانبها مسجداً تقام فيه الجمعة ، وبنى حماماً ومطبخاً وتم ذلك سنة ٧٧٥ .

و إذاعلمنا أن أول محنة بابن تيمية كانت سنة ٧٣٦، نعرف من أين جاء التأثير ، لقد صار من ذلك الوقت الناصر صديقاً حمياً للصوفية ، وهم أعداء ابن تيمية ، وقد شدد النكير عليه شيخهم ابن عطاء الله السكندري .

وما دام قد فتح قلبه للصوفية ، فلابد أنه أغلقه عن ابن تيمية وسمع لتأثيرهم وبذلك كانت الجفوة ، ثم كانت المحنة بعد المحنة ، ثم كان النضييق الذي انتهى . بوفاته رضى الله عنه .

والآن ونحن ندرس ابن تيمية لا نتتقل من حياته إلى عصره إلا بعد ذكر المرين : صفاته الشخصية – وجهاده بالسيف .

#### صفاته

٢٨ – اختص الله سبحانه وتعالى ذلك الرجل بصفات كانت هي البذرة، التي نمت واستوت، على سوقها فكانت ذلك العالم الجليل ، وما نمت إلا بما سقيت من ماء ، وما تهيأ من جو ، وتربة صالحة ، وذلك بالدراسة العميقة والعصر الذي عاشت فيه .

وأولى هذه الصفات حافظة واعية ، وهي أساس العلم ، وبمقدارها ومقدار القدرة على استخدامها يكون قدره وسط العلماء .

وقد بدت هذه الظاهرة في صدر حياته ، واستمرت ملازمة له حتى وفاته .
الصفة الثانية -- من صفات ابن تيمية العمق في التفكير ، فقد كان رضى .
الله عنه يدرس المسائل متعمقاً ، وكان يدرس الآيات والأحاديث وقضايا العقل .
ويوازن ويقايس بفكر مستقيم ، حتى ينبلج له الحق واضحاً ، فلم يكن رضى الله عنه حافظا واعيا فقط بل كان مدركا متأملا ، مستنبطاً فاحصاً ، يردد البصر ويسبر غور المسائل ، حتى يصل فيها إلى نتائج محققة ، وما يصل إليه تدهش له العقول .
ويحير الخصوم .

والصفة النالثة — حضور البديهية ، فقد كان مع قوة حافظته وتعمقه في. الدراسة حاضر البديهة تخرج إليه المعانى من مكامنها سريعة كالجندى السريع, يحيب أول نداء ، وكان يبدو ذلك في دروسه ، فأرسال المعانى تجيء إليه من غير إجهاد ، وعند المناظرة يفحم الخصوم بكثرة ما يحفظ ، وبحضور مايحفظ . والعبديهة الحاضرة بالنسبة للخطيب والمناظر كأدوات الحرب السريعة للمقاتل . تصيب المقاتل ، وتقطع مفاصل القول ، وتربك الخصم .

ولهذه الصفة كان خصوم ابن تيمية يها بون لقاءه ، ومن لا يعرفها فيه ويفتر بحجته إذا لقيه يكون عبرة المعتبرين .

والصفة الرابعة — الاستقلال الفكرى ، ولعل هذه الصفة أبرز الصفات فى . تكوين علمه وشخصيته العلمية التى جعلت له مزايا خاصة ليست فى غيره من . العلماء الذين عاصروه ، ولقد قال فى استقلاله الفكرى أحد تلاميذه :

«كان إذا وضح له الحق عض عليه بالنواجذ ، والله ما رأيت أحداً أشد تمنظيا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولا أحرص على اتباعه ونصر ما جاء به منه ، حتى إذا أورد شيئاً من حديثه في مسألة، ويرى أنه لم ينسخه شيءغيره من الحاوتين . عديث \_ يعمل ويقضى و بفتى بمقتضاه ، ولا يلتفت إلى قول غيره من الحاوتين . كان الا يخاف في ذلك أميراً ولا سلطاناً ولا سيفاً ، ولا يرجع عن الكتاب والسنة لقول أحد ، وهو متمسك بالعروة الوثقى » .

والصفة الخامسة \_ الإخلاص فى طلب الحق ، والطهارة من أدران الهوى والفرض فى طلب الدين وكشفه للناس ، والإخلاص يقذف فى قلب المؤمن بنور الحقيفة ، و يجعله يدرك الأمور إدراكا مستقيا ، وفى الحكمة المشرقية إن الاتجاها المستفيم المخلص ، يجمل الفكر مستقيما ، والعمل مستقيما ، والقول مستقيما .

وقد تجلى إخلاص ابن تيمية في أمور أربعة :

أولها ـ أنه كان بجابه العلماء بما يوحيه إليه فكره ، لا يهمه إلا رضا الله - سبحانه ورضا الحق . وسواء عليه أغضب الناس أم سخطوا .

والأمر الثانى ـ الذى أظهر إخلاصه وتفانيه فى الحق جهاده فى سبيله ، ولو كان بالسيف يحمله ، وقد كان يتحمل البلاء الشديد فى سبيل إعلاء رأيه ، الدينى وقد تحمل فى هذا السبيل البلاء الشديد ، والسجن المستمر من أعدائه وأصدقائه على سواء .

والأمرالثالث ـ الذى أظهر إخلاصه و بعده و تنزهه عن الأغراض والأهواء. هو عفوه عمن بسىء إليه ، عفا عن العلماء الذين سنجنوه ، وقد تمـكن من رقابهم، وأخيراً عفا عمن ضيقوا عليه في آخر حياته حتى مات في محبسه .

والأمر الرابع الذي بدا فيه إخلاصه زهده عن المناصب، وكل زخرف الدنيا،

وزينتها فلم يتول منصباً، ولم ينازع أحداً فى رباسة ، بل رضى أن يكون الأدرس الواعظ الباحث ، فلم يهتم برياسة يتنافس فيها المتنافسون ، لذا كان متصلابالله ولا يرجو النجاة الا من الله تعالى وقد نجاه ، وقد قال الذهبي في ذلك تـ

« وكم من نوبة قد رموه فيها عنقوس واحدة فينجيه الله تمالى ، فإنه دائم الابتهال، كثيرالاستفائة، قوى التوكل، ثابت الجأش، له أوراد وأذكار يديمها»

والصفة السادسة \_ فصاحته ، وقدرته البيانية ، فقد كان رحمه الله خطيهاً وكاتباً ، جمع الله سبحانه وتعالى له بين فصاحة اللسان والقلم ، ويظهر أن هذه الموهبة وراثية في أسرته ، فقدكان أبوه متكلما مجيداً ، وقد قوى تلك الملكة البيانية ، كثرة قراءته للقرآن ، وترديده للسنة النبوية وحفظه لها ، فإن الكتاب والسنة أمداه بطائفة كبيرة من الألفاظ الجيدة المنتقاة ، وفوق ذلك فإن كثرة المعارك البيانية أرهفت قواه وعودته القول الارتجالي .

والصفة السابعة ــ الشجاعة ، ومعها صفتان أخريان ، وها الصبر وقوة الاحتمال ، فقد اتصف بالشجاعة في ميدان الحرب ، وإدارة شئون الدولة والقضاء على الفساد في مدة الفوضى التي أوجدها غزو القدار لمدينة دمشق الفيحاء ، وبدت شجاعته الأدبية طول حياته ، فتجرد للمخالفين ، واتجه إلى السنة وأعلنها ولوخالفت كل مألوف عند الناس ، وكانت هي سبب بلائه ، فلما نزل البلاء بدت فيه الصفتان ، الصبر وقوة الاحتمال ، أما الصبر فقد كان الصبر الجميل الذي لا يتبرم فيه ولا يتمل ، أما قوة الاحتمال فقد بدت في احتفاظه بكل مواهبة يعمل ، وقد نافاس نحو سنتين لم ين ولم يضعف ، ولم يحس بإرهاق ، بل أحس . بوجوب العمل فلم ينقطع .

ثم كان له مع هذه الصفات هيبة يضطرب أمامها الخصوم.

# من محراب العلم إلى ميدان الحرب والسياسة

19 - عمد الناس العلماء في عصر ابن تيمية عاكفين على العلم ، قد انحلتهم. المقاعد ، وتراحت عضلاتهم، وتقوست عظامهم ، يرون قوة العالم كلها في فسكره. ورأسه ، فهو من الأمة رأسها، لاعضلاتها وقوتها البدنية ، ولعل ذلك أتى إليهم من الفسلقة المندية ، أو الديانة البرهمية التى تقول: إن العلماء في الدين خلقوامن. رأس براها ، وإن الجند خلقوا من ساعديه .

هذا ما كان عليه العلماء في عصر ابن تيمية وقبله وبعده ، ولذلك كانو ايفرون. من التتار، كلما دخلوا بلداً يتركونه ، فارين إلى أقرب مصر إليها، ففرو امن بغداد إلى دمشق ، ومن دمشق إلى القاهرة ، ولكن عالماً من هؤلاء العلماء لم يرض. هذه القاعدة لأنهرأى السلف الصالحين من الصحابة كانو اعلماء ومجاهدين ومدبرين. لشئون الدولة ، فأبو يكر رضى الله عنه كان عالماً ومدبراً ومحارباً ، وعررضى الله عنه كان عالماً ومدبراً ومحارباً ، وعررضى الله عنه كان المدولة ، وأعظم عادل رآه التاريخ بعد النبيين ، أما على فهو باب مدينة العلم وأقضى الصحابة ، وكان فارس الإسلام . حقاً وصدقا ، كا قال قيه النبي صلى الله عليه وسلم :

كان الشيخ تقى الدين فى درسه يلقى العلم ، ويرقب الحوادث ، ومجرى الأمور . ويستعد للدخول فى الفتال .

لقد جاء التتار إلى رمشق سنة ٦٩٩، ولم تسكن حاميتها كافية لصد غار اتهم، ففرت تلك الحامية إلى مصر، وفر معهم العلماء والقضاة وغيرهم من كبار الدولة - حتى صار البلد شاغراً من علمائه وحكامه، وكان ذلك قبل دخول التتار.

٣٠ — ولكن عالمــاً واحداً أبى أن يفر ، وأن يترك البلد فوضى، لأن له .
 قلباً يحول بينه و بين الفرار ، وله إحساس يمنعه من أن يترك العامة من غير مواس .
 ف هذه البأساء ، وقد رأى بمض أهل الذمة ما لئوا التتار وأخذوا يلقون الخرف .

المساجد، ويمانون الفساد، وساد السلب والنهب، ورأى الشطار بخارجون من السلامة ويعيثون في المدينة فسادا .

لذلك جمع ابن تيمية أعيان المدينة الذين لم يتمكنوامن الفرار ، واتفق معهم ..على ضبط الأمور، واتفقوا على أن يذهبوا إلى قازان قائدالتتار وما كمهم ، وكانوا وقد دخلوا في الإسلام كالأعراب ، ولما يدخل الإيمان قلوبهم ، وهمو رابع ملك مسلم فيهم .

ذهب الشيخ على رأس الوفد ، والتقى بقازان القائد الفاتك الذى سارت . بذكر فتكه الركبان ، فقال الشاب العالم للمترجم :

« قل لقازان أنت تزعم أنك مسلم ، وممك قاض وشيخ اومؤذن على ما بلغنا . وأبوك وجدك كانا كافرين ، وما عملا الذى عملت ، عاهدا فو فيا، وأنت عاهدت فندرت ، وقلت فما وفيت ، وجرت » ،

أُخِدَ قائد الحرب من قول قائد العلمواضطرب ، وازداد اضطرابه عند ماقدم . للوفد الطعام ، فامتنع ابن تيمية عن الأكل ، فقال له لم لا تأكل : « فقال له كيف آكل من طعامك ، وكله مما نهبتم من أغنام الناس ، وطبختموه مما قطعتم من أشجار الناس » كان الشيخ يتكلم ، وهو يحس بأن الله يؤيده لأنه يؤيد دينه ، ويرفع أمره ويدفع عن خلقه ، والله فوق كل جبار عليد ، لذلك لانت قناة قازان ، لما وقع في قلبه من كلامه ، حتى إنه يقول : « إذ لم أر مثله ، ولا أثبت قاباً منه ، ولا أوقع من حديثه في قلبي ، ولا رأ بتني أعظام انقياداً لأحد منه » .

انقاد الطاغية المتى، للعالم التتى ، فأخذا يتحدثان في المقصد الذى جاء إليه ، واستطاع الشيخ أن يؤجل غزو التتار لدمشق، وهو يعلم أن التأخير سيعقبه من بعد ذلك الاستعداد للقتال ، وحمل الشيخ قازان على أن يفك الأسرى الذين

آسرهم ، فقك القائد أسرى المسلمين ، ولم يردأن يفك وثاق الأسرى من أهل الذمة من اليهود والنصارى ، ولـكن الشيخ عارضه وأبى أن يمود إلى دمشق إلاوممه أسرى النصارى واليهود أيضاً ، وصك أذن قازان بكامة الإسلام «لهم ما لنا وعليهم ما علينا » .

۳۱ ـ عاد السكون من بعد ذلك إلى دمشق ، ولكنه سكون على حذر و توجس وخوف ، فسكن الناس ولم يأمنوا ، وقد بلفهم فى سنة ٧٠٠ أن التتار - سيقصدون الشام من بعد رحيلهم ، فساد الذعر ، ولكن ابن تيمية العالم ، لبس ، لبوس القائد فى هذه المرة فجمع الناس وقال لهم :

إن الجهاد و اجب ، و بدل أن ينفرو افارين ينفرون مجاهدين، و تابع الاجماع ، بالناس ، و نودى في البلاد ألا يسافر أحد إلا بمرسوم .

فاطمأن الناس إلى الجهاد وعادت إليهم ثقتهم بأنفسهم، وزادهم استيثاقاما بلغهم من أن الناصر جمع جيوشًا لجبة لقتال التقار ، و لكن الناصر بعد أن أخذ الأهبة، وقطع بعض الطريق قفل راجمًا .

أصاب النماس الذعر مرة أخرى ، وتلفتوا فى ذعرهم لا فرق بين حاكم . ومحكوم إلى البطل المؤمن ، فخرج إليهم يحمهم على القتال وتلا عليهم قوله تعالى : ﴿ ذلك ومن عاقب بمثل ما عوقب به ثم بغى عليه لينصر نه الله ، إن الله . لمغو غفور ﴾ .

وقد طلب إليه الأمراء ونائب السلطنة أن يركب إلى الناصر فيحثه على النتال، فوصل إليه وقد انتثر الجند بعد اجتماعهم وتفارطت الحال، فقال ا بن تيمية للناصر قوله الحازم: ٢ إن كنتم أعرضتم عن الشام وحمايته أقمنا له سلطاناً يحوطه و يحميه و بستغله فى زمن الأمن: لو قدر أنكم لستم حكامه ولا ملوكه،

واسنتصركم أهله لوجب عليكم النصر، فكيفوأنتم حكامه وسلاطينه ، وهم، رعاياكم وأنتم مستولون عنهم » .

وما زال المالم بهم حتى خرج السلطان بجنده إلى الشام ، ولكن ابن تيمية خرج من دمشق فسادها الذعر ووجفت القلوب ، وتنادى الأمراء ووالى المدينة بأن من قدر على شيء فليخرج ، ولكن ابن تيمية عاد بشير ا قبل أن يستجيبوا لذلك الناعب نعيب اليوم ، وقد عاد إليهم الأمن ، لأن ابن تيمية عاد إليهم ، ولأن السلطان أقبل بجنده ، ولأن التتار أجلوا الغزو من عامهم هذا ، عاد ابن تيمية إلى درسه .

٣٧ \_ جاء التبتار من بعد ذلك سنة ٧٠٢ بجموعهم إلى الشام ، واستعدالجيش الموحد جيش مصر والشام لملاقاة التبتار . وتحالف العلماء والقضاة والأمراء على أن يلاقوا العدو ، ولا يخرجوا من دمشق مع أن دعاة التردد والهزيمة قد أخذوا ينشرون الفزع في قلوب الناس .

دعا ابن تيمية إلى الجهاد، وتكررت الدعوة، وماكان لمثله أن يدعو إلى الجهاد و بنكص على عقبه، فتقدم إلى الميدان حاملا السيف، وقد سأله السلطان أن يقف معه فى المعركة، فقال إمام السنة: « السنة أن يقف الرجل تحت راية قومه، ونحن من جيش الشام لا نقف إلا معهم ».

وكانت الوقعة في رمضان فعث الجدد على الإفطار وروى لهم قول النبي صلى الله عليه وسلم في غزوة الفتح: « إنكم ملاقو العدو والفطر أقوى لكم » .

وقعت الواقعة وانتصر الجيش الموحد: الجيش المصرى والجيش الشامى. فى موقعة كانت فى مكان أسمه شقحب وهو قريب من دمشق. وقف ابن تيمية هو وأخواه موقف الموت ، وأبلوا بلاء حسنا ، وكان النصر البين .

٣٣ — وبعد أن عاد الأمن بزوال الخطر اتجه عقل ابن تيمية المستيقظ إلى طوائف تنتسب إلى الإسلام تمتصم بالجبال ، كانوا يمالئون أعداء الإسلام من الصليبيين ، ومنهم الطائفة التي تسمى طائفة الحشاشين الذين يتخذون هذه المادة سبيلا للاستهواء النفسي ومالئوا من بعد ذلك التتار في غاراتهم المتكررة ، وكانوا عيونا على المسلمين في الحرب ؟ ودعاة للفتنة في السلم.

وقد قال ابن تيمية عن أفعالهم في السلم: « ولقد كان جيرانهم من أهل البقاع منهم، في أمر لا يضبط شره ، كل ليلة تنزل منهم طائفة ويفعلون من الفساد مالا يحصيه إلا رب العباد ، كانوا في قطع الطريق ، وإخافة سكان البيوت على أقبح سيرة ، عرفت من أهل الجنايات منهم ، من يرد إليهم من النصارى من أهل قبرص يضيفونهم ويعطونهم سلاح السلمين ، ويقمون بالرجل الصالح من المسلمين ، فاما أن يقتلوه ، وإما أن يسلبوه ، وقليل منهم من يفلت بالحيلة » .

#### ولقد قال ابن تيمية في وصفهم أيضا:

« لما قدم النتار إلى البلاد فعلوا بعسكر المسلمين ما لا يحصى من الفساد » وأرسلوا إلى أهل قبرص فملكوا بعضااسواحل وحملوا راية الصليب ، وحملوا إلى قبرص من خيل المسلمين وسلاحهم ما لا يحصى عددهم إلا الله ، وأقاموا سوقهم بالساحل عشرين يوماً يبيعون فيه المسلمين ، والخيل والسلاح على أهل. قبرص (أي الصليبيين الحجار بين للمسلمين) .

هذه أمور حزت في نفس ابن تيمية ، ولعل أشدها مرارة بيع الأحرارمن المسلمين ال

لذلك جرد بأس الناصر حملة قادها بنفسه ، ومعه نقيب الأشراف ، فقاتلوا حاملي السلاح منهم ، وقطموا أشجار الجبل حتى ينكشفوا للناس ، واستتابوا خلقا منهم ، وألزموهم بشرائع الإسلام ، وفرضوا الزكاة على مسلميهم والجزية على غيرهم .

هذا هو ابن تيمية الذي خرج من محراب العلم ليقاتل ، ثم عاد إليه بعد أن أدى واجب الجهاد ، وقد عاد إلى جهاد أعظم .

# عصرابن تيمية

٣٤ — إن البذرة الطيبة لا تنمو إلا بستى ورعى فى أرض طيبة ، وجو تتفذى منه وتعيش ، ولذلك كان للمصر الذى عاش فيه ابن تيمية أثر واضح فى اتجاهاته العلمية والعملية ، وليس أثر العصر بمتفق دأمًا مع جنس المصر ، فإن كان العصر فاسدا فسد الرجل ، وإن كان صالحا صلح الرجل ، فقد يكون التأثير عكسيا ، فكثرة الفساد تحمل على التفسكير الجدى فى الإصلاح ، وكثرة الشر تحمل على استحصاد عزائم اهل الخير ، لمقاومة الفساد ، فتكون دافعة المصلح لأن يفسكر فى أسباب الشر فيجتنها ، وفى نواة الخير فيفذيها ، وكذلك كانت المجاوبة بين ابن تيمية وعصره ، تفذت روحه غداء صالحا بما درس فى صدر حياته وما كانت عليه أسرتة ، ثم ما عكف عليه فى شبابه وكهولته من رجوع إلى ينابيع الشرع الأولى، والكنز المختفى من الهدى النبوى وما كان عليه سلف المؤمنين، ما عليه أهل العصر الذى أظله ، فكانت المعركة شديدة فى نفسه بين، ما علم وما يرى فى عصره من ظلمة شديدة و فساد فى كل نواحيه . رأى فى ماضى الإسلام عزة فى عصره من ظلمة شديدة و فساد فى كل نواحيه . رأى فى ماضى الإسلام عزة واتحادا ، وفى حاضره ذلة وانقساما ، فتقدم الرجل ليصلح وليداوى ، وقد وجد الدواء بأيسر كلفة ، وجد هذه الأمة لا يصلح آخرها إلا بما صلح به أولها .

وما كانت آراؤه العلمية إلا دواء لأسقام عصره ، ولوفتشت عن البواعث التي بعثت ذلك العالم البقى على الحجاهرة بآراء معينه لوجدت أن الذى بعث على هذه المجاهرة عيب في الزمان في الفكر ، أو في العمل ، أو فيهما معا .

الحال السياسية :

٣٥ — وصل السوء فى الحال السياسية إلى أقصاه ، وتحققت نبوءة النبي صلى صلى الله عليه وسلم فى قوله. ( يوشك أن تداعى عليكم الأمم كاتداعى الآكلة على على قصمتها ، فقال قائل : ومن قلة تحن يومئذ يارسول الله ، قال بل أنتم بومئذ

كثير ولكن غناء كفثاء السيل، واينزعن من صدور عدو كالمهابة، وليقذفن في قلوبكم الوهن، قال عليه السلام حب. الدنيا وكراهية الموت).

فكانت هذه الحال تنطبق على المسلمين في القرن السابع والثامن من الهجرة. كاكانت تنطبق على قرون من قبل ومن بعد ، لقد انقسم المسلمون إلى دويلات. وحوزات ملوك، ينظر بعضهم إلى بعض كالعدو المفترس، لا نظرا الومن الموالى ، ونظرة الملوك إلى رعاياهم نظرة الجبارين ، لانظرة الراعى الذى يحمى رعيته من. أن تقع في مواطن الردى .

و إن خير وصف لحال المسلمين في عصر ابن تيمية وما قبله ما قاله الحافظ. ابن كـثيرفي تاريخه فقد قال :

« لقد بلى الإسلام والمسلمون في هذه الأيام بمصائب لم يبتل بها أحدمن الأمم. منها هؤلاء التبر ، فنهم من أقبلوا من المشرق ففعلوا الافعال التي يستفظمها كل من سمع مها ، ومنها خروج الفرنج لعنهم الله من المغرب إلى الشام وقصدهم ديار مصر، وامتلا كهم تفرها (أى دمياط) ، وأشر فت ديار مصر وغيرها على أن يملكوها لولا لطف الله و نصره عليهم ، ومنها أن السيف بينهم مسلول ، والفتنة قائمة » هذه أنواع من المعاول أصابت الأمة الإسلامية ،الصليبيون من الغرب ، والتتار من الشرق ، والنالثة هي ثالثة الأسافي أن بأس المسلمين بينهم شديد ، لا تجمعهم وحدة الإسلام ، بل فرقتهم حوزات الملوك ، ومزقتهم الطوائف المفترقة حتى صارت كأنها الأحزاب ، [كل حزب بما لديهم فرحون] .

و إن البلية التي أتت على المسلمين وزادت عن كل أنواع البلاء هي غزوات. التبار التي رأى ابن تيمية بعضها ، وخاص غمار آخرها ، ولنترك القلم المؤرخ ابن الأثير، فإنه بقول : « لقد بقيت عدة سنين معرضاعن ذكرهذه الحادثة استفظاعاً.

أن يكتب نعي الإسلاموالسلمين ، ومن ذا الذي يهون عليه ذكر ذلك، ليت أمى لم تلدني ، [ ليتني مت تبل هذا وكنت نسيا منسيا ] إلا أني حثني جماعة من الأصدقاء على تسطيرها ، وأنامتوقف ثمرأيت أن ترك ذلك لا يجدى نفعًا، فنقول: هذا الفعل يتضمن ذكر الحادثة العظمي والمصيبة الكبرى التي عمت، وعقمت الأيام والليالي عن مثلمًا ؛ عمت الخلائق ، وخصت المسلمين ، فلو قال قائل : إن العالم مذخلق الله سبحانه وتعالى آدم إلى الآن لم يبتلوا بمثلما لحكان صادقا؟ -فإن التواريخ لم تتضمن ما يقاربها ، ولا يدانيها ، ولمل الخلق لايرون مثل هذه الحادثه إلى أن ينقرض العالم ، وتفنى الدنيا إلا يأجوج ومأجوج . . . هؤلاء لم بيهةوا على أحد ، بل قتلوا النساء والرجالوالأطفالوشقوا بطون الحوامل،وقتلوا الأجنة ، [ فإنا لله ، و إنا إليه راجعون ] ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم لَمْذَهُ الحِـادَثَةُ التي استطار شررها ، وعم ضروها ، وصارت في البلاد كالريح استدبرته الربح ؛ إن قوماً خرجوا من أطراف الصين ققصدوا بلاد البركستان ومنها إلى بلاد ما وراء النهر ، فملكوها ، ثم تعبر طائفة منهم إلى خراسان فيفرغون منها ملكا وتخريباً وقتلا ونهبا ، ثم يتجاوزونها إلىالرى وهمذان إلى حد الدراق ثم يقصدون بلاد أزربيجان ويخربوبها، ويقتلون أكثر أهلها، ثم قصدوا بلاد قفجان ، وهم أكثر من البرك عددا ، فقتلواكل من وقف لهم، فهرب الباقون إلى الغياض ورءوس الجبال ، وفارقوا بلادهم، واستولى هؤلاء التتار عليها ، فعلوا هذا في أسرع زمان ، لم يلبثوا إلا بمقدار سيرهم لاغير ، ومضى طائعة إلى غزنة وأعمالها وما يجاورها من بلاد الهند وسيجستان وكرمان، ففملوا مثل ما فعل بهؤلاء ، وأشد من هذا مما لم يطرق الأسماع مثله ... » هذا وصف موجز لحال هؤلاء التتار، وقد ملكوا أكثر البلاد الإسلامية،

وخربوها وقتاوا أكثر أهلها ، حتى إذا جاءو إلى بغداد كان الخلاف بين الشيعة والسنة على أشده ، ووزير الدولة عند الفتح كان شيعيا ، وهو الوزير العلقمى ، فقلل عدد الجيش ، حتى دخل التقار بغداد بأيسر كلفة ، وساروا في طريقهم من بعد، لا يلوون على أى شيء أتو اعليه إلا جعلوه كالرميم وانسابوا في البلاد، حتى دخلوا حلب بعد بغداد واستولوا على قلعتها ، واندس من النصارى من يخطب داعيا إلى المسيحية وذم الإسلام، ووقفوا على أبواب المساجد ، ومعهم أوان فيها خر ، فن مر عليهم من رواد المسجد رشوا بها على وجوههم بهذا، وتجرد لهم المسلمون فردوهم إلى سوق كنيسة مريم .

وقد التقى الجيشان الأول السورى والثانى المصرى ، والتقيا مع التتار ، فهزموههم لأول مرة وكانت الهزيمة منكرة ، وأعملت السيوف فى أقفيتهم وحطمت صخرتهم ، وصارت جذاذا فى عين جالوت ، وكانت الواقعة فى آخر مضان سنة ٢٥٨ أى تبل مولد ابن تيمية بسنتين وبعض السنة .

وقد اضطر الحكام لفرض ضرائب لمقاومة ذلك الطغيان ، فجمع من أهل مصر عن كل رجل أو مرأة دينار ، وأخذت أجور الأوقاف الخبرية قبل ميقاتها. بشهر ، وقد أفتى بذلك عالم ذلك العصر عز الدين بن عبد السلام ، على أن ذلك. من الضرورات ، والضروات تبيح المحظورات

هذه هي الحال السياسية : حرب ونزال ، وقد بزعت عين ابن تيمية فوجد التتار يعيدون الكرة ، وقد وجدوا الحمية الأولى التي ردتهم قد خبت ، فجردوا القوة من جديد .

### الحال الاجتماعية :

٣٦ — قال المقريزي في وصف الحال الاجتماعية : «لماكثرت وقائع التتاز في بلاد المشرق والشمال ، وبلاد الففجاق . وأسرواكثيراً منهم . وباعوهم .. واشترى الصالح بجم الدين أيوب جماعة منهم سماهم البحرية ، ومنهم من ملك ، مصر ، ثم كان لقطز منهم الموقعة المشهورة ، وهزم التقار وأسر منهم خلقا كثيراً سساروا بمصر والشام وسموا الوافدية ، ثم كثرت الوافدية في عهد الظاهر بيبرس، وملئوا مصر ، فانتشرت عاداتهم وطرائفهم ، وكانوا إنما ربوا بدار الإسلام ، واتقنوا القرآن ، وعرفوا أحكام الملة المحمدية ، فجمعوا بين الحق والباطل ، وضموا العيد إلى الردى ، وفوضوا لقاضى القضاة كل ما يتملق بالأمور الدينية من الصلاة والصوم والزكاة والحج ، وناطوا به أمر الأوقاف والأيتام ، وجعلوا له النظر في الأقضية الشرعية كتداعى الزوجين وأرباب الديون ، واحتاجوا في ذات أنفسهم إلى الرجوع إلى حكم جنكيزخان ، والاقتداء به بحكم كتابة الساسا ، فذات أنفسهم إلى الرجوع إلى حكم جنكيزخان ، والاقتداء به بحكم كتابة الساسا ، فذات أنفسهم والإنصاف على وفق ما في الساسا ، وكذلك كان يحاكم التجار يد قويهم ، والإنصاف على وفق ما في الساسا ، وكذلك كان يحاكم التجار المتازون من الأهالي على مقتضى قواعد الساسا ، وجعلوا للحاجب النظر في علمة أوضاع الديوان السلطانية عند الاختلاط في أمور الإقطاعات لينفذ ما استقرت عليه أوضاع الديوان » .

هذا ما جاء في المقريزي وهو يدل على ثلاثة أمور :

الأمر الأول — أن كثرة الأسرى من الأتراك أدت إلى أن يكون لهم منزلة خاصة ومعاملة على أساس هذه المنزلة ، ومن هؤلاء الأسرى من حكم مصر ، كقطز ، والظاهر بيبرس ، ومن جاء بعد من ملوك دولة الماليك البحرية .

والأمر الثانى — أن بعض هؤلاء الوافدية كانوافى معاملاتهم الزوجية وعلاقاتهم بغيرهم من سكان مصركانوا يعاملون بمقتضى الأحكام الشرعية ومعاملتهم الخاصة وكانوا يعاملون بمقتضى كتاب الساسا الذى وضعه جنكبز خان القائد والملك التترى، ولابد أن تعرف شيئاً مما جاء فى هذا السكتاب، وقد أنى ابن كثير ببعض منه، وهذا نص ما جاء فى التاريخ السكبير:

« إن من زنى قتل محصناً أو غير محصن ، وكذلك من لاط قتل ، ومن تعمد السكذب قتل ، ومن سرق قتل ومن دخل بين اثنين بختصان ، فأعان أحدها قتل ، ومن بال فى الماء الواقف قتل ، ومن انغمس فيه قتل ، ومن أطمم أحدا شيئاً فلياً كل منه أولا ، ولو كان المطموم أميراً أو السيراً ، ومن أكل ولم يطمم من عنده قتل ، ومن ذبح حيواناً ذبح أميراً أو أسيراً ، ومن أكل ولم يطمم من عنده قتل ، ومن ذبح حيواناً ذبح مثله ، بل يشق جوفه ويتناول قلبه بهده بستخرجه من جوفه أولا » (١) .

هذا بعض ما جاء في هذا السكتاب ، ولعله نقل الجزء القاسي منه ، لأن كلمة تتل جاءت كشيراً .

الأمر الثالث -- الذى يدل عليه كلام المقريزى أنه كان ثمة فى مصر نظام الطبقات ، فقد كان أولئك الوافدية لهم مركز خاص بهم ، ولهم فوق ذلك ظانونان يحكمان . أحدها الشرع ، وثانيهما قواعد الساسا لجنكيز خان .

ولاشك أن ذلك يدل على اضطراب الحال الاجتماعية ، ولسكن الحروب التي اشتدت . ووقف الجبيع جنباً لجنب وإشراب القلوب بحب الإسلام أثرت في تلك الفرقة فخفقتها ، ولا نفرض أنها أزالتها ، ولا نستطيع أن نفرض أنها كانت ذات قوة وسلطان ، وإن وجدنا على قلم ابن تيمية ما يذكرها بالخير أو الشر .

### الحال العلمية والفكرية:

٣٧ — اتسمت الدراسات في الفرون السادس والسابع والثامن من الهجرة الدبوية ، والعلماء قد استبحروا في الحديث والفقه والتفسير ، والنحو ، والعقائد ، ولكن كانوا مقلدين تابعين ، حتى في العقائد . وكان بجرار هولاء فلاسنة مسلمون ينطلقون في الدراسات الفلسفية ، غير ملتفتين

<sup>(</sup>١) تاريخ ابن كثير ج١١٥ ص ١١٨٠

إلى غيرها ، وبين هؤلاء وأولئك فلاسفة حاولوا الربط بين الشريعة والفلسفة كا رأينا ابن رشد يحاول ذلك فى كتابه فصل المقال فيا بين الشريعة والفلسفة من الاتصال .

ومن وراء هؤلاء المتصوفة المتفلسفة والمتصوف العامى ، فكان أصحاب الفرق يقودون العامة إلى مناهج السلوك التى سنها علماء الصوفية ، ومسالكهم في الارشاد والتوجيه تقوم على التأثير الشخصى بين الشيخ ومريديه ، ومنهم من كان يشتط فيبتمد عن الدين ، وجاء من وراء ذلك تقديس الأشخاص ، واعتقاد السكرامة في الشيوخ ، وأتباعهم أحياء . وتسكريمهم بالزيارة أمواتا ، وكثرت الاستفائة بهم في أضرحتهم .

وبجوار هؤلاء وأولئك كانت الفرق السياسية تتنازع بالفكر والحجة ، ثم انتقل أمرها من المنازلات الفكرية إلى المكايدة وتدبير المؤامرات وموالاة بمضهم أعداء الإسلام ، وإفساد الأمر عند أولياء الأمر ، كاكان من بعض الطوائف التي تسمى نفسها بالشيعة تستراً .

ولابد لنا لسكى نعرف الحال الفكرية من دراسة أمرين : هما الدراسة العلمية ، والصوفية والمتصوفة ومعها الدراسات الشعبية . ولنتسكام فى كل واحد من محذين الأمرين بكلمة موجزة توضح ولا تفصل .

#### الدراسات العلمية :

٣٨ -- انسمت الدراسات في عهد ابن تيمية بالتحيز الفكرى ، فكل له إمام يتبعه في الفقه ، وفي العقيدة ، وقد ابقداً ذلك بالخلاف بين المذاهب في القرن الرابع ، والتعصب المذهبي فيه ، سواء أكان في الفقه أم كان في الاعتقاد ، وتو ارثت الأجيال ذلك التحيز الفكرى ، قانتقل إليها مدونا في السكتب ، وإنك لتجد بعض الكتب الضخام فتقرؤه ، فتجده كله قائمًا على شرح الخلافات

القديمة وبيان أوجه النظر المختلفة والتعصب لرأى منها ، وقد سرى ذلك إلى.. المعاصرين لابن تيمية ، فكان ذلك محل الخلاف بينه وبينهم ، هم يتبعون الرجال على أسمائهم ، وهو يتبع الدليل أنى يكون .

و إذا كانت القرون الثلاثة السادس والسابع والثامن قد امتازت في العلم بشيء فقد امتازت بكثرة العلم ، لا بكثرة الفكر . فقد كانت المعلومات كشيرة .. جداً ، وتحصيلها كان بقدر عظيم ، ولكن التفكير في وزن الأدلة بالمقاييس المعقلية السليمة من غير تحيز . كان قليلا ، ولم يكن متناسبا مع الثروة التي كانت . في ذلك العصر ، كتبت موسوعات في الفقه والحديث والتفسير و التاريخ ، ولكن في ذلك العصر ، كتبت موسوعات في الفقه والحديث والتفسير و التاريخ ، ولكن كان الاتباع والتقليد هو السائد ، ولم يكن التفكير المستقل ذا سلطان .

٣٩ - ومهما يكن من شيء فإن سبل الدراسة العلمية كانت معبدة ، وإذا كانالعلماء قد وضعوا حول أنفسهم إطاراً من التقليد لايخرجون منه ، فقد كانت. الفرص مهيأة ، لأن يجيء العالم الذي يدرس مستقلا ، فإن الموسوعات بين يديه ليدرسها لا دراسة المقايس الذي يزن الحقائق والأدلة .

لقد كانت المدارس فى الفقه و التفسير و الحديث قائمة فى هذه القرون ، و الكتب. مبسوطة بين يدى طالب العلم ، في كون أمامه الموجه من المدر سين الأكفاء ، و أمامه الفذاء المسطور من أقوال العلماء ، و التفسير ات المختلفة لكتاب الله تعالى ، و الموسوعات الجامعة لأحاديث رسول الله صلى الله عليه و سلم ، و فتاوى أصحابه و فتاوى التابعين .

ولا يهمنا تاريخ هذه المدارس ، وكيف نشأت ، ولكن الذي يهمنا هومقدار ما أفاد ابن تيمية من هذه المدارس ، لقد تغذى ابن تيمية من هذه المدارس. غذاء كاملا . إذ وجد كل العلم مبسوطاً ، فابن حزم دون ديوانه الفقهى العظيم في كتاب المحلى ، وفيه فقه الصحابة وفقه التابعين ، وابن قدامة قددون كتابه المفنى ، وفي العقه الحنى تجد الموسوعات الكبيرة كبسوط شمس الأئمة السرخسى ، وتجد

فى الفقه الحنبلى السكتب التى جمعت بين روايات المذاهب المختلفة ، ووجد فى المذهب الشافعى الموسوعات المقارنة ككتاب المجموع للنووى شرح المهذب . وهكذا كان الأمر فى الحديث والتفسير وفى الأصول ، وفى الفلسفة وفى التصوف .

و كاكانت المدارس كانت المكاتب التي يسهل الإطلاع والقراءة فيها . كانت المادة العلمية في شتى الفروع الإسلامية مهيأة بين يديه ، و إذا كان غيره قد درسها دراسة خفط و اتباع ، فابن تيمية درسها دراسة فحص واجتهاد ، فصها فحص العارف الخبير ، والمحيط بالدقائق وعميق الأفكار ، فتكونت له قصها فحص العارف الخبير ، والمحيط بالدقائق وعميق الأفكار ، فتكونت له آراء مستقلة توافق بعض الموجود ، أو تخالفه كله ، وانطلق في إعلان آرائه حراً جريئاً .

### الصوفية والتصوفة

وقد استرعى نظره ثلاثة أمور لم تتفق مع تفكيره و نظره ثلاثة أمور لم تتفق مع تفكيره و نظره ، هذه الأمور الثلاثة هي الاتحاد ، وسقوط التحكيف عند وجود السمو النفسي ، والشعبذة .

ولنتكلم في كل واحد من هذة الأمور الثلاثة بكلمة موجزة .

أما فكرة اتحاد الوجود مع الذات الإلهية ، فقد نبعت من أفكار هندية ، ومن نطرية حلول الألوهية في بعض النفوس و بعض الأشياء و نتج من هذا نظرية وحدة الوجود . وهي فكرة كاأشرنا هندبة قائمة لايزال أثرها واضاً في الأدب الهندي ، وقد تبلورت هذه الأفكار المختلفة كما أشرنا ، فكان المتصوف يقول : إن الموجود واحد ، وما التعدد الواقع إلا تعدد في الشكل لا في ذات الوجود ، وعلى ذلك يكون الوجود كله يما فيه من أرض وسماء ، ونجوم سابحة في السكون هي صور الله سبحانه وتعالى ، وقد قال في ذلك ابن عربى :

يا خالق الوجود في نفسه أنت لما تخلقه جامع تخلق ما ينتهي كونه فيك فأنت الضيق الواسم

هذا أتجاه بمض الصوفية في عهد ابن تيميه .

والناحية الثانية هي ناحية السمو. وأساسها الشوق إلى الله تعالى ومحبته ، وإن الحجبة قدر مشترك بين الصوفيين أجمين ، وأساسها الإشراق الذي يفيض الله على نفوس المخلصين من عباده الأطهار ، وليس الصوفيون في مقدار هذه الحجبة على سواء ، فمنهم من راض نفسه على تلك الحجبة ، واتصل بسببها بالله ، ونزع منزعاً ليس بالحلول الآلمي في النفس ، ولا وحدة الوجود ، ولكنه اتصال المخلوق مخالقه ، وتساميه إلى مرتبة الروحانية ليكون قريباً من الله تعالى .

وإن الصوفى عندما يصل إلى هذه الدرجة من الاتصال بالذات العلمة يكون عافلا عن حسه فانيا فى ربه ، وتسمى هذه المرتبة مرتبة الحجو عأو مرتبة السكر ، لأنه بغيب فيها عن الحس ، وهو إذ قد غاب عن المحسوس قدلتي المنفرد بالوجود وتسمى هذه الحال بوحدة الشهود ، فهو لم يكن هو أو الذات الإلهية شيئاً وأحداكما يقول أصحاب وحدة الوجود ، ولكنهم يقولون ؛ إن إرتفاع النفس بالمشاهدة ترفع الشخص من إدراك المحسوسات إلى مشاهدة الذات العلمية من غير كيف ولا مظهر .

إن من تصل نفسه إلى هذه الدرجة تزكو ، ويكشف عنها الحجاب ، وعندما يصلون إلى هذا يهون التكليف ، بل إنهر بما توجد عبارات من هؤلاء الصوفية تهون أمر المعاصى ، فيقول : في ذلك ابن عطاء الله السكندرى الذى عامر ابن يتمية : « حظ النفس في المصية ظاهر جلى ، وحظهافي الطاعات باطن خنى ، وما يخنى صعب علاجه » .

ويرى أبو الحسن الشاذلي ،أن السيئات بمن يحب الله ويحبه أمرها يهون ، وهو يقول في دعائه .

« اجعل سيئاتنا سيئات من أحببت ، ولا تجعل حسناتنا حسنات من البغضت ، فالإحسان لاينفع مع البغض منك ، والإساء هلا نضر مع الحب فيك ،

وقد أبهمت علينا الأمر لنرجو وتخاف . فامن خوفنا ، ولا تخيب رجاءنا ، وأعطنا سؤلنا فقد أعطيت الإيمان من قبل أن نسألك » .

وبهذا نرى أن السيئة مع المحبة من الله فى حكم الملفاة ، والطاعة معالبغض. منه فى حكم الملفاة ، مم يصرحون بأن المصية يرجى العفو فيها . فيقول :: ابن عطاء الله السكندرى فى دعائه : « إلمى إن ظهرت المحاسن فيفضلك، والله. المنة على ، وإن ظهرت المساوى فيعد لك ، والك الحق على » .

ويقول المرسى أبو العباس في أدعيته :

« إلهى معصيتك نادتنى بالطاعة ، وطاعتك نادتنى بالمعصية ، فنى أيهما أخافك ، وفى أيهما أرجوك ، إن قلت بالمعصية قابلتنى بفضلك ، فلم تدعلى . خواً ، وإزن قلت بالطاعة قابلتنى بعدلك ، فلم تدعلى رجاء ، فليت شعرى. كيف أرى إحسانى مع إحسانك ، أم كيف أجهل فضلك مع عصيانك » .

هذه أدعية طائنة من كبراء الصوفية الأقطاب، وهي تفرق بين المعسية. والحسنة، ولكنها "رجو المففرة في المعصية، والقبول في الطاعة، فهي لاتسقط. التكايف. ولكن تفتح للمصاة باب النوبة والعفو.

ولمكن كانمن الصوفية من يذالون ، فيقولون: إن من وصل إلى مرتبا المحبة ،.. فإنه لا فرق في هذه الحال بين المصية والطاعة ، ويقولون : إذا كانت الشريعة. قد فرقت بينهما ، فالحقيقة التي أساسها المحبة قد سوت بينهما .

ولقد جاء العامة بعد الخاصة ، فكان منهم من فهموا أنه لا معصية ولا طاعة ، و إن لم يدركوا المعافى الفلسفية التي قامت عليها الفكرة ، ومنهم من ادعى أنه الشيخ المتبوع ، و لم يمنعه ذلك من أن يتناول أى ممنوع ، فنال من المو بقات من غير حريجة دينية تمنعه ، ولانفس لوامة تدافعه ، بل انحذ التصوف. ستاراً يستر به مآثمه .

وكان من المامة من يقولون إنه يسكني اتباع شيخ من الشبوخ أو ولى من.

الأولياء ، حتى تكون الخوارق والكرامات ،فالنار لا تحرقهم ، والأفاعى لا تخلفهم ، والأفاعى لا تخلفهم ، وقاموا بأعمال شعبذة .

رأى ابن تيمية كل هذا فحاربه ، واشتد فى حربه ، شمرأى أن بعض هؤلاء الصوفية قد انصلوا بالتتار ، ومالئوهم على أهل الشام ، وكانوا يقومون بالشعبذة أمام قازان ممالئين له ، آخذين هباته ، والمسلمون فى دمشق فى ذعر من أفعاله ، فأضافت هذه إلى سيئاتهم فى نظر ابن تيمية ما أوجب المبالفة فى منازلتهم . كانت له كتابات عنيقة فيهم .

#### منزلة العلماء :

الماليك البحرية ، إذ أن هؤلاء كان للعلماء منزلة كبيرة عند ملوك دولة الماليك البحرية ، إذ أن هؤلاء كان فيهم نزعة دينية ، وكانون يحبون أن يكون حكمهم على وفق الشريعة ، وكان يكثر هذا التكريم بين الملوك ذوى الممة في أوقات الشدة ، وعندما يحتاجون إلى نفوذ العلماء . وكان ثمـة علماء أفذاذ ذوو شخصية قوية لا يخشون لومة لإثم ، ومنهم عز الدين بن عبدالسلام فقد كان الظاهر بيبرس خاصعاً له : « وقد قال السيوطي في ذلك : « كان بعصر منقمعاً تحت كلة الشيخ عز الدين بن عبد السلام لا يستطيع أن يخرج من أمره » حتى إنه قال لما مات الشيخ : « ما استقر ملكي إلا الآن (١) » .

وإذا كان الظاهر بيبرس قد أحس باستقرار ملكه بعد وفاة الشيخ الجليل، فإنه ما استقر ليكون ظلماً، بلكان من العلماء من ينبهه إلى الحق إن شط، وينكر عليه إذا لم يطلع.

وعلى رأس هؤلاء محيى الدين النووى عالم دمشق ، فإن الظاهر أراد أن يفرض ضرائب على الداس ، فوجدها الشيخ مرهقة ، فكتب إليه عدة رسائل

<sup>(</sup>۱) حسن المحاضرة السيوطي جـ ٢ ص ٦٦ :

عنى هذا ، ويقول فى إحداها : « إن أهل الشام فى هذه السنة فى ضيق وضعف حال بسبب قلة الأمطار وغلاء الأسعار ، وقلة الغلاث والنبات ، وهلاك الواشى، وأنتم تعلم ون أنه تجب الشفقة على الرعية ونصيحة ولى الأمر فى مصلحته ومصلحتهم فإن «الدين النصيحة».

وقد رد الظاهر رداً عنيفاً ، واستنكر على العلماء موقفهم منه ، وسكوتهم . يوم كانت البلاد تحت سنابك الخيل في عهد التتار لما استولوا على الشام ، وفي الجواب تهديد .

فيرد عليه الشيخ رداً قويا عنيفاً ، ويقول في رده :

« وأما ما ذكر فى الجواب من كوننا لم ننكر على الكفار كيف كانوا فى البلاد ، فكيف يقاس ماوك لإسلام وأهل الإيمان وأهل القرآن بطغاة الكفار ، وبأى شىء كنا نذكر طغاة الكفار وهم لا يعتقدون شيئًا من ديننا » .

و برد تهديده بقوله : وأما أنا في نفسي فلا يضرني التهديد ، ولا يمنعني خلات من نصيحة السلطان ، فإني أعتقد أن هذا واجب على وعلى غيرى وما ترتب على الواجب فهو خير وزيادة عند الله . [ وأفوض أمرى إلى الله ، إن الله بصير بالعباد ] ، وقد أمر نا رسول الله صلى الله علية وسلم أن نقول الحق حيثًا كنا ، وألا نخاف في الله لومة لائم، ونحن نحب السلطان في كل الأحوال، وما ينفعه في آخرته ودنياه » .

وقد استمرت كتب الشيخ ، واستمر السلطان في جباية الضرائب ، وفي سبيل ذلك جمع فتاوى من العلماء في تأييد عمله ، فاستخذوا وأطاعوه ما عدا الشيخ محيى الدين ، فأحضره الظاهر ، اليحمله برهبة السلطان على التوقيم ؛ فأجابه الشيخ إجابة عنيفة جاء فيها .

« أنا أعرف أنك كنت فى الرق للأمير بندقدار ، وليس لك مال ، تم من الله عليك وجملك ملكا وسمعت أن عندك ألف مملوك كل مملوك له حياصة

من ذهب وعندك مائة جارية ؛ لـكل جارية حق من الحلى ، فإن أنفقت ذلك كله ، ولقيت مماليكك بالبنود الصوف بدلا من الحوائص ، وبقيت الجوارى. بثيابهن دون الحلى أفتيتك بأخذ المال من الرعية » .

فغضب الظاهر ، وقال اخرج من بلدى (دمشق) فقال : « السمع والطاعة » وخرج إلى نوى بالشام » فقال الفقهاء إن هذا من كبار علمائنا وصلحائنا بمن يقتدى به فأعده إلى دمشق ، فرسم برجوعه ، فامتنع الشيخ وقال ، لا أدخلها والظاهر بها ، فمات الظاهر بعد شهر (١) .

وقد رأى ابن تيمية الظاهر وعوده أخضر ، ورأى الشيخ محيى الدين. اللووى .

ولهذا قد رأينا ابن تيمية يقف من الناصر موقف عزالدين بن عبدالسلام، وموقف عزالدين بن عبدالسلام، وموقف محيى الدين النووى ، فامتدت به سلسلة العلماء المسكافين ، وقد زاد عليهما أنه امتشق السيف للجماد ، وأنه نزل به البلاء بسبب آرائه في الدين ، فات في الحبس مضيقاً عليه ، فرضى الله عنه ، وأكرم مثواه ، وجزاه عن العلم والإسلام خير الجزاء .

<sup>(</sup>۱) راجع المكاتبات والمناقشات بكتاب حسن المحساضرة السيوطى جـ ٧٠ ص ٦٧ إلى ٧١

الإمام زيد بن على



# الإمام زيد بن على

#### 177 - A.

فى الربع الأخير من القرن الأول الهجرى كان يعيش فى مدينة الرسول حملى الله عليه وسلم ، رجل امتلأ قلبه إيماناً ، وأشرق نوره على وجهه روعة وجلالا ، أحبته المدينة كلها ، وتسايرت الركبان بذكره وفضله . قد تواضع فأرتفع ، وتطامن للناس فأعزوه ، وأحب ضعاف الناس ، فأحبه كل الناس . كان للفقراء مواسيا ، وعلى اليتامى حانياً ... ذلكم الرجل هو على زين العابدين البن الحسين ، بقية السلف من أبناء الحسين ، وبه حفظ نسل أبى الشهداء ، صريع الظلم والفساد فى كر بلاء .

كان على هذا شديد البكاء ، كثير الحسرات ، لأنه عاش بعد أن قتل الأحبة من آل بيته . وقد قال في ذلك رضى الله عنه : «إن يعقوب عليه السلام بكى حتى ابيضت عيداه على يوسف ، ولم يعلم أنه مات . وإنى رأيت بضعة عشر من أهل بيتى يذبحون في غداة يوم واحد ، أفترون حزنهم يذهب من قلبي !!.

وأنه فى وسط الأحزان والآلام النفسية نبعت الرحمة منه ، ففاض قلبه بها ، فكان جواداً يسد دين المدينين ، وحاجة المحتاجين ، ويفيض سماحة وعفوا ، ومما يروى منها أن جارية كانت تحمل الإبريق ، وتسكب الماء ليتوضأ فوقع ما فى يدها على وجهه فشجه . فرفع رأسه إليها لأثما ، فقالت له الجارية : إن الله تعالى يقول : [ والكاظمين الغيظ ] فقال : « قد كظمت غيظى » ، فقالت : [ والدافين عن الناس ] ، فقال : « عفا الله عنك » ، فقالت : [ والله يحب الحسنين ] ، قال : « أنت حرة لوجه الله ! » .

بهذا النبل والسمو والرحمة والعطف اشتهر على فى ربوع الحجاز — . وخصوصاً فى مكة المسكرمة ، والمدينة المنورة — وعلا إلى درجة لم يصل إليها

أبناء الخلفاء ، فكان المهيب من غير سلطان . ويروى في هذا من عدة طرق. أن هشام بن عبد الملك ، قبل أن يتولى الخلافة ، كان يحج فطاف بالبيت. الحرام، ولما أراد أن يستلم الحجر الأسود لم يتمكن، حتى نصب له منبر فجلس. عليه وسلم وأهل الشام حوله . وبينا هو كذلك إذ أقبل على زين العابدين ٣-فلما دنا من الحجر ليستلم ، تنحى عنه الناس إجلالاً له وهيبة واحتراماً ، وهو في. بزة حسنة وشكل مليح ، فقال هشام : من هذا ؟ استنقاصاً له ، وكان الفرزدق. الشاعر حاضراً ، فاندفع الشاعر الفحل في تعريفه بقصيدة ، جاء فيها :

هذا الذي تمرف البطحاء وطأته والبيت يمرفه والحــــل والحرم، هذا التقي النقي الطاهر العـــلم إذا رأته قريش قال قائلها إلى مكارم هذا ينتهى الكرم.

هذا ابن خير عباد ا**لله ڪ**لمهم

إلى أن قال:

العرب تعرف من أنكرت والعجم<sup>(١).</sup>

ولقد انصرف على زين العابدين إلى علم الفقه ، ورواية الحديث . وكان. يروى الحديث من التابعين ويحتفظ بذخيرة آل البيت الـكرام ، وكان بروى. عنه ابن شهاب الزهرى ، ويجله ... وابتعد عن السياسة ، فانصرف إلى علم. الإسلام انصرافًا كليًا.

<sup>(</sup>١) روت كتب التاريخ والأدب هذه القصيدة منسوبة للفرزدق ، ورواها. الأصفهاني في « الأغاني » ولكنه تشكك في نسبتها إلى الفرزدق ــــ لأن الغرزدق. كان يستوعر فى أسلوبه \_\_ ونسبها إلى بعض الشعراء المتشيعين ولم يعينه ، ولا وجهـ لتشككه ، لتضافر الروايات على نسبتها إلى الفرزدق ، ولأن الشاعر الذي يستوءر قد يرق إذا اقتضى المقامذلك ،كامرىء الفيسإذ رق شعره فى مأساته . ولأنه لم يعين ..' قائلها بأدلة علمية فبرد تشككه ولا يلتفت إليه .

وفى عهده وجد الفلاة من الشيعة ، ف كان إذا اجتمعهم يردهم ، ويدعوهم إلى الطريقة المثلى . ويروى أنه جلس إليه قوم من العراق ، فذكروا أبا بكر . وعمر ، فغالوا منهما . فقال لهم على رضى الله عنه : « أخبرونا من أنتم : من المهاجرين الأولين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتفون فضلا من الله . ورضوانا ، وينصرون الله ورسوله ؟ » . قالوا : « لا » . قالى : « فأتم من الذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ؟ » قالوا : «لا » . فقال الله م : أما أنتم فقد أقررتم على أنفسكم أنكم لستم من هؤلاء ولا هؤلاء ، وأنا أشهد أنكم لستم من الفرقة النالئة الذين قال الله فيهم : [ والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ، ولا تجمل ف قلوبنا غلا للذين آمنوا ] ، فقوموا عنى لا بارك الله فيكم ، ولا قرب دياركم . . . قاربنا غلا للذين آمنوا ] ، فقوموا عنى لا بارك الله فيكم ، ولا قرب دياركم . . . . .

## ولادة زيد الإمام ونشأته :

فى ظل ذلك الأب السمح الكريم نشأ زيد وتربى ، وفى وسط ذلك الحزن الباكى عاش زيد رضى الله عنه وعن آبائه السكر ام الأبرار ، ومن هذه السلالة الطاهرة التقية كان ذلك الإمام . فأبوه على هذا ، وجده أبو الشهداء الحسين ، وجده الأعلى فارس الإسلام على بن أبى طالب ، باب مدينة العلم ، وأقضى الصحابة ، وأخو النبى فى المؤاخاة التى عقدها صلى الله عليه وسلم عندما هاجر إلى المدينة .

ولم يعرف ميلاد زيد على وجه اليقين ، ولسكن يظهر أنه ولد فى حدود عام ٨٠ للهجرة ، لأن جل الروايات تذكر أنه قتل شهيداً عام ١٣٢ . وأجمعت الروايات على أنه كان يوم مقتله لا يتجاوز الثانية والأربعين .

ولقد تهيأت له نشأة صالحة صقلته ورفعته ، فهو يحس السمو النفسي بذلك

الشرف الرفيع الذي ناله من نسبه ، إذ جده من قبل أمه النبي صلى الله عليه وسلم هوجده من قبل أبيه على كرم الله وجهه ، وقد عاش فى وسط شدائد و محن صقلت نفسه وهذبتها ، ووجد ينابيع العلم فى بيته فاستتى منها ، وهو فوق هذا كله فى مدينة النور : مدينة النبوة التي آوى إليها بقية الصحابة ، وأكثر التابعين عندما اشتدت الفتن فى العراق وغيره من الأقطار الإسلامية . وقد كانت مهد السنن ؛ ومشرق العلم النبوى . . . حتى إن عمر بن عبد العزيز كان يرسل إلى المدينة بسأل التابعين المقيمين بها عن سنن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويرسل إلى بقية الأمصار يعلمها سنن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فى مهد العلم ترعرع الإمام زيد ، وفى البيت العلوى تخرج وتربى ، وبذلك-أنبته الله نباتاً حسناً .

وقد روى عن أبيه علم آل البيت . وإن كتاب المجموع الذى يشتمل على مجموع روايات الإمام زيد ، فيه أحاديث كثيرة تنتهى إلى على كرم الله وجهه عن النبي صلى الله عليه وسلم ، أو تقف عند على ، وكا روى علم آل البيت عن أبيه ، روى عنه أيضا روايات كثيرة عن غير طريق الحسين وعلى . فأبوه قد روى عن كثيرين من التابيين ، ولم يجد فى الرواية عنهم أى غضاضة أو انتقاص لمنزلته بين الناس .

وقد مات أبوه عام ٩٤ ه ، أى وهو فى الرابعة عشرة من عمره ، فتلقى الرواية عن أخيه محمد الباقر الذى يكبره بسن تسمح بأن يكون له أباً ، إذ أن الإمام جعفر الصادق بن محمد الباقر ، كان فى مثل سن الإمام زيد رضى الله عنهم أجمعين .

وما كان من المعقول أن يجمع الإمام زيد \_ وهو في سن الرابعة عشرة \_ كل علم آللبيت ، فلابد أن يكمل أشطره من أخيه الذي تلتى علم أبيه كاملا \_

وقد كان الباقر إماماً فىالفضل والعلم ، وأخذ عنه كثيرون من العلماء ، ورووا عنه ، ومن هؤلاء أبو حنيفة شيخ فقهاء العراق . وقد نال الباقر فضل الإمامة العلمية ، حتى إنه كان يحاسب العلماء على أقوالهم ، وما فيها من خطأ وصواب .

وكان في البيت العلوى ، في عصر الإمام زيد ، عالم فاضل جليل ، تلتي عنه كما تلقى العلماء علمه وشخصه بالإجلال ، وتلقاه العامة بالإكبار ، والأمراء بالإكرام ... ذلكم هو عبدالله بن الحسن ، ابن ابن عم زين العابدين . وقد كان ثقة صدوقاً . وقد تتلمذ له أبو حنيفة ، وروى عنه جمع من المحدثين ، منهم مالك رضى الله عنه ، وسفيان الثورى . وقد وفد على عمر بن عبد العزيز في خلافته فأكرمه ، ووفد على السفاح في أول عهد العباسية فعظمه ، وأكرمه أبو جعفر المنصور في أول خلافته ، ولكنه لما خرج أولاده على أبى جعفر ، حبسه ، حتى مات في محبسه بالغاً من العمر خمسا وسبعين سنة .

تلقى زيد إذن علم آل البيت وغيرهم من تلك الصفوة من علماء العلوبين ، وكان يتلقى من غيرهم من القابعين الذين كانوا يعقدون مجالسروايتهم وتخريجهم وإفتائهم من مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ... وبهذا تخرج في البيت النبوى ، وترعرع في مهد العلم ، مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم .... حتى إذا شدا ، خرج من المدينة النبوية ، وبذلك خالف طريقة أبيه وأخيه ، فإنهما لم يتجاوزا حجزات المدينة إلا إلى مكة حاجين أو معتمرين ، ذلك أن آل البيت بعد مقتل الحسين تلك القتلة الفاجرة .. لم يتجاوزوا حرتى المدينة إلا للحج ، واحتزلوا الناس وسياستهم ، وارتضوا أن يكونوا للعلم خالصين ، يوجهون من واعتزلوا الناس وسياستهم ، وارتضوا أن يكونوا للعلم خالصين ، يوجهون من يجيء إليهم طالبا للعلم ، وينشرون الفقه والحديث ، وبذلك استبقوا سيادة البيت الماشي عن طريق الفكر والفقه والدين .

خرج زيد للملم يطلبه في شتى نواحيه ، وحيثًا وجده . وقد التقى بواصل

ابن عطاء في البصرة ، وتدارس معه مذهب المعتزلة ، ولذا تقاربت آراؤه مع المعتزلة على ما سنبين إن شاء الله تعالى . وقد نمى بذلك ما تلقاه في بيته الهاشمى ، فقد كان فيه علماء في الفقه والآثار ، ومن هؤلاء محمد بن الحنفية ، وهو ابن جده الأعلى ، على بن أبى طالب ، من غير فاطمة رضى الله عنها ، فقد قال فيه الشهرستاني : «كان محمد بن الحنفية غزير المعرفة ، وقاد الفكر ، مصيب الخواطر ، قد أخبره أمير المؤمنين (أي على) من أحوال الملاحم ، وأطلعه على مدارج المعالم وقد اختار العزلة ، وآثر الخمول على الشهرة » (أ).

وقد أخذ زيد ، بعد ما تلقاه هنا وهنالك ، ينتقل في أقاليم العراق و الحجاز ، ويذاكر العلماء ، ثم يمكث أكثر العام بالمدينة ، ويجيئه طلاب العلم من كل مكان يتلقون عنه . وكان عاكفاً — وهو بالمدينة — على قراءة القرآن والعبادة . وكان من أعلم الناس بقراءات القرآن ، و بلغ من العلم الذروة ، حتى لقد قال فيه أبو حنيفة : « شاهدت زيد بن على فما رأيت في زمانه أفقه منه ، وقال فيه ولا أسرع جواباً ، ولا أبين قولا ... لقد كان منقطع القرين » . وقال فيه عبد الله بن الحسن مخاطباً الحسين بن زيد : « إن أدنى آبائك زيد بن على الذى لم أر فينا ولا في غيرنا مثله » .

<sup>(</sup>١) الملل والنحل ج ١ ص ١١٩ هامش القصل .

### زيدفي ميدان العمل

قد اعتزل آل البيت السياسية بالقول والعمل ، حتى إتهم كانوا ينادون الحسكام «ياأميرالمؤمنين»انفاءللاً ذى.وما بتىأكثرهمالمدينة إلا لهذاالاعتزال. وأول من أكثر التنقل في البلاد العراقية والشامية الإمام زيد رضى الله عنه .

ولكن الدعوات الشيعية كانت تنتشر في طول البلاد وعرضهامع اعتزال البيت الهاشي للناس ، وكان اعتزالهم للمتشيعين لهم سبباً في أن ينحرف كثيرون من هؤلاء المتشيعين عن المنهاج الاسلامي السليم في تشيعهم ، فظهر الانحراف ، وقد كان آل البيت كما الثقوا بهؤلاء في المدينة زجروهم وعنفوهم . ولما التتي بهم الإمام زيد في رحلاته، أخذ يبث فيهم الحق، وينهاهم عن الانحراف والدولة الأموبة — وعلى رأسها هشام بن عبد الملك الذي تولى الحكم من عام ١٠٥ إلى عام ١٢٥ كانت تبث العيون ، وتترصد حركات زيد، وذلك لأن الدعوة العباسية التي ابست اللبوس الشيهي ، كانت تسرى في بلادخر اسان وما وراءها . وقد أخذ التظنن بحركات زيد يحرك التهم حوله ، ولكن لادليل عليها ، وزيد لم يظهر الخروج على الحكام، ولم يسم إليه . . . بل إنه كان يقوم عليها ، وزيد لم يظهر الخروج على الحكام، ولم يسم إليه . . . بل إنه كان يقوم على العمل والإرشاد . ولكن إذا لم يكن للاتهام دليل، فالشبه قائمة عند هشام ، وخصوصاً أنه يعلم مكانة آل البيت العلوى في نظر الناس، وقد رأى ماكان من على زين العابدين ، أبى زيد ، في البيت الحرام .

ولم يقف هشام وقفة المترصد فقط ، يل حاول أن يغض من مقام آل البيت وذلك بأن يحمل والى المدينة على أظهارهم مظهر المتنابذين فيا بينهم ، فكان بين زيد رضى الله عنه ، وبعض أولاد عمومته من الحسن بن على ، خصومة فى وقف على بن أبى طالب ، أيهما تكون الولاية له ، فأصر والى المدينة على أن يختصما إليه ، وأن تطول الخصومة ، وهو يجمع أهل المدينة كلمهم ايسمعوا ما يجرى

فى الخصومة من عبارات يجرح بها بعضهم بعضا . . . فأدرك زيد بثاقب نظره ما يريده الوالى بعد أن كانت المدينة كلها تتحدث عما يقال فى الخصومة ، وتنزل . عن دعواه .

ولتترك ابن الأثير يتحدث قليلا في بمض ما جرى في هذه الخصومة ، فهو يقول: « باتت المدينة تغلى كالمرجل، يقول قائل: قال زيد كذا ، ويقول قائل. قال عبد الله كذا : فلما كان الغد جلس خالد (أى الوالى) في المسجد ، واجتمع الناس ، فمن شامت ، ومن مهموم : فدعا بها خالد \_ وهو يحب أن يتشاتما \_ فذهب عبد الله يتكلم ، فقال زيد : « لا تعجل يا أبا محمد . أعتق زيد ما يملك ، إن خاصمك إلى خالد أبدا» . ثم أقبل على خالد فقال له : «أجمعت ذرية رسول الله صلى الله عليه وسلم الله لأمر ما كان يجمعهم عليه أبو بكر ولا عر ؟ » (1)

وكان هـذا حسماً لمـادة الخلاف ، ولـكن الوالى أغرى سفهـاء بعض. الذين يحضرون مجلسه بزيد يسبه ، وزيد يعرض عنه ويقول له : « إنا لا نجيب مثلك » :

وقد اشئد الاحراج لزيد كما خرج من المدينه فقد ذهب مرة إلى العراق > فأكرم وفادته خالد بن عبد الله القسرى . . ولكن هذا الوالى يعزل ، ويجىء من بعده فيتهمه وينهمم يأن خالدابن عبدالله القسرى أو دعهم أموالا ، ويساقون . من المدينة ـ بعد أن آبو إليها ـ للعراق ليستجوبوا في هذه القضية .

وهكذا تتوالى الإحراجات والإهانات والأذى من والى المدينة وغيره حتى فضطر زيد إلى الدهاب إلى حيث يقيم هشام ليشكو الوالى إليه. ولكنه عندما يذهب إلى هشام يحاول هذا أن يذله ، فإنه لما طلب الأذن لم يأذن له «فأرسل إليه ورقة يطلب بها الإذن ، فيكتب هشام في أسفلها : « ارجع إلى منزلك في المدينة » ، وطلب بها الإذن ، فيكتب هشام في أسفلها : « ارجع إلى منزلك في المدينة » ،

<sup>(</sup>١) الكامل: ج ٥، ص ٥.

وتكرر ذلك . وأخيراً أذن له ، فلما دخل لم يفسح له في مجلس ، فجلس حيت انتهى به الجلس ، وقال ياأمير المؤمنين : « ليس أحد بكبر عن تقوى الله ، ولا يصغر دون تقوى الله » ، فقام هشام : « اسكت لا أم لك ، أنت الذى تنازعك نفسك في الخلافة ، وأنت ابن أمة » . فرد عليه زيد رداً رصيناً قوياً » وقال له : « إنه ليس أحد أولى بالله ، ولا أرفع درجة عنده من نبى بعثه ، وقد كان إسماعيل ابن أه ة وأخوه بن صريحة ، فاختاره الله ، وأخرج منه خير البشر وما على أحد من ذلك إذا كان جده رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأبوه على ابن أبى طالب » . كرم الله وجهه فقال هشام : « اخرج » . فقال : «أخرج » أم لاأكون إلا حيث تسكره » !

## الخروج على هشام بن عبد الملك

أوذى زيد فى المدينة وفى العراق ، فلما أرادأن يشكو لهشام أوذى وأخرج موهو حفيد على بن أبى طالب ، ويعرف أن الرجل المكريم يأبى الضيم ، ويقول « لا » بملء فيه . ولذلك لم يكن بد من أن يقول الشاب الهاشمى : « لا » بملء فيه ، ويرضى بالموت بدل الذل ، ويروى أنه قال عندما تقدم للخروج :

بكرت تخوف في المنون كأنني أصبحت عن عرض الحياة بمعزل فأجبتها إن المنبية منهل لا بدأت أستى بكأس المنهل

خرج الشاب مطرحاً كل خوف،طالباً الحق أو الموت ، وأيهما أصاب فهو خير له مما هو فيه ، وقد أخذ يمد العدة المعركة ، فذهب إلى الكوفة مستخفيا، ولكنه استخفاء المعلوم المراقب ، فما كان أمره مجهولا ، وأخذت شيعة العراق تجىء إليه ، وأخذ هو يأخذ البيعة عليهم ، وكانت صيغة بيعته ودعوته (كا جاءت في الكامل لابن الأثير) هي هذه :

« إنا ندعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، وجهاد الظالمين، والدفع عن المستضعفين ، وإعطاء المحرومين ، وقسم هذا النيء بين أهله بالسواء ورد المظالم، ونصر أهل الحق .. أتبايعون على ذلك ؟ » ، فإذا قالوا : نهم ، وضع يده على أيديهم ، وقال : « عليك عهد الله وميثاقه وذمته وذمة رسوله ، لتفين ببيعتى ، ولتقاتلن عدوى ، ولتتنصحن لى فى السر والعلانية » ، فإذا قال المبايع : نعم ، مستح على يده ، وقال : « اللهم اشهد » (1) .

وقد بايمه على ذلك من أهل الـكوفة خمسة عشر ألفاً ، وقد انضم إليهم . شيمة و اسط والمدائن الأخرى ، فبلغوا أربعين ألفاً (٢) .

<sup>(</sup>١) الكامل ص ٦٨

<sup>(</sup>٧) مقاتل المطالبين.

وقد توالت النذر من أئمة آل البيت تحذر زيداً من أن يثق بأهل الـكوفة... والكن حفيد على اعتزم، وأراد العزة أو الموت، فلا يمكن أن ينكص على عقبيه .. بل إنه يسير في المعركة، ويجمع الجوع، ويتفق مع الزعماء على أن يكون. الانتقاض في مستهل صفر عام ١٣٢.

وأنباء زيد ومن يبايمونه تصل إلى وإلى المراق ، وتصل إلى هشام ابن عبد الملك ، فيرسل هشام إلى واليه كتاباً يقول فيه : «إنك لفافل، وإن زيد ـ ابن على غارز ذنبه بالسكوفة يبايع له ، فألح في طلبه ، وأعطه الأمان ، فإن لم . يقبل فقاتله » .

# المعركة والاستشهاد

اشتدت الشديدة ، واتجه والى المراق إلى طلب الإمام زيد ، وكان لابد أن يبدى الإمام صفحته ، لذلك دعا الذين بايموه من أهل العراق ، ولكنهم ما إن رأوا ساعة الفصل حتى أخذوا يتجادلون ، ويجادلونه ، وأثاروا عجاجة من الآراء ، وهم لا يعرفون أن آل البيتلايرونها ، وننقل لك المعاقشة كاروشها كتب التاريخ :

قالوا له : ما قولك يرحمك الله فى أبى بكر وعمر ؟

فقال رضى الله عنه : غفر الله لهما . ما سمعت أحدا من أهل بيتى تبرأ منهما . وأنا لا أقول فيهما إلا خيراً .

فقالوا : فلم تطالب إذن بدم أهل البيت ؟

فقال: إن أشد ما أقول فيمن ذكرتم أناكنا أحق بهذا الأمر ، ولـكن القوم استأثروا علينا به ، ودفعونا عده ، ولم يبلغ الـكفر . . قد ولوا وعدلوا ، . وعملوا بالـكتاب والسنة .

قالوا : فلم تقاتل إذن ؟

قال: إن هؤلاء ليسواكأولئك، إن هؤلاء (أى بنى أمية )ظلموا الماس وظلموا أنفسهم. وإنى أدعو إلى كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، وإحياء السنن، وأماتة البدع، فإن تسمعوا يكن خيراً لسكم ول بر إن تأبر إفار تحديكم بركيل.

فرفضوه وانصرفوا ، ونقضوا بيعته ، وأعلنوا أن الإمام هو جعفر الصادق (١) .

<sup>(</sup>١) ابن كثير : ج ٩ ، ص ٣٣٠

كان هذا الخلاف وقد تأهب جيش بنى أمية ، وأخذ يهاجم زيدا وأتباعه ، فاضطر الإمام أن يقاتل قبل الموعد الذى قدره بشهر . فدعا أتباعه بشعاره ، وهو « يامنصور ، يامنصر » ، فلم يجبه إلا نحو أربعائة — وكان قد بايعه من الكوفة وحدها خمسة عشر ألفاً — وقد ضعف الباقون ، ونكثوا ، وزيد يناديهم : « اخرجوا من الذل إلى العز ، اخرجو إلى الدين والدنيا ، فإنكم لستم في دين ولا دنيا » . ولكن زيدا حفيد على لم يتضعضع ، وإن رأى بوادر المخريمة . . بل قال : « أخاف أن يكونوا قد فعلوها حسينية (۱) . أما والله المزيمة . . بل قال : « أخاف أن يكونوا قد فعلوها حسينية (۱) . أما والله المن حتى أموت ! » .

تقدم عترة النبى صلى الله عليه وسلم ، ومعه عدد كعدد أهل بدر ، وأمامه جيش عدده كشيف قوى ، يجيئه المدد في كل وقت ، وقاتل بهذا العددالضئيل في الحساب . ولسكنه القوى في الميزان . . فاقتتلوا ، وهزموا جناح جيش الأمويين ، وقتلوا منهم أكثر من سبعين رجلا ، وعجز العدو بكثرتهم عن قتال أولئك المؤمنين الصابرين بالسيف ، فاستعانوا بالسمام ، وأخذوا يرمون بها كتيبة الحق ، ونال زيداً سهم في جبهته ، وعند انتزاعه منها كانت منيته ، وبذلك لم يستطيعوا أن ينالوا منه إلا بالطريق التي نالوا بها من جده الحسين ، ولاد على لا يلاقيهم أحد في الميدان إلا صرهوه .

<sup>(</sup>١) يريد أن يغدر أهل العراق هذه المرة كما غدروا من قبل بجده الحسين وخذلوه

## بعد المعركة

كان تصرف هشام وقائده . بعد استشهاد الإمام الشاب ، كتصرف يزيد وابن زياد بعد مقتل الحسين ، فقد نبش قبر زيد ، وأخرج جمّانه الطاهر ، ومثلوا به ، وصلبوه بكناسة الكوفة بأص صريح من هشام بن عبد الملك بن مروان ، وبذلك أثاروا حقد المسلمين ، ولقد قال شاعرهم قولا فاجراً جاء فيه:

صلبنا لكم زيداً على جذع نخلة ولم أرمهديا على الجذع يصلب وبعد أن بقى الجثمان الطاهر مصلوباً أمداً أمر هشام بإحراقه وذروم في الرياح.

ولقد هيأ مقتل الإمام زيد للدعوة العباسية الذيوع والانتشار والتفاف. الناس حولها ، وإذا كان مقتل الحسين قد أطاح بالدولة الأموية السفيانية ، وحل محل بنى سفيان بنو مروان ، فقد أطاح مقتل زيد بالدولة الأموية كلها ، فإنه بعد مضى عشر سنين من استشهاد ذلك البر التقى ، ذهبت الدولة الأموية في الشرق .

ومن حكمة الله تعالى أن نبشت قبور بنى أمية ، وأخرجت بقايا حكامهم وحرقت كما فعل بجثمان زيد رضى الله عنه ، ويقول المسمودى فى ذلك : « حكى الهيشى ابن عدى الطأنى عن عمر بن هانى ، خرجت مع عبد الله بن على لنبش قبور بنى أمية فى أيام أبى العباس السقاح ، فانتهينا إلى قبر هشام فاستخرجناه صحيحاً ، ما فقد منه إلا بعض أنفه ، فضر به عبدالله بن على ثمانين. سوطاً ، ثم أحرقه ، واستخرجنا سليان من أرض دابق ، فلم نجدمنه شيئا إلا صلبه وأضلاعه ، ورأسه ، فأحرقناه ، وفعلنا ذلك بغيرها من بنى أمية » .

و تسترسل . . الرواية في ذكر رمم هؤلاء الحكام واستخراجها وحرقها . . ويقول المسمودي في المبرة : « وإنما ذكرنا هذا الخبر في هذا الموضع لقتل هشام

زيد بن على . وما نال هشام من المثلة ، بميا فعل بجسمه من الاحراق كفعله بزيد بن على » (١) .

ونقول نحن إننا ما سقنا هذا الكلام لنبرر ما فعلد العباسيون بقبور الأمويين وأجدائهم ، فما كان ذلك بسائغ شرعا ، ولكن لنبين العبرة وحكمة الله تعالى . . . فإن الله سبحانه يسلط الظالمين بعضهم على بعض . فأولئك الله الظالمون من الأمويين اعتدوا ، وفجروا وفعاوا ما فعلوا بعترة النبي صلى الله عليه وسلم ، فتولاهم آخرون بمثل ما فعلوا ، وحقت كلة الله : [ وكذلك نولى بهض الظالمين بعضاً بما كانوا يكسبون ] . وهكذا تكون العبرة لأهل الاعتبار .

<sup>(</sup>١) مروج الذهب : ج ٢ ٤، ص ١٨.٢

### صفات زید

بعد أن ذكرنا قصة زيد في ابتدائه وحياته وانتهائه ، لابد أن نتمم تصويره بأوصافه التي اشتهر بها في جيله . . . انه قد اتصف بما انصف به أهل بيت النبوة في ذلك الجيل من خلال سامية رفيعة .

ومن أخص ما اتصف به زيدرضى الله عنه ، الاخلاص فى طلب الحق والحقيقة ، وأن المرء إذا أخلص فى طلب الحق والحقيقة أشرق نور الحسكة فى قلبه ، واستقامت مداركه . . . فلا شىء ينير العقل كالإخلاص ، ولا شىء يطفىء نور الفكر كالهوى .

وقد أخلص زيد فى طلب العلم ، فطلب شتى العلوم . . . طلب علم الفروع فى المدينة وعلم أهل بيته ، وطلب علم أصول الدين ، فانتقل إلى البصرة موطن الفرق الإسلامية ، وبذلك تزود بأكبر زاد من علوم أهل عصره ، وكان فيها كلها الحجة والإمام .

وأولى ثمرات الاخلاص التقوى ، وكان نور التقوى يبدو فى وجهه وعلى السانه وفى أفعاله . وقد قال فيه بعض معاصريه : «كنت إذا رأيت زيد بن على ، رأيت أسارير النور فى وجهه » •

وكان ملازماً لقراءة القرآن أو مذاكرة العلم . وقد قال بعض الذين طلبوا لقاءه : « قدمت المدينة فجملت كلما سألت عن زيد بن على قيل لى ذاك حليف القرآن ، ولقد وصف نفسه بقوله : « إن زيد بن على لم يهتك أله محرماً منذ عرف يمينه من شماله » .

وإن ذلك الإمام التق ليدرك بنافذ بصيرته أن من يتقى الله تعالى يصدقه الناس ويطيمونه ، فيقول رضى الله عنه : « من أطاع الله أطاعه خلق الله »

وقد كان إخلاصه لأمة محمد صلى الله عليه وسلم فى المرتبة الأولى، ولذلك كان يسعى لجمع شمل المسلمين، وإصلاح ما بينهم.

ولقد قال مرة لأحد أصحابه: «أما ترى هذه الثريا؟ أترى أحدا ينالها؟». قال صاحبه، «لا» قال: «والله لوددت أن يدى ملصقة بها، فأقع إلى الأرض، أو حيث أقع، فأتقطع قطعة قطعة، وأن الله يجمع بين أمة محمد (١)» صلى الله عليه وسلم.

ولقد عمل جاهداً فى رأب الثلمة التى صدعها الافتراق ، ورأى أنه لا سبيل لجمع الأمة ، إلا على الكتاب والسنة . . . وقد سعى فى ذلك ، وذهبت نفسه الطاهرة فداء لمسعاه .

وكان من آثار إخلاصة سماحته وعقوه. ولقد دفعه عقوه وسماحته إلى أن ينزل عن حقه كله لابن عمه عبدالله بن الحسن.

ومع هذه السهاحة التي جملت أخلاقه كالروض ، وذلك الاخلاص اذى جمله ينطق بالحكمة . . . كان شجاعا قد آناه الله تعالى الحظ الكبير من الشجاعة الأدبية ، ومثله من الشجاعة فى الحرب و الهمة والمنجدة . وقد دفعته شجاعته الأدبية إلى أن يقول الحق لا يخشى فيه لومة لائم ، حتى فى أحرج الأوقات ، وأشدها حاجة إلى المداراة . لقد تقدم للميدان فجاءه ناس يريدونه على أن ينال من الشيخين أبى بكر وعمر أو لا ينصروه ، فأبى ذلك عليهم . . لأنه لا يسمح لطالب الحق أن يتخذالباطل مطية له . ولقد دفعيه شجاعته الأدبية لأن يطرح مبدأ التقية ، وهو أن يجاهر بآرائه ، ويخفيها خشية الأذى . ولقد كان إعلانه لآرائه سببا فى أن تعرض للأذى ، وسببا فى أن يتخاذل عنه بعض المله .

أما النوع الثانى من الشجاعة وهو الشجاعة في الحرب ، فقد دفعه لأن يتقدم المهدان يقاتل جيشًا كثيفًا ، مكوتًا من أكثر من خمسة عشر ألفًا ، وليس

<sup>(</sup>١) ﴿ مَقَاتِلِ الطَّالِينِ ﴾ لأبي الفرج الأصفهاني ، ص ١٢٩ -

معه إلا عدد كأهل بدر . وقد تبين أنه في الجولة الأولى قد انتصر ، لولا من استمانوا بهم من الرماة .

وإن الشجاعة والإباء متلازمان لا ينفكان ولا يفترقان . وقد كان الإمام زيد شديد الإباء . وإباؤه جمل فيه حساسية شديدة بظلم الظالمين . وما كان يحس بالمظالم التي تقع على آل البيت فقط ، فإن التكريم الذى كان يحقم يذهب بأثر المظالم التي تقع عليهم . . . بل كان بحس بالمظالم التي تنزل بغيره ، وظلمهم ظلم متكانف لا مخفف له ، فكان رضى الله عنه يحس بآلامهم ، وكأنها نازلة به دونهم .

وقد استمر الاحساس بالظلم يجيش في صدره ، حتى تقدم لرفعه . وقد روى . عن بعض مريديه أنه قال : «أردت الخروج للحج ، فمررت بالمدينة ، فقلت : لودخلت على ذيد بن على ! فدخلت فسلمت عليه ، فسمعته يتمثل بقول الشاعر ::

ومن يطلب الجد المقنع بالقِنا يعش ماجدا أو تخترمه الخارم متى تجمع القلب الذكى وصارما وأنفا حياً تجتنبك المظالم وكنت إذا قوم غزونى غزوتهم فهل أنا في ذار آل همدان ظالم؟

و إن هذا الجبر يدل على ماكان ينبعث في نفسه من إحساس بالظلم ... وماكان برضي لنفسه من الشمر إلا الذي يحمله على الأقدام، وقد أقدم، فاحتسب. نفسه، وأرضى ربه، وكشف طغيان الظالمين .

ومع الشجاعة والإقدام كان رضى الله عنه صبوراً غير متململ . والصبر عدة المجاهدين، وهو لازم للشجاعة . . . فالشجاعة من غير صبرتهور، والتهور والشجاعة الحقيقية أمران مختلفان ، وجوهران متباينان .

وإن الصبر في حقيقته يتضمن ضبط النفس ، وقمع الأهواء ، وعدم، الاندفاع إلى مالا يرضى ، ويتضمن تجمل الشدائد ، وقد كيانت هذه الخصال. كلها من أخص ما يتحلى به الإمام زيد رضى الله عنه ، وكان لا يغضب . . . .

ولذلك كان يمالج الأدور بهدوء، حتى إذا انتهت الدراسة إلى الإقدام أقدم غير هياب ولا وجل. وكان يجعل التعتبر شعاره، حتى إنه ليطبع على خاتمه تلك الكامة « اصبر تؤجر ، وتوق تنج ».

وقد ذكرنا فيما قصصنا ضبطه نفسه فى الخضومة ، حتى إنه ليحمله ضبط نفسه على ترك حقه ، وضبطه لنفسه عمن يشتمه ، حتى يكون أقوى ما يقوله له: « إن مثلى لا يرد على مثلك » .

وفوق ما اتصف به من مكارم وخلق فاضل ، قد أوتى وعياً فكرياً قليل النظير . وقد ورث عن أمه - التي كانت سندية - ذكاء وعمق تفكير، وقوة تأمل قد اتصف بها الهنود . . وورث عن آل أبيه الذكاء ، والعقل المتفكر الملهم ، والنفس المتوثبة التي تدفع الفكر إلى العمل ، والاستقصاء في التفكير . ولذلك كان أقوى ما يوصف به ذلك الإمام النابغة ، الوعى الفكرى الكامل . فقد كان ذا ذكاء نافذ لم يهمله حتى يتبدد ، بل انصرف به إلى العلم يطلبه . وقد أوتى ذا كرة تحفظ كل ما يقرأ ويسمع . كان يحفظ أحاديث آل بيته التي يروونها عن على كرم الله وجهه وعن النبي صلى الله عليه وسلم ، وأخذ كل أنواع العلوم عن على كرم الله وجهه وعن النبي صلى الله عليه وسلم ، وأخذ كل أنواع العلوم الإسلامية من ينابيعها . وكان - مع هذه الإحاظة القلمية - ذا بديهة حاضرة في تحضر إليه المعانى عند الحاجة إليها ، وإذا تكلم انثالت عليه انفيالا ، يرد الجواب في أسرع وقت .

وكان وعيه الفكرى يظهر فى أجلى مظاهره فى تعليلة للوقائع ، ورَبطّة بين الأسباب والسببات . . وتلك أخص أوصاف القلل الفلني .

وكان شأنه كشأن علماء البيت الهاشمى، قد أوتى فصاحة السكلم و بالاغة التأثير. قد نشأ في وسط البيان، نشأ في بيت النبي على الله عليه وسلم ، ومن ذرية على ، ومحدد بن عبدالله ضلى الله عليه وسلم ،قد أوتى جو امع الحكلم و فصل الله عليه و سلم، عبد الله عليه و سلم، الخطاب، و على بن أبى طالب أبلغ خطباء العرب بعد الدني صلى الله عليه و سلم، ومجموعة خطب على كرم الله وجهه ، كانت عند علماء آل البيت رضى الله عليه م

أجمين ، وكانوا يتوارثون هذه الجموعة ويحفظونها . ولعل لبابها في ديوان. الخطب الذي جمعه الشريف الرضي ، وسماه « مهج البلاغة » .

وعلى ذلك نقول: إن الفصاحة وجودة البيان كانت فى ذلك البيت الطاهر، وخصوصاً أنهم كانوا يقيمون بالمدينة ، ولم تسر العجمة إليها فى العصر الأموى. كان زيد إذن من أمراء البيان الذين يحسنون القول ، وكان يفضل الكلام الرائع على الصمت . قيل له : « الصمت خير أم البيان ؟ » قال : « قبح الله المساكنة ما أفسدها للبيان ، وأجلبها للعى والحصر ! » . وان هذا الكلام يدل على أنه كان يربى عقله بالعلم ، ويروض لسانه على البيان ، ويتجنب الصمت الكثير حتى لا تموت موهبته البيانية .

وقد عرف بالفصاحة في عصره . . جاء في زهر الآداب للحصرى :

«كان بين جعفر بن الحسن بن على و بين زيد، رضوان الله عليهم ، منازعة في وصية ، فكانا إذا تنازعا انثال الناس عليهما ليسمعوا محاورتهما .. فكان الرجل يحفظ على صاحبه اللفظة من كلام جعفر ، ويحفظ الآخر اللفظة من كلام زيد . فإذا انفصلا ، وتفرق الناس عنهما قال هذا لصاحبه قال في موضع كذا : كذا ، وقال الآخر قال في موضع كذا : كذا ، فيكتبون ما قالا ، ويتعلم وقال الآخر قال في موضع كذا :كذا ، فيكتبون ما قالا ، ويتعلم والنادر من الشعر ، والسائر من المثل وكانا أعجوبة دهرها، وأحدوثة عصرها » (1).

ويظهر من سياق هذه القصة أن الإمامين كانا يتخذان من تلك الخصومة مباراة بيانية .

ولقد كان أشدما يخشاه هشام بن عبد الملك من زيد قوة بيانه وتأثيره و وقد كتب إلى والى العراق عندما علم أن زيداً به : « امنع أهل السكوفة من حضور مجلس زيد، فإن له لسانا أقطع من ظبة السيف، وأحد من شبا الأسنة مـ

<sup>(</sup>١) زهر الآداب : ج ١ ، ص ٧٧

وأبلغ من السحر والسكمانة ، وكل نفث في عقدة » (١).

وإن الذين يتصدون للقيادة الفكرية أو السياسية أو الاجتماعية لا بد أن نكون لهم فراسة قوية تدرك الأمور على وجهها . وقد تأتى المقادير بغير ما يقدرون ، ولا ينقص ذلك من قوة إدراكهم ، ويقظة إحساسهم ، وأخبار زيد تدل على أنه كان قوى الفراسة وأن قوة الفراسة تتكون من قوة العقل، وقوة الإحساس وقد اجتمعت هاتان في الإمام زيد ، فهو عميق الفكرة ، شديد الحساسية . ولم تذهب فراسته وهو في الميدان ، فقد رأى تخاذل أهل الكوفة ، فقرر أنها مسينية ، ولم تخطئه فراسته يوم أن خرج من حضرة هشام ، وهو يعلم أنه قاتلة أو تاركه ذليلا مهينا .

وقد يقول قائل: كيف يكون قوى الفراسة وقد وثق بأهل العراق مع ما حذره منهم بعض آل البيت ، وما يعلم من تاريخهم . والجواب عن ذلك أن فراسته لم تفته ، ولذلك احتاط من غدرهم ، فبايعهم في المسجد ، وهو يعلم أن البيعة لا تمنعهم من تخاذل في وقته ، ولكنه كان يعلم أن الذلة مع البقاء أشد على نفسه من الموت في ميدان القتال ٥٠ ومع ذلك قد ثبت أن القتال كان في جانبه ، لأن أهل الشام لم يكونوا على عزيمة تسمح لهم بالنصر مع تكاثر جمهم ، وبداذلك عندما التق الجمان ، ولم ينقذهم إلا النبل الذي اتخذوه سلاحاً ، وكان أمر الله قدراً مقدوراً .

ولقد كان زيد مهيبا في شخصه ، قد آتاه الله تعالى بسطة في الجسم بمقدار ما آتاه بسطة في العلم ، وقوة في العقل ، وحكمة في الفعل ، وحياء الملائكة ، و إن أدل شيء على هيبته فرار هشام بن عبد الملك من لقائه ، ولما أراد أن يهينه نال من

<sup>(</sup>١) زهر الآداب : وظبة السيف حده القاطع ، وشبا الرمح كذلك والكهانة ماكان يؤثر به الكهان من سجع يدعون فيه علم الغيب . ونفث العقدمن عمل السحرة.

أمه كا يتكلم السفهاء ، وقد رد عليه ردا أفحمه ، فلم يجد هشام إلا عبارات يمليها السلطان الغاشم ، ولحكن لا تقوى على الوقوف أمام الشخصية القوية المهيبة ، وإن مها بثه كانت تقوم مقام جيش لجب ، فسكان إذا تقدم للميدان يشبه جده على بن أبى طالب إذا تقدم ٠٠٠ فيجند الشام يفرون أمامه ، كما فروا أمام جده على كرم الله وجهه ، ولم يذالوه إلا بسهم من بعيد ، حيث بعدوا عن هيبته وسطوة شخصيته .

وفى الجملة كان ذلك الإمام الشاب العابغة مرموقاً ، مرعى الجانب ، معترفاً له بأكرم الخلال . كان الإمام زيد أول إمام من آل البيت بعد مقتل الحسين رضى الله عنه ، يُخرج إلى الناس حاملا رأياً يدعو إليه ، منتهجاً لنفسه سبيلا في الدعوة ٥٠٠ وأبوه قد اتصل بالناس اتصال عون ورفق بضعفائهم مع علم الدين ، وأخوه الأكبر الإمام محمد الباقر قد عكف في بيته على دراسانه . أما زيد فقد خرج من المدينة إلى الأقطار الإسلامية حاملا آراء وعلماً : فله آراء في السياسة خاص في بيانها، وله آراء في أصول الدين دافع عنها ، وله فقه عظيم ، وروايات فقهية كان جعمها وله آراء في أصول الدين دافع عنها ، وله فقه عظيم ، وروايات فقهية كان جعمها تسيحيلا لروايات آل البنت .

#### في السياسة:

كان تضييق فكرى على أتباع الإمام على رضى الله عنه بعدمة إلى والشقد الشضييق والكبت العقلى بعد مقتل الإمام الحسين رضى الله عنه ، فكان ذلك سبباً فى أن فرخت آراء فى أكنة من الظلام ، ولم تخرج للمناقشة والتمحيص ، فتبلورت آراء حول الخلافة قوامها أن الخلافة بالوراثة لا بالاختيار ، وأن علياً أوصى إليه بها بالشخص لابالوصف، وأن أبا بكر وعمر قد اغتصبا الخلافة منه وأنهما بهذا يستحقان السب واللهن فى زعمهم ، وأن علياً والأثمة من ذريته وأنهما بهذا يستحقان السب واللهن فى زعمهم ، وأن علياً والأثمة من ذريته الغاطميين معصومون عن الخطأ ، وأن هناك مهدياً منتظراً يقيم الحق ، ويخفض الباطل فى آخر الزمان ، وأن ثمة فى هذه الدنيا رجعة لأئمة الخير وزعماء الشر .

فلما خرج الإمام زيد من معتمكف آل البيت بالمدينة ، أخذ يضحخ هذه الأفكار ، ويردها إلى الحق الذي يعتقده الأظهار من آل البيت .

فصحح الفكرة حول الشيخين أبى بكر وعمررضى الله عنهما، ولم يعتبر الخلافة وراثة خالصة بمعنى أن الخليفة لا يكون إلا علوياً ... بل اعتبر الخليفة العلوى حو الخليفة الأفضل، وأن علياً رضى الله عنه لم يوض إليه بالخلافة بالشخص،

بل بالوصف ، لأنه كان أفضل الصحابة ، ولا يمنع ذلك أن يتولى غيره إذا كان في ولايته مصلحة للمسلمين مادام عدلا يقيم الحق ، ولذلك أقر إمارة أبى بكر وعمر رضى الله عنهما ، لأنهما قاما بالحق والعدل ، والمصلحة كانت توجب توليتهما ، وإن كان على أفضل منهما في نظره . ولننقل للك كلامه في هذا كما، جاء في « الملل والنحل » للشهر ستاني :

ه كان على أفضل الصحابة ... إلا أن الخلافة فوضت إلى أبى بكروعمر رضى الله عنهما لمصلحة رأوها ، وقاعدة دينية راعوها ، من تسكين الرة الفقنة ، وتعليب قلوب العامة ... فإن عهد الحروب التي جرت في أيام النبوة كان قريباً وسيف أمير المؤمنين عن دماء المشركين من قريش لم يجف بعد ، والضفائن في صدور القوم من طلب الثأر كما هي . . . فما كانت القلوب تميل إليه كل الميل، ولا تنقاد له الرقاب ، كل الانقياد ، وكانت المصلحة أن يكون القيام بهذا الشأن لمن عرفوا باللين والتودد ، والتقدم بالسن . والسبق في الإسلام ، والقرب من رسول الله صلى الله عليه وسلم . . ألا ترى أنه لما أراد أبو بكر في مرضه الذي مات فيه تقليد الأمر إلى عمر بن الخطاب ، صاح الناس وقالوا : لقدو ليت علينا وفظاً غليظاً ، فما كانوا يرضون بأمير المؤمنون عمر الشدة وصلابة وغلظ له ، وفظاً غليظاً ، فما كانوا يرضون بأمير المؤمنون عمر الشدة وصلابة وغلظ له ،

وإن هذا الكلام بدل على أنه لا يعتبر الخلافة بالوراثة فقطولا بالأنضلية بل يراعى مع هذا مصلحة المسلمين وعدالة الوالى ، ويسمى ذلك إمامة المفضول ، فإنه يولى إذا كانت عنده كفاية وعدالة ، وكانت مصلحة العامة في توليه . وبذلك ينظر إلى المصلحة الحقيقية لا إلى المصلحة المفروضة . . ذلك أن الذين . قصروا الخلافة على البيت العلوى ، واعتبروا غيرها باطلة ، فرضو اللصلحة المطلقة المفروضة في هذه التولية . أما الإمام زيد رضى الله عنه ، فإنه ينظر مع العدالة والنقوى إلى المصلحة الحقيقية الواقعة لا المصلحة المفروضة .

ولم يرو عن الإمام زيد رضى الله عنه أنه قال: إن الأثمة معصومون عن. الخطأ، وإن المعروف عنه غير ذلك. إذ أن فرض العصمة من الخطأ أن يكون. توليهم من النبى ضلى الله عليه وسلم بوحى أوحى إليه، وأن حكمهم كان بوحى. أو إلهام يلهمونه، وما قرر زيد أن الوصية لعلى نقسه كانت بالشخص، بل كانت بالوصف. . . ولأن النبى صلى الله عليه وسلم ما كان معصوماً عن الخطأ إذا كان ما يقوله باجتهاده، وقد خطأه الله في مسألة أسرى بدر.

فلا شك أن رأى زيد هو أن الأئمة غير معصومين عن الخطأ ، ولكن جاء الزيدية بعد الإمام زيد ، فقرروا العصمة لأربعة من آل البيت هم : على كرم الله وجهه، وفاطمة رضى الله عنها ، والحسن ، والحسين ، وذلك لأن النبي صلى الله عليه وسلم باهل بهم النصارى عند مانزل قوله تعالى : [ إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ، ثم قال له كن فيكون ، الحق من ربك فلا تمكن من المقرين . فمن حاجك فيه من بعد ماجاءك من العلم ، فقل تعالوا ندم أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم ، وأنفسنا وأنفسكم ، ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على السكاذبين ] . ولما باهل بهم كان لا بد أن يكونوا معصومين ، ليكون لهم مزيد فضل على سائر آل بيته ، إذ جعلهم في منزلة نفسه .

وقد قررت الشيعة الزيدية التي رفضت إمامه الشيخين أن هناك مهدياً منتظرا ، وبنوا ذلك على أن لآل البيت ميزة خاصة ، وأن الخلافة بالورائة، وأن الإمام قد يكون مستوراً مختفياً ، وفهموا ذلك مما روى عن على رضى الله عنه أنه قال: «لابد من قاتم لله بحجة إما ظاهراً مشهوراً ، وإما خفيا مستوراً». والخنى المستور يعيش ما شاء الله أن يعيش، حتى يظهر و يعلن الحق ، وهو المهدى المنتظر.

والإمام زید رضی الله عنه لا یجیز أن یکون الإمام مستورا ، بل لابد. أن یخرج داعیاً لنفسه ، و إذا لم یکن عنده إمام مستور ، فلا یتصور أن یکون عنده مهدی منتظر . ولا رجعة عنده إلا يوم البعث ، إذ يبعث الله تعالى من فى القبور جميماً ، و تسكون القيامة والحساب ، والعقاب والثواب.

هذا رأى الأمام زيد، ولكن الجارودية قد قالوا إن الإمام محمد بن الحسن المسمى « النفس الزكية » الذى قتله أبو جعفر المنصور — وهو من خلفاء زيد عقد الزيدية ـ « سيمود هاديامهديا ، يملاً الأرض عدلا ، كاملت جوراوظاما».

ولم يخالف الجارودية الإمام زيد فى فَكرة المهدية والرجمة فقط . . . بل خالفوه أيضاً فى تأييد خلافة أبى بكر وعمر رضى الله عنهما ، ورفضوا ولايتهما ومع هذا الاختلاف يسمون زيدية ، ويدرجون فى ضمن الفرق الزيدية .

ومن مظوى النكلام السابق يدّبين أن الإمام زيدا يشترط لصحة إمامة الإمام أن يخرج داعيا لنفسه ، و إن ذلك مبنى على فكرتين :

إحداها: أن الإمام — ولوكان الأفضل الذي يكون من أولاد على من خاطئة الزهراء — لا بد أن يختاره أهل الحل والعقد ، ويلاحظوا في اختياره المصلحة ، ولا يتم ذلك الاختيار إلا إذا أعلن مريد الخلافة نفسه ، وبين أحقيته .

التانية: أنه لا يقتبر الخلافة بالوراثة المجردة كما أساننا ، فلا بد من الدعوة بعد كونه من آل البيت بالشرط الذى ذكرنا ، وهو كونه من أولاد على كرم الله وجهه من فاطمة رضى الله عنهمنا ... إذ لوكانت الخلافة فى نظره بالوراثة أو الوصية من غير الله الخليفة كما تثول الملسكية بالوراثة أو الوصية من غير طلب ، فالإمام زيد برفضه نظرية الوراثة فى الخلافة الإسلامية ، قد أتوجب على الفاضل من ذرية فاطمة إظهار نفسه ، لينظر الناس فى مدى المصلحة فى توليه ، وللموازنة بينه وبين غيره فى أمهما أصلح .

والأفضلية في الخلافة عند الإمام زيدلن يكو نون من أولاد فاطمة رضي الله عنها من الله و دلامن البطون، لافرق بين أن يكونو امن ذرية الحسين أو ذرية الحسن، وبذلك

اختلف الزيدية عن الامامية، لأن الإمامية يشتر طون أن تكون من ذرية الحديث. في أصول الدين:

التقى الإمام زيد بواصل بن عطاء معاصره ، والذي كان في مثل سنه . وكان لقاؤها بالبصرة وغيرها . وكان واصل رأس الممتزلة في ذلك الوقت . وقد ادعى الشهر ستانى أن زيدا تتلمذ لواصل ، ونحن نوى أنهما تذاكرا مسائل الاعتقاد ، وما أثير حول الجبر والاختيار ، وحول مرتكب الكبيرة في ذلك الإبان . وقد أثر عن الإمام زيد آراء في أصول الدين تتقارب مع آراء المتزلة ، أو تتحد معيا في كثير منها .

وأول مسألة كانت مثارة فى ذلك المصر مسألة مرتكب الكبيرة: أهو كافر، أم فاسق، أم منافق، أم مؤمن كامل الإيمان؟ وقد أثار هذه المسألة موقف الخوازج من التحكيم الذى جرى بين إسام الهدى على كرم الله وجهه وبين معاوية، فقد كفروا من حكم، وقالوا لا حكم إلا لله ، وأخذوا يضجون بأن مرتكب الذنب كافر. فنظر العلماء فى هذا القول ، فقال الحسن البصرى إن مرتكب الكبيرة منافق ، يظهر غير ما يبطن، وقال جمهور العلماء إنه فاسق وأمره إلى الله ، وقال المرجئة لا يضر مع الإيمان معصية ، كا لا ينفع مع المكفر طاعة . وقال الممتزلة إنه فى منزلة بين المنزلتين ، وإنه محلد فى المنار ما لم يتب . وقد واقتهم الإمام زيد رضى الله عنه فى أن مرتكب المكبيرة فى منزلة بين المنزلتين ، وله تعالى بمقدار ما أذنب .

وترى أن مذهب زيد فى هذه المسألة هو الوسط المعتدل ، بين تطرف. الخوارج — ويقاربهم الحسن البصرى — وتفريط المرجئة . وأساس مذهبه أن الإيمان حقيقة ثابتة إذا وجدت استلزم وجودها العمل حمّا ، فإذا لم يصحبه العمل كان ذلك دليلا على عدم وجوده . . ولـكن قد يكون مسلما ، والعذاب المخلد يكون للكافر الذى حكم الله تعالى بكفره .

وهذا النظر، وهو كون الإيمان يستلزم العمل، يتفق مع نظر بعض الفلاسقة الشرقيين الذين يقررون أن الإخلاص فى طلب الحقيقة يدفع إلى المعرفة المستقيمة ، والمعرقة المستقيمة يكون معها الإيمان الصادق ، والإيمان الصادق يستلزم حما العمل الصالح والسلوك المستقيم . . . فهى كلها نقط فى خط مستقيم واحد ، يبتدىء بالإخلاص ، وينتهى بالعمل الصالح .

وقد جرى فى عصر الإمام زيد رضى الله عنه الكلام فى القدر ، ثم السكلام فى الجبر والاختيار ، وتكونت فرق تتجاذب النزعتين . . فكانت الجهمية ترى أن الإنسان ليسله إرادة حرة مختارة ، بل هو فى أفعاله كالريشة تحركها الريج، ونسبة الأفعال إلى الإنسان ليست على الحقيقة ، بل لأنها قامت به ، كا يقال مات زيد ، ونبت الزرع ، وجرى الماء ، وتحرك الشجر ، وأينم الثمر . . . وما لشيء من هذه الأشياء اختيار فها ينسب إليها ، وعلى ذلك القول يكون التسليم بالقدر تسليا مطلقا .

وبجوار هؤلاء كان القدرية الذين ينفون القدر ، ويقولون إن الإنسان حر مختار يفعل ما يريد ، ويقع في ملك الله تعالى مالا يريد . ولم يقدر الله في الأزل شيئا ، بل الأمر أنف ، أي يقدر الله الشيء وقت وقوعه .

نظر زيد إلى هذه الآراء فوجد الأول يؤدى إلى إسقاط التكليف ، إذ لا الله الله الله الله الله الأزلى ، وتقديره الأزلى ، ويخالف نصوص القرآن القاطعة ، مثل قوله تعالى : [والله بكل شيء عليم] ، وقوله سبحانه : [وكل شيء عنده بمقدار ، عالم النيبوالشهادة الكبير المتمال]. وانجه بعد النظر إلى رأى وسط ، لا يهدم التكليف ، ولا يعطل صفات وانجه بعد النظر إلى رأى وسط ، لا يهدم التكليف ، ولا يعطل صفات الذات العلية ، فقرر وجوب الإيمان بالقضاء والقدر ، واعتبر الإنسان حراً بختاراً في طاعته وعصيانه ، وأن المعصية ليست قهرا عن الله ، فهو يريدهاوإن كان لا يحبها ولا يرضاها ، وبذلك فصل بين الإرادة ، والحبة والرضا . . .

خالمصية تقع من العباد في دائرة قدرة الله تعالى و إرادته ، ولسكنه لا يحبها من عبده ولا يرضاها ، فإن الله لا يرضى لعباده السكفر .

والإنسان فيما يفعل يكون فعله بقوة أودعها الله تعالى وبإرادته ، ولكنه لا يحبها من عبده ، التي بها يعمل مريداً مختاراً ، طائعاً أو عاصياً .

وهذا الرأى هو رأى أئمة البيت، وهو يفترق عن رأى الممتزلة فى نقطة حوهرية، هى أن الممتزلة يرون أن إرادة الله تعالى وأمره متلازمان، فإذا أمر بأمر فعمل العبد على خلاف، فقد وقع الأمر على خلاف إرادة الله تعالى، وعلى خلك تكون أفعال العصاة بغير إرادة الله تعالى ..

أما الإمام زيد وأئمة آل البيت فأنهم يرون أن إرادة الله قد تنفك عن أمره فالعبيد إذا عصوا أمر الله فبإرادته سبحانه ، ولكن الحبة والرضاها اللذان لا يفترقان عن الأمر ، فإذا خالف المصاة الأمر ، فقد خالفوا ما يحب الله تعالى ويرضاه ... فالأمر دليل الرضا والحبة وليس دليل الإرادة .

وقد جرى فى هذا العصر الذى عاش فيه الإمام زيد ، الكلام فى البداء . وذلك أن المختار الثقفى كان يسجم سجم الكهان ؛ ويدعى الإخبار عن المستقبل، فإذا جاء الأمر على خلاف ما أخبر قال قد بدا لربكم . فالبداء تغيير علم الله تعالى ؛ وهذا يتقارب مع الذين نفوا علم الله الأزلى . . فإن هؤلاء ؛ وأن أثبتوا لله علماً فد قالوا : إنه علم قابل للتغيير ، وهو يقارب نفى العلم .

وقد خالف الإمام زيد هذا كله، وقرر أن لله تعالى علماً أزلياً قديماً ، وأن كل شيء بتقديره سبحانه ، وأنه من النقص في علم الله تعالى أن يكون علمه متغير ا. وأن تتغير إرادته لتغير علمه . وقد كتب سبحانه في لوحه المحفوظ كل ما سيقع من العباد . وما ينزله بهم . وعلمه تعالى الأزلى وإرادته الأزلية الباقية لا ينافيان اختيار العبد . والدعاء لا يغير المقدور، ولكنه يظهره ويكشفه، فالله سبحانهقدر في علمه الأزلى الدعاء وإجابته، وقوله تبيالى: [ يمحو الله ما يشاء ويثبت ] هو للدلالة على الإرادة الحرة المختارة التي تقهر كل شيء، وليس فوقها شيء. . فلا إرادة . فوق إرادته، وقد أحاط يكل شيء علماً .

وهذا الرأى بوافق رأى كثيرين بن الإمامية ، وعليه جمهور علماءالسلمين ، والله بكل شيء مجيط .

#### فقه\_\_\_ه

كان الإمام زيد فقيها ومحدثا، وعالما بقراءات القرآن، له منزلة بين العلماء والقراء، حتى إن المؤرخين وصفوا معركته التى كانب بينه وبين جند هشام ، أنها معركة المحدثين والقراء والفقهاء .

وقد نقل فقهه وحديثه تلاميذه الذين تلقوا عليه ، وكان من أكثر الفقها والمحدثين تلاميذ . . فقد كان مقصداً لطلاب الفقه والحديث بالمدينة ، كا كان أبوه وأخوه من قبله ، وقد تنقل في مدائن العراق : البصرة ، والكوفة ، وواسط ، وكان حيثًا حل يذاكر التلاميذ والعلماء والقراء .

# المجموع :

وقد اختص أحد تلاميذه بأن دون كتابين قد روى مافيهما عنه ، وها يه مجموع الحديث ، ومجموع الفقه ، ويسمى كلاها المجموع الكبير .. وذلك النامية الذى روى المجموعين أو المجموع السكبير ، هو أبوخالد عمرو بن خالد الواسطى ، الماشمى بالولاء ، وقد مات فى الربع الثالث من القرن الثانى . وكان أبو خالد هذا يلازمه فى رحلاته ، كا لازمه أمداً طويلا وهو بالمدينة ، و بذلك كان له فضل ملازمة على سائر تلاميذه الذين تلقوا عليه .

وقد تلقى أكثر العلماء من الزبدية الحجموع الكبير بالقبول ، ولكن طعن فيه بعضهم وكثيرون من غيرهم ، ويقوم الطعن فيه على الأسس الآتية .

أولها — أن أبا خالد قد اتهم بالوضع من بعض كبار علماء السنة، فالنسائي قال : ليس بثقة ، ولا يكتب حديثه . واتهم بأنه ممن يبالغون فى الثنساء على آل البيت ، وأن بعض ما رواه قد ثبت ضعفه .

( ٣٤ - تاريخ الداهب)

ثانيها - أنه هو الذي تفرد برزاية المجموع ، ولوكان المجموع معروفًاعن الإمام زيد لاشتهر ، ولكثر رواته كموطأ الإمام مالك .

ثالثها -- أن الذهبي ادعى أن فى المجموع أحاديث مروية بطريق على كرم الله وجهه ، ثبت أنها ليست صحيحة النسبة إليه ، وأن ذلك يزكى قدح القادحين فى الراوى ، ويجمل النسبة كلما موضع شك .

هذه خلاصة موجزة أشد الإيجاز لوجوه الطمن ، ولكنها وافية شاملة لأقوى ما طمنوا به .

وقد رد الذين وثقوه بأن أبا خالد قد وثقه أكثر الزيدية ، وروى عنه بعض علماء السنة ، وأن الطمن الذي وجه إليه طمن مطلق ، والطمن المطلق الذي لا يستند إلى سبب ممين لا قيمة له عند علماء الرواية والدراية . فن يرى إنساناً بأنه فاسق من غير أن يذكر سبب الرمية ، كلامه رد عليه ، ويفسق هو دون من أتهمه والطمن المسبب يرفض إذا عارضه توثيق ينفي السبب ، فن أنهم إنساناً بترك الصلاة ، يقدم عليه من زكاه بأنه يقيم الصلاة . وعلى ذلك يكون الطمن في أبي خالد غير مقبول .

واتهامه بالمبالغة في الثناء على آل البيت غير مقبول ، لأنه اتهام يقوم على المذهبية ، والاتهام بسبب المذهبية لا يطمن في الراوى ، على أن الزيدية يعتبرون ذلك تزكية وايس طعناً ، ولو سمعه أبو خالد لقال : «تهمة لا أنفيها ، وشرف لا أدعيه » .

وقد كان الشافعى بروى عن بمضالذين تكلموا فى القدر على مذهب القدرية ، مم أنه يرى ذلك بدعة . وقد قيل له : كيف تروى عنه وهو قدرى ؟ فقال الشافعى الفقيه المدرك : « لأن يجر إبراهيم (وهو القدرى) من بعد أحب إليه من أن يكذب » .

والطمن بانفراد أبى خالد برواية « المجموع » مدفوع ، لأن الانفراد بجمعه وتدوينه لا يقتضى أن ما اشتمل عليه كان غير معروف عند الآخرين ، ولأن علاميذ زيد قد تفرقوا في البلاد عقب مقتله ، فكان انفراد أحدهم بالجمع غير غريب ، ولأن تلاميذ زيد \_ وخصوصاً أبناءه \_ بعد أن اطلعوا عليه ، أقروا ما فيه ، فسقطت دعوى الانفراد . وإن الذين جمعوا الفقه في المذاهب كانوا منفردين بالجمع . . فالإمام محد بن الحسن الشيباني انفرد بجمع كتب الفقه العراقي في كتبه المستة السهاة ظاهر الرواية ، وهي : الأصل ، والجامع الصغير ، والجامع الكبير ، والسير المحبير ، والريادات ، مع أنه لم يلتق بأبي حنيفة أكثر من بأربع سنين . وكان معه من التلاميذ من التقوا به مدة أطول ، وفي سن أنضج .

والمدونة انفرد پروايتها عن مالك سحنون ، مع أنه لم يلتق به ، ورواها عن تنلميذه عبد الرحمن بن القاسم .

والشافعي انفرد برواية كتبه في بغداد الزعفراني روى عنه كتابه القديم . وانفرد برواية كتبه في الفسطاط الربيع بن سليمان المرادي ،روى عنه كتابه الجديد.

على أن العلماء قد تلقوا « المجموع » فى كل الأجيال بالقبول ، وذلك دافع السكل شك: . لأن الشك فيما يتلقاه العلماء بالقبول من غير دليل قطعى ، هدم السلسلة العلمية الق تربط قديم العلوم بحديثها .

والطعن باشتمال المجموع على أحاديث نسبت إلى على كرم الله وجهه ، والنسبة فيها غير صحيحة ، لايعتمد على أساس سليم .. لأن الأحاديث التى ادعيت فيها هذه الدعوى ؟ قد ثبت أنها رويت عن على أو عن غيره فى كتب السنة ، وعلى فرض سلامة الدعوى فإن مجموعة من الأحاديث فيها بعض قليل ثبت عدم محته ، لا يطعن فى المجموعة كاما ، فصحيح البخارى — وهو أصح كتب السنة

إسناداً - فيه أحاديث لم تثبت صحتها ، ولم يطمن ذلك في سلامة صحيح البخاري في مجموعه .

كيف دون الجموع» ؟

إن الفروض العقلية التى نتصورها لتدوين « المجموع » ثلاثة : أولها أن. يكون الإمام زيد قد دونه بقلمه ، ونقله عنه أبو خالد . والثانى أن يكون قد أملاه عليه ، كا فعل الشافعي في إملائه بعض كتب الأم ، والثالث أن يكون قد روى عن الإمام زيد مجموعة الأحاديث ، ومجموعة الفقه ، ثم دونها ورتبها .

وَ إِنَا نَسْتَبَهُ لَا الْأُولُ لَأَنَ الْمُصَرِ لَمْ يَكُنَ عَضِرَ تَلُويِنَ كَامَلَ ، وَلَأَنَ أَبَا خَالِس لَمْ يَدَعَ ذَلِكَ ، والحِمْوعَ لَا يَدَلِ عَلَيْهِ . وكذلك يُسْتَبَهُ لَا الثّانِي لأَن نَصُوصِ الْجَمْوعِيُ تخالفه ، إذ أن نصوصه تدل على أن أبا خاله أخذه بالرواية ، لا بالإملاء .

ولذلك نقول إن الفرض الثالث هو الذي يتفق مع ما في المجموع ، لأن المبارات تومىء إليه ، فني رواية الحديث يقول : « حدثني زيد بن على ». وفي الفقه يقول : سألت زيد بن على » .

و إن أنمة الزيدية تدل عباراتهم على أن الجمع والتدوين لأبى خالد ؛ ولذلك قال الإمام أبو طالب الناطق بالحق فى هذا البكتاب : « المجموع الذى جمعه أبو خالد ، ورواه عن زيد بن على مشهور معروف » . فالتعبير عن عمسل أبى خالد بأنه جمعه يدل على أنه لم بكن إملاء من الإمام زيد ولا تدوينا .

والمجموع المطبوع في مصر مكون من المجموعين الحديثي والفقهى ، وقد رتب بترتيب كتب الفقه : فابقدأ بالطهارة ، ثم العبادات ، ثم البيوع . . . إلى آخر لأبواب الفقهية . وقد مزج في كل باب منه الأحاديث الواردة فيه بالفقه المأثور عن الإمام زيدرضي الله عنه .

وهنا يتساءل القارىء : أكان هذا الترتيب من عمل أبى خالد أم من عمل الذين جاءوا بمده ، وغيروا فى ترتيبه وتبويبه ولم يغيروا فى أصله ومتنه يمد

كما فعل بعض الرواة لسكتب الإمام محمد بن الحسن الشيبانى ؟ ونقول فى الجواب عن ذلك: إن نصر بن مزاحم تلميذ أبى خالد تلقاه مبوباً ، ويقول العلماء: إن التبويب كان من عمل أبى خالد نفسه . وليس لنا أن ننقض كلامهم مادام لم يقم دليل قطعى يناقضه ، فإننا نتلقى بالقبول ما يتلقاه العلماء بالقبول .

ولكن الذى يذكره المؤرخون أنه كان هناك مجموعان : أحدها للحديث والآخر للفقه . ويبدو من السياق التاريخي أن كليهما مستقل عن الآخر . . . والمطبوع الآن قد اندمج كلاها في الآخر في كل باب ، وإن هذا يدل على أن التبويب لم يكن في عهد أبي خالد . . . وقد يرد ذلك ويزيل الشك أن يكون أبو خالد دمجهما بعد أن دونهما منفصلين ، أو يكون قد دون كل واحدمنهما منفرداً أبو خالد دمجهما بالقائم ، وجاء من بعده ، فجمعهما ، ووضع كل باب مع ما يفاظره ونرجح الأول ، فإن الحديث ممتزج بالفقه ، فليس الحديث مذكوراً أولا ، والفقه ثانياً في كل باب ، بل الموضوع الواحد قد اختلط فيه الفقه بالحديث .

## ظواهر عامة في فقه زيد وحديثه

يلاحظ في الروايات الثابعة في كتاب المجموع عن الإمام زيد ، أنها كلما عن طريق آل البيت ، فيقول : «روى زيد بن على عن أبيه عن جده عن على أن النبي صلى الله عليه وسلم قال . . . أو أنه قال » . وهذا يفيد أن السكتاب كل ما فيه من حديث عن طريق آل البيت ، وليس معنى ذلك أن زيدا لم يأخذ إلا عن آل البيت ، بل الثابت أنه هو وأباه من قبله ، كاناحر يصين على أن يأخذا عن التابعين ، وقد كانا يختلطان بهم يأخذان عنهم و يعطيابهم ، فهو بلا شككان على علم بالروايات الأخرى التي رويت عن غير طريق آل البيت . وقديسال سائل: لماذا اقتصر على ذكر ما روى عن آل البيت ؟ ولعل الجواب عن ذلك هو حرصه على نشر أحاد بث آل البيت خشية اندارها ، وجهل الناس بها .

وإنه بالموازنة الدقيقة بين الأحاديث المروية في المجموع عن طريق الإمام، زيد ، والأحاديث الثابتة في السنة لا نجد في المجموع شاذاً عن الأحاديث المروية في صحاح السنة . . . وقد قام بهذه الموازنة شارحه في كتاب روض النضير على المجموع الكبير ، فلا يكاد يجد القارىء حديثاً في المجموع ليس له عدة شواهد. من كتب السنة المعروفة عند جمهور للسلمين .

وإن الزيدية لذلك يصححون ما يصح من كتب السنة ، ويحتجون بمافيها ، ويقتبسون منها . ولم يضعوا محاجزات بينهم وبين علماء السنة ، فهم يقبلون روايات المخالفين لهم إذا كانوا عدولا ، كا يقبلون المدول من الزيدين على سواء ، فلم يقيموا شقة فارقة بين رواتهم ورواة غيرهم كما فعل الإمامية ، إذ هؤلاء لا يقبلون رواية الفساق من موافقهم !

وفقه زيد لهذا قريب كل القرب من فقه الأئمة الأربعة .

ولقد عنينا بأخذ نماذج من كتاب المجموع، ووازنا بينها وبين فقه المذاهب الأربعة ، فانتهينا إلى قرب المذهب الزيدى من المذاهب الأربعة ، لا فى الحلول التى انتهى إليها ، بل فى المقدمات التى بنيت عليها الحلول، وإن هذا يصور بلاشك أن النبع الذى نبعت منه الآراء واحد، وهو كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، ويدل أيضاً على أن ذلك الإمام الجليل ، والذين نهجوا منهاجه من بعده ، لم يبعدوا عن منهاج أكثر علماء المسلمين فى عصر التابعين ومن جاء بعده .

والخلاصة أن المأثور من آراء الإمام زيد لا يخرج عن آراء فقهاء الأمصار في الجلة ، وهي إن خالفت رأى إمام تتفق معرأى إمام آخر ، ولا تخرج في جملتها عن مجموع آرائهم .

ومنهاج الإمام زيد في الاستنباط لا يبعد أيضاً عن منهاج الأئمة الذين. عاصروه كأبي حنيفة ، وعبد الرحمن بن أبي ليلي ؛ وعثمان البتي ، وابن شبرمة ،

والزهرى ، وغيرهم من أئمة الفقه والحديث الذين أظلتهم للدينة أو أظلهم المراق.

فهو يأخذ بالكتاب والسنة ، ويجتهد رأيه ، إن لم يجد نصاً من كتاب أو سنة ، ويعتبر من السنة أقوال على بن أبى طالب رضى الله عنه التي لم تكن بالرأى ، وقد يخالف المروى عنه ، فنجده قد خالف المروى عن الإمام على كرم الله وجهه فى أخذ الزكاة سن أموال اليتامى . . . فقد روى عن على كرم الله وجهه أنه أفتى بأخذها ، والإمام زيد لم يأخذها من اليتامى ، وأنكر نسبة هذا إلى على رضى الله عنه .

ومع أن زيداً رضى الله عنه كان يلتزم منهاجاً معيناً في استنباطه الآراء الفقهية التي كان ينتهى إليها، لم يؤثر عنه لا بالنص ولا بالرواية له كلام في هذا المنهاج. وليس هو بدعا في ذلك، فإن الفقه كان مقصوراً على الإفتاء في المسائل الواقعة ، أو المسائل المتوقعة عند فقهاء العراق ، ولم يتصد إمام لبيان منهاجه بياناً كاملا يصح أن يعتبر أصول الاستنباط عنده . فأ بو حليفة ومالك وأبو يوسف ومحمد بن الحسن والأوزاعي وغيرهم ، لم يبينوا مناهيج الاستنباط التي كانوا يتبعونها ، ولكن استنبطت مناهيجهم من الفروع التي أثرت عنهم .

وكذلك الإمام زيد رضى الله عنه قد جاء المجتهدون فى مذهبه من بمده ، واستنبطوا من الفروع التي أثرت عنه ، وأثرت عن غيره بمن جاءوا بعده ، أصولا سموها أصول أثمة الزيدية أو أصول الفقه الزيدى .

وإن الزيدية يقررون من الأصول ما يقرره أكثر الفقهاء ، فهم يأخذون بالكتاب أولا ، ثم بالسنة ثانياً . ونصوص الكتاب مرانب، والسنة مراتب ، ونصوصها مراتب، ويؤخرون أفعال النبي صلى الله عليه وسلم وتقريراته ، لأن الألفاظ دلالتها على الأحكام الشرعية أوضح وأبين .

فإن لم يكن كتاب ولاسنة يكون الفياس ، ويدخلون في القياس الاستحسان .

والمصالح المرسلة (١٦) . ثم بعد ذلك بجىء العقل ، فما يقر العقل حسنه يكون مطاوباً ، وما يقر العقل قبحه يكون منهياً عنه ، وذلك إذا لم يوجد أى سبيل من سبل الاستدلال غيره .

### عمل المقل:

و يجرنا الـكلام في هذا إلى عمل العقل في المذهب الزيدى ، و نقول في ذلك إن المذهب الزيدى قريب في العقائد من مذهب المعتزلة الذين كانوا يجعلون للمقل السلطان الأكبر في فهم العقائد ، وقد جعلوا أيضاً للعقل سلطانا في فهم الشريعة و تطبيق أحكامها ، إذ جعلوا للعقل سلطاناً في الحكم بحسن الأشياء وقبحها ، وما يحكم بحسنه يكون مطلوباً ، وتركه بوجب العقاب . وما يحكم بقبحه يكون منهياً عنه ، وفعله بوجب العقاب ، والعقاب في الحالين هو العقاب الأخروى . وقالوا : إن العالم يحكم حيث لانص من كتاب أو سنة ، وألنى المعتزلة بذلك وقالوا : إن العالم يحكم حيث لانص من كتاب أو سنة ، وألنى المعتزلة بذلك القياس والاستحسان — وغيرها من ضروب الاستنباط — بالربط بين الوقائم التي لا نص فيها .

والزيدية أخذوا بهذا المذهب، وهو أن العقل له سلطان في الحكم على الأشياء بالحسن والقبح، وما يتبعذلك من الوجوب والنهى والثواب والعقاب...

<sup>(</sup>۱) القياس معناه إثبات الحسكم فى أمر غير منصوص على حكمه ، لمشابهته لأمر آخر منصوص على حكمه بوجود علمة جامعة بينهما كإثبات حكم التحريم فى عصيرالقصب المتخمر المسكر ، وإن كان غير منصوص على تحريمه ، للنص على تحريم الحمر ، والعلمة الإسكار . والاستحسان أن يتعارض قياسان : أحدها ظاهر ضعيف التأثير ، والآخر خفى قوى التأثير ، فيؤخذ بالحفى ، وهذا الضرب من ضروب الاستحسان هو الذى يعد من القياس .

والمصالح المرسلة هى المصالح المتفقة مع مقاصد الشارع ، ولا يشهد لهمانص خاص بالإلغاء أو الإثبات .

ولكنهم لم يجعلوا حكم العقل بعد النصوص مباشرة ، بل أخروه عن القياس بكل ضروبه ، والإجماع . ولقد قال فى ذلك صاحب الكاشف: «إذا عدم الدليل الشرعى من الكتاب والسنة والإجماع والقياس بشتى ضروبه ، كان دليل العقل ، فإذا عدمت هذه الأدلة عمل بدليل العقل، أى ما يقتضيه من حسن وقبح ، فن شرط العمل به عدم الدليل الشرعى » (1) .

وإن من ضروب القياس عند الزيدية المصالح كما أشرنا من قبل، فإذاكان الدليل الشرعى يشملها ، لم يكن ثمة فراغ يشغله الدليل المقلى الحجرد فحكم المقل وإن ذكر أصلا لا يحققه الواقع . . . لأنه مامن واقعة إلا أمكن إخضاعها لحسكم الدليل الشرعى الواسع الذي يشمل النصوص ومواضع الاجماع ، والحمل على النصوص ، ومقاصد الشريعة العامة من جلب المصالح ودفع المضار .

## الفقه الزيدى بعد الإمام زيد:

تضافرت عدة أسباب فجعلت المذهب الزيدى نامياً متسعاً ، و نجملها في ثلاثة: أولها — وجود أثمة أكثرهم من آل البيت ، وهؤلاء اجتهدوا فيه، وقد وافقوا الإمام زيداً في أكثر ما وصلوا إليه من حلول للمسائل ، وخالفوه في كثير . وآراؤهم أضيفت إلى المذهب فوسعته .

ثانيها — وجود المذهب فى عدة أماكن متنائية الأطراف، وكل إقليم له بيئة تخالف بيئة الإفليم الآخر والمذاهب كالماء الجارى يحمل من الأرض التى يمر بها خواصها، فيحمل من كل بلد عرف أهله وعاداتهم وتقاليدهم فيا لانص فيه . ثالثها — فتح باب الاجتهاد فى المذهب الزيدى . وكان من الاجتهاد فيه اختيار ما يستحسن من حلول فى المذاهب الأخرى . . . المذاهب الأربعة

<sup>(</sup>١) « الـكاشف في الأصول » مخطوط بدار المكتب المصريه، ورقة رقم ٣٩ .

المشهورة فى الأمصار وغيرها . وقد صار المذهب بهذا الاختيار حديقة غناء ... تلتقى فيها صور الفقه الإسلامى المختلفة وأغراسه المتباينة ، وجناه المختلف الألوازير والطموم ، ولا بد أن نشير بكامة لـكل واحد من هذه الأسباب .

إنه منذ استشهد الإمام زيد جاء بنوه و ذريته فخلفوه في القيام على تركته الفقهية المثرية . ومن هذه الذرية الطاهرة : أحمد بن عيسى بن زيد، وقد أقام بالمراق ، والتقى بتلاميذ أبي حنيفة ومن جاء بمدهم ، وقد أخذ من العراقيين . الفقه التقديرى ، وهو فرض مسائل لم تقع ، وبيان حكمها . . . وذلك منهاج قد اتخذه أبو حنيفة نفسه ، وقال عنه إنه استمداد للبلاء قبل وقوعه، وقد اتجه أحمد بن عيسى إلى باب من الكتابات الفقهية كان قد جد ، وهوقرن الأحكام الجزئية بأداتها من الكتاب والسنة والقياس، ودون ذلك في كتاب ماه «الأمالي» .

ولم يقتصر الاجتهاد فى المذهب الزيدى على الأثمة من ذرية الحسين ، بل. اجتازهم إلى الأثمة من ذرية الحسن . . . لأن زيداً رضى الله عنه أيجعل الخلافة . مقصورة على ذرية الحسين ، بل جعلها فى الأفضلية عامة لأولاد الزهراء جميعاً .

ومن هؤلاء القاسم بن إبراهيم الرسى الحسنى ، وهو إمام كبير له طائفة. تسمى القاسمية ، وله آراء قيمة ، واطلاع على المذهب الحنفى ، واختيارات كثيرة منه . وكانت ولادة القاسم هذاعام ١٧٠ ه ، ووفانه بأراضى الرس القريبة من المدينة عام ٢٤٢ ه . وإن مذهب القاسم وتخريجاته واختياراته مدونة فى كتيب الفروع بالمذهب الزيدى ، ولها شأن بالهين .

ولقد جاء بعده حفيده الهادى إلى الحق يحيى بن الحسين بن القاسم الذى ولد بالمدينة عام ٢٤٥ . وقد عقدت له الإمامة بالهين ، إذ وجد الراشدون من أهل الهين أنه الإمام الذى يستطيع أن يجمع شمل الهينين ، وأن يحارب بهم البدع التي كانت منتشرة ، ومنها مذهب القرامطة .

وكان للهادى جهاد واجتهاد . فأما جهاده فقد كان في أمرين :

أولهماجهاده في جمع شمل المين والبلاد المحيطة به، وقد تم له أكثر مراده في ذلك و ثانيهما أن الله ابتلاه بأن ظهر القرامطة في عصر ه ببدعهم و فوضاهم ، وقد أبلى في ذلك هو و بنوه من بعده بلاء حسنا ، وقد أصيب بجراح ومات متأثراً بها راضياً مرضيا عنه عام ٢٩٨ ه. وقد أثم بنوه من بعده مابداً في هذا فانتصر و العليم نصراً مؤذرا .

وأما اجتهاده فقد كان فى ثلاثة أمور: فى إقامة الحدودالتى كانت قد عطات، وفى توزيع المدل بين رعيته ، حتى كان شعاره الذى بقوله: « أقدمكم عندالعطاء قبلى ، وأتقدم عليكم عند لقاء عدوى وعدوكم» واجتهاده الثالثكان فى الفقه ، فله فيه آراء قيمة ، وأصول أضيفت إلى المذهب الزيدى . . . وكان كثير الاختيار من المذهب الحنفى ، حتى إن الإمام الناطق بالحق المتوفى ٤٧٤ ه ، الذى جم فقه الهادى ، كان يرى أنه إذا لم يوجد نص على مسألة قد أثرت عن المادى ، أو تخريج على نص روى عنه ، يكون مذهبه مذهب أبى حنيفة فى هذه المسألة وأشباهها .

ويلاحظ أن الناطق بالحق كان —وهو يتتبع آراء الإمام الهادى ويدونها — يفعل ذلك وهو بطبرستان والمذهب الحنفى يجاوره فيها ، فكان العلاج مناسبًا للأرض والبلاد ، إذ المذهب الحنفى كان سائدًا فيها .

والهادى له فرقة قائمة تسمى الهادوية .

وبينما كان الهادى يثبت دعائم مذهبه المنشعب من مذهب الإمام زيد ــ باليمن وما جاورها ، وبلاد الحجاز وما والاها ، فقد كان هنالك ببلاد الديلم وجيلان إمام حسينى هو أبو محمد الحسن بن على ، ويلقب بالناصر الكبير ، ويسمى الأطروش لطرش أصابه .

فقد هاجر إلى هذه البلاد وأهلها على الشرك ، فدعاهم إلى الإسلام ، ومن دخل فى الإسلام شرح له أصوله على مقتضى المذهب الزيدى ، فنشر الفقه الزيدى، وكان مجهداً فيه . ويعد الناصر هذا محيى المذهب الزيدى من الركود بعد توالى الاضطهاد، واستشهاد المحتبرين من آل البيت . وقد ولد الناصر عام ٢٣٠، وتوفى عام ٣٠٤. فكان ظهوره أسبق من ظهور الهادى، وعاش بعده، إذ مات في نحو الرابعة والسبعين، بينما الهادى مات في نحو النالثة والخمسين.

وكلام كان بعيد الهمة ، له حسن أرب فى السياسة والقدرة على البناء وكان كلام فقيها عالما ، وقد قال شيخ معمر عاصر هم والتقى بهما: «ألفيت الهادى كواد عظيم عريض الحافة مستطيل ، وألفيت الناصر للحق كبحر زاخر بعيد الغور والعمق » .

ويظهر أن الناصر كان أكثر إحاطة علمية ، والهادى كان أكثر فقها . . ولذلك قال على بن العباس عنهما : « كان الهادى فقيه آل محمد ، وكان الناصر عالم آل محمد» .

ومن هذا السياق التاريخي يتبين أن المذهب الزيدى شرَّق وغرَّب ، فسكان في الحجاز وما حوله ، وفي المراق وما حوله ، وفي اليمن وما حوله . وقد حل من كل بلد لونه ، وعالج عاداته وأعرافه . ويلاحظ أنه مع تباعد الأقطار الذي حل فيها ، ونموه بتباعدها . كان أثمته على اتصال، فلم تنقطع الصلة بين الناصر والهادى ، ولا بين العلماء من بعدها . فالمراسلات والاتصالات الفكرية كانت مستمرة .

وجاء الذين جموا الفقه من بعد ذلك ، فجمعوه بمزوجاً متحداً غيرمتفرق.

هذا وإن المذهب الزيدى لا يزال باب الاجتهاد مفتوحاً فيه ، والاجتهاد .
واضح أنه في الفروع لا في الأصول الفقهية ، ولذلك نرى أنه ليس إاجتهاداً .
مطلقا ، ولكنه اجتهاد فيه انتساب للمذهب، وربما ضاق الآن حتى صار اجتهاداً

فى المذهب (١) لا يأتى الخلف بما يخالف أقوال الأئمة ، ولكنه يخرج على أقوالهم ، وولكنه يخرج على أقوالهم ، وقد يختار من المذاهب الأخرى .

والباب عندهم مفتوح للأخذمن السنة كارواها أثمة آل البيت ، وكارواها عماعة أهل السنة . كما أن الباب عندهم مفتوح للأخذمن المذاهب . فمذهب الزيديين مذهب جامع ، وليس بمقصور على اجتهاد الإمام زيد .

و يلاحظ أنه فى المعاملات يتلاقى مع مذهب أبى حنيفة كثيراً. والسبب هو أن أبا حنيفة نفسه التقى بالإمام زيد ، وأخذ عنه وذاكره ، وأن المذهبين تلاقيا فى بلاد ما وراء النهر ، فأخذكل منهما من الآخر ، وأن بعض نقلة الفقه الزيدى كان يأخذ من المذهب الحننى حيث لا نص فى الزيدى ، والله سبحانه وتعالى أعلم.

(١) المجتهد المنتسب هو المجنهد الذي قد يخالف الإمام في الفروع ، ولا يخالفه في الأصول .

والهجهد في المذهب لا يخالف الإمام في الغروع ولا في الأصول ، ولكن يغرع. على آرائه .



onverted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الإمام جعفر الصادق



## الإمام جعفر الصادق

#### من سنة ٨٠ إلى ١٤٨

#### بيتسسه

فى آخر القرن الأول الهجرى ونصف القرن الثانى ، كان البيت العاوى مصدر النور والعرفان بالمدينة المنورة ، فإنه منذ نكبة الإسلام بمقتل الشهيد ، ابن الشهيد ، وأبى الشهدا ، الحسين بن على رضى الله عنهما ... انصرف آل على إلى العلم النبوى يتدارسونه ، وفيهم ذكاء آبائهم ، وهداية جدم ، والشرف الماشمى الذى علا بهم عن سفساف الأمور ، فاتجهوا إلى معاليها وبعدوا عن المسياسة ... وقد ذاقوا مرارتها ، ولم يعرفوا حلاوتها ... وتوارثوا ذلك الاتجام العلمي ، فورثوا الإمامة العلمية فيه كابراً عن كابر .

فعلى زين العابدين كان إمام للدينة نبلا وعلماً ، وكان ابنه محمد الباقر و ريثه في إمامة العلم ، ونبل الهداية . . . فكان مقصد العلماء من كل بلاد العالم الإسلامى ، وما زار أحد للدينة إلا عرج على بيت محمد الباقر يأخذ عنه . وكان ممن يروره من يتشيعون لآل البيت في السر ، ومن نبتت في نفوسهم نابتة الانحراف ، إذ فرخت في خلايا الكتمان الذي ادرعوا به ، آراء خارجة عن الدين ، فكان يصده ، و يردهم منبوذين مذءومين .

وكان يقصده أئمة الفقه الإسلامى ؛ كسفيان النورى ، وسفيان بن عيينة ، وأبى حنيفة شيخ فقهاء المراق . وكان يرشد من يجىء إليه . ولنذكر مناقشة جرت بينه وبين فقيه العراق أبى حنيفة فى أول لقاء بينهما فى المدينة ، وكان أبو حنيفة قد اشتهر بـكثرة الرأى فى الفقه .

قال محمد الباقر: أنت الذي حولت جدى وأحاديثه بالقياس؟

فقال أبوحنيفة: اجلس مكانك ، كما يحق لك ، حتى أجلس كما يحق لى ، فإن لك عندى حرمة كحرمة جدك صلى الله عليه وسلم في حياته على أصحابه ، فإن لك عندى حرمة كرمة جدك صلى الله عليه وسلم في حياته على أصحابه ،

فِلس ، ثم جنا أبوحنفة بين يديه ، ثم قال: إنى سائلك عن ثلاث كلات فأجبنى : الرجل أضعف أم المرأة ، فقال الإمام محمد الباقر : المرأة ، فقال أبوحنيفة : كم سهم المرأة ؟ فقال الباقر : للرجل سهمان ، وللمرأة سهم ، فقال أبوحنيفة هذا قول جدك عليه الصلاة والسلام ، ولو حولت دين جدك لكان ينبغى فى القياس أن يكون للرجل سهم وللمرأة سهمان ... لأن الرأة أضعف من الرجل .

ثم قال أبوحديفة: الصلاة أفضل أم الصوم؟ فقال الإمام الباقر: الصلاة أفضل. قال أبو حديقة: هذا قول جدك ، ولو حولت قول جدك لكان القياس أن المرأة إذا ظهرت من الحيض أمرتها أن تقضى الصلاة ، ولا تقضى الصوم ، ثم قال سائلا الإمام الباقر: البول أنجس أم النطفة ؟ قال البول أنجس قال : فلو كنت حولت دين جدك بالقياس ، لكنت أمرت أن ينتسل من البول ، ويتوضأ من النطفة ، ولكن معاذ الله أن أحول دين جدك بالقياس . فقام محمد فعانقه ، وقبل وجهه وأكرمه .

ومن هذا الحديث تنبين إمامة الباقر للعلماء ، يحاسمهم على ما يبدر منهم ، وكأنه الرئيس يحاكم مر وسيه ، ليحملهم على الجادة وهم يقبلون طائمين تلك الرياسة .

وقد كان رضى الله عنه يجل الصحابة ، ويختص بفضل من الإجلال الشيخين أبا بكر وعر رضى الله عنهما ، وبقول فى ذلك أثابه الله تعالى : همن لم يعرف فضل أبى بكر وعمر فقد جهل السنة » . ولقد قال لأحد أصحابه ، وهو حابر الج. فى : « ياجابر بلغنى أن قوما بالعراق يزعمون أنهم يحبوننا ، وبتناولون أبا بكر وعر رضى الله عنهما ، ويزعمون أنى أمرتهم بذلك ، فأ بلغهم أنى إلى الله منهم برى و والذى نفس محمد بيده لووليت لتقربت إلى الله تعالى بدمائهم ... لا نااتنى شفاعة محمد صلى الله عليه وسلم إن لم أكن أستغفر لها ، وأترحم علمها . إن أعداء الله لغافلون عنهما .

ولقد كان رضى الله عنه مفسراً للقرآن ، ومفسراً للفقه الإسلامي ، مدركا

حكمة الشريمة ، فاهما أجل الفهم لمراميها . وكان الراوية للأحاديث. . . روى أحاديث آل البيت ، وروى أحاديث الصحابة من غير تفرقة .

ولكال نفسه ، ونور قلبه ، وعظمة مداركه . . . نطق بالحسكم الرائمة ، مورويت عنه عبارات في الأخلاق الشخصية والاجتماعية ، ما لو نظم في سلك التسكون منه مذهب خلق سام يعلو بمن يأخذ به إلى مدارج السمو الإنساني . ومن ذلك قوله : « ما دخل قلب امرى وشيء من الكبر ، إلا نفض من عقله مثل ما دخله » ، ومنه وصيته لابنه جعفر : « يا بني إياك والكسل والضجر ، مثل ما دخله » ، ومنه وصيته لابنه جعفر : « يا بني إياك والكسل والضجر ، مثل ما دخله » ، وقوله : « وإذا رأيتم القارى و (أى العالم ) يحب الأغنياء فهو صاحب دنيا ، وإذا رأيتموه يلزم السلطان من غير ضرورة فهو لص » .

وكان يرى أن طلب العلم ، مع أداء الفرائض ، خيرمن الزهد ، ويقول فى ذلك رضى الله عنه : « والله لموت عالم أحب إلى إبليس من موت سبعين عابدا » . ولقد مات محمد الباقر عام ١١٤ هـ . وذكر أبو الفداء فى تاريخه أنه مات فى أول عام ١١٥ هـ .

هذا هو الإمام محمد الباقر ، الذي وصف سهذا الوصف ، لأنه بقر العلم وشقه ، ونفذ إلى أقصى الغايات فيه . وهو أبو صاحب الترجمة جمفر رضى الله عنهما . . . ومن حال الباقر نعرف إلى أي سلالة ينتمي ابنه ، فإن القدوة — فوق الشمم و لإباء . وطيب الأرومة ، والانصر اف إلى طلب الحقيقة — ذات أثر في اتجاه الذاشيء إلى السامى من الخصال والسامى من الفعال .

وإن ذلك الرجل العظم \_ وهو محمد أبو جعفر \_ قد اختار عشيرته كريمة من كرائم العرب، وهي أم فروة بنت القاسم بن محمد ابن أبى بكر حفيدة أبى بكر الله عنه فالتقت في جعفر شجاعة على كرم الله وجهه ، وفداء الصديق التقى في دمه على المبقرى ، وأناة الصديق وصبره ، ولقد قال في ذلك

الشهرستاني صاحب « الملل والنحل » : هو (أي جعفر ) من جانب أبيه منتسب إلى شجرة النبوة ، ومن جائب الأم ينتسب إلى أبي بكر رضي الله عنه »...

مولده ونشأته :

من هذين الأبوبين الكريمين كان جعفر الصادق رضى الله عده وعن آله الكرام؛ وفي النبع الصاني من علم آل محمد عليه الصلاة والسلام ترعرع ونما موفى ظل ذلك البيت الكريم عاش: وقد اتجه منذ نمومة أظافره إلى العلم كشأن. أهل البيت في ذلك الابان، وقد رأى مع ذلك جده القريب علياً زبن العابدين الذي كان مل الأبصار والقلوب في بلاد الحجاز كلها والذي كانت الجوع تنزاح بين يديه من غير سلطان ولا حكم ، إلا حكم الشرف والغضيلة وكريم الخصال.

وقد اختلف فى و لادة الإمام جعفر الصادق ، فقيل إنه ولد عام ٨٠ للمجرة ، وقيل إنه ولد عام ٨٠ للمجرة ، وقيل إنه ولد قبل التاريخين ، وأرجح الروايات أوسطها وهى أنه ولد عام ٨٠. فهو قد ولد فى السنة التى ولد فيها عمه زيد بن على رضى الله عنهما ، وهى السنة التى ولد فيها أبوحنيفة فقيه المراق على أرجح الروايات ... ويكون حيننذ قد مات جده على زين المابدين ، وهو فى الرابعة عشرة من همره ، وقد استيقظ فكره ، ويكون فى نشأته الأولى قد اغترف من منهاين عذبين ، ها جده على زين العابدين ، وأبوه محمد ، وكلاها كانا على فضل منهاين عذبين ، ها جده على زين العابدين ، وأبوه محمد ، وكلاها كانا على فضل منهاين عذبين ، و تذاكره العلماء .

وقد نشأ رضى الله عنه بالمدينة حيث العلم المدنى ، وحيث كانت آثار السحابة رضى الله عنهم بها قائمة وحيث أكابر النابعين يتحدثون، ولاشك أنه كان يأنس بجده ، إذ كان رضى الله عنهم ينشى مجالس المحدثين من التابعين كولا بجد غضاضة في أن يأخذ عنهم علم جده النبي صلى الله عليه وسلم ... فقد كان علمه صلى الله عليه وسلم علم بين أسحابه أجمعين ؛ وأحاديثه صلى الله عليه وسلم علمه صلى الله عليه وسلم الله عليه و الله و ال

عندهم جميماً ، قد ينيب بعضها عن بعضهم ، ولا يغيب كلها عن كلهم ، فلا يمكن أن يكون ثمة حديث قاله النبي صلى الله عليه وسلم يغيب عنهم أجمعين ، لأنه إذا جهله بعضهم علمه الآخرون .

ومن يريد علم الرسول يأخذه من كل مظانه ، فلا فرق بين مكان ومكان . وإن أولئك العلمية من ذرية على رضى الله عنه قد انصر فوا إلى العلم انصر افاً كلياً ، والعلم يحمل النفس على التطامن لطلبه ، ولو صور العلم رجلا لكان رجلا منثو اضعاً . ومن المستحيل أن تأخذ العزة بالإثم أبناء مدينة العلم فلا يظلبوا العلم من مصادره ، ويتلقوه عنى العلمية من التابعين .

وقدكان يماصر الإمام جعفرا فى أثناء تلقيه وأخذه شهاب الزهرى، وغيره من فقهاء التابعين بالمدينة الذين أخذوا عن عمر وتلاميذ عرمن الصحابة. وإن بعضهم كانت له صلة ببعض أهل بيته ، فابن شهاب الزهرى كان ذا صلة خاصة بالإمام زيد الذى كان فى مثل سن الإمام جعفر رضى الله عنهم أجمعين . فلم يكن علم آل البيت منقطعاً عن علم التابعين ، بل كان متصلا به ، يأخذ آل البيت عنهم ، ويأخذون هم من آل البيت الكرام ، وكلهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم ملتمس .

ولا بدأن نشير هذا إلى أمر له صلة ببيت جعفر رضى الله عنه ، وهو أن أمه كانت بنت القاسم بن محمد . . والقاسم بن محمد هو الذى تربى فى حجر عائشة رضى الله عنها همته ، وهو الذى روى منع بعض الموالى حديثها ، وهو أحد الفقهاء السبعة الذين حماوا العلم المدنى إلى الأخلاف ، وآل علم الكثيرين منهم إلى مالك ؛ ودون كثيراً منه فى موطئه ؛ فكان العلم المدنى فى بيت جعفر منهم إلى مالك ؛ ودون كثيراً منه فى موطئه ؛ فكان العلم المدنى فى بيت جعفر منهم إلى مالك ؛ ودون كثيراً منه فى موطئه ؛ فكان العلم المدنى فى بيت جعفر منهم إلى مالك ؛ ودون كثيراً منه فى موطئه ؛ فكان العلم المدنى فى بيت جعفر منهم ألله عنه .

وإن كل تابعي كان يدون ما يصل إليه من أحاديث؛ ويلقيها على الرواة عنه . وإن جَمْعُر أُدركُ جُدهُ أَبا أَمْهُ ، ولا بد أنه أخذ عنه ، وآل إليه

علمه ، فقد توفى وجمة رفى سن ناضجة قد شدا فى العلم وترعرع ، وصار يعطى بهد أن كان يأخذ . . . فقد مات القاسم رضى الله عنه عام ١٠٨ ، والقاسم هذا حلل علم عائشة أم المؤمنين كما نوهنا ، وأخذ عن ابن عباس ، وقد كان على رضى الله عنه وكرم الله وجمه يعتبر أباه محمد اكابنه ، إذ احتضنه بعد أن تزوج أمه أرملة أبى بكر الصديق .

والقاسم مع روايته للحديث عن عمته ، وعن كبير الهاشميين بعد السبطين الحسن والحسين عبد الله بن عباس . . . كان فقيها ناقدا للحديث في متنه يعرضه على كتاب الله تعالى والمشهور من السنة ، فاجتمع له الفقه والحديث . ولقد قال فيه تلميذه أبو الزناد عبد الله بن ذكوان : « ما رأيت فقيها أعلم من القاسم ، وما رأيت أحداً أعلم بالسنة منه » مع عظيم تدينه وفقهه العميق ، وروايته الدقيقة ، وكان رضى الله عنه فيه همة وكياسة واعتزام للأمور ، ولذلك روى مالك أن عمر بن عبد العزيز قال : « لوكان لى من الأمر شيء لاستخلفت أعيمش بني تيم » وهو القاسم .

هذا هو الجد الذي عاش وجعفر بشدو في طلب العلم ، حتى بلغ فيه درجة العالم الذي تسير إليه الركبان ، ويتحدث بفضله وعلمه علماء المسلمين في مشارف البلاد الإسلامية ومغاربها .

استنو جعفر الصادق يطلب العلم ويسير فيه ، ومات أبوه وهو فى الرابعة والثلاثين ، أو الخامسة والثلاثين ، على اختلاف الروايات فى ذلك ، وقد بلغ أشده ، وقارب الأربعين ، ونال علم السنة وعلم الفقه ، وكان معنياً كل العناية بممرفة آراء الفقهاء على شتى مناهجهم ليختار من بينها المنهاج القويم .

ويروى فى ذلك عن أبى حنيفة الإمام أنه قال: « قال لى أبوجعفر المنصور يا أبا حنيفة إن الناس قد فتنوا بجعفر بن محمد ، فهيء له من المسائل الشداد » فهيأت له أربدين مسألة » . والتق الإمامان بالحيرة فى حضرة المنصور ، ويقول أبو حنيفة في هذا اللقاء: « أتيته فدخلت عليه ، وجعفر بن محمد حالس عن يمينه فلما بصرت به دخلني من الهيبة لجعفر الصادق بن محمد مالم يدخلني لأبي جعفر المنصور، فسلمت عليه، وأوماً فجلست ، ثم التفت إليه وقال: يا أبا عبد الله هذا أبو حنيفة ، فقال : نعم، ثم النفت إلى فقال: يا أبا حنيفة ألق على أبي عبد الله من مسائلك ، فجملت ألق عليه فيجيبني ، فيقول : أتم تقولون كذا ، وأهل المدينة يقولون كذا ، ونحن نقول كذا . . . فربما تابعنا ، وربما تابعنا ، وربما تابعنا ، وربما تابعنا ، وربما أخل منها بمسألة » ما أخل منها بمسألة » ما أبو حنيفة : « إن أعلم الناس أعلمهم باختلاف الناس »

وقد صدق أبو حديفة فيما قال ، لأن العلم باختلاف الفقهاء وأدلة آرائهم ، ومناهج استنباطهم يؤدى إلى الوصول إلى أحكم الآراء ، سواء أكان من بينها أمكان من غيرها... فيحرج من بعد ذلك بالميزان الصحيح الذي توزن به الآراء ، ويخرج بفقه ليس بفقه المدينة ، وهو لون آخر غيرهما ، وإن كانت كلها في ظل كتاب الله تعالى ، وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ،

## علمه بالكونيات

قال ابن خلسكان في « وفيات الأعيان ، عند السكلام في جعفر الصادق : « أحد الأثمة الاثنا عشر على مذهب الإمامية . وكان من سادات أهل البيت ، ولقب بالصادق لصدقه في مقالته ، وفضله أشهر من أن يذكر...وكان تلميذه جابر بن حيان الصوفي الطرطوسي ، قد ألف كتاباً يشتمل على ألف ورقة ، تتضمن رسائل جعفر الصادق ، وهي خسمائة رسالة ، ودفن بالبقيع في قبر فيه أبوه محد الباقر ، وجده زين العابدين ، وعم جده الحسن بن على، عليهم السلام ، فلله دره من قبر ما أكرمه وأشرفه ، (١) .

وإن هذا الكلام يدل على أمرين: أحدهما أنه تتلمذ له جابر بن حيان، وهو صاحب عادم الكيمياء وله عدة رسائل في الكون والمقائد، والكيمياء، والأسر الثاني الذي بدل عليه هذا الكلام: أنه نشر خسما أة رسالة هي لجعفر الصادق، ولكن في ذلك نظر، فإنه لو كانت الرسائل المنسوبة لجابر هي لجمفر المنسبها إليه صراحة . . . فقد كان جابر فيه تشيع، وما كان من المعقول أن ينقل كلام أكبر الأئمة العلويين في عصره من غير أن ينسبها إليه، ولكنه قال إنها كانت بتوجيهه وإيحائه وهدايته .

ومهما يكن مقدار الصحة في نسبة هذه الرسائل إلى الإمام جعفر، فإنه يبدو أن الإمام اشتغل بهذه العلوم ، إذ أن الإمام رضى الله عنه كان عنده من الذكاء والقوة النفسية ما يجعله يتجه إلى طلب المعرفه من أى نوع ، ومن أى ناحية . وعندنا الكثير من الأدلة التي تثبت أنه كان على علم بالكونيات ، وكان يتخذ من ذلك ذريعة لمعرفة الله تعالى ، وإثبات وحدانيته ، وهوفى ذلك يتبع منهاج الفرآن الذى دعا إلى التأمل في الكون وما فيه . و اقرأما جاء في رسالة التوحيد له

<sup>(</sup>١) وفيات الأعيان ج ١ ص ١٠٥ .

عن الشمس والليل والهار ، والظلمة والنور ، ولننقله مع طوله :

« فكرفى طاوع الشمس وغروبها لإقامة دولتى النهار والليل ، فاولاطاوعها المطل أمر العالم كله ، فلم يكن الناس يسمون فى معايشهم، ويتصرفون فى أمورهم، والدنيا مظلمة عليهم ، ولم يكونوا يبهنون بالديش بعد فقدهم لذة النور . ووجه الأرب فى طاوعها ظاهر مسقفن بظهوره عن الإطناب فى ذكره . . . و تأمل المنفعة فى غروبها ، فلولا غروبها لم يكن للناس هدوء ولا قرار مع عظيم حاجتهم إلى الهدوء والراحة لسكون أبدانهم ، وجعع حواسهم ، وابعاث القوة الهاضمة لتهضم الطعام و تنفيذ الغذاء إلى الأعضاء . . . ثم كان الحرص يحملهم على مداومة العمل ومطاولته على ما تعظم نكايته فى أبدانهم ، فإن كثيراً من الناس لولاجثوم الليل بظلمته عليهم ، لم يكن لهم هدوء ولا قرار ، حرصا على الكسب والجمع والادخار ، ثم كانت الأرض تستحمى بدوام الشمس بضيائها ، فقدرها الله تعالى عكمته و تدبيره ، فتطلع وقتا و تغرب وقتا ، بمنزلة سراج يرفح الأهل البيت تمارة ليقضوا حوائجهم ، ثم يغب عنهم ليهدءوا ويقروا ، فصار النور والظامة مع تضادهما متظاهرين على مافيه صلاح العالم ونظامه .

« فـكر بعد هذا في ارتفاع الشمس وانحطاطها لإقامة هذه الأزمنة الأربعة من السنة ، ومافى ذلك من التدبير والمصلحة ، فني الشتاء تعود الحرارة في الشجر والمبات فتتولد فيهما مواد الثمار ، ويتكثف الهواء فينشأ منه السحاب والمطر ، وتشتد أبدان الحيوان وتقـوى ، وفي الربيع تتحرك وتظهر المواد المتولدة في الشتاء وتصلح ، فيطلع النبات وتنور الأشجار ، ويهييج الحيوان السفاد . وفي الصيف يحتدم الحواء ، وتنضج الثمار ، وتنحل فضول الأبدان ، ويجفوجه الأرض ، فتهيأ للبناء والأعمال ، وفي الخريف يصفو المواء وترتفع الأمراض ، وتصلح الأبدان ، ويمتد الليل ... ، ويطيب الهواء ، وفيه مصالح أخرى . . . وتجار الآن في تنقل الشمس في البروج الاثنى عشر لإقامة دور السنة ، ومافي ذلك ، فكر الآن في تنقل الشمس في البروج الاثنى عشر لإقامة دور السنة ، ومافي ذلك

من التدبير ، فهو الدور الذي تصح فيه الأزمنة الأربعة » (١) .

وهذا المكلام إذا صحت نسبته إلى الإمام جعفر رضى الله عنه وعن آبائه ، كان دايـــلا لامحـــال للشك فيــه على أنه عنى بالبحث فى المكون ، وأبراج السياء ونجومها .

وليس عندنا ما يوجب رد نسبة هذه الرسالة إلى الصادق ، فإن الإمامية قد تلقوها بالقبول ، وما داموا قد تلقوها بالقبول لا نردها إلا بدليل قطعى . لاشبهة فيه . ولا يرد الأمر الذي تتلقاه طائفة كبيرة من العلماء بالقبول إلاعند . الذين يريدون أن يهدموا العلوم ، إذ أن بناء العلوم يقوم على الأسس التي أقامها السابقون ، ولا ينقض منها إلا ما يثبت أنه لا يصبح عند أهل العقول . أو يخالف ما علم من الدين بالضرورة .

وقد تضافرت أقوال علماء التاريخ على صلته بجابر بن حيان ؛ وتتلمذ جابر اله في الاعتقاد وأصول الإيمان ، واقتباسه منه . وتضافرت أقوال المؤرخين. أيضاً على أنه تحدث إليه في طبائع الأشياء ، وخواص المعادن ، ومزج الأشياء بعضها ببعض ... وكل هذا يومىء إلينا بأن الرسالة لها شواهد تثبت صدق نسبة . بجوعة من المعلومات التي اشتملت عليها إلى ذلك الإمام الجليل .

وقد عاش الإمام جعفر فى الوقت الذى ابتدأت فيه العلوم الفلسفية تدخل. اللغة العربية ، وتتكون لها المدارس ، وتنظم لها الدراسات . . . فقد تورد. على العقل الإسلامى — فى آخر العصر الأموى وأول العصر العباسى .. الفكر المندى ، واليونائى عن طريق السريان وعيرهم .

<sup>(</sup>١) رسالة التوحيد، وهي التي أملاها على المفضل بن عمرو، أو بعبارة أدق. حادثه بها، ودونها ص ٤٨، ٩٥.

والذين تشيعوا للامام جعفرلا يكتفون بما تلقى من علم ، وما انصرف إليه من بحوث ... بل يضيفون إليه علما آخر لم يؤت بكسب فى دراسة ، ولكن أوتى بوصية من النبى صلى الله عليه وسلم أودعها عليا ، ثم أودعها على منجاء بعده من الأوصياء الاثنى عشر، ويعد الإمام جعفرسادسهم .وسموا ذلك النوع من العلم جفرا .

والجفر في الأصل ولد الشاة إذا عظم واستكرش ، ثم أطلق على الاهاب نفسه ، وقد قالوا إن الجفرصار يطلق على نوع من العلم لا يكون بتلق ، ولكن يكون من عند الله تعالى . ولقد قال بعض كتاب الشيعة الحدثين : « علم الجفر هو علم الحروف الذي تعرف به الحوادث إلى انقراض العالم. وجاء عن الصادق عليه السلام أن عندهم الجفر، وفسره بأنه وعاء من أدم فيه علم العلماء الذين مضوا من بني إسرائيل ، وجاء عنهم الشيء الكثير عن الجفر ، وإنا وإن لم نعرف هذا العلم والقصد منه ... نعرف من هاتيك الأحاديث التي ذكرت عن الجفر ، أنه من مصادرهم ، وأن هذا العلم شريف منهم الله إياه » (١)

وقد جاء فى السكافى للسكلينى — وهو أحد المصادر الأربعة للاثار عند الاثنا عشرية — أن الجفر فيه توراة موسى، وإنجيل عيسى، وعلوم الأنبياء والأوصياء، ومن مضى من علماء بنى إسرائيل، وعلم الحلال والحرام، وعلم ماكان وما يكون . . . ثم يقول «إن الجفر قسمان : أحدهما كتب على إهاب ماعز ، والآخر كتب على إهاب كبش» .

وقد قال الكليني في كتابه السكافي مانصه:

« قال الصادق : نظرت في صبيحة هذا اليوم في كتاب الجفر الذي خصر (١) الصادق ج إ ص ١٠٩ ، تأليف السيد مجد حسين المظامر .

الله به محدا والأئمة من بعده ، وتأملت فيه مولد غائبنا وغيبته (أى الامام الثانى عشر) المفيب بسر من رأى ، وإبطاءه وطول عمره ، وبلوى المؤمنين فى ذلك الزمان ، وتولد الشكوك فى قلوبهم . وارتداد أكثرهم عن ديمهم ، وخلمهمر بقة الاسلام من أعناقهم التى قال تقدس ذكره: [وكل إنسان ألزمناه طائره فى عنفى الولاية » .

«قلنا یا ابن رسول الله کرمنا و شرفنا بیعض ما أنت تعرفه من علم ذلك قال:

إن الله جعل فى القائم منا سننا من سن أنبيائه: سنة من نوح طول العبر، وسنة من ابر اهم خفاء الأولاد و اعتزال الناس، وسنة من موسى الخوف و النيبة، وسنة من عيسى اختلاف الناس فيه ؛ وسنة من أيوب الفرج بعد الشدة ؛ وسنة من حمد الخروج بالسيف يهتاى بهداه، ويسير بسيرته » (١).

وتنتهى من هذا إلى أن الجفر كتاب أودعه جعفر يرجع إليه فيعلم علم النيب فياكان وما يكون ؛ سواء أكان بالحروف والرموز أم كان بالاخبار، ولعله فى زعهم هو الكتاب أو العلم الذى يعطاه كل إمام من الأثمة... أعطيه على ثم من جاء بعده، وقدجاء فى الكافى للكلينى مانصه أيضاً:

« إن الله عز وجل أنزل على نبيه كتاباً ، فقالى جبريل: يا محمد هذه وصيتك إلى النجباء ، فقال : ومن النجباء يا جبريل ؟ فقال على وولده ... و كان على السكتاب خواتم من ذهب .. فدفعه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم إلى على ، وأمره أن يفك خاتماً منه ، فيعمل بما فيه ، ثم دفعه إلى الحسن فقك منه خاتما فعمل بما فيه ، ثم دفعه إلى الحسين ، فقك خاتماً فوجد فيه أن أخرج بقومك إلى الشهادة ؟ من دفعه إلى الحسين ، فقك خاتماً فوجد فيه أن أخرج بقومك إلى المسين فلا شهادة أله من الحسين على بن الحسين فقك خاتماً فوجد فيه أن اطرق واحمت والزم منزلك ؟ واعبد ربك حتى تأتيك

<sup>(</sup>١) الوشيعة في عقائد الشيعة لموسى جاد الله ، ص ٥٠ ، طبعة الحائمي .

اليقين ، ففعل ثم دفعه إلى ابنه محمد بن على ففك خاتما ، فوجد فيه . حدث الناس وأفتهم ، وانشر علوم أهل بيتك ، وصدق آبائك الصالحين ، ولاتخافن. أحداً إلا الله ، ولا سبيل لأحد عليك . ثم دفعه إلى جعفر الصادق فوجد فيه : حدث الناس وأفتهم ولا تخافن إلا الله ، وانشر علوم أهل بيتك وصدق آباك ، فإنك في حرز وأمان » (١).

والله تناقل عن الاثنا عشرية كتاب من علماء الإسلام ماذكروه في الجفري فمنهم من كان ينقله كما نظروا تبيينا لتفكيرهم ، ومنهممن كان يقولفيه ساخراً. ولقدجاء في عيون الأخبار لابنقتيبة: قال طلحة بن مصرف: لولاً أني على وضوء. لأخبرتك بما تقول الشيمة ، قال هرون بن سمد المجلى ، وكان رأس الزيدية تـ

ألم تر أن الرافضين تفرقوا فكلهم في جعفر قال معكراً فطائفة قالوا إله<sup>(۲)</sup> ومنهم طوائف سمتسه النسبي المطهرا فإنى إلى ربى أفارق جمفراً ومن عجب لم أفضه جلد جفرهم برثت إلى الرحن بمن تجفرا

فان کان پرضی ما یقولون جعفرا وقد جاء في هذه القصيدة:

ولو قال إن الفيل ضب لصدقوا ولو قال زنجي تحول أحمرا (٢٦)

وقد قال أبو العلاء في الجفر :

أتاهم علمهم في سمك جفر أرته كل عامرة وقفر لقد عجبوا لأهل البيت لما ومرآة النجوم وهى صفرى

<sup>(</sup>١) الكافي للكايني ج ١ ص ١٣٢٠

<sup>(</sup>٧) وهؤلاء الذين قالوا إله الخطابية ، وهم أتباع أبو الخطاب عد بن زينب مـ

<sup>(</sup>٣) عيون الأخبار ج ٢ ، ص ١٤٥ ، طبعة دار الكتب .

هذا بعض ما قيل في الجفر ، وهو بعض قليل ، ومن الحق علينا في هذا القام أن نذكر ثلاث ملاحظات :

الأرلى: أننا نننى نسبة السكلام فى الجفر إلى الإمام جعفر الصادق ، لأنه يتملق بهم الفيب ، والله سبحانه و تمالى قد اختص به ، والنبى صلى الله عليه وسلم قبل ، كا حكى عنه القرآن السكريم : [ولو كنت أعلم الفيب لاستكثرت من الخير وما مسنى السوء ] وماكان يعطيه الله تعالى من بعض المعلومات الفيبية يعطيه إياه على أنه معجزة يتحدى بها كا قال تعالى : [ألم . غلبت الروم . فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون فى بضع سنين لله الأمر من قبل ومن بعد . وهو العزيز الرحيم ] .

وننى الجفر عن الإمام جعفر لا ينقص من قدره . فهو الإمام الحجة فى دين الله الذى تلقى عنه كبار الفقهاء ، كأبى حنيفة ومالك ، وكبار المحدثين كسفيان النورى ، وسقيان بن عيينة وغيرهما من أئمة الحديث .

الثانية: أن أكثر الروايات التي تنسب الجقر إلى الإمام جمفر الصادق طريقها السكليني . . . والسكليني هو الذي روى عن الإمام أنه قال إن في القرآن نقصا ، وقد كذب تلك النسبة الإمام المرتضى وتلميذه الطوسي ، وغيرها من كبار أثمة الاثنا عشرية ، و نقلوا عن الإمام جمفر نقيض هذا . وإن من ينقل الكذب وينسبه إلى ذلك الإمام المتبع لا يصح عند أهل التحقيق أن تقبل كل رواياته .

النالثة: أن علماء الجمفرية الدين يكتبون الآن فى حياة الإمام جمفر وينسبونها، لا يتمرضون لتأبيد هذه الفكرة، وإن كانوا ينقلونها. والله سبحانه وتعالى أعلم.

وعنسدى أن الله ين أدخلوا فكرة الجفر عند الإمامية الاثنا عشرية

م الخطابية ، أتباع أبى الخطاب، فقد جاء فى الخطط المقريزية: « زعمت الخطابية بأجمعها أن جعفر بن محمدالصادق أو دعهم جلداً يقال له جفر، فيه كل ما يحتاجون إليه من علم النيب وتفسير القرآن » (١) . وسنشير إلى استنكار الإمام جعفر لأقوال أبى الخطاب.

### جعفر يفيض بعلمه على معاصريه

لاترك أولئك الذين أرادوا أن يفحلوا جمفراً صفات نفاها ، ولنتجه إلى الأمر الثابت الذي به ارتفع ، ولم يكن من بعده مكان لرفعة لم ينلها .

لقد تلقى عن آبائه وعن شيوخ عصر في إبان نشأته ، وتعلم من أبيه حسن الصحبة ، فصحب الأخيار . ولقد قال له أبوه الإمام الحكيم محمد الباقر : «لا تصحبن فاسقاً ، فإنه باثمك بأكلة فما دونها ، يطمع فيها شم لا ينالها . ولا تصحبن البخيل ، فإنه يقطع بك في ماله أحوج ماكنت إليه . ولا تصحبن كداباً ، فإنه بمنزلة السراب : يبعد منك القريب ، ويقرب منك البعيد . ولا تصحبين أحمق ، فإنه يريد أن ينفمك فيضرك ، ولا تصحبين قاطع رحم ، فإنى وجدته ملموماً في كتاب الله (٢) » .

<sup>(</sup>١) الخطط: ج٢، ص ٣٥٢. طبع بولاق.

<sup>(</sup>٢) حلية الأولياء: ج٣ ص ١٨٤٠

يروى في ذلك أن سفيان الثورى ، الذي كان محدث العراق وواعظ المكوفة ، حضر مجلسه — وكان جعفر صامتا لا يتكلم — فقال الثورى تن لا أقوم حتى تجمد التي فقال الصادق: « أنا أحدثك ، وما كثرة الحديث لك بخير يا سفيان . . . إذا أنعم الله بنعمة ، فأحببت بقاءها ودوامها، فأكثر من الحمد والشكر عليها ، فإن الله عز وجل قال في كتابه : [ لئن شكرتم الأزيد نكم] ، وإذا استبطأت الرزق فأكثر من الاستغفار ، فإن الله عز وجل قال في كتابه : [ استغفر وا ربكم إنه كان غفاراً يرسل السماء عليكم مدرارا، ويمددكم بأموال وبنين ، ويجمل لكم جنات ويجمل لكم أنهارا] يا سفيان إذا حز بك أمر من سلطان أو غيره فأكثر من « لاحول ولا قوة إلا بالله » فإنها مفتاح الفرج » وكنز من كنوز الجنة » ؛ فعقد سفيان بيده ، وقال : « ثلاث وأي ثلاث ا » .

وقد أخذ عنه مالك رضى الله، واختلف إليه فى مجلسه ، وانتفع من فقهه ورايته .

وأبوحنيفة كان يروى عنه ، واقرأ كتاب الآثار لأبى يوسف والآثار لحمد ، فإنك واجدفيهما رواية عن أبى حنيفة عن جعفر بن محمد ، فكان الثقة الصدوق ، ومع أنه في مثل سن أبى حنيفة لم يتأبأ بو حنيفة عن الأخذ عنه . ويقول كتاب الشيعة أنه قد صحبه سنتين . ويقولون إنه قد قال أبو حنيفة في هانين السنتين : « لولا السنتان لهلك النعمان » .

# وقد جاء في حلية الأولياء لابن نعيم :

« وروى عن جعفر عدة من التابعين ، مهم يحيى بن سعيد الأنصارى ، وأيوب السختيانى ، وأبان بن تغلب . وأبو عمر بن العلاء . ويزيد بن عبد الله . ابن الهادى . و حدث عنه من الأثمة الأعلام : مالك بن أنس ، وشعبة بن القاسم .

وسفيان بن عيينة ، وسليان بن بلال ، وإسماعيل بن جعفر »(١).

ومن الغريب أنه مع رواية هؤلاء الأعلام عن ذلك الإمام الجليل ، يجى ومن الغريب أنه مع رواية هؤلاء الأعلام عن ذلك الإمام الجليل ، يجى ومن متحدثى القرن الثالث فيتكلم عن رواية جعفر الصادق ويتشكك فيها ، ولكنها العصبية المذهبية . وإذا كان بعض الشيعة قد نسب إليه مالم يقله ، فإن ذلك لا يغض من مقامه ، فلم يغض من مقام على بن أبى طالب كرم الله وجهد كذب السكذابين عليه ، كالم يضر عيسى بن مريم عليه السلام افتراء المفترين عليه ، وادعاؤهم عليه الألوهية .

## جعفر والسياسة

قال الشهرسة انى في جعفر الصادق: « هو ذو علم غزير في الدين ، وأدبكامل. في الحسكة ، وزهد بالغ في الدنيا ، وورع تام عن الشهوات. وقد أقام بالمدينة مدة يفيد الشيعة المنتمين إليه ، ويفيض على الموالين له بأسرار العلوم ... شم دخل العراق وأقام بهما مدة ما تعرض للامامة قط ، ولا نازع أحداً في الخلافة بهومن غرق في بحر المعرفة لم يطمع في شط ، ومن تعلى إلى ذروة الحقيقة ، لم يخف من حط . وقيل من آنس بالله استوحش من الناس ، ومن استأنس بغير الله نهجه الوسواس » .

وإن هذا الكلام صريح فى أنه لم يطلب الخلافة ، ولم يسم إليها، و إن ذلك متفق عليه . . . ولكن الإمامية يقولون إنه كان إمام عصره ، وأخذ بمذهب التقية ، وينقلون عنه أنه قال : « التقية ديني ودين آبائي » . والتقية أن يخنى المؤمن بمض ما يعتقد ، ولا يجهر به خشية الأذى ، أو للتمكن من الوصول إلى ما يريد . والأصل فيها قوله تعالى : [ لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من

<sup>(</sup>١) « حلية الأولياء » : ج ٣ . ص ١٩٩ .

دون المؤمنين ، ومن يفعل ذلك فليس من الله فى شىء إلا أن تتقوا منهم تقاة ويحذركم الله نفسه ] .

وغير الإمامية يقولون إنه لم يطلبها ، وأساس الخلاف أمران : أحدها أن الإمام عند الإمامية ينال الإمامة بالوراثة ، أو بالوصاية النبوية على حد تعبيرهم وعلى منهاجهم ، أما غيرهم فيرون أن الإمامة تكون بالبيمة والحسكم بالفعل . والأمر الثانى أن الإمامية يمتبرونه الإمام ، ولو لم يحكم وينفذو يخرج داعياً لنفسه ، وقد خالفهم في ذلك الزيدية على ما بينا عند الكلام في الإمام زيدرضي الله عنه .

ومع أنه لم يدع لنفسه ، قد كان المتشيمون في العراق ينادون به إماماً في جموعهم السرية ، وينتحلون نحلة اتباعه ، وأتوا بأفكار كثيرة كان يتبرأ منها . وقبل أن نخوض فى موقفه منهم نذكر الحجن التي نزلت بآل البيت ورآها هو رأى العين .

لقد رأى عمه زيد بن على زين العابدين يخرج مطالباً بالحق في عصر هشام أبن عبد الملك ، مع نهى أهل الخبرة والتجربة من آل على رضى الله عنهم أجمعين، ومع تذكيره بأهل العراق الذين خذلوا الحسين في ساعة العسرة، وتركوه لابن زياد ينشب أظافره الآثمة فيه وفي أهله .

ولقد كانت نتيجة خروجه أنه قتل قتلة فاجرة ، ونبش قبره وصلب جُمانه الطاهر .

ثم تتابع القتل من بعد ذلك في ذريته ، فقل ابنه يحيى من بعده .

وقد انقضت هذه الفاجمة ، ولكنها تركت فى نفس جعفر \_ صنى زيد ورفيق صباه \_ ندوبا ، وأعطته علما محال الشيعة فى عصره الذين كانوا يغرون ولا ينصرون ، ويتكلمون ولا يفعلون ، ويحرضون وعند الشديدة يفرون ، وإن المفرور من يخدع بهم ، كا قال على بن أبى طالب كرم الله وجهه فى إخوان لهم من قبل .

ولما جاءت الدولة المباسية ، كان يرجى أن يكون خلفاؤها على أبناء عمومتهم من على بن أبي طالب أرفق وأعطف وألين ، وقد بدت بشائر ذلك في عهد السفاح ، ولكن لما جاء المنصور ، وخرج عليه محمد بن عبدالله بن الحسن في المدينة وإبراهيم أخوه في العراق . . . اشتدت على العلوبين الشديدة ، وأحيطوا بالريب والظنون . وقد انتهى الأمر بفجيمة هامية ، إذ قتل النفس الزكية بالمدينة ، ثم إبراهيم أخوه بالعراق ، واضطهد كبير البيت العلوى ، وأسن أهل البيت ، عبدالله بن الحسن شيخ أبي حنيفة ، ومات في محبس أبي حقوم مضطهدا مكلوماً عام ١٤٥ ه

رأى الإمام جعفر الصادق ذلك ، فرغب عن السياسة بعوجائها ولوجائها مولأوائها ، وانصرف إلى العلم يجد فيه السلوان والنور والعزة ، والسمو عن مآرب حدد الدنيا ، فن علا إلى سمو المعرفة هانت كل مطامع الناس في نظره ، وخصوصا أن هذه المطامع قد خالطتها المسكاره ، ورأى غيره واعتبر ، وقال « من طلب الرياسة هلك » .

ولكن هل يصح أن نقول إنه لم يشكون له رأى سياسى ، وإنكان ممتزلا . المسياسة لم يشترك في الحسكم ، ولم ينازع فيه ، ولم يسع إليه بأى طريق من -طرق السعى .

إنها قد تأكد لدينا بما استقصينا بعضاً من أخبار تاريخه أنه لم يطلب الخلافة، ولم يكن له نشاط ظاهر أو خنى فى السعى إليها . . . ولكن لانستطيع أن ندفى عنه الرأى السياسى الحاص قديبته تلاميذه و المخلصين له ، فإن ذلك يشبه الحواطر الفكرية التى لا تحبس ، ولا يبلغ ذلك مبلغ الدعاية أو العمل على نشر فكرة معينة له . ويعلل ذلك الإمامية بأنه التيقية ، و نعله بأنه الانصر اف عن السياسة العملية .

ومع هذا قدابتلي بالدعاة الذين كانوا يدعون الانتماء إليه . . . قد كان

فى العراق وما وراءه فى الشرق من الديار الإسلامية ، دعاة لآل البيت فرخت. فى رءوسهم أفكار فاسدة ، وآراء باطلة ، أهوئها تكفير الصحابة ، وامن الشيخين الجليلين أبى بكر وعمر رضى الله عنهما وأثابهما عما عملا للاسلام ، وأعلاها ادعاؤهم الألوهية لآل البيت ... ادعوها للامام مجدالباقر ، ثم ادعوها للإمام جعفر الصادق .

وكان في العراق ، في عهد جعفر ، داعية لجوج منحرف غالى في تقديس. الأثمة واستباح المحرمات ، وهو أبو الخطاب محمد بن أبي زينب الأجدع ، الأسدى . بالولاء ، فهو فارسى الأصل ، وقد قتل عام ١٤٣ ، قتله عيسى بن موسى ، وهو الذي يعزى إليه القول بالجفر ، كا قال المقريزي في خططه . وقد قال الأشعرى في كتابه مقالات الإسلاميين عن ادعاءات الخطابية : « هم خس فرق ، كامهم يزعمون أن الأثمة أنبياء محد ثون . ورسل الله وحججه على خلقه ، لا يزال منهم رسولان ، واحد ناطق والآخر صامت : فالناطق هو محمد ، والصامت على ابن أبي طالب . . . فهم في الأرض اليوم طاعتهم مفترضة على جميع الخاق بعلمون ماكان وهوكائن . وزعموا أن أبا الخطاب نبي ، وأن أولئك الرسل يعلمون ماكان وهوكائن . وزعموا أن أبا الخطاب نبي ، وأن أولئك الرسل فرضوا عليهم طاعة أبي الخطاب ، وقالوا في أنفسهم مثل ذلك ، وقالوا ولدالحسين أبناء الله وأحباؤه ، ثم قالوا مثل ذلك لأنفسهم . . . وزعموا أن جعفر بن محمد إلمهم أيضاً » .

وبهذا يتبين أنهم ادعوا النبوة للأئمة ، ثمم ادعوالهم الألوهية ، وأن إله عصرهم وإمامه هو جعفر . ولقد قال في أبى الخطاب القاضى النمان في كتابه دعائم الإسلام :

«ثم كا أ بون الخطاب فى عصر جعفر بن محمد ، من أجل دعاته، فكفر وادعى النبوة ، وزعم أن جعفر بن محمد إله — تعالى الله عن قوله — واستبحل الحجارم كلما ، ورخص فيها ، وكان أصحابه كلما ثقل عليهم أداء فريضة ، قالوا

الله يا أبا الحطاب خفف علينا ، فيأمرهم بتركما ، حتى تركوا جميع الفرائض ، واستحاوا جميع المحارم ، وارتكبوا المحظورات ، وأباح لهم أن يشهد بعضهم لبعض بالزور ، وقال من عرف الإمام فقد حل له كل شيء كان حرم عليه ! فبلغ أمره جعفر بن محمد ، فلم يقدر عليه بأكثر من أنه لعنه وتبرأ منه ، وجمع المحابه فعرفهم بذلك وكتب إلى البلدان بالبراءة منه واللعنة عليه (١) .

وقد فشت أقوال ذلك الضال المضل ، ووجدت نفوساً تقبلها ، لبقية الوثنية فيها ، ولا نتشار الإباحية في ذلك العصر . وقد كثرت الدعوات التي تحاكى دعوات أبى الخطاب ، وربماكان هو مصدر هاكلها ، وحمل جعفر الذي تنحى عن السياسة عبء التصحيح ، لأنهم يتعلقون باسمه ، وينادون به ، فكان لا بدأن يتولى هذ التصحيح . . . ولنترك الكامة للقاضى النسان في كتابه دعائم الإسلام فقد جاء فيه :

«روينا عن أبى عبدالله جعفر بن محمداً نه كتب إلى بعضاً وليائه من الدعاة من وقد كتب إليه بحال قوم قبله بمن انتجل الدعوة ، وتعدوا الحدود، واستجلوا الحجارم واطرحوا الظاهر — فكتب إليه أبو عبد الله جعفر بعد أن وصف حال القوم : « وذكرت أنه بلغك أنهم يزعمون أن الصلاة والزكاة وصوم رمضان والحج والعمرة والمستجد الحرام والمشاعر العظام والشهر الحرام إنما هو رجل ، والاغتسال من الجنابة رجل ، وكل فريضة فرضها الله تبارك وتعالى عباده فهو رجل ، وأنهم ذكروا أن من عرف ذلك الرجل فقد اكتفى بعلمه عن ذلك من غير عمل ، وبعد قد صلى وادعى الزكاة وصام وحج واعتمر واغتسل من الجنابة وتطهر وعظم حرمات الله والشهر الحرام والمسجد

<sup>(</sup>١) « دعائم الاسلام » للقاضى أبى حنيفة النجان التميمى ، المتوفى عام ٣٦٣ . وكان قاضيا للدولة الفاطمية .

الحرام، وأنهم زعوا أن من عرف ذلك الرجل، وثبت في قلبه، جاز له أن يتهاون، وليس عليه أن يجهد نفسه، وأن من عرف ذلك فقد قبات منه هذه الحدود لوقتها، وإن هو لم يعماما . . . وأنه باغك أنهم بزعوز أن الفواحش التي نهى الله عز وجل عنها: الخر والميسر والزني والربا والميتة والدم ولحم الخنزير أشيخاص، وذكروا أن الله عز وجل لم يحرم نكاح الأمهات والبنات والأخوات والمهات والخلات، وأن ما حرم على المؤمنين من النساء يعني بذلك المكاح نساء النبي صلى الله عليه وسلم، وما سوى ذلك مباح . . . وبلغك أنهم يترادفون على المرأة الواحدة، ويتشاهدون بهضهم ابعض بالزور، ويزعون يترادفون على المرأة الواحدة، ويتشاهدون بهضهم ابعض بالزور، ويزعون في لمذا ظهراً و بطناً يعرفونه، وأن الباطن هو الذي يطالبون به . ومن قال به فهو عندى مشرك بين الشرك ، فلا يسم أحداً أن يشك فيه » (١) .

هذا موقف أبى عبدالله الإمام جعفر الصادق من أولئك الذين غالو اوحاولوا أن يفسدوا دين الناس باسمه رضى الله عنه ، وقد كان يصححما وسعه التصحيح، ولحن أولئك كانوا يريدون الكيد اللاسلام بهذه المفالاة .

و إن دعوات الانحراف كانت تتضافر وتزدحم على الفكر الإسلامى. لعنحرف به عن طريقه فى وسط متاهات من الأهواء التى تذهب بتعاليمه وعقيدته، وقد قال فى ذلك ابن الأثير فى تاريخه:

« لل يئس أعداء الإسلام من استئصاله بالقوة : أخذوا فىوضع الأحاديث وتشكيك ضعفة العقول فى دينهم بأمور قدضبطها المحدثون ، وأفسدوا الصحيح بالتأويل والطعن عليه . . فكان أول من فعل ذلك أبو الخطاب محمد بن أبى زينب مولى بنى أسد (٢) .

<sup>(</sup>١) « دعائم الإسلام » .

<sup>(</sup>٢) الكامل لابن الأثير : ج ٨ ، ص ٥ .

ولاشك أن محاربة الإمام الجليل جعفرالصادق لهؤلاء أضعفت من نفوذهم، ولكن عند المخلصين، وسدت الطريق عليهم، إلا على الذين على مثل نيتهم الفاسدة من إرادة هدم التعاليم الإسلامية.

وقد كان هذا موقف الصادق من الذين يدعون اتباعه، أو الذين يدعون لآل البيت منحرفين في دعوتهم . وقد حمل نفسه عناء التصحيح ومحاربة الآراء المنحرفة أيا كان نوعها .

وكان مع ذلك محل شك من المنصور ، ذلك لأن الملك يجمل صاحبه حريصاً عليه حرص الأم على ولدها من العوادى ، تتوهم أنه فى مذأبة دائماً إذا غاب عنها ولو زمناً قليلا ، فهى ترقب كلشىء وتخشى على ولدها كلشىء والشىء النفيس محل الحرص والاحتياط دائما ؛ ولذلك كان أبو جعفر المنصور ببث عليه العيون دائماً ، ويشدد الرقابة ، وإن كان يجتهد فى ألا يحس بها ذلك الرجل التقى العظيم .

ولقد دعاه مرة إلى بغداد عندما بلغه أنه يجبى الزكاة من شيعته وأنه كان يمد بها إبراهيم ومحمداً أولاد عبدالله بن الحسن عندما خرجا عليه . فلما حضر مجلس المنصور ، قال : « يا جعفر بن محمد ، ما هذه الأموال التي يجبيها إليك المعلى بن خبيس (١) ؟ فقال أبو عبد الله الصادق : معاذ الله ما كان شيء منذاك يا أمير المؤمنين ، فقال : ألا تحلف على براءتك من ذلك بالطلاق والمتاق ،

<sup>(</sup>١) هو مولى للامام جمفر كان يلازمه ، ولقد قتله داود بن على عندماكان والياً للمدينة ، ونال جعفراً بالأذى .

فقال: نعم أحلف بالله أنه ما كان من ذلك شيء ، فقال أبو جعفر: لا ... بل تحلف بإنطلاق والعتاق ، فقال أبو عبد الله : أما ترضى بيميني بالله الذي لا إله إلا هو ؟ قال له أبو جعفر: لا تتفقه على ، فقال أبوعبد الله . وأين يذهب الفقه منى يا أمير المؤمنين ؟ قال له : دع عنك هذا ، فإنى أجمع الساعة بينك وبين الرجل الذي رفع عليك حتى بواجهك . . . فأتوا بالرجل ، وسألو وبحضرة جعفر ، فقال : نعم هذا صحيح ، وهذا جعفر بن محمد ، الذي قلت فيه ما قلت ، فقال أبو عبد الله : تحلف أيها الرجل أن هذا الذي رفعته صحيح . . . وقال جعفر : قل أيها الرجل : أبرأ إلى الله من حوله وقوته ، وألجأ إلى حولى وقوتى ، أنى الصادق فيا أقول ، فقال المنصور : احلف بما استحلفك به أبو عبدالله ، وحلف الرجل بهذه المين » .

وقال راوى الخبر: « فلم يستتم الـكلام حتى أجذم وخر ميتاً ، فراع أبا جعفر ذلك وارتعدت فرائصه ، وقال : يا أبا عبد الله ، سر من غد إلى حرم جدك إن اخترت ذلك ، وإن اخترت المقام عندنا لم نأل في إكرامك و برك ، فو الله لا قبلت قول أحد بعدها أبداً » (١) .

وأبو عبد الله جعفر الصادق كان إذا اللتى بأبى جعفر المنصور يقول الحق تصريحاً وتلميحاً . ويروى أن ذباباً عام حول وجه المفصور حتى أضجره ، وأبو عبد الله في المجلس ، فقال: يا أبا عبد الله لم خلق الله الذباب ؟ فقال الصادق رضى الله عنه : « ليذل به الجبارة » وإن هذا تلويح بما كان عليه أبوجعفر من استبداد ، وما اتسم به حكمه من شدة .

وقد كتب إليه المنصورة ائلا: «لم لاتفشانا كما يفشانا الناس؟ »، فأجابه المصادق: ليس لنا ما نخامك من أجله، ولا عندك من أمر الآخرة ما نرجوك، له ولا أنت في نعمة فنهنيك، ولا نراها نقمة فنمزيك ».

فكتب : « تصحبنا التنصحنا » فأجابه : « من أراد الدنيا لا ينصحك ،

<sup>(</sup>١) الخبر في كتاب الصادق للسيد حدين مظفر : ج ١ ، ١١٨٠ -

ه من أراد الآخرة لا يصحبك »(١):

وانتهت المكاتبة عند هذا . وقال المنصور بعد الكتاب الأخير : « والله لقد ميز عندى من يريد الدنيا من يريد الآخرة ، وإنه ممن يريد الآخرة ، . ولا يريد الدنيا » .

وهكذا نجد أبا جعفر بالنسبة للامام الصادق بين الشك والإجلال ، وبين اللاتهام والتقدير ، يثيرالاتهام احترام الناس للصادق وافتتان الناس به ، ويطفئه انصراف الإمام الميمون المبارك إلى الآخرة وتركه شئون الدنيا وأهلها ، وانتهى أمره إلى الإجلال والتقدير ، وربما ذهب عنه الوسواس بعد أن استقر ملكه ، واستقام أمر الدولة له ، و لم يعد له منافس .

و يروى أنه حزن عددما بلغته وفاته ، وبكى حتى اخضلت لحيته ، وقدقال اليمقو بى فى تاريخه :

قال اسماعيل بن على: دخلت على أبى جمفر يوماً ، وقد اخضلت لحيته المدموع ، وقال لى: أما علمت مانزل بأهلك ؟ فقلت: وماذاك يا أميرالمؤمنين؟ قال: فإن سيدهم وعالمهم وبقية الأخيار منهم توفى ، فقلت: ومن هو يا أمير المؤمنين ؟ قال: جمفر بن محمد ، فقلت أعظم الله أجر أمير للؤمنين وأطال الله بقاءه . فقال لى : إن جمفراً ممن قال الله فيهم : [ ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا] وكان ممن اصطفى الله ، وكان من السابقين بالخيرات» (٢)

وإن ذلك حق لاريب فيه ، ومثل جعفر في إيمانه وتقواه ، واستعلائه عن سفساف الأمور ، وامتناعه عن الفتن يثيرها واعتبار الفتن كوارث تحل عرا الوحدة الإسلامية . . كان جديراً بالإجلال من كل من يوافقه ، و من يخالفه ، وقد كان يحسد لمنزلته ، ولا يخشى منه على أمر من مصالح هذه الأمة ، وقد كان سابقا إلى الخيرات ، فرضى الله عنه وعن آبائه الكرام ، وعترة النبى الأطهار .

<sup>(</sup>١) المكشكول لبهاء الدين العاملي : ج١ ، ص ١٢٩ طبع بولاق .

<sup>(</sup>٢) تاريخ ابن واضح ج ٣ ، ص ١١٧ طنتع النجف بالعرَّاق .

#### صفاتي

قد بدت من السياق التاريخي الذي سقناه شخصية الإمام جعفر الصادق علم العلوى من جهة أبيه ، والصديقي من جهة أمه . وبقى أن نقول كلمات موجزة في صفاته العلمية والشخصية كنتيجة لما سقناه . فما ذكر هو المقدمة ، والنتيجة مطوية في مقدماتها . وأول ما يطلبه القارىء ليتصور تلك الشخصية المباركة هو صفاته الجسمية . وقد قال كتاب مناقبه : «أنه كان ربعة ليس بالطويل أو القصير ، أبيض الوجه أزهر ، له لمان كأنه السراج ، أسود الشعر جعده ، أشم الأنف ، قد انحصر الشعر عن جبينه فبدا مزهرا ، وعلى خده خال أسود » .

هذا وصفه الجسدى ، أما وصفه النفسى فقد بلغ فيه الذروة ، وها هى ذى.. صفاته التى ارتفع بها فى جيله حتى نفس عليه الخلفاء منزلته .

#### ١ -- الإخلاس:

قد انصف الإمام البق بنبل المقصد ، وشرف الغاية والتجرد في طلب المهوات الحقيقة من كل هوى ، فما طلب أمراً دنيوياً ، وما طلب أمراً تتأشبه الشهوات أو تحف به الشبهات . . . بل طلب الضاحى النير ، وإذا ورد أمر فيه شبهة هداه إخلاصه إلى لبه ، و نفذت بصيرته إلى حقيقته بعد أن يزيل غواشى الشبهات . وإذا عرضت شهوة فى أمر بددها بعقله الكامل ، وهو فى هذا يأخذ بما روى عن النبى صلى الله عليه وسلم فى حديث مرسل : « إن الله يحب ذا البصر النافذ عند ورود الشبهات ، ويحب ذا العقل الكامل عند حاول الشهوات » .

و إن عدة عوامل تضافرت ، فقوت ذلك الإخلاص الذي كان من ممدنه. فأصل الإخلاص في ذلك البيت الطاهر ثابت ، وإذا لم يكن الإخلاص غالب. أحوال عترة النبي ، وأحفاد على ، ففيمن يكون الإخلاص ؟ . . لقد توارثوم خلفاً عن سلف ، وفرعا عن أصل ، فكانوا يحبون الشيء لا يحبونه إلا لله ،

ويعتبرون ذلك من أصول الإيمانكما قال النبى صلى الله عليه وسلم : « لابؤمن. أحدكم حتى يحب الشيء لا يحبه الله » .

وقد امتاز إخلاص الإمام جعفر بمدة عناصر أخرى قد قوته :

أولها: ملازمته للعبادة والعلم، وانصرافه عن كل مآرب الدنيا . ولنترك الإمام مالكا رضى الله عنه يصف حال ذلك الإمام الجليل، فقد قال: « لقد كنت آتى جمفر بن محمد، وكان كثير التبسم، فإذا ذكر عنده النبي صلى الله عليه وسلم اخضر واصفر، ولقد اختلفت إليه زمانا، فما كنت أراه إلاعلى إحدى . ثلاث خصال: إما مصليا ، وإما صائما ، وإما يقرأ القرآن . وما رأيته قط يحدث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا على الطهارة ، ولا يقكم فيا لا يعنيه ، وكان من العلماء العباد الزهاد الذين يخشون الله ، وما رأيته إلا يخرج , الوسادة من تحته ، و يجعلها تحتى (() . وجعل يعدد فضائله ، ومارآه من فضائل . غيره من أشياخ في خبر طويل .

وثانيها: الورع ، فقد انصرف عن الحرام انصرافًا مطلقاً ، وطلب الحلال. من غير إسراف ، وقد أخذ بأمر النبي صلى الله عليه وسلم: «كاوا واشربو والبسوا في غير ما سرف ولا مخيلة » .

وكان يظهر أمام الناس بمظهر حسن ، ويخنى تقشفه تطهيراً لنفسه من الرياء .. فن المتقشفين الذين يظهرون بمظهر خشن وعيش جاف من يحاسبون على ذلك المظهر حسابا عسيراً ، لأنهم يراءون بذلك . ولقد دخل عليه سفيان الثورى . فرأى عليه ثياباً حسنة لها منظر حسن ، ويقول الثورى : « فجعلت أنظر إليه معجباً ، فقال لى : يا ثورى مالك تنظر إلينا ؟ لعلك تعجب بما رأيت ا قلت : يا أبن رسول الله ليس هذا من لباسك ولا لباس آبائك ، فقال لى : يا ثورى ، كان ذلك زماناً مقفراً مقتراً ، وكانوا يعملون على قدر إقفاره واقتاره ، وهذا ،

<sup>(</sup>١) المدارك ، مخطوط بدار الكتب المصرية ، الورقة رقم ٢١٠ -

رزمان قد أقبل كل شيء فيه ... ثم حسر على ردن جبته ، و إذا تحته جبة صوف بيضاء يقصر الذيل عن الذيل ، والردن عن الردن ، شمقال : يا ثورى لبسنا هذا لله ، وهذا لسكم ، فما كان لله أخفيناه ، وما كان لسكم أبديناه ا » (١) .

وثالثها: أنه لم ير لأحد غير الله حساباً فما كان يُخشى فى الله لومة لائم ... لم يخش أميرا لأمرته، ولم يخش العامة لمكثرتهم ، ولم يغره الثناء ، ولم يتنه الهجاء . . . أعلن براءته بمن حرفوا الإسلام ، وأقسدوا تعالميه ، ولم يمالىء المنصور فى أمره ، وكان السيد حقاً بتقواه وهداه .

### ٧ — نفاذ بصيرته وعلمه :

وإن الإخلاص إذا كان سائسرقت النفس بنور الحسكة واستقام القول والفكر والعمل، ولذا نفذت بصيرته فصار يدرك الحق من غير أن بعوقه معوق، وكان مع ذلك فيه ذكاء شديد، وإحاطة واسعة ، وعلم غزير . . وقد ورث ذكاء أهل بيته كما ورث نبلهم ، وصقل نفسه بالمعرفة فطلب الحقيقة من كل مصادرها، وكان يدرك معالى الشريعة ، ومراميها وغايتها بقلبه الدير ، وعقله المتفكر ، ودراساته الواسعة . سئل مرة . لم حرم الله الريا ؟ فقال الإمام المسادق البصير : لئلا يتمانع الناس» وذلك كلام حق ، لأن الناس إذا كانوا الميرضون إلا بفائدة لا يوجد تعاون قط ، وإن امتنع التعاون فقد وجدالممان وإذا وجد التمانع أحضرت الأنفس الشح ، والتمانع يكون نتيجة مؤكدة وإذا وجد التمانع أحضرت الأنفس الشح ، والتمانع يكون نتيجة مؤكدة وإذا وجد التمانة على الدين من غير مشاركة في الخسارة ، سواء أكان الاقتراض للاستهلاك أم كان للاستغلال ، إذ لو كان الاشتراك في الخسارة الماتنان الاستهلاك أم كان للاستغلال ، إذ لو كان الاشتراك في الخسارة .

وكان رضى الله عنه حاضر البديهة تجيئه أرسال الفكر والعلم من غير معاناة . . . انظر إليه بجيب فقيه العراق عن أربعين مسألة من غير تردد

<sup>(</sup>١) حلية الأولياء : ج ٣ ، ص ١٩٣ . والردن بضم الراء أصل السم .

ولا تلمثم ، مبيناً اختلاف الفقهاء فيها وما يختاره أو يراه .

#### ٣ ــ سخاؤه:

لم يكن الجود في أبناء على غريبا ، فإنه يروى أن قوله تمالى : « ويطعمون. الطمام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا » نزات في على كرم الله وجه ، كما يروى مثل ذلك في قوله تمالى في آية البر : « وآتى المال على حبه » وقد كانجعفر يعطى من غير سفه ، فكان يعطى من يستحق العطاء ، وكان يأمر بعض المتصلين . بأن يمنع الخصومات بين الناس إذا كانت على مال ، بإعطاء طالب المال من ماله ، وكان يقول رضى الله عنه : « لا يتم المعروف إلا بثلاثة : بتمتجيله ، وتصغيره وستره » .

وكان يخفى العطاء فى كثير من الأحيان ولا يعلنه ، وكان يفعل مافعله من .
قبل جده على زين العابدين ، فسكان إذا جاء الغلس يحمل جرابا فيه خبزولحم
ودراهم على عاتقه ، ثم بذهب إلى ذوى الحاجة من أهل المدينة و يعطيهم ، وهم
لا يعلمون من المعطى حتى مات ، وتكشف ما كان مستورا : وظهرت الحاجة .
فيمن كان يعطيهم ، وجاء فى الحلية : «كان جعفر بن محمد يعطى حتى لا يبق .
لمياله شيئا » .

### ٤ \_ حلمه وسماحته :

القد كان سمحاكريما لا بقابل الإساءة بمثلها ، بل يقابلها بالتي هي أحسن. فإذا الذي بينه وبينه عداوة كأنه ولي حمي : وكان يقدول : إذا بلغك عن أخيك شيء يسوء كفلاتفتم : فإنه إن كان كما يقول فيه القائل كانت عقوبة قد عجلت، وإن كان على غير ما يقول كانت حسنة لم يعملها » . وكان رفيقام كل من يعامله من عشراء وخدم . ويروى في ذلك أنه بعث غلاما له في حاجة فأبطأ في خرج يبحث عنه ، فوجده نائما ، فجلس عند رأسه ، وأخذ يروح له حتى انتبه،

مفقال له : « ما ذلك لك . تنام الليل والنهار ! لك الليل ولنا النهار » .

بل إن المتسامج والرفق ليبلغ به أن يدعو الله بففران الإساءة لمن يسيء إليه . ويروى في ذلك أنه كان إذا بلغه نيل منه أو شتم له في غيبته ، يقوم . ويتهيأ للصلاة ، ويصلى طويلا ، ثم يدعو ربه ألا يؤاخذ الجانى ، لأن الحق حقه ، وقد وهبه للجانى غافرا له ظلمه ، وكان يمتبر من ينتقم من عدوه \_ وهو . قادر على الانتقام \_ ذليلا . وإذا كان في العفو ذل فهو الذل الصغير ، والانتقام - من القادر إذا أهانه الضميف هو الذل السكبير . والحق أنه لا ذل في العفو ، كاقال . من الله عليه وسلم : « ما نقص عفو من عز ، وما نقص مال من صدقة » .

### ٥ \_ جلده وصبره:

ولقد كان أبو عبدالله صابرا خاشماً قانتا عابداً . . . صبر في الشدائد ، وصبر في فر أق الأحبة ، وصبر في فقد الولد : مات بين يديه ولد صغير له من غصة اعترته ، فهكي وقال : «أَنْ أَخَذَتْ لقد أَبقيت ، ولئن ابتليت لقدعافيت » ، ثم حمله إلى النساء ، فصرخن حين رأينه ، فأقسم عليهن ألا يصرخن . ثم أخرجه إلى الدفن وهو يقول : « سبحان من يقبض أولادنا ، ولا نزداد له إلاحبا » ، ويقول بعد أن واراه التراب : « إنا قوم نسأل الله ما نحب فيمن نحب فيعطينا ، فإذا أحب ما نكره فيمن نحب رضينا » (1).

<sup>(</sup>١) كتاب « الصادق » : ج ١ ، ص ٢٩٩ .

فهو رضى الله عنه ، برضى بما يحبه الله ، وذلك هو الشكر فى النقمة ، و إن الصبر مع التململ لا يعد صبر ، إنما هو الضجر ، والضجر والصبر متضادان ، ولعل أوضح الرجال الذين تلتقى فيهم حال الشكر مسم حال الصبر هو الإمام الصادق .

#### ٣ ــ شجاعته :

إن أحفاد على الصادقين في نسبتهم إليه شجعان . لايه ابون الموت ، وخصوصا من يكونون في مثل حال أبى عبدالله جعفر الصادق ، الذي عمر الإيمان قلبه ، وانصرف عن الأهواء والشهوات ، واستولى عليه خوف الله وحده ، ومن عمر قلبه بالإيمان بالله وحده لا يخاف أحدا من عباده ، مهما تكن سطوتهم وقوتهم ، وقد كان شجاعا في مواجهته لمن يدعون أنهم له أتباع ، ويحرفون الإسلام عن مواضعه ، وكان شجاعا عندماكان يذكر المنصور بطفيانه وجبروته وقد سأله: مم خلق الله الذباب ؟ فأجابه : « ليذل الجبابرة » كما نقلنا لك من قبل و إن لقاءه ، المنصور — وقد تقول عليه الأقاويل من يطوفون بملك من قبل و أبا تجانه في مذ اللقاء ، وإجابته الصريحة لأكبر دليل على ماكان يستمتم به من شجاعة . وانظر إليه وهو ينصح أبا جعفر في وقت انهامه :

« عليك بالحلم فإنه ركن العلم ، واملك نفسك عندأ سباب القدرة... فإنك إن متفعل ما تقدر عليه كمنت كمن يحب أن يذكر بالصولة ، واعلم أنك إن عاقبت مستحماً لم تمكن غاية ما توصف به إلا العدل، والحال التي توجب الشكر أفضل من الحال التي توجب الصبر » .

ويروى أن بعض الولاة نال من على بن أبى طالب كرم الله وجهه فى خطبته ، غوقف جعفر الصادق ، ورد قوله ، وختم كلامه بهذه الجملة : « ألا أنبئكم بأخلى الناس ميزانا يوم القيامة : وأبينهم خسرانا ؟ من باع آخرته بدنيا غيره ، وهو هذا الفاسق » . وإن امتناعه عن الدعوة لنفسه لا يتنافى مع الشجاعة ، لأن الشجاع ليس هو المندفع الذى لا يعرف العواقب ونتائج الأعمال ، إنما الشجاع الذى يقدر الأمور ، ويتعرف نتائجها وغاياتها ، فإذا تبين له أن الاقدام هو المجدى ، أقدم لا يهمه ما يعتوره من السيوف ، وما يحيط به من أسباب الموت .

## ٧ ـ فراسته :

کان الصادق ذا فراسة قویة . . . ولعل فراسته الفافذة هی التی منعته من أن یتقصم الأمور ویتقدم بدعوات سیاسیة ، وهو پری حال شیعته بالعراق من أنهم. یکثرون القول ، ویقلون العمل ، وقد اعتبر بما کان منهم للحسین ، ثم لزید . وأولاده ، ثم لأولاد عبدالله بن الحسن ، ولذا لم یطعهم فی إجابة رغباتهم فی الخروج . و کان ینهی کل من خرجوا فی عهده عن الخروج . . فنهی عه زیدا، ونهی ولدی عمومته محمدا النفس الزکیة و إبراهیم .

وحوادثه في الفراسة كثيرة ، منها ما ذكرنا ، ومنها ما رآه بناقب نظره محين دعى ليكون على رأس الدعوة الشيمية التي مهدت للعباسية \_ إذقال رضى الله عنه : « إنها ليست لنا » . وإن الأحداث التي نزلت به ، مع زكانته وقوة إحساسه ، تجعله من أشد فراسة ، وأقواهم يقظة حس . وأنه ليرى أن الفراسة من صفات المؤمنين ، ولقد قال في تفسير قوله تعالى: «إن في ذلك لآيات للمتوسمين» : إن المتوسمين هم المتفرسون ، أى الذين يدر كون الأمور وما وراءها بزكانة فقوسهم ، ولقانة قلوبهم .

## ٨\_ الهيبة:

أضنى الله تعالى على أبى عبدالله الصادق جلالا ونورا من نوره. وذلك لأن. كثرة عبادته ، وصمته عن لغو القول ، وانصرافه عما يرغب فيه الناس ، وجلده.. للحوادث، وهذا كله جعل له مهابة فى القلوب ، فوق ما يحمل من تاريخ أسرته- الكريمة ، وما آتاه الله من سمت ، ومنظر كريم ، وعلو عن الصفائر ، واتجاه إلى المعالى . وحسبك ما ذكرنا من أن أبا حنيفة الإمام \_ عندما رآه فى الحيرة ، وهو جالس مع المنصور الذى لا تغيب الشمس عن سلطانه \_ راعه منظره واعتراه من الهيبة للصادق ما لم يمتره من الهيبة للمنصور ، صاحب السلطان العريض الطويل .

ولقد كانت هيبته تهدى الضال وترشد الحائر . لقد كان أحد رءوس الفرق المنتحرفة يتلمم بين يديه — وهو ذو بيان وصاحب دعاية — ولا يلبث حتى يتبع ما يقول الإمام ، ثم يقول له : « يا ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم إنى أجلك ، وأستحيى منك ، ولا يعمل لسانى بين يديك » .

قد التقى بابن الموجاء فى العراق — وهو داعية من دعاة الزندقة — فلم يحر جواباً فى حضرة الصادق ، فقال له : « ما يمنعك من المكلام ؟ » ، فقال الزنديق : « إجلالا لك ومهاية ، ما ينطق لسائى بين يديك ، فإنى شاهدت العلماء ، وناظرت المتكلمين ، فما داخلتنى هيبة قط مثل ما داخلتنى من هيبتك ! » .

ومعهذه الهيبة ، التى تفرض الاستماع على المستمعين مهما تكن لجاجتهم ، كان متواضعاً مع تلاميذه والمقبلين عليه ، حتى إنه لينزع الوسادة من تحته ليجلس عليها مالكا الذى تلقى عليه (أى مالك) ، وأخذ عنه . وهكذا العظاء دائما تفرض هيبتهم طاعتهم ، وهم يتواضعون للضعفاء ليدنوا منهم .

## آراء للإمام جعفر

الإمام جعفر الصادق له منازل في الفقه والحديث تعلو به إلى أعلى درجات الفقهاء ، وله آراء في العقائد ، وكان يمد جيله بمعين فكره فيهما . . فهو راوية حديث ، وهو عليم بالاستنباط ووجوهه ، وهو مع ذلك قد صحح اعتقاد المنحرفين ، فتكلم في القدر وإرادة الإنسان ، والتوحيد وأركانه ، وتكلم في طرق الاستنباط الفقهي ... وإنا نقتصر في هذه الرسالة الصغيرة على بعض موضوعات تكشف عما عاداها ، ولنترك الباقي للمطول الذي كمتبناه بتوفيق مؤتم تمالي إذا أمدنا بعونه وتوفيقه .

## التوحيد

كان الإمام جعفر الصادق يعيش في عصر وجدت فيه آراء منحرفة حول الوحدانية ، فمن الناس من كان يتوهم أن لله تعالى يدا ، وأن لله تعالى وجها ، ويتصور الله سبحانه وتعالى على صورة إنسان ، وهؤلاء هم الحشوية ، وهم بقية من بقايا الوثنيين . وقد تصدى لهم الإمام جعفر الصادق ، فأر شدهم وهداهم . والممتزلة يعدونه إماما من أثمتهم ، ويعتبرون العترة النبوية على مثل آرائهم . والحق أن آراءهم في الجلة ، وهم قد وصفوا الله تعالى بأنه الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لا يشبه أحدا من خلفه ، ليس كمنله شيء ، وهو السميع البصير ، فلا ولد ولا مولود ، ولا حلول في جسم إنسان كائنا من كان ، وليس له يد ولا لسان ، ولا شيء بما يشبه الإنسان ... وكل نص ورد في القرآن فيه عبارة اليد أو الوجه ، فهو من الجاز المشهور الذي لا يحتاج إلى تأويل ، ولم تجر حوله مناقشة من السلف ، فا فهم المشهور الذي لا يحتاج إلى تأويل ، ولم تجر حوله مناقشة من السلف ، فل فهموا جيعاً

من ذلك السلطان ، وتوثيق العهد، وأنهم إذ عاهدوا النبي صلى الله عليه وسلم خقد عاهدوا الله سبحانه وتعالى ، وينسب الشيعة إلى الإمام جعفر رسالة في في التوحيد ، قد دوَّنها تلميذه المفضل بن عرو ، وقد أخذها عنه في أربعة مجالس .

والرسالة نتجه إلى إثبات وجود الله تعالى ، و إثبات وحدا نيته بأدلة مشتقة من الموجودات : الأحياء والجاد ، والليل والنهار ، والشمس والقمر ، والنجوم والمحكواكب . وفي كل مجلس من المجالس الأربعة يبتدىء المكلام بأوصاف الله تعالى . ولنذكر مثلا من بعض المجلس وهو الرابع منها ، فهو يقول فى افتتاحه : « منا التحميد والتسبيح والتنظيم للاسم الأقدس ، والنور الأعظم العلى العلام ذى الجلال والإكرام ، ومنشىء الأنام ، ومفنى العوالم والدهور ، وصاحب السر المستور ، والغيب المحظور ، والإسم المحزون ، والعلم المكنون ... .وصاواته و بركاته على مبلّغ وحيه ، ومؤدى رسالته الذى بعثه بشيراً و نذيراً ، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً ، ليهلك من هلك عن بينة ، ويحيا من حيى عن بينة ، ويحيا من

والرسالة فيها يثبت الإرادة الإلهية ، وأن العالم نشأ بقدرة الله تعالى القاهرة ، ويثبت العلم الأزلى ، ويثبت النظام الكونى الحسكم ، والحسكم الباهرة بفي الآفات السكونية التي يمتحن الله بها عباده .

# ألقدر

الروايات التي يذكرها علماء الملل والنحل المتشيهون وغير المتشيهين تثبت. أن الإمام الصادق ، رضى الله عنه ، كان يؤمن بالقدر خيره وشره ، وأنه لا جبر ، وأن هناك اختياراً وتوفيقاً من الله ، وأنه لا يقع في ملك الله تعالى مالا يريده ، ولا يمصى جبرا ، ولا يطاع من غير إرادته سبحانه ، وإن الله سبحانه وتعالى . وسع كل شيء علماً ، وأنه لا يتغير علمه الأزلى . وقد جاء في « الملل والنحل » . كلشهر ستاني ما نصه :

« السيد ( الإمام الصادق ) برىء من الاعتزال والقدر ، وهذا قوله في الإرادة : «إن الله تعالى أراد بنا شيئاً وأراد منا شيئاً ، فما أراده بنا طواه عنا ، وهذا وما أراده منا أظهره لنا ... فما بالنا نشتغل بما أراده بنا عما أراده منا » . وهذا قوله فى القدر أمره بين : « لا جبر ولا تقويض » ( أى أن إرادة الإنسان . ليست مستقلة ) . وكان يقول فى الدعاء : « اللهم لك الحد إن أطعتك ، ولك الحجة إن عصيتك ... لا صنع لى ولا لغيرى فى إحسان ، ولا حجة لى . ولا لغيرى فى إحسان ، ولا حجة لى .

هذا كلام صريح في أمرين:

أولها ، أنه لا جبر فنحن مستولون عن المعاصى ، ولا معاندة لإرادة . الله تعالى .

ثانيهما: أن ماكتبه الله لنا في اللوح المحفوظ ، بما أراده بنا ، قد غيب . عنا ، وأين ادعاء أنه يتغير يقتضى علمنا به ، وأيحن لا نعلم حتى نعلم التغير . وما تقدم من قول يدل على علم الله تعالى الأزلى ، وعلى ذلك يكون ادعاء أنه .

<sup>(</sup>١) « الملل والنحل » : ج ٧ ، ص ٧ ، على هامش الفصل لابن حزم .

• قال بالبداء — وهو تغير إرادته لتغير علمه \_ يحتاج إلى نظر ، بل هو فى نظرنا ادعاء باطل ، وقد ادعى عليه أنه قال فى اسماعيل ابنه : « كان القتل قد كتب على اسماعيل مرتين فسألت الله فى دنمه عنه ، فدفعه » .

و إن هذا الـكلام يدل على أمرين ، كلاها لا يمـكن أن ينسب إلى الصادق جعفر .

أولها: أنه أوتى علم الغيب ، وما كتبه الله على ابنه ، فلما علم ذلك دعا الله تعالى ، فنير ما كتب مرتبن . وهذا يخالف ما بقله الشهرستانى ، « من أن ما أراد بنا أخفاه عنا » . ولم يعلم محمد بن عبد الله رسول الله ما كتب لابنه ابراهيم ، وهو أعظم ، وما يناله جعفر من شرف ، فإليه صلى الله عليه وسلم المنتهى فيه .

ثانيهما: أكه يفيد أن الدعاء يغير المقدور . والحقيقة أن الدعاء عبادة قد ارتبط به المقدور ، فالله قدر في علمه الأزلى أن العبد سيدعوه ، وأنه سيحيب دعاءه .

وننتهى من هذا الـكلام الموجز إلى أن جعفراً الصادق لا يمكن فىنظرنا أن يقول بالبداء ولا يرضاه .

وقد ننى علماء السنة أن الإمام جعفراً قال برجعة الأئمة ، كما نفوا أنه قال إن الفساق ليسوا مؤمنين ولا كافرين ، إلى آخر ما يقوله الممتزلة وغيرهم فيه .

# القرآن

يذكر الكليني عن أبى عبدالله جعفر الصادق ، سلالة الصديق ، أنه يرى ... أن الترآن الكريم قد اعتراه النقص ، وأن عبارة آل محمد قد حذفت من القرآن في كل موضع كانت فيه ، فيذكر مثلا أن في قوله تعالى : [ يأيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك ، وإن لم تفعل فما بلفت رسالته ] فيقول أنه بعد «من ربك» كلة «على» ، وقوله تعالى : [ وسيملم الذين ظلموا أى منقلب يتقلبون إلى كلة «آل محمد » بعد ظلموا وقبل أى . وفي قوله تعالى : [ إن الذين كفروا وظلموا لم يكن الله ليغفر لهم ] يقولون أن بعد « ظلموا » كلة «آل محمد » . ونسبة هذا الكلام إلى عبدالله الصادق افتراء على الله ، وعلى رسول الله وعلى أحفاد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلعن الله صاحب هذه الفرية .

وقد وجدنا من كبار الإمامية فى الماضى ما يزيل هذا الغبار ، وينقل. الصحيح عن أبى عبد الله جعفر الصادق رضى الله عنه ... فالشريف المرتضى يقرر الصدق فى النقل عن ذلك الإمام التقى ، ويقول المرتضى رضى الله عنه :

« إن القرآن كان على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم مجموعاً مؤلفاً على .

ما هو عليه الآن ، وكان يدرس ويحفظ جميعه فى ذلك الزمان حتى عين جماعة من الصحابة بحفظهم له ، وأنه كان يعرض على النبى صلى الله عليه و سلم و يتلى عليه ، وأن جماعة من الصحابة مثل عبد الله بن مسعود ، وأبى بن كعب ، وغيرها ختموا الفرآن على النبى صلى الله عليه وسلم عدة ختمات » .

وكل ذلك يدل بأدنى تأمل على أنه كان مجموعاً مرتباً غير مبتور ، وإن. من خالف ذلك من الإمامية والحشوية لا يعتد مخلافه . وإنى أشهد القارىء السكريم أبى كنت أقرأ تلك الأقوال المنسوة إلى ذلك الإمام الجليل وبدنى . يقشعر حتى وجدت من العترة المحمدية من يزيل ذلك الفهار ، ويطفى نيران . ذلك الشك ، ويزيل ذلك الريب من الأثمة فى الماضى وكثيرين من إخواننا الاثنا عشرية فى الحاضر .

## فقه الإمام جعفر

لا نستطيع في هذه العجالة أن نخوض في فقه الإمام جعفر ، فإن أستاذ. مالك وأبي حنيفة وسفيان الثورى ، وسفيان بن عبينة ، لا يمكن أن يدرس فقهه في مثل هذه الإلمامة ... والفقه له مصادر وموارد ، وآراء وأدلة ومناهج ، فلا يمكن أن تدرس إلا حيث ببسط القول ، ويرخى للقلم فيها حتى يصورها واضحة نيرة .

ونقول هنا أنه كان يأخذ بكتاب الله تعالى ، وله بصر نافذ فى فهده ، واستخراج كنوز الفقه من عباراته ونصوصه ، وكان يأخذ بالسنة . ويدعى إخواننا الإمامية أنه ما كان يأخذ إلا بما يروى عن أهل بيته . وقد أثبتنا بالأدلة الناريخية فى كتابنا « الإمام زيد » وفى بحثنا الوجز عنه أن آل البيت لم يكونوا مقطوعين عن الصحابة والتابعين ، وأن الإمام علياً زين العابدين كان ينشى مجالس التابعين والصحابة فى عهده ، ومكانته بين المسلمين عامة وآل البيت خاصة مكانة المكرم والإمام المنفرد بالإجلال .

وإذا لم يسعفه نص من كتاب أو سنة أكان يأخذ بالرأى ؟ إنه كان يأخذ بلا ريب بالرأى . ولكن أكان رأيه المصلحة فيها لا نص فيه ، أم حكم العقل ، أم كان رأيه القياس ؟ يظهر أنه ما كان يأخذ بمنهاج القياس ، بل كان يأخذ بالمصلحة أو العقل حيث لا نص . وذلك لأنه يروى أنه في أول لقاء بيغه وبين أبي حنيفة بالمدينة جرى بينهما حديث جاء فيه « يا نمان حدثني أبي عنجدى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : أول من قاس أمرالدين برأيه إبليس ، قال تعالى له : اسجد لآدم ، فقال : أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين ، فمن قاس الدين برأيه ، قرنه الله تعالى يوم القيامة بإبليس لأنه اتبعه بالقياس » .

وفقه المدينة كان الرأى فيه عند عدم النص يقوم على المصلحة ، أو تغلب عليه المصلحة ... حتى أن ربيعة الذى اشتهر بالرأى لم يكن الرأى عنده إلا المصلحة . ولذلك نقول إن الإمام الصادق ، إذ ترك القياس ، أخذ بفقه المصلحة التى يحترمها الشارع عند عدم وجود نص . وهذا يتفق مع حكم المعلل ، فحم المعلل يقضى بأن ما فيه ضرر يترك ، وما فيه منفعة يؤخذ . وقد كان يأخذ بالإجماع ، وفي الجملة ففقهه الثابت منهاجه قريب من منهاج السنة والله تعالى أعلم .

# بيان ما يشتمل عليه الكتاب

٣ \_ الإفتناحية .

٥٠ تميد . ٦٠ الاجتماد . ٧٠ أدوار الاجتماد .

٨ ـ (١) الاجتماد فى عصر النبي صلى الله عليه وسلم .

٨- الاجتهاد في عصر النبي صلى الله عليه وسلم في نطاق جيد . اجتهاد النبي الله عليه وسلم في شئون الشرع يؤيد بالوحى إن كان صواباً ، وينبه إلى الخطأ إن لم يكن كذلك . • ١ - اجتهاده في شئون الدنيا . • ١ - فرض أن النبي صلى الله عليه وسلم يخطىء في القضاء يكون في معرفة المحق من الحصوم ، لا في أصل الحكم . • ١ - لم يعلم أن النبي صلى الله عليه وسلم أخطأ في قضية ، ولم ينبه من الوحى إلى الحق فيها .

## ١٣ - (٢) الاجتهاد في عصر الصحابة

۱۳۰ ــ اتساع الدولة الإسلامية بعد النبي صلى الله عليه وسلم . ۱۳ ــ ضرورة الجتهاد الصحابة . ۱۹ ــ اجتهادهم فى أرض سواد العراف . ۱۹ ــ منهاجهم . فى الاجتهاد . وأتجاههم إلى الرأى إن لم يكن نص . ومعنى الرأى عندهم .

١٨٠ - اشتهار بعض الصحابة بالرأى . والرأى الذي كان يتبعه عمر في إدارة الدولة الإسلامية هو المصلحة ، وفي القضاء كان يأمر بالقياس . ١٩ - إكثار بعضهم من الرأى ، وتحفظ بعضهم عند الأخذ به . ١٩ - رأى الصحابة قريب من فناوى الرسول . خطأ بعض القانونيين في ادعائهم أن بعض الصحابة كان يترك الحديث ويأخذ بالرأى والمصلحة . ٢١ - خطأ بعض القانونيين في تولهم إن المتمسكين بالأثر محافظون ، وغيرهم مجددون . ٣٣ - المصادر الفقهية في عهد الصحابة .

٣٧ - هي الـكتاب والسنة والرأى بشعبه . ٢٧ - كتابة السنة . طرق اجتهادهم . ٧٧ - اختلاف .
 ١١ - الشورى وموضوعها من الاجتهاد . وجود الإجماع . ٣٧ - اختلاف . السحابة في تمرات الاجتهاد . أسباب الاختلاف . اختلافهم في فهم بعض النصوص . ٢٧ - اختلافهم بسبب الرأى ، أمثلة من هـــذا الاختلاف الأخير . نتائج هـــذا .
 ١٤ - الختلاف الطبية .

### ٣١ ـ (٣) الاجتماد في عصر التابعين

٣٦ - عمل التابعين في المروة التي تركها المجتهدون من الصحابة ، جمعهم له ـــذه . المروة ، وجمعهم لأحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم . ٣٧ ــ إقامة أكثر المتابعين بالمدينة في أول المصر الأموى . ٣٣ ــ فقه الرأى ، وفقه الأثر في عهد التابعين . ٣٤ ــ الرأى في العراق . التابعين . ٣٥ ــ الرأى في العراق . والحديث ــ الفرق بين المدرسة الفقهية في العراق والمدرسة الفقهية بالمدينة . ٣٧ ــ من يتبعه التابعون في العراق من الصحابة ، ومن يتبعه أهل المدينة .

٣٨ ــ الإجماع وأقوال الصحابة . ٣٩ ــ ما يتفق عليه الصحابة يكون إجماعا ، . ويعد هو حجة ــ وما يختلفون فيه يكون قول الصحابي حجة .

٠٤ - أسباب حجية قول الصحابي .

٤٠ ــ الأكثرون يقبلون قول الصحابى على أنه سنة . ٤١ ــ ما لك رضى الله عنه كان .
 يقدم أحياناً قول الصحابى على بعض الأخبار الغربية ــ على أنه سنة .

## ٤٧ - (٤) الفقه في عصر الأُنَّة الجَهْدِين

٧٤ - الاجتهاد فى عصر تلاميذ النابعين . امتياز كثيرين من هؤلاء النلاميذ ، الفقهاء السبعة بالمدينة وتراجم موجزة لهم . ٤٤ - المكذب على الرسول صلى الله عليه وسلم فى آخر عهد النابعين . وضرورة تنقية الرواية الصحيحة لمن جاء بعدهم . أسباب الجرأة على المكذب . ٤٦ - تمحيص الرواية باشتراط عدالة الرواة . ومعرفتهم . ٤٨ - الإرسال فى عهد تابعى النابعين .

٤٩ ــ الإرسال عند الشافعي . الإرسال عند أحمد بن حنبل رضي الله عنهما .
 ٤٩ ــ الإفتاء بالرأى ، اختلاف الرأى قوة وضعة أ باختلاف الحبتهد بالرأى .

## ٧٥ ـ فقه الشيعة والحوارج

### ٥٢ -- الفرق السياسية

٧٠ - الشيعة أفدم الفرق السياسية . ٥٠ - من يحملون اسم الشيعة من محل. مختلفة ، وفيهم المنحرف عن العقيدة - من المنحرفين البيانية .
 ٥٥ - الحطابية - الفرق التي لم تخرج عن الإسلام . ٥٥ - المكيسانية .
 ٧٥ - الإثنا عشرية والإسماعيلية . ٧٥ - المخوارج - فرقهم .
 ٥٥ - الفرق التي لها فقه من الشيعة والمخوارج: الاثنا عشرية . الزيدية . الإباضية .
 ٧٠ - الفرق الاعتقادية . وإشارة إلى كل فرقة بكلمة تعرفها .

### ٣٢ ـ الاختلاف في الذاهب

**۲۲ ـ سبب الاختلاف . ۲۳ ـ مدى الاختلاف .** 

ع. - الاختلاف حول السكتاب . ٢٦ ـ الاختلاف حول السنة .

٣٦ ــ اختلاف الشيعة حول السنة .

٦٨ ــ وجهة النظر بعد الشيعة بالنسبة للسنة ـــ مرويات على .

٦٩ ــ الاختلاف حول الرأى ــ الاختلاف حول القياس :

٧٠ ــ الاختلاف حول المصلحة . ٧٠ ــ الرأى والنصوص .

٧٣ ــ الخلاف حول الإجماع ـــ الإجماع في المقررات الشرعية ايس موضع خلاف ..

٧٤ ــ المخلاف في غيرها هو مواضع الخلاف .

٤٧ ــ الإجماع السكوتي ، والخلاف حوله . ٧٦ ــ الخلاف في الإجماع ,

المركب . ٧٧ ــ المخلاف حول من يتألف منهم الإجماع .

٧٨ ــ إجماع أهل المدينة والاختلاف فيه .

#### ٨٠ ــ فتوى الصحابي والتابعي

٨ - الأئمة الأربعة من فقهاء الأنصار يأخذون بقول الصحابى على أنه حجة
 -- الاختلاف في النقل عن الشافعي بالنسبة لقول الصحابي .

٨١ ــ الأخذ بأقوال الصحابة كان سيباً من أسباب الاختلاف .

٨٣ \_ قول التابعي .

٨٤ ــ الإمام أحمد وحده يأخذ بقول النابعي ، ويقدمه على القياس .

## ه ٨ ــ الاختلاف المذهبي وأثره

٨٠ تكون المدارس الفقهية ـ منع انباع أقوالهم على أساس أنها لاتقبل الخطأ ـ فتح الفرائح للاستنباط .
 ٨٧ علق باب الاجتهاد عند بعض أصحاب الذاهب .

## ٨٨ \_ مقاصد ألأحكام

. ٨٨ ـ من مقاصد الأحكام الشرعية تهذيب الفرد .

٨٨ ـ إقامة العدالة في الجماعة الإسلامية ، فيها ومع غيرها .

٩ - العدالة القانونية والعدالة الاجتماعية والدولية .
 ٩ - العدالة مع المرأة .

٩٢٠ ـ مراعاة المصلحة في الأحكام الاسلامية .

#### ٩٣ ــ المسلحة المطلوبة في الإسلام

٩٣ - المحافظة على الدين والنفس ومؤداها . ٩٥ - المحافظة على العقل المحافظة على الله . ٩٥ - مراتب المصالح .

عى مسن الضروريات ـــ مرتبة الحاجيات . مرتبة النحسينيات أو

١٠٠ سالمصلحة في الواجبات . ١٠١ سالمصلحة في المندوب والمباح ــ الفرق
 بين المصلحة في الواجب والمصلحة في المباح : ١٠٢ المفاسد في المنهيات وكفارتها .

١٠٤ ـ رفع الحرج .

١٠٤ ــ حال النعارض بين المصالح والمفاسد ووجود ضيق وحرج .

١٠٥ ــ المترخيص في تناول المحظورات ـــ المحرم لذاته ، والمحرم لغيره .

١٠٧ - لاتكليف إلا بما يستطاع . ١٠٧ - طلب السهل اليسير الذي لا إثمر

فيه ــ منع إرهاق النفس .

## الاجتهاد

١٠٩ ــ تعريف الاجتهاد ، وبيان السكامل والناقص منه .

١١٠ ــ الاجتمادالكامل ـــ شروطه ـــ العلم بالعربية . ١١١ ــ العلم بالقرآن.

١١٢ ــ العلم بالسنة . ١١٣ ــ معرفة مواضع الإجماع . ١١٥ ــ معرفة أوجه

القياس . ١١٥ ــ معرفة مقاصد الأحكام . ١١٧ ــ سلامة القهم .

١١٨ ــ صحة النية وسلامة الاعتقاد . ١١٩ ــ مكانة الاجتهاد فى الإسلام .

### ١٢٠ ـــ مراتب الاجتهاد

١٢٠ ــ المجتهدون في الشرع ومراتبهم ـ

١٣٧ ــ المرتبة الأولى المجتهدون المستقلون . ١٧٣ ــ أصحاب الأئمة وانطباق

هذه المرتبة عليهم . ١٧٤ ـ الاجتهاد في هذه المرتبة أهو مفتوح أم لا ـ رأى.

الحنابلة وجوب فتحه . ١٢٥ ــ الشيعة يقررون أن هذا الباب مفتوح .

١٢٦ -- المجتهدون المنتسبون -- التعريف بهم .

١٢٧ ـــ المجتهدون في المذهب ـــ المجتهدون المرجحون ١٢٨ ــ طبقة المستدلين.

١٢٩ ــ الطبقات المقلدة ــ طبقة الحفاظ . ١٣١ ــ المتبعون .

١٣٢ ــ تجزئة الاجتهاد، والاختلاف في جوازه .

١٣٤ ــ الإفتاء: شروطه. ١٣٥ ــ المنتى المجتهد ــ الاختيار من المذاهب.

١٣٧ — مايجب أن يلاحظه المتخير . ﴿ ١٣٨ — بجد أن يأخذ المهني بما أفقى

به ـــ مكانة الإفتاء .

# ١٤١ \_ أبو حنيفة

١٤٥ - نسبه - أبوه وصلنه بالإمام على كرم الله وجهه .

١٤٥ - نشأته بالكوفة - حال العراق في عهده - نشأته في التجارة .

١٤٥ - أنجاهه إلى العلم ، وسماعه من العلماء ، مع اختلافه إلى السوق - أنجاهه إلى علم الكلام واختلاف الفرق . ١٤٦ - أنجاهه إلى اللقه .

١٤٥ - انصرافه إليه . ١٤٥ - اتصاله في طلب الفقه بشيوخ مختلفين .
١٥٥ - لزومه شيخا من شيوخ الفقه .
١٥٥ - جلوسه للدرس والافتاء - كثرة تجاربه . ١٥٧ - قدرته الجدلية .
١٥٥ - أبو حنيفة المربى الحركم . ١٥٥ - مكانة تلاميذه عنده .
١٥٥ - أبو حنيفة المربى الحركم . ١٥٥ - رسالته في العالم والمتعلم .
١٥٥ - أبو حنيفة المربى الحركم . ١٥٥ - رسالته في العالم والمتعلم .
١٥٥ - أبو حنيفة المربى الحركم . ١٥٠ - حضور بديهته . ١٦١ - مناظراته .
١٥٥ - إخلاصه . ١٦٥ - حضور بديهته . ١٦١ - مناظراته .

١٦٣٠ - معيشته - كان فى بحبوحة من العيش .
 ١٦٤ - أبو حنيفة الناجر وتقواه فى تجارته .

١٩٦٠ — موقفه من سياسة عصره ، نزعته العارية من غير تشيع — وصلته بالإمام رزيد بن على . ١٩٨٠ — تعذيب الأمويين له — خروحه من الكوفة فارا ومجاورته لبيت الله تعالى — التقاؤه بأول الحلفاء من بنى العباس وخطبته أمامه باسم العلماء . ١٩٦٠ — ولاؤه للعباسيين ، ثم نفمته عليهم لقة لهم للعلويين ١٧٠ — ترصد أبى جعفر المنصور له ، وفتاويه التي لايرضي عنها الحليفة . ١٧٧ — اختلافه مع ابن أبي ليلي قاضي المنصور . ١٧٧ — عرض القضاء عليه ورفضه . أمر المنصور مجبسه وتعذيبه — موته .

١٧٤ \_\_ فقه أبي حنبفة:

. ١٧٥ ... منهاجه الفقهى: كلامه فى ذلك . ١٧٥ ... اعتباده على نصوص المكتاب والسنة والأخذ بأقوال الصعابة ثم القياس .

١٧٦ \_\_ الاستحسان عنده \_\_ الإجماع .

. ١٧٨ \_ السمة الواضحة لفقهه .

. ۱۷۸ - السمة المتجارية فى فقهه . ۱۷۸ - اعتباره العرف التجارى الذى لا المراة الماقلة لا المراة الماقلة الحر . ۱۸۱ - حكمه بأن المراة الماقلة حرة فى اختيار زوجها . ۱۸۷ - لاحجر على عاقل عنده . ۱۸۶ - لا عنع مالك من التصرف فى ملكه . ۱۸۶ - منع الوقف .

## ١٨٥ ــ نفل مذهب أبى حنيفة :

١٨٥ - نقل فقهه بعمل تلاميذه ١٨٦ - نقل أبى يوسف لفقهه . نقل محمد
 ابن الحسن الشيبانى . ١٨٧ - كتب محد بن الحسن .

١٨٧٠ — نمو المذهب الحنفي :

- ١٨٨ - البلاد الق ذاع فيها المذهب الحنفي .

## ١٨٩ \_ مالك

١٩٢٠ ـــ مولده ونسبه ونشأته ـــ ولادته من أبوين عربيين ، ولاؤه لبنى تيم بن مرة القرشيين . ١٩٤ ــ بيته بيت علم ـــ حال المدينة في عصره .

١٩٤ \_ طلبه العلم:

١٩٤ - تنقله في مجالس العلماء ... ثم ملازمته لبعض العلماء.

١٩٥٠ ــ جده في طلب العلم: ١٩٥ ــ العلوم التي طلبها . ١٩٦ ــ علم الحديث وفتاوى الصحابة . ١٩٧ ــ تلقبه عمن يوثق بهم .

. ۱۹۹ .... شیرخه . ۲۰۲ ... در استه لفقه الرأى .

وفتاویه ، وتخصیص آیام لکل منهما . ۲۰۸ — مجلسه فی درسه . ۲۰۸ — حدیثه وقتاویه ، وتخصیص آیام لکل منهما . ۲۰۸ — الواقدون إلی المدینة فی موسم الحج بحضرون دروسه ، ویلجئون إلیه فی الافتاء .

٢٠٩ ــ صفات مالك.

۲۱۰ ــ قوة حافظته . ۲۱۱ ــ جلده وصبره ــ إخلاصه . ۲۱۲ ــ تأنبه-وكر اهمته الجدل .

٣١٣ ـــ علاقة مالك بالقضاة . ينصحهم ولا يتعرض لقضائهم .

٢١٤ ـــ فراسة مالك . ٢١٥ ــ هيبته .

۲۱٦ -- معيشته ورزقه:

٢١٨ ـــ قبوله هدايا الحلفاء دون الولاة ، ووجهة نظره في ذلك .

٢١٩ ــ عنايته عطعمه وسكنه وملسه .

۲۲۰ ـــ علاقته بالحكام:

٢٢٠ ـــ كراهيته للفتن .

٢٧٢ -- محنته وسببها . ٢٢٧ -- اعتذار أبي جعفر النصور له .

٣٣٤ - وفاته ـــ مرضه الذي استمر سنين ، ولم يملنه إلا ساعة الوفاة .

۲۲۲ - آراؤه:

٣٢٧ - آراؤه من السنة . ٢٧٧ - إيمانه بالقضاء والقدر ، رأيه في مرسلب...

السكبيرة . ٢٢٨ ـــ خلق الفرآن ، رأيه في الخلافة .

٣٢٩ ــ يرى الخضوع للواقع مع التوجيه إلى العدالة .

٠٣٠ \_ نقه مالك وحديثه :

٢٣١ ـ استنباطه من السكتاب . ٢٣٣ ـ مرتبة السنة عنده .

٣٣٤ ـ رده بعض الأخبار لخالفته ظاهر القرآن. ١٣٤ ـ عمل أهل المدينة .

ه٣٠ ـ فتوى الصبحاني ـ القياس والمصالح والاستحان عنده.

٧٣٧ \_ الدائع . ٢٣٨ \_ كتبه . ٢٣٧ \_ الموطأ .

و عدد عو المذهب المالكي . وعد انتشاره .

## ه ۲۶ \_ الشافعي

٧٤٨ ــ في تفصحه هذيل ــ تعلمه الرماية ــ جده في طلب العلم بمكة .

٢٥٠ ـ انتقاله إلى مالك بالمدينة . ٢٥٠ ـ أول لقاء بينهما .

٧٥١ ــ ملازمته لمالك حتى موته . توليه بعض الأعمال فى اليمن بعد موت مالك ٠

۲۵۲ ـ محنته . ۲۵۲ ـ اتهامه بأنه علوى .

٢٥٤ ــ عودته إلى العلم ــ نزوله عند حمد بن الحسن ببغداد ، وتلقيه فقه العراقيين.
 بعد فقه أهل المدينة . ٢٥٥ ــ مناظراته للعراقيين .

حودته إلى البيث الحرام \_ دراستـه لآراء العراقيين والمدنيين والموازنة بهنهما ، ووضع قواعد الاستنباط .

٧٥٧ ــ عودته إلى بغداد ، ونشره مذهبه وقواعد الاستنباط ، ثم عودته إلى مكة .

۲۵۸ - مروره ببغداد سنة ۱۹۹ - وإقامته القصيرة .

٢٥٩ \_ عِينه إلى مصر ، وسبب رحلته إلى مصر . ٢٤١ \_ وفاته . وسببها .

: 4-4- 444

٣٧٧ \_ ثناء العلماء على علمه .

٣٦٣ ــ عصره . ٢٦٥ ــ عصر ازدهار العلوم وتسكامل المدارس الفقهية ــ وتدوين العلوم .

۲۲۲ ـ صفات الشافعي : رضي الله عنه .

٧٩٧ ــ قوة الداكرة ، قوة البيان والتعبير الواضح . ٧٤٨ ــ نفاذ البصيرة و الإخلاس. ٧٤٨ ــ مظاهر إخلاسه .

٧٧٠ ــ آراء الشانعي وفقهه :

٠٧٧ - بغضه الاشتغال بعلم السكلام مع علمه بمسائله . ٧٧١ - رأيه في الإمامة - ٧٧٠ - تاريخ المذاهب >

### ۲۷۳ - فقهه :

ع ٧٧ \_ أصول الاستنباط عنده . و ٧٧ \_ المسكتاب والسنة واعتبارها أصلا واحدا وسبب ذلك . و ٢٧٧ \_ السنة ليست في وسبب ذلك . و ٢٧٧ \_ السنة ليست في مرتبة القرآن بالنسبة للعقائد . القرآن لا ينسخ السنة إلا بدليل ولو عملياً من السنة . ٧٧٧ \_ دفاع الشافعي عن السنة أمام منسكري الاحتجاج بها ؟ أو ،أحاديث الآحاد منها ، وحججه في دفاعه . ٢٨١ \_ الإجماع عند الشامعي \_ الإجماع في الأمور التي تعد من علم الدين بالضرورة . ٢٨٧ \_ إنسكار إجماع أهل المدينة وحده . ٣٨٧ \_ أفوال السحابة ، وكلامه في ذلك . و ٢٨٨ \_ القياس . و ٢٨٨ \_ الماقعي هو عمل الشافعي في علم الأصول . ٢٨٩ \_ الإجماع عند الشافعي هو القياس . ٢٨٩ \_ الجاهه بقواعد الشافعي في علم الأصول . ٢٨٩ \_ الجاهه بقواعد الأصول اتجاها عمليا ونظريا .

### ع ٢٩٤ ـ المذهب الشافعي :

٤٩٧ ــ القديم والجديد ــ ما ينهما من تفاوت ، ٢٩٥ ــ كثرة الأقوال فيهما ــ ثمره .
 ٢٩٧ ــ التخريج في المذهب الشافعي ، ٢٩٧ ــ المجتهدون فيه .
 ٢٩٧ ــ انتشار المذهب الشافعي .

## ٣٠ ــ ابن حنبل رضي الله عنه

۳۰۳ ــ مولده ونشأته ونسبه ، أبوه وأمه عربيان من بني عبيان . ۳۰۳ ــ يتمه ، وقيام أمه على تربيته .

#### ٥٠٥ ـ دراسته:

٣٠٣ - أخذه الفقه والحديث عن أبى يوست صاحب أبي حنينة ـــ اتجاهه من بعد. ذلك إلى الحديث .

> ۳۰۷ ـ رحلته فی طلب الحدیث: ۳۰۷ ـ احتماله المصاعب فی ذلك .

٣٠٨ - روايته وجده ، وشعاره « مع الحبرة إلى القبرة ».

## ٣٠٩ ـ أنجاهه إلى اللقه بعد الحديث:

٣١٠ ــ أخذه عن الشافعى . ٣١٠ ــ التقاء الحديث والسنة والآثار في مسائله وفتاويه . ٣١١ ــ علمه بالفارسية . ٣١١ ــ جلوسه للتحديث والإنتاء تهيؤه للنلك. ٣١٣ ــ ذيوع إسمه بالعلم والورع والتقوى . ٣١٤ ــ ما يلاحظ على درس أحمد. ٣١٥ ــ نهيه عن كتابة فتاويه . ٣١٦ ــ أخذه العقائد من كتاب الله والسنة .

#### ٣١٧ ــ الحنة وأسيابها وأدوارها :

٣١٧ - كثرة القول بخلق القرآن وموقف المأمون منها . ٣١٨ ـ اصطهاده مع المدين لايقولون إن القرآن مخلوق . ٣٧٠ ـ ترحيل أحمد مكبلا بالحديد إلى طوس ، موت المأمون وأحمد فى الطريق إليها مكبلا يضرب بالسياط . ٣٧٠ ـ وصية المأمون للخليفة المأمون بالاستمرار فى المحنة . أمر المعتصم له بلزوم داره بعد أن أنزل به من البلاء ما أنزل . ٣٢٠ ـ استمرار الواثق فى الاضطهاد ، وتجديد عنة أحمد حتى سئم الحال فى آخر خلافته ٣٣٧ ـ رأى أحمد فى خلق القرآن . ٣٧٠ ـ توقفه أولا ثم إدلاؤه برأيه . ٣٧٠ ـ معيشة أحمد . ٣٧٨ ـ فقره ، ومعيشته من غلة قليلة لعقار تركه له أبوه . ٣٧٠ ـ توليه بعض الأعمال اليدوية ليأكل من عمل يده ، ونسخه لبعض الرواة ليأكل . ٣٣٠ ـ رفضه عطاء الخلفاء والولاة . ٣٣٠ ـ امتناعه عن الإغناء بأن الأخذ من المخلفاء حرام ، ولكنه كان يتعفف عنه .

#### : 4 معاته :

٣٣٧ ــ قوة حفظه . ٣٣٧ ــ الصبر. ٣٣٨ ــ النزاهة . ٣٣٩ ــ طلب الحلال. ٣٤٠ ــ الاخلاص . ٣٤١ ــ الهبة . ٣٤٢ ــ حسن العشرة . ٣٤٣ ــ آراء أحمد وفقهه . ٣٤٣ ــ رأيه في الإيمان . ٣٤٤ ــ رأيه في مرتـكب

٣٤٠ ــ (راء الحمد وفعهه . ٣٤٣ ــ رايه في الإيمان . ٣٤٣ ــ رايه في مراسله السكبيرة . . . ٣٤٣ ــ رأيه في صفات النسان . . ٣٤٣ ــ رأيه في صفات النسات العلمية ـــ إلتزامه في العقائد المنقول عن النبي صلى الله علمية وسلم

٣٤٧ ـ آواءه في السياسة .

٣٥٠ ـ حديث أحمد وفقهه :

١٠٥٠ ــ إنكار بمض العلماء أنه كان فقيها ، ووجهته والرد عليه .

٣٥١ ـ اعتماده في فقهه على الحديث . ٣٥١ ـ المسند . ٣٥٧ ـ جمه .

٣٥٣ ـ الترتيب لم يكن لأحمد ، بل لابنه عبدالله . ٣٥٣ ـ طريقة ترتيب المسند.

٣٥٤ ـ هل في المسند ضعيف.

٣٥٦ ـ فقه أحمسد : رضي الله عنه

٣٥٦ ــ الأصول التي قام عليها فقه أحمد . ٣٥٨ ــ الاختلاف بينه وبين الشافى في المنهاج . ٣٥٨ ــ أحمد يقدم المرسل والضعيف الذي لم يثبت كذبه على القياس . ٣٥٩ ــ الإجماع ومراتبه عند أحمد .

٣٦٠ ـ القياس عند الحنابلة ومعناه . ٣٦١ ـ المصالح والأخذ عند الحنابلة .

٣٦٣ ـ الاستحسان . ٣٦٣ ـ الدرائع ، وتوسع المذهب الحنبلي في الأخذ بها ، والأمثلة على ذلك .

٣٦٧ ـ تمو المذهب الحنبلي :

٣٦٧ ــ نقل تلاميذ أحمد للمذهب . ٣٦٨ ــ الأقوال في المذهب .

٣٦٩ ـ نمو المذهب ـ التخريج فيه . ٢٧٠ ـ خصوبة أصوله .

٣٧٧ ــ الحنبلية وانتشار المذهب :

٣٧٣ - سبب اشتهار المذهب بالنشدد . قلة انتشاره .

## ٣٧٤ - المذهب الظاهري

٣٧٥ ــ أساس هذا المذهب الأخذ يظواهر النصوص فقط.

٣٧٥ ـ المنشىء الأول داود بن على الأصبياتي .

٣٧٥ – ميلاده – تلمذته لتلاميذ الشافعي وإعجابه به . وانتقاله إلى الأخذ بالظاهر.
 ٣٧٦ – إحاطة علم داود بالأحاديث . ٣٧٨ – نفور العلماء منه ، وجرأته قى إعلان آرائه . ٣٧٨ – نشره لمذهب إعلان آرائه . ٣٧٨ – نشره لمذهب للظاهرية . ٣٧٩ – أسباب نشره زمناً في القرنين الثالث والرابع .

٣٨٠ ـ المذهب الظاهري بالأندلس.

٣٨٣ - المؤسس الثاني للمذهب الظاهري - ابن حزم :

٣٨٣ - مولده ونشأته . ٣٨٥ - بيته بيت راء وجاه . ٣٨٥ - انتقاله من الرخاء إلى الشدة . ٣٨٩ - انتقاله بسياسة عارضة . ٣٨٩ - عودته إلى محراب العلم .

٠ ٩٩ ــ مميشته .

. ٣٩ ـ كان ثرياً مع ذهاب أكثر ثروته في الاضطهاد ــ رحلاته .

. ٣٩٦ ـ مناظراته ـ تحريض الأمراء عليه . ٣٩٣ ـ إحراق كتبه .

٣٩٤ - سبب اصطهاده . ٣٩٥ - اصطراره إلى الإقامة بمزرعته وإقبال الشباب عليه مع بعده .

٣٩٦ ـــ سفات ابن عزم :

٣٩٧ - حافظته الواعية . ٣٩٧ - إيمانه بأن المواهب هبة من الله .

٣٩٨ - إخلاصه . ٣٩٨ - حداله وسبيها . ٣٩٩ - صراحته .

۲۰۱ ـــ اعتزازه بنفسه ، وأسباب ذلك ، ومظاهره

٠ ٢٠٤ ــ ذوقه الأدبي .

٤٠٣ ـــ علومه:

. ٣٠ ع ... انساع آفاقه .

ع. ع ــ منهاجه العلمي . ح. ع ــ منهاجه في العقليات.

٠٧٠ع ـــــ دراساته النفسية والخلقية . • ٤٩ ـــ أخذه من فلاسفة اليونان جمع

في الأخلاق بين النقل والمقل . يه . ع ــــ كتابه طوق الحامة ، وما فيه من

ودراسات نفسية .

١٧٤ -- منها- في دراسته المنقول .

١٢٤ ــ منهاجه بالنسبة للعقيدة . ١٣٥ ــ كلامه فى الوحدانية والجبر والاختيار ..
 ١٤ ــ كلامه فى المتشابه . ١٤٠ ــ آراؤه فى السياسة .

۱۲۶ - طرق اختیار الحلیفة فی نظره ، ۱۷۷ - رأیه فی مرتکب السکبیرة ...
 ۱۹۵ - فقهه :

-------١٩٤ ــ أدلته في إبطال الاجتهاد بالرأى ــ ومناقشة قصيرة لها .

٤٢١ ـ أدلة الأحكام عند ابن حزم:

٤٢١ ــ الكتاب . ٤١٧ ـ بيان القرآن .

٤٧٤ – السنة . • ٤٧٤ – أقسام السنن . ٤٧٩ – المتواتر من السنة وغير المتواتر . ٤٧٨ – الفرق عنده بين المتواتر . ٤٧٨ – الفرق عنده بين الرواية والشيادة .

### ٣٠ ـ تعليل النصوص :

٤٣٢ ـ ينقى ابن حزم تعليل النصوص، أدلته على ذلك ومناقشتها .

٤٣٢ ــ الاستصحاب والإكثار منه ، وما أدى إليه .

٣٣٤ ــ خاتمة في فقه ابن حزم . ٢٣٤ ــ نشر المذهب ونقله .

٢٣٦ ـ الذهب بعد ابن حزم . ٢٣٧ ـ نشر الموحدين للمذهب الظاهرى.

وإحراق كتب المذهب المالسكي .

## ٤٤٢ - ن تيمية

عه على مولده و نسبه ـ ولادته بحران ، وانتقلت أسرته به إلى دمشق فراراً من النتار .

٣٤٤ ـ نشأته : ومظاهر نجابته في صغره . ٤٤٥ ــ البيئة الأولى الق وجهته . ٢٤٤ ــ إتيانه بآراء لم يألفها العلماء ، وإن كانت من السنة ــ اختلاف الناس فيها . ٤٤٩ ــ تقسيمه دروسه

اللعامة والخاصة . • • • • ي رسالته الحموية .

. ٤٥١ ـ محنة الشبيخ ٠ - ٤٥٧ ـ شكوى العلماء منه .

٣٥٤ ـ المحنة الأولى : •

٣٥٥ ـ سبب هذه الحمنة ـ الرسالة الحموية . ٤٥٥ ـ زجه في السجن واستمراره "مانية عشر شهراً . ٣٥٥ ـ طلب حضوره لمجلس العلماء وامتناعه ، وحضور أخويه بالنيابة عنه وخروج الشيخ بعد مناقشة أخويه . ٣٥٥ ـ ثبات مركزه . عند السلطان ، وصفحه عن العلماء .

وحدة الوجود . وه عاكمته ونصر العلماء له وسبب ذلك . وجدة الوجود . وه عاكمته ونصر العلماء له وسبب ذلك . وجدة الحالم الإسكندرية . وجدته إلى القاهرة مسكرما بعد ان عاد الحسكم إلى الناصر قلاوون . وجد اعتداء بعض العامة عليه ، وجد عودته إلى الشام .

٤٢٤ ـ آنجاهه إلى الدراسات الفقهية ـ وترجيحه مذهب أحمد على غيره .
 ٤٣٤ ـ امتناعه عن التعصب وتخيره من المذاهب .

#### : عثالثا عنطا \_ وحم

- ٢٦٧ \_ سببها فتواه في الطلاق الثلاث ، وأعان الطلاق .

٧٣٤ ــ المحنة الأخيرة ــ سببها كلابه فى زيارة الروضة ، والاستغانة بالنبي صلى الله عليه وسلم .

٩٣٤ ـ اعتقاله . ٩٣٥ ـ تألم علماء المسلمين لاعتقاله . ٧٠ ـ انصرافه في السجن لقراءة القرآن ، وكتابة تفسيره ، وتدوين آرائه . ٧١ ـ شدة التغييق عليه ، ومنع الكتب والقرطاس والقلم عنه . ٧١ ـ وقاته في محبسه .

٤٧٤ ــ صفيانه : حافظته ، وعمق تفكيره وحضور بديهته .

. ٤٧٥ \_ استقلاله المسكري وإخلامه في طلب الحق .

٧٠٤ ــ نصاحته وشجاعته .

٤٧٧ – من محراب العلم إلى ميدان الحرب ــ حربه للتتار مع جيشالناصر قلاوون . ـ

٨٧٨ ــ لقاؤه بقازان وفكه أسرى المسلمين والنميين .

٤٧٩ ـ توليه أمردمشق في وقت ذعر الحـكام والناس . ٤٧٩ ـ عودته للجهاد.

٤٨١ – محاربته للنصيرية وإنزالهم من الجبال ، وحملهم على النوبة .

٤٨٣ – عصر ابن تيمية : الحال السياسية . ٤٨٤ – ما ابتلي به المسلمون.

في القرن السادس والسابع والثامن . ٤٨٦ ــ الحال الاجتماعية .

4AA - الحال الفكرية . 4A9 - الدراسات العلمية . 491 أ ـ الصوفية والمتصوفة . 491 منزلة العلماء . 492 ـ كلام محيى الدين النووى للظاهر . بيرس .

# ١٩٩ – الإمام زيد

٠٠٠ ــ نشأته وبيته ، نبذه عن أبيه على زين العابدين .

٠٠٠ ــ ولادة الإمام زيد ونشأته . ٧٠٥ ــ روايته علم آل البيت .

٠٠٧ ــ انصرافه للعلم الاسلامي في شتى نواحيه .

### • • • زيد في ميدان العمل:

هـ20 ـ الدولة الأموية ، والدعوات الشيعية ـ تحريض هشام بن عبد الملك الولاة: على الامام زيد . . . . . . . . إحراجه له في مجلسه .

٨٠٥ - الحروج على هشام بن عبد الملك ، وتربس هشام به .

١٥ ــ المركة والاستشهاد . ١٧٥ ــ بعد المعركة ــ نبش قبره وحرق جثمانه عدد وانتقام الله بإخراج جثة هشام وحرقها .

#### ١٤٥ ـ صفات زيد:

١٤٥ ـ إخلاصه . ١٤٥ ـ مماحته وعدوه ، شجاعته . ١٧٥ ـ إباؤه ..

۱۸ - فساحته . ۱۹ - سقوة فراسته . هيبته .

٥٧١ ـ آراؤه فى السياسة . ٧٧٥ ـ مراتب الصحابة فى نظره . إمامة المفضول فى نظره . و ١٧٥ ـ الأثمه غير معصومين . ٧٣٥ ـ الامامة بالاختيار من أولاد على من فاطمة ، وليست بالوراثة .

٥٢٥ ــ آراؤه فى أصول الدين . مسألة مرتكب السكبيرة . ٢٦٥ ــ رأيه فى الجير والاختيار والقدر .

٣٧٥ ــ التلازم بين الارادة والأمر عند المتزلة ومخالفته لهم .

١ ١٩٥٠ - فقهه :

٥٢٥ ــ المدون الذي جمع فقهه وصحة نسبته إليه وهو كتاب المجموع . التشكيك فيه.
 ٥٣٥ ــ رده وجوه الرد . ٥٣٧ ــ كيف دون المجموع .

٥٣٣ ــ ظواهر عامة في فقه زيد .

روايته من آل البيت . ه٣٥ - تصحيح الزيدية لكل ما جاء في كتب السنة . قرب نقه الزيدية من فقه السنة . ٥٣٥ - منهاجه - الفقه ازيدى بعد الإمام زيد . ٥٣٥ - الاجتهاد في المذهب الزبدى - الهادى إلى الحق يحيى بن الحسين وعمله واجتهاده - فرقة الهادوية الزيدية - الناصر الكبير وعمله في الفقه الزيدى ، البلاد التي سادها المذهب .

### ٥٥٥ ـ الإمام الصادق

٥٤٥ ــ بيته ــ أبوه وأثره العلمي فيه ، وفى عصره

٥٤٧ ــ أم جعفر حفيدة أبى بكر الصديق .

. ٥٥ ـ أخذه عن القاسم بن محمد جده أبى أمه . . ٥٥٥ ـ مات أبوه بعد أن نضج . ١٥٥ ـ التقاء أبى حنيفة به وإجلاله له .

١٥٥ - علمه بالكونيات - وصلنه برسائل لجابر بن حيان ، ونسبة رسائله إلى
 الامام الصادق .

٥٥٤ - كلام للامام الصادق في الكونيات - ابتداء دراسة الماوم الفلسفية والكونية في عصر .

#### الجفـــر

٥٥٥ ــ معناه ــ ادعاء علم الغيب للصادق ومناقشة ذلك . ٥٥٥ ــ الشك فى كلام من يسند الجفر أو علم الغيب للصادق . ٨٥٥ ــ رأينا بطلان نسبة الجفر وعلم الغيب إلى الصادق وأدلتنا .

وه حجفر یفیض بعلمه علی معاصریه .
 وایة أبی حنیفة ـ جملة من رووا عنه ـ بطلان قول من شکوا فی روایته .

٥٦١ - جعفر والسياسة: ابتعاده عن سياسة عصره . ٥٦٧ - أسباب امتناعه عن السياسة .

٣٦٥ - امتناعه عن الاعتفال بالسياسه العملية لا يمنع أن له رأياً في السياسة .
 ٣٦٥ - الدعاء لآل البيت ، ونسبتهم آراء للامام الصادق - انحراف بعض الدعاة - أقوالهم الباطلة .

٥٦٥ ـــ الحطابية وأفوالهم الباطلة وبراءة الصادق منهم ولعنهم .

٥٦٦ -- محاولتهم إفساد الاسلام على أهله .

٥٦٧ ـــ العلاقة بين الصادق وأبى جعفر المنصور · ممره ـــ حرص الصادق على قول الحق إذا طلب منه ·

٥٧٠ -- صفات الصادق.

١٧٥ – إخلاصه · ملازمته العبادة – وتقشفه · ٧٧٥ – عدم مخالفته أحدا فى قول الحق · ٧٧٥ – نفاذ بصيرته . ٣٧٥ – سخاؤه وحلمه وسماحته .
 ٥٧٥ – جلده وصبره · ٥٧٥ – شجاعته . ٣٧٥ – فراسته وهيبته .
 ٨٧٥ – آراؤه .

٧٧٥ ـــ كلام له فى النوحيد ، ورسالته فيه .

٠٨٠ ــ كلامه في القدر .

٥٨١ ـــ القرآن في نظر الإمام .

٨١٥ ـــ كلام بعض لاثنا عشرية افتراءات الـكليني كبير رواتهم.

٨٨٥ ـــ رد المخلصين من الأئمة قوله . صحة النقل عن الصادق .

٥٨٣ - فقه الامام الصادق.

٥٨٣ ـــ أخذه بالفرآن . تركه القياس . أخذه بالمصلحة وحسكم العقل . تقديمه النصوص على المصلحة .

٥٨٥ - بيان ما يشتمل عليه الكتاب.





verted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

